ابراهيم و اوصياؤه

بين الكتاب و السنة وسائر الكتب السماوية

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 7

ابراهيم عليه السلام واوصياؤه (بين الكتاب و السنة وسائر الكتب السماوية) (ج 24)

المقدمة

والحمدلله حمداً كثيراً وصلى اللّه على محمد وآله الاخيار المنتجبين‏في هذا الكتاب تحديثات بالغة منبهة على ضوء القرآن الكريم والسنة المحمدية وسائر كتابات الوحى عن ابراهيم الخليل (ع) ورسل وانبياء و بعده ذوراً عن ساحتهم ما يمس من كراماتهم المعصومة وفيه ذكريات من قصصهم عليهم السلام مع اهل اللّه وغيرهم في حجاجات بارعة بينة تذكرها بدقة واناقة مستوحات من القرآن العظيم. ولاينبئك مثل جيروالسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 8

ابراهيم في حجاجات مع المشركين‏

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26). اذكروا أنتم المهتدون على آثار آباءكم المشركين تقليدا أعمى، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالي بطولات الموحدين ورجولاتهم ضد الآباء المشركين‏ و اذكروا من بين هؤلاء الأكارم‏ إبراهيم‏ وقد تربى في جوّ الشرك على يدي أبيه آزر إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ‏ عصيانا جريئا على جو الشرك رغم أنه تربى فيه، حيث يحاج أباه:

عمه أو جده لأمه-/ حجاجا بالتي هي أحسن فيتغلب عليه! وأنتم دون حجاج مع آباءكم على آثارهم تهتدون! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية؟! وهب إن تقليد الآباء جائز أو يجب، أفليس إبراهيم أكرم الآباء في العرب فلتقلدوه في ترك تقليد الآباء، ثم تقلدوه في أمة التوحيد واتباع الحجة على المحجة التي بها تهتدون! ثم هب إن لتقليد الآباء مبررا لأنهم آباء يحترمون، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة وأقرب وطئة إن تركتموهم؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك ويحملك على ما يريد؟ وإبراهيم مسيطر عليه بأب مشرك يصنع الأصنام، ويهدده في ترك الأصنام، ولكنه يرفض باطل التقليد ولا يخاف ضغط المربي، ويتفجر في وجهه بجدال بالتي هي أحسن سلبا لآللهة وإيجابا للَّه. أم إن للقدمة حرمتها، فالقدامي يحترمون لأنهم قدامي أكثر من الجدد، ولماذا؟ أو لم يكن القدامى قبل ردح من الجدد، أم لا يكون الجدد بعد ردح قدامي، ثم ومن أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليحترم-/ على أقل تقدير-/ لقدمته إضافة إلى حجته! هنالك تقليد مطلق أعمى دون أي‏دليل بإجمال أو تفصيل، ثم تقليد بصير بدليل مجمل، ومن ثم اجتهاد مطلق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 9

أماذا؟ وسبيل الحق هو التقليد بدليله، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله. و كيف يصح للإنسان العاقل أم والمجنون أن يرجح سبيلًا على سبيل دون أي‏دليل؟ وإذا كان سلوك الآباء دليلا وليس به، فما ذا يصنع بآباء مختلفين في سبلهم؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أي‏دليل إلا أنهم آباء، أفليس الآباء الآخرون آباء! ام ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء؟ فما ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟. إبراهيم يتربى في جو ممحض في الشرك، ولكنه لرفضه التقليد وتحرّيه عن دليل يواجه أباه المشرك وهو بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ‏: محض البراءة عن الشرك، حيث البراء مصدر، فهو براءة عن الشرك ومصدر لهذه البراءة، رغم تربّيه في محض الشرك! فإبراهيم البراء مما يعبده هؤلاء ويترأسهم أبوه، لا يتابع أباه ولا يسايره لحظة ولو في ظاهر الحال، إنه محض البراء وصراحه، لا يماري ولا يداري ولا يجاري أباه في لفظة قول، أو لحظة بصر، أو لمحة فعل إلا إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ‏. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27). إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي‏ خلقني وجعل فيّ فطرة التوحيد فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها (30: 30) هذه الفطرة فيها الهداية الإجمالية التوحيدية، ثم الذي فطرني في هكذا سيهدين‏ هداية الوحي تكملة تفصيلية لهدي الفطرة لمن جاهد في اللَّه‏ وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا (29: 69) وبين الهديين هدى متوسطة الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ‏ (26: 78) أترى أنّ ذلك المشرك كان والده والأنبياء هم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة وأيّة دناسة أدنس من الإشراك باللَّه؟ كلّا: إنه كان عمه أوجده لأمه ولم يكن والده، إذ تبرء عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو للَّه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 10

ثم و هو يبني البيت مع ابنه إسماعيل يستغفر لوالده: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ‏ (14: 41) فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوما-/ وهو من أفضلهم-/! لم يكن ليستغفر لأبيه آزر، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر، وإلا كذب كلام اللَّه‏ تبرء منه‏ حيث يبرئه عن ذلك الاستغفار طول حياته. وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28). دون ان يكتفي بحاضر النضال! ترى وما هي الكلمة الباقية في عقبه؟ هل إنها الأولى:

بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ‏؟ ولا تكفي توحيدا للَّه حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى اللَّه! أم هي الثانية: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي‏: عبادة اللَّه؟ وهي دون صلة بالكلمة الأولى بتراء وقد تحمل عبادة اللَّه مع غيره، أم دون نفي مطلق لمن سواه! إذا فهي كلا النفي والإثبات:

كلمة لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏ ف إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ‏ تعني‏ لا إله‏ و إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي‏ تعني‏ إلا اللَّه‏ مزودة بدليل فطري: الَّذِي فَطَرَنِي‏ لا اللَّه‏ فقط، وآخر من هدي الفاطر فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ‏! ولماذا فطرني‏ دون‏ فَطَرَ النَّاسَ‏ كما في آية الفطرة؟ حيث الفطر درجات، منها المستورة بظلم الشرك والضلال، ومنها مشرقة في درجات متوسطة، ومنها ما هي في درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية، إذا فحقّ له‏ فطرني‏. و لأن معنى الإشراك باللَّه هو أن يعبد غير اللَّه مع اللَّه كيفما كانت هذه وتلك ف إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي‏ استثناء متصل ب مِمَّا تَعْبُدُونَ‏ أم وإذا كان منفصلا وعلّه أنسب، حيث إن عبادة اللَّه بين المشركين لا تليق باللَّه، ف لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏ هي المعنية من الكلمتين السلبية والإيجابية وهما كلمة واحدة تامة. و بطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هي الأصوات المقطعة والحروف المنظومة فإنها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 11

لا تبقى وهي‏ كَلِمَةً باقِيَةً ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لو لا واقع المعنى والالتزام بها! وهل الضمير المستتر في‏ جعلها لإبراهيم لا للَّه؟ فهو مصدر الكلام هنا وركنه! وهو القائل‏ إِنَّنِي بَراءٌ ... إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي‏! وهو الموصي بها بنيه: وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ‏ (2: 132)! فقد وصى بها ولده وأمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب وتناسختهم الأدوار! أم للَّه دون إبراهيم؟

حيث الوصية ليست جعلًا، فقد تخالف الوصية الإبراهيمية والجعل الباقي ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواه إلّا اللَّه! وإبراهيم وإن كان مصدر الكلمة هناك، ولكنما الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من اللَّه: فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ‏ فضلًا عمن سواه من عقبه وهو لا يملكهم بعد ألا يملك نفسه! أم المعنيان معا معنيّان، فقد جعلها اللَّه كلمة باقية في عقبه حتما لا حول عنه، ولكن بما زرعها إبراهيم في القلوب بأمر اللَّه، وبما دعى اللَّه‏ وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (14: 35) (رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَك وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ‏ (30: 128) فإبراهيم عليه السلام عمل للَّه ودعى اللَّه في بقاء كلمة التوحيد فجعلها اللَّه كلمة باقية في عقبه:

نسله وذريته، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين. ثم ومن أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد وحملته الأعلون محمد صلى الله عليه و آله وعترته الأطهرون، وإلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا والعصمة الكبرى‏ «1» لا أنها هي المعنية دون سواها، وإنما هي المصداق الأجلى، هم الحملة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 596 ج 23 وفي كتاب علل الشرايع باسناده الى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللَّه‏عز وجل‏ وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ‏ قال: في عقب الحسين عليه السلام فلم يزل هذا الأمر منذ أفضى الى الحسين ينقل من ولد الى ولد لا يرجع الى أخ وعم ولم يتم بعلم احد منهم الا وله ولد، و فيه عن معاني الاخبار عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن هذه الآية قال: هي الامامة جعلها اللَّه عز وجل في عقب الحسين باقية الى يوم القيامة: وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي صلى الله عليه و آله حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير: معاشر الناس القرآن يعرفكم ان الائمة من بعده ولده وعرفتكم أنه مني وأنا منه حيث يقول اللَّه عز وجل‏ كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ‏ وقلت: لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما، وفيه عن المناقب لابن شهرآشوب الأعرج عن أبي هريرة قال سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن هذه الآية قال: جعل الامامة في عقب الحسين وسيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الامة، و في احقاق الحق ج 13 ص 306 العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في ينابيع المودة ص 437 اسلامبول روى حول الآية عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنهم قال: فينا نزلت هذه الآية وجعل اللَّه الامامة في عقب الحسين الى يوم القيامة وان للغائب منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلّا من قوي يقينه وصحت معرفته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 12

الإبراهيميون لكلمة التوحيد، حيث حملوها أعرق وأعمق مما حملها إبراهيم عليه السلام! فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير ها في‏ جعلها وإنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏! المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين! ومن في عقبه الموحدون درجات أعلاهم أئمة التوحيد الأعلون محمد صلى الله عليه و آله وخلفاءه المعصومون عليهم السلام، وكما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين‏ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ‏ (2: 124). و قد تعني روايات الولاية أن‏ ها في‏ جعلها راجعة إلى الهداية الإبراهيمية و فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ‏ الضاربة إلى المستقبل تعني هداية الولاية والإمامة الإبراهيمية، بعد هدايته قبلها بالوحي‏ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ‏ فتلك الهداية المستقبلة باقية في عقبه في مثلث من 1 هدى موسى وعيسى التي علّها كهدي ابراهيم وإمامته، 2 ومن هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأنبياء بني إسرائيل وإسرائيل نفسه وأضرابه، 3 ومن هدي من فوقهم كلهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 13

وإمامته، كالهدى المحمدية صلى الله عليه و آله الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف عقبه‏ يشمل العقب العام: كل من يأتي بعد إبراهيم عليه السلام من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين، ثم العقب الخاص: ذريته من موحدين ومشركين، ثم الأخص:

الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق وإسماعيل، ثم أخص الخاص: الرسول محمد صلى الله عليه و آله وآله المعصومون، و لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ‏ يخص العقب الأول والثاني. و على أي‏الحالين فهذا وذاك من التأويل والتفسير بأعلى المصاديق وأجلاها دون منعة لسعة الكلمة كلّ موحد من نسل إبراهيم إلى يوم الدين-/ و لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ‏ في ترجّي رجوعهم إلى كلمة التوحيد تؤيد الشمول، فإن أئمة التوحيد هؤلاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى توحيد، فلعل‏ هم‏ في لعلهم يخص المشركين ممن في عقبه وسواهم وإن كان الصدر فِي عَقِبِهِ‏ يزهر كأعلى مصداق في صدور المعصومين منهم وبينهما متوسطون أما ذا؟ بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (29). بل‏ هنا إعراض عما علّه يفهم من‏ وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ‏ أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة في عقبه، مندغمة في كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف من قبل ابراهيم، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل وإسحاق وإلى موسى وعيسى ومن بينهم من الرسل وسائر دعاة التوحيد رفعوا مشعله وأناروا مناره دون خمول وأفول اتصالا دونما انفصال. بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ‏ ولكن هؤلاء المشركون حيث متّعوا وآباءهم وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله .. هؤلاء من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 14

العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية وتعرقوا في الشرك، حيث طال بهم العهد ومتعهم اللَّه جيلًا بعد جيل حتى طال عليهم العمر ونسوا ملة ابراهيم، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة .. «حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ» القرآن بعد غروبه زمن الفترة وجاءهم «رَسُولٌ مُبِينٌ» للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق، وكأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين وكلهم في حدّه مبين. فهذا الرسول مبين بنفسه ومبين بكتابه ومبني بمعجزاته، مبين بمن قبله في بشاراته ومبين بشاهد منه في تربياته: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17)!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 15

ابراهيم في حجاجات مع المشركين‏

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73). و تلكم الأكثرية الضالة دائبة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، رغم تواتر الإنذار من المنذرين، فكان ضلالهم معمّدا بعد التحذير والإنذار، «فانظر» نظرا في عمق الغابر «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» المصدقين منهم والناكرين: إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الُمخْلَصِينَ (74). فهم بينهم لم تكن لهم عاقبة إلّا الحسنى، رغم السائرين من مكذبين، او مصدقين قاصرين او مقصرين، حيث نالوا ما قصروا او قصرّوا شطرا في الأولى «ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏»! والاستثناء يعم ضل» و «المنذرين» فإن للشيطان سبيلًا الى غير المخلصين مهما كان لمما أو كبيرة. و من هنا استعراضات وجيزة لعاقبة المنذرين والمنذرين، من مخلصين وسائر المؤمنين أو المكذبين، بادئا بأول المرسلين العظام نوح عليه السلام: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الُمجِيبُونَ (75). نداء وإجابة مهما كان بينهما من بون كما تقتضيه الحكمة الإلهية، ومن ندائه «فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ... وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14) (قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً ... مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً ... وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 16

...» (71: 28) والجمع في «نادانا» و «المجيبون» يعني جمعية الصفات جلالا بسحق الكافرين، وجمالًا بنجاة المؤمنين «فَلَنِعْمَ الُمجِيبُونَ» لمن هو نعم العبد! ... «صدقت ربنا أنت أقرب من دعي وأقرب من يعطي فنعم المدعى ونعم المعطي ونعم المسؤول ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير» «1» وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآْخِرِينَ (78). هذه ثلاث إجابات لما دعا نوح عليه السلام بين نفي لغير أهله وإثبات لأهله، وأهله-/ هنا-/ الآهلون للنجاة، من أهله في النسب وأهله في الإيمان، فلم ينج فيمن نجّي ابنه وامراته وهما أقرب أهله نسبياً، وقد نجّي من آمن به مهما كانوا أبعد عنه في النسب، فإنما الأهل هنا أهل الإيمان، سواء فيهم أقاربه وأغاربه: «قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ» (11: 40) (فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» (11: 46). ترى وإذا كان أهله أعم من ذريته فما ذا تعني «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» وابنه من ذريته و قد هلك، والمؤمنون القلة غير ذريته وقد بقوا؟ فهل هم ذرية الإيمان كما أهله؟ فلما ذا التحول من «أهله» إلى «ذريته»؟ علّها تعني ذرية أهله فإنهم ذريته إيمانيا كما هم أهله: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 278-/ اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه و آله إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية «وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الُمجِيبُونَ» قال: صدقت ربنا ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 17

فلم يكن الباقون بعد طوفان نوح إلّا من انتسل من أهله وذريته المؤمنين وسائر من آمن معه‏ «1». و علّ من آمن معه كانوا هم أو أكثرهم من ذريته، ف-/ «أهلك» في يونس مقابل «من آمن» تعني الأقربين، والآخرون هم سائر ذريته! «2». أم إن المحمولين معه كانوا من ذريته وغيرهم، ولكنما الباقين لم يكونوا إلّا ذريته مهما شملتهم النجاة عن الغرق؟ فلما ذا اختصاص البقاء ببعض المحمولين ولم يختصوا بالإيمان، وعلّ منهم من كان أفضل من ذريته؟ علّهم ماتوا في السفينة فلم تنسل لهم ذرية وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله في روايات عدة، و هي توافق ظاهر آية الذرية. ترى وماذا ترك عليه في الآخرين؟ ومن هم أولاء؟ علّ الآخرين هم سائر حملة الدعوة الرسالية بعد نوح من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه و آله ومن بينهم، وقد ترك اللّه وخلّد دعوته العالمية بين سائر الخمسة الذين دارت عليهم الرحى، فربط بينهم برباط الدعوة الوحيدة الموحدة، أو يعني «تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآْخِرِينَ» ترك الدعوة ضده لمكان «على» وكما ترك عليه سلاما في الآخرين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 405 ح 36 علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: الحق والنبوة والكتاب والايمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح قال اللّه عز وجل في كتابه «احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» وقال اللّه عز وجل ايضا «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ»

(2). الدر المنثور-/ اخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه و آله في الآية قال: سام وحام ويافث-/ أقول وقد اخرج ما في معناه جماعة آخرون عن سمرة وأبي هريرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 18

سَلامٌ عَلى‏ نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآْخَرِينَ (82). فسلام عليه دائب في العالمين إلى يوم الدين دونما انقطاع لذكراه المجيدة الوطيدة الصامدة فإنه أوّل من انتهض في دعوة باهضة فائزة، بمقاساة أشد البلايا والفتن طول الدعوة، فله نصيب من كل خير وسلام إلى يوم القيامة! وإنه سلام من اللّه ومن أهل اللّه «فِي الْعالَمِينَ» من الملائكة والجنة والناس أجمعين أم أيا من المكلفين، «إِنَّا كَذلِكَ» الواسع الفاسح «نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» ف-/ «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ». و انه سلام جزاء الإحسان ل-/ «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ» إيمان السلام والتسليم فله السلام كما سلّم، ومن ثم لمن معه وتابعه «ثم» بعد ما نجيناه وأهله من الكرب العظيم «أَغْرَقْنَا الآْخَرِينَ» وهم غير أهله،: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83). فإبراهيم ممن شايع نوحا في دعوة التوحيد، وفاقه فيها، فقد يشايع الأعلى الأدنى كما الأدنى يشايع الأعلى، أو هما يتساويان، فلا تعني المشايعة لأحد تفاضلا في المشايع عليه، إلا نفس التوافق في سلك واحد، ومن الأدنى شيعة موسى «فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» (28: 15) وشيعة علي عليه السلام، وان شيعة الحق قد تكون متاخرة في الزمان لا في المكانة كإبراهيم بالنسبة لنوح، وقد تتقدم في الزمان وتتأخر في المكانة كالنبيين أجمع بالنسبة لخاتم النبيين، وبهذا الإعتبار يعد إبراهيم في عداد شيعة علي عليه السلام وهذا تاويل‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 20 ح 2 شرف الدين النجفي قال روى عن مولانا الصادق عليه السلام انه قال قوله عز وجل «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» اي ابراهيم من شيعة علي عليه السلام قال ويؤيد هذا التأويل ما رواه الشيخ محمد بن الحسن عن محمد بن وهبان عن أبي جعفر محمد بن علي بن رحيم عن العباس بن محمد قال حدثني أبي عن الحسن بن أبي حمزة عن أبي بصير يحيى بن أبي القاسم قال سأل جابر بن يزيد الجعفي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الآية «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» فقال ان اللّه سبحانه لما خلق ابراهيم عليه السلام كشف له عن بصره فنظر فرأى نورا الى جنب العرش فقال: إلهي ما هذا النور؟ فقيل هذا نور محمد صلى الله عليه و آله صفوتي من خلقي ورأى نورا الى جنبه فقال الهي وما هذا النور؟ فقيل له: هذا نور علي بن أبي طالب ناصر ديني وراى الى جنبهما ثلاثة أنوار فقال الهي وما هذه الأنوار فقيل هذه نور فاطمة فطمت محبيها من النار ونور ولديها الحسن والحسين فقال الهي وأرى تسعة أنوار قد صفوا بهم قيل يا ابراهيم هؤلاء الائمة من ولد علي وفاطمة فقال ابراهيم الهي بحق هؤلاء الخمسة الا ما عرفتني من التسعة فقيل يا ابراهيم أولهم علي بن الحسين وابنه محمد وابنه جعفر وابنه موسى وابنه علي وابنه محمد وابنه علي وابنه الحسن والحجة القائم ابنه فقال ابراهيم الهي وسيدي ارى أنوارا قد أحدقوا بهم لا يحصي عددهم الا أنت؟ قيل يا ابراهيم هؤلاء شيعتهم شيعة امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال ابراهيم وبما تعرف شيعته فقال: بصلاة احدى وخمسين والجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم والقنوت قبل الركوع والتختم في اليمين فعند ذلك قال ابراهيم اللهم اجعلني من شيعة امير المؤمنين قال فأخبر اللّه في كتابه فقال: «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ». وفيه عن تفسير الامام ابو محمد العسكري عليه السلام قال رجل لعلي بن الحسين يا ابن رسول اللّه انا من شيعتكم الخاص فقال له يا عبد اللّه فإذا أنت كإبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال اللّه تعالى «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ. إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» فان كان قلبك كقلبه فأنت من شيعتنا وان لم يكن قلبك كقلبه وهو طاهر من الغش والغل والا فانك ان عرفت ان بقولك كاذب فيه انك مبتلى بفالج لا يفارقك الى الموت او جذام ليكون كفارة لكذبك هذا، أقول و فيه روايات اخرى مفصلة في شروط الشيعة فراجع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 19

وذلك تفسير. إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84). و متى أصبح إبراهيم من شيعة نوح في دعوته المخلصة؟ «إِذْ جاءَ رَبَّهُ» حين جاء كداعية «بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» عما سوى اللّه، خاليا عن حب غير اللّه والاتجاه إلى من سوى اللّه، تاماً في محبة اللّه، طامّا من يم معرفة اللّه! «الذي يلقى الله وليس فيه أحد سواه» «1» خاليا عن كل شك وشرك جلي أو خفي باللّه، بريئا عن كل تعلق بغير اللّه، في قمة عالية من توحيد اللّه والفناء في اللّه والبقاء باللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. القمي في تفسيره قال قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 20

و إنه تعبير بسيط-/ لا تعقيد فيه-/ عن كافة معاني الإخلاص في الجوارح والجوانح، حيث القلب إمامها كلها «1» فإذا سلم سلمت كلها على قدر سلامته، وهو يؤدي على إجماله وجماله أوسع مما تؤديه تعبيرات هذه الصفات المتعاليات. و إن مجيئه ربه بقلبه هو مجيئه بكل كونه وكيانه حيث القلب يقلّب كله، فقد جاء ربه متجليا بكافة التربيات الربوبية بكل وجوده. إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ودعا العالمين إلى قلب سليم «وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (26: 89) ومن مظاهر ذلك المجي‏ء صراعه في حوار صارم وعملية صارمة في أوسع ميادين الشرك وأخطرها: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87). جولة خاطفة سريعة من حواره، وإلى تجوالة وسيعة عملية بين الأصنام، ما حمل عبدتها يتربصون به كل دوائر السوء. في حين يراهم عاكفين على أصنام لهم يتساءلهم في هتاف وانعكاف إلى فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، مستنكرا تحجبّهم عنها «ما ذا تَعْبُدُونَ» دون «من ذا» ملمحا أنها لا تشعر! فما هي-/ إذا-/ حال عابديها؟ ثم وقبل أن بذكرها كما يلفظون «آلهة» يهدم صرح ألوهيتها في تخيلهم الهابط الخابط:

«أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ» فكل آلهة دون اللّه إفك مفترى، وكذب مختلق، لا تملك أية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي باسناده عن الامام الصادق عليه السلام: القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمةالحواس والحواس أئمة الأعضاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 21

برهنة في عساكر البراهين! وفي بدلية «آلهة» عن «إفكا»-/ دون عكس-/ إشارة إلى أنها ليست إلّا إفكا، فكل كيانها إفك ليس إلّا! وإذ تعبدون ما تنحتون «فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» كيف-/ إذا-/ تعبدونه وأنتم عابدوا خلقه، وكيف تلاقونه وأنتم به مشركون، وهو أقبح ظلم وأشنعه؟! و في جمع الخطاب «لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ» قطع للميزات والمفاصلات في المدعوين إلى اللّه لكل داعية قاطعة. و أبوه هو عمه أو جده لأمه دون والده إذ فقده في طفولته فقام عمه مقامه في كافة شئون الأبوة، فرغم أنه عاش جو الشرك داخل بيته وخارج بيته، يصبح أصرم محارب وأصرحه ضد هذا البيت والبيئة. و إنه في حملته الصارمة العامة الشاملة بحاجة إلى خلق جوّ يسمح له بعد حجاج الكلام تحقيق حجاج العمل الجبار في كسر الأصنام، فما ذا يصنع-/ إذا-/ إلّا أن يتأخر عن خروجهم لعيد لهم في اعتذار، بمكر صادق جبّار، يجعله مع الأصنام دونما حاجز لكسرهم ولا صدام: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89). أترى كان به سقم؟ وما هي رباطه بنظرة النجوم؟ ... «و الله ما كان سقيما وما كذب» «1» «إنما عنى سقيما في دينه مرتادا» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 406 ح 46 في روضة الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قال ابو جعفر عليه السلام عاب آلهتهم «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ» قال ابو جعفر: و اللّه ..

(2). المصدر ح 42 في كتاب معاني الاخبار باسناده الى صالح بن سعيد عن رجل من أصحابنا عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قلت له: قوله تعالى: اني سقيم فقال: ما كان ابراهيم سقيما و ما كذب انما عنى ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 22

و هذه تقية التّورية أن تلفظ بأمر وتعني خلاف الظاهر منه، فالكذب محرم على أية حال، وفي اضطرار التقية «1» لا تحل إلّا التورية كما فعلها إبراهيم في قوله «إِنِّي سَقِيمٌ» والرواية القائلة أنه عليه السلام كذب‏ «2» مضروبة عرض الحائط، فإذا دار الأمر بين كذب إبراهيم و كذب الرواية عنه فكذبها أحرى من كذبه عليه السلام. إنهم هموا بالذهاب خارج البلد إلى عيد لهم جامع، فطلبوا إليه مرافقتهم فأبى معتذرا «إِنِّي سَقِيمٌ» وقد كان يهددهم بكسر أصنامهم: «وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» (21: 57) فهل تناسوا تهديده في قبول عذره، أم استهانوا به أنه قولة جوفاء لا يتجرأ على تحقيقها؟ على أية حال قبلوا عذره، وهو عاقد عزمه على أن يهدم صرح آلهتهم ويقوّض عروش معبوداتهم بهذه الصراحة والجرأة المسبقة والاعتذارة الملحقة، رأى ان حجته القولية وإن وضحت وضح الشمس في رايعة النهار، ولكنها لا تنبت في أراضي قلوبهم الجرز نباتا فأراد أن يشرك أبصار القوم مع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ح 45 عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قال: التقية من دين اللّه قلت: من دين اللّه؟ قال: اي و اللّه من دين اللّه، و لقد قال يوسف أيتها العير انكم لسارقون و الله ما كانوا سرقوا شيئا و لقد قال ابراهيم اني سقيم و الله ما كان سقيماأقول هم سرقوا يوسف و هو غير ظاهر العبارة، و ابراهيم كان سقيما في روحه عنهم و هو غير ظاهر العبارة، وفيه عن روضة الكافي عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام و انا عنده ان سالم بن أبي حفصة و أصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجها لك منها المخرج؟ فقال: ما يريد سالم مني؟ أيريد أن أجيئ بالملائكة و اللّه ما جائت بهذا النبيون و لقد قال ابراهيم عليه السلام اني سقيم و ما كان سقيما و ما كذب‏

(2). في التفسير الكبير للفخر الرازي ج 26 ص 148 قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة و رووا فيه‏حديثا عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال «ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات» قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي ان يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي و بين نسبته الى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوي اولى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 23

بصائرهم، وحواسهم مع أفئدتهم في تفهّم عقيدته علّهم يثوبون إلى رشدهم ويتوبون عن غيّهم. لذلك وهو يهدف الهدف العظيم يضطر إلى ادعاء العلة عن مصاحبتهم، ويتظاهر بالسقم وما كان سقيما في بدنه، وإنما كان سقيم النفس، كاسف البال، يتقطع فؤاده حزنا على ضلال قومه المبين، ويتميز غيظا أنهم لم يلبوا نداءه ويصغوا إلى دعوته، أم وإضافة إلى سقمه هذا الحالي ينظر إلى سقم استقبالي: إني سوف أموت‏ «1» ولم أحقق بغيتي في تحقيق دعوتي، والموت في تحسر سقم على سقم! أم إني سوف أسقم، وهذه طبيعة الحال لكل إنسان أن يعرضه سقم مّا في كل مستقبل ... أسقام كلها صادقة في حال واستقبال، في جسم أو حال، اللهم إلّا سقم الجسم في الحال إذ لا رباط له بالنظر في النجوم. و أما نظرته في النجوم، فليست إلى نجوم السماء رؤية ظاهرة، وإنما نظر ... في وعلّها تضاهي حجاجه الاول «هذا رَبِّي» مسايرة ظاهرة ومماشاة، وفقا لما كانوا يزعمونه من دلالات النجوم على ما ستحدث من أحداث مستقبلة، إذ كانوا يحسبونها من أرباب الأنواع، وهذه الأوثان تمثّلها بمتناول أيدي عابديها، ولكي يقضي على هذه المزاعم الفاسدة بعد إذ جعل الأصنام جذاذا، وعلم النجوم تعليمه وتعلّمه والبناء عليه محظور «2» إلا فيما لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 406 ح 43 في كتاب معاني الاخبار و قد روى انه عنى بقوله «إِنِّي سَقِيمٌ» إني سأسقم و كل‏ميت سقيم و قد قال اللّه عز و جل لنبيه صلى الله عليه و آله: انك ميت اي ستموت‏

(2). (2) نور الثقلين 4: 407 ح 50 في كتاب جعفر بن محمد الدوريستي باسناده الى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: إذا ذكر القدر فأمسكوا و إذا ذكر أصحابي فأمسكوا و إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وفيه 51 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل و فيه قال له السائل: فما تقول في علم النجوم؟ قال: هو علم قلّت منافعه و كثرت مضاره لأنه لا يدفع به المقدور و لا يتقى به المحذور ان خبر المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز في القضاء و ان خبر هو بخير لم: يستطع تعجيله و ان حدث به سوء لم يمكنه صرفه و المنجم يضاد اللّه في علمه بزعمه أنه يرد قضاء اللّه عن خلقه، وفيه 52 عن سعيد بن جبير قال: استقبل امير المؤمنين عليه السلام دهقان من دهاقين الفرس فقال له بعد التهنئة يا امير المؤمنين عليه السلام تناحست النجوم الطالعات و تناحست السعود بالنحوس و إذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء و يومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان و انقدح من برجك النيران و ليس الحرب لك بمكان قال امير المؤمنين عليه السلام ويحك يا دهقان المنبئ بالآثار المحذر من الأقدار ما قصة صاحب الميزان و قصة صاحب السرطان و كم المطالع من الأسد و الساعات في المحركات و كم بين السراري و الذراري؟ قال: سأنظر و أومى بيده الى كمه و أخرج منه أسطرلابا ينظر فيه فتبسم صلوات اللّه عليه و قال أتدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين و انفرج برج ماجين و سقط سور سر نديب و انهزم بطريق الروم بارمينية و فقد ديان اليهود بابلة و هاج النمل بوادي النمل و هلك ملك افريقية أكنت عالما بهذا؟ قال: لا يا امير المؤمنين عليه السلام فقال: البارحة سعد سبعون الف عالم و ولد في كل عالم سبعون الف عالم و الليلة يموت مثلهم و هذا منهم و أومى بيده الى سعد بن مسعدة الحارثي لعنه اللّه و كان جاسوسا للخوارج في عسكر امير المؤمنين فظن الملعون انه يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات فخر الدهقان ساجدا فقال امير المؤمنين عليه السلام ألم أروك من عين التوفيق قال بلى يا امير المؤمنين فقال انا و صاحبي لا شرقيون و لا غربيون و نحن ناشئة القطب و أعلام الفلك اما قولك انقدح من برجك النيران فكان الواجب ان تحكم به لي لا علي اما نوره و ضياءه فعندي و اما حريقه و لهبه فلهذا فذاهب عني و هذه مسئلة عميقة احسبها ان كنت حاسبا. وفيه 49 في من لا يحضره الفقيه و روى عن عبد الملك بن أعين قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام اني قد ابتليت بهذا العلم فأريد الحاجة فإذا نظرت الى الطالع و رأيت طالع الشر جلست و لم اذهب فيها و إذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة فقال لي: تقضى؟ قلت نعم قال: احرق كتبك وفيه عن الاحتجاج 53 روى انه عليه السلام لما أراد المسير الى الخوارج قال له بعض أصحابه ان سرت في هذا الوقت خشيت ان لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام أتزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء و تخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن و استغنى عن الاستعانة باللّه في نيل المحبوب و دفع المكروه و ينبغي في قولك للعامل بأمرك ان يوليك الحمد دون ربه لأنك بزعمك أنت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع و امن الضر ايها الناس إياكم و تعلم النجوم الا ما يهتدى به في بر او بحر فانها تدعو الى الكهانة المنجم كالكاهن و الكاهن كالساحر و الساحر كالكافر و الكافر في النار سيروا على اسم اللّه و عونه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 24

يعارض قضاء وقدرا من محاسبات الخسوفات والكسوفات والزلازل في احتمال دون قطع! «نظر في النجوم» ظاهرا، واستطلع منها متظاهرا انه سيسقم حين الخروج ام بعده، ام «نظر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 25

في النجوم» نظرة الإعتبار بأفولها وحراكها فحدوثها وعدم ألوهتها وربوبيتها، فسقم روحه وتأثر من ضلال عابديها، يضمر في ضميره أن نظرة واحدة في النجوم التي يحسبونها أرباب الأنواع تنبه الإنسان أنها مربوبة لرب السماوات والأرض، فيسقم روح الإنسان بأحاسيسه المفكرة العاقلة أن كيف يعبدها ذلك الجم الغفير من الناس. و من شفاء ذلك السقم الحالي أن يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، وما كيده إلّا قوله «إِنِّي سَقِيمٌ» حتى يتركوه، وأن «جعلهم جذاذا إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ». فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90). «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ» يعذرونه في ترك مصاحبتهم، غير معتنين بشأنه، صاحبهم أم تركهم «مدبرين» عنه استهانة به، وإلى عيدهم اعتناء بشأنه، ناسين أو متناسين أنه تهدّدهم بكيد أصنامهم، وها هو يكيدهم في «إِنِّي سَقِيمٌ» ويكيدهم «ضَرْباً بِالَيمِينِ»! فَراغَ إِلى‏ آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالَيمِينِ (93). و الرّوغ هو الميل على سبيل الاحتيال والتخفي: «فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» (51: 26) وقد كان لإبراهيم في بيت الأصنام روغان، روغ «إلى» ذهابا إليها متخفيا، علّ هناك عيونا تنظر «فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ» من طعام قدمه هو أم كان حاضرا كما كانت سنتهم في تقديم الأطعمة لآلهتهم، ولا بدّ لآلهة مجسمة وهي تماثيل ذوي الأرواح-/ لأقل تقدير حياة للأكل، إبقاء لها وبعدا عن موتها، فلما لم تحر جوابا قال «ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ»؟ ءالهة أموات خُرس لا يأكلون ولا ينطقون؟ فكيف هي إذا آلهة وهي أدنى كمالا من المألوهين؟ و هو حجاج على الآلهة بعد الحجاج على المألوهين، وله فيهما الحجة البالغة ولا يملك إلّا قضاء واقعا على الآلهة لكي يظل المألوهون دون آلهة علّهم ينتبهون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 26

و من ثم روغ «على» ذهابا للقضاء عليها روغا ثانيا عليها «ضَرْباً بِالَيمِينِ»! يرى جوا خاليا عن رصد العيون، فيدلف إلى أصنامهم فيجد باحة قد اكتظّت بالتماثيل وانتشرت في أرجائها الأصنام، فيخاطبها محتقرا لشأنها، شائنا لعبدتها «أَ لا تَأْكُلُونَ. ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» و أنىّ للجماد أن يأكل أو ينطق، فأخذ يلطمها بيده، ويركلها برجله، وتناول فأسا وهوى عليها يكسرها جذر مذر ويحطمها «فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» (21: 85) فيسألوه عمن انتهك حرمة الآلهة ليرجعوا إلى أنفسهم ما هؤلاء يأكلون ولا ينطقون فكيف يعبدون؟! ولقد كان حقا «ضَرْباً بِالَيمِينِ» بيمين القدرة ويمين الصدق ويمين الدين وباليمين الذي سلف منه: «تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» ويا لها من معركة صاخبة صارخة أعماق أسماع التاريخ، مقتل الآلهة التي كانوا يعبدون، وقد شفى من نفسه سقما كان يشكوه: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94). وكيف أقبلوا إليه دون بيوتهم وأشغالهم ولا يعلمون ماذا فعل بآلهتهم؟ علّهم تسامعوا بالخبر، أم خمّنوا تحقيقا لتهدد إبراهيم، فلذلك أقبلوا إليه يزفون: يسرعون حاملين أصحابهم على الزفيف لمعرفة الحال بكل عجال، وهم جمع كثير هائج، وجم غفير مائج، وهو فرد واحد لا يخاف إلّا ربه، فهو أقوى من هذه الكثرة وهم إليه يزفون: «قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ. قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ. قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلى‏ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلى‏ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ. قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ...» (21: 67):

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 27

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (96). كيف تعبدون ما تنحتونها أنتم، عبادة الصانع للمصنوع والخالق للمخلوق؟ فإن حقّت في هذا البين عبادة فلتعبدكم ما تنحتون! ثم لا عبادة في هذا البين «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ» الناحتون «وَ ما تَعْمَلُونَ» آلهتكم التي تنحتون «فان الله صانع كل صانع وصنعته» «1» تلك-/ إذا-/ عبادة تمجها الفطرة ويرفضها العقل وكافة الموازين العقلية وسواها! ويا لها من حجة بالغة دامغة قد صفعهم بها صفعة نبّهتهم عن غفلتهم، وأيقظتهم عن غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون في أنفسهم قائلين «إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» ليس «ما تعملون» هو نفس العمل أيا كان فإنه مخيّر لا مسيّر، وإنما هو حاصل العمل «ما تنحتون» وكل صنعة، فان مادته مخلوقة، وأنتم بقدراتكم وأفعالكم مخلوقون، مهما بان خلق عن خلق تخييرا وتسييرا، ف-/ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» ولو كان «ما تعملون» نفس العمل لكان جبرا فعذرا لعمل الأصنام وعبادتها، لا حجة عليهم في تنديد! ثم خلق الأعمال تسييرا من اللّه لا رباط له إبطالا ل-/ «أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ» وإنما هو التخيير، فهم باختيارهم ينحتون ويعبدون ما ينحتون!. هنالك دحضت مزاعمهم، وزيّفت آمالهم، فلم يجدوا بدا وجاه حجته إلّا أن يحرقوه كما أحرق أكبادهم: قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98). «قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ. قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 279-/ اخرج البخاري في خلق افعال العباد و الحاكم و البيهقي في الأسماء و الصفات عن حذيفة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ان اللّه ... و تلا عند ذلك «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 28

إِبْراهِيمَ. وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ. وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ» (21: 71). فيا لبنيانهم الجحيم وجحيم البنيان من أجيج النار، تتمثل فيه حرقة أكبادهم، فقد كان لأحدهم أن يحرقه بقليل النار، ولكنهم أجمعوا ليتشاركوا في حرقه كما أحرق أكبادهم جميعا، ولكنهم خاب سعيهم حيث جعلوا الأسفلين الأخسرين، وتلمّع إبراهيم الخليل أكثر مما كان حجة عملية على حججه، كما عارضوه عمليا رغم حججه! وأين يذهب كيد العباد المهازيل أمام صيانة اللّه للخليل إلّا إلى أنفسهم في كل ترذيل بكل سفالة وخسار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»! لقد كانوا بشركهم سافلين وخاسرين، فأصبحوا بدائرة السوء على إبراهيم أسفلين وأخسرين. إذ دحضت حجتهم عملية بعد دحضها قولية، خسارا إلى خسار وسفالًا إلى سفال! ليس لحماقى الطغيان أمام دعاة الحق إلّا منطق السيف والنار، عند ما تعوزهم كل حجة وتحرجهم كلمة الحق: «ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ»! ولم تجر سنة اللّه على خرق العادات إلّا أحيانا تقتضيها الحكمة العالية كما في جحيم إبراهيم، وهذه حلقة أولى من قصص إبراهيم ومن ثم الثانية: «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). (1). نور الثقلين 4: 414 ح 61 في روضة الكافي بسند عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: خالف ابراهيم قومه و عاب آلهتهم حتى ادخل على نمرود فخاصمهم ... وقال ابو جعفر عليه السلام عاب آلهتهم «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ» و اللّه ما كان سقيما و ما كذب فلما تولوا عنه مدبرين الى عيد لهم دخل ابراهيم عليه السلام الى الهتهم بقدوم فكسرها إلا كبيرا لهم و وضع القدوم في عنقه فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا الى ما صنع بها فقالوا لا و اللّه ما اجترى عليها و لا كسرها الا الفتى الذي كان يعيبها و يبرأ منها فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار فجمع له الحطب و استجادوه حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برز له نمرود و جنوده و قد بنى له بناء لينظر اليه كيف تأخذه النار و وضع ابراهيم عليه السلام في منجنيق و قالت الأرض يا رب ليس على ظهري احد يعبدك غيره و يحرق بالنار قال الرب ان دعاني كفيته، فذكر ابان عن محمد بن مروان عمن رواه عن أبي جعفر عليه السلام ان دعاء ابراهيم يومئذ كان: يا احد يا احد يا صمد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد ثم قال توكلت على اللّه فقال الرب تبارك و تعالى كفيت فقال للنار «كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً» قال فاضطربت أسنان ابراهيم من البرد حتى قال اللّه عز و جل «وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» و انحطّ جبرائيل عليه السلام فإذا هو يجالس مع ابراهيم يحدثه في النار قال نمرود: من اتخذ إلها فليتخذ مثل آله ابراهيم قال فقال عظيم من عظمائهم اني عزمت على النار ان لا تحرقه فأخذ عنق من النار سخره حتى أحرقه قال، فأمن له لوط فخرج مهاجرا الى الشام هو و سارة و لوط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 29

وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99). أو لم يكن لحد الآن ذاهبا إلى ربه وقد «جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»؟ إن لذهابه هذا طرفا أوّل يتكفل السلب: «لا إله» وكما جعلهم جذاذا، وطرف ثان هو الإثبات «إلا الله» وقد فرغ من «لا إله» تقدمة الذهاب إلى ربه، ثم وأصل سيره إلى الإثبات «إلا الله» وقد تعنيه «إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي ...» يقوله أمام جماهير المشركين الأسفلين بحجته الحاضرة الحاذرة الخارقة «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» ف-/ «ذهابه إلى ربه بوجهه إليه عبادة واجتهادا وقربة إلى الله عز وجل» «1» إنها هجرة في المكانة قبل المكان، يترك فيها أباه وقومه وأهله ووطنه وكل أواصر القرابة، هجرة كاملة من حال إلى حال، ومن كافة الأواصر التي قد تربطه بنفسها، تعبيرا عن كامل التجرد والإخلاص والاستسلام لربه. أو لم يكن مهديا لحد الآن حتى «سيهدين»؟ للهدى مراتب فوق بعض، وكما تطلب دائبا: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» أم ولأنه تكملة لحجاجه أن اللّه هداه إلى أن «لا إله» ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 419 ح 64 في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 30

يهديه إلى «إلا الله» وثالثه هدى الدعوة في فسحتها، وبأعوانها كإسماعيل وإسحاق قرتي عينيه، وهي تتمثل في بلائه بإسماعيل كأعلى قمة: وقد يعطف قوله «إِنِّي ذاهِبٌ ...» بما وعد آزر وموازريه في الشرك: «وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى‏ أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (19: 48) فهنا يدعو ربه: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101). هنا إبراهيم الوحيد وقد ذرف الثمانين بلا عقب يخلفه يستوهب ولدا من الصالحين، فيبشّر ببكر ولده إسماعيل غلام حليم، ومن ثم يثنّيه بإسحاق نبيا من الصالحين، وقد يجاوب هذا الترتيب نص التوراة كما في التكوين 16: 15-/ 16: «فولدت هاجر لإبراهيم ابنا. ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل،» وفيه 17: 15-/ 16 (و قال الله لإبراهيم ساراى امراتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك ايضا منها ابنا ...». هنا يوصف إسماعيل بكر إبراهيم «بِغُلامٍ حَلِيمٍ» وفي غيرها «صادِقَ الْوَعْدِ» وهو فيهما منقطع النظير في سائر القرآن: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (19: 54) وقد يثنّى بحلمه أبوه إبراهيم: «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (9: 114) (إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» (11: 75). و ليس اختصاص «حليم» بهما في ساير القرآن إلّا لما برز من حلمهما القمة في ذبح إسماعيل مهما بطن لساير النبيين، إذ لم يوقف أحد موقفه البلاء المبين: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 31

إسماعيل بكر ولده، رسول نبي صادق الوعد حليم، والوالد يذرف التسعين وقد لا يولد له غيره، أم إذا ولد قد يغايره، وقد بلغ معه السعي في حاجيات الحياة معنوية ومادية بما سعى له فيهما ودرّبه، فهو في لمعان الكمال ونوسان الاستكمال، يؤمر بذبحه لا لشي‏ء منهما يستحقانه حتى يوجّه ذبحه بوجه ظاهر «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! والرواية القائلة أن الذبيح هو إسحاق إسرائيلية تخالف نص القرآن إذ يبشره بإسحاق بعد قصة إسماعيل‏ «1». «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» تنادى بمعية السعى حتى بلغ، وبمعيته لإبراهيم كما سعى في دعوته، فليس-/ فقط-/ أنه بلغ السعى لحاجياته الشخصية مهما كانت شاخصة ذات أهمية، بل ومع إبراهيم في «ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي» «و هو لما عمل مثل عمله» «2» ومن بلوغه معه السعى أن سعى معه بين الصفا والمروة بعد ما طافا البيت «فلما صارا في السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ...»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اختلاف الروايات من الفريقين في «من هو الذبيح إسماعيل ام إسحاق» تقطعه الآيات حيث البشارة بإسحاق تاتي بعد قصة الذبيح بكاملها، و هذه من الهرطقات الاسرائيلية ان إسحاق هو الذبيح لينحّوا فضلا عن إسماعيل الى إسحاق، كما روى ابن بابويه باسناده عن داود بن كثير الرقي قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام أيهما اكبر إسماعيل او إسحاق و أيهما كان الذبيح؟ فقال عليه السلام: إسماعيل كان اكبر من إسحاق بخمس سنين و كان الذبيح إسماعيل و كان مكة منزل إسماعيل و إنما أراد ابراهيم ان يذبح إسماعيل ايام الموسم بمنى ... اما تسمع لقول إبراهيم حيث يقول: رب هب لي من الصالحين، انما سأل اللّه عز و جل ان يرزقه غلاما من الصالحين و قال في سورة الصافات: فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل من هاجر قال ففدى إسماعيل بكبش عظيم فقال ابو عبد اللّه عليه السلام وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى‏ إِسْحاقَ يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق فمن زعم ان إسحاق اكبر من إسماعيل و ان الذبيح إسحاق فقد كذب بما انزل اللّه عز و جل في القرآن من نبإهما (تفسير البرهان 4: 30 ح 5)

(2). نور الثقلين 4: 419 ح 67 في عيون الاخبار عن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال سالت أبا الحسن‏على بن موسى الرضا عليه السلام عن معنى قول النبي صلى الله عليه و آله: انا ابن الذبيحين؟ قال: يعني إسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام و عبد اللّه بن عبد المطلب، اما إسماعيل فهو الغلام الحليم الذي بشر اللّه تعالى به ابراهيم «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» و هو لما عمل مثل عمله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 32

فقد بلغ معه السعي ولمّا يتم الرحلة إلى ربه والدعوة المتناصرة إلى دينه، ولمّا يولد له «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» وهم محمد صلى الله عليه و آله وعترته المعصومون عليهم السلام وقد استجيب في هذه الدعاء كما يتوافق له النصّان من التوراة ومن القرآن: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..» (2: 129). «1» و نص الاستجابة حسب الأصل العبراني في التوراة كالتالي: «و ليشمعيل شمعتينحا هينه برختي أوتو وهيفرتي اوتو وهيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتتيو لغوى غادل» (تكوين المخلوقات 17: 20)-/: «و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيرا، وأنميه كثيرا، وأثمره كثيرا، وأرفع مقامة كثيرا بمحمد صلى الله عليه و آله واثني عشر إماما يلدهم (إسماعيل) وأجعله أمة كبيرة» «2». بعد هذه وتلك يؤمر الخليل بذبح إسماعيل وليس ذبحا واحدا، إلّا وحيدا يجمع في جنباته ذبحات عدة أعلاها محمد صلى الله عليه و آله وعترته، وقد روي عنه صلى الله عليه و آله أنا ابن الذبيحين! إذا فتسليمهما لهكذا ذبح دونما سؤال علّة ولا خطرة ببال، إنه القمة العليا من التسليم و «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! لو أمر إبراهيم أن ينتحر كان عليه أسهل من نحر إسماعيل، فقد أمر بذبح من يفوقه في الكيان بحب الهيمان، وأنه جد الرسول محمد وعترته، وقد بلغ معه السعي ووصل إلى ذلك السعي بمساع الهجرة الهاجرة بواد غير ذي زرع: «رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 421 ح 756 المجمع و روى العياشي باسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام كم كان بين بشارة ابراهيم بإسماعيل و بين بشارته بإسحاق ... الى ان قال عليه السلام فلما رفع قواعده خرج الى منى حاجا و قضى نسكه بمنى و رجع الى مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم انطلق فلما صارا في السعى قال ..

(2). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 40-/ 43 تجد تفصيل هذه البشارة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 33

مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ ...» (14: 37) ف-/ «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! وبالروعة الإيمان والطاعة والتسليم! قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ .... «إني أرى» تلمح لتكرار الرؤيا وتأكدها «في المنام» ورؤيا الأنبياء وحي‏ «1» دونما ريب، فلما ذا يتروّى في تحقيقها بعد الرؤيا الأولى، ويستنظر ابنه فيها، والوحي منذ نزوله ماض لوقته المقرر، صارم للموحى إليه؟ إنه ما راى في الرؤيا صيغة الأمر بالذبح حتى يمضي فيه دون ترو، وإنما «أَنِّي أَذْبَحُكَ» دون «أمرت بذبحك» ورؤية الفعل لا تدل على الأمر وإنما تلمح لوقوعه، وفي الثانية تقوى هذه اللمحة، وفي الثالثة توصل لحد الأمر «2» فان أفعال الأنبياء خيرات تفعل بالوحي «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ» سواء أكانت في المنام أو اليقظة، ولأن ما في المنام صورة عن الواقع في اليقظة، فليحقق إذا في اليقظة سماحا أو رجحانا أم فرضا، وما لمح لإبراهيم بفرض الذبح المترائى إلّا في رؤياه الأخيرة فقال «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ» .... وقد تعني «أرى» رؤيا واحدة متأكدة دون تكرار، وفي تبديل الماضي «رأيت» بالمستقبل «أرى» لمحة إلى أنه عاش رؤياه ذاكرا لها دون نسيان، وأن مفاد رؤياه باق إلى الحال وحتى يتحقق عمليا، ففي الماضي مجال التحول نسخا في الحال! ولأن ذلك الأمر كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 281 اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ...

(2). الفخر الرازي في تفسيره الكبير 26: 153 و روى من طريق آخر انه راى ليلة التروية في منامه كأن قائلايقول ان اللّه يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن اللّه هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من اللّه فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمي يوم النحر و هذا هو قول اهل التفسير ... أقول من المحتمل صدقه إلا في شكه ام من الشيطان، و كما ذكرناه في المتن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 34

بلاء مبينا لهما، لا-/ فقط-/ لإبراهيم، فليعرض على الذبيح كما عرض على الذابح، ولكي يسلم كما أسلم الذابح، دونما مفاجئة عليه فيما رآه! فلا يأخذه على غفلة وغرّة تنفيذا لما رأى، بل تحضيرا له لكي يرى ما رأى ولينال هو الأخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم، فإنه يحبّ لابنه ما يحبه لنفسه! و «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ»! ففي رؤياه تلك بلاء، وفي عرضها على ابنه بلاء ثان، وفي تحقيقها بعد عرض ثالثة البلاء، فهي تفوق كل بلاء ابتلي بها إبراهيم طول حياته، ولأنها التالية لبلاء أبيه آزر وقومه، وبلاء النار وساير البلاء «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً ...» (2:

124) وتلك هي الكلمات العينية الدالات على قمة التسليم لرب العالمين! دون اللفظية التي يلفظها كل إنسان أيا كان وأيان! إِنِّي أَرى‏ ... فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏. «إِنِّي أَرى‏» رؤيا أنا أراها صادقة وأرى تحقيقها دون تروّ ومهلة، زوايا ثلاث من الرؤية «فانظر» نظر العقل والبصيرة «ماذا ترى» فيما أرى بكل تروّ ومهلة! مشاورة ما أورعها وأروعها لتحقيق أمر هو بظاهره إمر، لكنه لا مرد عنه ولا محيد ولتجري سنة المشاورة حتى فيما لا محيص عنه لغرض التمحيص، وكما يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله: «وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» إبلاغا مبلغك في الأمر، لا تبلّغا بهم إلى أمر ثابت بالوحي، حيث المشاورة تعم التناصر علميا وعمليا في أمر، كالمعتاد منها، أم ليستفيد المشير فيما يستشير فكذلك الأمر، أم ليفيد المشير مستشيره أمن ذا تمحيصا له وتدريبا يبلّغه مبلغه، وهكذا كانت مشاورة الرسول محمد وإبراهيم الخليل! قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. كأنها كانت نظرة حاضرة دونما حاجة الى تأملة وفكرة، حيث بلغ معه السعى فارتقى في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 35

سعيه إلى القمة التي ارتقى إليها إبراهيم من قبل، فتجاوبا في ذلك البلاء المبين «... أَنِّي أَذْبَحُكَ ... افْعَلْ ما تُؤْمَرُ» وهنا «ما تؤمر» عبارة أخرى تفسيرا ل-/ «إِنِّي أَرى‏ ...» فقد كان أمرا عمليا دونما لفظة، ووحيا إليه من فعل الخيرات يراه الذبيح فكيف لا يراه الذابح؟! ولكنه بحاجة إلى صبر خارق وتسليم فائق ليس في طوق الإنسان أيا كان، ولكنك «سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ» مشية التكوين التوفيق بعد مشيئة التشريع «من الصابرين» أمام أمرك! وفي تحويل «صابرا» عن خاصة نفسه إلى «الصابرين» حيث تشمله وسواه، تحوّل من الأنانية بالتفرد، إلى جمعيته الرحمة، وتلميح أديب توصية إلى أبيه بالتصبر كما هو يصبر وأين صبر من صبر! هنا لا تأخذه بطولة ولا شجاعة واعتماد على همة ولا يرى لنفسه حولا ولا قوة إلّا باللّه، ويا للأدب الرائع ونبل الإيمان وجزالة التسليم، وإلى المذبح بكل طوع وتعظيم: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (105). أو لم يسلما لحد الآن؟ ومن قبل كانا مسلمين بكل مراتبه! أجل ولكنه حاضر التسليم عمليا، بعد تحضيره نظريا، وأين القول من النظر؟ وأين النظر من العمل؟ «تقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»! «فَلَمَّا أَسْلَما» ثم ماذا؟ «و تله» صرعه «للجبين» ثم ماذا؟ لا نجد بين إسلامهما وتلّه هنا حديثا، وهو مطوي يعرفه بطبيعة الحال كل عارف بالموقف والحال، ولا نجد ل-/ «فلما ...» جوابا، وقد طوي عنه لأنه مدهش دون حدّ، وموحش لأي‏أحد. وها هنا كل إخلاص وإسلام، هنا كل إسلام وتلّ، واستسلام على التّلّ، إسلام التل وتلّ الإسلام في أرفع قمة من القلل، إسلام لا يفوقه إسلام. إنه ليس هو الشجاعة والجرأة ولا اندفاعة وحماسة في الميدان، يقتل فيه المجاهد أو يقتل، ولكنه لا يقتل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 36

نفسه، بل أنفس من نفسه: إسماعيله، وميدان التل في منى إبراهيم عند جمرة العقبة «1» لا مثيل له في أي‏ميدان. علّه قال لأبيه بين إسلامه وتلّه: «لا تذبحني وأنت ناظر إلى وجهي فترحمني فلا تجهز علي، يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب فتضرب عني، واكفف عني ثيابك كيلا ينتضح عليها شي‏ء من دمي فتراه أمي فتحزن، أسرع مر السكين على حلقي بقوة ...» فهذه وتلك أحاديث تروى وليس هنا إلّا «فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ». إنه ما تلّه على القفا مهما كان أبعد عن الانعطاف، وإنما «للجبين» كما يفعل بالذبائح كلها، فأفضل الأعمال أحمزها. «أَسْلَما وَ تَلَّهُ» ولمّا يحقق فعله، رغم ما كمّل ما لديه فلم يبق إلّا عمل المدية الواردة على عنقه، إذا بخطاب النسخ لما أمر؟ فإنه يجوز حين العمل ولمّا يتم إذا كان أمر الابتلاء لا أمر العمل، فقد نسخ أمر الذبح ولمّا يعمل: وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (105). و من تصديقه الرؤيا «أَنِّي أَذْبَحُكَ» نعرف أنه اشتغل بذبحه، ولكنما المدية وقعت بين أمر الخليل ونهي الجليل: «الخليل يأمرني والجليل ينهاني» صورة ثانية عن خرق العادة، ف «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» امر من الجليل خلاف كل التآمر على الخليل و لينجوا في معركة صاخبة بين الحق والباطل، و «صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» هنا نهي من الجليل تخليصا ثانيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 280-/ اخرج احمد عن ابن عباس ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ان جبرئيل ذهب بإبراهيم الى‏جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى به الى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع فساخ فلما أراد ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 37

للخليل هو أنبل وأعلى من خلاصه الأوّل، وفي الخلاصين له إخلاص، وأين خلاص من خلاص وإخلاص من إخلاص؟. ماذا يدريك أمورا حصلت بين «تَلَّهُ لِلْجَبِينِ»-/ «وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ» إنها فوق المواصفة والإدراك ولذلك يطوى عنه إلى أمر الخلاص «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» لم يكن القصد من أمر الذبح قتل البري‏ء، وإنما ظهور مدى الإخلاص وقد ظهر بأعلاه، حيث تم الابتلاء وطمّ، ولم يعد يبقى إلّا الجسد الذبيح والدم المسفوح ولم يكن بنفسه مقصودا، و إنما بالإخلاص في تحقيقه وقد حصل: وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ. لقد جدت يا إبراهيم بكل ما تملكه وفوقه، وجدت بإسماعيلك وهو أعز من نفسك وكل نفيسك، بكل هدوء وطمأنينة، فلم يبق هناك إلّا اللحم والدم، وهما ينوب عنهما أي‏ذبح من لحم ودم هو رمز للفداء، وغذاء للفقراء. لقد كانت هنا مشيئتان، ظاهرة بالذبح كما أمر اللّه تشريعا في ابتلاء، وباطنة ألّا يذبح تكوينا جزاء البلاء للمحسنين، فقد «أمر ابراهيم بذبح ابنه إسماعيل وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشاء أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله ...» «1». أ ترى هناك تورية في أمر اللّه؟ واللّه لا يورّي، ولا يقول أمره ونهيه إلّا صراحا! كلّا إن اللّه لا يوّري.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 420 ح 72 في كتاب التوحيد باسناده الى فتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام حديث طويل و فيه يقول يا فتح ان للّه إرادتين و مشيتين، إرادة حتم و إرادة عزم، ينهى و هو يشاء ذلك و يأمر و هو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم و زوجته عن ان يأكلا من الشجرة و هو يشاء ذلك و لو لم يشأ لم يأكلا، و لو اكلا لغلبت مشيتهما مشية اللّه و امر ابراهيم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 38

و إنما يمكر الماكرين عن قوة، وليس منهم إبراهيم، ولم يكن امره إلّا صورة الذبح «أَنِّي أَذْبَحُكَ» وقد حصلت تلك الصورة، فليس للمكلف إلا فعل ما يؤمر كما يستطيع، وقد فعل إبراهيم كما يستطيع «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» فلم تكن هناك أية تورية!. إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) بلاء يبين مدى تسليم المبتلى، ويبين أن ابراهيم تحقّ له الإمامة الكبرى، حيث أتم به كلمات حمّل لتدليلها على معانيها، التي تتوحد في غاية التسليم لرب العالمين: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآْخِرِينَ (108). الذبح كسرا مصدر وفتحا هو المذبوح، أترى بعد أن «ذبح عظيم» هو المذبوح كبشا نازلا من الجنة رعى أربعين خريفا فيها؟ «1» وهو ذبح وليس ذبحا، ثم وليس عظيما وجاه المفدى له مهما كان عظيما لأنه عطية الرب من الجنة، فأين إسماعيل الذبيح وأين هذا الكبش أيا كان من كبش التأريخ؟ ثم وليس لزام «ذبح عظيم» وحدته، خلاف «ذبح عظيم» حيث تشي إلى وحدته! ... و لأن ذلك الكبش لم يكن هو-/ فقط-/ العظيم يأمر النبي صلى الله عليه و آله أن يخمر قرناه المعلقين على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 284-/ اخرج البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: هبط الكبش الذي‏فدى ابن ابراهيم من هذه الخيبة على يسار الجمرة الوسطى، وفيه اخرج البغوي عن عطاء بن السائب قال كنت قاعدا بالمنحر مع رجل من قريش فحدثني القرشي قال حدثني أبي ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال له ان الكبش الذي نزل على ابراهيم في هذا المكان. وفي نور الثقلين 4: 429 ح 93 المجمع عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن كبش ابراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال: أملح أقرن و نزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى بجبال الجمرة الوسطى و كان يمشي في سواد و يأكل في سواد و ينظر في سواد و يعبر في سواد و يبول في سواد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 39

الكعبة المشرفة! «1». أم انه ذبح الذبيح العطشان الإمام الحسين عليه آلاف التحية والسلام؟ وهو أعظم من إسماعيل فكيف يفدى به لمن هو أدنى منه! ثم الذابح للحسين ليس هو اللّه ولا كان بأمر اللّه، فكيف إذا «فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»؟!. قد يعني «بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» سنة الذبح يوم الأضحى، فرضا للحاج في منى، ونفلا لغيره في غيرها، بادئة من ذلك الكبش وإلى كل ذبح في منى إلى يوم الدين، ولا تنافيه الروايات القائلة أنه ذلك الكبش، حيث بدأت به سنة الأضحى. إن في تقديم الأضاحي يوم الأضحى، وهو مما ترك على إبراهيم في الآخرين، فيه رموز عدة كل واحدة في حدها عظيمة، فهو ذبح عظيم في نفسه وفي مغزاه، في جسمه وفي معناه، يفدى به إسماعيل العظيم، فهو أمثولة أولى للتضحية والفداء، والأضاحي كلها أمثاله إلّا في اللحم والدم! إن مناسك الحج كلها رموز، ويبدأ قسم منها من قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل كرمي الجمرات والأضاحي في منحر منى ابراهيم يرمي الشيطان المتمثل في صورة شيخ هرم عند الجمار الثلاث في كلّ بسبع حصيات، حيث كان يعترضه ناصحا لكي يهدم صرح عزمه في تضحيته، والسبع رمز إلى شيطنات سبع، والثلاث إلى شياطين ثلاثة. الحاج يبدأ في مناسكه بإحرامه من مكة المكرمة، ثم إلى عرفات ليستحكم معرفيّات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 284-/ اخرج سعيد بن منصور و احمد و البيهقي في سننه عن امراة من بني سليم قالت أرسل رسول اللّه صلى الله عليه و آله الى عثمان بن طلحة فسألت عثمان لما دعاه النبي صلى الله عليه و آله قال قال صلى الله عليه و آله اني كنت رأيت قرني الكبش حينما دخلت الكعبة فنسيت ان أمرك ان تخمرهما فخمرهما فانه لا ينبغي ان يكون في البيت شي‏ء يشغل المصلين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 40

مستجدّا لها، مستعرضا إياها في زواياها الثلاث نفسا وخلقا آخرين وخالقا، ثم إلى المشعر الحرام، غربلة دقيقة لما استعرفه في عرفات، وليستخلص سمينها عن غثها، شعورا أدق من عرفات، ومن ثم إلى منى ليطبق مناه في كلا النفي والإثبات: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» طردا ودحرا للشيطان بمختلف شيطناته برمز رمي الجمرات، وإثباتا للرحمن برمز التضحية والفداء، ونقصا عن نفسه بحلق أو تقصير خلاصا عن نفسياته وإنياته، وإخلاصا للّه، تهيئة لها وتعبيدا لطريقها إلى طواف وسعي أماذا. فلما يرجع من جبهة العقبة وقد رمى الشيطان الأكبر، ينحو نحو المنحر ليقدم أضحيته، وكما فعله إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام، وفيها زوايا ثلاث لكلّ أهميتها وعظمها، فهي إذا «ذبح عظيم». فالزاوية الأولى منها رمز التفدية للنفس في اللّه، أنني يا رب-/ وبعد نفي الشيطان-/ حضّرت نفسي للفداء في سبيلك وبأمرك، ولأن الانتحار محرّم في شرعتك، أقدّم بديلا عني فداء الأضحية: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» هدية ترمز إلى الفداء والتضحية: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ ...» (22: 37)

ومن ذلك أنها تشعر بذلك الرمز. و الثانية رؤية سيول الدماء والأشلاء حتى لا يهابها في سبيل اللّه دفاعا وجهادا أن يقتل أو يقتل، فإن لمعرض الدماء والأشلاء تأثيرا عميقا في استقبال المعارك الدموية في سبيل اللّه، وهذه ثانية الشعائر. و الثالثة أنها معرض عريض لإطعام الجياع: «فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الُمحْسِنِينَ» (22:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 41

37) (... لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ» (22: 31). ففي الهدي هدى معنوية في بعدين «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ ...» وهدى اقتصادية في بعد واحد هو الركن الركين في ظاهر الأمر، المأمور بها في آيات الهدى: إطعام البائس الفقير، القانع والمعتر «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها» فإنها تنال الفقراء «وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ» رمز الفداء وألّا يهاب الدماء والأشلاء! هكذا تصبح الأضاحي قياما للناس بسائر الشعائر والمناسك، وكما قام الخليل «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ...» (5: 97) و هكذا «وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» لو أن المسلمين ذبحوا كما يجب قياما لهم في جنبات روحية واقتصادية، لا أن يهدروا أتلال اللحوم تعفّن جو العبادة فتحرق او تدفن والفقراء الجياع لا ينالهم منها إلّا قليل لا يعبأ به‏ «1». هكذا «وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآْخِرِينَ» (108) تركا لذكر إبراهيم وذكراه في التضحية والفداء، لحد أصبح تقديم الضحية من فروض الحج في منى، كما وأن إبراهيم شيخ الأنبياء يذكر بمناسبات هامة رسالية في كتابات الأنبياء وفي كل حياتهم: سَلامٌ عَلى‏ إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (110). «سلام» من اللّه «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» وسلام من المتروك عليه من أهل اللّه «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» سلاما عليه قولا، وتسليما له فعلا، وكل سلام من أهل السلام ما بقي الدهر «عَلى‏ إِبْراهِيمَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا القول حول حكم الاضاحي في منى بعدا عن كل إسراف و تبذير في كتابنا (اسرار-/ مناسك و ادلة حج) باللغة الفارسية فراجع، و كذلك في سورة الحج.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 42

و «كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» طول الحياة في هذه الأدنى وفي الآخرة إلى دار السلام. و تلك بشارة أولى لإبراهيم بإسماعيل غلام حليم حيث بلغ معه السعي وحلم في البلاء المبين ومن ثم ثانية: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى‏ إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113). فبشارته بإسحاق ثانيتهما، وبعد أن ولد إسماعيل وترعرع وبلغ معه السعي وتذبّح، وقد تتطلب هذه لأقل تقدير ثلاثة عشر من السنين، فهناك غلام حليم ما أحلمه لإسماعيل، وهنا نبيا من الصالحين لإسحاق، «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما»: إسماعيل وإسحاق «مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ» ومن أحسن المحسنين من ذرية إسماعيل محمد وعترته المعصومون، ومن أظلم الظالمين من ذرية إسحاق الصهاينة المجرمون، وإلى عرض موجز عن جموع من النبيين:

اسوة حسنه في ابراهيم‏

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ: إنهم لن ينفعوكم وإن كانوا مؤمنين، فكيف ينفعونكم وهم كافرون؟ فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم، المشتجرّة في زوايا قلوبكم، إنها قد تنسيكم ما يتوجب عليكم في ظل الإيمان باللّه، فإنه الوشيجة الدائبة التي لا انقطاع لها ولا فصال، لا بد أن تنسي المؤمن سواها من الوشائج على طول الخط، فكل وصال إلى فصال «يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» إلا وصال في اللّه واتصال باللّه، وعلى المؤمنين أن يتأسوا في صمود وشيجة الإيمان بالرعيل الأعلى ليذيبوا سائر الوشائج ولا يذابوا فيها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 43

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ: الأسوة كالقدوة، هي الحالة التي يكون عليها الإنسان في اتباع غيره، إن حسنا أو قبيحا، ولذلك تقيد هنا وأشباهه ب «حسنة». «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) فالأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه و آله تعمّ أحواله وأفعاله وأقواله، وهي أشمل و أكمل من الأسوة بإبراهيم، وإنما أمرنا هنا باسوة حسنة في إبراهيم بما كان منه في آزر (عمه أو جده لأمه)، ولم يكن هكذا للرسول صلى الله عليه و آله، وأسوة إبراهيم-/ هذه الخاصة-/ تخصص بغير قوله لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» ربي، وأسوة الرسول صلى الله عليه و آله تلكم الشاملة نافذة المفعول دون استثناء، فأين أسوة من أسوة؟! «قَدْ كانَتْ لَكُمْ ..» توحي بأن هذه الاسوة لها كينونة عريقة مسبقة في المؤمنين، حسب التشريع الإسلامي، وكما هي شريطة الإيمان دوما وخريطة مستملكات الإيمان كذلك: «التولي في الله-/ التبري في الله» وشيجته مشيجة بقلوب المؤمنين. «فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ»: الإبراهيميون في هذه السنة السنية، سواء أكانوا معه في عصره، أم بعده بعصور، وإلى زمننا، وإلى يوم الدين، فإن النص «وَ الَّذِينَ مَعَهُ» مما يوحي بالمعية غير المتقيدة بزمان ولا مكان، لا «و الذين كانوا معه» لكي يختص بالغابرين، وبهذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 44

المعنى يكون محمد صلى الله عليه و آله والمسلمون الذين معه ابراهيميين، مهما سبقه الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله في هذه السنّة حقها ومظاهرها، فإن المعية لها درجات، قد يكون المعطوف أقوى من المعطوف عليه، كما ان آية الاسوة في محمد صلى الله عليه و آله. الشاملة، تشهد-/ بقرنها بآية الاسوة في ابراهيم الخاصة المقيدة-/ تشهد له بهذه الأفضلية، إنها شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين ابراهيم الخليل عليه السلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد صلى الله عليه و آله! «إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» براءة بريئة عن كل شين ورين، صامدة في وجه القرابات الكافرة، قاطعة وشائجها مهما تشجرت واستطالت وحتى الأبوة والعمومة، لحد الكفر بهم و نكرانهم كأن لا قرابة «كَفَرْنا بِكُمْ» كفر البراءة «1» والنكران والمفاصلة، لا كفر الايمان، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقا حتى يكفروا بهم عن إيمانهم لا حقا، «وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ» فالإيمان هنا هو نهاية العداء وبداية الولاء، فإذا آمنوا زال هناك كفران:

كفرهم باللّه، وكفر المؤمنين بهم براءة وعداء. «إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..» قاله قبل أن يتبين له انه عدو للّه، لا تحتمل هداه، إذ أمره بهجره مليا: «قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا» (19: 46) هنا يستلهم ابراهيم من هجره مليا: مدة طويلة، لا دائما، انه يتروى في أمره فيها، فقد تجوز هدايته، لذلك يسلم عليه ويعده الاستغفار: «قالَ سَلامٌ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب اللّه عز و جل، قال عليه السلام: الكفر في كتاب اللّه على خمسة أوجه (إلى أن قال) و الوجه الخامس من الكفر كفر البرائة و ذلك قول اللّه عز و جل يحكي قول ابراهيم «كَفَرْنا بِكُمْ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 45

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (19: 48) فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الاهتداء، فلما طال الأمد وظن ابراهيم انه اهتدى حقق وعده: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» استغفر له وهو بعد حي ظن انه اهتدى، أو سوف يهتدي، وكان فيما مضى من الضالين المعاندين، ولما تبين له انه عدو للّه تبرء منه كما في آية الاعتذار حيث تفسر آية الاستغفار: «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (9: 114). فليس وعد الاستغفار في آيته، إلا نتيجة احتمال الاهتداء المشيرة إليه آية الاعتذار:

(عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ): موعدة آزر التي وعدها ابراهيم بقوله: (وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا) لا التي وعدها ابراهيم آزر بدافع القرابة فإنها محظورة قطعا كما في آيتي الاعتذار والاستغفار. فالمحرم قطعا هو الاستغفار ووعده للمشركين من بعد ما تبين انهم أصحاب الجحيم، ولا يتبين هكذا إلا ممن ثبت عداءه للحق بعد ما جاءه كمن صرح بهم القرآن ومن تثبتنا عليه ذلك ولا نحتمل هداه. و أما المشرك المرجو هدايته، كآزر في ظن ابراهيم، إذ أمره بهجره مليا، الملهم لتروّيه فيه، فقد يجوز الاستغفار له قبل هدايته، وكما فعل ابراهيم. و إذ لم يكن في استغفاره لآزر محظور، فلما ذا الاستثناء فيه عن أسوة ابراهيم؟ علّه رعاية الواقع، فإن آزر كان عدوا للّه لا يستحق الاستغفار، مهما أخطأ ابراهيم في ظنه وكان معذورا، ولم يكن استغفاره محظورا، فالأسوة تشمل حق العلم والواقع، وحاشا اللّه أن يأمرنا بأسوة تخالف الواقع، مهما كان صاحبها معذورا ظنّ الواقع، ولكنها محظور حسب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 46

الواقع. ابراهيم يعد أباه الاستغفار مشفّعا له بأنه لا يملك من اللّه إلا الافتقار: (وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ): لا قبول الاستغفار، ولا أن تأهل الاستغفار، إنما دعاء معه رجاء: (رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ) تسليم للّه بلا حدود، وتسلّم لأمره بلا قيود، سمة إيمانية بارزة في ابراهيم طول حياته، ولأنه يحتمل مكيدة أبيه في ملامح وعده من هجره الملي، يلوذ بربه أن ينجيه: «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»: يستغفر ربه لو جعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره، فسنادا الى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة، وإلى حكمته المغفرة لو افتتن، فيا لهذه العبودية الخالصة من سمّو وعلوّ! ومع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة، غير العامدة، عن اسوته:

«إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ ..» فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية! إذ لا ترضى من الأسوة إلا الحسنة علما وواقعا، لا السيئة-/ ولم تكن في إبراهيم-/ ولا بينهما:

حسنة في ظنه، سيئة معذورة كما فعله إبراهيم، إنما حسنة خالصة: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ: فيا لها من تربية رابية على الابراهيمية الحنيفة، تختص الأمة الإسلامية، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عبر الرسالات كلها، كما ان رسالتها خالصة الرسالات كلها، أو انها الرسالة الإلهية وحدها، وما سواها إنما تحضّر لها وتهيئ كبذرات لإنماءاتها «لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ» أن يلاقيه في الدنيا والآخرة معرفيا ورضوانا «وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ» وهو آخر المطاف وغايته، «وَ مَنْ يَتَوَلَّ» عن هذه الرسالة، فيتولى مناوئيها ممن يتربصون له ويترصدون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 47

«فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»: غني عن إيمانكم، وهو يحمد على أية حال، توليتم له أو توليتم عنه، سواء، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر «1». عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ: تلميح بفتح مكة المكرمة بصيغة الترجي: «عسى اللّه»: هنا موضع رجاء لكم، لا ان اللّه يرجوا، وإنما يرجي المؤمنين بما كانوا يأملون علهم لتحقيقه يعملون، وهو بشارة لفتح مكة، الذي سبب دخول الناس في دين اللّه أفواجا: طوعا أو كرها، ف «عسى» هنا وفي أمثاله حتم من اللّه، يكلّل بالرجاء، ولكي يحيى المؤمنون حياة الرجاء، ليكونوا دائبي الحراك والسعي لتحقيق الرجاء «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»! عسى اللّه أن يعوضكم عن أرحامكم المشركين، بأرحام لكم مؤمنين في مكة، منهم، ومن سواهم بقرابة مستقبلة، فيجعل بينكم مودة «وَ اللَّهُ قَدِيرٌ» على تحقيق هذه الأمنية «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» للمشرك إذا آمن «رَحِيمٌ» له، وللمؤمن، المتقاربين نسبا أو صهرا. و لقد وقع هذا الأمل بعد أمد قصير، ان فتحت مكة، فأسلمت قريش، ووقفت مع المهاجرين والأنصار تحت لواء التوحيد، مهما كان فيهم منافقون. و هكذا يعالج الإسلام وشائج القرابات، ولكي يتخطاها إلى وشيجة الإيمان، خطوات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من صحاح الأحاديث القدسية: «يا عبادي! انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيهما لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (تفسير روح البيان للحقي ج 9 ص 479)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 48

وخطوات، ولكي يجتمع الجميع في حزب اللّه، والاخوة في اللّه، في جو عطر رائع لا خبر فيه عما سوى اللّه «وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»! من مظاهر المودة الموعودة بفتح مكة تزويج النبي صلى الله عليه و آله ام حبيبة بنت أبي سفيان حيث أصبحت من أمهات المؤمنين، رغم ما كان من أبيها من عداء عارم.

ابراهيم في حجاجات مع المشركين‏

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 16. «إذ قال» تحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالي الحضور عند قوله، ولأن القالة هذه هي قالة الرسالة الابراهيمية، فقومه-/ إذا-/ هم قومه الرسالي، فعلى حملة شرعته حملها الى كافة المكلفين عرض المكان وطول الزمان لهذه الرسالة السامية، وكما هي طبيعة الحال في كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرحى من اولي العزم من الرسل. و هذه القالة الإبراهيمية هي القالة الرسالية لكافة المرسلين، وهي الأمر بعبادة اللّه وحده و تقواه وحده «ذلكم» اللّه «خير لكم» ممن سواه في عبادته وتقواه «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» و تعرفون الحق عن الباطل، و «تعلمون» ان اللّه هو الحق المبين، فمن يعلم انه اللّه كيف ينحو الى سواه؟ واين هنا «وحده» ولا حصر تخص به التقوى والعبودية؟ علّه لأنهم ما كانوا يعبدون اللّه حتى مع شركائهم زعما منهم انه لا يعبد إلّا بشفعاء عنده، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه، معه أولا معه، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل! أم لأنهم ضروب عدة، منهم هؤلاء الذين يوحدون العبادة لما سواه، فيؤمرون بتحويل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 49

عبادتهم الى اللّه توحيدا لعبادة اللّه، ومنهم من يعبدون مع اللّه سواه، وليست هذه عبادة لائقة للّه، فليعبدوه كما تحق وليست إلّا توحيد العبودية له دون سواه! ام ان «اعْبُدُوا اللَّهَ» اثبات لعبادته عقائدية وعملية، ثم «و اتقوه» نفي لعبادة غيره عملية أو عقائدية، فمن يعبد مع اللّه سواه لم يتق اللّه، وتقوى اللّه تحلّق على كل سلبية تقتضيها عبادة اللّه، كما أن «اعْبُدُوا اللَّهَ» محلّقة على كل الإيجابيات في عبادة اللّه، والايجابية القمة فيها أن يوحّد في عبادته، كما السلبية القمة ألّا يشرك به سواه، إذا فهي صيغة اخرى عن «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» في قالب الأمر والنهي بالترغيب والترهيب! ثم الآية التالية تتكفل صراحا تلك السلبية الملمحة من «و اتقوه» بصورة مبرهنة بينة: إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 17. «انما» هنا تحصر عبادتهم في «أوثانا» وهي تماثيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات، مما يبين انهم كانوا-/ فقط-/ عبدة الأوثان وهي أنذل العبادات وارذلها بين كل ما يعبد من دون اللّه، ان يعدلوا بها عن عبادة اللّه. و ليس فحسب ان تعبدوها بل «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» خلقا لما تنحتون، ثم أنتم تعبدون ما تخلقون، وإفكا فيها انها شفعائهم عند اللّه، ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى اللّه زلفى، وأمثالها من مختلفات الزور والغرور التي يخلقونها فيما يعبدون، وما ذا يملكون لكم حتى تعبدوهم؟ «إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً» وأصناما أم حيوانا وطواغيت ام أيا كان حتى النبيين والملائكة المقربين، والجامع لهم انهم «مِنْ دُونِ اللَّهِ» وهم كلهم «لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً» بل ولأنفسهم «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» أيا كان «و اعبدوه» لأنه اللّه الخالق الرازق «و اشكروه» بما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 50

يرزق، فانكم «إليه» لا إلى سواه «ترجعون»، وإن الرزق هو مشغلة النفوس في الأكثرية المطلقة، تعبد من تراه رازقا، فكيف أنتم تبغون الرزق من دون اللّه وتتركون الرازق وهو اللّه، فهو المبدء وهو المنتهى وهو الرازق لكم فيهما وبينهما «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» مما كسبت أيديكم أمّا لم تكسب، و «عند» هنا دون «من» علّها اشارة الى معدنية الرزق ولد نيته عنده، مهما كانت له أسباب منها يرزق المرزوقون، سواء أكانت اختيارية أم سواها، فليطلب المرتزق الرزق من أي‏سبب «عند اللّه» لا عند سواه. أمن العقل أن يترك الرازق ويبغى الوسيط أن يطلبه من اللّه، فتعبدونه حتى يطلب؟ ولا وسيط في طلب الرزق، ولا يملكون هؤلاء طلبا له من اللّه، ولا أن يعبدوا من دون اللّه، وحتى لو ملكوا طلبا من اللّه فعبادتكم إياهم دون اللّه يقطع عنكم رزق اللّه وشفاعتهم-/ المزعومة-/ عند اللّه «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»-/ وهكذا نرى كيف يفنّد أوثانهم في كل زوايا الربوبية، فذاتية أنها «أوثان» لا تعقل، وصفاتية أنها لا تملك لكم من اللّه شيئا إلّا أنكم «تخلقون» لها «إفكا» وأفعالية أن «لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً» أيا كان، والعبادة قد تعني كمال الذات، أم كمال الصفات، أم كمال الأفعال، وهي مسلوبة الكمالات، إذا «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» كله، فما احمقكم إذ تنحون نحو الفقير اللّاشي‏ء وتتركون رب كل شي‏ء؟! وهنا ندرس ان طلب الرزق عند غير اللّه كعبادة غير اللّه إشراك باللّه، يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ 21. له المشية العادلة ف «يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ» والمشية الفاضلة «وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ» وإليه لا إلى سواه «تقلبون» عن هذه الحياة الدنيا إلى الأخرى، لا فقط قلبا لحياة الى حياة، بل وقلبا عن ظاهرها إلى باطنها، وعن اختيارها إلى اضطرارها، وعن أعمالها إلى نتائجها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 51

وعن كل ما تتطلبه الأولى، إلى طلبات الأخرى «و لله الآخرة والأولى»-/ «وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (10: 30). وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ 22. «إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ» شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تغلبون «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» ربّكم، لا في الأولى ألّا تقلبوا، ولا في الأخرى ألّا تعذبوا، فالأرض والسماء صيغة أخرى عن الكون كله هنا وهناك، فلا تعجزون اللّه تفلتا عن ملكه: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ» (55: 33) ولا تعنّتا عن ملكته وإرادته: «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أموركم هنا وهناك «وَ لا نَصِيرٍ» ينصركم عن بأس اللّه. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ 23. كفرا بآيات اللّه آفاقية وأنفسية، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة ولقاء لثواب اللّه «أولئك» البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية «يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي» في الدنيا والآخرة، فالمؤمن بآيات اللّه ولقاءه لا ييأس من رحمة اللّه «وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» هو أبد الخلود في الجحيم. فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 24. «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ» بعد هذه الحجج البالغة «إلا» جواب كل أحمق نكد: «أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ» بأية قتلة «أو حرقوه» وهي شر قتلة، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم، إذا فحرقة بحرقة، ولكن «فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ» في ذلك المسرح الخطير قائلا: «يا نارُ كُونِي بَرْداً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 52

وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» (21: 69). هنا «اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ» وفي أخرى «قالُوا حَرِّقُوهُ» (21: 68) وعلّ الجمع انهم عزموا في البداية على قتلة، ثم على إحراقه لأنه أشد وأنكى، أم كانوا مفترقين بين قتله وحرقه، فتغلبت الفرقة الأخرى، وعلى أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم. «إِنَّ فِي ذلِكَ» الحجاج، وخلفيّة اللجاج «لآيات» ربانية «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» آية لكون الرب، وآية لكيان الربوبية، وآية للرسالة الصادقة، وآية للعاقبة الصادقة، آيات مع بعض وتلو بعض «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» باللّه وبآياته «وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً». وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ 25.

تهديد صريح من ابراهيم لكسر الاصنام كحجة عملية

وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ 51. «من قبل» هنا قد يعني-/ فقط-/ من قبل موسى وهارون، ولكنه إيضاح للواضح حيث القبلية الزمنية لإبراهيم واضحة لدى الكل!. فقد تعني-/ فيما عنت-/ القبلية الرتبية وأوليتها بالنسبة لموسى مهما شملت الزمنية، وكما عبر عن الرسول صلى الله عليه و آله بأول العابدين فقد «أوجس فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى‏» ولم يوجس ابراهيم حين وضع في المنجنيق‏ «1» وابتلي بابتلاءات لم يبتل بها موسى، وهذه من قبليته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 12: 35 عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال سألت أبا عبد اللّه الصادق عليه السلام عن موسى بن‏عمران عليه السلام لما رأى حبالهم و عصيهم كيف أوجس في نفسه خيفة و لم يوجسها ابراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق و قذف به في النار؟ فقال: ان ابراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق كان مستندا الى ما في صلبه من أنوار حجج اللّه عز و جل و لم يكن موسى عليه السلام كذلك فلهذا أوجس في نفسه خيفة موسى و لم يوجسها ابراهيم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 53

الرتبية على موسى. أم وقبلية في حياته، ان رشده في الدعاية الصامدة التوحيدية كان قبل إمامته ورسالته، حيث كان في حضانة آزر وهو بعد طفل، لم يبلغ مبلغ الرجال ولا الشباب، فقد بزغت دعوته هذه منذ بزغت حياته العقلية الطفولية، وذلك الرشد هو من عطيات اللّه. «وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» ولم تكن عطية مجانية فوضى، بل «وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ» انه يوفّي ويكفّي أمانة اللّه. إذا فليس رشده المؤتى من لدنا «من قبل» فوضى جزاف، بل انه حلّ محلّه اللائق اللابق، و ذلك هو الرشد الرشيد لمن يبتعثه اللّه رسولا الى خلقه، انه يصنعه بعينه ورعايته، ما يعبّد طريقه الى الرسالة، منذ أصلاب الآباء وأرحام الأمهات حتى الولادة والطفولة والغلمة البالغة والكهولة والشيخوخة، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، ولكي يأهل لحمل الامانة الكبرى، متعبا نفسه فيها. و هذه الآية بما بعدها حلقة رسالية شاخصة في ميادينها تحلّق على تاريخها مقسّمة الى مشاهد متتابعة بينها فجوات، بادئة بسابق الرشد لإبراهيم في ذلك المسرح الصريح الجري‏ء «وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ» وباستعداده لحمل الامانة الكبرى التي حملها المرسلون، وهو صاحب الراية في الطليعة: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ الَّتماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ 52.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 54

و ان بين قاله لأبيه آزر وقاله لقومه ردح من الزمن، إذ قال لأبيه وهو تحت حضانته وكفالته ولما يبلغ مبلغ الرجال والشباب ليخوض خضمّ المجتمع حتى يكون له قوم، مهما كان القال نفس القال، لوحدة المجال، وداء الشرك العضال. «إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا» (19: 43)-/ «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (6: 74). والتماثيل هي الأشباه، إذ كانوا يعملون الصور المجسمة الشبيهة بذوات الأرواح، وهي أشباح بلا أرواح، وكيف يعكف ذوو الأرواح لما يصنعونه من غير ذوات الأرواح، وهم لإن يعبدوا لها أحرى من أن يعبدوها، لأنهم أولاء صانعوها. و في إنجيل القديس برنابا الحواري حوار بين ابراهيم وأبيه آزر نذكر منها هنا مقتطفات. و «ما «1» هذِهِ الَّتماثِيلُ» استجواب فيه تزييف آلهتهم التماثيل، أجسادا بلا أرواح يعكف لها ذوو الأرواح؟!. قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ 53.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الفصل 26: 25 (كان ابراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ ان يطلب الله فقال يوما لأبيه يا أبتاه من صنع‏الإنسان .. (46): اي شي‏ء تشبه الآلهة (47)؟ أجاب يا غبي اني كل يوم اصنع إلها أبيعه لآخرين لاشتري خبزا و أنت لا تعلم كيف تكون الآلهة (48) و كان في تلك الدقيقة يصنع تمثالا (49) فقال هذا من خشب النخل و ذلك من الزيتون و ذلك التمثال الصغير من العاج (50) انظر ما أجمله الا يظهر كأنه حي (51) حقا لا يعوزه إلا النفس (52) أجاب ابراهيم إذا يا أبي ليس لآللهة نفس فكيف يهبون الأنفاس (53) و لما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذا الحياة (54) فمن المؤكد يا أبي ان هؤلاء ليسوا هم الله .. (57) ان كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان ان يصنع آلهة (58) و إذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فان إحراق الخشب خطيئة كبرى (59) و لكن قل لي يا أبت كيف و أنت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادا كثيرين فتصير أقوى رجل في العالم ...».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 55

قالوه عذرا لعكوفهم القاحل الجاهل على هذه التماثيل كسنة قومية محترمة بين الأقوام، وذلك تحجّر عقلاني داخل القوالب التقليدية الميتة، وتنازل عن العقلية الانسانية بل والحيوانية، التي لا ترضى تذللا أمام الأذل الأرذل، المصنوع للعابد نفسه وأضرابه. قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ 54. فالضلال المبين، الذي يبين انه ضلال انه ليس ليتبع مهما كان سنة الآباء، وليست عبادة الآباء لأنهم آباء بالتي تكسب هذه التماثيل قداسة وقيمة، حيث القيم تنبع من الواقع المتحرر الطليق، سواء عرفها الآباء ام جهلوها، وليست مفتعلة تصبح سننا متّبعة مهما تواترت بين الآباء. قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ 55. و مجرد استفهامهم هذا دليل تجردهم عن الحق، وعن اي برهان لما هم عليه، فانه سؤال المزعزع العقيدة، حيث لا يطمئن الى ما هو عليه، تيه يتخبط فيه من لا يدينون دين الحق، انحسارا وتخلفا عن حكم الفطرة، وانحصارا بالاحكام التقليدية القالحة الجاهلة. «أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ» الناصع كما تدعيه «أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ» بعقائدنا، تبديلا لها الى اخرى من اضرابها، ام من اللاعبين بالحق حيث تظهر الباطل بمظهر الحق. و قد يعنى من الحق فيما يعنى «الجد» بقرينة اللاعبين، هل أنت مجد فيما تقول ام لاعب، حيث الجد خلاف الآلهة بعيد عمن يعيش جوّ الإشراك. قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى‏ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ 56. بل جئت بالحق «بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ» لا هذه التماثيل التي أنتم خلقتموهن، وقد فطر اللّه الخلق كله بفطرة التوحيد، ومنه الإنسان المفطور على ذلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 56

«و انا» المفطور على ما فطرهن «على ذلكم» الحق الناصع «مِنَ الشَّاهِدِينَ» والسماوات والأرض هي كلها بمن فيهما وما فيهما «عَلى‏ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» شهادة فطرية وعقلية وكونية اما هيه، ولا تملك اية حقيقة هكذا شهود في كمها وكيفها، ما يملكه التوحيد من شهود، حيث الكون كله شهوده دون إبقاء، الا من تنازل عن فطرته وعقليته. و علّ «فطرهن» جمعا دون فطرهما، لكي تشمل معهما هذه التماثيل، فهو-/ إذا-/ رب للعابدين والمعبودين سواه، فكيف يعبدون سواه؟. فلست انا-/ فقط-/ الذي جاء بالحق في التوحيد، بل الكون كله، ولست أقوله دون ايمان كالذين «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» بل اشهد به كما يشهد الشاهدون، فلست انا من اللاعبين، بل جئتكم بحق مبين. هذه شهادة ابراهيمية على التوحيد وانه الحق الجدّ، وبالتالي يثنيّها بالواقع الذي توعّده. وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ 57. موقف جري‏ء ما اجرأه وأجراه على يديه، أمام تلك الحشود المحتشدة المشركة، تاركا ما اعتزمه من كيد الأصنام، الأكيد، مبهما دون إفصاح، مما يضخّم أبعاد الوعيد، وكأنهم نظروا الى وحدته دون ناصر فوهدته لو اعتزم، فلم يأخذوا وعيده بعين الإعتبار، سنادا الى قوتهم وضعفه، لذلك لم يرجعوا له جوابا، فلو كان لبان حيث الموقف موقف البيان. كيد مؤكد لاصنامكم «بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» كما ولّوا وتركوه، تهوينا لكيده المعتزم وتوهينا لحقه المخترم وقبولا لعذره الكائد المكتتم «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» (37: 89): فلما هموا بالذهاب الى عيد لهم، طلبوا اليه ان يرافقهم فأبى عن الانسلاك في سلكهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 57

بعذره العاذر: «إِنِّي سَقِيمٌ» دونما سقم ظاهر، إلا سقم النفس واضطراب الحال وكسوف البال، حيث كان يتقطع حزنا على اشراكهم، ويتميز غيظا لأنهم لم يلبوا ندائه، وقد عقد عزمه ان يهدم صرح آلهتهم التي ألهتهم ويقوّض عرشهم، لما رأى الحجة القولية لا تنفع فأراد ان يشرك أبصارهم ببصائرهم، وحواسهم مع افئدتهم علّهم الى رشدهم يثوبون وعن غيّهم يتوبون: فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ 58. خلى الجو من رصد العيون، فدلف الى أصنامهم فوجد باحة قد اكتظت بالتماثيل وانتشرت في ارجائها الأصنام فخاطبها محتقرا لشأنها «ألا تأكلون! ما لكم لا تنطقون» وأنّى للحجارة ان تأكل او تنطق، فأخذ يلطمها بيده ويركلها برجله وتناول فأسا وهوى عليها يكسرها ويحطمها حتى جعلها جذاذا الا كبيرا لها في أجسادها، ليجعلها جذاذا في قلوب عابديها بذلك الواقع، بعد ان جعلها جذاذا من ذي قبل ب «ما هذِهِ الَّتماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ» جذاذات ثلاث تجتث جذور الخرافة الشركية لو كانوا يعقلون. فلقد كاد أصنامهم ب «إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» حي خلى الجو لما اعتزم، ثم جعلهم جذاذا: قطعا مكسورة مفتّتة مهشّمة «إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ» يرأسهم كأنه إله الآلهة «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» حيث الموقف يتطلب رجوعا الى كبيرهم كمتّهم في جعلهم جذاذ فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة، ام هو الذي جعلهم جذاذا ليبقى في الميدان وحده كما هو قضية الحال في تعدد الآلهة لو كانوا يشعرون: «و لعلى بعضهم على بعض»! ثم رجوعا الى ابراهيم الذي تركوه لحاله وهو المتهم الثاني إذ لا حول ولا قوة لكبيرهم، ومن ثم رجوعا الى اللّه بعد انتباهة هنا وهناك، وضمير المفرد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 58

الغائب في «اليه» يتحمل الرجوع الى كلّ من الثلاثة على الأبدال، حيث الكل من بنود الرجاء لإبراهيم وقد حصل على الأولين تماما، وعلى الأخير بعضا حيث زلزل اركان تقاليدهم العمياء. 321 وبالفعل رجعوا إلى المعبد، وبدل ان يرجعوا إلى أنفسهم ان الآلهة لا تغلب، إذا فما هي بآلهة، حيث الخرافة قد عطلت أنفسهم عن انسانية التفكير، وبدل ان يرجعوا إلى كبيرهم ثم إلى ابراهيم فالى اللّه، فإذا هم يتساءلون فيما بينهم حائرين. قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ 59. حكما على من فعل هذا أيا كان «إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» بلا اي عذر ولا عاذر، حيث التغلب هكذا على الآلهة، وكسرها عن آخرها إلا .. ان ذلك هو الظلم العظيم والضيم الحطيم فلنفتش عن الظالم أيا كان اهو كبيرهم ام هو ابراهيم؟ قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ 60. و هنا «سمعنا» دون: رأيناه او سمعناه و «فتى» دون رجلا، ثم «يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ» دون ابراهيم، هي توهينات ثلاث لكاسر الأصنام، تجهيلا لأمره وتصغيرا لشأنه وتعريضا به انه «فتى» شاب وهذه الجرأة الظالمة هي من فعل الشباب، مجهولا لا يعرف «يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ» كأنه أسمعه المستعار، او ان معرفة اسمه عار، ام انه في الأصل مجهول الاسم والرسم ليس له اي مقدار حتى يعرف بيننا باسم او رسم، فانه مجهول حيثما دار. و هي هي دأبة دائبة عائبة لمن يراد توهينه وتهوينه مهما كان فعله عظيما، اشعارا بانه في نفسه صغير صغير، مهما ارتكب الكبير الكبير. «فَتًى يَذْكُرُهُمْ» بسوء، وانه سوف يكيدهم فقد كادهم بالفعل، و «ابراهيم» رفعا فاعل «يقال» قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ 61.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 59

فلقد تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجموع إلى أجساد الآلهة وأجداثها، كلّ يرغب في القصاص من ابراهيم، فجاءوا به وسط الجمع الزاخر بالقمع القاهر، وأخذوا يحاكمونه استجوابا عن الطامّة الواقعة، أمام الجماعة المتغيّظة التي تحرق الإرم حنقا وغيظا. «فَأْتُوا بِهِ» إتيانا جاهرا «عَلى‏ أَعْيُنِ النَّاسِ» حيث يعاينونه في نفس المشهد وقبل ان تتفرقوا «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» يشهدونه من هو هذا الجري‏ء، ويشهدون عليه انه الفتى الذي كان يذكرهم، ف «يشهدون» إقراره على فعلته، ثم «يشهدون» نكاله بفعاله، كيلا يطمع طامع بعد في فعلته، اجتثاثا لجذور هذه الضغينة الشكيمة بالآلهة، ولكي يرتاح عابدوها بما يشهدون من نقمته. شهادات اربع علّها معنية كلها حيث يتحملها اللفظ والمعنى، فإن «يشهدون» الأجرد عن متعلقات، تعم كافة المتعلقات من شهادة نفسه وإقراره وعذابه والشهادة عليه انه هو لا سواه. قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ 62. استفهام استنكار للأخذ بالإقرار حتى يشهدوا إقراره، ليكون في عزمهم على تحريقه إعذارهم، و «آلهتنا» دون «الآلهة» كاعتراف منهم انه كان ينكرهم. و ابراهيم الذي اصطنع ذلك الجو الحاشد، والمسرح السائد، تراه ماذا عليه في الاجابة عن ذلك السئوال العضال، حتى يحقق مأموله؟. فهل يصارح بالواقع كما وقع: «أنا فعلت» وفي ذلك تهديم لصرح الحجاج، وتعجيل منهم لكل عقوبة ولجاج، فيصبح ما صنعه باطلا يرجع الى بوار، فلا حجة تحصل، ولا الرسول يبقى بل ينكل، حتى ان بقي فما فائدة بقية في حياة الرسول دون تحقيق لحجته، بل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 60

والناكرون للتوحيد يزدادون لجاجا حين يرون آلهتهم جذاذا دونما حجة، تجعلها جذاذا بها بعد جذاذها في أجسادها!. أم يقول كذبا «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ» باتا في قوله، والكذب فشل وخلل في الرسالة، وسوء سابقة للرسول، فلا يعتمد على أقواله وان كان الكذب مصلحيا، ولماذا يكذب والحق يملك كل حجج الصدق دونما حاجة الى أي‏كذب! والرواية القائلة انه كذب مطروحة او مؤلّة، لمخالفتها الآية ومسها من ساحة الرسالة الصادقة «1». عليه في ذلك المسرح المصرع ان يأخذ امرا بين أمرين تكون فيه نبهتم بحجة قارعة قاصعة في عاجله، قبل ان يعزموا عليه نقمة لآجله، وقد فعل فنسب الفعل في ظاهر الحال الى كبيرهم لكيلا يهجموا عليه دون امهال ولا مجال، ثم جعل هذه النسبة في شرطية مشتملة على حجتين: قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ 63. ليّ في الصدق ما أحراه بساحة الرسالة الصادقة، حجة تجعلهم في لجة، «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا .. إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ»-/ «فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فقد «و الله ما فعله كبيرهم وما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 321 عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله لم يكذب ابراهيم في شي‏ء قط الا في ثلاث كلهن في الله: قوله اني سقيم و لم يكن سقيما، و قوله لسارة أختي و قوله بل فعله كبيرهم هذا و فيه عن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه و آله قال: يأتي الناس ابراهيم فيقولون له اشفع لنا الى ربك، فيقول: اني كذبت ثلاث كذبات فقال النبي صلى الله عليه و آله ما منها كذبة الا حل بها عن دين الله، قوله: اني سقيم بل فعله كبيرهم هذا و قوله لسارة انها أختي. أقول: لقد صدق في: اني سقيم كما بيناه في آيته، حيث سقم روحه في ضلالهم، ثم في الحديث الثاني تضاد، فان لم يصلح ابراهيم للشفاعة لأنه كذب، فهو كذب غير معذور، و ان كان معذورا في كذبه فتركه للشفاعة غير مشكور!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 61

كذب ابراهيم، انما قال فعله كبيرهم هذا ان نطق وان لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئا» «1». و هذه طبيعة الحال في الآلهة الناطقة الحية ان كبيرهم يصرع شركاءه ليتوحد هو بالألوهية: «وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» (33: 94). ثم «إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فهم أحرى ان يسألوا من فعل بهم هذا، إذا «فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» ولا تسألوني أنا، شرطية صادقة باهرة تحمل حججا قاهرة: فأسئلوهم هل قتلهم كبيرهم ام سواه، ولا بد لهم من اجابة «إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فإذ لا ينطقون فما هم بآلهة، ولو نطقوا فليس إلّا كبيرهم فعله قضية التغالب في آلهة عدة، دون عبيد كأمثال ابراهيم. فعدم نطقهم، وجعلهم جذاذا بفعل ابراهيم، هما برهانان اثنان انهم أضعف من احد من العباد فكيف يعبدهم العباد. فلقد فسحت هذه الشرطية المجملة الجميلة تلك المجالات الفاسحة لاحتجاج ابراهيم على من حضر من عبدة الأصنام، ولا شك ان اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية ابراهيم التي طالما جاشت نفسه بها وتوخاها ليقيم عليهم الحجة جميعا. و يا لها من تهكم ساخر يهزءهم هزء ويهزّهم هزّا، حيث يحمل برهانا صارحا صارخا في الحشد انها ليست بآلهة إذ لا تنطق ولا تحافظ على أنفسها، فضلا عن أن تنطق بصالح عبادها، والحفاظ على مصالحهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 431 عن تفسير القمي في الآية: فقال الصادق عليه السلام و اللّه .... فقيل كيف ذلك؟ فقال: انما قال ... أقول: ان كانوا راجع الى كلتا الجملتين: فعله فاسألوهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 62

و هنا نرى تلك الأنفس الفالتة عن عقولها، المتخبطة في كل حقولها، ترجع الى أنفسها عند الجواب الحاسم القاصم: فَرَجَعُوا إِلى‏ أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ 64. بادرة خير في أنفسهم الخاوية ان يحكموا بظلمهم أنفسهم دون ابراهيم، حيث «أنتم» تحصر «الظالمون» فيهم، تبرئة لساحة ابراهيم عن الظلم فيما فعل، بل هو العادل فيما فعل حيث رجّعنا إلى أنفسنا واشعرنا بظلمنا أنفسنا. فاتحة فيها بارقة الأمل كما تفأّل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ» تفتحا لبصائرهم لأوّل مرة في حياتهم المشركة، وتدبرا في ذلك السخف الذي كانوا عنه صادرون، والظلم الذي كانوا هم فيه سادرون، وقد قالوا من قبل «مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ» فما مضى إلّا آونات حتى حكموا على أنفسهم: «إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» وما أحلاه كلمة حق على لسان المبطل بحجة رسالية وامضة كهذه، تجعل حجتهم داحضة وتراهم «فقالوا» كل لآلخر؟ والكل غرقى في لجة الحجة! ولم يكونوا ليصارحوا بهذه النكسة أمام ابراهيم! ام كل لنفسه في نفسه؟

وهذه قضية الموقف، و «أنفسهم» دون «بعضهم الى بعض» كما «اقبل بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ» (68: 31) دون «عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ». و قد تعني «أنفسهم» هنا ما عنته «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» رجوعا لكلّ الى نفسه، ثم الى الآخرين دون مصارحة تعرف، في لمحات وإشارات فيما بينهم، ولكن ابراهيم وهو شيخ العارفين عرف رجوعهم الى ذات أنفسهم فضلا عن اشاراتهم لمن سواهم، ومن ثم أدركتهم الحيرة وعقد الحصر ألسنتهم فأطرقوا برؤسهم منكرين واستجمعوا شارد عقولهم: ثُمَّ نُكِسُوا عَلى‏ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ 65.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 63

و يا لها من نكسة على الرئوس بعد رجعة الى النفوس، ثم قالة صارخة بتأكيد الخطاب «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» ارتكاسة مثلثة الزوايا بحجة واحدة في المسرح كان فيها مصرعهم لو ظلوا منتبهين، وهذا وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق عند لزوم الحجة وقد شبّهوا بالمتردي على رأسه، تدويخا بنصوع البيان، وإبلاسا عند وضوح البرهان. و هنا ينتهض الداعية الواعية بكلمتين كالمتين كحجة اخيرة فيها كل تأنيب على ضلالتهم: قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ 66 أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ 67. «أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ. وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ» (37: 96) فعبادة الإله، اما هي لاستجراء نفع وليست هي نافعة لأنفسها فضلا عن عابديها، ام لاستدفاع ضر، وليس هي ضارة، بل متضررة كما جعلت جذاذا، ام لكمال ذاتي وان لم تنفع او تضر، وهي ميتة لا تشعر، أم وحتى لو كانت تشعر فكيف تعبد وهي لا تنفع ولا تضر، «أف لكم» تضجرا وتبرّما لصنيعكم، «وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فقد ضعف الطالب والمطلوب، «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟ و انها قالة في حالة تقتضيها قضاء حاسما، استعجابا من السخف الذي يتجاوز كل مألوف و يتجاهل كل معروف، فضربة صارمة قاضية علّهم يفيقون، ام يفعلون كما يشتهون. هنا لك احترقوا بما فعل، فاخذتهم العزة بالإثم، تجاهلا عما قالوه، وتغافلا عما فعلوه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 64

ف: قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ 68. «قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ» (37: 79) تحريقا عريقا كما احرق أكبادهم حيث جعل آلهتهم جذاذا كونا وكيانا، وجعلهم جذاذا فيما كانوا يعتقدون، فلم يجدوا بدا إلا ان يؤمنوا وهم لا يؤمنون، او يعكسوا امر الحرق عليه وقد فعلوا زعم انهم قاهرون. و يا لها من آلهة كالحة ينصرها عبادها بعد جذاذها! وذلك التحريق هو في الحق تحريق لأجداث الآلهة بعد جذاذها، ان لا حول لها ولا قوة، حيث هي بحاجة الى نصرة عبّادها، وليسوا لينصروها ولو احرقوا ابراهيم!. «قالوا» وافتعلوا ما بمكانتهم من بنيان الجحيم، فلما القوه في الجحيم أصبحت جنة بقالة تكوينية: قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ 69. و هنا يطوي السياق الحال بين القالين، مما يلمح ان لم يكن لإبراهيم مقال آخر معهم، ولا مقال مع آخر، وإنما هي الحال واللّه يرى الحال على أية حال. في هذه الحالة المحرجة يروى النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عليه السلام قال: لما أخذ نمرود ابراهيم ليلقيه في النار قلت يا رب عبدك وخليلك ليس في أرضك احد يعبدك غيره، قال اللّه تعالى: هو عبدي آخذه إذا شئت، ولما ألقي ابراهيم عليه السلام في النار تلقاه جبرئيل عليه السلام في الهواء وهو يهوي الى النار فقال: يا ابراهيم لك حاجة؟ فقال: اما إليك فلا، وقال: يا اللّه يا احد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 65

نجني من النار برحمتك، فأوحى اللّه تعالى الى النار: كوني بردا وسلاما على ابراهيم‏ «1». اجل «اما إليك فلا واما الى رب العالمين فنعم» «2». «قلنا» هنا وفي اضرابها من الأمور التكوينية هي الارادة القاطعة الإلهية، فالذي قال للنار كوني حرقا وايلاما، هو القائل هنا «كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً» والنار هي النار، وقد تلمح له «عَلى‏ إِبْراهِيمَ» إذا فلم تبرد النار حتى تتحول عن ماهية النار، بل بقيت نارا حارة إلّا على ابراهيم، ولو لم يقل «سلاما» بعد «بردا» لأثلجت ابراهيم ببردها، ولكنها البرد السلام فأصبح ابراهيم كأنه في روضة خضراء معتدلة الهواء، اصطيافية الفضاء «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 12: 39 بسند عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال اختبرني أبي عن جدي عن النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل قال: ... وفيه (35) عن الرضا عليه السلام قال: ان ابراهيم لما وضع في كفة المنجنيق غضب جبرئيل عليه السلام فأوحى اللّه عز و جل: ما يغضبك يا جبرئيل! قال: يا ربّ خليلك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره سلطت عليه عدوّك و عدوه فأوحى اللّه عز و جل اليه: اسكت انما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك، فاما انا فانه عبدي آخذه إذا شئت قال: فطابت نفس جبرئيل فالتفت الى ابراهيم عليه السلام فقال: هل لك حاجة، فقال: اما إليك فلا، فاهبط اللّه عز و جل عندها خاتما فيه ستة أحرف «لا اله الا الله-/ محمد رسول الله-/ لا حول و لا قوة الا بالله-/ فوضت امري الى الله-/ أسندت ظهري الى الله-/ حسبي الله» فأوحى اللّه جل جلاله اليه ان تختم بهذا الخاتم فاني اجعل النار عليك بردا و سلاما. أقول و ليس هذا الا خاتما بيد خاتم حيث ابراهيم عليه السلام أصبح تجسيدا لهذه الكلمات‏

(2). و فيه عن تفسير القمي مثله الا فيما نقلناه و قبله: هو عبدي آخذه إذا شئت فان دعاني أجبته فدعى ابراهيم بسورة الإخلاص: يا اللّه يا واحد يا احد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا احد نجني من النار برحمتك‏

(3). نور الثقلين 3: 436 عن كمال الدين و تمام النعمة عن مفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال سمعته يقول أتدري ما كان قميص يوسف عليه السلام قال قلت: لا قال ان ابراهيم عليه السلام لما أوقدت له النار نزل اليه جبرئيل بالقميص و البسه إياه فلم يضر معه حر و لا برد و فيه عن النبي صلى الله عليه و آله ان نمرود الجبار لما القى ابراهيم في النار نزل اليه جبرئيل بقميص من الجنة و طنفسه من الجنة فألبسه القميص و أقعده في الطنفسة و قعد معه يحدثه. (1). في الدّر المنثور عن عائشة ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ان ابراهيم حين القي في النار لم تكن في الأرض دابة لا تطفئ عنه النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فامر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بقتله!. وفي بحار الأنوار 12: 38 بسند عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما قال اللّه عز و جل: يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» ما انتفع احد بها ثلاثة ايام و ما سخنت ماءهم و رواه مثله عن أبي جعفر الباقر عليه السلام و فيه: لم يعمل يومئذ نار على وجه الأرض و لا انتفع بها احد ثلاثة ايام ... أقول: و يقابلها المروي فيه عن الرضا عليه السلام قال: لما رمي ابراهيم في النار دعا اللّه بحقنا فجعل اللّه النار عليه بردا و سلاما» و المروي عن الباقر عليه السلام في حديث (40) فنزل جبرئيل يحدثه وسط النار قال نمرود من اتخذ إلها فليتخذ مثل آله ابراهيم فقال عظيم من عظمائهم إني عزمت على النيران ألّا تحرقه قال: فخرجت عنق من النار فأحرقته ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 66

فمايروى انه «ما انتفع أحد بها ثلاثة ايام وما سخنت ماءهم» «1» كأنه هباء وهراء، حيث النار الابراهيمية كانت تحرق غيره فضلا عن كل نار سواها، ولو بردت النيران كلها لتواترات فوق كل ما حدث في تاريخ الإنسان! ثم لم يكن إذا في برد النار على ابراهيم آية معجزة لو ان النيران بردت كلها، بما في ذلك البرد الشامل من ضر على سكنة الأرض دونما فائدة لهذه الآية الخارقة إلّا بائدة تقضي على كونها آية قضية الشركة بينها وبين سائر النار. هذه آية إلهية ابراهيمية دون شك، لا تتحمل أي‏تأويل يجعلها خارجة عن خارقة، مثل أن تخلّي ابراهيم عن كل ما سوى اللّه حتى عن نفسه جعله لا يشعر بحرق النار، حيث أحرقته ولم يشعر أو لم تحرقه قضية الانقطاع عن حياة البدن؟. و لكنها حالة ابراهيمية تقتضي البرد والسلام، لا القالة الربانية، وهي على أية حال لا تقتضي البرد مهما اقتضت زوال الحرّ، فان قصارى هذه الحالة ألّا يتأثر بحر النار، لا ان تبدّل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 322-/ اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من ابراهيم إلا وثاقه و في نور الثقلين 3: 439-/ القمي عن الصادق عليه السلام في حديث النار فإذا هم بإبراهيم مطلقا من وثاقه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 67

بردا وسلاما!. و كالقول ان في ذلك تضادا في النار لحالة واحدة، انها محرقة كل محترق سوى ابراهيم، وكما أحرقت وثاقه الملقى به في النار ولم تحرق نفسه. و ليس في نسبية الإحراق تضاد التناقض حتى يكون من المحال، وما سواه ممكن بجنب القدرة الإلهية على أية حال، كما الزمهرير في النار والنار معه لا يتناحران. أو انه ألبس قميصا من صنيع اللّه هو ضد الحرارة «1» ولا بأس به حيث الخارقة الإلهية لا تخرق ضوابط العلية والمعلولية، وانما تقفزها قفزة لا يستطيعها إلا اللّه، ولكن القميص ضد الحرارة لا يمنع المواضع الخارجة عنه، فعلى أية حال كوّنت النار على ابراهيم بردا وسلاما بما أراد اللّه بقميص وغير قميص!. وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ 70. «فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ» (37: 98). هم «أَرادُوا بِهِ كَيْداً» ليحرقوه إحراقا لدعوته، واجثاثا لدعايته «فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ» إحراقا لأكبادهم في ذلك المسرح الصارح الصارخ حيث يسمعه كل العالمين. وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ 71. لقد ضرب السياق عن مصير ابراهيم بعد البرد السلام صفحا، وقضية الحال ان الطاغية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 12: 40 تفسير الإمام 115 قال الإمام قال النبي صلى الله عليه و آله في احتجاجه على اليهود بمحمد و آله‏الطيبين نجىّ اللّه تعالى نوحا من الكرب العظيم، و برد اللّه النار على ابراهيم و جعلها عليه بردا و سلاما و مكنه في جوف النار على سرير و فراش وثير لم ير ذلك الطاغية مثله لأحد من ملوك الأرض و أنبت من حواليه من الأشجار الخضرة النضرة النزهة و غمر ما حوله من انواع النور بما لا يوجد الا في فصول اربعة من السنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 68

لم يسطع ان ينكل به بعد حيث أرغم في أشد نكاله به، «و نجيناه» هنا إجمال عن نجاته من يد الطاغية «نجيناه» من بابل نمرود «و لوطا» من سدوم وهي «الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ» (74) نجينا هما «إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ» وهي القدس الشريف او الفلسطين ككل وهي الشام في إطلاقها العام، الشاملة للأردن ولسوريا ولبنان. وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ 72. هذه الوهبة المباركة بجمعية الصفات، اللامحة لمجموعة من الرحمات، هي «نافلة»: زائدة على سائر هباته الموهوبة، هبة منفصلة بعد متصلة، هي استمرارية للكيان الابراهيمي على طول خط الرسالة العظيمة الاسرائيلية التي تضم الوفا مؤلفة من النبيين والمرسلين. و قد تعني «نافلة»-/ فيما عنت-/ نسبة إلى «إسماعيل» فانه اوّل وهبة زمنيا ورتبيا:

«فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين. رب هي لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي ... وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين.

وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» (37: 98-/ 117). إذا «وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ» تحقيق لسئوله في سؤاله: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن في ذريتهم من رسل وأئمة ونبيين، فهذه الهبة تحلّق على كافة الرسالات والقيادات المعصومة منذ إسماعيل وإسحاق ويعقوب إلى كافة المرسلين الاسماعيليين والاسرائيليين، وهاتان الرسالتان هما كل خطوط الرسالات الإلهية منذ ابراهيم الى يوم الدين. و يا لها من هبة عظيمة قائمة الأصول، منتشرة الفروع، حيث تشمل كافة الرسالات والإمامات، اصالة في الاسماعيلية المحمدية مهما كانت خاتمتها، وفرعا في الإسحاقية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 69

الاسرائيلية، مهما كانت من بدايتها، هكذا: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (73). و «هم» في ذلك الجعل العظيم: ابراهيم وإسماعيل ومحمد والمعصومون من عترته، كذلك وإسحاق ويعقوب والمرسلون من عترته، مهما اختلفت درجات الإمامة والهداية بأمر اللّه بينهم، فمنهم أئمة اربعة من اولى العزم من الرسل محمد وابراهيم وموسى وعيسى، ثم الاثنى عشر المحمديون، وهم في درجته العليا إلّا الوحي، ومن ثم إسماعيل و إسحاق والرسل الاسرائيليون. فحين يفسّر «هم» بأئمتنا المعصومين‏ «1» فهو تفسير باصدق المصاديق وأعلاها بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 441 في كتاب المناقب عن النبي صلى الله عليه و آله حديث طويل في فضل علي و فاطمة عليهما السلام و فيه‏قال صلى الله عليه و آله: و ارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة و اجعل في ذريتهما البركة، و اجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك و يأمران بما يرضيك و فيه في اصول الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ان الأئمة في كتاب اللّه عز و جل امامان قال اللّه تبارك و تعالى «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» لا بأمر الناس، يقدمون ما امر اللّه قبل أمرهم و حكم اللّه قبل حكمهم قال: و جعلناهم أئمة يدعون الى النار-/ يقدمون أمرهم قبل امر اللّه‏و حكمهم قبل حكم اللّه و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللّه، وفيه و في العيون عن الرضا عليه السلام في حديث الامامة قال: ثم أكرمه اللّه عز و جل يعني ابراهيم بان جعلها يعني الامامة في ذريته و اهل الصفوة و الطهارة فقال عز و جل: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا قرنا حتى ورثها النبي صلى الله عليه و آله فقال اللّه جل جلاله: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فكانت خاصة ... وفي تفسير البرهان 3: 65 ابن بابويه بسند متصل عن زيد بن علي قال كنت عند أبي علي بن الحسين عليهما السلام إذا دخل عليه جابر بن عبد اللّه الانصاري فبينما هو يحدثه إذ خرج اخي محمد من بعض الحجر فاشخص جابر ببصره نحوه ثم قال يا غلام اقبل فاقبل ثم قال أدبر فأدبر فقال شمائل رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما اسمك يا غلام؟ قال: محمد قال: ابن من؟ قال ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: اذن أنت الباقر عليه السلام فاتكى عليه و قبل رأسه و يديه ثم قال يا محمد ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقرئك السلام، قال: و على رسول اللّه صلى الله عليه و آله أفضل السلام و عليك يا جابر بما فعلت، ثم عاد الى مصلاه فاقبل يحدث أبي و يقول ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لي يوما يا جابر إذا أدركت ولدي محمدا فاقرأه مني السلام اما انه سميي و أشبه الناس بي علمه علمي و حكمه حكمي سبعة من ولده أمناء معصومون أئمة ابرار السابع منهم مهديهم الذي يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما ثم تلا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات و اقام الصلاة و إيتاء الزكاة و كانوا لنا عابدين. وفيه محمد بن العباس .. عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال عليه السلام يعني الأئمة من ولد فاطمة عليها السلام يوحى إليهم بالروح في صدورهم ثم ذكر ما أكرمهم اللّه به فقال: فعل الخيرات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 70

الرسول محمد صلى الله عليه و آله وبعدهم هم كافة الرسل الإبراهيميين. «و جعلناهم» هؤلاء المصطفين-/ ككل-/ من ذكروا هنا ومن يذكروا «أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» فكما «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» كذلك هم «يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» فان «بأمرنا» متعلق بكليهما، فالإمامة المجعولة بأمر اللّه، هي الهادية بأمر اللّه، هدى معصومة من امامة معصومة لا قصور فيها ولا تقصير: فليست الإمامة الهادية بأمر الأمة شورى وسواها، ولا بأمر الإمام معصوماً وسواه، وانما الإمامة بجعل اللّه، وهدايتها بأمر اللّه لا سواه وحتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، إذ لا يسمح له ان يجعل إماما معه أم يخلّفه بعده. و «يهدون» يعم التكوينية وهي الإيصال الى الهدى، الى جانب التشريعية وهي الهدى نفسها، فهم يهدون الناس بشرعة اللّه بأمر اللّه، ويهدونهم توفيقا للهدى بأمر اللّه، فلا هم أنفسهم يهدون تشريعيا ولا تكوينيا، وانما هم اداة رسالية بيانا لشرعة اللّه، وإيصالا الى هدى اللّه: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» (28: 56) ف «لَيْسَ لَكَ مِنَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 71

الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» (3: 128) وكما ان كلتا الهدايتين للأئمة رسلا وسواهم، هما بوحي اللّه وامره، كذلك «فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ» حيث «أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ..»

لا-/ فقط-/ كيف يفعلون؟ فانه وحي الشرعة، بل نفس ما يفعلون، فانها بوحي اللّه، عصمة و تسديدا من اللّه، وليس ذلك الوحي فوضى جزاف دونما صلاحية لهم مسبقة، بل «وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» قبل مثلث الوحي، حتى استحقوه فاصطفاهم اللّه له رساليا أم سواه. هذه هي الامامة المعصومة لا تجعل إلا بأمر اللّه، كما هدايتهم للناس بأمر اللّه بنص خاص، ولتكن كذلك الإمامة غير المعصومة في أية درجة من درجاتها بأمر اللّه، ان تنطبق على النصوص الواردة في شروطات الامامة، حيث القيادة الروحية هي من اختصاصات الربوبية، فلا تصلح لمن سواه إلّا بامره. وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ‏سَوْءٍ فاسِقِينَ 74. علّ «حكما» هو حكم القيادة الروحية «و علما» علمها بماذا يقود وكيف يقود وهذه هي الإمامة و «القرية» هي سدوم و «تَعْمَلُ الْخَبائِثَ» مؤنثا قضية ادب اللفظ، حيث حلّقت خبائث أهلها جوّها تماما لحدّ كأنها كانت تعمل الخبائث، ثم و «انهم» مذكرا قضية المعنى وهم عاملوا الخبائث «كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ» ... «نجيناه الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» فكان مع ابراهيم وفي حضن رسالته وإمامته، مع انه ايضا كان اماما لأمته. وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ 75. و هكذا يكون دور كل صالح في ميزان اللّه انه يدخله في حرمته قدر صلاحه وصلوحه، رحمة في النش‏آت الثلاث، والرحمة الأخيرة هي حق الخلاص.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 72

وَ نُوحاً إِذْ نادى‏ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ 76. «و نوحا» ومن بعده عدة من هؤلاء الأئمة، منصوبين إعرابا لأنهم منصوبون كسائر الأئمة في «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً». «وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الُمجِيبُونَ» (37: 75) (نادانا» بقوله «رب اني مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، ... وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14) و «الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» هو الغم الشديد والهم المديد من تماديهم في الطغيان، وهو الطوفان الشامل، كما «و اهله» آهل كقرينة على ثاني الكربين، ومنهم من آمن معه في غير اهله «وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ... (11: 40). وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ 77. و لأن نوح من اولي العزم من الرسل، فشرعته عالمية تحلّق على كافة المكلفين، إذا «فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» يستغرق كافة المكذبين به في الكرة الأرضية كلها.

ابراهيم و ملكوت و السماوات والأرض‏

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى‏ كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 73

تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى‏ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى‏ وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (84) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ (90) هذه أربعة عشر آية هي بجملتها تتناول موضوعا متصل الفقرات في بناء العقيدة، تعريفا شاملا عريفا عريقا بالألوهية الحقة الحقيقية وحق العبودية الصالحة وما بينهما من صلات، تعالجها هذه الآيات في أسلوب قصصي. و هذا الدرس البالغ لقمته، فيه عرض لموكب الإيمان الرسالي منذ نوح إلى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه و آله طالعا في مطلعه مشهد رائع للحجة الإبراهيمية الراسمة لحكم الفطرة السليمة، تحرّيا عن رب العالمين، هو بظاهره تعلم في سيرة التعليم إذ كان موحدا منذ بزوغه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 74

لم يكفر به-/ ولن-/ طرفة عين: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74): هنا «أبيه آزر» ولا ثانية لها في القرآن إلّا «أبيه» دون «آزر» «1» والقصد منه غير والده كما هو المتأكد من آيات عدة، فقد بدأ قومه ومنهم آزر المسمى ب «أبيه» بالتنديد على عبادة الأصنام «أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» ورغم الحظر عن الاستغفار للمشركين يعده الاستغفار حين يتلمح من كلامه معه انه في حالة التحري: «قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا. قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (19: 48) ولقد أنجز له وعده قبل ان يتبين له انه عدو للّه: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (26: 86) إذ «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (9: 114). ذلك، فقد تبرء منه حتى آخر عمره وانجاز أمره، ولكنه نسمعه حين يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل يدعو لوالديه: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ‏الْحِسابُ» (14: 41). إذا فوالده هنا غير أبيه هناك، فهو عمه دون والده، ولا جده من أمه لأنه ايضا والده، وإلّا لكان نقضا لعصمة الجليل والخليل حيث أنبأ: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» وقضية طليق التبرؤ ألا يستغفر لآزر، فلما استغفر لوالديه في آخر عمره و نهاية أمره‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في 9: 114 و 19: 42 و 21: 52 و 26: 70 و 37: 85 و 43: 26 و 60: 4

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 75

وقد تبين أن آزر عدو للّه نتأكد أن والده غير المعني بأبيه‏ «1». و «... أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً» منكرة، هي من صنع المصنوعين، تتخذها «آلهة» كما اللّه، إشراكا لها باللّه، «إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ» التابعين لك «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» يبين ضلاله لأصحاب الفطر والعقول. هنا «أصناما» منحوتة بأيديهم وما أشبه من المصنوع، تنكير لنكير الأصنام، تنكيرا فطريا و عقليا بل وحسيا لاتخاذها آلهة، فهو استفهام انكاري بأشده، منقطع النظير بأشدّه، يستأصل الأصنام وأضرابها عن كافة شؤون الألوهية. وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75): «و كذلك» البعيدة المدى، العميقة الصدى لملكوت الأصنام وما شابهها من السماوات والأرض «نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...» حيث استطاع أن يتغلب في كلّ حقول الحجاج مع أبيه ومع قومه ومع نمرود الطاغية ليكون .. «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» ونتيجة لهذه الإرادة الربانية «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ...». أجل، وكلما زادت رؤية ملكوت الكون وكيانه تعلقا باللّه، زاد الرائي يقينا أكثر باللّه، فلأن التعلق باللّه درجات، فملكوته أيضا في أنفس معتقديها درجات، كلّما كان السلب أقوى و أعمق كان الإيجاب-/ على ضوءه-/ أعمق وأقوى، بل ولا نصيب للخلق في معرفة اللّه إلّا مجالات السلب، ف «لا إله» تنفي الألوهة عن كلّ الكائنات بحذافيرها، ثم «إلا الله»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع لتفصيل المبحث الى آية التوبة (114) و الممتحنة (4) ج 28: 275 و ابراهيم (41) ج 13 و مريم (16: 333) تجد قولا فصلا حول أن آزر لم يكن والده عليه السلام، و وجه التعبير بالأب عن غير الوالد في آيات عدة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 76

تثبت حق الألوهة له تعالى، ولكن ما هو وما هي صفاته وأفعاله؟ لا نصيب له هنا إلّا السلب، موجود يعني ليس بمعدوم، عالم يعني ليس بجاهل وهكذا الأمر .. ف «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الُمخْلَصِينَ». و هنا تساؤلات عدة حول هذه الآية، منها ما هي الملكوت، وأخرى ألم يكن إبراهيم قبل هذه الرؤية من الموقنين باللّه، وإذا فكيف كان يؤنب أباه وقومه بشركهم أنهم في ضلال مبين، وثالثة بما ذا يعطف العاطف في «و ليكون ..» ولا معطوف عليه ظاهرا يعطف عليه؟. قد يكون المعطوف عليه «ليحتج على المشركين» كأصل في حجاجه «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» الأولين في تلك الاراءة الملكوتية، إيقانا فوق إيقان فإيمانا فوق إيمان، حيث الإيقان فالإيمان درجات حسب درجات رؤية الملكوت، فما أريه إبراهيم من الملكوت له جانبان اثنان ثانيهما وهو الأعمق «لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» والأوّل وهو الممكن تفهمه لمتحري الحق فقر الكائنات كلها إلى ربها، «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» الرساليين وهم أفضل الرسل والنبيين، لا كلّ الموقنين بل الموقنين القمة كإبراهيم عليه السلام. ذلك، ولرؤية الملكوت خلقيا-/ وهي مفروضة على كلّ السالكين إلى اللّه-/ درجات، رؤية الفطرة، ورؤية العقلية الإنسانية على ضوء الفطرة والرؤية الحسية والعلمية، ورؤية بالوحي يكملها كلها، كما ولكلّ درجات، فليست رؤية الملكوت-/ إذا-/ نسقا واحدا وشكلا فاردا، ومن ثم رؤية خالقية ربانية علميا وقيوميا خاصة باللّه. و النظرتان الأوليان إلى ملكوت السماوات والأرض هما المفروضتان على كافة المكلفين، ذوي الفطر والعقول، والأبصار والبصائر، وقد يندد بمن لا ينظر بها إلى الملكوت:

«أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماوات وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ ...» (7: 185)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 77

و هذه هي الملكوت العامة التي يجب النظر إليها بعين الفطرة والعقلية الإنسانية، بعين البصر ثم البصيرة. و هذه الرؤية لا تتجاوز علما مّا بماهية الكون من تعلقه باللّه، فلا إله إلّا اللّه، ثم هناك رؤية علمية وقيومية تختص باللّه وهي رؤية أخص الخاص: «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (36: 83) (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» (23: 89). هذه وتلك ملكوتان بينهما بون كبير، ثم بينهما وسيطة تختص بإراءة الوحي، وهي رؤية الخاص، كرؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض‏ «1» فإيقانه أيضا هو المناسب لرؤيته، إيقان بعصمة ربانية ليس كسائر الإيقان الحاصل بفطرة وعقلية إنسانية مهما بلغت ما بلغت من قممها، فإنها ليست لتصل إلى عصمة طليقة تحصل بإرادة اللّه، المعبّر عنها ببرهان الرب: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 24) اللهم إلّا كنموذج تصديقا لرؤية الملكوت‏ «2» وبقدر ما يتقي العبد ربه يرزق رؤية للملكوت، ولكنها على أية حال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 732 عن هشام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كشط له عن الأرض و من عليها و عن السماء ومن فيها و الملك الذي يحملها و العرش و من عليه و فعل ذلك كله برسول اللّه صلى الله عليه و آله و أمير المؤمنين عليه السلام وفيه عن كتاب الاحتجاج حديث طويل عن النبي صلى الله عليه و آله يقول فيه: يا أبا جهل أما علمت قصة ابراهيم الخليل عليه السلام لما رفع في الملكوت و ذلك قول ربي «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ ...» قوى اللّه بصره لما رفعه دون السماء حتى ابصر الأرض و من عليها ظاهرين و مستترين»

(2). نور الثقلين 1: 730 في كتاب المناقب لابن شهر آشوب جابر بن يزيد قال سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قوله‏تعالى: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ ...» فرفع أبو جعفر عليه السلام بيده و قال: ارفع رأسك فرفعته فوجدت السقف متفرقا و رمق ناظري في ثلمة حتى رأيت نورا حار عنه بصري فقال: هكذا رأى إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض، و انظر إلى الأرض ثم ارفع رأسك فلما رفعته رأيت السقف كما كان ثم أخذ بيدي و أخرجني من الدار و ألبسني ثوبا و قال: غمض عينيك ساعة ثم قال: أنت في الظلمات التي رأى ذو القرنين ففتحت عيني فلم أر شيئا ثم تخطى خطا فقال: أنت على رأس عين الحياة للخضر ثم خرجنا من ذلك العالم حتى تجاوزنا خمسة فقال: هذا ملكوت الأرض قال غمض عينيك و أخذ بيدي فإذا نحن بالدار التي كنا فيها و خلع عني ما كان ألبسنيه فقلت جعلت فداك كم ذهب من اليوم؟ فقال: ثلاث ساعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 78

ليست إلّا دون العصمة الرسولية والرسالية في هذه الرؤية، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله:

طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض» «1» وقال صلى الله عليه و آله: «لو لا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع و قد قال تعالى: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الُمحْسِنِينَ». وعن الصادق عليه السلام: «لو لا أن الشياطين يحمون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض». و هنا في ارادة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض نتائج عدة رسولية ورسالية، أهمها المذكور هنا: «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» فإنه المحور الأساس في بناء الرسالة رسوليا ورساليا. و هذه الإراءة لإبراهيم-/ هنا-/ الخاصة بمعرفة اللّه كما تناسب محتده، تثنى في أخرى هي الإيقان بحقيقة المعاد: «إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..» (2: 260) وقد كان موقنا أنه تحيى الموتى، ولكنه هنا يتطلب الإيقان ب «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» إيقانا معرفيا بفعل الرب على قدر دون كلّ الأقدار الخاصة باللّه فإبراهيم الخليل كان عارفا ربه الجليل «من قبل» وعلّه منذ ولاده: «وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ. إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ الَّتماثِيلُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 733 عن الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 79

الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ» (21: 52) والحجة التالية عرض لموقف الفطرة والعقلية السليمة بمعرض قومه المشركين، نبهة لهم لعلّم يذّكّرون. اجل «وَ كَذلِكَ نُرِي» اراءة متواصلة لا انقطاع لها، ولأنها أصل العصمة الربانية لإبراهيم الخليل، فلا تعني «نرى» إراءة لاحقة، ولا-/ فقط-/ حكاية حال ماضية، بل هي إرادة استمرارية طول عمره ولا سيما في طائل أمره الرسالي، إراءة تحلق على كيانات العصمة رسلا وأئمة يخلفونهم، ولا سيما محمد صلى الله عليه و آله والمعصومون من عترته عليهم السلام‏ «1». «كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» بما فيهما من أصنام وأوثان وطواغيت وسواها من الكائنات، فإن رؤية حق الخلق وحاقّه رؤية لحق فعل الخالق قدرها، مهما كانت الرؤية الطليقة خاصة باللّه، فلا يعرف نفسه كما هو إلّا هو، ثم من يعرّفه نفسه بما يريه من ملكوت خلقه، فإن ملكوته نفسه لا ترى إلّا لنفسه، وكمايروى عن أوّل العارفين والعابدين: «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك». صحيح أن رؤية الفطرة الأصيلة، غير المحجوبة، هي أصل الرؤية، ثم رؤية العقل الذي يتبنّاه هي فصل الرؤية عن إجمالها، ولكنها مع رؤية العلم والحس لا تكفي عصمة طليقة في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في الخرائج و الجرايح عن ابن مسكان قال: قال ابو عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالى: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ ..» قال: كشط اللّه لإبراهيم السماوات حتى نظر الى ما فوق الأرض و كشطت له الأرض حتى رأى ما تحت نجومها (تخومها) و ما فوق الهوى، و فعل بمحمد صلى الله عليه و آله مثل ذلك و إني لأرى صاحبكم و الأئمة من بعده فعل بهم مثل ذلك، و سأله أبو بصير هل رأى محمد صلى الله عليه و آله ملكوت السماوات و الأرض كما رأى ذلك ابراهيم عليه السلام؟ قال: نعم و صاحبكم و الأئمة من بعده». وفيه عن كتاب الخصال عن يزداد بن ابراهيم عمن حدثنا من أصحابنا عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سمعته يقول قال امير المؤمنين عليه السلام و اللّه لقد أعطاني اللّه تبارك و تعالى تسعة أشياء لم يعطها أحدا قبلي خلا النبي صلى الله عليه و آله: فتحت لي السبل و علمت الأسباب و اجري لي السحاب و علمت المنايا و البلايا و فصل الخطاب و لقد نظرت في الملكوت بإذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي و ما يأتي بعدي ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 80

أصل الرؤية وفصلها، اللّهم إلّا قدر ما كلف العباد بما وهبوا من طاقات للمعرفة، و «لو لا أن الشياطين ...». فإبراهيم الخليل هو من أولئك المعصومين الأكارم الذين أراهم اللّه ملكوت الكائنات بأسرها كما يمكن لمخلوق، مهما كانت هذه الإرادة أيضا درجات، من علم اليقين إلى عين اليقين وإلى حق اليقين، كما ولكلّ درجات. و لأن صور الرؤية الملكوتية للكون والمكون درجات، فقد رأى محمد صلى الله عليه و آله ربه في أحسن صورة «1» رؤية معرفية بقلبه وكما رأى من آيات ربه الكبرى ببصره وبصيرته في معراجه «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏. ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى‏. لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏» (53: 18). و لأن «كَذلِكَ نُرِي ...» تحمل إراءة دائمة لإبراهيم وهذه الحجة طرف من أطرافها فليست «هذا ربي» تصديقا ولا شكّا فإنهما ينافيان الإيقان دون العصمة فكيف يجتمعان مع إيقان العصمة؟، كما وأن «تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى‏ قَوْمِهِ» دليل أنها من إراءة الملكوت، ولم تكن حجة على نفسه، لسابق توحيده وسابغة. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى‏ كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ (76):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور اخرج احمد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عبد الرحمن‏بن عائش الخضرمي عن بعض اصحاب النبي صلى الله عليه و آله قال سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: رأيت ربي في احسن صورة فقال: فيم يختصم الملاء الأعلى يا محمد! قلت: أنت اعلم أي‏رب فوضع يده بين كتفيّ فوجدت بردها بين ثديي قال فعلمت ما في السماوات و الأرض ثم تلا هذه آلية: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ ...» ... أقول: «صورة» هنا هي كما تناسب رؤية الرب و هي الصورة العليا المعرفية، و يده تعالى هي يد الإراءة للملكوت، فأين صورة من صورة و إراءة من إراءة؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 81

موقف حاسم جازم من مواقف حجاجه على المشركين في حفلة سماوية، فلئن قضي على ألوهة آلهة السماء-/ التي هي الأصيلة عند عبدتها، وأصنام الأرض ليست إلّا ممثلة لها، كما هي تمثل إله السماوات والأرض-/ فهو القضاء بأحرى على آلهة الأرض. ذلك وكما له موقف آخر في حفلة أرضية مع آلهة الأرض «فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»، وكذلك مواقف أخرى تثبيتا لوحدة الإله «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ». في ذلك الحجاج نرى حسما لألوهية النجم والقمر والشمس، مما يدل على أن الخليل يحاج هنا عبدة الأجرام السماوية «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى‏ كَوْكَباً» وهو أوّل ظاهرة من الكواكب بداية الليل، فهي الزهرة «قالَ هذا رَبِّي» على الإنكار والاستخبار» «1» لا التصديق والإخبار أو سؤال الإنكار، بل على المجاراة في الحجة التي توغل الخصم في الحجة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 735 في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء وبسند متصل عن علي بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قول اللّه تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى‏ كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي» فقال الرضا عليه السلام: ان ابراهيم صلى اللّه عليه وقع على ثلاثة اصناف صنف يعبد الزهرة و صنف يعبد القمر و صنف يعبد الشمس و ذلك حين خرج من السرب الذي أخفى فيه «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» رأى الزهرة قال هذا ربي على الإنكار و الاستخبار، فلما افل الكوكب «قالَ لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم «فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي» على الإنكار و الاستخبار فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، يقول: لو لم يهدني ربي لكنت من القوم الضالين فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر من الزهرة و القمر على الإنكار و الاستخبار و الإقرار فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة و القمر و الشمس «يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» و إنما أراد ابراهيم بما قال ان يبين لهم بطلان دينهم و يثبت عندهم ان العبادة لا تحق لمن كان بصفة الزهرة و القمر و الشمس و انما تحق العبادة لخالقها و خالق السماوات و الأرض و كان ما احتج به على قومه ألهمه اللّه و آتاه كما قال اللّه تعالى: «وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى‏ قَوْمِهِ» فقال المأمون: «لله درك يا الحسن»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 82

كيف وقد أري ملكوت السماوات والأرض، ورمى أباه آزر وقومه المشركين من قبل بضلال مبين، ومن بعد «إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» دون «برئت» أو مما تشرك، ثم «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» دون «لا أشرك» «فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» ... إنه غاب في نفسه وغاب عن الخلق. فمن ذا الذي يرعى مربوبية إذا كان الرب يغيب، لا-/ إنه ليس ربا حيث الرب لا يغيب، وإنه منطق الفطرة بعيدا عن الجدليات المنطقية والفلسفية المصطلحة، منطق يفهمه كلّ ذي فطرة سليمة. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77): و هذا هو شأن المتحري عن ربه الذي عرفه بفطرته وعقليته انه الوجود الطليق الذي لم يزل ولا يزال فلا أفول له ولا أية حركة، فلإنه يعرف ربه يسأله ملتمسا في تحريه «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» الذين ضلوا عن ربهم في التيه، ضلالا عن ميثاق الفطرة «1». فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78): فلأن هذا أكبر فعلّه لا يأفل كما أفل صاحباه «فَلَمَّا أَفَلَتْ» ثم لم يجد أكبر منها فاستأصل-/ إذا-/ في ذلك الحجاج ربوبية أجرام السماء «قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» أنتم باللّه و لست أنا منكم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 736 في تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليهما السلام في قول ابراهيم صلوات اللّه عليه «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» اي: ناسيا للميثاق و رواه مثله عنه عليه السلام مسعدة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 83

و علّ «هذا» هنا بدل «هذه» رعاية ل «ربي» ورعاية لهم تماشيا منهم في ربوبية الشمس فقد عنى «هذا» الكائن النير «ربي». إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79): «إني» متأكدا دون ارتياب «وجهت» منذ عرفت نفسي لا فحسب من الآن «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» بكلّ وجوهه واتجاهاته «لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ والأرض» حيث المحدودية والأفول دليل الإنفطار، والفطرة المتحرية عن اللّه لا يصدق محدودا آفلا أنه هو اللّه، فكما الفطرة تتحرى عن الفاطر غير المنفطر، كذلك الخلق المنفطر دليل على الفاطر غير المنفطر، تجاوبا بين كتابي الآفاق والأنفس في توحيد اللّه. و هنا «فطر» لمحة لامعة إلى قضية دين الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، وأنها تحكم بانفطار الآفلين، فانفطار المنفطرين دليل فطر الفاطر وما أحسنه دليلا! فقد فطر اللّه الإنسان على معرفته، وفطر الكائنات دليلا على ربوبيته، وهي كلها آياته: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآْفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...». فإبراهيم الخليل يصوّر هنا في حجاجه صورة التحري عن ربه في مظهر الشاكّ بديلا عمن كانوا يعبدون هذه الإجرام، ف «هذا ربي» هي من مقالتهم وهو ينقلها لينقلهم منها إلى الذي فطر السماوات والأرض. فمهما كانت «هذا ربي» إشراكا ممن يعتقده، «فلم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان في طلب ربه وهو من غيره شرك» «1» «و إنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 737 من تفسير القمي و سئل أبو عبد اللّه عليه السلام عن قول ابراهيم «هذا ربي» أشرك في قوله: هذا ربي؟ فقال: لا. بل من قال هذا اليوم فهو مشرك، و لم يكن ..

(2). المصدر 738 في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال في ابراهيم عليه السلام إذا رأى كوكبا قال: إنما كان طالبا لربه و لم يبلغ كفرا و انه من فكر ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 84

فالشك المتحري عن يقين هو شكّ مقدّس فيعتبر من الإيمان، والشك المدنس هو الجامد الجاحد دون أي‏تحر إلّا تجريا على الحق المرام. ثم إن هذه الطريقة هي أقرب إلى الدعوة والإنصاف في الحجاج، وأبعد عن الشغب والاعتساف، وليس كذبا محرما لأنه في مقام الإصلاح والإفصاح عن الحق المرام، ثم وقصد الاستنكار وإن لم يظهر يخرجه عن الكذب إلى التورية حيث ورّى بصورة الإخبار و القصد هو الاستنكار. ثم وهذه الأفولات الثلاث كانت براهين على بطلان ثالوث الربوبية للنجم والقمر والشمس بحكم الفطرة الحكيمة الحاكمة في كلّ قليل وجليل. فلأن الفطرة تحب الكمال المطلق حبا في حقل الربوبية، ولا تجد مطلوبها في هذه الكائنات، فليكن مطلوبه خارجا عن عالم الحس والحيطة العقلية. فإبراهيم المتحري عن ربه في مجالة الحوار، لمّا لا يجده في كوكب يلمع ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع، فبأحرى لا يجده فيما دون هذه المشرقات مهما شرّق وغرّب، فهو واجده في فطرته أنه لا حدّ له ولا أفول، فليس هو ماله حد وأفول. و هكذا يلقي إبراهيم عصاه في حران بين عبدة الأصنام عساه يجد آذانا مصغية وعقولا ناضجة غير معقولة بطوع الهوى، فاختار لرشدهم حجاج التجاوب بين الفطرة والعقل والإحساس، «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» وستره ظلامه «رأى» كوكبا «مما كانوا يعبدون، فجاراهم في زعمهم دون مجابهة علنية، حاكيا مقالهم «هذا ربي» كأنه صلوات اللّه عليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 85

منهم «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» أي: ناسيا للميثاق طريق في الحوار طريف حكيم، ومنهج في الحجاج قويم، وهذه أدعى إلى إنصاتهم لمقالته فإنها مقالتهم، ثم كرّ على المقالة من طريق خفي ينبئ عن سداد رأيه ونفاذ بصيرته، فلما أفل هذا الكوكب تحت الأفق فتفقّده فلم يجده، وبحث عنه فلم يره قال «لاأُحِبُّ الآْفِلِينَ» فكيف يكون الإله آفلا غافلا عن خلقه، فذاتية الأفول دليل على ذاتية الحاجة والحدوث، والفطرة الإنسانية تتطلب إلها لا يأفل ولا يغفل، بل هو إله لا أزلي أبدي لا أوّل له ولا آخر وهو الأول والآخر. «فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً» وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب ومن كلّ كواكب السماء، وأكبر منه حجما «قالَ هذا رَبِّي» تدرجا في تحريه إلى الحق المرام وهو الكمال المطلق ومطلق الكمال، استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم تمشيا بأقدام الفطرة في تحريها «فَلَمَّا أَفَلَ» هذا الأنور والأكبر كما الأصغر «قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» عما فطرهم عليه من معرفة اللّامحدود، تبيانا أن اللّه هو مصدر الهدى ومانح التوفيق لها عن الردى «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً» يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الأفق جمالًا وملأت الأرض زينة ودلالا «قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ» فلأنه أكبر قد لا يأفل والفطرة متحرية عن الكبير الذي لا يصغر «فَلَمَّا أَفَلَتْ» كسائر الآفلين حكم على جماعة عبدة الكواكب وأمثالها من الآفلين-/ وكلّ الكائنات آفلة مهما اختلفت المظاهر-/ حكم عليهم بالإشراك وبراءته عنه «قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» بكلّ وجوهه الفطرية والعقلية والقلبية «للذي» فطرهن و «فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً» معرضا عما سواه ومسلما إياه «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 86

أجل و «إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»-/ «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ثم «وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ» ومن قبل «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي» وفي أخرى «لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ» هي عساكر من البراهين على أنه لم يكن يعتقد ما كان يكرره: «هذا ربي» فإنما كان مجاراة في حجاجه بالتي هي أحسن حتى يجرهم إلى ما هو عليه. ذلك، وليست الربوبية المنكورة لغير اللّه ربوبية الخالقية حيث المشركون لا يعتقدون في خالقية ما يشركونه باللّه، فإنما يعتقدونه في ربوبيات تتفرع عن ربوبية اللّه، أم إن اللّه خالق والربوبية مخولة إلى بعض خلقه. و إبراهيم عليه السلام في هذه الحجة يستأصل الربوبية بأصلها وفصلها عما سوى اللّه، أن الرب الآفل كيف يكون ربا ودوام المربوبين لزامه دوام الربوبية وهو لا يناسب أفول الرب. ذلك وكما يلمح له «هذا ربي» لا «رب العالمين» حجاجا مع هؤلاء الذين يرببون هذه الأشياء في حقول خاصة من الربوبيات، دون الربوبية المحلقة على كلّ شي‏ء فإنهم لا يعتقدونها في غير اللّه مهما فصلوا عنه الربوبية، فإن لهم شركاء متشاكسين في مختلف الربوبيات. و في رجعة أخرى إلى هذه الآيات نقول: أصل الحجة في إبطال ربوبية هذه الأجرام هو أفولها وصغرها بمعنى محدوديتها، والآفل غير محبوب للفطرة كإله مهما كان محبوبا في غير حقل الربوبية قضية الضرورة المعيشية. فذاتية الأفول ذاتا وصفات وأفعالا، المحلقة على كافة الكائنات هي التي تسلب عنها الربوبية، وتخلع عنها رداء الربانية: «لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ». و انها تجمع في نفسها خط المواصلة مع المشركين وأضرابهم وخط المفاصلة، مواصلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 87

حيث خطت في كتاب الفطرة والعقلية السليمة والحس السليم والعلم السليم، ومفاصلة حيث تخلف المتخلفون عن ذلك الخط المواصل في حاضر العقيدة والعمل، ف «لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» نبهة لهم ككلّ تعرّفهم خطأهم فيما هم عليه من الإشراك باللّه. يقول في الخطوة الأولى من حجاجه «لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» والكوكب الآفل نموذج منهم، وجمع العاقل هنا ليجمع الآلهة العاقلة إلى غير العاقلة فتضم كلّ ما سوى اللّه ومن سوى اللّه. و في الخطوة الثانية «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي» فالهداية التامة هي حصيلة الاهتداء بالفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية، ومدّ الهدى الربانية، فكما الضال عن هدي الفطرة في ضلال، كذلك المهتدي بها غير المؤيد بهدى اللّه، فهنا يقول إبراهيم عليه السلام حاكيا عن كتاب الفطرة، إنني أتحرى عن ربي جادا كادّا دون فتور فليهدني ربي بما اهتديت ف «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17). و في الخطوة الثالثة زيادة «هذا أَكْبَرُ» والفطرة ناحية في حبها منحى الأكبر فالأكبر، وهي في عمق حبها في حقل الربوبية تحب الكبير المتعالي عن كلّ أفول، فلما لم يجد في الشمس بغيته من الحب الفطري للكمال اللّامحدود، وهي أعظم شارق في المنظر، فهناك البراءة التامة عن كلّ شارق وغارب، وكلّ متحرك ومتغير محكوم بعوامل، مسيرة تحت رحمة حوامل، ف «يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ». فالتصرم زمانيا أفول، والتغير أفول، والحركة أفول والتركّب أفول، فالكائنات كلها آفلة في مثلث كيانها، قبل تكوينها وبعد زوالها وهي حال كونها افلة عن حق الوجود والوجود الحق إذ لا تملك لأنفسها شيئا.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 88

و فطرت اللّه التي فطر الناس عليها تتحرى عن الكمال المطلق ومطلق الكمال الذي ليس له حد ولا زوال ولا أي‏أفول. و ذاتية الأفول في الكائنات تحت رحمة مربعة الحالات زمانا وحركة وتغيرا وتركبا، هي برهان قاطع لا مرد له لفقرها عن بكرتها وأسرها تحت طائل القدرة الخارجة عنها بأسرها «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (51: 50). فحين نجد واقعا من هذه الأربعة وإمكانية منها في كائن فهو-/ إذا-/ محكوم بالإمكان والحدوث وكلّ أفول هو قضية الحدوث. و ليس «لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» محصورة في حصار العقلية العامية، بل هي تحلّق على كافة العقول ساذجة وناضجة، كما هو قضية الواجهة العامة للدعوات الرسالية، حيث تواجه كلّ العقول في كلّ الحقول. و أحسن كلام وأجمله ما يشتمل على الحصص الثلاث، فحصة الخواص هنا عناية الإمكان من الأفول، وحصة الأوساط عناية مطلق الحركة الدالة على الإمكان والحدوث، و حصة العوام هو-/ فقط-/ الأفول الغروب. و لا يرد على عامة «الأفول» أن اللّه الذي يستدل لكونه وتوحيده بأفول الكائنات هو أيضا آفل: «غائب» لا يرجى حضوره، حيث البون بيّن في هذا البين، فآفل الخلق هو ذاتي الأفول حتى عن نفسه، وهو متحول في أفوله، وليس أفوله إلّا من ذاته. و لكن اللّه سبحانه ليس آفلا بأيّ من هذه وسواها من أبعاد الأفول، فهو ظاهر لذاته وظاهر لخلقه بآياته، وما غيابه عن الخلق في كنهه إلّا لقصورهم دونه، فغيب الذات له‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 89

سبحانه-/ خلاف أفول غيره-/ دليل ألوهيته، وظهور ذوات الممكنات كأفولها هما دليل مألوهيتها. فالأفول بعد الظهور كما الظهور عد الأفول هما دليل الحدوث قضية الحركة التي هي أبرز ملامح الحدوث، وأما الغائب في ذاته الظاهر بآياته فليس آفلا بل هو الظاهر الباطن والباطن الظاهر «يا من هو اختفى لفرط نوره، الظاهر الباطن في ظهوره. ذلك إضافة إلى محدوديتها الحاكمة كبرهان ثان على أفولها، ولا ينبئك مثل خبير. و هذه الحجة الإبراهيمية تستأصل الربوبية أصلية وفرعية عن كافة الكائنات المخلوقة، فلا تحويل لشأن من شؤون الربوبية إليها ولا تخويل، ولا لعباد اللّه المخلصين إذ لا ولاية لهم تكوينية ولا تشريعية، بل هي-/ فقط-/ ولاية شرعية بإذن اللّه، فلا تأثير لهم في الكون إلّا بأمر اللّه ومشيئته. و هذه من أنجح الحوار مع الناكرين أن يتبنى ما يعتقدونه حجر الأساس في الحوار ثم يقضى عليه بما ينقضه، ومن ثم حوار يتبنى ما يعتقده الطرفان، ثم حوار يتبنى فقط ما تعتقده أنت المحاور، فالثالثة ساقطة على أية حال، والأولى ناجحة على أية حال، والوسطى عوان بينهما. ذلك لأنه ليس نجاح الحوار-/ فقط-/ في قوتها، بل وقبلها في الحصول على جو الاستماع لها والإصغاء إليها، فالخطوة الأولى في ناجح الحوار محاولة المحاور لكامل إصغاء محاورة لقوله، ثم المحاولة في إتقان الحجة وإيضاح المحجة. و هنا نسمع ابراهيم الخليل يبدأ بما يقوله خصمه «هذا ربي» ثم ينقضه بنقصه وأفوله الذي لا يناسب ربوبيته، وكما حاج عبدة الأصنام الأرضية أن كسرها وجعل الفأس على‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 90

كبيرها خلقا لجو التساؤل بناء على معتقدهم في ألوهيتها حيث أجاب عن «مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا ...»؟ ب «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» (21: 63) فعله .. ان كانوا ينطقون، فأسئلوهم إن كانوا ينطقون». و كما تماشى مع قولة نمرود: «أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ» انتقالا إلى حجة أظهر «فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ...» دون أن يصر على الحجة الأولى ببيان أوضح إذ لم يجد في نمرود بحاشيته تلك الذكاء اللائقة لتفهم الحجة الأولى، حيث القصد من الحجاج إفهام الخصم فإفحامه كما يفهم بلا لجاج. فالحجة مهما كانت بالغة، يجب أن يحتج بها بلغة يفهمها المحاج له، فلكلّ مقال مجال كما لكلّ مجال مقال، رعاية لكمال القول تجاوبا مع كمال المقول له. و ليست هذه الحجج حججا عامية تقنع-/ فقط-/ العوام، بل هي حجج صارمة ناتجة من إراءة الملكوت، فمن الملكوت قضاء الفطرة السليمة «لا أُحِبُّ الآْفِلِينَ» في حقل الربوبية، و «لا أحب» هذه لا خلاف فيه بين المحبين ولا تخلف عنه، فهو أقوى حجة بين الحجج، فحين تقل الحجج أو تكلّ يأتي دور حجة الفطرة التي لا نكير لها. لذلك يعتبر القرآن «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» انها «الدِّينُ الْقَيِّمُ» التي لا تفلت عنها مهما تلفت عنها كثير، فهي أقوى من كافة الحجج المنطقية والعقلية والعلمية والحسية أماهيه من حجة. و لا حجة لأية حجة إلّا ما تتبنى حكم الفطرة الكائنة عند الكلّ، والمقبولة لدى الكلّ، ولأن شرعة اللّه لا تختص بحقل الفلاسفة والعلماء العقليين والحسيين، فلتكن محتجة بأقوى الحجج وأعمها وأتمها وهي حجة الفطرة، مهما يزودها بسائر الحجج رعاية لمختلف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 91

القطاعات من المكلفين. و إنما احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما مشتركان في ذاتية الحركة المستلزمة للحدوث؟ لأن دلالة الأفول أظهر ونصيب العوام من حجته أبهر، ثم و «لا أحب» لا يتعلق صراحا بالبزوغ، إنما هو الأفول ف «لا أحب» بصورة طليقة تجتث كلّ حب ليست إلّا لآفل أو ميت، دون بازغ أوحي، فمهما لم يتعلق بهما الحب المطلق، فقد يشملهما مطلق الحب وهو مدار الحياة المعيشية، كما أن الحب المطلق مدار الحياة الايمانية، فعلى مدار حب اللّه وضوءه يحب المؤمن وسائل عيشته الايمانية. ثم الأفول-/ على أية حال-/ انتقال من قوة إلى ضعف، وعبدة الأجرام السماوية الذين كان يحتج عليهم ابراهيم، هم كانوا يرون قوة لها لنورها وبهورها وعظيم تأثيرها، فحين تأفل هذه الظاهرة الزاهرة فقد فلتت الوهيتها المزعومة لديكم. فإذا احتج بالبزوغ كانت حجة عليه من ناحيه مهما كانت له من أخرى!. ذلك، وأخيرا «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ...» وهو وجه الفطرة كأصل، ثم الوجوه التي تتبناه كوجه العقل والصدر واللب والقلب والفؤاد، نفسيا، ووجوه الحس بدنيا وكما أمرنا «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ...». و لما ذا «للذي» دون «إلى الذي» كيلا تلمح «إلى» إلى غاية مكانية أماهيه من غايات محدّدة محدودة، فكما «أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» لا «إلى الدين» كذلك «لِلَّذِي فَطَرَ ..»

وجه لزام للفاطر، تلازم المنفطر مع الفاطر. فهناك توجيه لوجه الإنفطار للفاطر، ووجه العبودية للمعبود، ووجه التربية للرب، فلا يبقى وجه للعبد إلّا وهو واجب التوجيه للّه الواحد القهار.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 92

و حصيلة البحث هنا أن مراتب الإيقان والإيمان باللّه هي قضية مراتب رؤية الملكوت، فللرؤية الفطرية نصيبها من إيقان فإيمان، ثم للرؤية العقلية المستوحاة منها، ثم المزودة بالرؤية الحسية والعلمية، ثم برؤية الوحي العام، ومن ثم بإرادة خاصة ربانية للمخلصين من عباده كمحمد صلى الله عليه و آله وإبراهيم واضرابهما، لكلّ من هذه قضاياها من إيقان وإيمان. ف «كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ» على طول خط حياته الرسالية بما قبلها «وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» القمة بإراءة الملكوت الربانية الخاصة الحاثة على المعرفة التوحيدية القمة السامقة. وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (80): «و» بعد ذلك الحجاج القاطع القاصع ما ازدادوا إلّا اللجاج فالاعوجاج إذ «حاجَّهُ قَوْمُهُ» في اللّه بعد ما جاءهم الهدى وتبين لهم الحق، «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا». «قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ» أن أشرك به كما تشركون، وتخوفونني عما تشركون كما تخافون «وَ قَدْ هَدانِ» ربي فأنى تؤفكون، أإفكا آلهة دون اللّه تريدون؟. «وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ»: إشراككم ولا ما تشركونه باللّه، لا أخاف .. إلّا أن يشاء ربي شيئا .. أخافه، فمن خاف اللّه أخاف اللّه منه كلّ شي‏ء ومن لم يخف اللّه أخافه اللّه من كلّ شي‏ء. و هنا يخوفونه من غضب الآلهة فإنه عندهم السبب الأول لعبادتهم إياها، مهما كان لهم منها-/ كذلك-/ رجاء الرحمة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 93

ذلك، وكما الإنذار في الحقول الرسالية يحتل الموقع الأول الذي يعم من يؤمن إلى من لا يؤمن، حيث إن تأثير التبشير أقل بكثير من تأثير الإنذار. و هنا الإجابة عن حجتهم تنحل إلى أمور: 1-/ (وَ قَدْ هَدانِ» فحصلت لي حجة الحق فيمن أعبده، فلا أخاف غيره. 2-/ (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً» فهو الذي ينجيني عن المخاوف بسعة علمه وقدرته ورحمته للمؤمنين به. 3-/ (وَ كَيْفَ أَخافُ ..» فحتى إذا صحّ الخوف عن الآلهة فكيف أترك الخوف عن إله الآلهة فقط دونها؟!. هنا «وَ قَدْ هَدانِ» هي أقوى الحجج، فإن من شؤون الربوبية هي هداية المربوبين «وَ قَدْ هَدانِ» ربي بحجته، وليست عندكم حجة الهدى من آلهتكم، فنفس الهدى هنا والاستغناء بها عما سوى اللّه، هما حجتان مطويتان في «وَ قَدْ هَدانِ» إضافة إلى أن الحاصل على بغيته بحجته ليس ليتحرى بعد عن حق هو عارفه، فهذه حجج ثلاث مطوية في «وَ قَدْ هَدانِ»، وقد تفرعت عليها الحجتان الأخريان فهي-/ إذا-/ خمس حجج. و هنا «إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً» من الخوف عما تشركون باللّه، حجة سادسة، أن لو أراد اللّه أن أخاف الآلهة-/ ولن يرد-/ فذلك-/ إذا-/ خوف بإرادته دون إرادتها، فيرجع حجة أخرى على ربوبيته دونهم!. «وَسِعَ رَبِّي» الذي رباني هكذا ورب العالمين كلا على قدره «كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً» فعلمه محيط بكلّ شي‏ء فلا تخفى عليه خافية ولا تدق عنه غامضة، فكلّ الأشياء عنده وامضة، فلا يصيبني أمر كما تزعمون، فربي هو الواسع علما فهو يذود عني.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 94

ف «وَسِعَ رَبِّي» تختلف عن سائر السعة، فإنها من سعة المحدود على المحدود، حيث تطلق على الأجسام وأشباهها التي فيها الضيق والاتساع والحدود والأقطار، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا، فإنما هي سعة ربوبية علمية كما هنا، وسعة في كافة مراحل القيومية كما في غيرها. وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81): فهذه ضابطة عالمة عاقلة في كلّ الأعراف أن اتباع الحق لا يخيف، واتباع الباطل مخيف يحيف، وأنتم الأغبياء تعاكسونها حيث ترجون أن أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم باللّه، وقد نزل سلطانا على توحيده ولم ينزل أي‏سلطان على ما تشركون. «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ» واقعيا وفي أي‏من الحقول «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أن الحق أولى من الباطل اتباعا وتخوفا من تركه. و هكذا تنجلي الفطرة وتتجلى في ضفة الإيمان ولا سيما المتأيدة بوحي اللّه بإراءتها ملكوت السماوات والأرض. و هكذا تنحرف فتنجرف في ضفة الكفر المعاند، ومن الفاصل بينهما التحري عن الحق في الأولى والتجري على الحق في الثانية. إن الفطرة حين تنحرف وتضل ثم تتمادى في ظلالها وتتسع الزاوية الهاوية وتبعد نقطة الانطلاق على ممشاها عن نقطة الابتداء ومحطة الانتهاء، إذا يصعب عليها أن تتوب وتثوب إلى الحق المرام الذي هو قضيتها كما فطر اللّه. هناك وجدان للّه بكلّ الوجود والوجود كله، فكيف يخاف غير اللّه من وجد اللّه؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 95

وكيف لا يخاف من لم يجد اللّه؟ ما ذا فقد من وجد اللّه وما ذا وجد من فقد اللّه؟ «أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك .. عميت عين لا تراك عليها رقيبا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا» «1». الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (82): و كما الإيمان درجات، كذلك الأمن الناتج عنه درجات أعلاها ل «الَّذِينَ آمَنُوا» باللّه ورسالاته «وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ»: عقيدي كإشراك باللّه، ف «ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) ولا عملي كأي عصيان، فإن «بظلم» تحلّق على كافة أنواع الظلم التي تناحر عقيدة الإيمان أو عمل الإيمان. «أولئك» الأكارم «لَهُمُ الْأَمْنُ» كله «وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» كامل الاهتداء. و ذلك الإيمان الآمن الطليق هو الحسنة الطليقة: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» (27: 89) وهم المتقون: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ» (15: 46): (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ ... يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ» (44:

55). أجل إن «الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ» يؤمن هؤلاء المؤمنين المتقين عن كلّ بأس وبؤس يوم الدنيا ويوم الدين، ولأن الإيمان والتقوى وترك الظلم درجات، فكذلك الأمن الناتج عنه درجات، ولأن قضية الإيمان الآمن تطبيق قضاياه ككلّ، في حق التوحيد والنبوة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من دعاء الامام الحسين عليه السلام في عرفات يوم عرفة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 96

والمعاد وفروعها، وفي حق كافة المسؤوليات الإيمانية فردية وجماعية، فقد تشمل «بظلم» كلّ انتقاص من أيّ من هذه البنود الإيمانية. خلطا «بشك» «1» ككلّ، أو خلطا لولاية الإيمان رسالة وخلافة «2» أو خلطا لعمل صالح بطالح، أو خلطا لنية صالحة بغيرها، أم أي‏خلط خارج عن قضية الإيمان. ف «ليس كل من وقع عليه اسم الإيمان كان حقيقا بالنجاة مما هلك به الغواة، ولو كان كذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيد وإقرارها بالله ونجى سائر المقربين بالوحدانية من إبليس فمن دونه في الكفر ...» «3». و تفسير «بظلم» «4» أنه «بشرك» تعبير عن أنحس الظلم وأتعسه، أم يؤوّل بأي شرك جلي أو خفي، عقيدي أو عملي، وأما عبادة الأوثان فلا يخلط مع إيمان أيا كان، فإنما هو دون عبادة الأوثان: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» والعبارة الصالحة لغاية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 740 في اصول الكافي باسناده الى أبي بصير قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن هذه الآية «... بظلم» قال: بشك‏

(2). فيه عن المصدر عنه عليه السلام في «بظلم» قال: بما جاء به محمد من الولاية و لم يخلطوها بولاية فلان و فلان‏

(3). المصدر في الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه السلام حديث طويل و فيه «و أما قوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» و قوله «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى‏» فإن ذلك كله لا يغني إلّا مع الاهتداء و ليس .. و قد بين اللّه ذلك بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» و بقوله: «الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ»

(4). الدر المنثور عن عبد اللّه بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول اللّه وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: انه ليس الذي تعنون الم تسمعوا ما قال العبد الصالح «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»؟ إنما هو الشرك. أقول: الشرك المرسوم و هو عبادة الأوثان خارج هنا عن «ظلم» مهما كان اظلم الظلم، حيث الايمان و ان في ادنى درجاته لا يجتمع مع هذا الشرك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 97

الشرك هي الشرك نفسه، أم ولأقلّ تعبير «بالظلم» دون «بظلم» الشاملة لكلّ ظلم. ذلك، أو أنه يعني من «الأمن» مطلق الأمن، لا الأمن المطلق وقد تتحمله الآية تأويلا، وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «إنما هو الشرك» انه قال: «من ابتلي فصبر وأعطي فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر «أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» «1». إذا فحين يعنى من «الأمن» الأمن المطلق ف «بظلم» تعم كلّ ظلم، وهذا هو ظاهر التنزيل، وأمّا حين يعنى منه مطلق الأمن ف «بظلم» تعني أظلم الظلم وهذا من باطن التأويل. وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى‏ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83): و «تلك» البعيدة المدى، العميقة الصدى، الباهرة الهدى، من حجج التوحيد «حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ» على ضوء إراءته ملكوت السماوات والأرض، وتلك درجة لا ينالها إلّا من أخلصه اللّه مهما كانت درجات حيث «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ»: فمن الدرجات التي أوتيها إبراهيم الخليل من ربه الجليل النبوءة ثم الرسالة ثم النبوّة ثم الإمامة، وقد أوتي معها رؤية ملكوت السماوات والأرض حجة لتوحيد اللّه، وملكوت إحياء الأموات اطمئنانا لقلبه بهذه المعرفة القمة وهي عين اليقين بحقيقة الإحياء، وإخمادا لنار نمرود، درجات سبع في أصولها وفيها مزيد بتقاسيمها، ثم في الأخرى درجات اخرى هي أحرى بكونها درجات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في الشعب عن سنجرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ... ثم سكت فقيل له يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما له؟ قال: «أولئك ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 98

و قد تلمح جميعه «حجتنا» لجامعية الحجة الربانية التي أوتيها إبراهيم لما تحتاج إلى حجة من محجّة. 1-/ ولأن الرب لا يؤتي حجة لمربوبه النبي ذي الدرجات، فيها تشكك لتوحيده. 2-/ ومن ثم هي «على قومه». 3-/ ثم «إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» قبل إلقاء الحجة. 4-/ و «لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي» ضمن إلقاءها. 5-/ و «إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» كحالة دائبة لإبراهيم. 6-/ ثم «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». 7-/ ومن قبل «لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ. إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ الَّتماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ» (21: 52). هذه العساكر السبعة مجندة لأن «هذا ربي» منه في حجاجه لم تكن إلّا مجاراة على الإنكار والاستخبار، دون تصديق وإقرار «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»: «حكيم» في حجته لا يتخللها شك وريبة، ولا تغلب بأية حجة «عليم» بإلقائها في مواتية ظروفها. وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى‏ وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (84) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86):

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 99

هنا يذكر ثمانية عشر من الأنبياء «1» من ذرية إبراهيم إلّا نوح، من أجداده، وهو نفسه حجر الأساس في ذلك التعريف العريف، وترك ثمانية، منهم من هم من جدوده وهم آدم وإدريس، أم سواهم كهود وصالح، ومنهم من هو إمام الأئمة في سلسلة الرسالات وهو محمد صلى الله عليه و آله. و ترى كيف لم يذكر إسماعيل كأول وهبة لإبراهيم وهو بكر ولديه، وقد تأخر في الشطر الثالث من هذه الشطرات الثلاث الرسالية، وهو جد محمد خاتم النبيين صلى الله عليه و آله؟. لقد ذكر إسماعيل اثنى عشر مرة في القرآن، في ثلاث منها يذكر هو-/ فقط-/ مع إبراهيم دون إسحاق‏ «2» وفي خمس يتقدم على إسحاق مع إبراهيم‏ «3» وفي أربع يذكر دون إبراهيم وإسحاق عليه السلام‏ «4» وهنا مرة يتيمه يتقدم-/ بفصل أنبياء على إسماعيل-/ إذا فليس في تأخير ذكره تأخيره عن متحده الرسولي، فمن الملاحظ أن ترتيب المقامات الرسالية هنا غير وارد كما تأخر نوح أوّل اولي العزم عن إسحاق ويعقوب، وتأخر موسى وعيسى عمن تأخرا عنهم وهما أفضل منهم‏ «5». فهنا الترتيب غير مراعى لا زمنا ولا رتبة، فإنما القصد عرض موكب رسالي بمختلف الدرجات والأزمنة، هم كلهم إلّا نوح من الوهبة الربانية لإبراهيم عليه السلام، اللهم إلّا وهبة في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 28 عن قتادة و هم الأنبياء الذين قص اللّه على نبيه الثمانية عشر الذين قال اللّه «فَبِهُداهُمُ‏اقْتَدِهْ»

(2). كما في 3: 125 و 127 و 133

(3). كما في 2: 136 و 140 و 3: 84 و 4: 163 و 14: 39

(4). في 19: 54 و 21: 85 و 38: 48 و هنا إسماعيل و اليسع‏

(5). الدر المنثور 3: 28 عن قتادة و هم الأنبياء الذين قص اللّه على نبيه الثمانية عشر الذين قال اللّه «فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 100

سلسلة الجدود فإن «وهبنا» لا تختص بوهبة الذرية. و قد تقدم إسحاق فيمن تقدم هنا كمرة يتيمة على إسماعيل حيث القصد ذكر الأنبياء الإسرائيليين من ولد إسحاق، فليتأخر إسماعيل إلى أخريات ذكرى النبيين هنا، ولأنه-/ فقط-/ جد آخر النبيين، كما ولم يذكر هنا محمد صلى الله عليه و آله لأنه المحور الأساس في هذه الذكريات، فإنهم له تقدمات، ثم ويخاطب «فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ». فذلك الترتيب-/ على غير ترتيب الحد الرسولي وزمنه-/ ترتيب قاصد لا يعني رتبة زمنية أم رسالية، فمن المقصود هنا-/ فيما قصد-/ عرض موكب الأنبياء الإسرائيليين بمعرض الكتابيين حتى يأنسوا إلى ذكراهم، وعلّ في تقديم داود وسليمان ويوسف تذكيرهم بسابغ نعمة الملك إلى نعمة الرسالة في الأنبياء الإسرائيليين، ومن ثم يذكر «مُوسى‏ وَ هارُونَ» كأصل الرسالة الإسرائيلية، ومن ثم «زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏» حسب الترتيب الرسالي بما كان الأوّلان تقدمة للأخير، ثم إسماعيل بن إبراهيم يتأخر حتى لا تحصل لهم حزازة وابتعاد، ويذكر من بعد اليسع ويونس ولوط وقد كان لوط نبيا مع إبراهيم وإسماعيل ابنه ثم اليسع ويونس بعدهما. ذلك، وقد تنحل بهذه الآية بعض المسائل التي هي من معارك الآراء بين النافين والمثبتين أن ابن البنت يعتبر من ذرية والد البنت أم لا؟ فقد تقوّلت جماعة أنه لا، وهي قولة ناشئة من الجاهلية التي ما كانت تعتبر البنت من الذرية فضلا عن ابنها، واستند لذلك إلى الشعر الجاهلي‏ «1» والرواية الجاهلية القائلة أن أبناء البنات من الأدعياء ف «ادْعُوهُمْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو «بنونا بنو أبنائنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 101

لآِبائِهِمْ» «1». و لا ينقضي العجاب من هؤلاء الذين يستندون إلى مثل هذه الرواية المخالفة لنص القرآن و الموافقة لسنة جاهلية، ولا سيما بشبه ضرورة إجماعية!. هنا يعد عيسى عليه السلام في عداد ذرية إبراهيم وليس إلّا ابنا لحفيدته مريم عليهما السلام، وهكذا يحتج أئمتنا عليهم السلام أنهم من ذرية محمد صلى الله عليه و آله فكيف يكون عيسى بن مريم عليهما السلام-/ على بعده البعيد عن إبراهيم عليه السلام-/ من ذرية إبراهيم، وليس الأئمة منذ الحسنين عليهما السلام على قربهم إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة 6: 188 مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: و من كانت امه من بني هاشم و أبوه من سائر قريش فان الصدقات تحل له و ليس له من الخمس شي‏ء فان اللّه يقول: «ادْعُوهُمْ لآِبائِهِمْ» .. أقول: و نحن نقول ادعوا هؤلاء المختلقين لمثل هذه الرواية لآبائهم، فكيف يعتبر أبناء البنات من الأدعياء؟ فهل الحسنان عليهما السلام من الأدعياء؟! ف «ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ..». يقول صاحب الجواهر في 16: 91 عن هذه المرسلة في كتب المحمدين الثلاثة يكفي اتفاقهم على روايته جبرا لإرساله فضلا عن شهادة النظر في متنه و التأمل فيه و فيما اشتمل عليه من الأحكام المخالفة لمن جعل اللّه الرشد في خلافهم و عن عمل كافة الأصحاب عداه به-/ المرتضى-/ و ان ذكر في بعض الكتب مستندا غيره الذين فيهم من لا يعمل بالقطعيات. أقول: و الموجود في اخبار الخمس هو الآل و الذرية و العترة و ذوي القرابة و اهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و يقول في الجواهر بعد النقض و الإبرام في استحقاق الخمس للمنتسبين بالأمهات الى هاشم أو إلى الرسول «و من هنا كان الاحتياط في ترك أخذه الخمس و الزكاة و إن كان الأقوى في النظر ما عرفت-/ يعني عدم استحقاق الخمس لهذه المرسلة الغريبة-/ ثم يشنع على صاحب الحدائق بقوله: لكن المحدث المزبور قد بالغ في اختيار ذلك لاختلال طريقته مشددا للإنكار على الأصحاب بتسجيع شنيع و خطاب فضيع حتى انه تجاوز ما يجب عليه من الآداب مع حفظة السنة و الكتاب. أقول: و طبيعة الحال في نصاب الخمس يقتضي استيعابه لكلّ المنتسبين الى الرسول أو الهاشم باب أوام و بذلك يحتل اصحاب الخمس القسم العظيم، و إذا اختص بالمنتسبين بالآباء فقد نسأل كيف يختص نصف الخمس من كلّ الإفادات بعشر الفقراء ثم الزكاة التي معدلها 6/ 100 من تسعة من الأموال تقسم بين 90/ 100 من الفقراء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 102

محمد صلى الله عليه و آله من ذريته‏ «1»؟. لقد ذكر من ذكر هنا وأشير إلى غيرهم بمثلث: «وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ» بعد، واختص لكلّ شطر من الشطرات الثلاث المذكورة مواصفة خاصة، فالأولى: «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» وللثانية «كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» وللثالثة «وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ». هكذا يظهر في بادئ الأمر، ولكن الثلاث مشتركة في هذه الثلاثة، ف «كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» دون «نجزيهم» يعمم الجزاء لكلّ النبيين، ثم «كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» تشمل معهم من قبلهم وكلا من الصالحين المذكورين بعد وغير المذكورين، ثم «وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ» يشمل كلّ الشطرات الثلاث ومن سواهم من المفضلين. وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87): و بعضا من آباءهم وذرياتهم وإخوانهم، أيضا هم من الموهوبين لإبراهيم عليه السلام اللّهم إلّا نوحا ومن آباءه آدم وشيث وإدريس، ومن ذرياته الأنبياء الذين كانوا قبل إبراهيم، اللهمّ إلّا في سعة نطاق هذه الوهبة لتشمل الآباء إلى الذرية. فلأن الأكثرية الساحقة من النبيين هم من ذرية إبراهيم فقد يصح «وَ وَهَبْنا لَهُ» بل وكما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 3: 28-/ اخرج ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغني انك تزعم ان الحسن و الحسين من ذرية النبي صلى الله عليه و آله تجده في كتاب اللّه و قد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده، قال: ألست تقرأ سورة الأنعام «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ... وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏» قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم و ليس له أب؟ قال: صدقت. وفي الدر المنثور 1: 743 في عيون الأخبار في جواب موسى بن جعفر عليهما السلام عن سند آل هارون الرشيد عن معنى الذرية قال: «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ... وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏» من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: إنما الحق بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام و كذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه و آله من قبل امنا فاطمة سلام اللّه عليها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 103

تصح هذه الوهبة له في غير ذريته فإنهم من شدّات سلسلة النبوة الربانية في تاريخ الرسالات ككلّ، فإنها وهبة لكلّ منهم مساندة ومساعدة في هذه الدعوة الرسالية، ولا سيما إبراهيم عليه السلام لأنه عمود في موكب الرسالات إلّا خاتم المرسلين. هنا «وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» تعم كافة الرسل عن بكرتهم، فإنها قضية كلّ رسالة ربانية. و إنّما نكّر «صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» دون تعريف، خلاف «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» لأنه مشترك فيه بين كافة المهديين الرساليين، وهم درجات في «صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». و أما «الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» فهنا «الاجتباء» تقدمة للهدي إلى صراط مستقيم، حيث الجباية هي الجمع الجيد الجادّ، ومنه جباية الخراج، و «يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28:

57). و هنا مثلث من الاجتباء تعنيه «وَ اجْتَبَيْناهُمْ». 1-/ اجتباء كلّ في نفسه ونفسياته أن جمع اللّه متفرقاته ومتشتتاته، إخلاصا لفطرته وعقليته وحسّه، إخلاصا شخصيا. 2-/ ثم اجتباءه من بين نظراءه تفضيلا فضيلا. 3-/ ثم اجتباء الكلّ بين العالمين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، موكب رسالي مجتبى بين العالمين من الجنة والناس ومن سواهم من المكلفين أجمعين. و من ثم «وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» فلكلّ هدى على حدّه، وللكلّ هدى رسالية هي قضية رسالته في أبعادها. ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 104

(88): «ذلك» التوحيد الحق دون أية ممارات ومجارات أو أنصاف حلول بينه وبين الشرك «ذلك» فقط «هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ» اللّه «من يشاء» الهدى فيشاء له الهدى‏ «1» (من عباده» «وَ لَوْ أَشْرَكُوا» على فرض الحال «لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» حال توحيدهم، إذ لا فارق في إحباط الإشراك بين سابق سابغ سامق وسابق خانق ما حق، ولكن: أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89): أ ترى «هم» في «آتيناهم» هم المذكورون هنا بأسمائهم؟ ومن غير المذكور منهم من هم أهم منهم محتدا كالرسول الأعظم محمد صلى الله عليه و آله!. إنهم «هم» و «مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ» ومحمد صلى الله عليه و آله هو رأس الزاوية، فهم الموكب الرسالي العالي، الجامع بين مثلث «الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» فليس كلّ رسول نبيا، ولا كلّ نبي له كتاب، فهم-/ إذا-/ الرعيل الأعلى من الرسل الجامعين لهذه الميزات الثلاث: كتاب شرعة مهما كانت فرعية كسائر كتابات السماء غير ما لأولي العزم منهم، والحكم روحيا وزمنيا مهما صدّ الكثير منهم عن مظاهر الحكم الزمني، والنبوة وهي هنا الرفعة بين المرسلين. و لقد جمع هذا المثلث في حقل النبوة الإسرائيلية: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن الرضا عليه السلام أن رجلا أتى عبد الله بن الحسن فسأله عن‏الحج؟ فقال له: هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فاسأله فأقبل الرجل إلى جعفر عليه السلام فسأله فقال له: قد رأيتك واقفا على باب عبد اللّه بن الحسن فما قال لك؟ قال: سألته فأمرني أن آتيك و قال: هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فقال جعفر عليه السلام نعم، أنا من الذين قال اللّه في كتابه «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» سل عما شئت فسأله الرجل فأنبأه عن جميع مسائله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 105

إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» (45: 16) واختص من بينهم المسيح بقول فصل: «ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ..» (3: 79). و أخص الخواص في هذا الحقل الثلاثي هو الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه و آله وكما تدل عليه آيات ك‏آية الميثاق: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81). هؤلاء الرهط الكرام هم حقيقة حقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها نبي بعد نبي، رسالة واحدة وأمة واحدة مهما اختلفت صور من طقوسها العملية عبادية وسواها. «أُولئِكَ ... فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ»: «بها» هنا تعني مثلث «الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» «فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ» الكفرة الأنكاد من قوم لدّ «فقد وكلنا بها» إيماناً بها «قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ» وهم غيرهم من الناس، كالأنصار المدنيين، ومنهم من أسلم من الفرس وقد مدحهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيمن مدح في مختلف المجالات، ومن أقواله فيهم: «رحم الله إخواني ..» ومنهم-/ كأفضلهم-/ أصحاب المهدي عجّل اللّه تعالى فرجه وسهل مخرجه، وسائر المؤمنين به. فالدولة المهدوية العالمية هي الموكّلة بصورة مطبقة مطلقة بالإيمان والتطبيق لهذه الرسالة السامية، فهي بشارة للمؤمنين بها على طول الخط «إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ.

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ». أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 106

لِلْعالَمِينَ (90): و ترى الرسول إلى الرسل ورأس زاوية الرسالة والنبوة والإمامة كيف يؤمر أن يقتدي بهؤلاء النبيين الذين هم بأجمعهم أدنى منه في كلّ شي‏ء؟. هنا «هَداهُمُ اللَّهُ» تختص المقتدى به بهدى اللّه، التي يحملها أنبياء اللّه، تبيينا أن الرسل موكب واحد في حمل هدى اللّه، ليس أحد منهم بدعا فيها اللهم إلّا في ميزات بدرجات «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ ..». و من هداهم الربانية عدم سؤالهم أجرا على أعباء الرسالة، ف «قل» أنت الحامل الأخير لشرعة اللّه «لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» اقتداء بسنة الرسالات الإلهية مهما كان المقتدي أقوى هدى من كلّ الرسل في كلّ الرسالات، ف «إن هو» الرسول «و إن هو» القرآن «إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ» وليس للذكرى أجر فانها واجب أهله. ذلك، وبصورة عامة «لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء، لأنه المنهج الأوضح والمقصد الأصح قال اللّه تعالى لأعز خلقه محمد صلى الله عليه و آله: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» فلو كان لدين اللّه مسلك أقوم من الاقتداء لندب أولياءه وأنبياءه إليه» «1» ف «أحسن الهدى هدى الأنبياء» «2» لأنها هدى اللّه. فلما يؤمر رسول الهدى صلى الله عليه و آله ان يقتدي بهدى الذين هداهم اللّه، فأحرى لسواه وأوجب أن يقتدي بهداه فإنها أفضل الهدى وأكملها فانها خاتمة الهدى الرسالية من اللّه، ثم الذين يحملون هداه الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام و لا طريق.

(2). نور الثقلين 1: 744 في تفسير القمي خطبة له صلى الله عليه و آله، و فيه عن النهج «فاقتدوا بهدي نبيكم فانه أفضل الهدى»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 107

محاجّة ابراهيم مع الملك نمرود

آيات ثلاث تحمل هامة العقيدة، لا سيما سر الموت والحياة، والتعريف باللّه الذي يملكهما دون سواه، تعريفا في حجاج قامع، وبيان للواقع، فلها صلة بآية الكرسي المقررة لصفات ربانية هي الأصل في الإماتة والإحياء، كسائر الأفعال الربانية الخاصة باللّه لا سواه. فالآية الأولى تعرض حوارا بين ابراهيم والذي حاجه في ربه، طيا عن ذكر اسمه ادراج الرياح، تصغيرا لكيانه، ولأن اسمه لا يزيد في شكلية الحوار وحصيلتها والعبرة بها، فلندرس ذلك الحجاج اللجاج من الذي حاج بكل نبراتها، تذرعا الى قوة الحجاج الإبراهيمية لحد «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ»!. أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .... «أَ لَمْ تَرَ» يا رسول الهدى! ام ويأكل من رأى تلك الحجاج في تاريخ الرسالات! استنكارا بتشنيع وتفظيع على الذي حاج، وتعجيبا عجيبا لمن يرى او يسمع ذلك الحجاج، وحمق اللجاج من ناحية، وعمق الحجاج من أخرى. «الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ»: رب ابراهيم كما هو الحق المعترف هو به، ورب الذي حاجه كما هو الواقع المنكور لديه، فانه رب العالمين، مصدقين له او ناكرين، إذا فضمير الغائب راجع إليهما على البدل، وما أجمله جمعا كما هو داب القرآن الفني الخاص في تأدية المعاني الواسعة، ولماذا «حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ»؟: «أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ»! وتراه هو ملك ابراهيم الذي آتاه اللّه روحيا وكما آتى بعض ولده وآله زمنيا، ام روحيا وزمنيا وكما يقول:

«فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (4: 54) تأويلا لآل ابراهيم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 108

بإبراهيم وآله و «مُلْكاً عَظِيماً» يجمع كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، مهما انفرد البعض منهم بإحداهما، حيث جمعتا لآخرين كداود وسليمان ويوسف ومحمد صلى الله عليه و آله وأخيرا القائم المهدى من آله عليهم السلام. و لقد سبقت آية الملك هذه آية الملك الروحي الرسالي المحمدي: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى‏ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا ...». مما يمحور الملك الروحي، فليس الملك الزمني إلا على هامشه وتحت إشرافه، وليس الملك المتخلف عن القيادة الروحية إلا سلطة مغتصبة إبليسية. و مما يرجح هنا ملك ابراهيم ادبيا هو اقربيته مرجعا من الذي حاجه. ذلك! ولكن ل «أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» لا تمت بصلة كسبب لمحاجته ابراهيم، إذ كان ناكرا للّه، فضلا عن ملك آتاه اللّه ابراهيم كقيادة روحية، ولم تكن زمنية ملموسة مصدقة!. و قد يوجه ذلك الملك هنا بما نجاه اللّه من نار نمرود: «قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ. وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ ... وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا ...» (21: 73) وكما يروى ان الحجاج كان بعد إلقاءه في النار «1». فتلك النجاة، الخارقة لكل العادات، الحارقة لنمرود وزمرته، إنها طرف طريف من ذلك الملك الروحي، الذي لا يوجد في اي ملك زمني منفصل عن الوحي، ولا سيما منعزل عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن المجمع و اختلف في وقت هذه المحاجة قيل: بعد القائه في النار و جعلها عليه بردا و سلاما عن الصادق عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 109

حق الملك كنمرود. فقد تميز نمرود غيضا، فتحيز فرصة أخرى بحجاجة اللجاج، تعمية لتلك الخارقة الكبرى، و تدجيلا عليه مرة أخرى فحاجة في ربه، وفي النهاية «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» مرة أخرى بعد الأولى، فلا السلطة الزمنية النمرودية قدرت على إحراقه، ولا حجاجه اللجاج سيطرت على دمغه وإحراجه، فنجاه اللّه سليما في كلتا المرحلتين، ثم هم أولاء الانكاد الأوغاد «فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ»! وقد تعني «أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» «الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ» و قد يقربه ادبيا انه هنا محور الكلام، ف «أن أتاه» تعلل حجاجه بما آتاه اللّه، مهما كان أبعد مرجعا. ثم القيادة الروحية لا تسمى ملكا مهما كانت هي حق الملك وحقيقته، حيث الملك ظاهر في واقع السلطة الملموسة، والسلطة الروحية على واقعها ليست ملموسة، بل وهي دوما تعيش تحت ضغوط السلطات الظالمة الزمنية. و لكن كيف «آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» ولا يؤتى ملك اللّه إلا من يحق له ويستحقه؟. إن إيتاء الملك هنا تكويني وليس تشريعيا وبينهما عموم من وجه: تكويني لا تشريعي كما هنا، بمعنى انه لا يمنعه اللّه عن الملك مهما منعه تشريعا حيث الدار دار الإختيار. ثم تشريعي لا يوافقه التكوين كالقيادات الروحية في المعصومين، أئمة ونبيين، الذين صدّ بينهم وبين سلطاتهم الزمنية، الشيطنات المدروسة من اصحاب السلطات الزمنية. ثم الجمع بينهما كالذين ذكرناهم من ذي قبل، فداود عليه السلام ومن أشبهه جمع له القيادتان. ثم تكويني يوافق التشريع ولكنه ليست قيادة رسالية، كمثل طالوت الذي آتاه اللّه الملك دون نبوة، فان قضية توحيد الإفعال ان للّه تعالى دخلا في كل خير او شر دون إجبار،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 110

ومنها الملك: «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (3: 26). فإتيان الملك لمن يحق له نبيا وسواه اعتلاء، وإتيانه لمن لا يستحقه ابتلاء، وكل من الاعتلاء والابتلاء بملك وسواه انما هو من اللّه لا سواه، دون استقلال لأحد في ملك وسواه. ثم هنا «أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» تعليل بما يناحر ذلك الحجاج اللجاج، فبديلا عن أن يشكر ربه ان آتاه اللّه الملك، أخذته زهوة الملك وعزته فأخذ يجادل في اللّه: «وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (2: 206). و الجمع بين المحتملين أجمل واجمع، حيث القرآن حمال ذو وجوه فاحملوا الى احسن الوجوه، وهو هنا وسواه مما أشبه، الجمع بين المعاني التي يحتملها ادب اللفظ وحدب المعنى!. إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ. أترى-/ وذلك بازغة الحجاج من ابراهيم-/ فأين البداية من الذي حاجه؟ إنها-/ لسخافتها كاسمه-/ أدرج درج الرياح، وقد يلوح من «قالَ إِبْراهِيمُ ...» ان نمرود ادعى الربوبية لنفسه ثم قال له: ومن ربك أنت لأرى أينا أقوى وأحرى بالربوبية، فعرّف ابراهيم ربه بأهم اختصاصات الربوبية: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ»: إحياء لكل الميتات التي تحق الحياة، وإماتة للأحياء التي تحق الممات، نباتية وحيوانية وانسانية وملائكية أماهيه. فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان أمامنا على طول الخط، المعروضتان للإحساس والعقل دونما وقفة، وهما في نفس الوقت من الأسرار المحيرة للعقول في كل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 111

الحقول، لا يتمكن العاقل ومن دونه أن يسندهما إلّا الى الخالق المتعالي عن عجز المخلوقين. اننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة والموت على الإطلاق حتى الآن، اللهم الا مظاهر لهما، فنلزم-/ إذا-/ ان ننهي مصدرهما الى قوة ليست من جنس القوى المحكومة بالموت والحياة وهو اللّه الحي الذي لا يموت. و لماذا هنا «يحيي» قبل «و يميت» وفي كثير سواها «يميت ويحيى»؟ لأن هذه في مقام إثبات الحياة بعد الموت، ونمرود ناكر اصل المحيي والمميت فضلا عن اليوم الآخر، إذا فلا يناسبه إلا «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» الذي هو ملموس لكل أحد. ثم ومن هؤلاء الذين أحياهم اللّه هو نمرود نفسه، وتراه يرى نفسه أحياها بنفسه؟

وكذلك سائر الأحياء، فلا مجال له ان يدعي لنفسه الإحياء، ولكنه أخذ يلوي قصة الإحياء والإماتة بتوسعة تسعه وسواه من النماردة وسواهم-/: قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ. ويكأنه هو المحيي والمميت ككل، إذ لم يعطف قوله بقول ابراهيم اشراكا لنفسه باللّه في الإحياء والإماتة، بل «انا ...» دون «و انا ...». فحتى وان عطف نفسه باللّه في ذلك لم يكن إحياءه وإماتته فعلة ربانية، فان كل احد له سلطة مّا على آحاد بإمكانه ذلك الإحياء والإماتة، ان يقتل غير المحكوم عليه بالقتل، ثم يبقي المحكوم عليه به كما فعله نمرود، وقد يروى انه قال له ابراهيم: أحي من قتلته إن كنت صادقا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن المجمع و قد روي عن الصادق عليه السلام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 112

ذلك! فضلا عن ان يكون له-/ فقط-/ كل إحياء وإماتة بكل صورهما، فمن هو المحيي له نفسه-/ إذا-/ إلا اللّه، ثم ومن هو المحيي والمميت حقا-/ ككل-/ إلا اللّه، وما مثاله إلا تقديما لما يقدر عليه كثير أمثاله ودونه بكثير. و هنا لم يكن من الصالح الرسالي في ذلك الظرف الهرج والمرج من السلطة النمرودية، الحاجبة للعقول والحلوم، ان يسترسل في جدل حول المعني من الحياة والموت، والقصد من الإحياء والاماتة، مع غبي قوي يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة. و لكيلا يأخذ نقضه الناقص الجاهل القاحل مأخذه من أوهام هاوية من شعبه، ممن تبهره سلطته الزمنية فيحسب باطله حقا، ينتقل من هذه الحجة المحتاجة الى تفهم، إلى حجة أخرى لا تحتاج إلى تفهم، وإنما يكفيها الحس مهما كان حيوانيا ف: حقيقة ملموسة كونية هي بمرأى ومعلم ذوي الأبصار، دون ان تتخلف ولا مرة يتيمة، يكفى لإدراتها حيونة الإبصار مهما كانت من انسان او حيوان، فلا مجال-/ إذا-/ للحيونة النمرودية ان تحول بينها وبين دلالتها على اللّه، ولا مجال في أية مماراة.

ابراهيم وحرمة الاستغفار للمشركين‏من بعد ما تبيّن انهم اصحاب الجحيم‏

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114). هنا روايات مختلقة قضية العصبية العمياء المذهبية أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله استغفر لعمه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 113

وأبويه المشركين وقد ماتوا مشركين، فلكي يمس من كرامة أبوي النبي صلى الله عليه و آله وأبي علي عليه السلام مسوا من كرامته هو صلى الله عليه و آله أن خالف أمر ربه في ذلك الاستغفار الاستهتار!. فلقد نهاه اللَّه تعالى أن يستغفر للمنافقين في آيات عدة مضت، فضلا عن المشركين الرسميين الذين ماتوا على إشراكهم باللَّه، واستحال غفرانه لهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) و 116) فكيف-/ إذا-/ يستغفر النبي صلى الله عليه و آله للمشرك معارضا لما قرره اللَّه من سلبية الغفران في حقل الشرك؟. و ترى كيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه و آله الذي يعارض المشركين وهو مأمور بالإعراض عنهم: «اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» (6: 107). ففي هذه وفي مكيات أخزى أمر بمفاصلة المشركين والإعراض عنهم، وعدم الاستغفار لهم، ثم هو يستغفر لوالديه اللذين ماتا مشركين؟! أم ولعمه أبي طالب الذي مات مشركا؟! كلّا، إن المشرك هو المفتري على الرسول تلك التخلّفة النكراء، والمفتري على عمّه وعلى والديه الذين ماتوا موحدين، أنهم ماتوا مشركين!. فوا عجباه بينما يقول اللَّه: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ» (4: 48) رغم ذاك يسمح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لنفسه أن يستحل-/ لأبويه و عمه المشركين-/! الجنة باستغفار لهم؟! داخلا في أنصار هؤلاء الظالمين!. و بينما اللَّه يحرم موادة من حادّ اللَّه ورسوله، وأحدّه الإشراك باللَّه ونكران رسوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ... لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 114

(58: 22) رغم ذاك يوادّ الرسول أبويه وعمه خروجا بذلك عن الإيمان باللَّه واليوم الآخر؟!. و بينما اللَّه يقول: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» (9: 28) (وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» (74: 5) رغم ذاك يقرب الرسول أقرباءه المشركين إليه ويستغفر لهم!. و حين يقترف أمثال هذه الذنوب العظام فكيف يقول اللَّه عنه «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) وهي أسوة طليقة غير محدودة، بينما يحدد الأسوة بإبراهيم بغير استغفاره لأبيه وهو معذور في استغفاره له: «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (60: 4) ومن قضايا البراءة-/ الأصلية-/ ترك الاستغفار لمن يتبرأ منه حيث هنا «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» ومن قبل استغفر له و لمّا يتبين له أنه عدوّ للَّه، حيث لمّع له ولمّح قوله: «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» كأنه يعده فرصة مليا ليكفر في أمره علّه يجدّد أمره، فاعتبره وعدا للإيمان فوعده الاستغفار ثم استغفر له ولمّا يتبين له أنه عدو للَّه. فما لهم أولاء المفترين على اللَّه وعلى رسوله، أنه استغفر للذين ماتوا مشركين، تخلفا عن شرعة الإيمان باللَّه، فضلا عن رسالة اللَّه!. أم كيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه و آله أنه كان يستغفر لأبويه وعمه المشركين! وهم ماتوا في العهد المكي، يستغفر طوال تسع سنين أو يزيد حتى نزلت هذه الآية في السنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 115

التاسعة، و هو كان منهيا عن موادتهم والاستغفار لهم منذ بداية الدعوة؟!. و حين يبرّر هنا استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان قبل ما تبيّن له أنه من أصحاب الجحيم، فكيف يبرّر-/ بعد-/ استغفار محمد صلى الله عليه و آله لأبويه وعمه بعد ما تبين له أنهم من أصحاب الجحيم إذ ماتوا مشركين؟!. أجل «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»-/ ف «ما كان» تضرب إلى أعماق الماضي تحريما عريقا لذلك الاستغفار الاستهتار، فلا سبيل-/ إذا-/ للمفتري على النبي صلى الله عليه و آله أن يقول: إنما حرم من بعد ما استغفر، ولو كان حلا من ذي قبل لم يعتذر لإبراهيم في استغفاره أنه ما كان يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم، و «ما كان» ضاربة إلى أعماق الزمن الرسالي، أن النبوة والإيمان يمنعان من الاستغفار للمشركين على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، حيث علّق السلب بوصف النبوة والإيمان، وكما يدل عليه الإستدراك لإبراهيم وليس معنيا بشخص النبي هنا. إذا فكيف يستغفر النبي صلى الله عليه و آله لأبويه وعمه الميتين على الشرك وقد تبين له من ذي قبل أنهم من أصحاب الجحيم! ثم كيف يعتذر لإبراهيم ولا يعتذر لمحمد صلى الله عليه و آله وهو أول العابدين وأفضل النبيين؟!. و حين يعد اللَّه الميتين على الشرك أليم العذاب في مئات الآيات، فالاستغفار لهم-/ إذا-/ يعني أن يخلف اللَّه وعده وهو خارج عن أدنى الآداب الإيمانية فضلا عن الأدب الرسالي لمن هو في أعلى قمم الرسالة. و تبيّن كون المشرك ومن أشبه هو من أصحاب الجحيم قد يكون بتبين اللَّه كالذين يقول عنهم: «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» أم بموتهم وهم مشركون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 116

فالمشرك-/ فضلا عن سواه من الكفار-/ الذي يرجى إيمانه، أم لم يتبين أنه يموت مشركا ليكون من أصحاب الجحيم، إنه يجوز أن يستغفر له فضلا عن المتحري عن إيمان، أو الذي يلمح بوعده الإيمان، وهكذا يعتذر ربنا لإبراهيم عن استغفاره لأبيه: «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» وتراها موعدة لإبراهيم وعدها إياه؟ والموعدة المحرمة لا تبرر إيفاءها! أم هي موعدة أبيه وعدها إياه؟ ولا تتبين موعدته من «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا»! وحتى لو أنها كانت تتبين موعدته منها، فلأنها لا واقع لها فلا يصلح إخبارا بها من اللَّه أنه «وَعَدَها إِيَّاهُ»!. إنها موعدة إبراهيم وعدها إياه بقوله «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» إذ تلمح لمحة التحري عن إيمان من قوله «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» (19:) 46) وعلى هامشها موعدة آزر إياه أن يتحرى. فلو أنه مصرّ على رجمه حيث قال «لأرجمنك» ما كان يقول دون فصل «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» إذا فمليّ الهجر دون دوامه، وهيمان إبراهيم لإيمان آزر، هما خيّلا إليه أنه يعني بملي هجره مليّ تفكيره وتروّيه فيما يدعوه إليه‏ «1» فلذلك أم وللعطف عليه أن يهديه اللَّه بما يستغفر له، وعده أن يستغفر له فور وعده الذي خيل إليه‏ «2»: (قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 275 في تفسير القمي في الآية قال: قال إبراهيم لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إبراهيم‏

(2). المصدر في تفسير العياشي عن إبراهيم بن أبي البلاد عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: مايقول الناس في قول اللَّه عزّ و جلّ: «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» قلت: يقولون: إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال: ليس هو هكذا و إن إبراهيم وعده أن يسلم فاستغفر فلما تبين أنه عدو للَّه تبرأ منه، أقول: وعده يعني آزر أن يسلم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 117

كانَ بِي حَفِيًّا» (47) ثم استغفر له-/ ولمّا يتبين أنه كاذب في لمحة الوعد-/: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (26: 86). و لأن وعد الاستغفار وتحقيقه ما كان حققا في الواقع مهما كان هو معذورا فيهما، فقد خرج فيه إبراهيم عن أن يؤتسى: «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (60: 4) وإن كان قاصرا في العلم «أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» حيث القاصر لا يؤتسى في قصوره كما المقصر، ومهما كان القاصر معذورا دون المقصر، ولكن اللَّه ليس ليأمر أن يؤتسى إمام فيما هو قاصر. و هكذا تبرر ساحة إبراهيم عن خاطئ الاستغفار لأبيه أنه استغفر له بما وعده إياه و «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» فهو من أصحاب الجحيم «تبرأ منه» فلم نسمعه بعد حتى آخر عمره و خلاص أمره أن يستغفر له، اللّهم إلّا لوالديه حين كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل بقوله: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» (14: 41). ذلك، والأب هو أعم من الوالد، فقد يعني العم كما: «قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً» (2: 133) حيث يعد إسماعيل من آباء يعقوب وهو عمه. أم جدا لأم حيث يعد «عيسى» عليه السلام من ذرية إبراهيم «.. وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى‏ وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ. وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ» (6: 85). فلأن جد الأم والد كما جد الأب فضلا عن الوالد، دون العلم إذ ليس والدا بأي وجه، فالقصد من «أبيه» غير والده في مثلثه، إنما هو عمه. و إنما عبر عن عمه في ثمانية موارد ب «أبيه» تأشيرا إلى المحتد القمة التوحيدية لإبراهيم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 118

حيث تربى في جو الشرك وبيت الإشراك، وتحت الولاية التربوية لآزر الذي كان مكان والده، ولم يتأثر بوصمة الشرك، بل وعارض آزر معارضة صارحة صارخة دونما أية مساهلة. ذلك، وقد يسمى بالأب من لا صلة له نسبية بأولاده، كمايروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله لعلي عليه السلام: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة فمن عقنا فعليه لعنة الله» «أنا وهو أبوا هذه الأمة» «أنا وأنت أبوا هذه الأمة» «1». و لو أن والده في «والدي» هو أبوه آزر، لكان في ذلك مس من كرامة العصمة الربانية حيث أخبر تعالى أنه: «تَبَرَّأَ مِنْهُ» والاستغفار ينافيه! وهكذا العصمة الإبراهيمية حيث كانت براءته مفروضة فتركها مرفوض في شرعة اللَّه. فقد كان إبراهيم يستغفر لوالديه عند رفع قواعد البيت وهو في أخريات عمره الطويل، ومات أبوه آزر في شبابه، فلا يعني من «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» أباه آزر وقد تبين له-/ من ذي قبل-/ بموته مشركا أنه من أصحاب الجحيم‏ «2» (إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» أواه إلى اللَّه راجعا إليه عن خطأه غير العامد «حليم» مع أبيه المشرك حتى يلتقط من «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» أنه واعده التحري عن الحق، فالأوّاه هو كثيره الأوه واللّهف والتّلهّب في الدعاء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 100، 227 و 7: 216 و 15: 518-/ 519 و 5: 95 و 20: 230

(2). نور الثقلين 2: 274-/ أبو إسحاق الهمداني عن الخليل عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: صلى رجل إلى أجنبي‏فاستغفر لأبويه و كانا ماتا في الجاهلية فقلت تستغفر لأبويك و قد ماتا في الجاهلية؟ قال: فقد استغفر إبراهيم لأبيه، فلم أدر ما أرد عليه فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه و آله فأنزل اللَّه «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ ..» قال: لما مات تبين أنه عدو للَّه فلم يستغفر له‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 119

والرجوع إلى اللَّه‏ «1». فقد تعني «مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» كلتا الموعدتين، الأولى موعدة آزر إبراهيم أن يتحرى، والثانية موعدة إبراهيم آزر لنفس الموعدة أن يستغفر له، بفارق أن موعدة إبراهيم كانت واقعة دون آزر، وقد استغفر له، ثم لمّا تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه ولم يستغفر له، وإنما استغفر لوالديه وللمؤمنين رافضا أباه آزر، وأما أن تعني-/ فقط-/ وعد إبراهيم إياه، فهو لا يبرر الاستغفار، إنما يبرره عدم تبنيه أنه عدو للَّه حسب النص، ثم آزر هو أقرب مرجعا أدبيا كما هو أقرب في «مليا» وعدا مليا. و هنا المختلقة الزور أن الآية ليست «لوالدي» بل هي «لولدي» إسماعيل وإسحاق والحسن والحسين عليهم السلام‏ «2» إنها ليست إلّا من المجاهيل الذين لا يتدبرون القرآن، ففيما تبدو لهم ظاهرة بدائية من آية أنها تخالف ما يعتقدون يبتدرون بفرية تحريف الآية بكل توسّع وسخاء حمقاء، واللَّه تعالى منهم ومن أمثالهم من المختلقين الزور براء. وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 211 يروى أن زينب تكلمت عند الرسول صلى الله عليه و آله بما يغير لونه فأنكر عمر فقال صلى الله عليه و آله: دعها فإنها أواهة قيل يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و ما الأواهه؟ قال: الداعية الخاشعة المتضرعة، وفي الدر المنثور 3: 285 عن جابر أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل لو أن هذا خفض صوته فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: دعه فإنه أواه وفيه عن عقبة بن عامر أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لرجل يقال له ذو البجادين إنه أوّاه و ذلك أنه كان يكثر ذكر اللَّه و الدعاء، وفيه عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت و يقول في دعائه: أوّه أوّه فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنه لأوّاه‏

(2). نور الثقلين 2: 27 في تفسير العياشي عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللَّه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ» قال: هذه كلمة صحفها الكتاب إنما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه و إنما كان «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» يعني إسماعيل و إسحاق و الحسن و الحسين و اللَّه ابنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 120

عَلِيمٌ (115). هنا «هداهم» بما اهتدوا فليس «لِيُضِلَّ قَوْماً» إلّا إذا ضلوا، وهدى اللَّه هي الهدى الكاملة «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ» على ضوء هداه، ف «يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه» «1» فإن ضلوا بعد هداه وبيانه أضلهم جزاء وفاقا بما ضلوا. و «ما كان» تحلّق هذه السلبية على فسيح زمن التكليف، فحين فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ فلم يستغفر له بعد، أفبعد ذلك بردح كبير من الزمن يستغفر له؟. و لماذا يطلب الغفر-/ فقط-/ يوم يقوم الحساب، وموقفه الأحرى قبل يوم الحساب، يوم الدنيا ام في البرزخ؟ علّه لأنه أحرج المواقف وأحوجها الى الغفر، ثم وقد يغفر يوم الدنيا ثم يرجع المغفور له مذنبا، ام يغفر في البرزخ مؤقتا، لأنه ليس موقف العذاب الفصل، ثم يعذب يوم الحساب ام يغفر له، إذا فهامة الغفر وعامته هي «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ». ام ان «يَوْمِ الْحِسابِ» يشمل يومي البرزخ والمعاد مهما اختلف حساب عن حساب.

... واتبع ملة ابراهيم حنيفاً

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (124). و تلك-/ إذا-/ هي حياة طيبة لا غبار عليها كما في أخرى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 276 في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في الآية قال: حتى يعرفهم .. وفيه عن أصول الكافي عن شاهديه بن عبد اللَّه الجلاب قال: كتب إلى أبو الحسن عليه السلام في كتاب: أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر عليه السلام و قلقت لذلك فلا تنعم فإن اللَّه عزّ و جل لا يضل قوما بعد إذا هداهم حتى يبين لهم ما يتقون و صاحبكم بعدي أبو محمد ابني و عنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء اللَّه و يؤخر ما يشاء ما ننسخ من آية أو ننسها قد كتبت بما فيه بيان و قناع لذي عقل يقظان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 121

أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16:

97) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ» (21: 94). فلا فارق بين ذكر وأنثى في كيان العمل وقدر الجزاء إلّا بقدر الإيمان وعمله، كما لا فارق بين أمة وأمة في أصل الجزاء بقدره «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً». و قد نفت «لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» ما كان يخيّل-/ من اللّاسواء بين العاملين الصالحات أو الطالحات-/ إلى هؤلاء الطائفيين في أمانيّهم الكاذبة الخواء، وما خيّل من الفارق بين ذكر و أنثى كما كانت تزعمه القدامى الهنود ومصر وسائر الوثنيين أن النساء لا ثواب على حسناتهن أم هو أقل، أو أن الكرامة والعزة هما فقط للرجال كما زعمته فرقة من اليهود والنصارى، ويزعمه مجاهيل من المسلمين وسواهم. ثم «مِنَ الصَّالِحاتِ» تبعيضا دون تحليق على كل الصالحات توسعة ربانية لمن آمن وعمل صالحا: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (2:

62). و لو انحصر دخول الجنة بالمؤمن العامل كل الصالحات لكانت الجنة خالية إلّا عن شذر قليل هم المقربون والسابقون، وانحسرت حتى عن العدول من المؤمنين فإن لهم لمما. ذلك، وليست الجنة-/ مع الوصف-/ لأهلها على حدّ سواء، فقد يخرج من النار إلى الجنة، أو يدخل الجنة بلا نار ولكنها على حدّه ومستحقه «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً». وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا (125). و الدين هو الطاعة، فمن حسن الطاعة الموافقة العلمية والعقيدية لحق اللّه وشرعته،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 122

ومن ثم حسن الموافقة العملية الصالحة المتبنية الإيمان والنية الصالحة، ف «مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» جارحة وجانحة «وَ هُوَ مُحْسِنٌ» في كلا الوجهين «وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ» موحدا «حنيفا» معرضا عما يخالف التوحيد الحق وحق التوحيد «وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا» كأنه خلّ في ربه حيث أسلم له وجهه 357 بكل وجوهه، ناسيا نفسه ونفسياته، ذاكرا ربه على أية حال. ذلك «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏ وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» (31: 22) وقد يروى عن رسول الهدى قوله صلى الله عليه و آله لما سئل عن الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» «1». ومن خلة إبراهيم خليل الرحمن ما بدا منه حين علّق على المنجنيق فجاءه جبريل عليه السلام فقال: كلّفني ما بدا لك قد بعثني اللّه لنصرتك فقال: بل حسبي اللّه ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة إلا إليه» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المجمع في هذه الآية و روى أن النبي صلى الله عليه و آله سئل عن الإحسان فقال ..

(2). نور الثقلين 1: 554 في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه و آله يقول فيه قولنا: أن إبراهيم خليل اللّه فانما هو مشتق من الخلة أو الخلة فأما الخلة فانما معناها الفقر و الفاقة و قد كان خليلا إلى ربه فقيرا و إليه منقطعا و عن غيره متعففا معرضا مستغنيا و ذلك لما أريد قذفه في النار فرمى المنجنيق فبعث اللّه إلى جبرئيل فقال له: أدرك عبدي فجاءه فلقيه في الهواء فقال: كلفني ما بدا لك قد بعثني اللّه لنصرتك فقال: بل حسبي اللّه و نعم الوكيل إني لا اسأل غيره و لا حاجة إلا اللّه فسماه خليله أي‏فقيره و محتاجه و المنقطع إليه عمن سواه إذا لم ينقطع اليه لم يكن خليله و إذا لم يعلم باسرار لم يكن خليله؟ وفيه في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل باسناده إلى الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال سمعت أبي يحدث عن أبيه عليهما السلام انه قال: انما اتخذ اللّه عز و جل ابراهيم خليلا لأنه لم يرد أحدا و لم يسأل أحدا قط غير اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 123

فقد سماه اللّه خليله لأنه لم يسأل أحدا شيئا قط ولم يسأل شيئا قط فقال لا «1». ذلك! «و لئن اتخذ الله إبراهيم خليلا فقد اتخذ الله محمدا صلى الله عليه و آله حبيبا» «2» وأين حبيب من خليل! ولأن الخلة درجات فخلة الحبيب محمد صلى الله عليه و آله أعلى الدرجات‏ «3» وقد قال الله: «لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي» «4». و لقد كانت هذه حلقة صارحة صارمة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء، ذات الأهمية الكبرى في تصليح العقيدة من ناحية وفي استقامة العملية من أخرى. ذلك، ولأن الكون كله لله خلقا وتدبيرا فهو العادل كل العدل فيه بلا منازع ولا رشى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 555 في الكافي عن معاوية بن عمار عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «ا إن ابراهيم عليه السلام كان أبا أضياف فكان إذا لم يكونوا عنده خرج يطلبهم و اغلق بابه و أخذ المفاتيح يطلب الأضياف و انه رجع إلى داره فإذا هو برجل او شبه رجل في الدار فقال يا عبد الله بإذن من دخلت هذه الدار؟ قال دخلتها بإذن ربها يردد ذلك ثلاث مرات فعرف ابراهيم انه جبرئيل فحمد ربه ثم قال: أرسلني ربك الى عبده من عبيده يتخذه خليلا قال ابراهيم فأعلمني من هو أخدمه حتى أموت؟ قال: فأنت هو، قال: مم ذلك؟ قال: لأنك لم تسأل أحدا ..

(2). المصدر في الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه و آله حديث طويل في مكالمة بينه و بين اليهود و فيه قالوا: ابراهيم خيرمنك، قال: و لم ذلك؟ قالوا: لأن الله تعالى اتخذه خليلا، قال النبي صلى الله عليه و آله: أن كان إبراهيم عليه السلام خليلا فأنا حبيبه محمد

(3). الدر المنثور 2: 230-/ أخرج الحاكم و صححه عن جندب انه سمع النبي صلى الله عليه و آله يقول قبل أن يتوفى: أن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا. وفيه أخرج الطبراني عن سمرة قال كان رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: أن الأنبياء يوم القيامة كل اثنين منهم خليلان دون سائرهم، قال: فخليلي منهم يومئذ خليل الله ابراهيم»

(4). المصدر عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: اتخذ اللّه إبراهيم خليلا و موسى نجيا و اتخذني حبيبا ثم قال و عزتي لأوثرن حبيبي على خليلي و نجيي». أقول: و لئن اصطفى اللّه إبراهيم بالخلة و موسى بالكلام فقد اصطفى محمدا صلى الله عليه و آله بالرؤية و هي المعرفة القمة التي لا تسامى و لا تساوي و هي مقام «أو أدنى» بعد «دنى»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 124

ارتى كيف تحير الموتى؟

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى‏ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ 260. هذه مرحلة ثالثة هي القمة في الإبقاء بالإحياء بعد الموت، حيث تحمل سؤالا عن كيفية الإحياء وإجابة عنها، حيث النص «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» عناية الى كيفية فعله تعالى «...

والكيفية من فعل الله عز وجل متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب ولا عرض في توحيده نقص» «1» دون «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» سؤالا عن الكيفية الظاهرة لكل ناظر كما كان لعزير، وليس الإستدراك في «أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ» إلا إعلانا صارخا للسامعين أن ليس سؤاله هذا نتيجة عدم الإيمان فانه «بلى» إيماناً صارما بعلم اليقين وعين اليقين، فإنما يقصد إلى حق اليقين: «وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» اطمئنانا يتم فيه الإيمان ويطم قلب صاحب الإيمان‏ «2»، وكأنه هو الذي أحيى الموتى عارفا حقيقة إحياءه، اللهم إلّا ما يختص باللّه سبحانه من علم الإحياء-/

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في معاني الاخبار عن الصادق عليه السلام في الآية في حديث قال: و هذه آية متشابهة و معناها انه سأل عن‏الكيفية! ..

(2). نور الثقلين 1: 275 في محاسن البرقي عنه عن محمد بن عبد الحميد عن صفوان بن يحيى قال سألت أباالحسن الرضا عليه السلام عن قول اللّه لإبراهيم: «أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» أكان في قلبه شك؟ قال: لا-/ كان على يقين و لكنه أراد من اللّه الزيادة في يقينه، وفيه 281 عن الكافي عن القمي عن محمد بن عيسى عن يونس عن الحسين بن الحكم قال: كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام أخبره اني شاك و قد قال ابراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» و انا أحب ان تريني شيئا، فكتب عليه السلام ان ابراهيم كان مؤمنا و أحب ان يزداد ايمانا و أنت شاك و الشاك لا خير فيه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 125

التام-/ الذي قضيته القدرة التامة على الإحياء، حيث العلم المحيط بشي‏ء يساوق القدرة عليه. و قد تعني «بلى»-/ فيما عنت-/ ايمانه بخلّته للّه، المرجوة له من قبل اللّه، وقد كان استجابته في احياء الموتى آية له بينة «1» ولكنه لا تلائم الآية مهما لا تعارضها، حيث ان آية الخلة حسب الرواية هي احياء الموتى بطلبه ومرآه، لا والكيفية المتطلبة هنا «كَيْفَ تُحْيِ». هذا-/ وهو على اية حال لم يكن شكا من إبراهيم في أصل الإحياء، فانما تطلب حق اليقين برؤية كيفية الإحياء، فان واقع العلم بأفعال اللّه محجوب عن خلقه الا بعض من اصطفاه لهذه المنزلة الرفيعة، إظهارا له من غيبه: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ» (72: 27) فقد ارتضى ابراهيم لإراءه غيبة في إحياء الموتى كما ارتضى سائر المصطفين لغيب الوحي، ولكن ذلك الغيب ميزة لإبراهيم فيه عن سائر درجات الوحي، فان «مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ» لا يفي إلا الناحية الرسالية المتطلبة وحي الرسالة كأصل، دون سائر الغيب، اللهم إلا المرتضى الأعلم والأعلى رتبة في كل غيب بالإمكان إراءته لمرتضى. فإذا أرى إبراهيمه الخليل كيف يحيي الموتى بما سأل، فقد كان يري محمدة الحبيب ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في عيون الأخبار متصلا عن علي بن محمد بن الجحم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده‏الرضا عليه السلام فقال له المأمون باين رسول اللّه صلى الله عليه و آله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عز و جل وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏-/ الى ان قال-/: فأخبرني عن قول ابراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي»؟ قال الرضا عليه السلام إن اللّه تعالى كان اوحى إلى ابراهيم أني متخذ من عبادي خليلا إن سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في نفس ابراهيم عليه السلام انه ذلك الخليل فقال: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ ... قالَ فَخُذْ ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 126

الكيف قبل ان يسأل، وكما رفعه في معراجه الى القمة المعرفية المنقطعة النظير حيث «دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏». فلنضرب الرواية المختلقة-/ الناسبة إليه الشك في إحياء الموتى-/ عرض الحائط، ذودا عن ساحة الرسالة القدسية، وتنزيها للخليل على هامش الحبيب‏ «1». و لقد ضمنت كيفية إحياء الموتى عجاب جمع الأجزاء المتفرقة كما كانت أول مرة، فكما ان بعد الزمان هناك لم يكن بمبعد لاعادة الميت كما كان، كذلك أبعاد المكان ام أية أبعاد ليست لها اي إبعاد لإحياء الموتى. فحين تضل اجزاء في اجزاء-/ عنا-/ ليست لتضل عن مميت الأحياء ومحييها: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11) فقد زوّد إبراهيم في إحياء الموتى الى رؤية الكيفية لأصل الإحياء، رؤية جمع الاجزاء التي ضلت بعضها الى بعض‏ «2». و تراه كان مشتبها بشبهة الآكل والمأكول كما تلمح الرواية؟ كلا! حيث الجواب «فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ...» ليس فيه خلطهن بعد تقطيعهن، مهما تستفاد من ذلك الإحياء-/

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 335-/ عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ ... و يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد، و لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»!

(2). نور الثقلين 1: 280 في روضة الكافي متصلا عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما رأى ابراهيم عليه السلام ملكوت السماوات و الأرض التفت فرأى جيفة على ساحل البحر نصفها في الماء و نصفها في البر تجي‏ء سباع البحر فتأكل منها فتشد بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضا و تجي‏ء سباع البر فتأكل منها فيشد بعضها على بعض و يأكل بعضها بعضا فعند ذلك تعجب ابراهيم عليه السلام مما رأى و قال: رب ارني كيف تحيي الموتى؟ قال: كيف تخرج ما تناسل التي أكل بعضها بعضا، «قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» يعني حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها، قال فخذ اربعة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 127

ضمنيا-/ الإجابة الوافية عن الشبهة. و قد يقرب أن تطلّبه هذا كان بمرأى نمرود بعد تدجيله في حجاجه، لكي يريه إبراهيم ان القصد من إحياء الموتى هو ما يريد ربه لا ما افتعله نمرود وكثير مثله يفعلون مثله. فقد تطلّبه في ذلك الموقف الحرج المرج بالنسبة لأهل الموقف، لكي يريهم عدم وهن حجاجه، وان انتقاله الى اخرى لم يكن إلا لغباوة نمرود وتجاهله عن حقيقة الأمر. و قد يبعده ان ذلك المجال العجال ما كان يسع فسحة ذلك الإحياء، إمالة للطير إليه، ثم جعل أجزاءهن المتفرقة على كل جبل، ثم دعوتهن ليأتينه سعيا، اللّهم إلّا لمن واجه واقع القصة على طولها وطولها! ولكن «ثُمَّ اجْعَلْ عَلى‏ كُلِّ جَبَلٍ ...» يبعده ثانية فان بابل ليست تحمل جبالا، فقد كانت القصة بعد انتقاله الى سوريا الأردن. او انه سأله تعالى تساءلا عنه من قومه، ليروا بأم أعينهم كيف تحيى الموتى، ولكن «تحيي» تمنع ان يكون هو السبب، فإنما ذلك من هوامش السبب والأصل هو رؤية الملكوت. و قد يجمع الى كل هذه أن إحياء الموتى بدعائه ثم دعوته كان من آيات رسالته، تقوية للمؤمنين، وحجة بالغة على الناكرين. و على اية حال لم يكن هنا او هناك شك في إحياء الموتى حتى يطلب بعيانه بيانه وانتقال الى اليقين، فهناك «أنى» سؤالا عن زمانه دون أصله، وزمان الإحياء مجهول لدى الكل، و هنا «كيف» سؤالا عن كيفية وليس الا بعد العلم بأصله، والعلم بالكيفية محجوب عن الكل. فقد زوّد سائل «أنى» برؤية العين لأصله بعد العلم به، ثم سائل «كيف» برؤية الكيف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 128

فوق أنّاه وأصله، وسائر النتائج إيجابية وسلبية انما هي طوارئ على إجابة الكيف، وفي «وَ إِذْ قالَ ...» تلميحة لطيفة ان المخاطب ب «الم تر ... او كالذي» عرف كل الثلاث كأنه حاضر لديها «الم تر ... إذ قال إبراهيم» سمعا لقاله، ورؤية لحاله، ومشاهدة للكيف الذي تطلبه، دون سؤاله، فقد حلق على ذلك المثلث البارع من مراتب العلم وزيادة هي من ميزات اوّل العابدين وآخر النبيين. و ترى ما هو موقف العاطف في «أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ»؟ إنها تبرءه لساحة الخليل ألّا يؤمن بوعد الجليل، فان «أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ» تشعر بإمكانية عدم إيمانه، ولكن الواو تعطف الى محذوف معروف، أنك بعد ما آمنت بالبينات «أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ» كما ترجوه وبه تطمئن؟ «قالَ بَلى‏» آمنت «وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» بحق اليقين، حظوة من حيطة علمية ب «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» كما يمكن لغيرك يا رب، فما ذلك السؤال إلا لسؤال التشوف إلى ملابسة سرّ الصنعة الإلهية، وملامسة الملكوت: «وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» إنه أمر وراء الإيمان بالبرهان والبرهان للإيمان، إنه تطلّب لرؤية السر الرباني في كلمة التكوين كما يسمح لمثل الخليل من عطف الجليل، فلا تحيله استحالة الحيطة على الملكوت، فان لها مراحل تختص قمتها باللّه تعالى ولا يحيطون به علما. صحيح انه هو-/ فقط-/ عالم الغيب ولا يظهر على غيبه أحدا، ولكن قد يستثنى من ارتضى «إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ» قد يظهره على غيب له دونما يختص بساحته تعالى.

252 «قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ...» هنا نتعرف إلى أبعاد «تُحْيِ الْمَوْتى‏» وانه لم يكن-/ فقط-/ لغرض رؤية أصل الإحياء، بل وكذلك رؤية جمع مختلف الاجزاء من مختلف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 129

الأموات، فلو ان كان القصد هو اصل الإحياء لكان يكفي من الطير واحد ثم الزائد زائد بائد، إذ لا يتعلق بالزائد فائد ولا عائد، وفصيح الاجابة وبليغها إنما هما في إجابة وفق السؤال. فقد زود الخليل عليه السلام-/ إذا-/ بمزيد إراءة الملكوت لإحياء الموتى أصلا وفصلا، وهو القول الفصل هنا في الإجابة عن «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏». كما وان في «الطير» ميزة عن غيرها في تلك الإراءة البارعة، فكما الطير تطير أحياء، كذلك نجعلها تطير أمواتا حيث «يَأْتِينَكَ سَعْياً» وذلك أبدع من تطاير اجزاء أية دابة. و مما لا بد منه في «اربعة» ان تكون من صنوف أربعة، ولكي تصبح في «فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ» متخالطة بعضها ببعض، فيصبح إحياءهن ورجعهن الى ما كنّ أول مرة، دليلا ناصعا على ان الخلط في خلط ليس ليخلّط على اللّه تمييز الأجزاء في الإحياء. فقد تضل عنا أجزاء حيوان في مثله، ثم يضلان في ثان ثم ثالث ثم رابع، ولكنها ليست لتضل عن اللّه تعالى شأنه، كيف وهي لا تضل عن ملك الموت فانه يتوفى الأرواح والأجساد دونما زلة ولا ضلة، بإذن اللّه، ثم ترجع كما كانت بإذن اللّه!. «فَخُذْ ... فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ...» «صرهن» من صار يصور صورا «1»، مال، وحيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في لسان العرب: رجل أصور: مائل مشتاق، صرت إلى الشيئ: أملته، في رأسه صور اي ميل، و في صفةمشيه صلى الله عليه و آله كان فيه شيئ من صور اي ميل-/ اي إذا جد به السير لا خلقة، و في حديث عمر: نتعطف عليهم بالعلم قلوب لا تصورها الأرحام اي لا تميلها، و في حديث ابن عمر: إني لأدني الحائض مني و ما بي إليها صورة أي‏ميل و شهوة تصورني إليها، و في حديث عكرمة: حملة العرش كلهم صور، و هو جمع أصور و هو المائل العنق لثقل حمله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 130

تعديت ب «إلى» فهي الإمالة، وقد تأتي بمعنى القطع‏ «1» والفصل. و قد يجوز ان تعني «صرهن» كلا الإمالة والقطع، فهي في الأولى لازم وفي الثانية متعد، و قد عني هنا منها الجمع، ف «إليك» نص في الإمالة، وبضمها القطع بمعناه الآخر، فقد جمع فيها بين إمالة الطير الأربعة إليه ثم تقطيعها «ثُمَّ اجْعَلْ عَلى‏ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً». فقد يستفاد تقطيع الطير هنا من «صرهن» ثم من «ثُمَّ اجْعَلْ عَلى‏ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً» حيث الجزء لا يطلق على كل واحدة من الطير، وانما أجزاؤها المجزءة بالتقطيع. و لماذا الإمالة قبل التقطيع؟ انها لمعرفة شاملة بها حتى يعرفها بعد الدعوة انها هيه بأعيانها دون غيار، كما وان في تلك الإمالة أنسا لها به عليه السلام لا ينسى بالإماتة، ولولا ذلك الأنس لما أجابت دعاءه أن «يَأْتِينَكَ سَعْياً» فانما الناتج عن إحيائها-/ وهو فعل اللّه-/ أن تحيى فتطير حيثما شاءت، دون جهة خاصة يعنيها ابراهيم الخليل عليه السلام. فقد تلمح «فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ» ان احياءهن لم يكن من فعل ابراهيم، وكما انه تطلب من ربه «أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» لا «أحيي الموتى». و كما تؤيده «ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً» حيث الدعاء الموجه إليهن-/ كطير-/ لا الموجه إلى أجزائهن، دليل أمره بدعائهن بعد إحياءهن، فهن «يأتينك» دعاء «سعيا» حيث انسن بك من ذي قبل، وترى «كل جبل» تعني كل جبل الدنيا؟ وهو تكليف بالعسير العسير، دون ان يحوى يسيرا من الحكمة في هكذا عسير!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب: و صرت الشيئ ايضا قطعته و فصلته، قال العجاج: صرنا به الحكم و أعيا الحكما و في حديث مجاهد: كره ان يصور شجرة مثمرة، و الصوّار القطيع من البقر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 131

إنها بطبيعة الحال هي الجبال المحيطة به في الأفق الذي كان يعيش فيه، اربعة او عشرة أماهيه، والاستدلال ب «جزء» هنا ان الجزء عشر في عرف القرآن، مبني على تأكد العشرة من «كل جبل» وألا يأتي الجزء في سائر القرآن لغير العشر، وقد أتى للسبع: «لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ» (15: 44) فهم-/ إذا-/ سبعة اصناف، لكي تختص كل باب من السبعة بصنف منهم، وكما أتى لجزء طليق يعم كل جزء من الكل: «وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ» (43: 15). إذا فلا مجال للاستدلال بالجزء الأول على كونه العشر مهما ثبت ان الجبال هناك كانت عشرة، فالروايات المنسوبة الى أئمة اهل البيت عليهم السلام ان «جزء» هي العشر بصورة مطلقة «1»، إنها مختلقة لا يعنى منها إلا التجديل عليهم وتجهيلهم بأمثال هذه السنادات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 281 في الكافي متصلا عن عبد الرحمن بن سبابة قال: ان امرأة أوصت إليّ و قالت: ثلثي‏يقضى به ديني و جزء منه لفلان فسألت عن ذلك ابن أبي ليلى فقال: ما أرى لها شيئا ما ادري ما الجزء فسألت عنه أبا عبد اللّه عليه السلام بعد ذلك و خبرته كيف قالت المرأة و بما قال ابن أبي ليلى فقال: كذب ابن ابن ليلى لها عشر الثلث ان اللّه عز و جل امر ابراهيم عليه السلام فقال: اجعل على كل جبل منهن جزء و كانت الجبال يومئذ عشرة فالجزء هو العشر من الشيئ. و رواه عنه عليه السلام مثله معاوية بن عمار استدلالا بالآية، وعن ابان بن تغلب قال قال ابو جعفر عليهما السلام الجزء واحد من عشرة لأن الجبال عشرة و الطيور اربعة. و فيه 278 عن العياشي عن عبد الصمد قال: جمع لأبي جعفر المنصور القضاة فقال لهم: رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء؟ فلم يعلموا كم الجزء و شكوا فيه فأبرد بريدا إلى صاحب المدينة ان يسأل جعفر بن محمد عليهما السلام رجل أوصى بجزء من ماله فكم الجزء فقد أشكل ذلك على القضاة فلم يعلموا كم الجزء فان هو أخبرك به و الا فاحمله على البريد و وجهه إلي فأتى صاحب المدينة أبا عبد اللّه عليه السلام فقال له: إن أبا جعفر بعث إلي ان أسألك عن رجل اوصى بجزء من ماله و سأل من قبله من القضاة فلم يخبروه ما هو و قد كتب إلي إن فسرت ذلك له و إلا حملتك على البريد إليه فقال ابو عبد اللّه عليه السلام هذا في كتاب اللّه بين إن اللّه يقول-/ لما قال ابراهيم: رب أرني كيف تحيى الموتى-/ الى قوله-/: كل جبل منهن جزء، و كانت الطير اربعة و الجبال عشرة يخرج الرجل لكل عشرة اجزاء جزء واحدا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 132

المدخولة اللهم الا بتأويل‏ «1» (وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»: «عزيز» فيما يريد، غالبا على أمره أيا كان «حكيم» في تحقيق مراده، دونما فوضى جزاف، ثم «اعلم» هنا ليس علما عن جهل، بل هو مزيد علم وكما أمر الرسول صلى الله عليه و آله: «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» وهناك اللّه علّم ابراهيم علما بما أراه كيف يحيي الموتى. و إذا يستجاب ابراهيم الخليل عليه السلام في «كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» فبأحرى ان يستجاب الائمة من اهل بيت الرسول عليهم السلام، أن يحيى لهم بعض الموتى في مقام المقارعة «2» وهم مجتازون علم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بأن يقال ان الجزء مهما كن طليقا لأي‏جزء حين لا يحدد، و لكنه حدد في القرآن بالسبع و العشر فحين لانجد سبيلا لتحديد الجزء في وصية و سواها فالمرجع هو القرآن و قضية الاحتياط في الوصية ان نأخذ باقل الجزئين‏

(2). نور الثقلين 1: 276 عن العيون في باب استسقاء المأمون بالرضا عليه السلام بعد جري كلام بين الرضا عليه السلام وبعض اهل النصب من حجّاب المأمون فغضب الحاجب عند ذلك فقال بابن موسى لقد عدوك طورك و تجاوزت قدرك ان بعث اللّه تعالى بمطر مقدّر وقته لا يتقدم و لا يتأخر جعلته آية تستطيل بها و صولة تصول بها، كأنك جئت بمثل آية الخليل ابراهيم عليه السلام لما أخذ رؤوس الطير و دعا أعضاءها التي كان فرقها على الجبال تأتينه سعيا و تركبن على الرؤوس و خفقن و طرن بإذن اللّه عز و جل فان كنت صادقا فيما توهم فأحيى هذين و سلطهما عليّ فان ذلك يكون حينئذ آية معجزة فأما المطر المعتاد خلت أنت أحق بان يكون جاء بدعائك من غيرك الذي دعا كما دعوت و كان الحاجب أشار الى أسدين مصورين على مسند المأمون الذي كان مستندا اليه و كانا متقابلين على المسند فغضب علي بن موسى الرضا عليه السلام و صاح بالصورتين: دونكما الفاجر، فافترساه و لا تبقيّا له عينا و لا أثرا فوثبت الصورتان و قد عادتا أسدين فتناولا الحاجب و رضاه و هشماه و اكلاه و لحسا دمه و القوم ينظرون متحيرين مما يبصرون، فلما فرغا أقبلا على الرضا عليه السلام و قالا: يا ولي اللّه في ارضه ماذا تأمرنا ان نفعل بهذا أنفعل به فعلنا هذا-/ يشيران إلى المأمون-/ فغشي على المأمون مما سمع منهما فقال الرضا عليه السلام قفا فوقفا ثم قال الرضا عليه السلام صبوا عليه ماء ورد و طيبوه ففعل ذلك به و عاد الأسدان يقولان: أ تأذن لنا ان نلحقه بصاحبه الذي أفنيناه؟ قال: لا-/ فان للّه عز و جل فيه تدبيرا هو ممضيه، فقالا: ماذا تأمرنا؟ فقال: عودا إلى مقركما كما كنتما، فعادا إلى المسند و صارا صورتين كما كانتا فقال المأمون: الحمد للّه الذي كفاني شر حميد بن مهران يعني الرجل المفترس، ثم قال للرضا عليه السلام يا ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذا الأمر لجدكم رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم لكم و لو شئت لنزلت عنه لك، فقال الرضا عليه السلام لو شئت لما ناظرتك و لم أسألك فإن اللّه عز و جل قد أعطاني من طاعة ساير خلقه مثل ما رأيت من طاعة هاتين الصورتين، الا جهال بني آدم فإنهم و إن خسروا حظوظهم فللّه عز و جل فيه تدبير و قد امرني بترك الإعراض عليك و اظهار ما أظهرته من العمل من تحت يدك كما امر يوسف بالعمل من تحت يد فرعون مصر، قال: «فما زال المأمون ضئيلا الى ان قضى علي بن موسى الرضا عليه السلام ما قضى». وفيه 281 في الخرايج و الجرايح و روى عن يونس بن ظبيان قال: كنت عند الصادق عليه السلام مع جماعة فقلت: «قول الله لإبراهيم عليه السلام فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ...» أ كانت أربعة من أجناس مختلفة او من جنس واحد؟ قال: تحبون أن أريكم مثله؟ قلنا: بلى، قال: يا طاوس فإذا طاوس طار الى حضرته ثم قال يا غراب فإذا غراب بين يديه ثم قال يا بازي فإذا بازي بين يديه ثم قال يا حمامة فإذا حمامة بين يديه ثم امر بذبحها كلها و تقطيعها و نتف ريشها و ان يخلط ذلك كله بعضه ببعض ثم أخذ برأس الطاوس فقال يا طاوس فرأيت لحمه و عظامه وريشه تتميز من غيرها حتى التصق ذلك كله برأسه وقام الطاوس بين يديه حياً ثم صاح بالغراب كذلك وبالبازي والحمامة كذلكك فقامت كلها حياً بين يديه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 133

الكيفية، لأنهم يسأمون محمدا صلى الله عليه و آله وقد خصتهم آية التطهير بخاصة الطهارة المطلقة المتميزة عن كل طهارة لأي‏طاهر من العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين.

ابراهيم امَّة

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 120. التعبير عن رجل واحد بأمة هو منقطع النظير في القرآن، فإنّ «الأمة الرجل فمافوقه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 134-/ اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما من عبد يشهد له امة الا قبل اللَّه شهادته و الامة الرجل فما فوقه ان اللَّه يقول: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً ...». وفي نور الثقلين 3: 93 عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللَّه عليه السلام يقول: و الامة واحدة فصاعدا كما قال اللَّه سبحانه: ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 134

أ تراه يختص بوصف «امة» لأنه بوحدته كان يحمل ايمان أمة؟ والنبي صلى الله عليه و آله أحرى منه في هذا المعنى ولم ترد له وصفه بامة لا في كتاب ولا سنة! ام لأنه كان الوحيد في بداية امره موحدا للَّه‏ «1» فكأنه-/ إذا-/ امة موحدة، على ما كان له من صمود على توحيد اللَّه في مختلف اجواء الشرك باللَّه، منذ تربيته في حضن آزر عمه، ثم في مواجهة نمرود الطاغية. ام لأنه أول بان جاهر باهر متجاسر لقواعد التوحيد، ولذلك يؤمر الموحدون بعده وهذا النبي «أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؟ الأمة فعلة، فهي مرّة من الأم: القصد والأصل، فهي قصد واحد ومقصد واحد، ولذلك تسمى كل جماعة تربطهم عقيدة واحدة او قصد واحد امة، فإبراهيم-/ إذا-/ امة فاعلية ومفعولية، فاعلية لأنه بوحدته كان موحدا، ومفعولية حيث اؤتم به فأصبح إماما في شرعة التوحيد، مهما فاقه بعض من اتبعه كهذا النبي والمعصومين من عترته معه. «قانتا لله»: خاشعا خاضعا متطامنا في كل أقواله وأحواله وأفعاله «حنيفا»: معرضا عما يخالف الحق «وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» في أية دركة من دركاته بدركاتهم، بل كان موحدا حق التوحيد في كافة درجاته. نجد في هذه وثلاث أخرى بعدها عشرة كاملة من أوصاف إبراهيم الخليل عليه السلام أولاها «كانَ أُمَّةً» وأخراها «أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً»-/ ولأنه امام يقتدى به في ملة التوحيد-/ و قد حملت آية الأمة ثلاثا منها والسبع الأخرى:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في تفسير العياشي عن سماعة بن مهران قال سمعت عبدا صالحا يقول: لقد كانت الدنيا و ما كان‏فيها الا واحد يعبد اللَّه و لو كان معه غيره إذا لاضافة اليه حيث يقول: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فصبر بذلك ما شاء اللَّه ثم ان اللَّه آنسه بإسماعيل و إسحاق فصاروا ثلاثة و رواه مثله القمي عن أبي جعفر عليه السلام و ذلك انه على دين لم يكن عليه احد غيره فكان امة واحدة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 135

شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ 122 ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 123. ف «شاكرا» هي حالته على أية حال، و «لأنعمه» تعم كافة النعم الربانية، فلذلك «اجتباه» على من سواه «وَ هَداهُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» نبوءة ورسالة ونبوّة وإمامة وخلة أمّا هيه من هدى ربانية. و لماذا «لأنعمه» جمع قلّة دون «نعمه»: جمع كثرة؟ حيث الشاكر نعمة اللَّه مهما بلغ من الشكر ذروته ليس ببالغ إلّا ذرته «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فضلا عن شكرها، ثم و ادب العبودية الصالحة يعني معنى القلة، استصغارا للشكر، واستعظاما للنعم بنعمته، وكما يقول أول الشاكرين والعابدين «ما عبدناك حق عبادتك». فعلى الجملة «وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا» حياة «حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» وهو الصلاح القمة كما هو للأئمة بين المرسلين كنوح وموسى والمسيح ومحمد صلى الله عليه و آله على درجاتهم. و في كونه من الصالحين تحقيق لدعوته «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (26:

83) فالملحق اليه هو حقا الرسول محمد صلى الله عليه و آله وآله المعصومون، فإنهم أئمته في كافة الدرجات مهما تأخروا عنه في الولادات وكما يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين». «ثم» بعد هذه المراحل التسع لإبراهيم الخليل «أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» حنيفا أنت كما هو وزيادة تناسب محتدك الرسالي «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». أ ترى رسول الهدى وهو في أعلى قمم العبودية والمعرفة الرسالية يتبع ملة ابراهيم، وهو رسول اليه وولي عليه كما هو على سائر النبيين: «وَ إِذأَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 136

كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81)؟! النص يأمره باتباع ملة ابراهيم دون اتباعه نفسه، وما هو إلا مشيه على صراط مستقيم في كونه حنيفا وما كان من المشركين وسائر المواصفات العشر وذلك رأس الزاوية فيها، و: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (3: 68). فلم يكن هذا النبي من متبعي ابراهيم، بل هو اولى أولياءه، السائر مسيره وإلى مصيره في ملته، مهما كان اسبق منه في ذلك السباق، حيث سبق كل الرفاق بين العالمين أجمعين. و كيف يكون في ابراهيم شخصه أسوة لخاتم المرسلين و «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...... إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ...» (60: 4)-/ والحال انه «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21). فإبراهيم الذي لا يؤتسى للمسلمين بهذا الخصوص، كيف يؤتسى لرسول الهدى على وجه العموم، اللهم الا أسوة ملته وهي شرعة التوحيد، وهي أسوة في صراط اللَّه. و ذلك تعريض عريض على الذين كانوا يظنونه يتبع ملة الهود أو النصارى وكما في مصارحة قبلها «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (67) (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» (95). فكلما في الأمر هو اتباع ملته دون شخصه، وملته هي ملة التوحيد الناصع الخالص، ومتبعوها درجات قدر المتابعات، دون فضل لسابق على لا حق الا في سباق الدرجات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 137

ذلك «ثم لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء لأنه المنهج الأوضح ... فلو كان لدين الله تعالى سلك أقوم من الاقتداء لندب أولياءه وأنبياءه اليه» «1». و في مسرح الشرعتين: الإبراهيمية والإسلامية نرى توافقات جذرية واخرى فرعية لا نجدها بين أية شرعتين سلبيا وايجابيا ف: إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 124. فليس حكم السبت أصلا سائرا بين الشرائع الإلهية لكي يكون له دور في الشرعة الاسلامية المشابهة للشرعة الابراهيمية. و ترى ما هي مادة اختلافهم في السبت حتى جعل عليهم السبت جزاء على اختلافهم فيه؟ فهل عرض عليهم كعطلة اسبوعية واختلفوا فيه فجزاهم كلهم بما جعل؟ وهم متفقون في عطلته مهما تخلف جماهير منهم عن أحكامه، وجعل السبت في حكم الشرعة التوراتية ليس إلا بعد ما اختلفوا فيه، ف «إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ»! ام اختلفوا فيه ردا للجمعة المعروضة عليهم، فأعرضت ثلة وقبلت قلة فجعل عليهم عطلة عن العمل بديل الجمعة، وحرم عليهم فيما حرم صيد الحيتان فاختلفوا فيه ايضا، ولا عطلة في اية شرعة تحرم فيه الطيبات الا هذه جزاء ببغيهم واختلافهم؟ وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة عن الامام الصادق عليه السلام مستندا الى هذه الآية و في نور الثقلين 3: 94 في محاسن البرقي عن عباد بن زياد قال قال لي ابو عبد اللَّه عليه السلام يا عباد ما على ملة ابراهيم احد غيركم، وعن تفسير العياشي عن عمر بن أبي ميثم، قال سمعت الحسين بن علي عليهما السلام يقول: ما احد على ملة ابراهيم الا نحن و شيعتنا و سائر الناس منها براء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 138

فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد» «1». و خماسية الآيات في سبتهم تندد بهم فيما فعلوا به وافتعلوا: «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (2: 65) (كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ» (4:

47) (وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» (154) (وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (7: 166). فقد اختلفوا في السبت رفضا لما عرضه اللَّه واقتراحا لسبتهم فجعل عليهم، ثم فسقوا واختلفوا فسبت عنهم في سبتهم صيد البحر فعتوا فاخذهم بعذاب بئيس. إذا فليس السبت من الشرعة الابراهيمية حتى تستمر.

ابراهيم والبلد الامن‏

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 134-/ أخرجه الشافعي في الام و البخاري و مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 139

مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الَّثمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41) آيات سبع تختصر في دعاء ابراهيم الخليل كل ما سأل في منحدر عمره وخاتمة أمره، انسان ذاكر شاكر لنعمت اللَّه، يدعو ربه في بيته العتيق، بمشهد خاشع يظلله الشكر وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء في نعمة رخية تتموج ذاهبة الى السماء: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ..» مما يلمح بكون مكة بلدا حينذاك، وترى كيف يكون واد غير ذي زرع بلدا ولم يعمّر بعد؟ علّه لأنه أم القرى مهما كان وقتئذ واديا غير ذي زرع، فهو بلد قبل عماره وبعده، قبل بناء البيت وبعده، ولكنه قبل بناء البيت يدعو له كأنه ليس بلدا: «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الَّثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (2: 129) وقد يعني جعل الأمن فيه حال كونه بلدا حيث الجعل مركب يكفيه «آمنا» امرا حديثا ولم يكن من ذي قبل. و قد يلمح اختلاف الدعائين في عديد من بنودهما انهما في ظرفين، مهما اشتركا في جهات أخرى فمن «رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي» في ابراهيم نعرف أنها السفرة الاولى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 140

الإبراهيمية حين أخذ اليه إسماعيل الرضيع وأمه. و من «إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ» في البقرة نعرف انها الاخرى حين كبر إسماعيل لحد إمكانية المساعدة معه لرفع القواعد من البيت، ف «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» هي دعائه قبل بناء البيت بسنين، ولا اقل من عشر ام زاد، فهل انه كان بلدا حينذاك و لم يكن بعده بسنين بلدا حيث الاول «هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» والآخر «هذا بَلَداً آمِناً»؟. انه في الاول كان بلدا واقعيا مهما كان واديا غير ذي زرع، ام في الحق بلدا لأنه يحمل مطاف الموحدين، وهو في المستقبل عاصمة الرسالة الاسلامية، ثم هو في الثاني كما الاول ام زاد، ولا ينافيه «هذا بَلَداً آمِناً» حيث المشار اليه هو البلد، والجعل هنا لثاني المفعولين ان يجعله آمنا دون اصل البلد. ثم دعاءه هنا تنقسم الى قسمين بينهما لأقل تقدير عشر سنين، ف «إِنِّي أَسْكَنْتُ ..» هي في سفرته الاولى ومعه إسماعيل الرضيع، ثم «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ ..» هي بعد مبلغ إسماعيل الحلم لحد يساعده في رفع القواعد، وفي قوله «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ..» لمحة انه لم يولد بعد إسحاق وإلا كان ضمن ما يدعو. و ترى «آمنا» في تلك الدعاء تعني الأمن تكوينا؟ وقد نرى خلافه طول تاريخه كما لم يأمن فيه الرسول صلى الله عليه و آله حيث ضرب وهتك وحوصر وأحرج حتى اخرج، لحدّ «لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ، وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ» حيث استحلت حرمته في هذا البلد، كما والحسين عليه السلام خرج منه خائفا يترقب، ولحد الآن لا نرى أمنا واقعيا فيه حيث السلطات المسيطرة فيه لا تبقي ولا تذر حرية للحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين، حتى في تطبيق واجباتهم حسب مذاهبهم الإسلامية، كما وقد هدم البيت واحرق خلال التاريخ الاسلامي فضلا عما قبله،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 141

فأين-/ إذا-/ امنه تكوينا؟. ام أمنا تشريعيا؟ وهو يعم طول الزمان وعرض المكان ان شرع اللَّه الأمن في تشاريعه كلها، وشرعة اللَّه مؤمّنة كلّها. ام إنه أمن زائد على سائر البلاد؟ وكذلك هو آمن كما نراه في محرمات الإحرام وسائر مناسك الحج والعمرة، وفي غيرهما للوافدين والقاطنين، فلذلك يختص بانه بلد آمن «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» (3: 97) (أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً» (29: 67) (أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28: 57) (سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ» (34: 18). هذا-/ ومن مخلفات هوي الأفئدة والثمرات اليه طائف من الأمن تكوينا، فقد جمع فيه الأمنان «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! ثم الأمن هذا يعم امن الروح والجسم عن كل ما يصيبهما، ومن ذلك الأمن عن عبادة الأصنام وكما حصل منذ الهجرة إلى المدينة، وكذلك الأمن عن العذاب وكما هو حاصل منذ تكونها حتى الآن والى يوم القيامة. «وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ» .. «بني» قد تجمع كل الانسال الناسلة من ابراهيم يوم دعى والى يوم الدين، وكيف يدعو «و اجنبني» وهذه المجانبة هي من التكاليف المختارة للعالمين؟ لأنها بدوامها وكمالها بين محاولة بشرية حسب المستطاع، وبين توفيق رباني لولاه لكانت الحواجز الآفاقية والأنفسية تعرقل دون تحقيقها أم ثباتها وتكاملها، لذلك يتطلب من اللَّه ان يجنبه وبنيه بعد ما اجتنبوا وكما نقول «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ». و هل استجيب في بنيه كلهم؟ طبعا لا، إلّا من آمن منهم، وكما دعى «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (2: 124) فليس جنب تسييرا على مجانبة عبادة الأصنام، بل توفيقا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 142

لمن آمن، فان الخير كله بيديه والشر ليس اليه. و لماذا «بني» دون من آمن ككل؟ انه تطبيق لأمر اللَّه: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» (66: 6) وقاية بدعاء بعد وقاية بسائر السعي، ومن ثم سائر المؤمنين «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الَّثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ» وقد تعني «بني» ولد ابراهيم وإسماعيل وإسحاق. و لماذا «بني» بعد «و اجنبني» دون المؤمنين اجمع، او من بنيه، او الناس أجمعين؟ .. انه تطبيق لترتيب التربية في الدعوة كما قال اللَّه: «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» (66: 6) (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (26:) 214) ابتداء بنفس الداعية في بعدي التحقيق والدعاء للمزيد، ثم الأقرباء والأنسباء، ثم سائر الناس. و قد يعني من «بني» الأنبياء من ذريته كإسماعيل وإسحاق وذريتهما، وكما تلمح له «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» إسلاما لهم كما لهما، ام وفوقه كما في محمد صلى الله عليه و آله وعترته المعصومين عليهم السلام. و لماذا «الأصنام» فقط وعبادة الطواغيت اشر واطغى؟ لأنها أعم حيث يعبدها المستضعفون المضلّلون بطواغيتهم الدعاة إليها مهما كانوا هم معبودين لهم كوساط في تلك العبادة. ففرعون نفسه ونمرود واضرابهما كانوا يعبدون أصناما كما كانوا يعبدون، فالأصنام اشمل صيغة تعمّ كل معبود سوى اللَّه، هكذا، ام وهي أعم من أدناها النفس الامارة بالسوء، وأعلاها الطواغيت، وهذا المثلث هو الأصنام مهما اختلفت دركاتها، كما وان عبادة اللَّه-/ ايضا-/ درجات. و لماذا «و اجنبني» ضما لنفسه في بنيه وهو صون بالعصمة الإلهية عما دون ذلك فضلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 143

عن عبادة الأصنام؟ انه طلب للثبات على شرعة التوحيد، كما يطلب الرسول صلى الله عليه و آله ضمن سائر المكلفين «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ». و درجات ذلك الجنب تختلف حسب درجات المجنبين كدرجات الهداية الإلهية حسب المهتدين. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36). نسبة الإضلال الى الأصنام وهي لا تعقل لأنها مادة الضلال، وهو بين زوايا ثلاث ثانيتها المضلّل نفسه حيث يتقبل الضلال، وثالثتها المضلل حيث يدعو الى الضلال، فيصح نسبة الإضلال إلى كل واحدة منها كما إليها كلّها، وقد ينسب الى اللَّه حين لا يمنع عن الضلال تسييرا ام توفيقا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» فلو لا مادة الضلال لم يكن هنالك دور لضال ولا لإضلال، ولو لا تقبّل للضلال فلا دور لآلخرين، كما لو لا المضلّل فلا دور لمادة الضلال وتقبّله اللهم إلا قليلا في هذا الأخير. كما ان اللَّه لو منع أيا من هذه الثلاث لم يوجد هناك ضلال، فنسبة المضل الى ايّ من هذه الثلاث وحتى الى اللَّه، صالحة، بفارق انه من اللَّه عدل، ومن المضلّل والمضلّل ظلم، وفي مادة الضلال كالأصنام لا عدل ولا ظلم الا إذا كان هو المضلّل نفسه، فمادة الضلال «الأصنام» تضل، كما الضال يضل نفسه بتقبل الضلال، والمضلّل يضلله بدعايته، واللَّه يضله بعد ما ضل حيث يتقبل، وعند ما ضل حيث لا يحول بينهما. ثم «فَمَنْ تَبِعَنِي» يعم اتباعه في اصل التوحيد وسائر الشرعة الإلهية عقيدية وعلمية وتطبيقية، مهما كان متابعوه في مثلثة المنازل، ممن هو فوقه كالرسول محمد صلى الله عليه و آله ام مثله كسائر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 144

اولي العزم، ام دونه كسائر النبيين والمرسلين وسائر المؤمنين، وهم كلهم اولى الناس به: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» (3: 68) فقد يعني «لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» أمثاله في ولاية العزم، ام اصحاب المنازل الثلاث كلهم تعميما قبل تخصيص، وعلّه اولى، مهما كانت متابعة هذا النبي في اصل السلوك والمسلك لا في رتبته و كما في «الَّذِينَ آمَنُوا» فقد يعم «فَمَنْ تَبِعَنِي» متابعيه من ولده وسواهم «فَإِنَّهُ مِنِّي» وان بعدت لحمته، كما «وَ مَنْ عَصانِي» يعم العصاة من ولده وسواهم-/ فليس مني-/ وان قربت لحمته. إذا ف «وَ مَنْ عَصانِي» يعم كافة العصاة لشرعة اللَّه، المجانبين سلوكه ومسلكه، سواء أ كانوا ملحدين او مشركين، ام موحدين عصاة متخلفين عن عملية الايمان كلا او بعضا، وبذلك تنحل المشكلة العويصة في «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»-/ «وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» (2: 126) (ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ، وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ...» (9: 114). فان الاستغفار لأصحاب الجحيم محرم في شرعة اللَّه ولا سيما للمشركين، فكيف يرجو ابراهيم لمن عصاه وأشرك «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» غلطة ذات بعدين ثانيهما التحقق من غفر اللَّه ورحمته؟. و الجواب ان «عصاني» يعم كل عصيان وقد يستثنى الإشراك باللَّه ممن مات مشركا، واما العصاة في غير الإلحاد والإشراك، ام المشركون التائبون «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» مهما كانت هنالك شروط، وهنا الخليل الحنون تبدو سمته العطوفة حين لا يطلب الهلاك لمن عصاه من نسله وسواه، فلا يستعجل لهم العذاب بل ولا يذكر العذاب، وانما يكلهم الى غفران اللَّه ورحمته، ويلقي على الجو ظلال الرحمة والمغفرة، حيث يتوارى ظل المعصية!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 145

فبرحمته يهدي من ضل منهم ان شاءوا، وبغفره يغفر العصاة من المهديين وسواهم، كمن أشرك ثم تاب. هنا «وَ مَنْ عَصانِي» يفصل بينه وبين كافة العصاة مهما كانوا من ولده الأقربين، فليسوا-/ إذا-/ من اهله، كما هناك «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» تجعل كافة المؤمنين من اهله، فانما هي آصرة التقوى آهلة لتجعل أهلها أهلا، والطغوى قاحلة مستأصلة لكل اهل عن أهليته: «يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» (23: 27). فمواصلة التقوى لا تعرف وتميّز قريب اللّحمة عن بعيدها، كما مفاصلة الطغوى لا تفرق بين قريبها وبعيدها وكمايروى عن رسول الهدى محمد صلى الله عليه و آله «ان ولي محمد من والى الله و رسوله وان بعدت لحمته وان عدو محمد من عادى الله ورسوله وان قربت لحمته» فلا يصدّق ما اختلق عليه «الصالحون لله والطالحون لي». هنالك بين الناس ناس وأشباه ناس ونسناس، فالمعصومون-/ على درجاتهم-/ هم الناس و أشياعهم هم أشباه الناس، وسائر الناس هم نسناس، وقد شملت الآية الطوائف الثلاث‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 547 في روضة الكافي ابن محبوب عن عبد الدين غالب عن أبي عن سعيد بن الميت قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: ان رجلا جاء الى امير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني ان كنت عالما عن الناس و عن أشباه الناس و عن النسناس فقال امير المؤمنين عليه السلام يا حسين أجب الرجل فقال الحسين عليه السلام اما قولك أشباه الناس فهم شيعتنا و هم موالينا و هم منا و لذلك قال ابراهيم عليه السلام «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» ... أقول وفي حديث آخر سأله عليه السلام رجل عن الناس فقال للحسن عليه السلام أجبه فقال: نحن الناس و شيعتنا أشباه الناس و سائر الناس نسناس ثم أقول: و هذا التقسيم الثلاثي تستفاد من كلام الحسين عليه السلام مهما كان ظاهر الجواب عن أشباه الناس، فالناس-/ إذا-/ هم الناس، و سائر الناس لا ناس و لا أشباه ناس، فهم-/ إذا-/ نسناس. وفيه عن امالي الطوسي باسناده الى عمر بن يزيد قال قال ابو عبد اللَّه عليه السلام يا بن يزيد أنت و اللَّه من اهل البيت، قلت: جعلت فداك من آل محمد صلى الله عليه و آله ص؟ قال: اي و اللَّه من أنفسهم، قلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: أي‏و اللَّه من أنفسهم يا عمر أما تقرأ كتاب اللَّه عز و جل: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» او ما تقرأ قول اللَّه عز اسمه: «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أقول و قد تظافرت الروايات في هذا المعنى عن الرسول صلى الله عليه و آله و أئمة أهل بيته عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 146

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الَّثمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37). «من ذريتي» هو إسماعيل وامه، فقد تدخل الزوجة في نطاق الذرية اعتبارا بالتبعية، كما و «لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ» هنا تدل عليه، حيث لم تكن له هناك من ذرية الولادة إلّا إسماعيل عليه السلام. و «رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ ..» عرض له بتطبيق ما امر به، استعطافا بجماع الصفات من ربوبيته «ربنا» حين يرى واديا غير ذي زرع، وذلك عند انصرافه بعد إسكانهم «لما بلغ كدى وهو جبل بذي طوى ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 548-/ القمي حدثني أبي عن النضر بن سويد عن هشام عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ان ابراهيم عليه السلام كان نازلا في بادية الشام فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غما شديدا لأنه لم يكن له منها ولد و كانت تؤذي ابراهيم في هاجر و تغمه فشكا ابراهيم عليه السلام ذلك الى اللَّه عز و جل فأوحى اللَّه اليه: انما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء ان تركتها استمتعت بها و ان أقمتها كسرتها. ثم امره ان يخرج إسماعيل و امه عنها فقال: يا رب الى اي مكان؟ قال: الى حرمي و امتي و اوّل بقعة خلقتها من الأرض و هي مكة فانزل اللَّه عليه جبرئيل عليه السلام بالبراق فحمل هاجر و إسماعيل و ابراهيم عليه السلام عليها و كان ابراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر و نخل و زرع الا و قال: يا جبرئيل الى هاهنا الى هاهنا؟ فيقول جبرئيل: لا-/ امض امض حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت و قد كان ابراهيم عاهد سارة ألّا ينزل حتى يرجع إليها فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلوا تحته فلما سرحهم ابراهيم و وضعهم و أراد الانصراف عنهم الى سارة قالت له هاجر: يا ابراهيم لم تدعنا في موضع ليس به أنيس و لا ماء و لا زرع فقال ابراهيم: اللَّه الذي امرني ان أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم ثم انصرف فلما بلغ كدى .. فقال: ربنا .... وفيه عن الفضل بن موسى الكاتب عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: ان ابراهيم عليه السلام لما اسكن إسماعيل و هاجر مكة و دعها لينصرف عنها بكيا فقال لهما ابراهيم ما يبكيكما فقد خلفتكما في أحب الأرض الى اللَّه في حرم اللَّه، فقالت له هاجر: يا ابراهيم ما كنت ارى ان نبيا مثلك يفعل ما فعلت-/ قال: و ما فعلت؟ قالت: إنك خلفت امرأة ضعيفة و غلاما ضعيفا لا حيلة لهما بلا أنيس من بشر و لا ماء يظهر و لا زرع قد بلغ و لا ضرع يحلب! قال: فرقّ ابراهيم و دمعت عيناه عند ما سمع منهما فاقبل حتى انتهى الى باب بيت اللَّه الحرام فأخذ بعضادتي الكعبة ثم قال: «اللهم اني أسكنت من ذريتي ..» قال ابو الحسن عليه السلام: فأوحى اللَّه الى ابراهيم: ان اصعد أبا قبيس فناد في الناس: يا معشر الخلائق ان اللَّه يأمركم بحج هذا البيت الذي بمكة محرما من استطاع اليه سبيلا فريضة من اللَّه، فمد اللَّه لإبراهيم في صوته حتى اسمع به اهل المشرق و المغرب و ما بينهما من جميع ما قدر اللَّه و قضى في أصلاب الرجال من النطق و جميع ما قدر اللَّه و قضى في أرحام النساء الى يوم القيامة فهناك يا فضل وجب الحج على جميع الخلائق و التلبية من الحاج في ايام الحاج هي إجابة لنداء ابراهيم عليه السلام يومئذ بالحج عن اللَّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 147

«بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» وبطبيعة الحال ولا ضرع لأنه غير ذي زرع، لعدم ظهور الماء، وتوفر الرمال والصخرات، فلا يصلح-/ إذا-/ لزرع او ضرع، وبطبيعة الحال لا يهوي اليه الناس، وعلى اية حال «إِنِّي أَسْكَنْتُ ...» بأمرك على إمره. «عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ» محرما في تملّكه لغير اللَّه فانه بيت عتيق، فمحرما لحرمة التعرض له والتهاون به، وكما جعل من حوله حرما شاسعا حفاظا على مكانته وحرمته، حمى يحومه، ومحرما لم يزل منذ خلق اللَّه الأرض، عزيزا ممتنعا متمنعا يهابه كل جبار وكما امتنع من طوفان نوح ومن اصحاب الفيل حيث جعل كيدهم في تضليل، ومحرما على زائريه الوافدين او القاطنين فيه ما لا يحرم على سواهم في سلوب من الإحرام ومحرماته، ومحرما قتل اللاجئين اليه والقتال عنده الا إذا اقتضت الضرورة. «لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ» فانه قبلة المصلين، والمحور الرئيسي لإقام الصلاة، وهو اوّل بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 148

و في إقام الصلاة كما يحق إقام للدين كله، وقد «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» قياما في كل ما تتطلبه شرعة اللَّه، في صلاة كعبادة وفي صلات في ذلك الجم الغفير والجمع الوفير بتلك الصور الوضاءة الجامعة للمسلمين المستطيعين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللَّه. ف «لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ» ليست لتختص بالصلاة كصلة فردية بين العبد والمعبود، بل وكافة الصلات في كافة الحاجيات الإسلامية القائمة بين المصلين في مناسك الحج والعمرة، العبادية السياسية الحركية، دون انعزالية في تقشف عبادي جاف، تفكيكا للدين عن السياسة وللسياسة عن الدين، في حين ان الدين هو السياسة والسياسة الصالحة هي الدين دون فكاك إلّا بافتكاك الدين عن حالته القيادية. ثم إن إقام الصلاة عند البيت المحرم-/ وهو قبلة المصلين، ومولد الوحي ومهبطه، وعاصمة الرسالة القدسية الاخيرة-/ ان ذلك يجعل مكان البيت أسوة للمؤتسين وقدوة للمقتدين، فإقام الصلاة فيها أقوم من غيرها إقاما لها بين جموع المسلمين. «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» والهوي هو النزول من عل إلى انخفاض كالهبوط، مبالغة في صفة الأفئدة-/ وهي هنا القلوب المتفئدة بنور الهدى-/ مبالغة بالنزوع الى المقيمين بذلك المكان، فالهوي-/ إذا-/ هو انزعاج الهاوي من مستقره الى ذلك المكان لمكانته. و قد جعل اللَّه افئدة من الناس تهوي إليهم، من استطاع منهم اليه سبيلًا ومن لم يسطع هويا في بعدي التكوين والتشريع، فمن لا يستطيع يهواه كمن يستطيع. و انما «أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ» دون «افئدة الناس» ليحور على محوره كل الناس؟ لان من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 149

الناس نسناس، ففي هوي افئدتهم اليه هويه عن موقفه، وزوال لأمنه، واطاحة بكرامته، و «الناس» هنا هم المسلمون المستطيعون فرضا ونفلا: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ». «اما انه لم يعن الناس كلهم، أنتم أولئك ونظراءكم» «1». «وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الَّثمَراتِ» ومن أهمها «ثمرات القلوب» «2» ثم وسائر الثمرات «حيث تحمل إليهم من الآفاق وقد استجاب الله له حتى لا يوجد في بلاد الشرق والغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي انه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية وصيفية وخريفية وشتائية» «3». «لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» نعمة الأمن وهويّ الافئدة ورزق الثمرات، «يشكرون» في ذلك البلد الآمن وسواه، وقد نرى في ذلك التعبير العبير رفرفة ورقة تصوّر القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي الى البلد الآمن واهله حيث تهواه، في ذلك الوادي الجدب اليابس، حيث يندّى برقة القلوب ورفرفتها. رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (38). هنا «ما نخفي» يعني عن أمثالنا، «وَ ما نُعْلِنُ» لأمثالنا، فكل ذلك لك علن، وبصيغة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 551 في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام «أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» اما انه .. و انما مثلكم في الناس مثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود.

(2). المصدر في عوالي اللئالي قال الصادق عليه السلام في تفسير الآية هو ثمرات القلوب‏

(3). المصدر عن العوالي و قال الباقر عليه السلام ان الثمرات .. أقول: علّ حتى حكى-/ الى-/ شتائية، من كلام الراوي فان الامام لا يحتاج في أمثال هذه الأمور البسيطة الى النقل و هو يشهد الحرمين سنويا اكثر من غيره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 150

سائغة عامة «وَ ما يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» دون «شي‏ء» إذ قد يعلم شي‏ء ويخفى منه شي‏ء، ف «من شي‏ء» يستأصل في هذا السلب «ما يخفى» كل شي‏ء بكل شيئه وكافة جوانبه ونواهيه في اي زمان او مكان وأيا كان «وَ ما يَخْفى‏ ... فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» ولأن الأرض والسماء هما عبارة اخرى عن الكون كله، فذلك حيطة مستغرقة للكون كله. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39). «إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي» في البداية كانت في طفولة إسماعيل عليه السلام و «الْحَمْدُ لِلَّهِ ..» هي في رجولته وقد رزق بعده إسحاق، فبين الدعائين بون بين الطفولة والرجولة، وكما بين «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً» و «إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ ..» وكذلك البون-/ علّه-/ بين «رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً» انه حين اسكن من ذريته فيه، وبين «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً». هنا «لَسَمِيعُ الدُّعاءِ» تلمح انه سأله تعالى ان يهب له ذرية فوهبه، وهبة الذرية على الكبر و تقضّي العمر وقضاء الأمر انه أوقع في النفس، فانها امتداد، وما اجل الإنعام بها عند شعور الإنسان بقرب الأجل، ولكن إذا كانت ذرية طيبة، ولذلك يشفّع دعاءه بإصلاح ذريته بعد إصلاحه نفسه. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (40). أو لم يكن شيخ الأنبياء وامام المرسلين مقيم الصلاة، حتى يتطلب في منحدر عمره ونهاية امره «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ»؟ اجل، ولكنه يتقاضى اقام الصلاة في قمة الإسلام والتسليم وكما في شطر آخر من دعاءه: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ..» (2: 128).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 151

دعاء بارع، ضارع خاشع، يضم فيه الى نفسه «من ذريتي» إذ يرى ان كل ذريته لا يستأهلونه، وما ألطفه إقام الصلاة وأعطفه، حيث تضم في جنباته كل مدارج التسليم لرب العالمين، ولان البيت محطّ إقام الصلاة، فيه ومن كل فج عميق، حيث يقيمون وجوههم شطر المسجد الحرام، وفي إقام الصلاة إقام لكافة الصلات بين العبد وربه وسائر العباد. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41). أ ترى «لوالدي» محرف عن «لولدي إسماعيل وإسحاق» «1»؟ ام هما «آدم وحوا» «2» فإن أباه آذر كان مشركا ومات مشركا فهو من اصحاب الجحيم، و «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ، وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ..» (9: 114) أفبعد ما تبرء منه وبعد كبره وتكامله في محتد النبوة يكذب ربه في «تَبَرَّأَ مِنْهُ» فيدعو له في ختام دعواته؟. و لكن «والدي» ليست لتخص آدم وحوا وله آباء وأمهات منذ والديه إليهما هم كلهم مؤمنون! ومنهم من هم أفضل منهما كنوح عليه السلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 552 عن المجمع و قرأ الحسين بن علي و ابو جعفر محمد بن علي «و لولدي». وعن العياشي عن أحدهما مثله باضافة يعني إسماعيل و إسحاق و فيه عن جابر قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللَّه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» قال: هذه كلمة صحفها الكتاب، انما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه و انما كان «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» يعني إسماعيل و اسحق، و الحسن و الحسين و اللَّه ابنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. أقول و هذه فرية جاهلة قاحلة على الإمامين عليهما السلام و ليست الا من خلفيات جهالات من رواتها، إذ لم يعرفوا المعني من «والدي» و لم يمعنوا النظر في هذه الآيات‏

(2). المصدر عن العياشي عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام انه قرأ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» قال: آدم و حوا، أقول و التعارض بين الروايتين في لفظ الآية دليل قصور الفهم عن معناها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 152

و «ولدي» تخريج فيه تهريج وتحريج لموقف القرآن ذودا عن موقف ابراهيم دون تأمل في مغزى الآية! وتهريج موقف القرآن اهرج واحرج من تهريج ابراهيم القرآن! ثم الوالد أخص من الأب، فانه يعمه والجد للأم، والعم، والوالد يخص من ولّدك، فقد كان-/ إذا-/ والده غير أبيه، صيانة للعصمة الابراهيمية وأحرى منها العصمة الإلهية عن صراح الكذب:

اول بيت وضع للناس فيه مقام ابراهيم‏

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95). «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ» في كل قال وأنتم كاذبون، فان كنتم صادقين انكم على ملة ابراهيم «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» فلا تشركوا باللّه فانه «ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» باللّه في أي شأن من شؤون الربوبية. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (96) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97) إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية-/ العالمية-/ بأولية مطلقة لبيت اللّه الحرام، ردا على شطحات يهودية أن القدس أقدس منه‏ «1» فليكن هو المطاف والقبلة وكما كان في فترة، والأصل على مدار الزمن الرسالي هو الكعبة المباركة قبلة ومطافا للعالمين!: «وَ ما جَعَلْنَا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 53-/ أخرج ابن المنذر و الأزرقي عن ابن جريح قال بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس‏أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء و لأنه في الأرض المقدسة فقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و آله فنزلت «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ»-/ إلى قوله-/: «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» و ليس ذلك في بيت المقدس «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» و ليس ذلك في بيت المقدس «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» و ليس ذلك في بيت المقدس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 153

الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ ..» (2: 142). يذكر البيت الحرام في ساير القرآن عشرا مجردا كما هنا، وثلاثا منسوبا فيها إلى اللّه، وثلاثا أخرى إلى الناس، مما يدل على أنه ليس للّه بيتا كما للناس، فهو للناس بيت قبلة ومطاف ومعتكّف، وللّه بيت يعبد فيه، فهو بيت اللّه وبيت الناس‏ «1». و هنالك مواصفات لهذا البيت العتيق في عدة آيات، منها هنا سبع، عدد السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع السبع والطواف بالبيت وبالصفاء والمروة السبع، والجمرات السبع، كما وان عدد أبواب الجحيم سبع تسكّر بسبعي الطواف وسبعات الجمرات. 1 (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...» علّ الصلة القريبة لهاتين الآيتين بما قبلهما-/ ولا سيما واتبعوا ملة إبراهيم حنيفا-/ أن من أهل الكتاب معترضين على الرسول صلى الله عليه و آله إذا تأمر باتباع ملة ابراهيم فكيف تستقبل الكعبة و تطوف حولها ونحن نقدس القدس وهو كعبتها وشرعتها من شرعة ابراهيم؟ فجاء الجواب: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ..» وكذلك الآيات التي تقول إن ابراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت. الأول هو السابق الذي لا يسبقه أو يقارنه مثيل له في الممكنات، أم ولا يتأخر هو عنه كما اللّه تعالى، حيث هو الأول لا ثاني له والآخر لا أول قبله: «هُوَ الْأَوَّلُ وَ الآْخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (57: 3) والأول هنا هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الثلاث الأولى هي «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» (22: 26) (أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ» (2: 125) (عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ» (14: 37) و الثانية هنا «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» و «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 154

من الأول إذ له أمثال بعده مهما كانت درجات، كما هو في الدرجة القمة العليا، لا يساوى او يسامى. و «بيت» كمطلقه هو مكان البيتوتة والرياحة، بدنيا او روحيا او هما معا، فسواء أ كانت أرضا ملساء، ام وعليها بناية، فليشمل أرض الكعبة وهي مكان البيت كما يشملها بعد عمارتها. و الأولية هنا مطلقة تطم الزمنية والمكانية «1» وفي المكانة، مهما كان القصد من «بَيْتٍ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا روايات متواترة بشأن هاتين الأوليين ففي الدر المنثور 2: 52-/ أخرج البيهقي في الشعب عن ابن‏عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مهدت منها الأرض .. وعن أبي جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: إن اللّه بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتا على مثال البيت المعمور و أمر اللّه تعالى من في الأرض أن يطوفوا كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور (رواه بلفظه الرازي في تفسيره 8: 152 و التبيان بتفاوت يسير 1: 157 و بوجه أبسط الخازن 1: 252 عن علي بن الحسين عليهما السلام و الأزرقي في أخبار مكة عن أبي جعفر عليه السلام عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام 1: 35 و حسين بن عبد اللّه بإسلامه في تاريخ الكعبة 40. وروى الكليني في الصحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما أراد اللّه عز و جل أن يخلق الأرض أمر الرياح فضرب متن الماء حتى صار موجا ثم أزبد فصار زبدا واحدا فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلا من زبد ثم دحى الأرض من تحته و هو قول اللّه عز و جل: إن أوّل بيت وضع للناس .. و قال تعالى و الأرض بعد ذلك دحاها و رواه سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام (انظر الكافي (: 16) و الفقيه 2: 154 و الأخبار الدالة على دحو الأرض من موضع الكعبة كثيرة انظر العياشي 1: 186 و البرهان 1: 297 و نور الثقلين 1: 303 و الوسائل الباب 18 من أبواب مقدمات الطواف 297 و 298 و الدر المنثور 1: 145-/ 147 و الطبري 4: 8 و أخبار مكة الأزرقي 1: 31. و البيت في هذه الأحاديث هو مكان البيت، فله الأوّلية المطلقة على كل بيت كما روى العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال أراد أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم أن يزيد في المسجد فأبوا عليه فأرغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فأتى أبا عبد اللّه عليه السلام فقال له: إني سألت هؤلاء شيئا من منازلهم و افنيتهم لنزيد في المسجد و قد منعوا ذلك قد غمني غما شديدا فقال أبو عبد اللّه عليه السلام لم يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهرة، قال: و بما احتج عليهم؟ فقال: بكتاب اللّه، فقال: في أي‏موضع؟ فقال: قول اللّه «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ» قد أخبرك اللّه أن أوّل بيت وضع هو الذي ببكة فإن كانوا هم نزلوا قبل البيت فلهم افنيتهم و إن كان البيت قديما قبلهم فله فناءه فدعاهم أبو جعفر عليه السلام فاحتج عليهم بهذا فقالوا له: اصنع ما أحببت. و فيه عن الحسن بن علي النعمان قال: لما بني المهدي في المسجد الحرام بقيت دار في تربيع المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له: أنه لا ينبغي أن تدخل شيئا في المسجد الحرام غصبا فقال له علي بن يقطين يا أمير المؤمنين إني أكتب إلى موسى بن جعفر عليهما السلام لأخبرك بوحي الأمر في ذلك فكتب إلى و الي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليهما السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع عليها صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام فلا بد من الجواب في هذا؟ فقال له: الأمر لا بد منه فقال له أكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها، فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب إلى المهدي كتابا في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرضخ لهم شيئا فأرضاهم. و أما مايروى عن علي عليه السلام أن رجلا قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت و لكنه أوّل بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى و الرحمة و البركة و أوّل من بناه إبراهيم عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبناه قريش فقد يعني من المتأخر عن بيوت عمارة البيت لإمكانه (رواه في البرهان 1: 301 عن ابن شهر آشوب عنه عليه السلام و أخرجه السيوطي عن ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عنه عليه السلام و الرازي في تفسيره 8: 154 و الأزرقي في أخبار مكة 1: 61 و 62 عنه عليه السلام بوجه أبسط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 155

وُضِعَ لِلنَّاسِ» بيوت العبادة «1» فالواضع هو اللّه، والموضوع لهم هم كل الناس، فلا بيت يضعه الناس، بالإمكان ان يوضع لكلّ الناس دونما اختصاص. إلّا انه يشمل بيوت الناس بجنب بيوت اللّه، فهو الأول زمانا إذ وضعه اللّه للناس قبل كل وضع وموضوع له، حين دحى الأرض من تحتها. إن مكان البيت هو الأم لسائر الأمكنة الأرضية، كما مكة هي أم القرى من الناحية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 53-/ أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و ابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أي‏مسجد وضع أوّل؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 156

الرسالية، فللبيت بمكانه أمومتان اثنتان، فهو «أم القرى» في كافة الجهات، حيث دحيت كل شرعة إلهية-/ كأصل-/ منها، كما دحيت الأرض كلها من تحتها. و الوضع هنا تكويني وتشريعي، و «للناس» تعم جميع الناس طول الزمن الرسالي، مطافا للطائفين وقبلة للمصلين، وكما نرى قبور النبيين وسائر الصالحين قبل الإسلام تجاه الكعبة المباركة دونما استثناء، في القدس نفسه وفي الخليل ودمشق ولبنان وايران أم أيا كان من بلاد تضم قبور هؤلاء الكرام، وكما حجه النبيون اجمع‏ «1» فهذا أقدس بيت على الإطلاق، فان واضعها هو اللّه الجليل، والمهندس هو جبرئيل، والباني هو الخليل والتلميذ إسماعيل، لذلك ف «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة» «2» و هي «دعامة الإسلام ..» «3» و الصلاة فيه تسوى الف الف صلاة «4» والطواف به صلوة، والمقام عنده فيه الفضيلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في روضة المتقين 4: 97 قال أبو جعفر عليه السلام أتى آدم عليه السلام هذا البيت ألف أتية على قدميه منها سبعمائةحجة و ثلاثمائة عمرة و كان يأتيه من ناحية الشام و المكان الذي يبيت فيه الحطيم ... وفيه 114 في الموثق كالصحيح عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: مر موسى بن عمران عليه السلام في سبعين نبيا على فجاج الروحاء عليهم العباء القطوانية يقول: لبيك عبدك و ابن عبديك .. وفيه في الحسن كالصحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: مر موسى النبي صلى الله عليه و آله بصفاح الروحاء على جمل أحمر خطامه من ليف عليه عبائتان قطوانيتان و هو يقول: لبيك يا كريم لبيك-/ قال: مر يونس بن متى بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك كشاف الكرب العظام-/ قال: و مر عيسى بن مريم بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك عبدك ابن أمتك و مر محمد صلى الله عليه و آله بصفاح الروحاء يقول لبيك ذا المعارج لبيك. وفيه 116 روى زرارة في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام أن سليمان عليه السلام قد حج البيت في الجن و الإنس و الطير و الرياح و كسى البيت القباطي‏

(2). الدر المنثور 2: 53-/ أخرج الأزرقي عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي صلى الله عليه و آله: المقام ..

(3). المصدر-/ أخرج الأزرقي و الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على اللّه إن قبضه أن يدخله الجنة و إن رده أن يرده بأجر أو غنيمة

(4). كما في الوافي عن الفقيه 8: 10 قال صلى الله عليه و آله الصلاة في مسجدي كألف صلاة إلّا في المسجد الحرام فإنه‏كألف صلاة في مسجدي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 157

الكبرى، كما الصوم في رمضانه مائة الف‏ «1». لقد رسم الخط حول مكان البيت وبناه آدم الصفيّ‏ «2» ورفع القواعد منه الخليل الوفيّ، ووضع الحجر الأسود في مكانه الآن بعد خرابه هذا النبي صلى الله عليه و آله ويظهر عنده متكئا ظهره على جداره القائم المهدي عليه السلام فأم القرى هي العاصمة الإسلامية الكبرى كما كانت لرسول الهدى صلى الله عليه و آله وهي على طول خط الرسالات أم القرى لا تساوى ام تسامى. و لماذا «وُضِعَ لِلنَّاسِ» وهو «مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» أجمعين، من الجنة والناس ومن سواهما من المكلفين أجمعين؟. علّه لأنهم هو المحور الأساس في التكوين والتشريع، والجنة هم على هامش الناس ثم لا خبر لنا عن سائر العالمين. لَلَّذِي بِبَكَّةَ ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 53-/ أخرج الأزرقى و الجندي و البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله و قام منه ما تيسر كتب اللّه له مائة ألف رمضان بغير مكة و كتب له كل يوم حسنة و كل ليلة حسنة و كل يوم عتق رقبة و كل ليلة عتق رقبة و كل يوم حملان فرس في سبيل اللّه و كل ليلة حملان فرس في سبيل اللّه و له بكل يوم دعوة مستجابة

(2). روضة المتقين 4: 116 روى أبو بصير في الموثق عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إن آدم هو الذي بنى البيت ووضع أساسه و أوّل من كساه الشعر و أوّل من حج إليه ثم كساه تبع بعد آدم الأنطاع ثم كساه إبراهيم الخصف و أوّل من كساه الثياب سليمان بن داود عليه السلام، أقول: فالبيت الحرام هو قبل القدس بقرون فإن أوّل من خط بيت المقدس و اتخذه مسجدا داود عليه السلام و بناه سليمان من بعده فشاد بنيانه و فسح أعطانه و جاء في الخبر أنه أصاب بني إسرائيل على عهد داود طاعون أسرع فيهم و ذهب بعامتهم فخرج داود بالناس إلى موضع بيت المقدس فدعى اللّه سبحانه أن يرفع عنهم ذلك الموتان فاستجيب له فاتّخذ ذلك الموضع مسجدا تبركا به و تعظيما له و بدأ ببنائه فنودي قبل أن يستتمه بأوصى إلى سليمان عليه السلام باستتمامه فعامته من بناء سليمان (حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 158

و لماذا «لَلَّذِي بِبَكَّةَ» دون «الكعبة» وهي أخصر، او «مكة» وعلّها أظهر؟ علّه إذ قد تسمى غيره «كعبة» مهما أصبحت بعد علما له! وأن «الكعبة» تختص بالمبني عليه تلك البناية، و «لَلَّذِي بِبَكَّةَ» تشملها قبل البناية وبعدها، والأولية الزمنية بالنسبة لبيوت العبادة المبنية ليست للكعبة المشرفة، وانما لمكان البيت وبالنسبة لكافة البيوت عبادة وسواها، مبنية وسواها. ثم «بكة» من البك وهو الدفع حيث يدفع عنها من يقصد تهديمها هتكا من الطغاة اللئام لم يقصدها جبار بسوء الا اندقت عنقه‏ «1». و هو الزحام لأنه مزدحم الحجاج والمعتمرين، والأول يخص البيت والثاني محطّه البيت مهما عم الزحام كل البلد الحرام، ف «انما سميت مكة بكة لان الناس يتباكون فيها» «2» و «لأنها يبتك بها الرجال والنساء والمرأة تصلي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره في سائر البلدان» «3» و «لان الناس يبك بعضهم بعضا فيها بالايدي» «4» لا «لبكاء الناس حولها وفيها» «5» لاختلاف «بكّ» عن «بكى» في اصل اللغة والمعنى. و اما «مكة» فهي من المكّ: الدّحو والتحريك، حيث مكّ اللّه الأرض من تحتها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الموثق عن أبي جعفر عليه السلام كانت تسمى بكة لأنها تبك أعناق الباغين إذا بغوا فيها

(2). نور الثقلين 1: 367 في كتاب العلل بإسناده إلى العرزمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام ..

(3). المصدر 367 عن العلل بسند متصل عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال:.

(4). المصدر 367 عن العلل بإسناده إلى عبيد اللّه بن علي الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام لم سميت مكةبكة؟ قال:.

(5). المصدر 366 عن العلل و بإسناده إلى عبد اللّه بن سنان قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام لم سميت الكعبة بكة؟ فقال: لبكاء الناس حولها و فيها أقول:: و هذا من المختلقات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 159

وعلّ اختصاص «بكة» بالذكر هنا دون «مكة» وهما تعنيان البلد الحرام، للتأشير الى أن مظهر البركة والهدى فيها للعالمين بادى من أذان الحج من بانيها الخليل، مهما كانت قبلة ومطافا قبله. و قد تعني «مكة» البلد الحرام كله، او الحرم كله، و «بكة» هي موضع البيت، او موضع الحجر الذي يبك الناس بعضهم بعضا. 2-/ 3 مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ علهما حالان لمربع المتعلقات: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ»: مباركا وهدى-/ وضع: مباركا وهدى-/ للناس: مباركا وهدى-/ للذي ببكة: مباركا وهدى، بركات بعضها فوق بعض وهدايات منذ وضعه اللّه الى يوم الدين. ثم «مباركا» اسم مفعول من بارك، والبرك هو في الأصل ثبات الشي‏ء ويستعمل في كل فضل وفيض ماديا او معنويا او هما معا ف «ان للحق دولة وللباطل جولة» فهذا البيت مبارك ثابت النفع دون زوال، ومنه استقرار العبادة فيه واليه والطواف حوله دونما نسخ وتحوير. و في الأصل العبراني 6: 6-/ 6: بارك ركع-/ سجد-/ أحنى الركبة، و: 6: 6-/ 6:: برك بارك-/ مجّد-/ رحّب-/ حنّأ-/ هنّأ، و: 6: 6-/ 6: براكاه مباركة-/ تهنئة-/ تحية-/ تسبيح. و البيت الذي ببكة فيه كافة البركات مادية ومعنوية: «حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28: 57) (وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الَّثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ ..» (2: 126). و من أهمها البركات الجماعية ثقافية وعقيدية وسياسية واقتصادية أماهيه، فانه:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 160

«قياما للناس-/ ومثابة وأمنا ..» و «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ..» (22: 28). و تراه كيف يكون «مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» وحتى المسلمين لم يتبركوا به ويهتدوا كما يحق فضلا عن سائر العالمين؟. إن بركته وهداه للعالمين فرض وواقع، فرض لمن استطاع اليه سبيلًا، وواقع لغير المستطيعين من المسلمين، لو ان الأولين حجّوه كما يجب شاهدين فيه منافع لهم وللكتلة المؤمنة، ثم واقع بصورة أوسع حيث تؤسس الدولة الإسلامية العالمية على كاهل الكون ايام المهدي القائم عجل اللّه تعالى فرجه الشريف. ذلك! ولأن «للناس» هنا طليقة غير محدودة بناس دون ناس، نتأكد أنه «وُضِعَ لِلنَّاسِ» كلهم دون طائفية او اقليمية او عنصرية لناس البيت كما في سائر البيوت. ثم «وضع» دون «بني» للتدليل على كل وضع فيه تكوينيا وتشريعيا وبركة وقبلة ومطافا وعبادات أخرى، وسائر البيوت لا أولية لها في هذه الأوضاع ولا تسامي او تساوي الكعبة المباركة على الإطلاق. كما وان صيغة المجهول مع «الناس» نائبا للفاعل دليل ان الفاعل الواضع ليس من الناس، إذا فذلك وضع تكويني وتشريعي من اللّه تعالى في اولية طليقة حقيقة بالأولوية الطليقة تشريعا وتكوينا. 4 فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ ... و تراها فقط «آيات» تخرق العادات، دالة على اللّه بوحدانيته، فما هيه؟ و لم يذكر هنا إلّا «مَقامُ إِبْراهِيمَ» وهي آية واحدة!. أم هي علامات مؤشرات الى الأفضلية القمة المرموقة لهذا البيت بالنسبة لأي‏بيت؟ وقد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 161

لا تسمى العلامات-/ فقط-/ آيات، ولم تأت بمعنى العلامة إلّا التي في الشعراء «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» (128). أم هي آيات تشريعية تخصه، وتكوينية خارقة، وسواها علما لاختصاصه بين سائر البيوت بكل هذه الآيات؟ كأنها هيه جمعا بين المحتملات. و نجد في مثلث الآيات المذكورات: «مَقامُ إِبْراهِيمَ-/ وَ مَنْ دَخَلَهُ ...-/ وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» تأشيرا عشيرا إلى كلها، ف «مَقامُ إِبْراهِيمَ» تكوينية، «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» تعمها والتشريعية «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» تشريعية، والتكوينية منها تعم الخارق للعادة ومطلق العلامة. ف‏آية تشريعية منقطعة النظير تدل على أوّليته التشريفية «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» ولم يضع اللّه بيتا على مدار الزمن الرسالي، يفرض حجه لمن استطاع اليه سبيلًا إلا الكعبة المشرفة. و أخرى هي فرض الأمن لمن دخلها زائدا على ما سواها من بيوت اللّه وسواها. و ثالثة تحريم الصيد وقطع الشجر في حرمها دون سواها، وما الى ذلك من محرمات وواجبات فيها وفي إحرام حجها وعمرتها. و آية تكوينية خارقة العادة هي الرابعة من آياته البينات بكّ من قصده بسوء كما حصل في اصحاب الفيل: «أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»؟! وما هدم حينما هدم توهينا كأصحاب الفيل. و خام‏ «1» سة هي موضع قدم ابراهيم من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فما زالت الكعبة على بناء إبراهيم عليه السلام حتى جددها بنو جرهم ثم العمالقة ثم قريش، ثم هدمت الكعبةبالسيل رابعة قيل البعثة بخمس. و كان البناء على هذه الحال حتى تسلط عبد اللّه بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه الحصين قائد يزيد بمكة و أصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدت و أحرقت كسوتها و بعض أخشابها ثم انكشف عنها لموت يزيد فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة و يعيد بناءها فأتى لها بالجص النقي من اليمن و بناها به و كان فراغه من بناءها 17 رجب 64 هجرية. و هذه الإصابة لم تكن قاصدة إلى هدم البيت و هتك حرمته، و إنما هي من مخلفات هذه الحرب الظالمة، و لو كانت قاصدة ما قصده أصحاب الفيل لأصابهم ما أصابهم. ثم هنا روايات صحيحة أن البيت لم يغرق في طوفان نوح عليه السلام كما في الصحيح عن سعيد الأعرج عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق و أعتق الحرم معه كف عنه الماء (روضة المتقين 4: 4). ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله و دخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع و شبرا و بنى ذلك الجدار على أساس قريش، و هذه خامسة. و لما تولى السلطان سليمان العثماني سنة (906) غير سقفها، و لما تولى السلطان أحمد العثماني سنة (1021) أحدث فيها ترميما، و لما حدث السيل العظيم سنة (1039) هدم بعض حوائطها الشمالية و الشرقية و الغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها، و لم يزل على ذلك حتى اليوم (1405) هجرية، و لم تعمر إلّا داخليا سنة (1400) زمن الملك خالد. فلا نجد في تاريخ الكعبة تهديما قاصدا هتكا لحرمتها إلّا من أصحاب الفيل، و قد جعل كيدهم في تضليل!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 162

أثرت قدمه المباركة حين بنى البيت وحين أذّن في الناس بالحج‏ «1». و سادسة ان الطيور المحلقة على فضاء المسجد الحرام، تكسّر عند وصولها الى فضاء الكعبة، اللّهم إلّا شاردة ماردة، فقد تراها-/ ككل-/ ممتنعة من العلو على البيت الحرام، فلا يطير طائر إلا حوله من غير ان يعلو فوقه وقد تناصر الخبر وتواتر الأثر بذكره. و لقد شاهدت أنا عند مقامي بمكة المكرمة في سنتين من سني هجرتي من شر الطاغوت الشاه عليه لعنة اللّه، شاهدت متقصدا تلك الآية البينة، فرأيت امتناع الطير من التحليق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في حسنة ابن سنان أو صحيحه على الأصح قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود و منزل إسماعيل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 163

فوق البيت، حتى لقد كنت أرى الطائر يدنو من مكان سحيق ومنزع عميق في أحدّ طير أنه و أمدّ خفقان جناحه حتى أظن انه قد قطع البيت عاليا عليه وجائزا به، فما هو إلا ان يقرب منه حتى ينكسر منحرفا ويرجع متيامنا او متياسرا فيمر عن يمين البيت او شماله، كأن لافتا يلفته او عاكسا يعكسه، وذلك من أطراف ما شاهدته هناك وجربته، اللهم عد بي الى بيتك واجعلني فيه من أنصار مهديك القائم عجل اللّه تعالى فرجه، وكما رجوته حين أقمت فيه ولكن اللّه قضى امرا كان مفعولا. و سابعة هي بئر زمزم حيث نبع فوارا أرتزيا منذ مس إسماعيل عقبه على أرضه، ولا يزال نابعا يزيد ولا ينقص، ثم وماءه لا يتسنّه على طول المكوث مكشوفا على أية حال. و ثامنة هي قصة الخليل عليه السلام لما أمر في المنحر بذبح ابنه إسماعيل، فأخذ يضغط على المدية ولكنها لا تقطع حيث «الخليل يأمرني والجليل ينهاني». و تاسعة هي ترك الذباب والبراغيث في منى يوم الأضحى ويومين بعدها، وأرضها مليئة بالأشلاء العفنة والنتنة، فلا تجد أية مؤذية فيها!. و عاشرة هي حصى الجمار التي تؤخذ من المشعر الحرام بالملايين الملايين سنويا، وليس سبيل ماء ولا مهب رياح شديدة! ثم ترى ذهاب تلك الحصى وخلو مواضعه منه على كثرة الرامين به واجتماعه في مواضعه. و حاد يعشرها انها تجبى إليها ثمرات كل شي‏ء، والبلد الحرام نفسه كان قاحلا لا ماء فيه ولا كلاء، وحتى الآن وهما فيه قدر الحاجة لا ثمرات فيه من نفسه إلّا من كل أكناف العالم. و ثاني عشرها الأمن النسبي فيه-/ مهما شذ فيه اللّاأمن-/ حيث الحروب وإراقة الدماء بعيدة عنه اكثر من غيره بكثير، ولحدّ لا تجد فيه افتراس السباع فضلا عن غيرها، كما وهو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 164

من احكامه تشريعيا. فترى الوحش والسباع إذا دخلته وصارت في حدوده لا تقتل بعضها بعضا، ولا يؤذي بعضها بعضا، ولا تصطاد فيه الكلاب والسباع سوانح الوحوش التي جرت عادتها بالاصطياد لها، ولا تعدو عليها في أرض الحرم كما تعدو عليها إذا صادفتها خارج الحرم. فهذه آية عظيمة من آيات اللّه البينات في هذا البيت المبارك تدل دلالة عظيمة على أن اللّه تعالى هو الذي أبان هذا البيت بذلك من سائر بقاع الأرض، حيث حال بين السباع فيها وبين مجاري عاداتها وحوافز طباعها وعمل النفوس السليطة التي ركبت فيها حتى تمنع من مواقعة الفرائس وقد اكثبت لها وصارت أخذ أيديها، بل وتأنس بأضدادها وتأنس الأضداد بها!. و قد تعني «مَقامُ إِبْراهِيمَ» كل هذه الآيات لأنها في مقامه الكعبة حيث رفع قواعدها، ومقامه الواضع قدمه عليه حيث موضع قدمه، ومقامه الزمزم حيث مقام اسماعيله بأمه، ومقامه المنحر ومنى، فكل هذه يصدق عليها مقام إبراهيم، زمان قيامه ومكانه وأصل قيامه بما قام، وإنما خص بالذكر أمن المقام وفرض حج البيت، كنموذجين من الآيات التكوينية والتشريعية. كما وان مقام ابراهيم أيا كان لهذا البيت المبارك هو من الآيات البينات لفضله على القدس و ما سواه من البيوت المقدسة طول الرسالات، حيث ترى موضع قدم الخليل في الصخرة حيث ألان اللّه سبحانه له أصلادها بعد الصلابة وخلخل أجزاءها بعد الكثافة حتى أثرت قدمه فيها راسخة وتغلغلت سانحة كما يتغلغل في الأشياء الرخوة والأرض الخوارة. فلذلك البيت فضله المنقطع النظير، لا يخلو قريبا من طائف او مصل، ولا بعيدا من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 165

مستقبل له في صلاة وسواها، آناء الليل وأطراف النهار، فان قضية كروية الأرض دوران الآفاق فتداوم أوقات الصلوات الخمس في كل الأوقات دونما استثناء. و «مَقامُ إِبْراهِيمَ» ادبيا قد يكون مبتدء خبره المحذوف «منها» او بدلا من «آيات» مع «من دخله-/ ولله ...» او عطف بيان. 5 وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً .... أ تراه أمنا شرعيا؟ ولا يخص البيت! فكل داخل في بيت وسواه وخارج عنه آمن في شرعة اللّه إذا لم يستحق خلاف الأمن كالجاني!. ام امنا واقعيا؟ ولم يأمن فيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام وكثير مثله تقتيلا او نفيا وتشريدا! فكيف يكون الأمن من ميّزاته بين البيوت وسواها من مدخل او مخرج؟!. و قد سأل ابراهيم أمنه: «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً ...» (2: 126)

فاستجيب له: «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (125)!. قد يعني «آمنا» أمنا زائدا على سواه شرعيا وواقعيا كما هو الواقع طول تاريخه المجيد، ولم يختص به أصل الأمن بنوعيه، وإنما أصبح أمنه الخاص فيهما من ميزاته. فالكعبة آمنة كما هنا، والحرم الحاوي لها ولمكة كلها آمن: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً» (28: 75) ولكن اين أمن من أمن. فالداخل في الكعبة أو المسجد الحرام آمن مهما كان مجرما، ولكن يضيّق عليه في المأكل و المشرب حتى يخرج فيقام عليه الحد، إلّا إذا جنى في نفس المسجد الحرام أو الكعبة المباركة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 166

فيقام عليه الحد فيما جنى‏ «1» والكعبة المباركة هي منقطعة النظير في ذلك الأمن كما في سواه. ثم «آمنا» يعم بأس الآخرة إلى الدنيا وبأحرى، إلّا إذا دخل غير تائب عما اقترف، غير خارج عن معصية اللّه وهو في حرم اللّه، فانه ناقض أمنه، لأنه ناقص في دخوله‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 55-/ أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من دخل البيت دخل في حسنة و خرج من سيئة مغفورا له وفيه أخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من مات في أحد الحرمين بعث آمنا-/ وفيه عن سلمان قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي و جاء يوم القيامة من الآمنين. وفي نور الثقلين 1: 368 عن علي بن عبد العزيز قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام جعلت فداك قول اللّه «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فقد يدخله المرجى و القدري و الحروري و الزنديق الذي لا يؤمن باللّه؟ قال: لا و لا كرامة! قلت: فمه جعلت فداك؟ قال: من دخله و هو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه و كفى هم الدنيا و الآخرة. وفيه عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللّه جلى جلاله حديث طويل و فيه يقول في حق علي عليه السلام: و جعلته العلم الهادي من الضلالة و بأبي الذي أوتى به منه و بيتي الذي من دخله كان آمنا من ناري. وفيه في الكافي بسند متصل عن عبد الخالق الصيقل قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن هذه الآية فقال: لقد سألني عن شي‏ء ما سألني أحد إلّا من شاء اللّه، قال: من أمّ هذا البيت و هو يعلم أنه البيت الذي أمره اللّه عز و جل به و عرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمنا في الدنيا و الآخرة. وفيه عن القمي بسند متصل عن معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن تدخلها و لا تدخلها بحذاء و تقول إذا دخلت: اللّهم إنك قلت: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فآمني من عذاب النار ... وبإسناده إلى سعيد الأعرج عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لا بد للصرورة أن يدخل البيت قبل أن يرجع، فإذا دخلته فادخله بسكينة و وقار ثم أئت كل زاوية من زاوياه ثم قل: اللّهم إنك قلت: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» ف‏آمني من عذاب يوم القيامة

(2). روى الحلبي في الحسن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سألته عن قول اللّه عز و جل «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» قال: إذا أحدث العبد جناية في غير الحرم ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم و لكن يمنع من السوق فلا يبايع و لا يطعم و لا يكلّم فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ و إذا جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم لأنه لم يرع للحرم حرمته، أقول و بمضمونه أخبار متظافرة قد يصح دعوى التواتر فيها معنويا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 167

و أمن الداخل في الكعبة او المسجد الحرام أءمن من الداخل في مكة او الحرم، ولم يأت «آمنا» لداخل إلّا هنا، ثم «بلدا-/ او-/ حرما آمنا». و قد يقال ان ضمير الغائب في «دخله» راجع-/ فقط-/ الى البيت، فلا أمن إذا إلّا للداخل في نفس البيت، دون المسجد الحرام فضلا عن الحرم كله؟. لكن المرجع الأقرب الصالح لرجوعه إليه هو «مَقامُ إِبْراهِيمَ» ويسع الحرم كله، اضافة الى آيات أمن مكة، والحرم كله وتظافر الروايات ان المأمن هو الحرم كله‏ «1». و القول ان «فيه» راجع الى البيت، فمقام ابراهيم لا بد وان يكون-/ فقط-/ في نفس البيت ف «من دخله» يعني مقام ابراهيم وهو نفسه في البيت فلا يعني الحرم كله؟. قد يجاب عنه إضافة الى ما قد مناه أن «فيه» تعني في البيت بما يتعلق به وهو الحرم كله، كما «ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» لا يعني انه نفسه محل الذبح. ثم وليس من المتعوّد دخول نفس البيت إلّا للخصوص من الزائرين، دون العامة فضلا عن المجرمين. و كذلك «مَقامُ إِبْراهِيمَ» ليس داخل البيت نفسه، حتى القدر المتيقن منه وهو الحجر المقام فضلا عن سواه من مقامه الواسع. ثم «كانَ آمِناً» دون «أمن» وهي أخصر، قد تلمح لعمق الأمن وثباته الى يوم الدين، ف «كان» تضرب الى عمق الماضي، و «آمنا» الشامل لمثلث الزمان يستجرّ الأمن الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في حسنة عبد اللّه بن سنان قال سألته عن الآية البيت عنى أو الحرم كله؟ قال: من دخل الحرم مستجيرا من الناس فهو آمن من سخط اللّه و من دخله من الوحش و الطير كان آمنا أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم (التهذيب 5: 449 و الفقيه 2: 163 و الكافي 1: 228 و الوافي 8: 17 و الوسائل الباب 14 من أبواب مقدمات الطواف ح 12)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 168

عمق المستقبل، فقد يأمن داخله عما مضى من ذنوبه وما يأتي إلّا ان يحدث حدثا يبطل دخوله في البيت. و ترى «من دخله» يخص الناس دون الحيوان؟ وأمن الإنسان-/ بطبيعة الحال وبأحرى-/ أمن للحيوان، ف «من» هنا يشمل كل ذي روح إنسانا وحيوانا «1» ثم وسائر آيات أمن الحرم لا تخص الإنسان: «حَرَماً آمِناً ...». أو يصح ان يكون حرم اللّه آمنا للإنسان وليس آمنا للحيوان وهي أحوج إلى الأمن!؟

ثم الأمن مطلق يعم النفس والعرض والمال، فلا يطالب المديون في الحرم ولا يروّع‏ «2». 6 وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... اللّام في «للّه» ليست للانتفاع إذ لا ينتفع اللّه من حج العباد وسواه من فعالهم، وإنما لاختصاص العهدة على الناس للّه، ف «على الناس» ليست لتثبت-/ فقط-/ فرض الحج على الناس، بل هو مع العهدة الثابتة عليهم، فلا تسقط بتركه ولا بالموت إذا استطاع إليه سبيلًا لوقت مّا وتركه دون عذر. و «الناس» هنا كل الناس من مختلف الملل والنحل دونما تمييز، وكما أمر ابراهيم الخليل بأذانه العام: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 370 عن العلل بسند متصل عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه سئل عن طير أهلي أقبل فدخل‏الحرم؟ قال: لا يمس لأن اللّه عز و جل يقول: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً». وفيه عن الفقيه و سأل محمد بن مسلم أحدهما عليهما السلام عن الظبي يدخل الحرام؟ فقال: لا يؤخذ و لا يمس لأن اللّه يقول: و من دخله كان آمنا

(2). المصدر في الكافي بسند متصل عن سماعة بن مهران عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سألته عن رجل لي عليه مال فغاب عني زمانا فرأيته يطوف حول الكعبة أفأتقاضاه مالي؟ قال: لا-/ لا تسلم عليه و لا تروعه حتى يخرج من الحرم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 169

..» (22: 27) وآية ثالثة مدنية «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ ...» ولكنها لا تخاطب إلّا من يحج، أم هو شاغل بأداء مناسكه، حيث الإتمام لا يصح إلّا فيما اشتغلت به. و لقد أذّن النبي كما أمر في أخريات العهد المدني قبيل الفتح، مرة للمسلمين حيث أمر المؤذنين ان يؤذنوا .. «1» واخرى للملل الستة. فلما نزلت آية الحج هذه جمع الرسول صلى الله عليه و آله أهل الأديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال: «ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس وقالوا لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ».

ابراهيم باني الكعبة المباركة

ثلاثة عشر آية تحوم حوم الحج في البعض من هامة مناسكه، والتوجيهات العقائدية والسياسية اما هيه مما يقصد من هذه العبادة الجماهيرية السياسية القيادية، ولكي يتبنىّ دولة الإسلام قوية صامدة عالمية، رباطا تاماً بين الكتلة المؤمنة في ارجاء المعمورة «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ». فلذلك ترى «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» يختص بالذكر بعد «سَبِيلِ اللَّهِ» كأصدق مصداق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فروع الكافي 1: 233 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم أنزل اللّه سبحانه: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...» فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يحج في عامه هذا فعلم من حضر المدينة و أهل العوالي و الأعراب. أقول: و آية الأذان و الاستطاعة مدنيتان، فلم يكن تأخير للحج عن فرضه، و حتى لو كان فلجهات أمنية أماهيه، و الرسول أعرف بتكليفه من كل عارف!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 170

شاخص يتجسد فيه سبيل اللّه، وهي سبيل صالح الإنسان بما يصلحه إصلاحا جماعيا جمعيّا في كافية الجنبات. صحيح ان سائر الفرائض الإلهية كلها سبل اللّه ولكنما الحج تجمع بين كافة السبل قضية مناسكها الهامة التي تجمع جموعها في عبودية جماهيرية حركية عالمية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ 25. فكما الإسلام بضوابطه هو لكافة المسلمين، كذلك قبلة الإسلام وعاصمته: «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» فقد جعله اللّه للناس-/ وطبعا المسلمين منهم-/ فإنهم الذين يقصدونه كسبيل اللّه الموحّدة بينهم-/ جعله لهم حال انه «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» سكنا وعبادة، فلا يفضّل عاكف فيه على باد، وذلك لأنه المعكف والمطاف والقبلة لكل المسلمين على حد سواء، بيت عتيق طليق لا يملكه احد سوى اللّه، وقد جعله اللّه لعباده «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» فكل ترجيح لعاكف على باد لحاضر على مسافر، ولمواطن على سواه، كل ذلك الحاد فيه بظلم، «نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ». لا يعني «العاكف» فقط المعتكفين في المسجد الحرام كعبادة معروفة حيث العبارة الصالحة عنه المعتكف، ولا «الباد» غير المعتكف، بل هما «المقيم والذي يرحل» سواء اعتكفا ام أحدهما ام لا، وعلّ التعبير بالعكوف للتأشير إلى مدى المسؤولية الهامّة على عواتق المقيمين بمكة المكرمة، أن عليهم حياة العكوف والعبودية فيها بكل رقابة. و طبعا لا يعني «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» هنا نفس المسجد إذ لا يقيم فيه المقيم ولا البادي، بل هو مكة المكرمة كلها او الحرم كله، تعبيرا بأقدس مكان فيه، كما و «ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 171

حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» (2: 196) ليست لتعني نفس المسجد فانه ليس مسكنا للأهلين، وذلك عناية في التعبير عن البلاد المقدسة ان يذكر الامكنة المقدسة فيها. و ليس ذلك الصدّ-/ فقط-/ عن المسجد الحرام، فانه صدّ عن المناسك كلها، وليس في المسجد الحرام إلا شطر منها، إذا فالمسجد الحرام هنا هو امكنة المناسك كلها، الحرم وما والاه من عرفات ومشعر ومنى. و قد يقال ان «فيه» في «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تتعلق ب «سواء» ف «سواء فيه»:

نفس المسجد «العاكف» في مكة او الحرم «و الباد» الا ان «العاكف» اقرب تعلقا ومعنى، فان كانت «فيه» متعلقة بسواء لكانت الصيغة الصالحة «سواء فيه العاكف والباد». او ان «الْعاكِفُ فِيهِ» هو المعتكف كعبادة خاصة، ولكنه لا يقابله الباد، فرب باد يعتكف. إذا ف «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تسوّي بينهما في بيوت مكة، فهي مباحة للباد كما العاكف؟ فلا تؤخذ اجرة من زوار البيت والا فلا سواء، وكمايروى عن النبي صلى الله عليه و آله: «مكة مباحة لا توجر بيوتها ولا تباع رباعها» «1» و «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» «2» وقد «توفى رسول الله صلى الله عليه و آله وابو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن» «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 251-/ اخرج ابن مردويه عن ابن عمران النبي صلى الله عليه و آله قال: ..

(2). المصدر اخرج الدار قطني عن ابن عمران رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ..

(3). المصدر اخرج ابن أبي شيبة و ابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال: ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 172

ومن كتاب لعلي عليه السلام الى قثم بن عباس وهو عامله على مكة «و أمر أهل مكة ان لا يأخذوا عن ساكن اجرا فان اللّه سبحانه يقول «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» والعاكف المقيم به والبادي الذي يحج اليه من غير اهله» «1». و الصد عن المسجد الحرام كسائر الصد عن سبيل اللّه هو الصد عن ان يعبد اللّه فيه بخاصة المناسك وعامة العبادة، ومن الصدّ عنه التمييز بين العاكف فيه والباد، ومنه تملكه روحيا او زمنيا، والسيطرة الخاصة عليه الا تنظيما ادبيا بين جموع الوافدين عاكفين ام بادين. و كمايروى عن النبي صلى الله عليه و آله «يا بني عبد مناف من ولى منكم من امور الناس شيئا فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت او صلى اية ساعة من ليل او نهار» «2» فكلما يرغب في المسجد الحرام او يؤمر فيه او يندب لا يجوز الصدّ عنه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام: ... وفي نور الثقلين 3: 480 عن قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي جعفر عن أبيه عن علي عليهم السلام كره إجارة بيوت مكة و قرء «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» وعن تهذيب الأحكام موسى بن القاسم عن صفوان بن يحيى عن حسين ابن أبي العلا في الصحيح قال ذكر أبو عبد اللّه عليه السلام هذه الآية فقال: كانت مكة ليس على شي‏ء منها باب و كان أوّل من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان و ليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها و روى مثله في العلل عن الحلبي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سألته عن قول اللّه عز و جل «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» فقال لم يكن ينبغي ان يصنع على دور مكة أبواب لأن للحاج ان ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم و ان أول من جعل لدور مكة أبوابا معاوية و عن الكافي روى مثل ما في التهذيب باختلاف يسير. وفي تفسير البرهان 3: 84 عن الحميري باسناده عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله نهى اهل مكة عن إجارة بيوتهم و ان تعلقوا عليها أبوابا و قال: سواء العاكف فيه و الباد-/ و قال: و فعل ذلك ابو بكر و عمر و عثمان حتى كان في زمن معاوية. وفي الصحيح عن حفص البختري عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال ليس ينبغي لأهل مكة ان يجعلوا لدورهم أبوابا و ذلك ان الحاج ينزلون معهم في ساحة الدار حتى يقضوا حجهم (التهذيب 5: 463 و رواه مرسلا في الفقيه: 3: 126)

(2). تفسير الفخر الرازي 23: 24 قال عليه السلام: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 173

و هل ان تلك التسوية تقتضي ألّا تملك دور مكة المكرمة؟ علّها لا، إذ يجوز ان تملك على ذلك الشرط ألا يمنع الحجاج من سكنها زمن الحج. هنا بيت اللّه، فلا يعبد فيه الا اللّه، وكل عباد اللّه فيه على سواء، ومهما اختلفت درجاتهم روحية وزمنية، فلا ينبغي لأحد ان يختص فيه بكرامة وحرمة زائدة، اللهم الا بتقوى اللّه، و لكنها ايضا ليست لتميز عباد اللّه في بيت اللّه بشأن من شؤون عبادة اللّه مكانا او مكانة او زمانا ام أيا كان، فان «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تحلّق على كافة التسويات من حيث كون المسجد الحرام سبيل اللّه. ثم الإلحاد فيه يعم كل ميل عن الحق، عامة في كل الحقول، وخاصة في حقل المسجد الحرام بما له من حرمات خاصة، فيشمل كل عصيان وظلم في مثلثه، بحق اللّه او بحقك وبحق الناس. «وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ»-/ لا فقط-/ من يعمل فيه أو يلحد فيه-/ تجتث عن هذه الساحة المباركة كافة التخلفات عقائدية وعملية وحتى في النية والطوية ولمن لم يصل إلى الحرم رعاية لقداسة الموقف فانه اقدس مقدس في الكون كله بأسره وعن بكرته، فكما من الإلحاد في المسجد الحرام تهديمه وعوذا باللّه، او الإشراك باللّه، كذلك كل تخلف عن شرعة اللّه، حيث يتضاعف في المسجد الحرام وفي الحرم كله ومنه الصيد في الحرم لا سيما حالة الإحرام، وارتكاب محرمات الإحرام حاله، ودخوله الحرم بلا إحرام الا لمن استثني، بل و «احتكار الطعام في الحرم الحاد فيه» «1» و على الجملة «كل ظلم يظلم به الرجل نفسه بمكة من سرقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 351-/ اخرج البخاري في تاريخه و عبد بن حميد و ابو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم‏و ابن مردويه عن يعلي بن امية عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ... و اخرج مثله البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 174

او ظلم احد او شي‏ء من الظلم فاني أراه إلحادا ولذلك كان ينهي ان يسكن الحرم‏ «1». و لا فحسب فيه، بل ومن يرد فيه قبل ان يوافيه وان لم يصله فضلا عن وصوله بما أراد، وباحرى من يرد فيه وهو فيه ولم يحقق ما أراد، وهذه من ميزات قبلة الإسلام، ان الارادة السيئة بمجردها في غيرها لا تؤخذ بشي‏ء، ولكنها فيها مأخوذة مهددة بعذاب اليم، فضلا عن تحقيقها فيها! وقد يتوسع «مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» الى غير الإنسان من حيوان كسباع الطير إذا صارت في الحرم‏ «2». و هل يتحصن بالحرم عن اجرام فيه ام خارجه؟ كلا! فانه ليس ملجأ للمجرمين، بل ونفس «التحصين بالحرم الحاد» «3» فانه حرم للمؤمنين، دون المجرمين. اللهم إلا تحصينا مؤقتا مشروطا لمن جنى في غيره ثم لجأ اليه فانه يضيّق عليه في مأكله و مشربه حتى يضطر للخروج عنه فيقام عليه الحد، واما الجاني في نفس الحرم فيقام عليه الحد في نفس الحرم «لأنه لم يدع للحرم حرمة» «4». و على اية حال فكل الظلم فيه الحاد «5» بل وارادته ايضا من الإلحاد فيه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 482 في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي الصباح الكناني قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن هذه الآية قال: ... أقول: و الراويات بذلك مستفيضة

(2). المصدر عن العلل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قيل له: ان سبعا من سباع الطير على الكعبة لا يمر به شي‏ء من حمام الحرم الا ضربه، فقال عليه السلام: انصبوا له و اقتلوه فانه قد الحد في الحرم‏

(3). جامع أحاديث الشيعة 10: 92 ح 211-/ يب 579 احمد عن ابن محمد الحسن بن علي الوشاء عن بعض أصحابنا يرفع الحديث عن بعض الصادقين عليه السلام قال: التحصين بالحرم الحاد

(4). تفصيل البحث راجع إلى تفسير آية «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فراجع‏

(5). كما رواه أصحابنا مستفيضا كصحيحة ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام ان كل ظلم فيه الحاد، و مثلها غيرها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 175

و ترى ما هو موقف «بظلم» بعد «بإلحاد» وكل الحاد ظلم؟ عل الباء في «بإلحاد» للملابسة، تعني ملابس الإلحاد فيما يريد، وفي «بظلم» للسبية، تعني إلحادا ظالما، عله هنا بحق الناس حيث «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» وكما بحق اللّه وأدناه الظلم بالنفس، ام انهما حالان ل «يرد» والمفعول محذوف ليتناول كل متناولاته، انحرافا بظلم. ام ان «بظلم» بدل عن «بإلحاد» تعني ارادة ملابسة بظلم أيا كان، فانه الحاد، اكبارا لاي ظلم يراد فيه انه الحاد، وان كان ظلما بالنفس فضلا عن سواها، ام انها كلها معنية مهما تفاضلت. و كل ذلك لسيادة منقطعة النظير في ذلك الموقف العظيم، فانه قبلة الإسلام ومطاف المسلمين، فليقدّس عن كل الحاد وكل ظلم وكل ما لا يرضاه اللّه تعالى، منطلقا لكافة الأبعاد الإسلامية السامية «1». فكما ان المسجد الحرام هو اقدس مكان في الكون كله، فليكن كل عاكف فيه او باد واقدس ممن سواه بواقع القداسة ام-/ لأقل تقدير-/ بحراسة وقتية، تصنيعا لنفسه وتصنيعا لآخرين. و هكذا يسبق الإسلام سبقا بعيدا عريقا بإنشاء واحة السلام ومنطقة الأمان، ودار الإسلام المفتوحة لأهل السلام والإسلام، مهدّدا هؤلاء الذين يريدون اعوجاجا في هذا المنهج القويم المستقيم بعذاب اليم «وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). جامع أحاديث الشيعة 10: 93 في الرضوي عليه السلام فمن هم لمعصية (اي في مكة) و لم يعملها كتب عليه سيئة لقوله تعالى: و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب السعير» و ليس ذلك في بلد غيره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 176

و علّ ذلك التعقيب يكفي جوابا عن «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» كما هو جواب ل «مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» فلا حاجة إلى تقدير، ام انه لوضوحه بعظم عذابه ليس بحاجة إلى جواب حيث يعرفه البسطاء فضلا عن اولي الألباب. و لقد ذكر المسجد الحرام في اربعة عشر موضعا بمختلف المناسبات ثم مسجد ومساجد اخرى بنفس العدد، ويا لها توافقا بين عديد الذكر للمسجد الحرام وسائر المساجد، وفقا فيهما لعدد المعصومين الأربعة عشر، فإنهم من شروط المسجد الحرام سبيلًا إلى اللّه، وتقبلا لفريضة اللّه. و لماذا يعطف هنا المستقبل «و يصدون» على الماضي «الَّذِينَ كَفَرُوا»؟ علّه للتأشير إلى استمرارية صدهم منذ كفرهم الماضي، اضافة إلى كل صادّ عن سبيل اللّه في المستقبل على مر الزمن فإنهم يكفرون ويصدون، فلا يكفي-/ إذا-/ وصدوا، حيث لا يشمل استقباله واستمراره، فهم بعكس التعبير ك «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ». وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ 26. «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (2: 125). «وَ إِذْ بَوَّأْنا» كأنه قبل ان يبني البيت، لمكان «مَكانَ الْبَيْتِ» دون-/ فقط-/ «البيت» فقد جعله اللّه له بواء مباءة: مرجعا يرجع إليه إسكانا من ذريته، وعمارة للبيت، وطوافا به،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 177

فلان الأولين يختصان به، لذلك يختص هو بتلك المباءة «أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» نهيا صارما يحلّق على كافة دركات الإشراك باللّه حتى الرئاء وما دونه. لا فحسب نفسك بل «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» عن مظاهر الإشراك وملامحه وعمن يشرك باللّه، إخلاء «لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ». صيغة «بيتي» مصوغة لخصوص الكعبة المشرفة، اضافة تشريفية ما أشرفها، مهما كانت كل مساجد اللّه بيوت اللّه، إلّا ان الكعبة إمام البيوت كما هي أمام البيوت. هنا وفي «أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ» (2: 125) و «عِنْدَ بَيْتِكَ الُمحَرَّمِ» (14: 37) الكعبة فيها بيت اللّه، لأنها مباءة العبادة للّه، ثم في ثلاث اخرى‏ «1» هي بيت الناس لأنها معبد الناس ومطافهم، فهي إذا بيت اللّه وبيت الناس، ثم وفي عشر هي الاخرى «البيت» اشارة إلى بيت اللّه وبيت الناس. فهو بيت اللّه حيث يعبد فيه اللّه وهو قبلة المصلين للّه، وهو بيت عتيق لم يكن ولن يكون في ربقة غير اللّه. و هو بيت الناس، فإنهم هم الذين يبيتون فيه ويستقبلونه ويطوفون به للّه، إذا فهو بيت الناس كما هو بيت اللّه مهما بان البون بين الانتسابين كالبون بين الناس وبين اللّه. ثم الطهارة المأمور بها ظاهرية عن كافة الأنجاس والأقذار، وبأحرى باطنية عن الإشراك باللّه في مربع «الطواف والقيام والركوع والسجود» كالقمة المعنية من توحيد اللّه في عبادته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ..» (3: 16) و «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 178

فكما ان هؤلاء عليهم تطهير بيوت قلوبهم وافكارهم ومظاهر أبدانهم وملابسهم واعمالهم حتى يصلحوا لحج هذا البيت، كذلك «طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ ...» ومن تطهير ذلك البيت ان تكون عمارته بصدق النية وطهارة الطوية: «أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ تَقْوى‏ مِنَ اللَّهِ ..» (9: 109) و كما منه تنحية المشركين عنه‏ «1». و ترى من هم «الطائفين والقائمين» حيث «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» هم المصلون؟ فهل الطائفون هم من يطوف البيت، والقائمون هم القائمون في الصلاة، فهو والركع السجود تعبيرات ثلاث عن الصلاة؟ و «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» يكفي تعبيرا عن الصلاة، فإنهما تعنيان عبادة تحويهما قضية ردفهما دون عطف، وهما معا لا يوجدان إلّا في الصلاة، وقد عطفا بالقائمين دليلا على مفارقتهما إياهم! ولو كانت الثلاثة هم المصلين فصحيح العبارة عنهم «القائمين الركع السجود» ردفا دون عطف قضية وحدة العبادة، رغم ان ضم «الْقائِمِينَ» لا يفيد زيادة معنى! ثم وذكر «الْعاكِفِينَ» في آية البقرة بديلا عن «الْقائِمِينَ» هنا مما يحتّم انهم هم العاكفون المقيمون في مكة المكرمة، فالطائفون هم البادون، الحاضر للطواف دون الإقامة. و تأييدا ثالثا قرن السواء في غاية التطهير، بالسواء بين العاكف والباد، فكما لم يميزوا في البداية فكذلك الأمر في النهاية، هناك «لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ» وهنا «لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ». فالطائفون هم الزائرون، والعاكفون هم القائمون، والركع السجود هم المصلون، مهما شمل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي ص 32 عن الصادق عليه السلام نح عنه المشركين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 179

الطائفون كل الطائفين حوله، والعاكفون من يعتكف فيه وسواه. فقد جعل اللّه هذا البيت للناس سواء العاكف فيه والباد في كل شعائر الحج، ولذلك امر ابراهيم ان يطهره للناس سواء الطائفين والقائمين بعكس الترتيب هناك كيلا يتقدم مقيم على مسافر ولا مسافر على مقيم تحقيقا للتسوية حتى في التعبير. ثم الأمر بتطهيره لا يخص ابراهيم الخليل، بل هو مستمر إلى يوم الدين، كما التسوية المجعولة المرمية إلى يوم الدين. و ذكر «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» مقيما او مسافرا بعد «الطائفين والقائمين» مسافرا او مقيما، لطواف البيت وسواه من مناسك الحج والعمرة، يصوّر لنا صلاة الطواف بعده، مع ان «الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة» «1». فليكن ذلك البيت العتيق بالمسجد الحرام والحرم كله، اطهر بيت في الكون كله، متخليا عن كل مظاهر القذارة والرجاسة، متحليا بكل مظاهر الطهارة والقداسة، بعيدا عن كافة المفارقات والتمييزات لاي مقيم او مسافر، في طواف وصلاة وسواهما من مناسكه. و هنا «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» دليل جواز الصلاة في جوف الكعبة المشرفة، فانها أصدق مواضع «بيتي» حين يشمل المسجد الحرام، وتأويل «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» بكونها فقط أمامها قبلة عليل خارج عن التحصيل. و اما الطائفون الزوار والقائمون المقيمون، فهم بين طائف ومصلّ، ومعنى الطواف هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 354-/ اخرج الحاكم عن ابن عباس قال قال اللّه لنبيه: و طهر بيتي للطائفين و القائمين و الركع السجود قال: طواف قبل الصلاة وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة إلا ان اللّه قد أحل فيه المنطق فلا ينطق الا بخير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 180

التطواف حوله، فالداخل فيه السائر في حواليه لا يسمى طائفا بالبيت العتيق‏ «1». و اما الآية «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» فهي للخارجين عن الكعبة والمسجد الحرام، حيث امر به الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنون معه في المدينة المنورة. وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ 27. و ترى من هو المخاطب المأمور هنا بالأذان الإعلان بالحج؟ أهو-/ فقط-/ ابراهيم الخليل عليه السلام وهو دعوى دون دليل إلّا سبق الخليل بأمر قبله: «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» والآيات التالية المخاطبة للحاضرين ومن يلحقهم مستقبلين تطارد ذلك الاختصاص، لا سيما وان ذلك الخطاب «في الناس» كل الناس كقضية حقيقية تحلّق على كافة المكلفين إلى يوم الدين، فحتى إن كان خطابا لإبراهيم، فهو كأوّل من يحمله إلى الناس دون اختصاص، والخطابات الشرعية للناس دائبة ما دام الناس إلا ان يأتي نسخ او تبديل، وليس في القرآن دليل على اي تبديل بالنسبة لذلك الخطاب بكل ما يضمنه من مضامين. ام هو خطاب لخصوص الرسول محمد صلى الله عليه و آله وهو بعيد عن السياق حيث سبق الخطاب ابراهيم الخليل وهو اوّل بان للبيت، فهو-/ بطبيعة الحال-/ اوّل مؤذّن للحج، مهما يستمر حتى الرسالة الاخيرة بأكمل صورة وسيرة. حقا انه خطاب أولا لإبراهيم كأذان اوّل، ثم للرسول محمد صلى الله عليه و آله كأذان ثان، مهما كان بينهما عوان على طول خطوط الرسالات منذ ابراهيم حتى محمد عليهما السلام‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 96: 48-/ 50 عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: لما اوحى اللّه إلى ابراهيم عليه السلام ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، اهبط إلى الكعبة مائة و سبعين رحمة فجعل منها ستين للطائفين و خمسين للعاكفين و أربعين للمصلين و عشرين للناظرين‏

(2). فروع الكافي 1: 233 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله اقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم انزل اللّه سبحانه «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...» فامر المؤذنين ان يؤذنوا بأعلى أصواتهم بان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يحج في عامه هذا فعلم به من حضر المدينة و اهل العوالي و الاعراب ... أقول: و لا تنافيه الرواية القائلة ان المأمور به ابراهيم عليه السلام حيث الأمر يحلق كافة الرسل منذ ابراهيم حتى محمد صلى الله عليه و آله. «و أذن» امر صارم «فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» و هو زيارة البيت حجا او عمرة، و «يأتوك» دون «يأتونك» هو جواب الأمر، فذلك أمر بأمر، أمر أن يأمر الناس بالحج، مقدّما للمشاة على الرّكب «يَأْتُوكَ رِجالًا» جمع راجل و هو الماشي «وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» و هو اي مركوب مهزول، ضمره الجوع او المرض، و قد أهمل هنا اي مركوب قوي مزين مرمول، مما يدل على ان الراحلة في أصلها-/ فضلا عن سليمها-/ ليست شرطا في فرض الحج‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 181

و مجرد ذكره هنا مجردا عن احد المخاطبين دليل الشمول، ثم الرسول صلى الله عليه و آله أحرى من يشمله كما نتلمح او نتصرح من خطابات تالية، «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا ... وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ ...

إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ .. فَاجْتَنِبُوا .. وَ اجْتَنِبُوا .. لَكُمْ فِيها مَنافِعُ» ومن ثم «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً ..» فالهكم آله واحد-/ امة واحدة-/! «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ .. لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها ... فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا ... كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الُمحْسِنِينَ» (28: 37). ثمانية عشر خطابا في مناسك الحج تحملها آيات عشر بعد آية الأذان تعم الحاضرين من المسلمين وإلى يوم الدين، كيف نتجاهلها باختصاص خطاب الأذان بأصل الحج لإبراهيم الخليل، اللهم الا بتأويل عليل وتدجيل. و هذه ضابطة ثابتة في فقه القرآن، أن كل امر او نهي فيه لاي رسول، يبقى امرا او نهيا لكل المرسل إليهم، اللهم إلّا ببرهان قاطع من القرآن نفسه ينسخه او يحدده، حيث الرسالة واحدة، والمرسل إليهم امة واحدة، اللهم إلّا في بعض مظاهر العبودية وسواها حسب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 182

المصالح، فما لم يثبت نسخ من الكتاب لحكم مذكور فيه فهو ثابت، ولا سيما مثل أذان الحج الذي هو بطبعه زمني يشمل كافة الأمم، مهما تكامل في الامة الاخيرة. فمن المضحك المبكي اعتذار بعض المتفقهين عن الآية-/ بعد الإذعان بدلالتها-/ على انها خلاف الشهرة العظيمة او الاطباق، وخلاف الرواية المشترطة الراحلة في استطاعة الحج، فلا يعمل بها! وترى ما هو شأن الشهرة او الرواية امام تصريح الآية، وهي غير منسوخة بل مؤيدة مبيّنة بآية الاستطاعة، فمن استطاع مشيا او على كل ضامر دون حرج او مشقة لا تستطاع، فهو ممن استطاع اليه سبيلًا، ومن لا يستطيع لا راجلا ولا راكبا فهو ممن لا يستطيع اليه سبيلًا. و الرواية المفسرة للاستطاعة بالزاد والراحلة تقول «فإذا كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج» «1» لا هو المستطيع للحج، سلبا لاستطاعة من لا يحتاج إلى زاد وراحلة. و اشتراط الزاد والراحلة في الاستطاعة هو طبيعة الحال في الاكثرية الساحقة الساكنين في كل فج عميق، واما القريبين إلى مكة المكرمة، غير المحتاجين إلى راحلة، فهم ممن يستطيعون الحج دون راحلة، كما المحترفين في سفر الحج يستطيعونه دون زاد حاضر، فانما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي 4: 267 و التهذيب 1: 447 و الاستبصار 2: 129 سأل حفص في الصحيح أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عز و جل «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد و راحلة فهو ممن يستطيع الحج. أقول: و الرواية المطلقة في ذلك محمولة على الأكثر إذ ليست لتعارض نص آية الأذان كمارواه الصدوق في التوحيد عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحا في بدنه مخلا سربه له زاد و راحلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 183

الاستطاعة-/ دون حرج او مشقة زائدة غير متحمّلة-/ هي فقط شرط الوجوب، إلا ان الاكثرية الساحقة او المطلقة لا يستطيعونه إلا بزاد وراحلة. لذلك ترى آية الأذان تطلق «رجالا» ثم تقيّد «وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» ب «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» وطبعا لا يركب الضامر إلّا من يحتاج إلى ركوبه لعمق فجه أم ضمور قوته. فالأصل في أذان الحج هم «رجالا» وهم-/ في الأكثر-/ الذين يأتون من كل فج قريب، ثم «عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» وهم-/ في الأكثر-/ الآتون من كل فج بعيد، ومن ثم على كل مركوب مستطاع، قويا في جسمه، سريعا في مشيه، حيوانا ام سفينة ام سيارة ام طائرة. و قد يتعاكس الأمر، فمن ساكن في فج قريب لا يستطيع المشي فهو-/ إذا-/ غير مستطيع دون راحلة، وآية الاستطاعة لا تشترط إلّا اصل الاستطاعة، بزاد وراحلة ام دون زاد وراحلة، راحلة ضامرة ام عامرة، وقد استفاضت السنة في افضلية الحج ماشيا على الركوب لمن يستطيعه وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله:: ان الملائكة لتصافح ركاب الحجاج وتعتنق المشاة» «1» وذلك خاص بطبيعة الحال بمن لا يحشره امر أهم كالرسول صلى الله عليه و آله حيث القيادة الرسالية لا تسمح له ان يصرف شطرا بعيدا من أوقاته في أداء ندب كالحج ماشيا واما الائمة الذين حجوا مشاة لمرات ومرات فلم يكونوا بمنصب القيادة الحاضرة حيث اغتصب عنهم. و على اية حال فهنا في تقديم «رجالا» دليل تفضيل الحج ماشيا، وتفضيل المشاة الذين لا يملكون راحلة ضامرة، ثم تفضيل الركب الضامرة على الركب العامرة، مما يوضح تماما ان ليست الاستطاعة بادية من المال على اية حال، فليس المستطيعون هم الأغنياء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 4: 355-/ اخرج البيهقي عن عائشة قالت قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 184

بالركب الفاخرة، بل هم غير مذكورين في عديد المستطيعين حتى في المرحلة الآخرة، لولا آية الاستطاعة الشاملة لهم في اطلاقتها الظاهرة، وليست الاستطاعة الا القوة «1» دون حاضر الزاد والراحلة، فقد لا يقوى رغم حضورهما وقد يقوى دونهما، فان كان له بعض الزاد وبامكانه تحصيل البعض الآخر في الطريق فهو ممن له زاد، «فان كان يطيق ان يمشي بعضا ويركب بعضا فليحج‏ «2» حيث المدار على اصل الاستطاعة وهي تختلف حسب مختلف الظروف والامكانيات، ومن الناس من يمكنه المشي كلا وتحصيل الزاد في الطريق او المقصد، فهو ممن استطاع اليه سبيلًا، وتفصيل الاستطاعة يختص بآيتها الثانية. إذا ف «حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين ولقد كان اكثر من حج مع النبي صلى الله عليه و آله مشاة «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. جامع الأحاديث 10: 246 ح 746 عن المحاسن عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سأله‏حفص الأعور و انا اسمع فقال جعلني اللّه فداك ما قول اللّه: و للّه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا؟ قال: ذلك القوة في المال و اليسار

(2). لمصدر 249 ح 754 عن الحلبي عن أبي عبد اللّه عليه السلام في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال: ان يكون له مايحج به، قال قلت: من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك اهو ممن يستطيع اليه سبيلا؟ قال: نعم ما شأنه يستحي و لو يحج على حمار ابتر فان كان يطيق ان يمشي بعضا و يركب بعضا فليحج، أقول و قد وردت بذلك روايات مستفيضة

(3). المصدر 251 ج 763 باب 449 ص 140 الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن فقيه 174 معاوية 1-/ بن عمار قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن رجل عليه دين أعليه ان يحج؟ قال: نعم ان حجة الإسلام .. شاة و لقد مر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بكراع الغميم فشكوا اليه الجهد (و الطاقة-/ في فقيه) و العن فقال: شدوا أزركم و استبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم، أقول و رواه مثله في بعض نسخ فقه الرضوى و في ج 765 بإسناد متصلة عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام قول اللّه عز و جل و للّه على الناس ... قال عليه السلام يمشي ان لم يكن عنده قلت لا يقدر على المشي قال يمشي و يركب قلت لا يقدر على ذلك قال يخدم القوم و يخرج معهم، وفيه (766) عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام الحج على الغني و الفقير؟ فقال: الحج على الناس جميعا كبارهم و صغارهم فمن كان له عذر عذره اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 185

و لان «الحج» هو قصد البيت لزيارته، فهو يعم طواف الحج والعمرة، وهما كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فمثل «أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ» مكان افتراقهما، واما آية الأذان واستطاعة الحج فهما في اجتماعهما. ذلك الأذان الاعلام الإعلان لحج البيت منذ ابراهيم حتى الرسول محمد صلى الله عليه و آله فما يزال وعد اللّه يتحقق منذ ابراهيم إلى اليوم والغد، وما تزال افئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام، وترف اليه، يتقاطرون إلى ذلك البيت العتيق من كل فج عميق من فقراء وأغنياء من استطاع اليه سبيلًا. و لماذا تلك الفريضة الجماهيرية العالمية، وهنا لك فرائض اخرى لا تضم ذلك الحشد الكبير؟: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ 28. ذلك لان الحج مشهد المنافع العامة لعموم المسلمين، ومسرح الفوائد والعوائد الجماهيرية التي تكفل كيان الإسلام وشوكة المسلمين، وقد قدمت هنا على ذكر اسم اللّه وهو خالص العبادة التي يؤتى بها إعلانا وإسرارا، أفرادا وجماعات، ولكنها في ذلك المسرح كمشهد المنافع جماعية جماهيرية، مما يدل على أن هنا لك منافع تختلف صوريا عن ذكر اسم اللّه، هي التي تتبنى قوائم شرعة اللّه في بلاد اللّه. هنا يبدأ بشريطة الإمامة الابراهيمية، وهي الابتلاء العظيم، إمامة لها شروطها وظروفها الخاصة كنبراس شامل لإمامة الرسالة ورسالة الإمامة على طول الخط. ذلك-/ وليعلم بنو إسرائيل، ألّا يرثوا الإمامة من إبراهيم كسائر الميراث الذي لا شرط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 186

فيه إلا قرابة الدم واللحم على شروطها، فانما هي على شرط التوفية الشاملة لكل الابتلاءات الربانية وترك المظالم كلها مهما لم يكن من ذريته، أم كان منهم من إسرائيل، ام كان من بني إسماعيل حين تنقرض شروطات الإمامة في بني إسرائيل: وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ 124. «ابراهيم» مذكورة في سائر القرآن (69) مرة في (25) سورة وهي لغة سريانية قد تعني أب الجماعة الكثيرة وقد قرأت بأشكال تسعة «1» أثبتها وأضبطها «إبراهيم» حسب متواتر القرآن. و لماذا هنا «إِبْراهِيمَ رَبُّهُ» تقديما للمفعول وهو مفضول؟ علّه اختصاصا له بذلك الابتلاء، ام ولان «ربه» لا مجال له ادبيا لو لا تأخيره إلّا تحريرا له ك «ابتلى رب ابراهيم إياه» فنقصان في ادب اللفظ، ام «ابتلى رب العالمين-/ او-/ الله-/ ابراهيم» فنقصان في حدب المعنى حيث القصد بيان ربوبية خاصة في ذلك الابتلاء. و هنا ابتلاء رباني خاص لإبراهيم الخليل يبتليه به ربه في أخريات حياته كما تلمح له‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الثمانية الأخرى هي: «إبراهام-/ إبرهم-/ ابرهم-/ ابراهم-/ ابراهم-/ ابراهم-/ ابرهوم» و الظاهر ان هذه كلهاالا لفظ القرآن سريانية أم عبرانية، و المعربة الصحيحة هي «إبراهيم»، و قد فسرت بتفاسير عدة ك «أب رحيم» برى‏ء من الأصنام هام الى ربه-/ الشديد النظر-/ و الأولان بعيدان لأنها سريانية لا نفسّر بتجزئات عربية، رغم ان ذلك خلاف التجزئة أيضا، فأين أب من أب و اين راهيم من رحيم! مهما عنت الأب الرحيم من غير هذا التحليل، و قد يعني الأب العالي كما في قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست، يعني أب الجماعة الكثيرة (التكوين 17-/ 4 و 5): «أما أنا فهوذا عهدي معك و تكون أيا لجمهور من الأمم 4 فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أيا لجمهور من الأمم 5 و اثمرك كثيرا جدا و أجعلك أمما». و هنا نعرف ان «أب» في السريانية هو الأب و «راهم» هو جمهور الأمم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 187

«مِنْ ذُرِّيَّتِي» فقد كانت له ذرية بعد الإياس: «قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» (15: 55) فلما وهب له ذريته قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ» (14: 41). ثم ومن أهم الكلمات التي ابتلي بها فأتمها بعد نفس الإمامة هي قصة ذبح إسماعيل وهو بكر ذريته: «قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ... إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ» (37: 106) «1». إذا فقد كان ابتلاءه بكلمات فأتمهن، وكان ذلك في أخريات حياته النيرة، مهما شملت «كلمات» طول حياته النيرة التي كانت كلها ابتلاءات بكلمات مهما كانت درجات ف «مِنْ ذُرِّيَّتِي» تشمل ذريته من إسماعيل كما من إسحاق. و الابتلاء الرباني هو الامتحان الاختبار ليظهر بإتمامه مكنون اللباقة والياقة، إما للمبتلي و المبتلى أمامه كما في الخلق، أم دون الاوّل كما للخالق فانه يعلم السر وأخفى، وقد يكون الابتلاء من خلفيات اعتداء الناس قضية إيمانك او سواه، او من نتائج تخلفك عن شرعة اللّه. ثم وليس الابتلاء الرباني الايماني إلّا في أمور صعبة ملتوية معقدة، لا يسطع لها إلّا الأشداء الأقوياء، ويسقط دونها الضعفاء. و إذا كان المبتلي هو الرب فالبلية هي الأشد حسب مختلف الأهداف منها بدرجاتها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من ذلك ابتلاءه بابيه آزر و نمرود و سائر المشركين، و من أبرز بلاءه هنا إلقاءه في النار و قول جبريل له: ألك حاجة و جوابه: أما إليك فلا، و علّ فوقه بلاء ابتلاءه بذبح اسماعيله عليهما السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 188

ولأن الإمامة الرسالية هي القمة المرموقة من درجات الكمال، فالابتلاء الهادف إليها، المحضّر لها، هي أصعب البليات وأنسبها لهذه الدرجة العليا. و هنا «ربه» دون «رب العالمين» أمّا شابه، مما تلمح صارحة صارخة أن هذه البلية بكلمات هي بلية ربانية كما تناسب الساحة الإبراهيمية وسماحتها وكما يسطع له ويليق به دونما إطاقة تزيل الطاقة. و هي مناسبة لتلك الإمامة الخاصة التي هي فوق الرسالة والنبوة حيث جعلت له بعدهما. أ ترى-/ إذا-/ ما هي الكلمات؟ أهي-/ فقط-/ كلمات لفظية حمّلت عليه ليقولها؟ وليست فيها تكلّفات وبليات! فكثير هؤلاء الذين يكثرون من كلمات طائلة-/ أية كلمات-/ وليس لهم فيها ابتلاء، ولا هم آهلون لمعانيها ومغازيها، ولا أنهم مطبقوها! ثم التلفظ بهذه الكلمات ليس إتماما لها: «فأتمهن» بل هو «قالهن» أمّا شابه. أم هي-/ فقط-/ أعمال شاقة لا يسطع لها إلّا أقوياء بالإيمان؟ وصحيح التعبير عنها وفصيحه هو «الأعمال» أو «الصالحات» أما شابه دون «كلمات»!. علّها هي كلمات اللّه التشريعية: الآمرة والناهية، الخاصة بموقف الابتلاء الإبراهيمي، التي يخلّف إتمامها الإمامة بإذن اللّه؟ ولكن «فأتمهن» بضمير جمع العاقل قد لا تناسبها!. ام هي-/ فقط-/ تطبيق هذه الكلمات بما فيها تحمل الإمامة وذبح إسماعيل فتحقق ضمير العاقل؟ اضافة الى مواد عاقلة في سائر ابتلاءه فانها من منتوجات كمال العقل واللب. قد تعني «كلمات» هنا كلا الأمرين الأمرين، فاستماع تلك الكلمات التشريعية ولا سيما شرعة الإمامة، الحصيلة عن سائر الكلمات، إنه ابتلاء، وتقبلّها دون تعنّت وسؤال ابتلاء،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 189

وتطبيقها ابتلاء، كما وقصة أمره بذبح إسماعيل «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ» تشمل مثلث الابتلاء، الذي لا يخلد بخلد اي مبتلى. فإبراهيم: كلمة اللّه، توجهت إليه كلمة اللّه-/ وهي أمر اللّه-/ أن يذبح إسماعيل كلمة اللّه، وذبحه هو كلمة اللّه، الدالة على قمة التسليم للّه، كما وتحمل الإمامة من عليا هذه الكلمات، وهنا «فأتمهن» لائقة بهذه الكلمات، فقد أتم استماع الأمر، والايمان به، والتسليم له، ثم وتطبيقه. ذلك! كما ومن الكلمات كلمات اللّه العليا الأربعة عشر المحمديون «أتمهن» إلى القائم اثنا عشر إماما تسعة من ولد الحسين‏ «1». و الإتمام في ميزان اللّه-/ إن صح التعبير-/ هو إله الإتمام، الذي ليس فوقه إتمام. إذا فكل الابتلاءات الإبراهيمية طول حياته النيرة تشمله «كلمات» وهي الدالات على العناية القمة التربوية الربانية فيما أمره ربه ونهاه، والدالات على قمة التسليم قلبيا إذ سلم له، والدالات على تمام التسليم وكما له إذ طبقها، و «أتمهن» هنا كما تعني أن اللّه أتم هذه الكلمات في ابراهيم تأييدا وتسديدا، كذلك تعني أن ابراهيم أتمهن حسب الطاقة البشرية مزودة بعصمة ربانية، ويقابله تركهن، أو انتقصهن، لا! بل «أتمهن» كما أراده اللّه منه، وأتمهن اللّه تتميما لناقص الإرادة البشرية بعصمة إلهية. قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 120 في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام قال: سألته عن الآية ما هذه الكلمات؟ قال: التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه و هو انه قال: يا رب اسألك بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين الا تبت على فتاب اللّه عليه أنه هو التواب الرحيم، فقلت له يا ابن رسول اللّه فما يعني عز و جل بقوله فأتمهن؟ قال: أتمهن إلى القائم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 190

هنا «قال» دون «فقال»: تفريعا للإمامة على إتمام الكلمات، لأن إتمامها ليس إلا ظرفا صالحا لجعل الإمامة، لا نتيجة ضرورية مفرّعة عليه، أم ولأن من هذه الكلمات هي كلمات جعل الإمامة: «إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً»-/ ومنها قوله: ومن ذريتي، ثم جوابه: «قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ». فإن الإمامة ولا سيما هذه الكبرى ابتلاء عظيم بمسئوليتها الكبرى، ثقيلة على من يحملها، عظيم حملها بحملها، ولكن ابراهيم عليه السلام أتمها وأتى بها كما أريد منه. ثم «إِنِّي جاعِلُكَ ...» مما يدل على انحصار جعل الإمامة باللّه، وانحساره عمن سواه، و «جاعلك إماما ...» حيث اسم الفاعل عامل في مفعوليه هنا، دليل انه جعل في الحال، حيث الفاعل الماضي لا يعمل، واما الاستقبال فهو مجاز يحتاج إلى دليل وصدق المشتق بمادته ليس إلّا بصادق واقعها في الحال. و الإمامة بإطلاقها هي القيادة الحقة كما هنا او الباطلة كما «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» وليس المعني منها في ذلك الجعل ما دون العصمة من القيادة فان ابراهيم معصوم حينه بأعلى درجات النبوة، وان اللّه لا يجعل قيادة روحية بانتصاب لمن هو دون العصمة، فانه قد يخطأ او يقصّر او يقصر، فكيف يأتمنه اللّه على قيادته للناس؟!. بل وليست هذه الإمامة هنا هي الرسالة او النبوة، فإنهما مجعولتان له ماضيتان، ونفس «إِنِّي جاعِلُكَ» وحيا دليل على حاضر الوحي رسالة ونبوة، فكيف يجعله صاحب وحي و هو رسول، كما وهو الآن في مختتم عمره وقد آتاه اللّه الحكم والنبوة في شبابه: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (26: 83)-/ (وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ» (19: 41) وذلك حين كان فتى وهو يحارب الآلهة المزيفة وعبّادها:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 191

«فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» (49). فلأن الإمامة هنا هي بعد كامل العبودية والنبوءة والرسالة والنبوّة والخلقة «1» حيث تخطّاها إلى القمة مرحليا كلّا تلو الأخرى، إذا فهي الإمامة بين المرسلين دون سائر الناس فحسب، حيث الإمامة الرسالية على الناس كانت له سابقة، فلتكن الإمامة الحاصلة بعد إتمام كلماتها هي الإمامة على المرسلين كما هم على سائر الناس. فكل رسول-/ غير اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى-/ هو إمام أمته، وولي العزم فوقه هو إمامه، مهما كان في زمنه أم يأتي بعده، فقد جعل اللّه كلّا من اولي العزم إماما لسائر الرسل والنبيين. فموسى إمام وكتابه إمام، وطبعا لكافة الرسل الإسرائيليين إلّا المسيح عليه السلام: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً ...» (11: 17). ثم الرسل الإسرائيليون بين الإمامين: موسى والمسيح، هم كذلك أئمة لمن دونهما: «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ. وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73) (وَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 149 عن الكافي بسند متصل عن زيد الشحام قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: ان‏اللّه تبارك و تعالى اتخذ ابراهيم عبدا قبل ان يتخذه نبيا و ان اللّه اتخذه نبيا قبل ان يتخذه رسولا و ان الله اتخذه رسولا قبل ان يتخذه خليلا و ان الله اتخذه خليلا قبل ان يتخذه إماما، فلما جمع له الأشياء قال: «إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» قال: فمن عظمها في عين إبراهيم «قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» قال: لا يكون السفيه إمام التقي. أقول: «نبيا» هنا تؤول الى النبوءة فبعدها الرسالة ثم لم يذكر النبوة بعدها اكتفاء بالخلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 192

لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ. وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» (33: 24). و هنا مرتبة ثالثة من الإمامة الرسالية تحلّق على ولاية العزم وما دونها من رسالات هي الإمامة المحمدية السامية، المنقطعة النظير بين ملاء العالمين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، كما يبيّنها هكذا أمثال قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ». محمد صلى الله عليه و آله اضافة إلى أنه إمام سائر المكلفين، كذلك هو إمام المرسلين والنبيين، وإمام على اولي العزم من الرسل نوح وابراهيم وموسى وعيسى، كما وهو امام على الأئمة الإثني عشر من عترته المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين، وامام على كافة الكروبيين. ف «إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» تعني الإمامة الوسطى، دون العليا المحمدية، ولا الدنيا الرسالية لغير من دارت عليه الرحى من الرسل. اجل! وإنها لا تعني أية إمامة رسالية بدرجاتها، لكي تطرد رسالة آدم عليه السلام إذ ظلم بما أكل من الشجرة فغوى «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» يعني عهد الإمامة الوسطى كما لإبراهيم، وباحرى العليا كما لمحمد صلى الله عليه و آله دون سائر الإمامات في سائر الرسالات وأدناها رسالة آدم وقد «عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121). ف «عهدي» هنا هو ذلك العهد الخاص، دون أي‏عهد كان، فعهد الفطرة الإنسانية-/ المعبر عنها بفطرت اللّه-/ يناله كل إنسان، وعهد العقلية الإنسانية يناله كل عاقل، وعهد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 193

الشرعة الإلهية يناله كل مؤمن، وعهد الرسالة الإلهية لا يناله إلّا المصطفون مهما سبق لهم ظلم مّا ك‏آدم، ثم عهد الإمامة بين المرسلين لا ينال الظالمين، مهما كان ظلما سابقا مغفورا. و حتى إذا عنت «عهدي» كل إمامة في مثلها-/ شاملة لرسالة آدم-/ لم تكن «الظالمين» تعم ماضية الحال، بل هي حسب الوضع والاستعمال تعني الحال والاستقبال، فليكن من يجعل إماما غير ظالم حال جعله وحتى آخر عمره. أ ترى آدم الذي ظلم بما عصى «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» هل هو طي هذه المراحل تشمله «الظالمين» وصفا ماضيا بدّل إلى تمام العدل والاصطفاء؟!. إذا فلتشمل «المشركون» كل الموحدين الذين كانوا مشركين، ثم آمنوا وأصبحوا من المقربين كسلمان أمن شابهه من أفاضل المؤمنين. و كما «الظالمين» حالا عند جعل الإمامة خارج عن «عهدي» كذلك «الظالمين» استقبالا، بمناسبة العهد الخاص الرباني الواجب ذكره على اية حال. بل وكذلك «الظالمين» ماضيا حين يكون فاحشا كالشرك، ام أيا كان حين تكون الإمامة المطلقة التي تقتضي الاصطفاء المطلق بين ملإ العالمين. فكما لا ينال عهد الإمامة الوسطى مثل آدم عليه السلام على عصمته حين اصطفاءه بالرسالة، فبأحرى ألا ينال أمثال الخلفاء الثلاث، أن يحملوا الإمامة القمة عن الرسول صلى الله عليه و آله. فالإمامة التي هي عهد خاص رباني هي القيادة الروحية، مهما حملت-/ واقعيا كما هو شرعيا-/ القيادة الزمنية. فمهما عنون الخلفاء الثلاث ثم الائمة الرابع بعنوان الإمام، فهم ليسوا أئمة يحملون شرعة اللّه بذلك الانتصاب الخاص بعهد خاص.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 194

ثم «عهدي» هنا-/ وإن على القدر المتيقن-/ هو عهد الامامة الإبراهيمية وهي بعد المحمدية فضلا عنها، و «الظالمين» بعد «فأتمهن» هم المنتقصون الكلمات المبتلى بها، و لان الابتلاء لإبراهيم بتلك الكلمات يحلق على كل حياته، فإتمامها كذلك حذو النعل بالنعل. فكل من انتقص كلمة من هذه الكلمات طيلة حياته، انتقاصا في عدّتها ام عدّتها، في مادتها ام هيئتها، فقد يعد من «الظالمين» الذين لا ينالهم «عهدي» هذا. و من أشر الانتقاص هو الإشراك باللّه، فكيف يجعل إماما-/ بهكذا إمامة أم فوقها وهي المحمدية-/ من عبد وثنا ردحا عظيما من عمره. فمهما لم تدل «الظالمين» على الماضي، إلّا الانتقاص في تلكم الكلمات المحلّقة على مثلث الزمان، يمنع منعا باتا عن جعل تلك الامامة الكبرى. و لم تقل «ينال عهدي العادلون» لأن العدل مهما كان ظرفا لتأهل الإمامة لم تكن لزامه الإمامة، فقد اكتفى بالشرط السلبي وهو عدم انتقاص الكلمات في مثلث ازمنة الحياة، حيث يراد هذه الإمامة الخاصة. إذا فكيف يحل الإمامة المحمدية وهي المطلقة القمة، من عبد وثقنا فيما مضى، لا وحتى آدم الذي عصى ربه فغوى، ولا ذا النون إذ ذهب مغاضبا ... فنادى في الظلمات «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ولا موسىَ‏بِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» فضلا عن الخلفاء الثلاث الذي لا يسوون شسع آدم عليه السلام!. ثم «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لا يستلزم انه يناله غير الظالمين بصورة مطلقة، وانما هو سلب لأهلية هذه الامامة عن الظالمين، لا واثبات للزوم الإمامة لغيرهم، فهم إذا من هو كإبراهيم ام فوقه، وقد تحققت الامامة فوق الإبراهيمية لمحمد صلى الله عليه و آله وعترته المعصومين اللّهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 195

إلّا لفاطمة عليه السلام حيث اكتفي بعصمتها. فإنما «أبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة فصارت في الصفوة» «1» و هم المصطفون حين جعل الإمامة حتى الموت، مهما زادت الصفوة العليا صفوة في ماضيها، كما في حالها واستقبالها بأدلة أخرى. أجل قد يمنع الظلم الماضي من عهد الإمامة إذا كان من كبائر الإثم والفواحش ومن أكبرها و أفحشها الإشراك باللّه مهما كان مغفورا بالإيمان، ولكنه ليس مغفورا لمنصب الإمامة، فان الاصطفاء، وقاعدة إمكان الأشراف، يمنعان انتصاب من كان مشركا لمنصب الإمامة، مهما أصبح من أعدل العدول، كما والغضاضة الشركية السابقة تمنع المأمومين على الائتمام بذلك الإمام، مهما صحت الصلاة خلفه، وصح قضاءه وشهادته أمّا ذا سوى القيادة الروحية العليا وهي إمامة الأمة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 150 عن الكافي بسند متصل عن عبد العزيز بن مسلم في حديث فضل الامامة قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمرو-/ الى ان قال عليه السلام:-/ ان الامامة اجل قدرا و أعظم شأنا و أعلى مكانا و امنع جانبا و ابعد غورا من ان يبلغها الناس بعقولهم او ينالوها بآرائهم و يقيموا اماما باختيارهم، ان الامامة للّه عز و جل خص بها ابراهيم الخليل بعد النبوة و الخلة مرتبة ثالثة و فضيلة شرفه بها و أشاد بها ذكره فقال عز و جل إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً فقال الخليل مسرورا بها «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» قال اللّه تبارك و تعالى لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ فأبطلت هذه الآية ..

(2). روى الشيخ في اماليه بسند متصل عن عبد اللّه بن مسعود و الشافعي ابن المغازلي في المناقب على ما في تفسير اللوامع 1: 629-/ باسناده يرفعه اليه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و كيف صرت دعوة إبراهيم أبيك؟ قال: اوحى اللّه عز و جل الى ابراهيم إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً فاستخف ابراهيم الفرح فقال يا رب و من ذريتي مثلي، فأوحى اللّه عز و جل اليه ان يا ابراهيم إني لا أعطيك عهدا لا أفي لك به، قال: يا رب ما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك عهدا الظالم من ذريتك، قال يا رب و من الظالم من ولدي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا اجعله إماما ابدا و لا يصلح ان يكون اماما، قال ابراهيم: و اجنبي و بني ان نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس، و من ثم قال النبي صلى الله عليه و آله فانتهت الدعوة إلي والى اخي علي عليه السلام لم يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذني اللّه نبيا و عليا وصيا (تفسير البرهان 1: 151). وممن أخرجه عن ابن مسعود المير محمد صالح الترمذي الكشفي في مناقب مرتضوي ص 41، روى عن الحميدي عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و آله ما ترجمه انه قال: ان دعوة ابراهيم الإمامة لذريته لا تصل إلّا لمن لم يسجد لصنم قط و من ثم جعلني اللّه نبيا و عليا وصيا لي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 196

ثم «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» تنفي عن مثل آدم عهد الإمامة المعني ب «عهدي» فليس يكفي في ذلك العهد حاضر العدالة، بل وماضيها كما في حاضرها، حتى تحل في ظرف ظريف طريف حفيف في مثلث الزمان لكل أبعاد العدالة. مطلق الإمامة الشامل لإمامة الجماعة وإمامة القضاء وإمامة التقليد، لا يقتضي هذه المرتبة القمة من الاصطفاء، ولا تعني الإمامة في الآية مطلقها الشامل لها، بل هي الإمامة المطلقة لمكان «للناس» دون اختصاص بحقل او ناس خاص، كما وأنها فيها بعد الرسالة و النبوة. فمن يحمل قيادة الأمة الاسلامية ككلّ بعد إمام الائمة محمد صلى الله عليه و آله ليس إلّا من أصفى الأصفياء كما محمد صلى الله عليه و آله في قمتهم علي الإطلاق، فكيف يصح أن تشمل هذه الإمامة من عبد صنما، كما و «إِنِّي جاعِلُكَ» تختص جعل ذلك العهد باللّه، والخلفاء الثلاث بعد الرسول لم يكونوا منتصبين من قبل اللّه، ولا هم أصفياء الامة ككل، بإجماع الامة الإسلامية ككل!. ثم النسبة بين هذه الإمامة والنبوة عموم من وجه، فقد يكون نبيا وليس هكذا إماما، ك‏آدم و من فوقه من غير اولي العزم، أم يكون إماما وليس نبيا ولا رسولا، كالائمة الإثني عشر المحمديين، ام هو إمام ونبي كالخمسة أولي العزم، ام هو إمام الأنبياء والائمة ككل وهو محمد صلى الله عليه و آله. و لان أئمة اهل البيت عليهم السلام يحملون الإمامة فهم أفضل من سائر اولي العزم عليهم السلام وقد تدل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 197

على ذلك آية التطهير وما أشبه. و ترى الخليل تطلّب من ربه الإمامة المجعولة له للبعض من ذريته: «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي»؟ علّها هي إمامة مطلقة لا مطلق الإمامة كما وانها قضية الموقف: «إِنِّي جاعِلُكَ ...» إذا ف «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» تجتث كل دركات الظلم، ناحية منحى كل درجات العدل في حياة الإمام كلها، وذلك منطبق على أئمة المرسلين بعده: موسى والمسيح ومحمد عليهم السلام، أمّن حذى حذوهم من أئمة الإسلام المعصومين، فلا تشمل-/ ولأقل تقدير-/ مثل آدم، الذي عصى ربه قبل رسالته فغوى، مهما اجتباه ربه-/ بعده-/ فتاب عليه وهدى. و من ميّزات هذه الإمامة أن ليس يختص وحيها بالعلوم والمعارف بل وفعل الخيرات، كما والهداية بأمر اللّه تكوينيا وتشريعيا، فكما هم مهتدون بأمر اللّه فيهما، كذلك هم هادون بأمر اللّه فيهما، وهم عاملون الخيرات بوحي اللّه: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73). و إطلاق القول «وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» ضاربا الى كل أبعاد الماضي-/ وهي قبل الإمامة-/ ذلك الإطلاق يخرج كمثل آدم عليه السلام. و في رجعة أخرى إلى آية الابتلاء: «و» اذكر يا إمام أئمة الهدى، الرسول المصطفى، «اذكر» ذكرى من ابراهيم الخليل عليه السلام كأفضل مثل من أمثولات الإمامة بالابتلاء، ولكي تكون على أهبة لابتلاء أشد وأقوى لإمامة هي أشمل وأنبل وأعلى، اذكر «إِذِ ابْتَلى‏إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 198

فربك يبتليك بكلمات ويجعلك للناس إماما على العالمين أجمع-/ كما جعله.!. «فأتمهن» ابراهيم و «أتمهن» ربه، وأين إتمام من إتمام، وكذلك اللّه يتم لك وتتمه أنت، و اين كلمات من كلمات. «قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» وقد جعلت أنت إماما على النبيين «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...». «قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» وكما قال موسى «وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي» ولكن اللّه جعل لك من ذريتك أئمة يحملون أمانة إمامتك ككل وكما يبدو من آية التطهير، الجاعلة طهارتك القمة لأهل بيت رسالتك القدسية وهم الائمة الإثني عشر عليهم السلام. و قد تعني «بكلمات» قسما منها يناسب الإمامة الإبراهيمية، ولمحمد صلى الله عليه و آله كل الكلمات لأن إمامته هي كل الإمامات: «فَ‏آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ» (7: 158) ايمانا علميا وعقيديا وعمليّا في كل الحقول المعرفية والعملية، دون إبقاء لكلمة يبتلى بها إلّا وأتمها كأتمّها حتى نال الإمامة الكبرى. و لئن نال الخليل مرتبة الإمامة بعد العبودية والرسالة والنبوة والخلة كما تناسب إمامته، فقد نال الحبيب الإمامة الكبرى بعد أن أصبح اوّل العابدين: «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» ثم أصبح آخر النبيين ورسولا إليهم أجمعين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...» ثم حبيبا لرب العالمين لحد يحلف بعمره ربّه «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (15: 72) كما ويحلف بنفسه «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...» (4: 65). و ترى الخليل-/ بعد-/ يتطلب من ربه إمامته للبعض من ذريته دون شرط إلّا انهم من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 199

ذريته؟ وذلك بعيد عن مقام الخليل أمام ربه الجليل، وقد ابتلي هو نفسه بكلمات، فكيف يدعو لذريته دون ابتلاء!. «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» ليست لتتعلق-/ فقط-/ ب «إِنِّي جاعِلُكَ ...» بل وقبلها ب «ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» إذا فلدعاءه بعدان اثنان، أن يبتلي ربه من ذريته-/ كما هو-/ بكلمات، ثم يجعله بإتمامهن إماما، فأضاف ربه إليهما بعدا ثالثا «قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» فلا يصلح الظالم أن يبتلي بكلمات تلك الإمامة حتى يجعل إماما. و ترى ابراهيم الخليل عليه السلام هو بعد كأضرابه من النبيين، حكمت عليه رغبة امتداد الإمامة في ذريته فسألها لهم ربه؟ ولا وراثة فيها، ولا تقدم لها فيهم لأنهم-/ فقط-/ ذرية!. نقول هنا: إضافة إلى أن امتداد الشخصية-/ زمنية او روحية أما هيه؟-/ هو رغبة فطرية، أودعها اللّه في فطرت الإنسان، تنمية للحياة، ومضيا في طريقها المرسوم، وقد قرر الإسلام على أساسه شرعة الميراث وسائر الإختصاص في حقل التربية مادية ومعنوية: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»-/ «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» نقول إضافة إلى ذلك إنه استدعاء بشروط، دونما فوضى جزاف، ودون سلب لغير ذريته، ومن ثم فدعاءه-/ كسائر فعله-/ إنما هو بإذن ربه ودعاءه-/ قضية التسليم المطلق لساحة الربوبية وقد عرف وحيا من ربه ان من ذريته من إسماعيل من يأهل لتلك الإمامة. و كما في دعاءه «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...» (2: 128) وما البعد الثالث لتحقيق ذلك الدعاء: «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إلّا توضيحا لسائر الأجيال في هذه الإذاعة القرآنية العالمية، وليس تفهيما لإبراهيم، العارف شروطات تلك الإمامة الكبرى كما لمسها في نفسه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 200

فطالما يدعو ابراهيم إمامته للبعض من ذريته، ولكنه يشترط شرط إتمام نفس الكلمات، مما لا يحصره في ذريته، اللّهم إلّا بما أوحى إليه ربه، ألّا يصلح لشروطاتها إلّا بعض من ذريته كمحمد وعترته المعصومين عليهم السلام أجمعين. و هنا «من ذريتي» لا تعني إلّا البعض منهم، وهم بين عادل وظالم، فتراه أراد الظالمين منهم فقط ترجيحا للمفضول على الفاضل! ام عنى الفريقين؟ و «من» تبعض! فهو-/ إذا-/ يعنى العدول منهم-/ ولأقل تقدير-/ حالة الإمامة، و «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» أخرجت كل ظالم منتقص كلمات الابتلاء، ماضيا او مستقبلا فضلا عن الحال، فلم يشمل عهد الامامة كل العدول حال الجعل، بل هم العدول في مثلث الزمان لقمة العدالة وهي عدم الانتقاص في الكلمات المبتلى بها هكذا إمام. وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (125). «البيت» هنا هو البيت العتيق: الكعبة المشرفة، والجعل هنا تشريفي تشريعي، وواقعي تكويني، في مثابته وأمنه، فما هي «مثابة» وما هو «أمنا». «مثابة» هي في الأصل المثوبة اسم لمكان «البيت» ام ومصدرا ميميا، ام وعلى هامشهما اسم زمان، فان لإتيانه حجا زمان خاص، والتاء للمبالغة، فالبيت مصدر لكل صادر بكل معاني «مثابة» كما هو ملجأ لكل حائر سادر، فهو «مثابة» مصدرا وزمانا ومكانا. و لقد أتت «مثابة» في مختلف المناسبات لمعان عدة، فلا تختص بواحدة دون أخرى، وقضية الإفصاح البليغ في مذهب الفصاحة البالغة، ان يؤتى باللفظ قدر المعنى المرام، لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 201

زائدا على المعنى ولا ناقصا عنه، وخرافة استحالة استعمال لفظ واحد في اكثر من معنى واحد تنحل في ألفاظ الكتاب والسنة بأن للقائل مقام جمع الجمع فلا مشكلة له في هكذا استعمال جامع بين شتات، وذلك من اختصاصات الكتاب والسنة، اختصارا في التعبير، وعناية للمعنى الكثير. كما وتنحل في اصطلاح من يقوم لما يستعمله من ألفاظ كل المعاني الصالحة في اللغة، دون حاجة الى لحاظها ردف بعض حتى يحيله قوله تعالى «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ». فمختلف التفسير لمثابة مختلف عن تفسيرها المعني منها دون أية حجة لواحد من معانيها، وهي: 1 المقام-/ 2 المرجع-/ 3 المجتمع-/ 4 الممتلئ-/ 5 الملجأ-/ 6 الماتي متواترا-/ 7 المقبل-/ 8 المتاب-/ 9 محل الثواب-/ 10 المنتبه-/ 11 المستقى-/ 12 مجتمع الماء ... و بضرب مثلث الصيغة من «مثابة» إلى المعاني الإثني عشر تصبح معانيها المعنية ستة وثلاثين مهما اختلفت عنايتها في درجات، واين هي من معنى واحد لا دليل له، وهو في نفس الوقت خلاف الفصيح بل وغير صحيح!. اجل إنه 1 مقام الإسلام ومنطلقه، ومقام المسلمين بكل انطلاقاتهم الحيوية السامية. 2 ومرجعهم حيث يرجعون اليه في مشاكلهم الروحية والجماعية أماهيه؟ «لا يقضون منه وطرا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يروى عن باقر العلوم عليه السلام تفسيرا لمثابة: يرجعون اليه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 202

3 ومجتمعهم «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ...» اجتماعا عن كل التفرّقات والتفرقات. 4 وممتلئ مجدهم بجمعه الحافل الكافل لحل كل المشاكل بتشاور وتحاور ملي‏ء بما يغنيهم. 5 وملجؤهم في مخاوفهم عن مفازاتهم في سياساتهم الزمنية والروحية، وسائر حاجياتهم الحيوية. 6 يأتونه متواترا في حجهم وعمرتهم دونما انقطاع، قطاعات عظيمة من مختلف الألسن و الألوان من مشارق الأرض ومغاربها، من كل فج عميق. 7 مقبلين اليه زيارة له، واستقبالا في صلواتهم وسائر عباداتهم، استقبالا لقبلته الواحدة. 8 ومتابهم عن ذنوبهم فردية وجماعية، فإنهم فيه من ضيوف الرحمن وحاشاه ان يرجعهم خائبين!. 9 ومحل ثوابهم إذ يثيبهم اللّه بزيارته حقها كما وعد عباده الثائبين اليه التائبين. 10 ومنتبها لهم عن كل غفلاتهم وغفواتهم، وليشعروا ماذا عليهم في مسئولياتهم الإسلامية الهامة. 11 ومستقى لهم من تروية ماء الحياة في كل حقولها الروحية والمادية، من مشارف بئره العظيم، بدلاء التضامن والتعاضد الأخوي الاسلامي. 12 ومجتمع مياه الحياة في كافة الجنبات: العلمية-/ العقيدية-/ الأخلاقية-/ العبادية-/ الاقتصادية-/ السياسية والعسكرية أماهيه. ذلك هو كيان جعل البيت في الإساس، يجمعها «قِياماً لِلنَّاسِ»: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 203

الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) ومباركا وهدى للعالمين: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ...»

(3: 16). و «الناس» كل الناس هم المحور الإساس في مثابة البيت وأمنه والقيام فيه وبركته وهداه، مما يلمح أن الحج فريضة إنسانية تصلح الحيوية الجماهيرية. «و أمنا» هنا دون «آمنا» كما ل «مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» مما يدل على خالص الأمن والسلام فيه، أمنا في شرعة اللّه اكثر من كل بيت، وأمنا واقعيا ليس في ايّ بيت، مهما يوجد فيه خلاف الأمن من متخلفين، ولكنه اقل بكثير من غيره على طول الخط. و البيت هنا «مثابة وأمنا» لا يخص الكعبة المباركة-/ مهما كانت هي الأصل فيهما-/ بل والمسجد الحرام والحرم كله كما «هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ» و «حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» تشهد على هذه الشمولية. ثم «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» تأمر الحجاج والمعتمرين-/ الطائفين والعاكفين والركع السجود-/ تأمرهم ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى أمرا تشريعيا بعد أمنه تكوينا و تشريعا، فما هو مقامه المأمور باتخاذ مصلّى منه؟. يأتي مقام ابراهيم في ثانية: «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ» (3: 97) مما تلمح-/ بين معانيها-/ وتلمع ان «آياتٌ بَيِّناتٌ» كلها مقام ابراهيم، وقد ذكرنا في مسرحها اثنتي عشرة آية، من أبرزها-/ المعروف بينها عند الكل-/ هو مقام ابراهيم-/ موضع قدمه من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثرت قدمه المباركة حين كان يرفع القواعد من البيت،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 204

وحين أذن في الناس بالحج‏ «1». ذلك الحجر نزل في مثلث الحجر-/ كما يروى-/ من الجنة «2» وكما لمقام ابراهيم أبعاد، كذلك اتخاذ مصلّى منه له أبعاد، أوسعها مقام البيت ككل، فانه مصلّى لكافة المصلين في هذه المعمورة وسواها، مصلّى واسع ابتداء من البيت نفسه وإلى كل أنحاء العالم. ثم في مقام الحجر فان الصلاة فيه مفضلة على غيره من كل أنحاء البيت، ثم المسجد الحرام كله، ثم مكة كلها، ثم الحرم كله، ثم المشاعر كلها، فانها كلها مقام ابراهيم. و ل «من»-/ في «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» بالنسبة لخصوص المقام-/ موقعها الدلالي فقهيا لهندسة «مصلى» فلم يقل «في» لأنه لا يكفي مكانا لصلاة، ولا لمصلّ واحد فضلا عن مئات الآلاف، ولا «اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» حتى يصبح كالبيت يصلّى حوله من كل الأطراف، مهما جعل البيت دبرا، ولا «الى مقام ابراهيم» وكيف يجعل خلف المصلي. و إنما «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» فهي ابتدائية تبين مبتدء لركعتي الطواف أنه حد المقام-/ وطبعا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في حسنة ابن سنان او صحيحه-/ على الأصح-/ قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام ابراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود و منزل إسماعيل. وفي الدر المنثور 1: 118-/ اخرج ابن ماجة و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر قال: لما وقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذا مقام ابراهيم الذي قال اللّه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى قال: نعم‏

(2). المجمع روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام ابراهيم و حجر بني‏إسرائيل و الحجر الأسود، و في الدر المنثور 1: 119-/ اخرج الترمذي و ابن حبان و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: الركن و المقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس اللّه نورهما و لو لا ذلك لأضاء ما بين المشرق و المغرب، و اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ان الركن و المقام من ياقوت الجنة و لو لا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضائا ما بين المشرق و المغرب و ما مسهما من ذي عاهة و لا سقيم إلّا شفى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 205

حيث هو الآن وكما كان-/ وليست تبعيضية فان كلّ المقام لا يسع لمصلّ واحد فضلا عن بعضه ولجموع المصلين!. ذلك بيان ظريف لمبتدء الصلاة الخاصة-/ دون كل صلاة-/ فقد يشمل خلف المقام وجانبيه حياله، ما صدق انه «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» مهما كان خلفا وحيالا بعيدا لإطلاق «من مقام» ثم المنتهى-/ طبعا-/ هو منتهى المسجد الحرام، وإن كان الأقرب منه فالأقرب أقرب في تطبيق الأمر، إلّا أن مختلف الظروف والحالات لها مختلف الأبعاد ل «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ». و مستفيض النقل عن الرسول صلى الله عليه و آله وأئمة اهل بيته عليهم السلام عنه، ليس إلّا «عند المقام» و «خلف المقام» «1» وهما بيانان ل «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ»، فلا يتجاوز المقام الى البيت فانه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمما روي في «خلف المقام» ما في الدر المنثور 1: 118-/ اخرج مسلم و ابن أبي داود و ابو نعيم في‏الحلية و البيهقي في سننه عن جابر ان النبي صلى الله عليه و آله رمل ثلاثة أشواط و مشى أربعا حتى إذا فرغ عهد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ: و اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى‏وفيه 120-/ اخرج الحميدي و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله من طاف بالبيت سبعا و صلى خلف المقام ركعتين و شرب من ماء زمزم غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت وفيه أخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته ... فإذا فرغ من طوافه فأتى قام ابراهيم فصلى ركعتين دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه ... أقول: لا تجد فيما يروى عنه صلى الله عليه و آله إلّا خلف المقام او دبره. وفي التهذيب عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ليس لأحد ان يصلي ركعتين طواف الفريضة الا خلف المقام لقول اللّه تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى ان صليتهما في غيره فعليك اعادة الصلاة. وفي الكافي 4: 423 و التذهيب 1: 485 حسنة معاوية بن عمار او صحيحته «إذا فرغت من طوافك فائت مقام ابراهيم عليه السلام و صل ركعتين و اجعله أماما ...» وفي التهذيب عن أبي عبد اللّه الأبزاري سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن رجل نسي ان يصلي ركعتين طواف الفريضة في الحجر؟ قال: يعيدهما خلف المقام لان اللّه يقول: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 206

ليس «من مقام» علما أن البيت هو القبلة في المسجد الحرام، إذا ف-/ «من مقام» تعني الصلاة الى البيت، فكيف تتجاوز قدام المقام الى البيت؟. و لان خلف المقام أقرب مقاما في «من مقام» الي المقام، فليقدم على جانبي المقام، ولكلّ منهما مقامات حسب مختلف المقامات. ولقد رأوا «أبا الحسن موسى عليه السلام يصلي ركعتي طواف الفريضة بحيال المقام قريبا من ظلال المسجد لكثرة الناس» «1». و ذلك «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» بعيدا عنه قضية الضرورة، مهما بعد عن «عند المقام» فضلا عن «خلف المقام» حيث المدار هو صدق «من مقام». و هو يشمل كل أضلاع المقام سعة المسجد الحرام إلّا ضلعه القبلي، ثم و «خلف المقام» يشمل كل مساحة الضلع الخلفي حتى آخر المسجد الحرام، مهما لم يشمل «عند المقام» كل السطح اليميني واليساري. فخلف المقام نص في جعل المقام أماما كإمام، وعند المقام يعمه وحيال المقام برجاحة الخلف، إذا فخلفه هو الاوّل ما صدق الخلف، ثم حياله ما صدق الحيال، وأجمل تعبير عنهما «من مقام». فمن الأضلاع الاربعة للمقام يبقى الضلع المواجه للكعبة حيث لا يصح ان يتخذ مصلى إذ يستلزم استدبار الكعبة، ثم الأضلاع الثلاثة الاخرى هي بين الأحرى فالأحرى كلها «مِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الكافي 4: 423-/ في الصحيح عن الحسين بن عثمان رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلي ... وفي التهذيب 1: 486-/ (قريبا من الضلال لكثرة الناس». و قد يشملهما «عند المقام» مع رعاية الترتيب كما في خبر زرارة: «لا ينبغي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة إلّا عند مقام ابراهيم» (الكافي 4: 424 و التهذيب 1: 485)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 207

مَقامِ إِبْراهِيمَ» في كونها مصلّى الأقرب منها فالأقرب الى المقام حيث هو المبتدء فيها، ما صدق انه من مقام، والخلف والحيال البعيد عن المقام، مهما بعدا عن خلف المقام وحياله حسب النصين ولكنهما داخلان في «من مقام» حيث المنتهى هو آخر المسجد الحرام إذ لم يذكر هنا منتهى آخر، فلو كان لذكر كالمبتدء!. و ترى إن نسي الصلاة خلف المقام حتى قضى مناسكه كلها او بعضها، عليه ان يرجع فيصلي خلف المقام؟ طبعا نعم إن أمكن «يرجع إلى المقام فيصلي ركعتين» «1» «و ان كان ارتحل فإني لا أشق عليه ولا آمره أن يرجع ولكن يصلي حيث يذكر» «2». ذلك لإطلاق الأمر «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» للناسي كما الذاكر، خرج موقف المشقة والحرج، إذ لا عسر في الدين ولا حرج، وان كان الأحوط الجمع بين ان يصليهما حيث يذكر، وأن يستنيب‏ «3» لادائهما عند المقام، ام وإذا رجع في سفرة أخرى يقضيهما. فالأصل المرجع-/ ككل-/ هو على أية حال «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» ما أمكن دون عسر ولا حرج، والجمع بين صلاة الأصيل والوكيل يجمع بين مختلف الدليل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الكافي 4: 426 و الاستبصار 2: 234 و التهذيب 1: 486 صحيحة ابن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: سئل عن رجل طاف طواف الفريضة و لم يصل الركعتين حتى طاف بين الصفا و المروة ثم طاف طواف النساء و لم يصل أيضا لذلك الطواف حتى ذكر و هو بالأبطح؟ قال: يرجع الى المقام فيصلي ركعتين‏

(2). كما في التهذيب 1: 486 و الاستبصار 3: 235 صحيحة أبي بصير سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن رجل نسي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام و قد قال اللّه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى حتى ارتحل؟ فقال: ان كان ارتحل ..

(3). في التهذيب عن ابن مسكان قال: حدثني من سأله عن الرجل ينسى ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج؟ فقال: يوكل، قال ابن مسكان و في حديث آخر: ان كان جاوز ميقات أهل ارضه فليرجع و ليصلهما فان اللّه تعالى يقول وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 208

و هنا ويلات من مختلفات الروايات ان فلانا وفلانا سألوا النبي صلى الله عليه و آله لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»! ويكأن اللّه يتبع في وحيه إلى رسوله أهواء فلان وفلان، فهما أخرى بالاتباع وأعرف من الرسول صلى الله عليه و آله استصلاحا لركعتي الطواف‏ «1». و كما يهرف فيما يخرف «كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله لو نحّيته عن البيت ليصلي إليه الناس ففعل ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأنزل اللّه: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» «2»! كلّا! إن المقام هو المقام الآن كما كان دون تحوّل ولا تحويل ولا تخويل في تحويل، كما البيت هو البيت، والمشاعر هي المشاعر، والحرم هو الحرم. و لأن المطاف يتسع حسب اتساع الطائفين-/ والى خلف المقام بقليل او كثير-/ فحتى لا تكون فوضى الصدام بين الطائفين والمصلين، قد تلمح «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»-/ دون «صلّوا» او ما أشبه-/ تلمح بأن المصلّى من المقام مرحليّ لجمهرة المصلين كما المطاف، فليتقدم المطاف على المصلى، وعلى المصلين أن يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى إلى آخر المسجد الحرام بصورة مقررة محسوبة على الجميع، حيث لا يضيق المطاف على الطائفين. فالإسلام بكل مقرراته نظام، ولا سيما في القرارات الجماعية تحسّبا دقيقا رفيقا لسلامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 119-/ اخرج الطبراني و الخطيب في تاريخه عن ابن عمر ان عمر قال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى و فيه خرج عبد بن حميد و الترمذي عن انس قال: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله لو صلينا خلف المقام؟ فنزلت ..

(2). المصدر 119 أخرج ابن أبي دواد عن مجاهد قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 209

التطبيق في كل جليل ودقيق، ومؤتمر الحج هو من أدق التنظيمات الجماعية الإسلامية السلمية «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ»-/ «قِياماً لِلنَّاسِ». فليكن المطاف والمصلى بحيث لا يكون صدام واحتدام بين الطائفين والمصلين، فليراع المصلون كتلة الطائفين، كما على الطائفين رعاية كتل المصلين، مع تقدم الأوّلين حسب الحاجة الضرورية لصالح الطواف من متّسع المطاف. و لو أن المطاف احتل-/ يوما مّا-/ المسجد الحرام كله، وطبعا في واجب الطواف، فليقرّر لكلّ من الطواف والصلاة موعد يكفيه، باستثناء أمام المقام الى البيت فانه مطاف على أية حال، وليراع واجب كلّ من الطواف وصلاته، تقديما على تطوعّه، ولا يجوز إشغال المصلّى خلف المقام مع الزحام-/ كما المطاف-/ تقديما للفرض على النفل كما قدّمه اللّه. «1» ثم وفي رجعة اخرى الى الآية مسائل: الاولى: لو تحوّل المقام الى غير مقامه الآن، لم تتحول الصلاة خلفه عما خلفه كما كان حيث المقام لا يختص بذلك الحجر القابل للتحول، بل هو مقامه من أرض المسجد الحرام الى تخوم السماوات والأرض، وكما الكعبة المباركة والمسجد الحرام، والحل والحرام، حيث الظاهرة الآن على الأرض هي علامات، وليست هي-/ فقط-/ الأصل في مسرح الأحكام. الثانية: المأمور بالصلاة خلف المقام أم عنده هو هو المكلف بطوافها، فلا يستنيب فيها مهما كلف الأمر، إلا إذا لا يسطع أن يأتي بالأمر، عذرا يسقط عنه أصالة الأمر، إذا فإلى الاستنابة، كالمغشي عليه والميت ومن أشبه، فإجادة القراءة وسائر الواجبات والأركان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا-/ اسرار. مناسك و ادلة حج-/ باللغة الفارسية، و فيما أوردناه من الفروع كفاية كأصول لأحكام صلاة الطواف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 210

وإن كانت مفروضة في تطبيق الأمر، إلّا أنها لا تسمح للاستنابة، قصورا عن الإجادة أم تقصيرا فيها. ثم الاستنابة في الواجبات هي خلاف الأصل حتى عند الضرورة حيث تسقط الفريضة عندها، اللهم إلّا بدليل، ولا دليل على الوجوب او السماح في استنابة لصلاة الطواف إلّا لمن يعذر بنفسه عنها، في نفسه، ام لأنه خارج لا يسطع على العودة. الثالثة: لا يجوز له طواف واجب ما لم يعرف واجبات ركعتيه كواجباته، إلّا إذا ضاق وقت الطواف، فان طاف في سعة الوقت ولا يعرف واجب الصلاة أخرها حتى يعرفها تعلما، ام يقتدي في ركعتي الطواف، فان صلاهما مخلا بصحتها أعادها بعد تعلمها ان أمكن، فان كان خرج ام في تعلمه حرج، صلاهما حيثما كان واستناب. فالأمر الذي لا بد منه هنا كضابطة أن عليه نفسه ركعتي الطواف كما الطواف، فلا استنابه هنا او هناك إلّا عند الضرورة، وليس منها عدم معرفته كيف تؤدى الصلاة؟. الرابعة: لا تجب في ركعتي الطواف رعاية عدم تقدم النساء على الرجال، قضية تضيّقها مكانا وزمانا، ففي رعاية المكان والزمان، الى رعاية عدم التقدم حرج فلا وجوب. و أخيرا ذكر مصلى المقام مما يدلّ على ان صلاة الطواف فريضة كسائر ما يذكر من فرائض الحج في القرآن، ولكنها ليست ركنا كسائر أركانه. ثم والتفصيل الى سائر المفصلات المخصصة لهذه الفروع، فانما علينا ان نلقي إليكم الأصول وعليكم التفريع‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 123 عن تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه السلام يعني نحّ عنه المشركين، و قال: لما بنى ابراهيم البيت و حج الناس شكت الكعبة الى اللّه تبارك و تعالى ما تلقى من أنفاس المشركين فأوحى اللّه إليها قرّي كعبتي فاني ابعث في آخر الزمان قوما يتنظفون بقضبان الشجر و يتخللون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 211

ثم «وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» مفسّرة في نظيرتها: «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (22: 26). فالركع السجود فيهما هم المصلون-/ ككل-/ طائفا او عاكفا او قائما، ثم الطائفون هم المسافرون لقرنهم في آية الحج بالقائمين، ام هم أعم منهم ومن يطوف بالبيت وعلّه أصلح، حيث التعبير عن خصوص المسافرين بالطائفين هو أوسع من معناها، كما والعاكفين-/ علّه-/ أعم من المقيمين والمعتكفين في المسجد الحرام والقاعدين فيه، فقد شملت الآيتان كل عابد في المسجد الحرام، مسافرا او مقيما، معتكفا او طائفا او مصليا ام جالسا فإنه أيضا عبادة، والتطهير المأمور به هو-/ ككل-/ تعبيد الكعبة المباركة بما حولها لهؤلاء العباد، إزاحة لمعالم الشرك، وإراحة للموحدين بمعالم وطقوس التوحيد، فيعم تطهيره عن كل الأرجاس ظاهرة وباطنة. و قد تلمح «طهرا ...» بأولى وأحرى إلى طهارة نفوس هؤلاء، وطهارة ملابسهم وأبدانهم، و طهارتهم عن الأحداث، فمثلث الطهارة قد تعنى ضمن المعني من «طهرا» «1». و لان أظهر مصاديق «بيتي»-/ الموسّع إلى المسجد الحرام-/ هو نفس الكعبة المباركة، فقد يظهر من الآية جواز الصلاة في جوف البيت، وأما الطواف فلا يشرع إلّا حول البيت لنص آخر «وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» وكيفما توجهت في جوف البيت كنت متجها الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في كتاب العلل بسند متصل عن عبيد اللّه بن الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام أيغتسلن النساء إذا اتين البيت؟ قال: نعم-/ ان اللّه عز و جل يقول: ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، فينبغي للعبد ألّا يدخل إلّا و هو طاهر قد غسل عنه العرق و الأذى و تطهر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 212

القبلة لأنه كله قبلة من داخله كما هي من خارجه، اللهم إلّا من يقوم على أشراف سطح البيت فليست صلاته إلى القبلة فلا تصح، إلا مستقبلا لسائر الأشراف. و ليس يعني «حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» إلّا الخارجين عن البيت والمسجد الحرام، حيث الشطر هو الجانب، وهي تعني شطر المسجد الحرام. وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الَّثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (126). هنا «هذا بَلَداً آمِناً» لا تعني انه لم يكن حينذاك بلدا، حيث المفعول الثاني «آمنا» يكفي لجديد الجعل، ف «هذا» إشارة الى البلد كما في ابراهيم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» (35) «1». فقد تطلّب أمنه في حقلي التكوين والتشريع كما شرحناهما في آية «ابراهيم»-/ ثم «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الَّثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ» ينضاف الى اهله المؤمنين «وَ مَنْ كَفَرَ» ولكن رزقه بدعائه ليس لينجيه من عذاب اللّه حيث «فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» وكل متاع الدنيا قليل!. «ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» وقد يكون الطائف من ثمرات الحرم كما دعى الخليل فأعطاه الجليل الطائف لتكون من رزق الحرم‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث عن موقفي الدعائين نجده في تفسير آية ابراهيم‏

(2). الدر المنثور 1: 124-/ اخرج الأزرقي عن محمد بن المنكدر عن النبي صلى الله عليه و آله «لما وضع اللّه الحرم نقل له الطائف من فلسطين» أقول: قد يعني من ذلك النقل وضع مماثل لقرية فلسطين فيه حيث الطائف يشبهها في جوّها و منظرها و ثمارها، و في نور الثقلين 1: 124 عن العلل عن ابن مهزيار عن الرضا عليه السلام في الطائف: أتدري لم سمي الطائف؟ قلت لا، قال: ان ابراهيم عليه السلام دعى ربه ان يرزق اهله من كل الثمرات، فقطع له قطعة من الأردن فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعا ثم أقرها اللّه عز و جل في موضعها، فانما سميت الطائف للطواف بالبيت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 213

ثم «الثمرات» تعم ثمرات القلوب الى ثمرات القوالب كما يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام‏ «1». و لقد تصبغ دعاء ابراهيم لأهل البلد الحرام بما صبغة اللّه من قبل «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إفادة له من هذه العظة البالغة، محترسا في دعاءه محددا المرزوقين من اهله بمن آمن وقد تبرء من قبل من المشركين «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (9: 114). و لكن يبقى هنا مجال السؤال: هل إن طلب الرزق للمشرك ضمن المؤمن، هو من الاستغفار له؟ طبعا لا! ولكنه استرحام قد يحوم حوم الاستغفار. فانما حصر الخليل دعاءه في المؤمنين حائطة على مرسوم الدعاء، ولكيلا يكون مطلقا يقيّد كما قيّدت «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» وقد حسره عن حصره الجليل، ولأن هذا الرزق ليس ليختص بالمادي منه المؤمنين «قالَ وَ مَنْ كَفَرَ ...» ولكن كيف؟ إنما «فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا»، ثم الرزق الآخر وهو الروحي الإيماني يختص بالمؤمنين، وكما اختص عهد الإمامة بغير الظالمين، وقد يروى أن الرسول صلى الله عليه و آله دعى لأهل المدينة كما دعى ابراهيم لأهل مكة «2». ذلك وإلى رسم راسم لمشهد تنفيذ الخليل بإسماعيل لأمر الجليل بإعداد البيت وتطهير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 121-/ اخرج احمد عن أبي قتادة ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله توضأ ثم صلى بأرض سعد بأرض الحرة عند بيوت السقيا ثم قال: اللّهم ان ابراهيم خليلك عبدك و نبيك دعاك لأهل مكة و انا محمد عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك ابراهيم بمكة، أدعوك ان تبارك لهم في صاعهم و مدهم و ثمارهم، اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة، و اجعل ما بها من وراء الخم، اني حرمت ما بين لا بيتها كما حرمت على لسان ابراهيم الحرم.-/ وفيه اخرج مسلم عن أبي هريرة ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: اللهم ان ابراهيم عبدك و خليلك و نبيك و إني عبدك و نبيك و انه دعاك لمكة و اني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة و مثله معه، و فيه اخرج الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ... و اجعل مع البركة بركتين‏

(2). الدر المنثور 1: 128-/ اخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذا البيت ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 214

«لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ»: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 127. قد تعني «الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» أن ليس البيت هو القواعد والبنيان، مهما كانت منه، إذا فالبيت هو المربع الخاص من سطح الأرض، ثم من فوقها إلى السماء السابعة، وكذلك من تحتها، عمود مستقيم يربط أعلى النقط من الكون إلى أدناها، وقد يصدقه ما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله: «هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا سبعة منها في السماء وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها يلي العرش البيت المعمور، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكل بيت من أهل السماء ومن اهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت» «1». و قد يعني البيت المعمور-/ حيث يلي العرش-/ السدرة المنتهى، التي انتهى إليها الرسول صلى الله عليه و آله في معراجه، مجتازا «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ»-/ إلى سائر بيوت اللّه في السماوات والأرضين-/ «إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» وهو البيت الأقصى في أقصى الكون في السدرة المنتهى. و هكذا يحق لخاتم النبيين واشرف الخلق أجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن الصادق عليه السلام يعني من ثمرات القلوب اي جهنم الى الناس ليثوبوا إليهم (تفسير البرهان 1: 154). وعن الباقر عليه السلام ان الثمرات تحمل إليهم من الآفاق و قد استجاب اللّه له حتى لا توجد في بلاد المشرق و المغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي انه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية و صيفية و خريفية و شتائية (تفسير بيان السعادة 1: 145)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 215

بأهليها، وكما قال صلى الله عليه و آله عن سفرته هذه: «رأيت في كل سماء ميادين فيها خلق كثير ...». لقد رفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل بما بوّء له ربّه مكان البيت: «وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (22: 26). بوّأه له بما أوحى إليه هندسة المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسه ربّه. إذ لم تكن له-/ حينذاك-/ قواعد ولا أعلام، إلّا بذلك الإعلام من اللّه الملك العلّام‏ «1». و ان هذا البيت المبارك-/ قبل ان يضع ابراهيم القواعد منه-/ كان بيتا بأعلام أحيانا ودون أعلام أخرى، كيف لا و «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» (3: 96). فإبراهيم عليه السلام ليس إلّا أوّل بان لقواعده، بما بوأه ربه من مكان البيت، وقد كان بيتا منذ آدم، مطافا له ولذريته، بل ومنذ كانت خليقة على وجه الأرض ووجوه السماوات السبع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 126-/ اخرج الديلمي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله في الآية قال: «جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعي فرفعاه على تربيعها. وفي نور الثقلين و عن الصادق عليه السلام ان إسماعيل عليه السلام لما بلغ مبلغ الرجال امر اللّه ابراهيم عليه السلام ان يبني البيت فقال: يا رب في اي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت بها على آدم القبة، فأضاء لها الحرم فلم يدر ابراهيم في أي‏موضع يبنيه فان القبة التي أنزلها اللّه على آدم كانت قائمة الى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع اللّه تلك القبة و بقي موضعها لم يغرق و لهذا سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق فبعث اللّه جبرئيل عليه السلام فخط له موضع البيت فانزل اللّه عليه القواعد من الجنة و كان الحجر لما أنزله اللّه على آدم أشد بياضا من الثلج فلما مسته ايدي الكفار اسودّ، فبنى ابراهيم عليه السلام البيت و نقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه ابراهيم عليه السلام و وضعه في الموضع الذي هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين، بابا الى المشرق و بابا الى المغرب يسمّى المستجار ثم ألقى عليه الشجر و الأذخر و علّقت هاجر على بابه كساء و كان معها و كانوا يكتسون تحته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 216

والأرضين السبع. «رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا» ما نرفع من قواعد البيت «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ» دعاءنا سرا او جهرا «العليم» بنياتنا وطوياتنا، و «العليم» سؤلنا، وقد كان النبي صلى الله عليه و آله إذا أفطر قال: «اللّهم لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا انك أنت السميع العليم» «1». رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ 128. و تراهما لمّا يسلما بعد لربهما حتى يسألانه «وَ اجْعَلْنا ...»؟ إن الإسلام المسؤول هنا هو غاية التسليم، وهي لا تحصل إلّا بعد العروج الى معارج الإيمان، ومما استجاب لهما ربهما عن سؤل الإسلام: «فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» (37: 103). و لذلك الإسلام درجات تدرّج ابراهيم الى ما دون العليا منها، فان محمدا اوّل من اسلم: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (6: 14) حيث الأوّلية هنا ليست لتكون زمنية وقد كان قبله مسلمون كإبراهيم وإسماعيل ومن أشبه، فهي أولية في الدرجة، و «الايمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قديكون في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم» «2» و لذلك الإسلام ميّزات عن مطلق الايمان وسمات، فلا يلبس الإسلام بظلم أو مشرك مهما لبسهما الإيمان: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» (6: 82) (وَ ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 137-/ أخرج الدار قطني عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه و آله ..

(2). في الكافي عن سماعة عن الصادق عليه السلام: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 217

يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ». و لقد قورن مطلق الايمان بمقارنات الظلم والشرك والفساد والعصيان، ولم يقارن بشي‏ء منها ذلك الإسلام، فلذلك يعدّ من ميّزات المرسلين دون الإيمان فانه لكل المؤمنين بدرجاتهم. لذلك يطلب الخليل الى ربه الجليل ان يجعله وإسماعيل مسلمين له، بعد كل درجات الإيمان ودرجات من الإسلام. ثم يتطلّب من ربه «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا» ذريتي من إسماعيل «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فالرسول فيهم هو محور الدائرة، وذووه المعصومين هم الأشعة، فلأن ابراهيم تطلّب لهم أصل الإسلام لا درجته، لم يمنع سؤاله أن يكون محمد أوّل المسلمين. و لقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت: «إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» (131) ثم يتطلب بعده إسلاما أرقى «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ...» فهو كما الإيمان درجات: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ...» ولو أنه إسلام قبل الايمان أم إسلام الإيمان، لم يكن يسأله من ربه، بل كان يفعله لأنه من فعله، فإنما الإسلام المسؤول هنا هو قمة التسليم بما آمن وأسلم، توفيقا من اللّه. و هكذا نرى ذلك الإسلام أنه من حصائل الإيمان، كل درجة منه حصيلة درجة منه فإنهما كلّا درجات: ف «إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» (30: 53) (وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» (5: 111). كما ويوصي المصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 218

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (2: 132). ثم ولا تسمع أحدا من النبيين يؤمر بالإيمان، اللهم إلّا بالإسلام، اللهم إلّا شذرا في عرض ايمان المؤمنين بعرض الرسول تلفيقا رفيقا بينهما: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ» على أن إيمانه هنا ليس باللّه، بل بما أنزل إليه، طمأنة للمؤمنين. و لا تجد اللّه يذكر أحدا منهم بخير أفضل من الإسلام «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» (3: 67) وتراهم-/ دوما-/ يؤمرون بالإسلام ومرتبطون بالإسلام!. فذلك بدرجاته إسلام، وقبله الإيمان بدرجاته، ثم قبلهما إسلام لمّا يصل إلى القلب فلم يصل لحد الإيمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14) واين إسلام من إسلام؟!. و هنا «مِنْ ذُرِّيَّتِنا» تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة للّه من ذرية ابراهيم من إسماعيل، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من إسحاق، دون إسماعيل، ولا كلّ المسلمين إذ ليسوا كلهم ولا جلّهم من إسماعيل، أتراهم بعد هم كل بني هاشم فإنهم من ذرية إسماعيل، وكيف تعمهم ذلك الدعاء لإسلام ردف إسلام ابراهيم؟ وفيهم عصاة بغاة طغاة! ولئن خصّت بعدولهم فليس كل العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع، ثم لماذا تختص بهم وممن سواهم مسلمون أرقى واجل من جلّهم؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 219

إذا فهم مسلمون خصوص من ذرية إسماعيل، والمعصومين الاربعة عشر عليهم السلام‏ «1» أم هم أصدق مصاديقها، وسائر الامة المسلمة من ولد إسماعيل هم على هامشها؟ إلّا إسلاما أدنى مما لإبراهيم وإسماعيل والمحمديين المعصومين، هو إسلام يحصل على ضوء الصمود والرقي فلما ذا يسأله لها ولهم من اللّه. فلا بد-/ إذا-/ أنه إسلام العصمة القمة المرموقة ولمّا يصلا اليه إذ يرفعان القواعد من البيت. و هكذا تكون «وَ تُبْ عَلَيْنا» فإنها ليست توبة عليهم من عصيان، بل هي توبة رجوعا عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام. فقد يتوب اللّه على عبد يتوب إليه عن ذنب كما في آدم «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121). او يتوب على عبد رجوعا برحمة خاصة تعصمه وتسدده عما لا يحمد، لولاها لكاد أن يقترفها او يقتربها حيث تكل الطاقات البشرية كما في يوسف «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 24) وفي محمد صلى الله عليه و آله: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) وهكذا يكون-/ دوما-/ توبة اللّه على أصفى المصطفين. ثم «وَ أَرِنا مَناسِكَنا» قد تعم الإراءة المعرفية الى إراءة فقهية، فحين يرينا اللّه مناسكنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 130 في الكافي باسناده الى أبي عمر و الزبيري عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل يقول‏فيه ... ثم اخبر عن هذه الامة و ممن هي و انها من ذرية ابراهيم و ذرية إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير اللّه قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم و إسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه «اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 220

كما هي، كان بامكاننا تطبيقها كما هي، فتصبح حجة مقبولة مشكورة محبورة، وقد تعم «مناسكنا» مصدرا ميميا واسم زمان ومكان، والاراءة المعرفية تناسب الأولى. و كأن «تُبْ عَلَيْنا» هي من الظروف الصالحة ل «أَرِنا مَناسِكَنا» إراءة لملكوتها، بعد هذه التوبة التي توصّل إلى الملكوت. رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 129. هناك «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» كانت ظرفا ظريفا لبلورة هذه الرسالة السامية هنا بدعاء ثان، ولقد سمع اللّه دعاءه في إسماعيل كما في الأصل العبراني من تكوين التوراة: (17: 20): (و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتوا وهيفرتي أوتوا وهيربتي أوتوا بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتتيو لغوي غادل»-/: «و لإسماعيل سمعته:-/ ابراهيم-/ ها أنا أباركه كثيرا وأنميه وأثمره كثيرا وارفع مقامه كثيرا بمحمد واثني عشر إماما يلدهم إسماعيل واجعله أمة كبيرة». و في التكوين 21: 12 (... وابن الجارية ايضا سأجعله أمة لأنه نسلك». و قد سمي إسماعيل به لأنه مسموع الرب في ولادته وفي نسل امة مسلمة من ذريته. و في الأصل الانقلوسي من «نبوئت هيلد»: وحي الطفل: شبوياه شاباه بههيا شعطاطابا لأرعابتيا وو رهاباه دعبدا تشوباه ويرحم إباطابا عل بوخرا حبيبا: يأسر أعداءه-/ محمد المذكور قبل-/ في ساعة جيدة في ارض مرغوبة ويرحمه اللّه هناك اجابة لدعوة ابراهيم لإسماعيل. ذلك-/ ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى ان ذلك الموعود من ولد قيدار بن إسماعيل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 221

في عدة تصريحات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها ما في اشعياء (142: 1-/ 20) ... لتشد البرية و مدنها و الحظائر التي يسكنها قيدار و ليرنّم سكان الصخرة و ليهتفوا من رؤوس الجبال (11) ليؤدوا المجد للّه و يخبروا بحمده في الجزائر (12). هذه بشارة لنبي من قيدار و «هو الولد الثاني لإسماعيل» (تك 13: 25) و «أبوه من أشهر قبائل العرب و بلادهم الجزيرة العربية» (اشعياء 21: 16). فالصرخات التي تسمع من اهل قيدار و ترنماتهم من الصخرة و هتافاتهم من رؤوس الجبال كل ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قيدار ابن إسماعيل، ترنمات من اعالي جبال مكة و عرفات و منى و المشعر الحرام في حج البيت. و في الآية (10) منها: انشدوا للرب نشيدا جديدا تسبيحة له من اقاصي الأرض يا هابطي البحر و يا ملأه و يا أيتها الجزائر و سكانها. و النشيد الجديد هو الشرعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي، و في بعض التراجم (هذه ترجمة القسيس اوسكان الارمني في ترجمته لكتاب اشعياء المطبوعة 1733 في مطبعة انتوني بورتولي و قد الفها في 1666-/ اي قبل 67 سنة من طبعها) تأتي هذه الآية هكذا: يسبحون الرب تسبيحا جديدا و يبقى اثر سلطانه بعده و اسمه «احمد» (89). و في اشعياء 6: 1-/ 22) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة و هذا الرسول المكي قائلا: قومي استنيري فان نورك قد وافى و مجد الرب أشرق عليك 1 ها ان الظلمة تغشى الأرض والد يجور يشمل الشعوب و لكن عليك يشرق الرب و يترائى عليك مجده 2 فتسير الأمم في نورك و الملوك في ضياء اشراقك 3 ارفعي طرفك الى ما حولك و انظري كلهم قد اجتمعوا و أتوا إليك. بنوك من بعيديأتون و تحملين بناتك في حضنك 4 حينئذ تنظرين و تتهللين و يخفق قلبك و يرحب إذ تنقلب إليك ثروة البحر و يأتيك غنى الأمم 5 كثرة الإبل تغشاك بكران مدين و عيفة. كلهم من «شبا» يأتون حاملين ذهبا و لبانا يبشرون بتسابيح الرب 6. كل غنم قيدار تجتمع إليك-/ و كباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبحي المرضي لدي و امجّد بيت جلالي 7 من هؤلاء الطائرين كالسحاب و كالحمام الى كواها 8 إن الجزائر تنتظرني و سفن ترشيش مستعدة منذ الاوّل ان تأتي ببنيك من بعيد و معهم فضتهم و ذهبهم لاسم الرب إلهك و لقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك 9 و بنو الغرباء يبنون أسوارك و ملوكهم يخدمونك لأني في غضبي ضربتك و في رضاي رحمتك 10 و تنفتح أبوابك دائما لا تغلق نهارا و لا ليلا ليؤتى إليك بغنى الأمم و تحفر إليك ملوكهم 11 لان الامة و المملكة التي تتعبد لك و الأمم تخرب خرابا 12 مجد لبنان يأتي إليك السرو و السنديان و الشربين لزينة مقدسي و أمجد موطئ قدميّ 13 و بنو الذين عنّوك يفدون إليك خاضعين و يسجد لأخامص قدميك كل من ازدراك و يدعونك مدينة الرب 14 و بما أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك سأجعلك فخر الدهور و سرور كل جيل فجيل 15 و ترضعين لبن الأمم و ترضعين ثدي المملوك و تعلمين أني أنا الرب مخلصك و فاديك عزيز يعقوب 16 آتي بالذهب بدل النحاس و آتي بالفضة بدل الحديد و بالنحاس بدل الخشب و بالحديد بدل الحجارة و اجعل ولاتك سلاما و مسخريك عدلا 17 لا يسمع من بعد بالجور في أرضك و لا بالدمار و الحطم في تخومك بل تدعين اسوارك خلاصا و أبوابك تسبيحا 18 لا تكون الشمس من بعد نورا لك نهارا و لا ينيرك القمر بضيائه ليلا بل الرب يكون لك نورا أبديا و إلهك يكون فخرك 19 لا تغرب شمسك من بعد و قمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نورا ابديا و تكون ايام مناحتك قد انقضت 20 و يكون شعبك كلهم صديقين و الى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي و عمل يدي الذي أتمجد به 21 القليل منهم يصير ألفا و الصغير يصير امة عظيمة. انا الرب أعجل ذلك في ميقاته 22

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 222

وقد يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «انا دعوة ابراهيم» «1» و «اني عند اللّه في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينة وسأنبئكم باوّل ذلك دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين» «2». «وَ ابْعَثْ فِيهِمْ» هذه الأمة المسلمة من ذريتنا «رَسُولًا مِنْهُمْ» وكلهم نور واحد فإن:

أولنا محمد آخرنا محمد أوسطنا محمد وكلنا محمد صلوات عليهم أجمعين. «رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ» تكوينية: آفاقية وأنفسية، وتدوينية: قرآنية وكتابيات أخرى. و لماذا «وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ» هنا «وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 139-/ اخرج ابن سعد في طبقاته و ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ان النبي صلى الله عليه و آله قال: انا دعوة ابراهيم، قال: و هو يرفع القواعد من البيت: ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم ... حتى أتم الآية

(2). المصدر اخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إني عند اللّه ... وفيه اخرج احمد و ابن سعد و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي عن أبي امامة قال قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة ابراهيم و بشرى عيسى و رأت امي انه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 223

الْحِكْمَةَ» في ثلاث أخرى‏ «1» أترى تعليم الكتاب والحكمة هو المقدم على التزكية كما هنا، ام هي المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى، ام هما صنوان لا يتفاضلان، فهما متعاضدان مع بعضهما البعض متقارنان؟ فلما ذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها؟. علّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها، حيث التعليم ذريعة الى التزكية فهي رأس الزاوية في محاولات الرسالة، فلو أمكنت التزكية دون تعليم لما كان ضرورة، وهما صنوان متعاملان، كلما ازداد التعليم المعرفة ازدادت التزكية، وكلما ازدادت التزكية ازداد العلم والمعرفة ف «العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يريد ان يهديه». وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ 130. «مِلَّةِ إِبْراهِيمَ» هي توحيد الإسلام وإسلام التوحيد لوجه اللّه، ولا يرغب عنها إلّا من سفه نفسه: حملا لها على خفة العقل والإدراك، فالنفس الانسانية فطريا وعقليا راغب الى هذه الملة المسلمة الحنيفة، فلا يرغب عنها إلى سواها إلّا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها، استخفافا بها وتغرّبا عنها. «وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا» بقمة الاصطفاء فانه من أصفى الأصفياء «وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» كما تطلّبه يوم الدنيا «وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» وسعى له سعيه، ومتى اصطفيناه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي: كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ‏ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (2: 151) و لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (3: 64) و هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (62: 2)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 224

في الدنيا؟: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ 131. و علّه إسلامه بفعله لما أمر به قبل إسلامه المطلوب من ربه حين دعا «وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ ...». فهناك إسلام قضية كمال الإيمان، وهنا إسلام قضية الأمر الخاص، وعلّه لأمر خاص كما «أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ» ثم إسلام بعدهما تطلّباه إذ يرفعان القواعد من البيت، وقد يجمع مراتب الإسلام حديث قدسي يذكر عيشا أهنى وحياة أبقى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في البحار عن ارشاد الديلمي قال اللّه سبحانه يا أحمد هل تدري اي عيش اهنى و أي‏حيوة أبقى؟ قال: اللهم لا-/ قال: اما العيش الهني‏ء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكرى و لا ينسى نعمتي و لا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله و نهاره، و أما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا و تصغر في عينه و تعظم الآخرة عنده، و يؤثر هواي على هواه و يبتغي مرضاتي، و يعظم حق نعمتي، و يذكر عملي به، و يراقبني بالليل و النهار عند كل سيئة او معصية، و ينقي قلبه عن كل ما أكره، و يبغض الشيطان و وساوسه و لا يجعل لإبليس على قلبه سلطانا و سبيلا، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبا حتى أجعل قلبه و فراغه و اشتغاله و همه و حديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي و افتح عين قلبه و سمعه حتى يسمع بقلبه و ينظر بقلبه إلى جلالي و عظمتي، و أضيق عليه الدنيا، و أبغض اليه ما فيها من اللذات و أحذّره من الدنيا و ما فيها كما يحذّر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من النار فرارا و ينقل من دار الفناء الى دار البقاء، و من دار الشيطان الى دار الرحمن، يا أحمد و لأزينّنه بالهيبة و العظمة فهذا هو العيش الهني‏ء و الحياة الباقية، و هذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكرا لا يخالطه الجهل، و ذكرا لا يخالطه النسيان، و محبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته و افتح عين قلبه إلى جلالي، و لا أخفي عليه خاصة خلقي، و أناجيه في ظلم الليل و نور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين و مجالسته معهم، و أسمعه كلامي و كلام ملائكتي، و أعرّفه السر الذي سترته عن خلقي، و ألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، و يمشي على الأرض مغفورا له. و اجعل قلبه واعيا و بصيرا، و لا أخفي عليه شيئا من جنة و لا نار، و أعرّفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول و الشدة و ما أحاسب به الأغنياء و الفقراء و الجهال و العلماء، و أنومّه في قبره، و أنزل عليه منكرا و نكيرا حتى يسألاه، و لا يرى غم الموت و ظلمة القبر و اللّحد و هول المطّلع، ثم انصب له ميزانه و أنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشورا، ثم لا أجعل بيني و بينه ترجمانا، فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همك هما واحدا، و اجعل لسانك لسانا واحدا، و اجعل بدنك حيا لا يغفل أبدا، من يغفل عني لم أبال في أي‏واد هلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 225

وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ 132. «بها» لا مرجع صالحا لها إلّا «مِلَّةِ إِبْراهِيمَ» دون الإسلام لذكوريته، ثم وهذه هي ملة الإسلام في توحيد العقيدة والعمل. أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ 133. هنا في ذكر إسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد، فأبوه آزر في آيات ليس والده، لا سيما وانه تبرء من آزر «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» ثم نراه في أواخر عمره يدعو لوالديه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» إذا فوالده غير أبيه. و إنه لمشهد عميق التدليل-/ في لحظات الموت-/ على عمق عقيدة التوحيد بين آل ابراهيم، فيعقوب-/ وهو رأس الزاوية في بيت إسرائيل-/ لا يوصي عند احتضاره بمال، ولا يشغله بال، إلّا ذلك الأمر الجلل فهو المبتدء وهو الآمل، فهو-/ فقط-/ تركته وتركة آباءه، قضية كبرى لا تشغله عنها سكرات الموت، بل هي تشغله عما سواها. «ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي» اختبار حاسم تظهر فيه مدعى الدعوة التوحيدية لهم طول حياته الرسالية، يتلوه جواب حاسم «نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ ...» أن إلهنا جميعا إله واحد، خلاف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 226

المشركين الذين لكلّ منهم إله او آلهة، ثم «وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» لا فقط مقرون وإنما إسلام له قلبا وقالبا. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134). «تِلْكَ أُمَّةٌ» موحدة مسلمة «قَدْ خَلَتْ» فخلف من بعدها خلف أضاعوا ملتها الوحيدة الموحدة المسلمة، وتخلفت عن شرعة اللّه المرسومة بينها، ف «لَها ما كَسَبَتْ» من خير «و لكم» الخلف المتخلف «ما كَسَبْتُمْ»-/ «وَ لا تُسْئَلُونَ» أنتم «عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» كما و هم لا يسألون عما كنتم تعملون، كما «و لكم» المسلمين «ما كَسَبْتُمْ ...» أمم ثلاث لكلّ ما كسبت وعليها ما اكتسبت. و ليست الإمة في ميزان اللّه أمة الجنس والإقليم والعنصر والتراب والدم، فإنها موازين لحيونة الأمم، أم وإنسانيتها المنفصلة عن شرعة اللّه، وإنما هي جماعة ذات قصد واحد:

خيرا أو شرا، مهما اختلفت أجناسهم وأواصر الأنساب والقرابات فيما بينهم. أجل-/ إنها أمة دينية وليست أمة طينية، وعلى هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل إبراهيم «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ» ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة «وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ» وكذلك المسلمون، من آمن منهم حق الإيمان ومن لم يؤمن، فلكلّ حساب حسب الصالحات والصالحات، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات والعنصريات أم سائر الصّلات غير الروحية. وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 227

قالت اليهود: «كونوا هودا تهتدوا» وقالت النصارى: «كونوا نصارى تهتدوا» «1» فكلّ يتمسّك بطائفية خاوية عن «مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» فمجرد كونك من أولاء أم هؤلاء يكفيك هدى! «قل» لا هذا ولا ذاك «بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» لا نسل إبراهيم كإبراهيم-/ إسرائيل و سواها-/ وإنما «مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» هذه هي الهدى دون سواها، أيا كنت في أصلك ونسلك، في وصلك وفصلك، وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله قوله: بعثت بالحنيفية السمحة «2»، وترى الحنافة لمّا تكفي هدى لأنها الإعراض عما يخالف الحق، ويقابله الجنف، فلما ذا-/ إذا-/ «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؟. علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية وانتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف، فلكي يسد عليهم كل ثغرات الجنف تحريفا لمعنى الحنف يصرّح «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وقسم من الهود والنصارى مشركون. و لقد وصف «حنيفا» وصف إيضاح ب «مسلما» في أخرى: «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (3: 67) مما يلمح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة «حنيفا» لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم، وكأن «حنيفا» لقب يلقب به نسل إبراهيم أيّا كانوا، فجاء «مُسْلِماً-/ وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» كإيضاح يخيّب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 1: 140 عن ابن عباس قال قال عبد اللّه بن صوريا الأعور للنبي صلى الله عليه و آله: ما الهدى إلا ما نحن‏عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي، و قالت النصارى مثل ذلك فأنزل اللّه فيهم ..

(2). الدر المنثور 1: 140-/ أخرج احمد عن أبي امامة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:، و فيه عن ابن عباس قال قيل‏يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أي‏الأديان أحب إلى اللّه؟ قال: الحنيفية السمحة، و عن سعد بن عبد اللّه بن مالك الخزاعي قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أحب الدين إلى اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 228

فلان الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين في خالص التوحيد، المعروفة لدى الخواص والعوام، لذلك فليعلن بملته الوحيدة الكبرى بين أهل الملل الثلاث وسواهم من الموحدين-/ رفضا لكل الفواصل المختلقة-/ من لدن إبراهيم إلى موسى والمسيح وإلى خاتم النبيين صلى الله عليه و آله: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136). «قولوا» أيا كنتم من الملل، سلسلة موصولة متواصلة من ملل كتابية «آمَنَّا بِاللَّهِ» كأصل هو رأس زوايا الإيمان، ومن ثم فروع: «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» ككل الكتابيين، «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» كمسلمين، والإيمان بكتابات السماء ذريعة للإيمان بالقرآن وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله:

«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن» «1». أم و «قولوا» أيها المسلمون «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا»: القرآن-/ لا فحسب بل «وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ ... وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ» قبل إبراهيم وبعده ككلّ. و ترانا كيف نؤمن بعد ما أنزل إلينا-/ وهو ناسخ-/ بما أنزل إلى سائر النبيين وهي منسوخة؟. إنه إيمان تصديق بكل ما أنزل اللّه أنه من اللّه، ثم وإيمان تطبيق لكلّ في زمنه، فتطبيق لشرعة القرآن الناسخة للبعض من سائر الشرائع، وهو تصديق لها إذ تبشر بالقرآن، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 140-/ أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 229

ومحور الإيمان هو الإيمان باللّه وبرسالاته واليوم الآخر، الأصول الأساسية لكل إيمان، «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» في هذه الأصول، ولا سيما رأس الزاوية وهو توحيد اللّه «و نحن» ككل «و نحن» المسلمين «له» لا لسواه «مسلمون». كما و «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» في ضابطة الإيمان، أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فلا تفريق هنا أو هناك، وذلك كلمة الإيمان الجاسم الحاسم «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» حيث «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ...» (2: 285). هذه هي قضية الإيمان المجرد عن انحيازات طائفية أم قبلية أما هي من امتيازات جاهلة قاحلة لا دور لها في حقل الإيمان الصالح. و ترى لماذا اختلاف التعبير لمنازل الوحي ب «ما أنزل» أولا و «ما أوتي» ثانيا، وهذا أعم من الوحي كما «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ» (3: 12) والوحي النازل الى موسى وعيسى أعلى نازلا ومنزلا من النازل الى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؟!. علّه لأن أصل الوحي هو النازل على إبراهيم، ثم تبعا له ولمن تبعه، ومن ثم أوتي موسى وعيسى والنبيون نفس الوحي مهما اختلف وحي عن وحي في درجات وبعض الطقوس، و ذلك معاكسة لما كان يزعمه الهود والنصارى أنهم الأصل في الوحي. و كما أن «أنزل» أعم من الإيتاء والإعطاء، كذلك «أوتى» أعم من الوحي وسواه، فهذان التعبيران لسلسلة الرسالات الحاملة للوحي-/ علّها-/ للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم مالكوها، بل هو إيتاء كأمانة ووديعة مرجوعة بعد تطبيقها، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل والرسالات في أصول الدعايات والاتجاهات، هي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 230

القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم، السائرة في كل الدروب على هدى ونور، التي تجمع كل الشعوب-/ بلا تمييز-/ على درب الإسلام التام والسلام العام، مفتوحا للناس جميعا وكل العالمين في مودة ووئام، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أيا كان وأيان ومن أيّ كان: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137). «آمَنُوا بِمِثْلِ ...» دون «آمنوا بما آمنتم به» تنازل في درجات الإيمان، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرد عن حسابات دخيلة فيه، فكيف يدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد، إلّا قفزه لا تناسب سليم الدعوة والدعاية. فليؤمنوا أولا «بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» إيماناً بكل ما أنزله اللّه على رسله دون تمييز، ثم وذلك الإيمان المجرد يجرهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمنتم به من رسالة الإسلام، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي، يجذب الى الإيمان بمحور الوحي: القرآن العظيم، ولا يعني «بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» مثل اللّه الذي آمنتم به، حتى تسقط «مثل» عن لفظ القرآن‏ «1» إذ «ليس كمثله شي» بل هو مماثلة في أصل الإيمان، لا الذي يؤمن به، إيماناً باللّه كما آمنتم، وإيمانا برسالات اللّه كما آمنتم. «وَ إِنْ تَوَلَّوْا» عن مثل هذا الإيمان «فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ» تقسيم لبلد الإيمان الى شقين:

إسرائيلي وإسماعيلي، وذلك شقّ لوحدة الدين والإيمان، وخروج عن واقع الإيمان إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 140 عن ابن عباس قال: لا تقولوا «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» فان اللّه لا مثل له، و لكن‏قولوا: فان آمنوا بالذي آمنتم به، و فيه عن أبي جمرة كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذي آمنتم به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 231

اللّاإيمان، أم هو أنحس-/ أحيانا-/ من الكفر المطلق!. إذا «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ» بعد ما أديت واجب الدعاء وبالغ الدعوة، فاللّه هو الكافي لا سواه، فلا ترج في سدّ ثغراتهم إلّا إيّاه «وَ هُوَ السَّمِيعُ» لحواركم حول الدين، و «السميع» لدعائك وسؤالك حفاظا على الدين «العليم» بما يصلحك ويصلح هذا الدين، ف «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (5: 105) وكل ما في البين حقا ولا حول عنه هو: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138). آية فريدة في صيغة التعبير، عرضا جامعا لما يتوجب الالتزام به على كل العالمين، فما هي «صِبْغَةَ اللَّهِ» حتى نصطبغ بها او نلتزمها؟ وليست للّه صبغة يمكن الاصطباغ بها، ولا أية صبغة!. «صِبْغَةَ اللَّهِ» هي من إضافة الفعل الى فاعله، كخلق اللّه وروح اللّه وأخلاق اللّه وشرعة اللّه أم أي‏فعل للّه، وهي كفطرت اللّه أدبيا ومعنويا مهما كانت أعم منها ومن سائر الصبغة، تكوينية وتشريعية، فهي مفعول مطلق نوعي تعني صبغا خاصا إلهيا لقبيل الإنسان وسائر المكلفين، مما للإنسان في أصله خيار كمتابعة الفطرة والعقل والشرعة الإلهية، أم ليس له خيار كأصل الفطرة، أمّا يقدم سببه كتطبيق ماله خيار ثم اللّه يهديه كما اهتدى. و إضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدّر «من» النشوية، أي: صبغة ناشئة من اللّه كسائر خلق اللّه. فليست من إضافة الصفة الى موصوفة تقديرا ل «في» ان تكون هذه الصبغة في اللّه كسائر صفاته الذاتية، ام «ل» حيث تعم ما تعنيه «من-/ و-/ في». ففي ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلا «من» إذ ليست لذات اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 232

صبغة وحتى المعنوية، حيث الصبغة حالة خاصة من الصّبغ وليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته وصفاته حتى تصبغ بصيغة! وإنما المعني منها ما صبغ به خلقه. و لقد صبغ اللّه الناس كلهم بصبغة الفطرة، ثم العقلية التي تتبناها، ثم شرعة من الدين الهادية لهما، الشارحة لأحكامهما، الشارعة سبيلهما الى الخير المرام، ولقد اختصرت في:

«آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ...» ولها-/ ككل-/ حصيلة مزيد الهدى والتقوى: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17). ثم وهي «الإسلام» «1» و «الولاية في الميثاق» «2»: إسلاما للّه ورسله وكتبه، وولاية توحيدية ورسالية أما هيه من ولايات إسلامية، كلّ على درجاته. و قد تتعلق «صبغة اللّه» بكلّ من «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ»-/ «اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ»-/ «نَعْبُدُ إِلهَكَ ...»-/ «بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ»-/ «آمَنَّا بِاللَّهِ ...» «آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ» والكل راجع إلى الإسلام والولاية في الميثاق في ذلك المثلث البارع الذي هو كيان الإنسان كإنسان:

«فطرت الله-/ العقل-/ شرعة الله»!. صبغة سابغة سابقة على كل صبغة لأنها «صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» كما صبغنا-/ في مثلث الفطرة والعقلية والشرعة-/ بعبادته السليمة عن كل إشراك ودون أي‏عراك. و يا له من تعبير منقطع النظير، يتصبغ أولا ب «صِبْغَةَ اللَّهِ» أمرا إلزاميا من اللّه، بمواصفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 157 يروي تفسير «صِبْغَةَ اللَّهِ» بالإسلام عن عبد اللّه بن سنان و حمران و محمد بن‏مسلم و أبان و عبد الرحمن بن كثير كلهم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال «الصبغة هي الإسلام»

(2). المصدر عن الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 233

غالية تجعلها في أعلى قمم الحسن والجمال، وثانيا بإقرار المصبوغين بها «و نحن» المسلمون المحمديون «له» لا لسواه «عابدون» لا نعبد إلّا إياه، كحصيلة بارزة لصبغة اللّه. فحذار حذار في دين اللّه وشرعته عن كل صبغة غير إلهية في قال او حال او فعال على أية حال، في تكوين او تشريع أم أية صبغة ربانية. و كما الصبغة المادية تظهر على المصبوغ كأولى المظاهر، كذلك الصبغة الروحية من طبعها الظهور في كافة المظاهر الحيوية الإنسانية، وقد سميت بصبغة اللّه عناية بتلك الظاهرة في مظاهر الأقوال والأفعال، كما هي في كامنات العقائد والأحوال، فكل إناء بما فيه يرشح، فالفطرة-/ وهي أعمق أعماق الإنسان-/ لمّا تصبغ بصبغة اللّه، فلتصبّق-/ على آثارها-/ النفس بكل جنودها ومراحلها الخيّرة: عقلا وصدرا ولبا وقلبا وفؤادا، ومن ثم في كافة الحواس ومظاهرها في كافة الحقول، والقلب الفؤاد هو المحور الأصيل كإمام الائمة في مملكة النفس الإنساني، حيث «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء». و كل صبغة دون صبغة اللّه هي صبغة ابليسية مهما اختلفت دركاتها، كما والصبغة الإلهية-/ في حقل التكوين والتشريع والتكليف، والواقع الحاصل بينها-/ درجات. أجل «صِبْغَةَ اللَّهِ» لا الصبغة اليهودية والنصرانية «1» أمّا هيه من المختلقات الزور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 141 عن قتادة قال: ان اليهود تصبغ أبناءها يهود و ان النصارى تصبغ أبناءها نصارى و ان‏صبغة اللّه الإسلام و لا صبغة احسن من صبغة اللّه الإسلام و لا أطهر و هو دين اللّه الذي بعث به نوحا و من كان بعده من الأنبياء. وفيه أخرج ابن مردويه و الضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ان بني إسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا اللّه فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم ان اصبغ الألوان الأحمر و الأبيض و الأسود و الألوان كلها في صبغتي و انزل اللّه على نبيه «صِبْغَةَ اللَّهِ ...» أقول: و لكنها لا تعنى صبغة الألوان اللهم إلّا هامشا كخلق اللّه و منه الاصباغ كلها، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعني-/ مبدئيا-/ كل صبغ. و النصارى يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين، بغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية، و هو اسم ماء غسل به المسيح عليه السلام، فمزجوه بماء آخر و كلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 234

والغرور التي هي من صبغ الغرور «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»!. و كما أن «فِطْرَتَ اللَّهِ» آية يتيمة، كذلك «صِبْغَةَ اللَّهِ» وهي أعم منها وأتم وأطمّ حيث تعم كل صبغة ربانية تكوينية او تشريعية، ما بالإمكان الالتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من أهل اللّه وخاصته وخيرته وحزبه، اللهم اجعلنا منهم بحقهم. قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139). فلما ذا المحاجة في اللّه: في ذاته وصفاته وأفعاله، في وحيه وآياته، لماذا المحاجة فيه بين من يربّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي وصبغة اللّه، ثم «وَ لَنا أَعْمالُنا» دونكم «وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» دوننا كما «وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» دونكم؟. إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين: الاختلاف فيمن يعبد «وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ» او الاختلاف في: أيّ الأعمال أصلح وأقرب الى الرب «وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» لا فحسب حتى نستوي فيها بل «وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» معرفيا وعبوديا دون إشراك، فلما ذا-/ إذا-/ تحاجوننا؟! ولقد كانت اليهود والنصارى-/ كلّ-/ يختص الرب بنفسه بآصرة النبوة الإلهية المزعومة او النبوة الممتازة المدّعاة، فرد عليهم هذه التهوسة العمياء بأن ربوبيته-/

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 235

كأصل-/ هي بيننا وبينكم على سواء، ثم ونحن نختلف في مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال والإخلاص فيها، فمن هو أخلص منا للّه معرفيا وعمليا؟. ثم إذا اختصت الهدى والزلفى بمن كان هودا او نصارى، فما بال إبراهيم الخليل أهو كما نحن-/ في زعمكم-/ بعيد عن الهدى وأنتم به تنتسبون وتفتخرون؟: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141). لقد كان هؤلاء قبل اختلاق اليهودية والنصرانية، فهل كانوا-/ بعد-/ هودا أو نصارى؟. و عجبا من حمقهم في عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هؤلاء الرسل الكرام! وتراهم ماذا يظنون بهؤلاء؟ أهم ضلّال لأنهم ليسوا هودا أو نصارى، أم هم هود أو نصارى؟ ثم اللّه مشتبه في أمرهم، وإنما يعرف الهدى هود او نصارى! «قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ»؟ و لقد كتموا شهادة إلهية تحمل بشارة محمدية: كتمانا عن أسرها، أم تحريفا في لفظها ومعناها لحسرها عن معناها وأسرها عن محتواها فهم أظلم وأطغى. تلك» الكتلة الرسالية والرسولية الصالحة، إسرائيلية وسواها «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» ومضت بإسلامها وأعمالها «لَها ما كَسَبَتْ» دونكم «وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ» دونهم «وَ لا تُسْئَلُونَ» أنتم-/ أيّا كنتم-/ «عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى-/ ولا تزر وازرة أخرى.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 236

اسماعيل وادريس ولوط (عليهم السلام)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54). لم يذكر إسماعيل في (12) موضعا يذكر في القرآن، بمشروح أحواله إلا هنا، إلا شذرا أنه «من الصابرين» (21: 85) (الأخيار» (38: 48) (وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ» (6: 86). فمن صبره وخيره «قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (37:

102) كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق‏ «1» وحقيق له صدقه في صبره، وصبره في صدقه «وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» «2» فإسماعيل هذا هو ابن ابراهيم عليه السلام جد الرسول محمد صلى الله عليه و آله لا سواه وكما في سائر الاثني عشر موضعا، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينة تميزه عن إسماعيل في سائر القرآن‏ «3»! وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55). في مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هي في القمة، وصدق الوعد والأمر باقام الصلاة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 342 ح 99-/ اصول الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: انما سمي إسماعيل صادق الوعدلأنه وعد رجلا في مكان فانتظره سنة فسماه اللّه عز و جل صادق الوعد ثم ان الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظرا لك! و رواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام. أقول: هذا الحديث في ان إسماعيل هو ابن ابراهيم ظاهره كظاهر القرآن، و اما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات او يوما بكامله، و زائد الانتظار زائد في كل الموازين، و لا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له‏

(2). الدر المنثور 4: 273-/ اخرج مسلم عن وائلة ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ان اللّه اصطفى من ولد ابراهيم‏إسماعيل و اصطفى من ولد إسماعيل كنانة-/ أقول: كنانة من أجداد النبي صلى الله عليه و آله‏

(3). نور الثقلين 3: 342 ح 101 في كتاب علل الشرايع في باب العلة التي من أجلها سمى إسماعيل بن‏حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ان إسماعيل الذي قال اللّه عز و جل في كتابه «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ ..» لم يكن إسماعيل بن ابراهيم بل كان نبيا من الأنبياء بعثه اللّه عز و جل الى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه و وجهه ..» أقول و هو لا يناسب ظاهر القرآن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 237

وإيتاء الزكاة هي من أهم فروعها الرسالية، «وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» تكريس لحالاته كلها، في نفسه وأهله ومن أرسل إليهم والناس أجمعين، كان في هذه كلها عند ربه مرضيا، و هي قمة المقامات عند اللّه مهما كانت لها درجات. وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57). لم يذكر إدريس في سائر القرآن الا هنا وفي الأنبياء: «وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (85) فله مواصفات اربع: صديق نبي من الصابرين ومرفوع الى مكان علي. تعرفنا من ذي قبل الى «صديق نبي» لإبراهيم، وان كان بينه وبين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين‏ «1» فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم ونوح وحتى آدم نفسه، إذا فإدريس أفضل من آدم ومن بعده الى نوح. ثم «وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا» دليل معراجه عليه السلام لمكان «مكانا» دون مكانة، وقد عرفت مكانته ب «صِدِّيقاً نَبِيًّا» وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله انه السماء الرابعة «2» رفع إليها كما رفع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 274-/ اخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث الى النبي صلى الله عليه و آله قال: ان إدريس‏كان نبيا تقيا زكيا و كان يقسم دهره على نصفين: ثلاثة ايام يعلم الناس الخير و اربعة ايام يسيح في الأرض و يعبد اللّه مجتهدا و كان يصعد من عمله وحده الى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع اعمال بني آدم ...» و تتمة الحديث طويلة و كما هنا أحاديث اخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة

(2). المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و آله و رفعناه مكانا عليا قال: في السماءالرابعة و عن انس بن مالك عنه صلى الله عليه و آله مثله و في نور الثقلين 3: 349 ح 108 عن علل الشرايع باسناده الى عبد اللّه بن يزيد بن سلام انه قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله و قد سأله عن الأيام: فالخميس؟ قال: هو يوم خامس من الدنيا و هو يوم أنيس لعن فيه إبليس و رفع فيه إدريس، و فيه عن تفسير القمي عن النبي صلى الله عليه و آله في معراجه: ثم صعدنا الى السماء الرابعة و إذا فيها رجل فقلت من هذا يا جبرئيل؟ فقال: إدريس رفعه اللّه مكانا عليا فسلمت عليه و سلم عليّ و استغفرت له و استغفر لي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 238

عيسى عليه السلام ويروى أنه كان خياطا «1». و إذ يرفع إدريس مكانا عليا فقد رفع محمد صلى الله عليه و آله مكانا أعلى الى سدرة المنتهى، ومكانة أغلى «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏» وكما رفع ذكره في الملاء الأعلى: «وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ» وكما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية صلى الله عليه و آله: يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبنيه حول «من هو أفضل الخليقة» فإذا انا «آدم» بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضياء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هؤلاء؟ فأوحى الي أنهم أشرف خلقي والوسطاء بيني وبينهم:. إني لهو يوه أنا لبرين وارخ لا الشماى ولا أل ارعا ولا الپردس ولا الكيهن ولا الشمس ولا السعر: «لولاهم لما خلقتك» يا آدم «و لا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر» قلت «آدم»: ما هي اسماء هؤلاء الأكارم؟ قال: انظر الى العرش ترى:-/ «پارقليطا» (محمد صلى الله عليه و آله «إيليا»: علي عليه السلام «طيطه»: فاطمة (عليها السلام) «شپرّ»:

حسن «شپير»: حسين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ح 110 عن الكافي عن عبد اللّه بن ابان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة: اما علمت انه موضع بيت إدريس النبي عليه السلام الذي كان يخيط فيه؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 239

هليلوه لت اله شوق منّي محمّد انّوي داله»-/: «هلّلوني فانه لا إله إلا أنا ومحمد رسولي» فَآمَنَ‏ «1» لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 26. «آمن له» ليست لتعني ما تعنيه «آمن به-/ آمن معه-/ آمنه» فكلّ من هذه الأربع تعني ما تخصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة. ف «آمن به» هي كأصل الإيمان هو الإيمان باللّه، وكوسيط هي الإيمان برسول اللّه، من أمته ككل امة، ومن رسل برسول كمحمد صلى الله عليه و آله «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» (3: 81) فليس يؤمن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها ايمان باللّه دون وسيط، اللهم إلّا تجاه محمد و هو رسول الرسل، و «آمنه» جعله في امن هو خاص باللّه وهو «الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ..» وهو مجازيا ان تؤمن خائفا عما يخاف، لا أن تجعله في أمتك كما اللّه. و «آمن معه» تعني معية الايمان باللّه كما الإسلام معهَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (27: 44)-/ «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (11: 40). و «آمن له» هو ايمان باللّه لرسول يدعو إلى اللّه، ايمانا لصالح الموكب الرسالي أن يصبح من أعواد الرسالة وأعضاد الرسول، بعد ما كان مؤمنا باللّه، وهكذا كان لوط (عليه‏السلام) مؤمنا باللّه، وبعد أن تعرّف إلى الرسالة القمة لإبراهيم الخليل آمن له احتسابا لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالي السامي، كما «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). طبع كتاب إدريس عليه السلام باللغة السريانية في لندن 1895 و هذه البشارة في ص 514-/ 515 منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام في كتابه أنيس الاعلام-/ و قد فصلناه في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية ص 131 (عربية) و في كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص 229

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 240

مِنْ فِرْعَوْنَ» (10: 83) بعد ما ربطوا ايمانهم هذا بأن يرووا اللّه جهرة: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (3: 56). فقد كانوا مؤمنين باللّه غير مؤمنين لرسول اللّه موسى، ولا مصدقين في الطور ان اللّه هو الذي يكلمه حتى يروه جهرة يكلمه فحصل ما حصل. و هذه الذرية هي المؤمنة من قبل باللّه، وهنا آمنوا لموسى أن انضموا إلى موكبه الرسالي، وهنا تنحل المشكلة العضال في ايمان لوط، أن كيف أرسل مع إبراهيم وكان مشركا من ذي قبل؟ فانما أرسل معه بعد ما آمن معه وكان مؤمنا باللّه! «و قال» علّه لوط «إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي» مهاجرك، أم إنه ابراهيم نفسه كما في أخرى: «إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي سَيَهْدِينِ» (37: 99) ولأن كل رسول مهاجر إلى ربه في رسالته بل وكل مؤمن، فقد تعني «فقال» لوطا وابراهيم، ولكنه مهاجر مع ابراهيم كما آمن معه، مهاجرة بمعيته كرسالته معه دونما انفصالية في ذلك المثلث البارع، ايمانا ورسالة ومهاجرة إلى ربه في سبيل تحقيق الإيمان الرسالي والرسالة الإيمانية، وعلى حد المروي عن الرسول صلى الله عليه و آله «سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام» «1». إن المهاجرة الإبراهيمية ما كانت فحسب عن وطنه إلى غيره، بل انها مهاجرة عمن سوى اللّه بكل كيانه، ومنها مهاجرة قومه بعد أن لم يبق له رجاء ان يفيئوا إلى الهدى على أية حال، ولقد عوضه اللّه عن هذه المهاجرة الرسالية، ذرية تمضي فيها رسالات اللّه منذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 144-/ اخرج ابن عساكر عن ابن عمران النبي صلى الله عليه و آله قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 241

إسماعيل وإسحاق ويعقوب وإلى كل الرسل الإسرائيليين وخاتم المرسلين، وهنا المذكورون هم الأوّلون في آيات عدة ثم الرسول محمد صلى الله عليه و آله: «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ ...» (45): وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ 27. و هبة ربانية منقطعة النظير «وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ» ومن المذكورين هنا صراحا «إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ» وبأحرى إسماعيل جد الرسول محمد (صلى الله عليه و آله وهو بكر ذريته كما هو صراح آيات اخرى، «وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا» في نصرة رسالية مستمرة فيه وفي ذريته الرسل «وَ إِنَّهُ فِي الآْخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» السابقين والمقربين منذ آدم الى خاتم النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين. وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32) وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى‏ أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 242

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40) وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ 28. لقد كانت فاحشة اللواط في قومه لحدّ تطلبت النهي والتنديد في بازغ الرسالة قبل النهي عن الإشراك باللّه، وكما نراه في كل الآيات التي تذكر رسالة لوط عليه السلام. و «الفاحشة» هي كل معصية متجاوزة حدها كما أو كيفا أو فيهما، تجاوزا حد العصيان ام الى غير العاصي ام فيهما، واللواط بينهم كان فاحشة ككلّ، إذ أصبح سنة فيهم مستمرة متداولة، و «ما سبقكم» ليست في أصل اللواط، بل في السباق فيه والهرعة الجماهيرية إليه، و «أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» تعني عالم الإنس والجن وسواهما من المكلفين، لا كأفراد، بل جماعات وكتلات، فاحشة منقطعة النظير هكذا بين العالمين. أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 29. إتيان الرجال هنا معروف أنه اللواط، فأمّا «وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» الواقعة بين إتيان الرجال وإتيان المنكر الذي يشمله وسواه، هذا قد يعني كل سبيل مأمور بسلوكه ومنها سبيل تشكيل العائلة، فإتيان الرجال أحيانا قطع أحياني لهذه السبيل، وأما إتيانهم كعادة مستمرة منحصرة في شهوة الجنس، فهو قطع باتّ لسبيل الإيلاد، فقد كان فاحشة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 243

متجاوزة إلى هذه السبيل، قاطعة لها عن بكرتها، مما يضخّم بعد الفاحشة لأبعد الحدود، ثم و «تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ» ومنه منكر اللواط يجعله في ثالوث منحوس ما أنحسه: لواط يقطع به سبيل الإيلاد ويؤتى به في النادي المجتمع. ثم من السبيل هي سبيل المارة قطع السلب للأموال والأعراض، وقطع الاستجلاب للفاحشة، كما من المنكر كل المنكرات القرينة لهذه الفاحشة المعلنة الجماهيرية من رقص وموسيقا وميسر وخمر واضرابها من منكر. فالزنا على فحشاءها لا تقطع السبيل كأصل قاطع، إذ قد يجتمع مع الإيلاد السفاح الإيلاد من النكاح، أم وإذا اختص بالسفاح فليس قطعا إلا لسبيل الحل من الإيلاد دون قطع قاحل يجتثّ النسل عن بكرته. و لكن تعوّد اللواط يقطع سبيل الإيلاد، وسبيل تأسيس العائلة عن بكرته، هدرا لنطف الرجال دون اي انتاج، إذا فهو أفحش من الزنا، كما وحدّه أحدّ منها، وقد أمطرت قوم لوط بحجارة من سجيل: «قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ» (51:

33). و اللواط تخلّف قاحل عن الفطرة، فقد تفسد الفطرة بتجاوز حد الاعتدال مع المرأة فهي فاحشة داخلة في نطاق الفطرة مهما تخلفت فيها عن الشرعة، وأما اللواط فهو انخلاع عن شرعة الفطرة وشرعة الدين معا، وفساد في التركيب العضوي، تخلفا عن خط الحياة الجنسية عن بكرتها. «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا» قولة التحدي السافر الساخر «أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ» الذي تعدنا «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في دعواك تبجحا في وجه الإنذار، ما لا ينتظر فيه أوبة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 244

ف: قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ 30. و هي قالة الإستنصار في حالة الاضطرار وقد استضعفوه، فلا دواء لدائهم إلّا الكي، نصرة على كفرهم وتحديهم الساخر أن يسخر منهم عذاب اللّه، فإذا هو ببشرى العذاب: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ 31. جيئة مبشّرة إلى إبراهيم لأنه الذي تدور عليه رحى هذه الرسالة، وما لوط إلّا فرعا منها في قضاء سدوم، وقد برهنوا إهلاكهم لهم بأنهم كانوا ظالمين، مستمرين في ظلمهم المتهتك لكل ستر رباني على الحرمات، ظلما بالرسول وظلما بالرسالة، ظلما بالفطرة وظلما بالإنسانية ككل. قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ 32. «إِنَّ فِيها لُوطاً» إخبار في تساءل حياطة على حياته، واطمئنانا بنجاته، وهم طمأنوه بنجاته وأهله إلّا امرأته إذ كانت من الغابرين. و قد يعني من ذلك الاستعفاء عن قوم لوط لكرامته وهو فيهم كما في هود «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (76)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 245

ف «لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم ..» «1». و الغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، إذ مكثت في الظلم مع ما مضى عليها من عمر طائل وما معها من جو الوحي والتنزيل، وذلك مما يضخّم الجريمة، إذا فهي من الغابرين في العذاب إذ كانت من الغابرين في سبب العذاب. وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ 33. و لما ذا «سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً» وهم رسل اللّه، حاملين بشارة العذاب من اللّه؟

لأنه ما عرفهم إلّا أنهم شباب صباح ملاح، وهو يعلم شنشنة قومه، فجيئتهم اليه-/ إذا-/ جيئة فجيعة خوفة من قومه المجرمين: و إلى م تعطف و «قالوا» وهي استئناف لقولهم هنا؟ إنها عطف على محذوف من قولهم معروف من هود: «وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ .. قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 157 في الكافي بسند عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في تفصيل القصة فقال لهم ابراهيم: لما ذا جئتم؟ قالوا في إهلاك قوم لوط، فقال لهم: ان كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل عليه السلام: لا-/ قال: فان كان فيها خمسون؟ قال: لا-/ قال: فان كان فيها ثلاثون؟ قال: لا-/ قال: فان كان فيها عشرون؟ قال: لا-/ قال: فإن كان فيها عشرة؟ قال: لا-/ قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا-/ قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا-/ قالَ: إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» قال الحسن بن علي عليهما السلام: لا اعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول اللّه عز و جل «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 246

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 81-/ 83) ولما ذا أصاب امرأته ما أصابهم ولم تكن فاعلة فحشاءهم؟ لأن الدال على الشر كفاعله، وقد كانت تدلهم على ضيوف لوط وسواهم، اضافة الى كونها مشركة فاستحقت ما استحقوه. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى‏ أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ 34. و ذلك الرجز هو حجارة من طين، مسومة عند ربك للمجرمين كما فصلت في هود وسواها. وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ 35. و «آية بنية» من قرية سدوم، تبيّن أنها كانت حتى زمن نزول القرآن بيّنة ظاهرة للمارة كما «وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ» (15: 76) (وَ إِنَّكُمْ لَتمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (37: 137) و لكنها اليوم مجهولة لا أثر عنها معروفا، وعلّها غمرت في بحر لوط، ولا يعني تركها أنها متروكة للناظرين مع الأبد. وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ 36 فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ 37. أخاهم» هنا قد تعني أخوّة النسب أو السبب إلى جانب الأخوة المواطنية والإنسانية، إشارة إلى أنه كان عشيرهم عمرا من قبله، معروفا عندهم بالأمانة والصلاح، مما تزيد حجة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 247

الآية الرسالية نصوعا ونضوحا. و حصيلة دعوته الرسالية هي عبادة اللّه لا سواه ورجاء اليوم الآخر على ضوء الإيمان، ثم «وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» أيا كان الإفساد فيها وأيّان، والعمدة في إفسادهم بعد العقيدي منه هو البخس في المكيال والميزان، إفسادا اقتصاديا تتهدم به العيشة الجماعية، خلقا للطبقية العارمة الظالمة، «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» بديارهم «فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ»: قاعدين باركين على الأرض ميتين.

عاد و ثمود

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ 38. و ليس فقط يزين سوء الأعمال فيرونها حسنا، بل وحسنها حيث يزينها لهم أكثر مما هي، فيغترون بها ولا يبالون بما يعتريهم من سوء: «و لا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة وتسعين بابا من الخير ليظفر بك عند تمام المأة، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله والمصادة باستهوائه» «1». فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة، هي ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزيينه وتسويله كيلا تقعوا في فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعا وأنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، وتعمى عليكم المسالك بما زيّن لكم الشيطان أعمالكم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام بعد ان ذكر الشيطان: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 248

فأنتم-/ إذا-/ من الأخسرين اعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً». و قد تعني «وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» أن عادا وثمود كانوا قبل أن «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ» كانوا على بصارة وهدى فطرية وعقلية، أم وشرعية، إلّا أنها ما كانت ناضجة قويمة، وعلى أية حال فمسرح التزيين من الشيطان خطير خطير، لا ينجو منه إلّا من عصمه اللّه وهداه، وهو التارك هواه إلى هداه إلى اللّه «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ 39. ذلك الثالوث المنحوس، القارونية الفرعونية الهامانية «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ» كلّ على حدّه ومدّه، استكبار الثراء والسلطة الملكية والوزارة الفرعونية، ولكنهم مهما زمّروا وأبرقوا وأرعدوا وعربدوا «ما كانُوا سابِقِينَ» على مشيئة اللّه: فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ 40. «فكلا» من هؤلاء واضرابهم في الاستكبار «أخذنا» ه «بذنبه» هنا، وأخذهم في الأخرى أخزى «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً» وهم قوم لوط: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ» (54: 34) فالحاصب-/ إذا-/ حجارة من طين «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» ومنهم ثمود «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 249

الُمحْتَظِرِ» (54: 31) ومنهم عاد: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ» (11: 94) ومنهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ 57 كذبوا المرسلين: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» (36: 29) (وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ» كقارون «فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ» (28:

81) (وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا» كقوم نوح وفرعون. «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» بما أخذهم بذنوبهم «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» لم يظلمهم اللّه ولا هم ظلموا اللّه وإنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا. و هذه العذابات الأربع: بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعا لآلذان وإلى الأعماق، وبالحاصب: حجارة من طين تتبدل نارا بسرعة الإرسال، وبالخسف: غمرا في التراب، وبالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة تشتمل على جزئيات وذرات، فقد أخذوا عذابا بما خلقوا من رحمة، وما عذابهم إلّا صورة واقعية من اعمالهم ف «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»؟ فهؤلاء هم الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء، أصناما وأوثانا وطواغيت، وإليكم مثلا واحدا في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أوهن البيوت كذلك بيوت الإشراك أيا كانت هي كبيت العنكبوت:

لوط (ع) في رسالته الى قومه‏

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 250

لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الُمجْرِمِينَ (84). يأتي «لوط» في (37) موضعا في (14) سورة، وهنا إجمال عن دعوته بمحورها السلبي:

«أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» مما يدل على أن هذه النكرى لم يسبق لها نظير في زمن أي‏بشير ونذير أن تصبح عادة متجاهرة متعوّدة كما الزواج، في غابر الجاهليات والهمجيات، اللّهم إلّا في جاهلية القرن العشرين حيث تمضي كمادة قانون في البارلمان البريطاني!. ذلك المراس لفاحشة اللواط بكل حراس واكتراس، المنقطع النظير في تاريخ الإنسان، مما جعل محور التنديد في هذه الرسالة الفرعية استنكارا لها وحوارا متواصلا بشأنها كما نجدهما بطيات آياتها. و هنا «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» يعني الإسراف الذي ينددهم به لوط في اللواط، تجاوزا حد الفاحشة إلى ما لا حد لها، حيث يريقون الشهوة ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب‏ «1»، فهي مجرد شهوة شاذة متخلفة، غريبة عن الفطرة الإنسانية بل والحيوانية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا القول حول حرمة إتيان النساء من أدبارهن على ضوء قوله تعالى: «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (2: 223) و هذا هو الذي أمركم اللّه سماحا لأنه بعد حظر حيث وعد قبلها: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» (222) و أوردنا متواتر الأثر عن النبي صلى الله عليه و آله ان المأتية من دبرها هي اللوطية الصغرى، و مما ورد في ذلك ما في الدر المنثور 3: 100-/ أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في سننه عن علي عليه السلام انه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكوا: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال علي عليه السلام: سفلت سفل اللّه بك ألم تسمع إله قوله «أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ». و رواه عنه عليه السلام في تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت، أقول: فاحشة إتيان الرجال من أدبارهم لا تعني إلا الإفراغ في غير موضع الإخصاب، فهي محرمة في النساء كما في الرجال مهما اختلفت دركات الفحشاء فيها، و هكذا المساحقة لأنها عملية غير مخصبة و كما أخرجه في الدر المنثور عن أبي حمزة قالت قلت لمحمد بن علي عليهما السلام: عذب اللّه نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: اللّه أعدل من ذلك استغنى الرجال بالرجال و النساء بالنساء، أقول: و هكذا العادة السرية فإنها في غير إخصاب، و لا ينافي في ذلك حل ملاعبة النساء حين تمني لأنها في طريق إتيانهن، كما و أن الإفراغ منهن ما لم يكن لغرض انقطاع النسل مسموح حيث الباب باب الإخصاب و ليس يجب الإخصاب من بابه على الدوام،-/ إنما الممنوع انقطاع النسل كما في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان و علة تحريم الذكران للذكران و الإناث للإناث لما ركب في الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما في إتيان الذكران الذكران و الإناث الإناث من انقطاع النسل و فساد التدبير و خراب الدنيا. وفي الدر المنثور حول حرمة اللواط عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: أربعة يصبحون في غضب اللّه و يمسون في سخط اللّه قيل من هم يا رسول اللّه؟ قال: المتشبهون من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال و الذي يأتي البهيمة و الذي يأتي الرجل. وفيه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و آله قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: لعن اللّه سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردد لعنته على واحدة منها ثلاثا و لعن بعد كل واحدة لعنة لعنة، قال: ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئا من البهائم ملعون من جمع بين امرأة و ابنتها ملعون من عق والديه ملعون من ذبح لغير اللّه ملعون من غير حدود اللّه ملعون من تولى غير مواليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل و المفعول به، و عن عائشة أنها رأت النبي صلى الله عليه و آله حزينا فقالت يا رسول اللّه و ما الذي يحزنك؟ قال: شي‏ء تخوفته على أمتي أن يعملوا بعدي عمل قوم لوط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 251

تلك جاهلية في القرون الغابرة، وإذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا وأمريكا حيث ينتشر فيهما وما أشبه ذلك الانحراف الانحراف الجنسي الشاذ انتشارا ذريعا دون أي مبرر إلا الإباحية الطليقة المطبقة. و من الجاهليات المتحضرة التي تبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة توجهها الصهيونية العالمية: أن احتجاب المرأة هو الذي ينشره؟ ولكن شهادة الواقع تعكس الأمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 252

أن خلاعة النساء وتعريهن مما يشجع على ذلك الشذوذ، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين، يتسافدون كما تسافد البهائم وليس هناك أحد يقول لأحد مه مه. ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلهما بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة، لحد تجاوزت إلى حرية الاكتفاء لكل جنس بجنسه، ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى، بل ومع الحيوان أيضا، ومن أراد واسع الاطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ «السلوك الجنسي عند الرجال» و «السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير «كنزي» الأمريكي. ذلك، ولكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة: أن العادة السرية واللواط وما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة، لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ووصايا مؤتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود. «وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» وهنا يصبح التطهر سببا لإخراج المتطهرين من قريتهم حتى يخلو جوها للملوثين الدنسين، وذلك منطلق الجاهلية في كل حين، من الجاهلية الغابرة إلى جاهلية القرن العشرين، حيث تطارد المتطهرين كيلا تراهم يخالفونهم في انغماسهم وانطماسهم في خضم الشهوات والمنكرات، ليتم الجو ويطم ما هو يطلبونه من المستنقعات العفنة. «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ» من هذه القرية القذرة «إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» القذرين ثم «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً» من العذاب التباب «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الُمجْرِمِينَ» الذين أجرموا ثمرات الحياة وقطعوها قبل إيناعها فأفسدوها عن بكرتها، وهنا تطوى صفحة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 253

أخرى من صحائف المكذبين المجرمين، جزاء لهم وفاقا وتبصرة للمتبصرين، ثم:

عذاب قوم لوط

سورة الأعراف (7): الآيات 86 الى 301 وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89) وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ (93) وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (95) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 254

أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37) تسليات وتثبيتات لخاطر النبي الأقدس صلى الله عليه و آله باستعراض أحاديث عن النبيين مع أقوامهم، و ما لا قوه من أذى ولاقت أقوامهم من لظى، ابتداء بحديث ابراهيم لأنه شيخ المرسلين: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ملائكة دخلوا عليه كأناسي فاعتبرهم ضيفا آدميين، فقال عنهم اللّه ضيفا كما حسبهم إبراهيم عليه السلام أو انهم كانوا ضيفا حقيقيين وان كانوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 255

ملائكة اعتبارا أن الداخل على الإنسان ضيف وان لم يأكل أو ليس ممن يأكل، توسيعا في معنى الضيف. و «هَلْ أَتاكَ» كاستفهام بشأن تفخيم أمر القصة، فإن هذا الحديث يضم من فخائم الأمور عظائم، والْمُكْرَمِينَ: عند اللّه إذ أرسلهم الى خليله: وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ ... (11: 69) و مكرمين عند ابراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم، تدليلا على مدى حقوق الضيف وان كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ: يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحي به الجملة الاسمية: قالَ سَلامٌ بخبرها المحذوف، الدالة على الدوام، بعد ما أوحت جملتهم الفعلية «فَقالُوا سَلاماً» بسلام غير دائم. ثم يضيف الى اضافتهم في هذه التحية الحسنى، إضافة لهم عملية، وهو ينكرهم ولا يعرفهم: فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر في أمرهم: فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى، والثاني تقديم أدب من آداب اللقاء الإيماني:

التعارف بين المتلاقين، أن يعرّف كل نفسه ويتعرف إلى الآخر، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه وهو لا يعرفهم، ولكنه عاملهم كمن يعرفهم. و الثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم، في مثلث الإضافة المحترمة أخيرا أن راغ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (11: 69) عجل-/ سمين-/ حنيذ! وهو يروغ للمجي‏ء به الى أهله!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 256

فالروغ طلب بضرب من الاحتيال والتخفي، مما يوحي كأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة، ولضيف غير معروف! يجي‏ء به حنيذا:

مشويا بين حجرين نظيفين، يقربه كله إليهم، وهو طعام عشرات، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال، يكفيهم كتف من هذا العجل!. فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا في البداية في قوله: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ اللهم إلا كل تجليل وتبجيل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل، إلى أن: فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (11: 70) فالوجس هو الصوت الخفي، والإيجاس إخفاء الصوت في النفس، مما يدل أنه كان خوفا خفيا أو مشارفا كما تعنيه الوجل، وإنما استشعر منهم الخوف، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف، ولحد لا تصل أيديهم اليه، ينبئ عن نية شر و خيانة، أو يلمح فيهم شيئا غريبا في نوعه، فحتى لو كانوا شبعانين، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا ولو قليلا، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم، فإذ لم تصل أيديهم اليه، ولم يعتذروا، إذا فحق لإبراهيم-/ وهو يعيش بين أعداء له كثير-/ أن يخافهم، و لكنه أوجس منهم خيفته، رعاية لهم، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة، مهما حاول الخائف في إيجاسه، فلما عرف انهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، ولكي لا ينافقهم في واقعه، وليظهروه على أمرهم، حتى يعرف واجبه تجاههم بعد ما قام به من واجبه، ف قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (15: 52) مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة بايجاس الخليفة، التي قد تخلف آثارا سيئة، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين: فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ:-/ «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 257

تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (15: 52) نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ (11: 70). هنا وهناك نرى شيخ المرسلين كيف يضيف ضيفه المنكرين قبل أن يعرفهم، لحد يكرمهم كما يرضى الله، إذ يعبر عنهم ب ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكريمهم، وألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة في نفسه من ملامحه، أبرزها لهم قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ:

نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مريب، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفا ثابتا، وانما استشعارا يعنيه الوجل، وما أعدل ابراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف، وإنما مشارفته المسائلة، لا عداء لهم وامتهانا، وانما بغية ظهور الحال وعلاجها، وقد عولجت بالبشارتين، أن عرفهم رسل ربه المكرمين، فاستبشر بغلام عليم، و القضاء على قوم لوط المجرمين. وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ: بشارة بإسحاق من زوجه العجوز العقيم سارة، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (37: 101) من هاجر وهو إسماعيل، قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (15: 56). فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ:-/ وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاق‏وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ. قالَتْ يا وَيْلَتى‏ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ. قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 258

مَجِيدٌ» (11: 73). ان دور ابراهيم في هذه البشارة كان استبشارا حمله على استفسار بشأنه خاصة عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ دون زوجه العجوز العقيم، ولم يكن سؤاله أَ بَشَّرْتُمُونِي إنكارا لقدرة اللّه، قنوطا من رحمة اللّه، إذ حكم هو بضلال القانطين، وانما استعظاما للبشارة، وهل إنها حقا من اللّه؟

وهؤلاء هم رسل اللّه؟ فلمّا قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ اطمأن قائلا وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ. و اما زوجه فقد استغربت هذه البشارة وتعجبت منها في مثلث الاستبعاد: (عجوز 1 عقيم 2 .. وهذا 3 بعلي شيخا)؟ قالته لما سمعت البشارة: «فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ»: في صياح شديد «فَصَكَّتْ وَجْهَها»: لطمت وجهها «وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»؟ فانها بغتت وفوجئت بهذه البشارة وفندّت منها صيحة الدهشة، وصكت وجهها صكة الوحشة، إذ لم تكن تتوقع هكذا بشارة!. «قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ» بما يحكم «العليم» بما يريد رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ولقد نفذت رحمة اللّه الخاصة هنا في ثالوث الاستحالة بحساب الإنسان، فلم يمنع عقمها المزدوج: عَجُوزٌ عَقِيمٌ ولا شيخوخة بعلها الخليل عن نفاذ امر الجليل. هذه البشارة كانت بحق اسحق وفي مثلث الاستغراب، واما التي كانت بحق إسماعيل قبل إسحاق فلم تحمل خارقة للعادة، إذ لم تكن زوجه لا عجوزا ولا عقيما، ولا هو شيخا لحد الإياس، ولذلك نراه يبتدء هو بالطلب: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ..

(37: 101).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 259

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ توحي هذه المقالة أن ابراهيم لم يعدّ بشارته في عداد خطب المرسلين، فانه الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ما يوحي بأنهم أكثروا معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ وعلّه بداية الحوار، فلتستكن نفس الخليل بما أرسل به المرسلون عن الجليل. فقد زال عنه روع اوّل، ثم ابتلي بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (11: 75) مما يدل أنهم بدؤا بتعريف أنفسهم، ثم البشارة، ثم الحوار مقدمة الخطب، ثم التصريح بالخطب إذ سألهم: قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ: وهم قوم لوط، ترى ما هو الدافع لاطلاع إبراهيم بهذا الخطب، ورسالة العذاب كانت على قوم لوط؟! لان ابراهيم كان رسولا على لوط والنبيين معه وبعده الى موسى، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وان يبدأ له بما يراد للقيادات الجزئية، وعلى الأقدام. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ: ترى ما هو دور ابراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار؟ هل يسكت راضيا عن تعذيبهم مهما كانوا مجرمين، وبعد ان رضي اللّه وأراد؟ ام يغتنم الالتماس، لعلّ اللّه يستجيب له لأنه ليست ارادة حتم؟ .. إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو وتأخير العذاب: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ فحلمه يدفعه الى الجدال، ولكنه بعد ان يعرف حتم الارادة الالهية فأوّاه منيب، حليم عن المجرمين ما دام الأمل، أواب منيب الى اللّه إذا زال الأمل: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 260

(11: 76) كما ونجد نفس الحلم في لوط: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) إلا بعد ما تبين له كما تبين لإبراهيم من قبل، و هكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة حليمة إلا إذا خاب الأمل وجاء أمر الرب وخسر هنالك المبطلون. حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ. وهي منضود» إنها حجارة تخلق من تحجر الطين، المعبر عنها بصيغة أخر ب. سجيل: «فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» (15: 74) (... مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 82). و كما أرسلت على أصحاب الفيل «تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ» (105: 4) وهو معرب (سنك كل) الفارسية: حجر الطين، فهل ان حجر الطين أصلب وأقوى من سائر الحجر وكيف؟! وبما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية، وفي حرارة خارقة، إذا فلا بد وأنه أصلب من سائر الحجر، دون الطين الذي يتحجر بمرور الزمن، وبتعامل الموافقات فانه أوهن من الحجر الأصل ولا شك. و السجيل هذا قد يرسل على المجرمين من الفضاء، من مقاذف الكواكب التي ترمي إلى الشياطين، فالمحترقة منها في الأجواء هي الشهب والنيازك النارية، والواصلة منها إلى الأرض هي الأحجار السماوية التي قد ترمى إلى المجرمين، فهي باحتراقها في الجو، وتبدّل قسم من سطوحها الخارجية الى الرماد، ومرورها على المياه والرطوبات، ثم رجعها الى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة والسرعة، بعد ذلك تتصلب، وعلّها أكثر مما كانت، حين انفصالها عن مقاذفها، وهذه صورة من صور اصطناع حجارة من طين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 261

و قد يكون مرسلا من باطن الأرض، حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض، ترسل من قاذفات البراكين، إلى جماعة من المجرمين. و قد يكون مصطنعا من غبارات منتشرة بين الأرض والسماء، من الأرض أو السماء، تتحجر تحت ضغوط جوية وموافقات ومنها الحركة والحرارة والرطوبة والرياح. و أيا كان سجيل المجرمين، فليكن أصلب حجر وأقواه وأشده إيقاعا وكما في قصة أبابيل، المرسلة على أصحاب الفيل تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ترى كأنها قنابل ذرية لا تبقي ولا تذر. ثم السجيل «مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» كما هنا، «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» كما في هود 11: فلتكن محضرة قرب الظالمين، ومعلمة للمسرفين، دون فوضى فيها ولا في إرسالها، ولا المرسل بهم، والمرسل إليهم، وزمان الإرسال ومكانه، وقدر الظلم والإسراف:

مسومة: معلمة عند ربك للمسرفين: المجاوزين الفطرة والعقل والدين، ومعلمة للظالمين:

المنتقصين، علّ كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكلّ منهم، فهي مسومات، كما أن المسرفين دركات، لكلّ ما يستحقه من سجيل وأصل التسويم هو في تسويم الخيل للحرب، أي‏تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو، شبهت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين، فإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراك. و هي كذلك منضودة: ركاما بعضها فوق بعض، إن في السماء أو في باطن الأرض ... جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين. و لقد كان أمطار السجّيل تتمة التدمير بعد الصيحة: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 262

فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» (15: 75) وترى كيف ابتداء العذاب؟: فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: وهم آل لوط إلا امرأته، فقومه ت‏آمروا في إخراجهم تخلصا منهم: «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (27: 56): إخراج مهانة، ولكن اللّه تكفل لهم إخراج كرامة: «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» (27: 58) (.. كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (7: 83) أجل-/ أهله-/ آله فحسب، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم اللّه: 331 فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: هم آل لوط أنفسهم وكان الخروج ليلا «... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (11: 81) (وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ» (15: 65). وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ والآية هي تدميرها التي تضم آيات، والخائفون العذاب الأليم هم المؤمنون: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (15: 77). فالمتوسمون وهم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم، فالمؤمن يزداد إيماناً، ومن غير المؤمنين من هم يؤمنون، ومنهم من يتأملون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 263

عذاب قوم لوط

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69). علّ هذه «البشرى» هي بشرى إبراهيم وزوجه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، لمكان «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ..» ثم «وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏» فقد لا تعني بشرى العذاب لقوم لوط حيث يأتي خبرهم لمّا أرسل الرسل إلى لوط، ثم البشرى بعيدة عن العذاب إلّا تهكما للمعذبين، وهنا البشرى لإبراهيم ولوط عليهما السلام. ذلك، وقد تعني هذه البشرى بضمنها بشرى العذاب فإنها بشارة لإبراهيم ولوط لقومه المجرمين، تعنيها عناية ضمنية، ولكن لا شاهد لها من هذه الآيات إلّا احتمالا صالحا للعناية الضمنية، ثم وآيات الحجر تصرح ببشرى العذاب بعد بشرى الولادة فهما إذا معنيّان. «قالُوا سَلاماً» وهو التحية السليمة الإسلامية التي امر بها المسلمون للّه «قالَ سَلامٌ» وقد قدّر هنا وهناك «عليك وعليكم» فإن قول «سلام» هو الصيغة الصالحة التي تعني السلام على، ف «سلام» بمجردها دون عناية «عليك أو عليكم» لفظيا أو مقاميا لا جواب له، وقد قدّر في «سلام» من إبراهيم إضافة إلى «عليكم» زيادة مأمورة محبورة لمكان «إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها». ثم ولا يشترط في أصل الإجابة ونوعيتها معرفة المسلّم عليك وكما لم يعرف إبراهيم هؤلاء الرسل بداية مجيئهم حتى عرّفوه أنفسهم فعرفهم، فللسلام إجابة من أيّ كان وأيان،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 264

مهما كان لها موقعها الأرقى حين يعرف المسلّم بمحتده الأرقى‏ «1». «فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ»: سمين مشويّ على حجارة الرضف المحماة، وهكذا يواجه الضيف، وقبل أن يعرفوا أو يعلم أنهم جائعون، فإن ذلك أدب الأريب، وإرب الأديب في إضافته أيا كان الضيف، أن يحضر له مائدة قدر الإمكانية غير المحرجة فور ورده. فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ (70). و هنا «أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ» رغم أدب الضيف، إذ عليه أن تصل يده إلى مائدته مهما كان شبعانا، احتراما للمضيف، فإن في عدم وصول أيديهم إليها اختراما له، فلم يقل «لا يَأْكُلُونَ» فقد تصل أيديهم إلى المائدة احتراما دون أكل ماكن أم يعتذرون، ولكي يعلنوا أنهم جاءوا بخير، فحين لا يأكلون ولا تصل أيديهم إلى مائدته، فقد يلمح أنهم جاءوا بشر، فلذلك «نكرهم» نكرانا بمظهر نكرانهم «وَ أَوْجَسَ» إخفاء «منهم» في نفسه «خيفة»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 168 عن النجاشي عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إن اللّه بعث أربعة أملاك بإهلاك قوم لوط: جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و كروبيل فمروا بإبراهيم و هم متعممون فسلموا عليه و لم يعرفهم و رأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي و كان صاحب أضياف فشوى لهم عجلا سمينا حتى أنضجه ثم قربه إليهم فلما وضعه بين أيديهم و رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال له: أنت هو؟ قال: نعم، و مرت امرأته سارة «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ» قالت ما قال اللّه و أجابوها بما في الكتاب فقال إبراهيم: فيما جئتم؟ قالوا: في هلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا، قال: إن كانوا خمسين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا ثلاثين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كانوا خمسة؟ قال: لا، قال: إن فيها لوطا؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين، ثم مضوا، و قال الحسن بن علي: لا أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول اللّه «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 265

ولكنما الخيفة الموجسة ليست لتوجس عمن يخاف منه لظهور ملامحة منه ومن الموقف، فلمحة من «أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ» وأخرى من الحالة المتغيرة من الخيفة الموجسة، هما تكفيان لعرفان الخيفة. فالذي لا يأكل الطعام أم لا تصل يده إليه عند الإضافة، إنه يريب إشعارا بأنه ينوي خيانة أو عذرا حسب تقاليد أهل البدو، بل والمتحضرين، وأهل الريف البسطاء يتحرجون من خيانة الطعام، أن يخونوا من أكلوا معه وفي بيته، فإذا لم تصل اليد إلى طعامهم فقد يعني أنهم ينوون شرا، أم-/ لأقل تقدير-/ لا ينوون خيرا. ذلك، ولم يكن الإيجاس إلّا في البداية إذ صرّح بخيفة في النهاية كما في الحجر: «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» (52). ذلك وقد يروى أنه قال لهم كلوا فقالوا: لا نأكل حتى تخبرنا ما ثمنه؟ فقال: إذا أكلتم فقولوا: باسم اللّه، وإذا فرغتم فقولوا: الحمد للّه، فالتفت جبرئيل إلى أصحابه وكانوا أربعة رئيسهم جبرئيل فقال: حق للّه أن يتخذ هذا خليلا» «1». ذلك، وهنا «امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ» حيث «أقبلت امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» (51: 30). «فضحكت» متعجبة من عظم الموقف في بشارتها، فصكت وجهها منها. لذلك «قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» برسالة العذاب كما يدل عليها «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» وليس في المسرح صراح خبر من العذاب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 168 عن تفسير العياشي عن عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي هلال عن أبي عبد اللّه عليه السلام ... أقول: و هذه رواية أخرى تذكر قبل هذه الجملة طول القصة المذكورة من ذي قبل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 266

وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71). و تراها «ضحكت» ببشرى العذاب المستفادة من «أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ»، أم بشرى الولادة؟ قد تلمح «فضحكت» المفرعة على «إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» أنها ضحكت مستبشرة ببشرى العذاب، كما «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ» تؤخر بشرى الولادة، والضحك من التعجب حيث تعجبت من هذه البشرى عذابا ورحمة «1» وترى بعد «ضحكت» تعني حاضت؟ وقد يضحك الأدب الصالح من ذلك الضحك الكالح أن يعني الحيض! ثم لا رباط لحيضها ببشرى العذاب ولمّا تبشر بالولادة، فأية صلة بين بشرى العذاب وحيضها؟ «2». فيا للضحكة الحائضة من فاضحة واضحة ليس ليصدقها إلا من لا يعرف عن أدب اللفظ والمعنى شيئا ولا فيئا. ذلك، ولكن بشرى الولادة كانت قبل بشرى العذاب كما تبينها آيات الحجر: «وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ. قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 149 قال أبو جعفر عليهما السلام في سرد القصة «فضحكت» يعني: فتعجبت من قولهم‏

(2). البحار 12: 156 عن تفسير القمي دون إسناد إلى معصوم كما هودا به كثيرا ما، في سرد القصة: و جاءت سارة في جماعة معها فقالت لهم: «ما لكم تمتنعون من طعام خليل اللّه؟ فقالوا لإبراهيم: لا تؤجل-/ أي: لا تخف «إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» ففزعت سارة و ضحكت أي: حاضت و قد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل فقال اللّه عزّ و جلّ: «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ..» وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عزّ و جلّ: فضحكت: قال: حاضت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 267

الْمُرْسَلُونَ. قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ» (15: 60). فقد كانت بشرى الولادة قبل بشرى العذاب، وقد ضحكت امرأة إبراهيم قبلهما حيث تأخرت بشرى الولادة عن ضحكها «فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ» فلم يكن ضحكها-/ إذا-/ إلا لمجي‏ء المرسلين الحاملين بطبيعة الحال بشرى، والمترقّبة القريبة منها بشرى العذاب، كما المستبعدة الغريبة هي بشرى الولادة: قالَتْ يا وَيْلَتى‏ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73). «قالت» «بعد ما بشرناها ..» وهذه القولة هي طبيعة الحال من عجائز أمثالها لا سيما مع شيخوخة البعولة «قالت ء ألد وأنا عجوز» «وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً»؟ فكيف يأتي ولد من والدين عجوزين لا يأتي منهما ولد بطبيعة الحال، وهو عجيب-/ لو خلي وطبعه-/ حقا فالمرأة ينقطع طمثها عادة في حالة من سنيّها معينّة معنية بطبيعتها، فلا تحمل، ولكن لا عجب من قدرة اللّه وعنايته عجابا يستبعد معه وعده المحتوم. «قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» الذي نحمله بشارة بذلك الميلاد، وليس يعجز عن تحقيق أمره مهما عجزت العادة الجارية المستمرة في الإيلاد، وليس ذلك فوق ولادة المسيح دون والد ولا يساميها! فالعادة 350 تجري بأمر لا يعني أنها سنة لا تتبدل، وخارق العادة سنة متميزة خاصة في عامة السنة، وكلاهما مما سنّه اللّه. ثم و «رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» الرسالي، رحمة وبركة مميزة خارجة عن المتعودة الجارية، فكما الرسالة رحمة متميزة، كذلك مثل هذه الولادة متميزة عن سائر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 268

الولادات. «إِنَّهُ حَمِيدٌ» في رحمته وبركاته «مجيد» في عطياته. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75). هنا «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» إذ بشر بعذابهم من «أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» وقد تعني هذه المجادلة غير المجادلة، استرحام الاستعفاء عن هؤلاء المجرمين، علّهم يتوبون ويثوبون إلى ربهم «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ» في خلقه «أوّاه»: كثير الرجوع إلى ربه «منيب» إليه عما ربما يخطأ كمثل هذه المجادلة الملتجأة غير الملجأة. فالحليم الذي يحتمل أسباب الغضب وموجباته فيصبر ويتأنى ولا يثور، وهو يحتمل أن شفاعته عند ربه تفيد، والأوّاه: الذي يتضرع في دعاءه واستدعائه، يستدعي ربه متضرعا علّه يجيبه، والمنيب: المسرع إلى ربه مختجلا مما قصر أو قصّر علّه يعفو عنه، هذا الحليم الأوّاه المنيب أخذ «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» ومثلث المواصفات الجميلة مما يدل على أن هذه المجادلة لم تكن مجالدة، وإنما هي استبقاء إياهم إن أمكن. يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76). «أَعْرِضْ عَنْ هذا» الأمر، ل «إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» المحتوم بعذابهم، أمرا غير مردود، ثم «وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» إذ «لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الُمجْرِمِينَ» (6: 147) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 163 عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما جاءت الملائكة في هلاك-/ قوم لوط مضوا حتى أتوا لوطا و هو في زراعة له قرب المدينة فسلموا عليه فلما رآهم رأى هيئته حسنة و عليهم ثياب بيض و عمائم بيض فقال لهم: المنزل؟ قالوا: نعم، فتقدمهم و مشوا خلفه فندم على عرضه عليهم المنزل فالتفت إليهم فقال: انكم تأتون شرار خلق اللّه و كان جبرئيل قال اللّه له: لا تعذبهم حتى يشهد عليهم ثلاث شهادات، فقال جبرئيل: هذه واحدة، ثم مشى ساعة فقال: إنكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرئيل: هذه ثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق اللّه، فقال جبرئيل: هذه ثلاث ثم دخل و دخلوا معه منزله فلما بصر بهم امرأته أبصرت هيئته حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إليه حتى وقفوا بالباب فقال لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» ثم كابروه حتى دخلوا عليه قال: فصاح جبرئيل يا لوط دعهم يدخلوا، قال: فدخلوا فأهوى جبرئيل إصبعيه و هو قوله: فطمسنا أعينهم ثم قال جبرئيل: «إنا رسل ربنا لن يصلوا إليك»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 269

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77). هناك إبراهيم يوجس منهم خيفة حيث رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وهنا لوط «سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً» حيث يخاف عليهم قومه الهاتكين الفاتكين حيث يهرعون إليه «وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ»: شديد البلاء «1». و لأن الذرع هو مقايسة الأطوال، من أصل الذراع: العضو، حيث كان يقاس به، فضيق الذرع هو عجزه عن القياس، كناية عن انسداد كل الحيل عليه في ذلك المضيق العصيب، و كما قال «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (80). فهؤلاء الرسل على جمالهم المنقطع النظير، وهم بهيئة الذكور، إنهم بطبيعة الحال يضاق بهم كل ذرع، حيث تضيق على لوط كل المجالات للحفاظ عليهم، إذ جرب قومه أنهم هارعون لا يسدهم صاد، ولا يصدهم ساد عما هم إليه يهرعون، إذا: وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 344-/ أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: إن الناس كانوا أنذروا قوم لوط فجاءتهم الملائكة عشية فمروا بناديهم فقال قوم لوط بعضهم لبعض لا تنفروهم و لم يروا قوما قط أحسن من الملائكة فلما دخلوا على لوط عليه السلام راودوه عن ضيفه فلم يزل بهم حتى عرض عليهم بناته فأبوا فقالت الملائكة: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، قال: رسل ربي؟ قالوا: نعم، قال لوط: فالآن إذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 270

أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78). الهرع هو السوق بعنف وتخويف، ف «يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» بمعنى يساقون إليه بعنف وتخويف، و تجهيل الفاعل-/ وكأنه غيرهم-/ تبيين لخطر الموقف كأنهم يساقون إليه دونما إختيار منهم، والفاعل بطبيعة الحال هو الشره الغالب والفرح المت‏آلب وكأنهم ساقطون في أيديهم، منساقون إلى ما يهوون. «وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ» كلّها، هار عين إليها غارقين في أغوارها، وهذا هو الذي ساء لوطا بضيوفه وضاق بهم ذرعا، متوقعا يومه العصيب. لقد رأى لوط حمى حارقة من شهوة الجنس ووطأته في وجنات قومه الهارعين إليه، المندفعين إلى داره، يتهددونه في ضيفه بكرامته، فحاول في إيقاظ فطرهم، إيعاظا لحاجتهم الطبيعية المشروعة، ولم تكن حاضرة اللحظة الخطرة المستعجلة إلّا بنات له غير مزوجات فعرضهن للزواج‏ «1» بديلات عن ضيفه ف: «قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» من أولاء الذكور، تنازلا في أصل الطهارة «فَاتَّقُوا اللَّهَ» عن دنس اللواط المحرم في شرعة اللّه وشرعة الإنسان السليم، «وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» كمحظور ثان «أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» بأي رشد وإن كان إنسانيا مهما لم يكن شرعيا. أجل «هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» بكل معاني الطهر، نفسيا وحسيا حيث يلبين الفطرة النظيفة، نظافة فطرية خلقية دينية وإنسانية. ذلك، وقد يقال «بناتي» هنا تقصد أناث سدوم الخليّات، حيث الرسول في قوم هو أب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 379 عن الكافي عن علي بن إبراهيم بسند متصل عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول لوط عليه السلام: «هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» قال: عرض عليهم التزويج‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 271

لهم بل وأحرى منه، وقد يؤيده أن بناته عليه السلام ما كنّ كافيات لهؤلاء الجمع اللّهم إلّا اشتراكية و إباحية في الجنس وعوذا باللّه، ومن المعلوم المؤكد أن بناته لم يكنّ بعديد هؤلاء حتى يكون عرضهن لهم منعة عما ينوون، ولذلك لم يردوا عليه فيما ردوا أن عديدهن لا يساوي عديدنا. و عل الأرجح عناية الجمع في ذلك الجمع أن قصده من «بناتي» كافة البنات الخليات بمن فيهن بناته، وهنا تقطع كافة الأعذار من البين كما قطعت ولم يبق إلا عذر غادر غير عاذر: «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ». فلا حاجة-/ إذا-/ إلى نكران أن لم يكن له إلّا بنتان حسب التوراة، أم اللجوء إلى احتمالات أخرى، مثل أنه عرض بنتيه أو الثلاث أما زاد لتراوح الزواج بينهن! أو أن القصد إلى أزواجهم أنفسهم‏ «1»، فإن «ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ» تطارده، وعلّ تصديقهم ل «بناتي» وهم لا يصدقونه أبا للأمة، يخصصهن بخاصة بناته، عرضا لهن إلى زواج سليم، فإنها كل ما يملكه من قضاء شهوة الجنس ثم هناك حليلات أخرى يكفين بغية الحاجة للبقية الباقية. ثم ترى في عرض بناته عليهم للزواج وهم يطلبون الأدبار، لمحة أو دلالة على سماح إتيان النساء من أدبارهن؟ قد يقال: نعم لنفس الطلب‏ «2»، ولكنه لا حيث المطلوب من النساء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 157 عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن عمرو رحمه اللّه في قول لوط: «هؤُلاءِبَناتِي» قال: عنى به أزواجهم و ذلك أن النبي هو أبو أمته فدعاهم إلى الحلال و لم يكن يدعوهم إلى الحرام، فقال: «أزواجكم هن أطهر لكم ..»

(2). نور الثقلين 2: 387 في تهذيب الأحكام عن أبي الحسن عليه السلام سئل عن إتيان-/-/ المرأة من خلفها قال: أحله آية من كتاب اللّه عزّ و جلّ قول لوط: «هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» و قد علم أنهم لا يريدون الفرج‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 272

بطبيعة الحال المتعوّدة هو الفروج دون الأدبار، فحتى إن كان القصد عرضهن للزواج لأدبارهن فليس هذا إلا ترجيحا للأخف حرمة على الأشد. و لو أنها دلت على أصل الحل في أدبارهن فهو إذا من شرعة إبراهيم، والظاهر من الكتاب و السنة حرمتها كحرمة اللواط وكما فصلناه على ضوء «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (2: 233) حيث الحرثية فيهن ليست إلّا من طريق القبل دون الدبر، ثم إنه قطع السبيل، وكما في اعتراض لوط على قومه فيه «وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ». و هنا روايات عن الرسول صلى الله عليه و آله وعن الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه و آله تحرم إتيانهن من أدبارهن‏ «1». ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادي، ف «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (15: 73) فلا تلمس العظة الحكيمة الفطر المنحرفة المريضة، والقلوب الخائنة المقلوبة الآسنة، والعقول المعقولة بطوع الهوى الآفنة، حيث: قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79). «ما» هنا قد تعني كلا الموصولة والنافية، ف «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ» هو الفروج «و إنك تعلم ما نريد» من أدبار الذكور، فلم يبق في الدور مجال لنا في بناتك وغيرهن من أناث، أو ليس «لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ» إذ لا نشتهيهن، فالحق للإنسان هو فقط ما يريده لا مايحمّل عليه ولا يريده، ثم لا حق لنا فيما يخالف سنتنا حيث نأتي الرجال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المستفيض عن النبي صلى الله عليه و آله في التي يؤتى من دبرها: هي اللوطية الصغرى. وفي البحار 12: 167 عن تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت قال: سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام أيؤتى النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفلك اللّه ما سمعت اللّه يقول: أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 273

شهوة من دون النساء، ومن ثم لا حق لنا في بناتك وليست بيننا صلة الزواج، واحتمال أخير بناء على أن المعني من «بناتي» أزواجهم أنه «ما لَنا فِي بَناتِكَ» على الهزء منه «من حق» إذ لا نشتهيهن، وإنما لنا حق اللواط إذ نشتهيه. و تراه وهو يأمرهم بتقوى اللّه يعرض بناته للسفاح؟ وأيّة طهارة فيه حتى يكنّ هنّ أطهر مما هم يريدون! أم تراه يعرض لهم النكاح المحظور فإنهم كفار وبناته مسلمات؟ ولم تثبت حرمة المسلمة على الكافر في شرعة إبراهيم، كيف وقد كانت حلا له بداية الإسلام، فقد زوج النبي صلى الله عليه و آله بنتا له من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة، ثم نسخ بعدها. و لئن كان محرما في شرعة إبراهيم فهو أخف حرمة من اللواط، وفي دوران الأمر بينهما وحتى الزنا يرجح سائر المحرمات الجنسية على اللواط: قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ (80). «لو» هنا للترجي المتحسر والتحسر المترجي «أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أصدكم عما تنوون «أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» يصدكم عما تريدون، و «كم» هنا قد تعم الملائكة الضيوف إلى هؤلاء الهارعين. و هنا «آوي» متعدية قد تعني أن يؤوي ضيوفه الكرام إلى ركن شديد، لا-/ فقط-/ يأوي هو إلى ركن شديد، حيث المهمة الحاضرة هنا هي الحفاظ عليهم إذ القصد السوء موجّه إليهم، دون الحفاظ على نفسه إذ لم يقصدوه في نفسه. و تراه كيف يأوه لفقد قوة له أو مأوى ركين شديد؟ واللّه تعالى وتقدس له ركن شديد هو مأواه في رسالته وعلى أية حال!. علّه يعني من «قوة» قوته المعطاة من اللّه، ولم تكن له تلك القوة الظاهرة الظافرة، ثم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 274

يعني من «رُكْنٍ شَدِيدٍ» اللّه، حيث الانقطاع التام إلى اللّه والتوكل على اللّه ليسا إلا بعد تقديم كافة القوات التي هباها اللّه للمنقطع إليه، المتوكل عليه، وما أحسنه المروي عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «رحم اللّه لوطا كان يأوي إلى ركن شديد يعني اللّه تعالى .. «1». و قد تعني «رُكْنٍ شَدِيدٍ»-/ بين قوته في نفسه وقوة اللّه-/ عشيرته الغيّب عنه وكمايروى عن علي عليه السلام أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته، إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحدة وكفوا عنه أيديا كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم، حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلّا بحسبه وسأتلوا عليكم بذلك آية من كتاب اللّه تعالى فتلا: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» قال عليه السلام: «و الركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عليه السلام عشيرة فوالذي لا إله إلّا هو ما بعث اللّه نبيا بعد لوط إلّا في ثروة من قومه» «2». فلقد اسقط لوط في أيديه وأحس ضعفه وضغطه، وهو غريب بين قومه، نازح إليهم من بعيد لا عشيرة له تحميه‏ «3»، فانفرجت شفتاه بما انفجرت فقال ما قال، موجها قالته إلى الملائكة الشباب الصباح الوجوه «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أخلصكم بها عن هذه الحالة العصيبة، وإلى هؤلاء الهارعين «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» لأصدكم عما تنوون ولحلت بينكم وبين ما هممتم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 344-/ أخرج جماعة عن أبي هريرة في قوله: أو آوي إلى ركن شديد قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:.

(2). المصدر أخرج أبو الشيخ عن علي رضي اللّه عنه أنه خطب فقال: .. أقول: و ذيل الخطبة «فو الذي ..» مروي عن النبي صلى الله عليه و آله بطرق عدة و منها ما فسر فيه «رُكْنٍ شَدِيدٍ» ب «اللّه»

(3). البحار 12: 152 عن أبي جعفر عليه السلام أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط فقال: إن‏قوم لوط كانوا أهل قرية لا يتنظفون من الغائط و لا يتطهرون من الجنابة نجلاء أشحاء على الطعام و ان لوطا لبث فيهم ثلاثين سنة و إنما كان نازلا عليهم و لم يكن منهم و لا عشيرة له فيهم و لا قوم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 275

من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء، والحذف هنا أبلغ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء وغليظ النكال، ويصرف وهمه إلى ضروب العقاب ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات. ذلك، فليس مخرج قول لوط هذا على ما ظنه من لا معرفة له وقدح فيه بأنه لم يأو إلى اللّه سبحانه، لأن لوطا إنما أراد فيما أراد الأعوان من قومه والأركان المستند إليهم من قبيلته في اللّه وهو يعلم أن له معونة اللّه سبحانه أشد الأركان وأعز الأعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة في التكليف حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وقرب المعاضد والمرافد. ثم القصد من «آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» هو اللّه تعالى شأنه العزيز فإنه هو مأواه على أية حال، ولكنه أراده مأوى في خاصة حالته المزرية وماسة حاجته المردية، فقد آوى إليه فنجاه بما نجاه. فحين وصلت حالته إلى هذه المزرية الضارعة، الضائقة الفائقة الضيق‏ «1» وآوى إلى ركن اللّه الذي لا يتخلى عن أولياءه، كشف الرسل له عن ذلك الركن الحاضر ف: قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 387 في العلل بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أميرالمؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا عليه السلام فأمر أن ينادي الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال اللّه تعالى في محكم كتابه: لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة، قالوا: و من يا أمير المؤمنين؟ قال: أولهم إبراهيم-/ إلى أن قال-/: ولى بابن خالته لوط أسوة أن قال لقومه: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» فإن قلتم أن لوطا كانت له بهم قوة فقد كفرتم و ان قلتم لم يكن له بهم قوة فالوصي أعذر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 276

ل «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ» إليك فهم-/ إذا-/ «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» بسوء من الوصول إلينا بما ينوون، فهم «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» بأي إذى أو لظىّ وإساءة وفضيحة. و ترى كيف لن يصلوا إليك؟ أنه كما قال اللّه تعالى: «وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ» (54: 37) إذا ف «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» حيث لا يرونك ولا ضيفك، ولأنهم رسل ربك وليسوا ذكرانا من العالمين حتى يصلوا إليهم وصولهم إلى هؤلاء «1». ف «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ» تبشيرا بإهلاكهم عن بكرتهم، تقليصا لهم بأسرهم، وتخليصا لك عن أسرك بينهم «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ» كلهم «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» مظلما «وَ لا يَلْتَفِتْ» وراءه «مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ» حيث تلتفت راجعة إلى قومك فلا تمنعها، بل وألفتها ف «إنه» الشأن الشائن هنا هو أنه «يصيبها ما أصابهم» من الكفر والنكران، فمصيبها ما يصيبهم من عذاب الرحيم الرحمان و «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»؟. فالسري هو السير ليلا، فقطع من الليل علّه الليل الأليل وهو أظلمه، ثم «لا يَلْتَفِتْ» تعم الالتفات حين السري أم ضمنه، فقد تعني عدم التربص والتريث والتعويق إلى عدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 12: 166 عن أبي جعفر عليهما السلام قال-/ فيما ذكر من قصة لوط المفصلة-/: و قد تدافعوا على الباب فكسروا باب لوط عليه السلام و طرحوا لوطا فقال له جبرئيل: «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» فأخذ كفا من بطحاء فضرب به وجوههم و قال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط يا رسل ربي بما أمركم فيهم، قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: و ما حاجتك؟ قال: تأخذونهم الساعة، قالوا يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يؤخذ، فخذ أنت بناتك و امض و دع امرأتك، قال أبو جعفر عليه السلام رحم اللّه لوطا لو يدري من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حين يقول: «لو أن بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» أي‏ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة قال اللّه عزّ و جلّ لمحمد صلى الله عليه و آله: «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» أي‏من ظالمي أمتك إن عملوا عمل قوم لوط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 277

اللفتة إلى الوراء، ثم «أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» تفريج بهيج عن كرب لوط عليه السلام المكروب المنكوب إنعاشا لنفسه النفيسة عن هذه الحالة التعيسة البئيسة، تقريبا لموعد هلاكهم مع مطلع الصبح ثم يفعل اللّه بهم ما فعل بركنه الشديد الركين المكين كما آوى إليه من ذي قبل. فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83). «جاءَ أَمْرُنا» من الوعد إلى تحقيقه «جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها» وهو إلي عالي المدينة وسافلها، عالي أهلها حيث سفلوا عن علوائهم بالعذاب المهين، كما جعلت أعالي المدينة حيث مساكن أهليها الأعالي، جعلت أسافلها، ثم «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» نضدها اللّه لإمطار هؤلاء الأوغاد الأنكاد وأمثالهم «مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ» معلمة لهم «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ» أمثالهم «ببعيد» وحقيقة التسويم هي العلامات التي يعلم بها الفرسان والأفراس في الحرب للتمييز بين الشعارات، والتفريق بين الجماعات، وهكذا كانت فرسان العذاب لقوم لوط إذ كانت معلمة معلنة تختص بقبيل الظالمين حضورا ومستقبلين. أجل، ولا تختص هذه الممطرة المزمجرة المدمرة بهؤلاء الأنكاد البعاد، بل هي تعم كل الظالمين أمثالهم، فهي-/ إذا-/ قريبة غير غريبة، وتحت الطلب العادل، فعند الحاجة تطلق فتصيب أهليها. فيا لسدوم الصدوم من صدام صدّام مع رسول الحق، فصادمها عذاب من اللّه الحق، وليعلم الظالمون أنهم منكوبون لوقت مّا مقرر في حكمة اللّه «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»، أيا كانوا وأيان، وإن كانوا من الأمة المسلمة الأخيرة مهما اختلفت شكلية العذاب.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 278

عذاب قوم لوط

تذييل لما سبق وتقدمة لما يلحق بالنسبة للصالحين والطالحين، يتضمن نماذج من رحمة اللَّه وعذابه، ممثّلة في بشرى ابراهيم بغلام عليم، وإنذار قوم لوط واصحاب الأيكة والحجر وما حلّ بهم من عذاب اليم: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50). هنا نبأ الرحمة يتقدم نبأ العذاب جريا على أصله الموعود: «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» فهي تشمل المتقين، بطبيعة الحال، والطاغين إذا اقتضت الحال ان يثوبوا الى ربهم قبل فوات المجال، فما دام يصح الغفران عدلا او فضلا لم يكن للعذاب مجال، إلّا إذا كان الغفران ظلما بالمتقين، وعبثا للطاغين، وتسوية بين المحسنين والمسيئين. و النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة وعائدة جسيمة، فنبأ الرحمة فائدة لمن يستحقون الرحمة، و نبأ العذاب تحذير لهم عن التورّط في استحقاق العذاب، وحجة على الغاوين غير الآوين الى ربهم. و قد ينبئ «عبادي» ان محور الرحمة والغفران هو ربقة العبودية ابتداء من العقيدة وانتهاء الى العمل، فما لم يتحول عبد الشيطان الى عبد للرحمن لم يستحق تلك الكرامة الغالية. و نبأ الرحمة والغفران اضافة الى تقدمه ذكرا متأكد في البيان بمثلث التأكيد «أَنِّي-/ أَنَا-/ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» حيث اللام الداخلة على الوصفين لها دلالتها على تأكيد. ثم نبأ العذاب الأليم اضافة الى تأخره ذكرا لم يصرّح فيه بالنبإ إلّا عطفا على نبإ الرحمة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 279

ولا فيه ما في الرحمة إذ لم يقل: «اني انا المعذب ..» تدليلا على اصالة الرحمة ما أمكنت، و هامشية العذاب إذا وجب عدلا من أحكم الحاكمين. فهي-/ إذا-/ أرجى آية في الذكر الحكيم بعد آية الزمر: «قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَ أَنِيبُوا إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ» (54). آيتنا تلك تجعلنا بين الخوف والرجاء دون فوضى جزاف لا في الرحمة ولا في العذاب، وقد يعنيه المروي عن رسول الهدى «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه» «1». فليعلم العبد القدرين جميعا حتى يجمع نفسه متورعا من الحرام، غير قانط من رحمة اللَّه، لا مستهتر لا يرعوي، ولا آيس غوي. وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52). «هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ. فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ» (51: 28) «2». «و نبئهم» نبأ الرحمة الخارقة للعادة، البارعة لنبي الرحمة «عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ» الخليل،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 102-/ اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية. قال: بلغنا ان نبي اللَّه صلى الله عليه و آله قال: ... وفيه «اطلع علينا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الباب الذي يدخل منه بنوا شيبة فقال ألا أراكم تضحكون ثم أدبر حتى كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: اني لما خرجت جاء جبرئيل فقال، يا محمد ان اللَّه يقول لم تقنط عبادي: نبئ عبادي.

(2). راجع الفرقان 36: 324-/ 331-/ تجد فيه تفصيل القصة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 280

انباء مختصرا غير محتصر، فالذاريات بما معها من آيات تفصله تفصيلا «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ» فجأة دونما استئناس ولا تعريف بأنفسهم أمّا يقصدون، وإلا فكيف «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ»؟ فانما «قالُوا سَلاماً» وهو عليه السلام رد عليهم السلام «قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» لا نعرفهم!. و هنا نتأدب بالأدب الرسالي، وهو واجب تكريم الضيف وتقديم الإضافة الميسورة له مهما كان منكرا لا نعرفه ولم يستأنس معنا من ذي قبل. و «سلاما» بعد «قالوا» ليس فقط صيغة السلام، وإلّا كان «سلام» كما في جوابهم، فقد يكون: كلاما سلاما، او قولا سلاما ام اي سلام يحق على الوارد ان يقوله ومنه تحية السلام، وحتما كانت في قولهم سلاما، وإلّا لما كان له الجواب «سلام» و «عليكم» المحذوفة، وهنا نتأدب بأدب الدخول للضيف المكرمين مهما كانوا منكرين، ومنه واجب السلام قولا وفعلا «فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً» (24: 61). ثم «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» لم يكن إلّا بعد «سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» وبعد ما قدم لهم ما قدم «فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» (11: 70) وليكن إيجاس الخيفة والوجل مسنودا الى سبب ظاهر، دون انهم-/ فقط-/ قوم منكرون! فلا تحل اية تهمة على من لا تعرفه بسند انك أنت لا تعرفه، وحتى إذا صدر منه ما يخيف فلا توجس منه خيفتك، بل أظهر هاله مصارحا كما صرح ابراهيم: «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة محايرة بايجاس الخيفة، وقد تخلّف تبعات سيئة شئت ام أبيت. قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53). و نفس البشارة بهذه الخارقة الغريبة لمحة صارخة مصارحة انهم لم يكونوا بشرا، بل هم ملائكة يحملون وحي اللَّه اليه في هذه البشرى السارة «بِغُلامٍ عَلِيمٍ» ومن قبل في إسماعيل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 281

«فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ» (37: 107) وطبعا لا حلم صالحا دون علم. و في الصافات «وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (112) ف «عليم» هنا تعني علم الوحي النبوة؟ «وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ» (11: 71) «1». قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54). مس الكبر ضعفا في القوة جنسية وسواها من ناحية، وامرأته سارة «عَجُوزٌ عَقِيمٌ» (51: 29) من اخرى، عقم مثلث الزوايا بين الزوجين! هذا الذي يحيره في هذه البشارة «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» استبعادا لها عن صدقها، فعلهم-/ إذا-/ ليسوا ليحملوا وحي اللَّه في هذه البشرى، وكما هم في ظاهر حالهم ليسوا بملائكة! فقد لا تكون بشارة بالحق، فلم يكن-/ إذا-/ استغرابا من قدرة اللَّه، ولا قنوطا من رحمة اللَّه، فلما: قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55). صدّقهم حينذاك، ونفي عن نفسه القنوط ناسبا له الى الضالين، وهو من اهدى المهتدين. قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56). استفهام انكاري كتعريض بالملائكة، أتنسبوني الى القنوط من رحمة ربي وليس إلّا للضالين؟ فما كان استعجابي لبشراكم استبعادا رحمة ربي، وقنوطا منها، وانما ترددا هل إنها من ربي؟ وكيف اطمئن الى حالهم الملائكية من قالهم، طبعا هو بوحي من اللَّه، فما كان يعرفهم وهم في صورة البشر إلّا بوحي وقد انكرهم في البداية، ثم اطمئن الى بشراهم بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 20 و في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: و الغلام العليم هو إسماعيل من هاجر .. أقول و هذا خلاف نص الآيات في بشارة ابراهيم و لا سيما الاخيرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 282

عرفه اللَّه إياهم. فالضالون عن اللَّه هم الذين لا يستروحون روحه ورحمته، ولا يستشعرون رأفته ورعايته، فاما القلب الندي بالايمان، الموصول بالرحمن، فلا ييأس من رحمة ربه مهما كانت غريبة خارقة، ومهما كان هو في شدة مدلهمّة يغيب معها الأمل في ظلام الحاضر، ف «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الُمحْسِنِينَ» مهما كانت بعيدة عن المسيئين. فالقنوط من رحمة الرب خروج عن الحالة الوسطى الايمانية: بين الخوف والرجاء، وتهمة على الرب وسوء ظن به‏ «1» انه عاجز ام ضنين ام غير رحيم، فمهما كانت الرحمة غالية، والعبد غير لائق لها، ولكن الرب اهل للرحمة إذا كان العبد أهلا للرحمة، ف «الفاجر الراجي لرحمة الله أقرب منها من العابد القنط» «2» حيث الفاجر الراجي قد ينجو برجائه فيصلح، والعابد القنط لا ينجو مهما عبد فيفسد، فالقانط من رحمة ربه ضال عن ربه معرفة وعملا، إذ لم يعرفه بالقدرة والرحمة الواسعة، فلا يعمل عمل الراجي، إذا أذنب لا يرجو غفرانه، وإذا أطاع لا يرجو مزيده! وهكذا انسان ضال عقائديا وعمليا، واين ابراهيم شيخ المرسلين من هؤلاء الضالين؟. قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57). الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والحوار، وكيف عرف ان لهم خطبا غير ما بشروا؟ علّهم قدّموا أمورا بعدها تدل على أمر عظيم غيرها، فلذلك يسألهم استفهاما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 22 عن التوحيد للصدوق باسناده الى معاذ بن جبل حديث طويل عن النبي صلى الله عليه و آله يقول‏فيه: قال اللَّه يا بن آدم باحساني إليك قويت على طاعتي و بسوء ظنك بي قنطت من رحمتي‏

(2). الدر المنثور 4: 102-/ اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 283

واستعلاما بعد ما تأكد انهم مرسلون، وهم بدأوا ببشارة الغلام العليم، ليتهيأ الجو لبيان الخطب العظيم، حتى تخف دهشته، ثم وهذه البشارة يكفي لها منهم واحد، فلما ذا ذلك الجمع إلّا لخطب غيرها، مهما كانت هي منها. قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60). صحيح ان رسالة العذاب كانت على قوم لوط المجرمين، ولكن ابراهيم إمام عليه وعلى قومه، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وان يخبر أولا ماذا يقصد لقيادة جزئية وهنا بين المستثنى منه والمستثنى مقالة لإبراهيم إذ استوحش من عموم العذاب: «وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ.

قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (29:

32). (قالُوا إِنَّا .. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» (51: 34) أ ترى ابراهيم لم يحر كلاما مع ربه بعد ما سمع ذلك الخطب الجلل؟ اجل «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (11: 76). «قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا» كأصل في هذه الرسالة مهما حملت لك بشارة «إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» أجرموا وقطعوا ثمار الحياة الانسانية، حيث قطعوا أنسالهم بما تعودوا من إتيان الرجال «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ وتقطعون السبيل» وهذا من أنحس الإجرام. «أرسلنا»، «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ ..»، «إِلَّا آلَ لُوطٍ» وهم لوط وأهله الآهلون للنجاة من أقارب أم اغارب، وهم كل من آمن به «إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ» لا لقرابة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 284

ونسبة فلذلك «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ» الماضين في المستثنى منهم في «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ». و الغابر-/ لغويا-/ هو الماكث بعد مضي من هو معه، وهو هنا يعم مكوث العمر انها كانت «عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» (37: 135) ومكوث أمر الكفر حيث ظلت كافرة وقد مضى من معها من اهله عن الكفر وآمنوا به كلهم أجمعون، وكذلك غابر كلمة العذاب التي حقت على الكافرين. و «قدرنا» هنا يعم تقدير عمرها، وتقدير كفرها، ثم تقدير عذابها، تقديرا دون تسيير في أوسطها حيث اختارت هي الكفر: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» ثم الاخيرة هي من مخلفاته، وتقدير غابر العمر إملال وامهال لفسح المجال علّها ترجع عن غيها، ام تطول حجة اللَّه عليها فيطول عذابها جزاء وفاقا. ذلك عرض العذاب على آل لوط في لقياهم لإبراهيم وقد جادل وسمع الجواب. ثم من عند القائد الأعظم الى صاحب لواء في رسالته الجزئية ليخبروه بذلك الخطب: فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62). «آل لوط» هنا هم لوط واهله، وهو شخصيا محط لهذه الرسالة، لذلك هو الذي «قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» وهنا نصدق تماما أن «سلام على آل ياسين» يعني ياسين: محمدا وآله المعصومين، وكذلك سائر الآل إلّا ان تدل قرينة على خروج الأصل لاختصاصه كما نصلي على محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله. «وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (29: 33)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 285

و هذه دلالة منفصلة ان «منكرون» فيه ضيق ذرعه، ولكونهم بصورة غلمان مرد حسان وهو يعرف شأن قومه الشائن بحق الغلمان، لذلك طمئنوه من أنفسهم و «قالوا» ما قالوه. و قد يعني «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» فيما يعنيه، اني لست لأصدقكم فانكم غير معروفين، لذلك استدركوا و: قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (64). و هنا يصدّقون مرة ثانية في خطبهم بنفس النمط الذي صدقهم ابراهيم، إلّا ان هنا بين النكران والعرفان امرا فادحا إمرا: «وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ..» فلو كان يعرفهم عند مجيئهم لما استوحش قائلا «فَلا تَفْضَحُونِ» فانما عرفهم بعد ما خرجوا ام عنده ثم العذاب، فيا له من موقف حرج مرج امام هؤلاء المرسلين قبل ان يعرفهم، فهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه المجرمين، فجاءه التوكيد بعد توكيد يطمئنه «بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ». و «بالحق» هنا الوعد الحق على قومه، ثم امر الإسراء، وطبعا بعد ان عرفهم: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66). السري-/ كما فصلناها في الأسرى-/ هو سير الليل، ثم «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» يؤكد ليله ام ويعني أليل الليل وأظلمه، «قطع من الليل» من أواخره حيث العيون نائمة، والأجواء ناعمة ملائمة. «وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ» سرا في مؤخرهم أجمعين، لكيلا يبقى احد منهم إلا سائرا، او يتلكأ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 286

تلفّتا الى ارض الوطن لحاجة وسواها، فتفلتا عن موكب الخلاص، ام تثاقلا عن السرعة اللازمة، بل: «وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» الى الوراء نظرا فضلا عن وقفة، او رجعة «إِلَّا امْرَأَتَكَ» (11: 81) حيث المنظر المنتظر عاجل هائل قد يبعث لقطع الحراك، ام لفتور عن العراك «و امضوا» في ذلك السري ليلا «حَيْثُ تُؤْمَرُونَ» فان أمامكم هدي رباني، مهما كان إمامهم لوط أم رسل الوحي. هذا ولذلك الموكب الناجي بشرى القضاء على المجرمين، نجاتهم أولاء أجمعين: «وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ» لوط، وحيا صارما مقضيا لا قبل له «ذلِكَ الْأَمْرَ» العظيم الإمر وهو: «أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ» المجرمين «مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ» «... وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (11: 81) (فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (6: 45). و قطع دابرهم لا يعني-/ فقط-/ قطع حياتهم عن بكرتهم، بل وكل ما دبروه وادبروه من حاجيات الحياة، حيث «جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» (11: 82) فما أبقى ذلك الأمر لهم كيانا ولا كائنا إلّا دمّر. نرى السياق يقدم ذلك المساق لعظمه، بارعا للمؤمنين وقارعا للكافرين، ولكي لا يفاجأ القارئ بما يفجع من الحالة الهائلة لآل لوط لما جاء اهل المدينة الى ضيفه يهرعون: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67): «وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ..» (11: 78): يساقون بعنف وتخويف حيث هم سيّقة الشيطان، وهم «يستبشرون» بما تسامعوا من الضيف الواردين «يستبشرون» بالعثور على شبّان بمختلف الجمال الرائع فهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 287

إليهم هارعون. فاجعة فاجئة بشعة منقطعة النظير في تاريخ الحيونات والشهوات الشاذة، المريضة العريضة، اهل مدينة يهرعون مستبشرين الى بيت النبوة السامية ليرتكبوا ابشع الجرائم اللّاإنسانية بحق ضيف النبي الكريم، لا يكاد يتصور لو لا وقوعه!. فحتى لو كانت هذه العملية طبيعية او شرعية، يختجل الإنسان ان يأتي بها جهارا، وهؤلاء النحسون النجسون يتجمهرون للحصول عليها جهارا وهي ابشع الشذوذات الجنسية المتخلفة، حالة من الارتكاس والحمأة الحيوانية عديمة النظير، هم يتلمظون عليها، هارعين مستبشرين إليها!. و ترى «أَهْلُ الْمَدِينَةِ» هم كلهم رجالا ونساء وأطفالا؟ طبعا لا! إلا رجالا يأتون الذكران، و هم كلهم ام جلهم لحد يعبر عنهم ب «أَهْلُ الْمَدِينَةِ» دون «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ». فما هو دور لوط في هذه الجيئة الفجيعة، وليست له قوة ظاهرة قاهرة مدافعة؟: قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (69). «قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» (11: 78). هنا يستحث لوط حسّهم الإنساني، ويستثير رواسب المروءة والحياء «إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ» فللضيف حق تجب رعايته على أية حال، وللمضيف حق وجاه ضيفه ألّا يفضح ولا يخزى، فحتى لو كانت هذه العملية النكراء مباحة، فالتهجّم على بيتي وحمل ضيفي على ما يكرهون محرمة في شرعة الانسانية، وكيف يأمرهم بتقوى اللَّه وهم كافرون باللَّه؟ علّه لجوء 218 الى اقل قليل من معتقدهم باللَّه، انه اللَّه مهما كان له شركاء، و هذه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 288

العملية محرمة في شرعة اللَّه وفي شرعة الناس، فلا اقل من انكم من الناس، لكم ما لسائر الناس من عطف انساني وسنة متبعة عند الناس، ولا اقل انكم تعترفون باللَّه الذي حرم هذه العملية النكراء «فَلا تَفْضَحُونِ. وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ»! قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70). «قالوا ..» وهم يؤنبون لوطا بدل ان يتأنبوا، كأنما هو الجاني إذ خالف مناهيهم ومنها «عن العالمين» فالواو هنا تعطف الى محذوف من قبيل المذكور: الم ننهك عن الأمر والنهي فينا، و عن التطهّر بيننا وعن. «أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ» الذين نرغب فيهم ضيوفا لك وسواهم ان تمنعنا عنهم، ونهيناك ان تضيف أحدا من العالمين حتى لا نهرع إليهم عندك، إذا فأنت السبب في هذه الهجمة الجماهيرية إذ هيأت لها جوها، فأنت أنت المقصر في هذا البين ونحن الواصلون هنا الى بغيتنا!. قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71). «بناتي» طبعا هن من صلبه، دون تجوّز في التعبير ان يريد بنات المدينة كلهن، او الخليات من الأزواج، وتأكيدا للحقيقة قولهم «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ» (11:

79) فإنهم لم يكونوا ليؤمنوا ان اهل المدينة ولده تنزيليا كما قيل حتى تكون بناتها بناته حسب هذا القيل، إذا فهن بناته صلبيا دون ريب. ثم «إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ» تعني ان كنتم ولا بد فاعلين فعل الجنس فهؤلاء بناتي وقد خلقهن اللَّه لحظوة الجنس!. و ترى لوط النبي يعرض بناته ليفجر بهن الفجرة؟ عرضا لما هم عنه معرضون!: «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ» (11: 79)؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 289

كلا! انه عرض يلائم عرض النبوة السامية في ذلك المسرح المحرج المهرج، فحتى لو كان عرضا للسفاح لكان أهون مما هم يريدون من اللواط ولكنه-/ بطبيعة الحال-/ عرض للنكاح: «هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ..» (11: 78) ولا طهارة في السفاح فضلا عن كونه أطهر؟، اللهم إلّا ان يعني من «اطهر» هنا ادنى حرمة ودناءة، والتخفيف عن الحرمة هو من واجبات الداعية، وهو يعلم انهم لا يأتون إلّا حراما لواطا ام سفاحا لا حلالا ونكاحا. ثم إنكاح المسلمة للكافر وان كان محرما في شرعة الإسلام، ولكنه كان محللا قبلها، بل وفي بداية الإسلام قبل الهجرة وقد زوج النبي صلى الله عليه و آله بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة!، ثم حرم بآية البقرة «وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» وقد تلمح له آية الممتحنة «وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» (10) بالاولوية القطعية في تزويج المؤمنة بالكافر. و حتى لو كان محرما في شرعة ابراهيم-/ ولوط من أمته-/ لكان نكاحا محرما تكليفيا لا وضعيا وهو ادنى حرمة من السفاح، كما السفاح ادنى من اللواط، وفي دوران الأمر بين محظورين يؤخذ باخفهما، ولا ريب ان بناته ام سائر البنات المؤمنات هن أخف حرمة على أية حال من اللواط «1» ومما يلمح له عرض البنات للذين يريدون اللواط حلية إتيان النساء من أدبارهن ولا ناسخ لها في‏ «2» القرآن والسنة ليست لتنسخ القرآن، ولا فرق بين حكم القرآن صراحا اسلاميا، ام نقلا عن شرايع سابقة، في عدم تقبّل النسخ، إلّا أن ينسخه القرآن نفسه، ولا نسخ لجواز إتيان النساء من أعجازهن، وقد نسخت حلية التناكح بين المؤمنة والكافر، فآية لوط-/ إذا-/ منسوخة من هذه الجهة، كما نسخت حلية التناكح بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيله الى سورة هود فلا نعيد

(2). راجع آية الحرث في البقرة حيث رجحنا فيها الحرمة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 290

مؤمن ومشركة، فآية امرأة نوح وامرأة لوط منسوخة من هذه الجهة. و على اية حال انه هتاف للفطرة الانسانية مهما كانت دخيلة غير سليمة لعلها تستيقظ في هذا العرض لعرض النبوة السامية. و لكنما القوم المرضى هم غارقون في سعارهم وشعارهم المتهتك اللعين، ولحد القول: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72). فهم لا يفيقون ولا يسمعون هواتف الفطرة، وعواطف الانسانية، والشرعة الإلهية، لا! وحتى الفطرة الحيوانية السليمة، دائبون في سكرتهم، غارقون في سعرتهم «يعمهون» تشبيها للمتلدد في غمرات الغي، بالمتردد في غمرات السكر، حيث يترددون في غيهم، ويتسكعون في ضلالهم!. «لعمرك» هنا قسما بحياة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله يخصه في سائر القرآن دون سائر النبيين‏ «1» فهو فضيلة له خاصة لا يدانيه فيها ولا يساميه احد من العالمين، ولا نجد قسما إلهيا في القرآن بهذه الدرجة السامية إلّا «و ربك» فانها فوقه بغير حساب. «لعمرك» وأنت في أعلى عليين «انهم» وهم في أسفل سافلين «لَفِي سَكْرَتِهِمْ» بسعار حيواني، وثورة جنسية متخلفة في أسفل دركات البهيمية «يعمهون»: يترددون حائرين مائرين. و قد يعني العمر فتحا ما هو أوسع من العمر ضما، انه حياته صلى الله عليه و آله في كافة النش‏آت وليس لها انقطاع، فانه ممن شاء اللَّه ألّا يصعق في الصعقة العامة: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 102 اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: ما حلف الله بحياة احدالا بحياة محمد قال: لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون و حياتك يا محمد!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 291

السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68). أ ترى بعد انه خطاب للوط عليه السلام ولم يخاطب إمامه ابراهيم عليه السلام هكذا ولا إمامهما محمد صلى الله عليه و آله! فلعمره صلى الله عليه و آله إنه ليس «لعمرك» إلّا له، حيث الخطابات القرآنية هي بطبيعة الحال موجهة إلى الرسول صلى الله عليه و آله إلّا بقرينة قاطعة هي هنا فاقدة، بل ولا لمحة هنا لخطاب غيره، فلم يقل «قالوا» حتى يكون الخطاب من الملائكة وهو بطبيعة الحال في هذا المجال للوط عليه السلام وانما «لعمرك» دون «قال-/ أو-/ قالوا». و قد بدأت الإنباتات موجهة إليه صلى الله عليه و آله من ذي قبل «نَبِّئْ عِبادِي ..» «وَ نَبِّئْهُمْ ..» وكل ما هنالك فيما بعد هي مواد الإنباتات للرسول صلى الله عليه و آله والى قوله تعالى «لعمرك» فأين لوط ومن فوق لوط في ذلك المسرح مخاطبا ب «لعمرك»؟!. و ما يصنع لوط بهؤلاء السكارى العمهين «قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ..» «فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 83): فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِم‏حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74). «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» بعد ما أسرى باهله بقطع من الليل «مشرقين» داخلين هؤلاء الحماقى في شروق الشمس، وآل لوط عنهم بعيدون لا يرون العذاب ولا يحسونه!. فهنالك «الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» عذابا في البداية «فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها» تدميرا كاملا عن بكرتها، فما أبقت الصيحة عاليا إلا أسفله، ثم «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ»-/ فهل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 292

ترى لهم من باقية؟. و هذه الصيحة نموذجة يسيرة من صيحة الإماتة في قيامة التدمير، تجعل عالي المدينة سافلها، ولكي لا تبقى منهم باقية «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» وكما في اصحاب الفيل واضرابهم من اهل السجيل. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75). الوسم هو التأثير، والسمة هي الأثر، ف «المتوسمين» هم المتأثرون بتأثير، الناظرون المتفكرون المعتبرون، والمتفرسون‏ «1» المتبصرون «فأول المتوسمين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم امير المؤمنين عليه السلام من بعده ثم الحسن والحسين والائمة من ولد الحسين عليهم السلام الى يوم القيامة ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 4: 103-/ اخرج البخاري في تاريخه و الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن السنى وابو نعيم معا في الطب و ابن مردويه و الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور اللَّه ثم قرأ «إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» قال: المتفرسين وفيه اخرج الحكيم الترمذي و البزاز و ابن السنى و ابو نعيم عن انس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ان للَّه عبادا يعرفون الناس بالتوسم. وفي نور الثقلين 3: 24 عن بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام قال: ليس مخلوق الا و بين عينيه مكتوب مؤمن او كافر و ذلك محجوب عنكم و ليس محجوبا عن الائمة من آل محمد صلى الله عليه و آله ثم ليس يدخل عليهم احد الا عرفوه مؤمن او كافر ثم تلا هذه الآية: ان في ذلك لآيات للمتوسمين. و رواه مثله عن أبي عبد اللَّه عليه السلام: و في آخر عنه عليه السلام قال: نحن المتوسمون و السبيل فينا مقيم‏

(2). نور الثقلين 3: 24 عن عيون اخبار الرضا عليه السلام بسند عن الحسن بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون يوما و عنده علي بن موسى الرضا عليه السلام و قد اجتمع الفقهاء و اهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم فقال: يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باي شي‏ء تصح الامامة لمدعيها؟ قال: بالنص و الدليل، قال له: فدلالة الامام فيما هي؟ قال: في العلم و استجابة الدعوة، قال: فما وجه اخباركم مما يكون؟ قال: ذلك بعهد معهود إلينا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: فما وجه اخباركم مما في قلوب الناس؟ قال له: اما بلغك قول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور اللَّه على قدر ايمانه و مبلغ استبصاره و علمه، و قد جمع اللَّه للائمة مناما فرقه في جميع المؤمنين و قال عز و جل في كتابه العزيز: «إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» فأول المتوسمين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم .. قال: فنظر اليه المأمون فقال له يا أبا الحسن زدنا مما جعل اللَّه لكم اهل البيت، فقال الرضا عليه السلام ان اللَّه تعالى قد أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة، ليست بملك، لم تكن مع احد ممن مضى الا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و هي مع الائمة عليهم السلام منا تسددهم و توفقهم و هو عمود من نور بيننا و بين اللَّه تعالى. وفيه عن معاني الاخبار للصدوق-/ الهلالي امير المدينة يقول: سألت جعفر بن محمد فقلت له: يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في نفسي مسألة أريد ان اسألك عنها قال: ان شئت أخبرتك بمسألتك قبل ان تسألني و ان شئت فاسأل-/ قال فقلت له: يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و باي شي‏ء تعرف ما في نفسي قبل سؤالي عنه؟ قال: بالتوسم و التفرس اما سمعت قول اللَّه عز و جل: «إِنَّ فِي ذلِكَ لآَياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» و قول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور اللَّه. وفيه عن تفسير العياشي عن جابر بن يزيد الجعفي قال قال ابو جعفر عليه السلام بينما امير المؤمنين عليه السلام جالس بمسجد الكوفة قد احتبى بسيفه و القى برنسه وراء ظهره إذ أتته امرأت مستعدية على زوجها فقضى للزوج على المرأة فغضبت فقالت: لا و الله ما هو كما قضيت، لا و الله ما تقضي و لا تعدل بالرعية، و لا قضيتك عند الله بالمرضية قال: فنظر إليها امير المؤمنين عليه السلام فتأملها ثم قال لها: كذبت يا جرية يا بذية، أيا سلسلع أيا سلفع، أيا التي تحيض من حيث لا تحيض النساء، قال: فولت هاربة و هي تولول و تقول: يا ويلي ويلي ويلي ثلثا، قال فلحقها عمرو بن حريث فقال لها: يا امة الله اسألك، فقالت: ما للرجال و النساء في الطرقات؟ فقال: انك استقبلت امير المؤمنين عليا بكلام سررتيني به ثم قرعك امير المؤمنين بكلمة فوليت مولولة؟ فقالت: ان ابن أبي طالب و الله استقبلني فاخبرني بما هو كتمته من بعلي منذ ولى عصمتي، لا و الله ما رأيت طمثا من حيث يرينه النساء، قال: فرجع عمرو بن حريث الى امير المؤمنين عليه السلام فقال له يا امير المؤمنين عليه السلام ما نعرفك بالكهانة، فقال له: و ما ذلك يا بن حريث؟ فقال له: يا امير المؤمنين ان هذه المرأة ذكرت انك أخبرتها بما هو فيها و انها لم تر طمثا من حيث تراه النساء؟ فقال له: ويلك يا بن حريث ان الله تبارك و تعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بالفي عام و ركب الأرواح في الأبدان فكتب بين أعينها كافر و مؤمن و ما هي مبتلاة به الى يوم القيامة ثم انزل بذلك قرآنا على محمد صلى الله عليه و آله فقال: ان في ذلك لآيات للمتوسمين، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله المتوسم ثم انا من بعده ثم الأوصياء من ذريتي من بعدي، اني لما رأيتها تأملتها فأخبرتها بما هو فيها و لم أكذب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 293

و التوسم فرع الإيمان والتقوى، فهو درجات كما الايمان درجات ولحد القمة المحمدية صلى الله عليه و آله. فالتوسم في وجه عام هو التفرس للسر من العلن، وليس ليعلن لكل احد، وانما لمن ينظر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 294

بنور اللّه من المتفرسين، فالسيما وسم للمتوسمين كما يعرف الفقراء غير السائلين: «تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً» (2: 273) وكما يعرف غير المؤمنين في لحن القول: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ. وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ» (47: 30) كما «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» (7: 46) و «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (48: 29).

فكل من سيما الخير وسيما الشر لأهليهما بارزة للمتوسمين، وقد يتفرس المتوسمون دون رؤية الى سيماهم، وذلك اسمى التوسم لأسمى المتوسمين «وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ». و تلك بصيرة لمن يخرق حجب النور بعد خرقه حجب الظلمات، فليس جدار الظاهر حاجبا له عن رؤية الباطن، والتوسمات درجات حسب الدرجات، كما الغفلات دركات حسب الدركات. ثم «ذلك» هنا هو الأمر البعيد المدى، عالي الصدى، وهو مثنّى البشرى، بشرى الغلام العليم لإبراهيم، وبشرى العذاب العظيم على قوم لوط المجرمين، آية لتحقيق الحق، وآية لإبطال الباطل، وفيها آيات عقلية وفطرية وواقعية، يتفرسها المتوسمون على قدر أوعيتهم بوعيهم، وواقعية الآيات في بشرى ابراهيم وبشرى العذاب، واقعة بسبيل مقيم. وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76). ففي إبراهيم نسله الميمون من ولديه إسماعيل وإسحاق، ولا سيما النسل المحمدي الإسماعيلي، ثم سائر الرسل الابراهيميين من إسحاق ويعقوب. فهذه الآية المباركة منذ ابراهيم مستمرة على مدار الزمن الرسالي، مقيمة بسبيل الرسالات و إلى القايم المهدي عليه السلام الذي يحمل كافة الرسالات ويطبقها في دولته المباركة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 295

العالمية. وقد يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام: «نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم» «1» و هو السبيل الرسالي مهما لم يكونوا هم من المرسلين، و «لا يخرج منا ابدا» «2» إذ لا نبي بعد محمد ولا أئمة بعدهم فالى اين يخرج ذلك السبيل؟ و «السبيل طريق الجنة» «3» إذ لا سبيل إليها إلّا دعوة الرسالة والولاية. و اما الآيات في قوم لوط، ومنها العلامات الدالات على واقع الواقعة المزمجرة المدمرة، من بقايا الآثار «إِنَّها لَبِسَبِيلٍ» للعابرين «مقيم» سبيل هو مقيم لم ينمح بعد ولم يعف اثره، فالذين يمرون بين الحجاز والشام يشاهدون تلك الآيات، فان قرى لوط هي في طريق مطروق بينهما، والسبيل الى الحجاز مقيم ما قام الإسلام، وهي بنفس السبيل. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77). هناك «في ذلك آيات للمتوسمين» وهنا «لآَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» علّه حيث التوسم ظرف للتعرّف الى آيات وهو لبالغي الايمان، واما الايمان-/ فقط-/ أيا كان، فلأهله «آية»: ان اللَّه «يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ». و لكنما «المتوسمين» تشمل كافة المؤمنين، لأنهم درجات كما هم، إذا ف «آيات» هي واقع العلامات، و «آية» هي الدالة تبشيرا وإنذارا مهما قلت او كثرت، تعددت ام تفردت.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 3: 22 عن اصول الكافي احمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد اللَّه الحسني عن ابن أبي‏عمير قال اخبرني أسباط بياع الزطي قال: كنت عند أبي عبد اللَّه عليه السلام فسأله رجل عن قول اللَّه عز و جل: ان في ذلك لآيات للمتوسمين «و انها لسبيل مقيم» قال:.

(2). المصدر بسند عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في الآية فقال: هم الائمة و انها لبسبيل مقيم قال: لا يخرج منا ابدا

(3). المصدر عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: نحن المتوسمون و السبيل فينا مقيم، و السبيل طريق الجنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 296

وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79). «وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ» (50: 14) (كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» (26: 178) (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (190)، فأصحاب الأيكة هم من قوم شعيب ف «ان مدين واصحاب الايكة امتان بعث الله إليهما شعيبا» «1» و الأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف بعضه ببعض، إذ كانوا يسكنون في بقعة كثيفة الأشجار ومتلفتها، وقد ذكر مدين في آيات عشر ولم يذكر اصحاب الايكة إلّا في اربع دون ان يذكر هنا شعيب إلّا هنالك مما يدل على ان المحور الرئيسي لدعوته هم مدين وعلى هامشهم اصحاب الأيكة، ولكلّ عذاب خاص، فأولاء لهم «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» وهؤلاء اخذتهم الصيحة. و عل «ان» هنا شرطية ام وصلية «إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ»-/ «وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ» فسبيلهم كقوم لوط مقيم «فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ» كما من أولاء «و انهما» معا «لَبِإِمامٍ مُبِينٍ» وهو السبيل الممر، فهما في سبيل واحد بين الشام والمدينة وهذا «امام مبين» ثم إمام في الاخرى هو كتابهم الذي يؤتونه بشمائلهم، وهو رسلهم الذين يعرضون عليهم وعلى كتاباتهم، وهو أئمة الضلال: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ» وكل ذلك مبين في حقه وباطله، في أولاه وأخراه. وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 4: 103 اخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمرو قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ان مدين واصحاب الايكة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 297

الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود قوم صالح، فهم ثمود المذكورون في القرآن (26) مرة، مما يدل على مدى طغيانهم وعذابهم، فلذلك تتسمى هذه السورة باسم واديهم دون الطغاة الآخرين المذكورين فيها! وكيف هنا وفي اصحاب الأيكة «كذب المرسلين» ولكلّ رسول واحد معروف؟ لأنهم كانوا مكذبين بالرسالة الإلهية عن بكرتها، كانت مع شعيب ام صالح امّن هو، إذا فتكذيبهم برسول واحد تكذيب المرسلين أجمعين، وهناك بين المكذبين من يصدقون رسولا ام رسلا ويكذبون آخرين. و لان الرسالة الإلهية ذات طبيعة وسنة واحدة، ففي الحق تصديق بعض وتكذيب بعض لا يساعد حق الرسالة، فالمؤمنون ببعض وهم كافرون بآخرين، في الحق هم كافرون بالكل، مهما كانوا حسب الظاهر مصدقين بمن يشتهون. و لكنما الكفر الصراح بأصل الرسالة هو انحسه وأنجسه كما في اصحاب الايكة واصحاب الحجر، ولذلك يفرد تكذيبهم المرسلين بالذكر، دون المصدقين بعضا. وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81) والإعراض عن آيات الرسالة اعراض عن الرسالة ككل دونما تبعيض، و «آياتنا» هنا تعني خاصة الآيات التي تصلح لهم وتصلحهم دون آيات الرسالات كلها، ام إن آية واحدة لرسالة هي آيات الرسالات كلها، لأنها كلها ذات دلالة واحدة، مهما اختلفت صورها، حيث السيرة واحدة. وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82). حيث كانوا يسكنون غيرانا مصطنعة زعما منهم انهم آمنون عن بأس اللَّه «أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ. وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ» (26: 149).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 298

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84). لمحة لامعة خاطفة، من الأمن في الغيران الصلبة في صلب الجبال، الى الصيحة المصبحة المدمرة المزمجرة، دون ان يغني عنهم ما كانوا يكسبون من حياد وحائطة .. انها مما تلمس القلوب لمسة عنيفة، وتذكر اصحاب القلوب ان كل شي‏ء لا محالة ذاهب ضائع، فلا وقاية من بأس اللَّه إلّا وقاية تقوى اللَّه.

لوط عليه السلام‏

سورة النمل (27): الآيات 54 الى 58 وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) عرض خاطف عن لوط وقومه بدء ختم في معارض الغابرين: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً .. وَ لُوطاً إِذْ قالَ ..» فصالح يدعوا في مفتتح دعوته إلى عبادة اللَّه حيث التخلف البارز فيهم كان هو الإشراك باللَّه، ولوط ينهى عن الفاحشة، لأنها كانت هي التخلف البارز فيهم مهما كانوا من المشركين. فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة في تأريخ الشهوات الجنسية، أن يصبح كقاعدة مطردة بين قوم، بدلا عن إتيان النساء المفطور عليه كل من القبيلين، فقد يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلهية في حالات استثنائية كثكنات الجيش التي ليس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 299

فيها نساء، أو السجون الطائلة، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية، فيميل الذكور لإتيان الذكور، وأما ان يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء، فهذا هو الحادث الجلل في تأريخ الإنسان، البارز بأبشع صوره في قوم لوط المجرمين. «.. أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ» العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها، متجاوزة عن الشهوة الفطرية المتعودة إلى المتخلفة عنها، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى، العميقة الردى، و متجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حلا، إلى أوساط النوادي جهارا بكل إصرار ودون أي‏إسرار، وهذه كلها معنية من هذه «الفاحشة» لأنها المتجاوزة في العصيان المتعود حدّه. «أَ تَأْتُونَ .. وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» انها فاحشة خلاف الفطرة وخلاف الشرعة الإلهية، «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» خلفياتها البغيضة الحضيضة خلقيا وجماعيا وإهلاكا للنسل والعائلة «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» أن أهل نوادي الفاحشة ينظرون إليكم وأنتم تفعلون ما تفعلون «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ..» (29: 29)؟، وإتيان الفاحشة بمختلف الإبصار هكذا، وبمسرح الأبصار، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة. فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنبات عدة من الفاحشة، التجاوز عن النساء إلى الرجال، والتعود في ذلك التجاوز كقاعدة مطردة، وإبرازها في ملإ النوادي، مما يجعله فاحشة منقطعة النظير «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» مهما لحقهم من لحقهم من انجلترا وسواها الذين سنّوا حلّها في مجالسهم النيابية! «... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» أمن الجهل بمدى الفحشاء؟ «وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» تطارد جهلهم! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة وهم مبصرون تجاهلا عنها بنزوة الشهوة الطائشة العمياء، ومن جهالتهم الجهلاء الخواء، كخلفية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 300

لدعوة صالحة مصلحة من لوط: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ 56. و «آل لوط» هنا هم لوط نفسه بالرساليين المؤمنين معه، لا فقط آل النسب أو السبب حيث الأقرب منهم سببا وهي زوجته «قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» فلم تكن هي من آله فيما «قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ..» إذ لم تكن 228 من «أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» إذا فهم الأناس المتطهرون، ف «آل لوط» هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها، أنسباء كانوا وأقرباء أم بعداء وأغرباء. و لماذا «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ»؟ ل «إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» تهكما ساخرا بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة، دونما أي‏رادع ولا مانع، فمجرد وجود المتطهرين-/ وإن لم ينهوا عن هذه العملية-/ إنه ينغصّ عيشتهم المتخلفة. و التطهر تكلف في الطهارة، فقد يكون صادقا فليكن، أو قد يكون كاذبا ف «اخرجوا ..»

إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين، حيث أصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كأنها هي القاعدة في حظوة الجنس، إذا فآل لوط هم أناس يتطهرون، لا يصلحون للمقام بيننا تكديرا لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا. «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ» لا آله فإنهم أخص-/ كما بيناه-/ من أهله، حيث يشمل امرأته دون آله «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها» على قدر تخلفها عن بيت الرسالة «مِنَ الْغابِرِينَ»: الماكثين بعد مضي ما هو معهم من دعوة الحق وشقوة الباطل، دون ان يهتدوا إلى هداهم، فحقّ عليهم أن يقدّروا «مِنَ الْغابِرِينَ» الماكثين في عواقب اعمالهم، ومنها هنا «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 301

مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» وكما أمطروا في حياتهم الجهنمية أمطار السوء والبلاء، فقد بدلوا مياه النطف لإحياء النسل، ذريعة لإماتة النسل وإماطة حق العائلة، وكذلك اللَّه بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة «فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ»!. أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ 165. «أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ» تنديد شديد بإتيانهم، و «مِنَ الْعالَمِينَ» قد تتعلق بالآتين، أنكم أنتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين: «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» (7:

80) وأخرى بالماتيين، فقد تلمح-/ إذا-/ «مِنَ الْعالَمِينَ» دون «الناس» لعالم الجن، وان قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم، والمعنيان-/ علّهما-/ معنيان ولكلّ وجه، مهما كان الثاني أوجه. وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ 166. و ترى «من» هنا بيانية تبين «ما خَلَقَ لَكُمْ»؟ والصيغة الصالحة لها «أَزْواجِكُمْ» أو «المخلوقة لكم»! أم تبعيضية تعني عضو الجنس من الأزواج؟ وصيغتها السائغة لها «فروج أزواجكم»! إنها قد تعنيهما بيانا وتبعيضا، والثاني لا يخص القبل، بل والدبر ايضا مهما كان الأصل الصالح هو الأوّل، ولو كان إتيان أدبارهن محظورا لما اختص التنديد بإتيان الرجال، وأما إذا اختص الرجل إتيان زوجه بدبرها تاركا لآلخر ففيه بحث آخر قد نفتي بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة بإتيان القبل. و قد تلمح «ربكم» ان قضية الربوبية الخلّاقة، المقتسمة الناس إلى قسمي الرجال والنساء، اختصاص إتيان الجنس بالنساء، وأما الرجال مع الرجال لواطا أمّا هو، أو النساء مع النساء مساحقة أمّا هي، فذلك تعد عن طور الخلقة وحكم الفطرة ومصلحة الولادة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 302

المقصودة بالزواج «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ» صالح الربوبية، عادون قضيته الفطرة السليمة، عادون الحق المشترك بين الرجولة والأنوثة إلى المجانس. فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال شهوة من دون النساء: «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (27: 55)-/ (.. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» (7: 81) (أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ..» (29: 29). فذلك الإتيان المتخلف جهالة وإسراف وتعد عن طور الفطرة الإنسانية وخلقتها، وقطع لسبيلها التناسلي أو العائلي!. و اما إتيان النساء شهوة قبلا أو دبرا أما ذا؟ فلا محظور فيه لأنهن خلقن للرجال:

«نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (2: 223) مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية، ولكن الأخرى ايضا هي على هامش الحرث، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث ولكن الأشبه الحرمة. فقد برأ «ربكم» الذكر للأنثى والأنثى للذكر، وفطر كلا منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقا للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل، فكلما يدفع لتعطيل التناسل كأصل، هو خارج عن أصل الحل، سواء أكان لواطا أم مساحقة، أو عادة سرية، أو إتيان حيوان أو إفراغا للمني أو استعمال واسطة أمّاهيه من السبل القاطعة للنسل، اللهم إلّا في موارد استثنائية إلّا المنصوص على حرمته إطلاقا كالأربعة الأولى، أم أحيانا كإفراغ المني عن الزوجة الدائمة دون رضاها ولا محظور، أو الإفراغ دائما عن القبل، ام إتيانها دبرا كذلك مهما كان برضاها ودون محظور، فانها تخرج بذلك عن كونها حرثا عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 303

بكرتها. و من المحظور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة وسواها، إلّا إذا لزم الأمر ترجيحا للأهم على المهم. فكما ان إتيان الذكور لواطا لا يرمي لهدف صالح، ولا يحقق غاية إنسانية، كذلك إتيان النساء النساء، والعادة السرية ككل، وعلى الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت. و هنا في «أَ تَأْتُونَ .. وَ تَذَرُونَ» لمحة لامعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتها، فمبادلة ترك الزوجة بإتيان غيرها محظور، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحظور. و في إهلاكهم لفعلتهم لمحة إلى عذابهم المستحق بها وهو القتل كما هو الثابت في باب الحدود، وما كان جوابهم عن ذلك التنديد الشديد القرين ببيان الحكمة إلّا أن: قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الُمخْرَجِينَ 167. إخراجا من قرية الدعوة بكل إحراج، دون عودة إلا بانتهاء الدعوة: «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (27: 56)، ويتبين هنا ان آل لوط-/ وهم لوط والمؤمنون به أقارب وأغارب-/ كانوا يشاركونه في الدعوة، وكما لمحت لها «مِنَ الُمخْرَجِينَ» دون «مخرجا» تهديدا لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها وفصلها، ثم الجواب: قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ 168. مقالة تظهر البراءة القاطعة عما كانوا يعملون، أبراءة في القلب حيث هدّد بالإخراج؟ لو كانت هكذا لما «قالَ إِنِّي ..»! بل هي استمرارية لقالة النهي والتنديد، ثم استنصار من اللَّه تعالى:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 304

رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ 169. و «اهلي» هنا ليسوا هم-/ فقط-/ أقاربه وأنسبائه بل هم الآهلون للنجاة من المؤمنين معه، أقارب وأغارب، ولذلك لم يستثن عجوزه في الغابرين! وليس «فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (51: 36) لتدل على أهلية النسب والسبب فحسب، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضي جمعية المسلمين معه في بيت واحد وهم قلة قليلة، ثم عجوز البيت ما كانت من المسلمين. «نَجِّنِي وَ أَهْلِي» من مسئوليات وخلفيات ما «يَعْمَلُونَ» أداء لواجب الدعوة دون تساهل و تغافل، ونجاة من أن يمسوا أهلي بسوء ما يعملون، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكرمين زعما منهم أنهم غلمان، ونجاة من ان يشملهم عذابهم بينهم فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ 170. «نجينا ..» من ثالوث العذاب، وقد صرح بثالث ثلاثة وهو استئصالهم عن بكرتهم و: إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ 171 ثُمَّ دَمَّرْنَا الآْخَرِينَ 172. دليل على أن النجاة ليست فقط عن التدمير، بل وعن كلما كان يخاف منهم، و «عجوزا» هي امرأته المتخلفة عن شرعته وهداه، والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، وكانت هذه العجوز ماكثة في كفرها بعد مضي ما معها من الدعوة الرسالية. ف «الغابرين» هنا هم الماضون في كفرهم دون رجوع: «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» (27: 58) لأنها-/ رغم كونها امرأة لوط-/ كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية. و ترى كيف «دَمَّرْنَا الآْخَرِينَ» وهم غير أهله أجمعين وفيهم نساء لسن يقترفن ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 305

اقترف الرجال، وأطفال من القبليين غير مكلفين؟. النساء البريئات من هذه الوصمة ما كنّ البريئات من الإدمان على الشرك والتكذيب بالرسالة، فليشملهن مطر العذاب، وأما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار-/ إن دمروا-/ عذابا وكما سائر العذاب استئصالا وتدميرا، الشاملة للمذنبين والبريئين. وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ 173. إنه مطر سوء وليس مطر الماء الخير، لأنهم منذرون ومتصلبون على الكفر: «فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» (15: 74). ج سورة الشعراء (26): الآيات 176 الى 191 ج‏كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (179) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الُمخْسِرِينَ (181) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) تأتي «أَصْحابُ الْأَيْكَةِ» في أربع هذه منها، و «الأيكة» شجر ملتف، وأصحاب الأيكة نسبوا إليها وهي غيضة وريفة من الأشجار كانوا يسكنونها وهي بلدتهم، ورسولهم شعيب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 306

فيمن أرسله إليهم من أهل مدين وهم الأصلاء وهؤلاء فروع ف «وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً» (7: 85) إذ كان منهم، وهنا «إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» دون «أخوهم» إذ لم يكن منهم‏ «1» وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة. و لقد كانوا مخسرين الناس، يبخسونهم أشيائهم، عاثين في الأرض إفسادا، فلذلك بزغت الدعوة الأصلاحية من صالح وفقا لحالتهم البئيسة كما هي سنة الرسالات المستمرة. فهنا أوامر ونواهي ثلاث في ناحية هذه الدعوة المصلحة، بعد ان طمأنهم برسالته الأمينة: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الُمخْسِرِينَ 181. فالكيل بين واف وطفيف وزائد، إيفاءه واجب، وطفيفه محرم، وزائده راجح، وهنا أمر بواجب الإيفاء ونهي عن محرم التطفيف والإخسار، ولأن الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون: وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ 182. و هو الميزان أيا كان، واستقامته هو اعتداله في الوزن، وقد يكون القسطاس مستقيما والوزن غير مستقيم، فليكن «المستقيم» وصفا لكلا الوزن والقسطاس، ثم ونهي يحلّق على كل إخسار وبخس كيلا أو وزنا أم أيا كان في المعاملات الجماعية اقتصادية وثقافية و سياسية وأخلاقية أمّاهيه: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ 183. و البخس هو النقص، و «أشياءهم» تعم كل أشياءهم في مخمّس النواميس وملحقاتها:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 24: 163 و في الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل إليهم و إلى اصحاب الأيكة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 307

نفسا ودينا وعقلا ومالا وعرضا، فالبخس إياها محرم، وتركها تخرم أيضا محرم، ومحاولة التعاون في كمالها راجحة أم واجبة، فإخسار الكيل واعوجاج القسطاس وبخس أشياء الناس إفساد، والعبث في الأرض إفسادا وهو السعي فيه إفساد على إفساد، في أية ناحية من واجب الصلاح والإصلاح من النواميس الخمس. فالإفساد الاقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد، ينهى عنه كما ينهى عنها في سائر الشرائع الإلهية، إصلاحا للحالة المعيشية التي تلعب دورا عظيما في صالح الناس، وإبعادهم عن شر النسناس الخناس. و أخيرا يستجيش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم كما بدأ، تذكيرا لهم بخالق الخلق أجمعين: وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ 184. «الجبلة» هي الخليقة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التي فطر الناس عليها، فهي كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، فمهما تحرك من الإنسان أيّ من أشياءه عقلا وعلما وجسما، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول. فالمؤمنون من الأوّلين كانوا يتقون، والمتخلفون منهم عن شرعة اللَّه هم المتخلفون عن جبلتهم فلما ذا قفوا آثارهم، فأنتم على آثارهم تهرعون؟! قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ 185 وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ 186. صيغة مطردة مكرورة بين المكذبين برسالات اللَّه، كأنهم تواصوا به! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشريطة تدار على أسماع الدعاة إلى اللَّه. و لا فحسب التكذيب، بل والتحدي بأن يأتوا بعذاب اللَّه إن كانوا صادقين:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 308

فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 187 قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ 188. «رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ» فلست أنا ولا أنتم، وهو أقدر أن يأتيكم بعذاب، وما أنا إلّا رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب ولا كمّه ولا كيفه «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» (46: 23). فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي، فانها رسالة وليست ألوهية تقتضي القدرة على إتيان العذاب، ولا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعي استجلاب العذاب. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 189. هنا عذاب يوم الظلة ولمدين الصيحة: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثمين» (11: 94). إذا فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن اصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة إليهم واحدة فما هي-/ إذا-/ الظلة؟. يقال هي السحابة المطلّة عليهم المظلة، وهم يحسبونها مظلّة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور «1»، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظلّة فاستظلوا بها فوجدوا لها بردا، فإذا هي تمطر عليهم نارا، أم صاعقة مجلجلة تفزعهم فدمرتهم تدميرا «2»، وعلى أية حال ليس هنا في النص إلا «يَوْمِ الظُّلَّةِ» ولا بد انها ظلة سماوية كما «نَتَقْنَا الْجَبَلَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 64 عن تفسير القمي «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» قال: يوم حر و كائم‏

(2). المصدر في «يَوْمِ الظُّلَّةِ» بلغنا و اللَّه اعلم انه أصابهم حرّ و هم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من‏قبل السحابة التي بعث اللَّه عز و جل فيها العذاب فلما غشيهم اخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين و هم قوم شعيب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 309

فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» (7: 171) ولكنها ظلة تدمير وذلة و «إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» توحي بانه كان شعبة من عذاب الجحيم‏ «1». ذلك شطر من قصص الرسل والمرسل إليهم، السبعة، وما واجهوهم من التكذيب، وقبلها كلها «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ».

شعيب (ع) في رسالته‏

السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى اللَّه شعيبا والذين آمنوا معه. وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 5: 93 عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة: أرسل اللَّه عليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة ايام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم و غلت مياههم في الآبار و العيون فخرجوا من منازلهم و محلتهم هاربين و السموم معهم فسلط اللَّه عليهم الشمس من فوق رؤسهم فتغشتهم حتى تقلقلت في جماجم و سلط اللَّه عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم انشأت لهم ظلة كالسحابة (1). نور الثقلين 2: 51 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليهما السلام حديث طويل يقول في آخره: و ان الأنبياء بعثوا خاصة و عامة، أما شعيب فإنه أرسل إلى مدين و هي لا تكمل أربعين بيتا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 310

رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89) وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ (93) وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (95) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) هنا آيات تسع تتحدث عن رسالة شعيب وما واجهه به قومه وما نقم اللّه به منهم «فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ». يذكر شعيب في إحدى عشر آية بست سور، وهنا تفصيل أكثر وبيان أوفر لرسالته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 311

ببيعته وملابساته، وشعيب هذا من الرسل الإبراهيميين وقد زوج إحدى ابنته موسى عليه السلام حيث فر إلى مدين وبقي معه عشر سنين ثم «جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏». و الرسالة الشعيبية كانت محصورة في مدين وهي قرية صغيرة يروى أنها «لا تكمل أربعين بيتا». و لكنها قد تنافي «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ» (87) حيث الأربعين ليست كثيرة لأهل قرية، اللهم إلا أن تعني «البيت» القبيلة التي قد تكون من م‏آت الأفراد. ثم في أصحاب الأيكة: «كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ. وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الُمخْسِرِينَ. وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ. قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ ... قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (26: 176-/ 190). رسالة محصورة في هذين، محسورة عن سائر القوى، إذ لم تكن تحمل ولاية عزم تحلق على كل القرى. ذلك ولقد بلغ من بالغ دعوته في رسالته أن يقول فيه الرسول صلى الله عليه و آله: «ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يرادهم به ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 103-/ أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم عن ابن إسحاق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة أن رسول الله صلى الله عليه و آله كان إذا ذكر شعيبا قال: ذاك .. فلما كذبوه و توعده بالرجم و النفي من بلاده و عتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة فبلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن حلهاء لما رآها قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا قوم ان شعيبا مرسل فذروا |  | عنكم سميرا و عمران بن شداد |
| إنى أرى عينه يا قوم قد طلعت‏ |  | تدعو بصوت على صمانة الواد |
| و انه لا يروى فيه ضحى غد |  | إلا الرقيم يمشي بين أنجاد |

و سمير و عمران كاهناهم و الرقيم كلبهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 312

و هنا بين القريتين مشاركات في دعوته الرسولية هي: الدعوة إلى عبادة اللّه وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وترك الإخسار والبخس والإفساد في الأرض، ثم ومفارقات هي هنا: القعود بكل صراط إيعادا، والصد عن سبيل اللّه، وهناك الأمر بتقوى اللّه وطاعته، وعدم سؤال أجر على رسالته. فقد كانت مهمة رسالته هنا وهناك الدعوة إلى توحيد اللّه، وترك الإفساد اقتصاديا، وترك الإفساد في الأرض في كل أبعاده، وهنا إضافة النهي عن القعود بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل اللّه، مما يدل على أن القريتين كانتا مشتركتين في الفساد العقيدي والاقتصادي، مهما اختلفتا في بنود أخرى من التخلفات عن شرعة اللّه. وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85). «أَخاهُمْ شُعَيْباً» مواطنة أم وقرابة، وهذه الدعوة الرسولية هي كسائر الدعوات بازغة بالتوحيد بنفس الصبغة والصيغة السائغة، القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها، كما أن منها تنبثق كل قواعد السلوك والخلق والتعامل، فلا تستقيم الحياة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 313

بحذافيرها إلا بقاعدة وحيدة غير وهيدة هي قاعدة التوحيد الحق بحق التوحيد. و ترى «قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هي بينة الفطرة والعقلية السليمة على توحيد اللّه؟ وهي ليست بينات كافية لولا أن تتزود بينات رسالية. ثم «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ ..» تفريعا عليها تؤكد أنها بينة لهذه الرسالة الشعيبية، حيث إن أصل التوحيد وما أشبه من أصول الدين ليست قضيتها المستقيمة اللازبة تقبّل الفروع!. فقد يتبين من ملابسات «بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هذه، أنها بينة خاصة لهذه الرسالة، مهما أجمل عن نوعيتها، كما ولم يتبين من آيات أخرى بشأن شعيب ما هي نوعية بينته الرسولية، وهنا البينة الحاضرة هي الرسالة اللّامحة من شعيب نفسه وكما قال رسل المسيح عليه السلام: «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16) حيث الرسالة الربانية ظاهرة فيهم، باهرة في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم. و لأنهم كانوا متورطين في إفساد اقتصادي وآخر عقيدي بحذافيره، لذلك فرع الأمر بإيفاء الكيل والمناهي اللاحقة له ب «قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ». فقد كانوا يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، فركز التنديد-/ بعد الدعوة إلى التوحيد-/ على ذلك الثالوث السالوس. و هنا «أشياءهم» المحلقة على كل أشياءهم، دون «أموالهم»-/ فقط-/ تلمح أنهم كانوا يبخسون الناس وينقصون كل أشياءهم وهي النواميس الخمس نفسا وعقلا ودينا ومالا وعرضا، وكما يفسره النصان التاليان: «وَ لا تَقْعُدُوا ... وَ تَصُدُّونَ ..». و أما «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» فهل يعني حاضر الإيمان كما تلمح له «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»؟ وهم لمّا يؤمنوا كلهم كما هو صراح تالية الآيات! أم يعني من آمن منهم؟ ولا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 314

يختص التكليف بخيريته بهم!. قد يعني الإيمان هنا جعل أنفسهم في أمن من زعزعات تطفيف المكيال وبخس الأشياء والإفساد في الأرض، فإن حياة الأمن مما يهواه كل الأحياء مؤمنين رسميين أم كافرين، أم وتعني «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بأصل الألوهية مهما كان بإشراك، حيث الإيمان باللّه مهما كان بإشراك، من قضاياه إتباعه فيما يرجع إلى أمن الحياة ورغد العيش. أجل «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ ..» إنما يوفى حقه بحاضر الإيمان الموحّد باللّه وبرسالاته، فلأن الخطاب هنا يعم أهل مدين كلهم، وفيهم من آمن رسميا وفيهم من كفر، فقد تعني «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لكلّ حسب إيمانه، وهو لأقل تقدير لغوية الإيمان الطليق أن يؤمنوا أنفسهم من زعزعات الحياة فيأمنوا. وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86). «كل صراط» هنا تشمل كل جادّة جادّة، ظاهرية وباطنية، فصراط الفطرة والعقلية السليمة وصراط الشرعة الربانية، أم صراط العبور للناس إلى حوائجهم، وكل صراط إلى الحيوية الإنسانية والإيمانية، كلها معنية من «كل صراط» حيث «توعدون» سالكيها إيعادا، ومنه الصراط إلى شعيب بدعوته، ومن جراء ذلك الإيعاد الإبعاد «وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً» بغي القصد وبغي الظلم، أن تسلكوها وتسلكوا إياها عوجا، أم تتخذوها عوجا لكم ولمن يسلكونها «و اذكروا» أنتم البغات الطغاة «إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا» في عدة وعدة تتخطفون «فكثركم» ربكم فأصبحتم تتخطفون، فبدّلتم نعمة اللّه نعمة وكفرا وأحللتم أنفسكم وقومكم دار البوار. جهنم تصلونها وبئس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 315

القرار «و انظروا» أنتم ولينظر غيركم «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» في الأرض، فاعتبروا بالمفسدين قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ. وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (29: 38-/ 40)-/ (أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ» (32: 26) (.. فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ» (46: 25) (فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا» (28: 58). وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87). و هنا «طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا» وهم الملأ المستكبرون، قد حسبوا أنفسهم سادة وقادة، فخيّل إلى المؤمنين ما يخرجهم عن الاصطبار أمامهم، فأمروا وإياهم بالصبر، صبرا للذين آمنوا لكي يروا وعد اللّه، وصبرا للذين لم يؤمنوا حتى يروا وعيده «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» حكما هنا وآخر في الأخرى، ولكن الطغاة ما صبروا حتى قالوا قولتهم وغالوا غولتهم الهاتكة الفاتكة: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88). لقد دعاهم شعيب إلى أفضل خطة وأعد لها وهي آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، وهي نقطة الانتظار لعاقبة الكفر والإيمان هنا قبل الأخرى، تريّثا وتعايشا بغير ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 316

أذى وترك كلّ لحاله وقاله حتى يأتي م‏آله، ولكن الطواغيت لا يرضيهم إلّا استئصال الإيمان والمؤمنين حيث يهددون سلطانهم، ويحددون شهواتهم، إذا فليخرجوا سراعا. و ترى «لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» تعني أنهم كلّهم كانوا في ملة الإشراك بحذافيره ومخلفاته البئيسة؟ والأنبياء بريئون من الإشراك أيا كانوا وأيّان!. «ملتنا» إن عنت ملة الإشراك فذلك تخيّل منهم أنهم كانوا في ملتهم إذ كان شعيب في تقية لا يظهر إيمانه، ثم جاراهم في ذلك التخيّل ب «إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ»، ولكن القرآن البيان يحيد عن تلك المجاراة دون تأشير إلى باطل ظنهم، حيث تخيّل أن شعيبا كان في ملتهم كالذين آمنوا معه!. أم هو حقيقة وتعني «لتعودن» عود المجموع لا الجميع حيث كان شعيب داخل جمعهم، ف «تعودن» تعني ذلك المجموع وإن ظل شعيب على إيمانه الذي كان حيث اليد الواحدة لا تصفق، وهذا استعمال متعود أن ينسب فعل البعض أو تركهم إلى المجموعة، فضلا عن يكون الفاعل أو التارك كلهم إلّا واحدا منهم، إذا ف «أو لتعودن» صادق تماما في عود الجميع إلّا واحد هو شعيب، إذ ليست هنا صيغة تستغرق الكل دونما استثناء، وإنما صيغة الجمع «أو لتعودن» ويكفيه عود جماعة ودون النصف منهم فضلا عن الكل إلّا واحد منهم. و لكن يبقى سؤال أن «لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ» نص على دخول شعيب في ملتهم حيث «لتعودن» تعنيه معهم لذلك النص؟ بل وشعيب نفسه هو رأس الزاوية في «لتعودن» لاختصاصه بالذكر قبلهم. أم تعني الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسلطان التوحيد الجاهر بعد تقاة، وهؤلاء يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤمنين أم رجعوا-/ إلّا شعيب-/

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 317

كافرين. و على أية حال فلا نص هنا ولا ظاهر أو لمحة أن شعيبا كان في ملة الإشراك قبل رسالته، و مجرد الاحتمال الصالح حيث تحتمله الآية، كاف في تنجزه، حيث الاصطفاء والاجتباء بحق الرسل، المذكوران لهم في القرآن، إنه برهان صارم لا مردّ له، أنهم يصطفون من جموع الموحدين، فسابقة الإشراك لهم تناحر واصطفاءهم. إذا ف «لتعودن» لا تعود بمزرأة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من «ملتنا» قائمة، أم والملة الروحية بعود الذين آمنوا معه فيها دونه عليه السلام أم وعوده فيها مجاراة لتخيل أنه كان فيها، ثم وليس القرآن ساكتا عن تزييف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابغة بخالص الإيمان. فالمرفوض-/ إذا-/ بين المحتملات في «لتعودن» أنه عليه السلام كان في ملة الإشراك فيطلب منه العود فيها حتى لا يخرجنّ، وتبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها، وكلها صالحة للعناية. ف «لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» الزمنية تقية، لا تمس من كرامة إيمانه من ذي قبل. و كذلك «في ملتنا» زعما منهم أنه كان مشركا كما هم إذ كان في تقية من دينه، والجو الرسولي في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعاثهم أنهم مصطفون، فهو نقض لهذه التخيلة القاحلة. و هكذا «في ملتنا» واقعا حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين ب «لتعودن» فانه جمع يتحمل الاستثناء، مهما لم يتحمله «يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ» فإن شعيبا مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في ملة الإشراك. ذلك، وذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب، بل: «وَ قالَ الَّذِينَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 318

كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.

وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ» (14: 14) «1». «قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ» فأنتم تكرهوننا على العود في تلك الملة المشركة زمنيا أم روحيا أم فيهما معا. و «لو» هنا مجارات تعني حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود في ملتكم رغم زعمكم، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك العودة، ولكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان، فقاطع الإيمان، ف «لو» هنا تنديد بحتمية ذلك العود. فالحمل على العود في ملة غير مرضية إبطالا لحرّية الانتخاب، الحريّة لكل إنسان، إنه حمل يخالف الفطرة والعقلية والخيرة الإنسانية. فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عائدين، ففي عودنا دون أي‏برهان، و هناك ساطع البراهين تمنعنا عنه، إن فيه افتراء على اللّه، حيث القضية الرسالية وعلى هامشها القضية الإيمانية إن ذلك العود إنما هو بأمر اللّه: قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89). فهذه فرية وقحة على اللّه «إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ» على إيماننا، فإن ضفة الإيمان-/ الصالح غير الكالح-/ وصفته، تمنعان عن العود إلى اللّاإيمان، فكما أن قالات الإيمان وحالاته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الفرقان آية 41: 45 ج 13-/ 14

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 319

وفعالاته هي من قضايا الإيمان، فعودنا إلى ملتكم-/ إذا-/ هو أيضا من قضايا الإيمان وذلك افتراء على اللّه أنه يأمرنا بذلك العود «بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها» فقد نجانا من ملة الإشراك زمنيا وروحيا فكيف نعود-/ إذا-/ فيها «وَ ما يَكُونُ لَنا» بصفة الإيمان 218 «أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا» لكي يكون العود أيضا بصفة الإيمان، على ضوء مشيئة اللّه، فها نحن مستسلمون للّه خروجا أم عودا. صحيح أن اللّه لا يشاء ولن. أن نعود فيها، ولكن مشيئته الطليقة بعد حاكمة حكيمة، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره وهو-/ إذا-/ من التوحيد، كما شاء لنا التوحيد فوحّدناه بأمره، فنحن على أية حال تحت أمره وإمرته ورهن إشارته ومشيئته قضية كامل الإيمان و شامله. و ذلك أدب ولي اللّه مع اللّه أنه لا يمشي على هواه وإن كانت في عدم العودة إلى ملة الإشراك، فلذلك يستثني عدم عودته إليها بمشيئة اللّه! فلأن قضية الإيمان الصادق باللّه ومشيئة اللّه هي التوحيد للّه وعدم الانخراط في سلك المشركين باللّه «وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها» اللّهم «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا» أن نعود فيها، فالعودة-/ إذا-/ هي قضية الإيمان باللّه، وهي من توحيد اللّه في طاعته وعبادته، كما الخروج عنها قضية الإيمان، وقضية التسليم السليم للّه أن نأتمر بأمر اللّه خروجا وعودا دونما وقفة لنفكر ما هو المغزى هنا وهناك، فإنه-/ إذا-/ عبادة العقلية والمصلحية، دون خالص العبودية للّه. أجل وذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أي‏مانع منها مهما كان قاطعا لا حول عنه، ومن أمثاله الأمثال قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمته، ولكن أمر اللّه تعالى يغضي كلها، بارزا وحيدا في الميدان.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 320

ففيما تعلم مصلحة في أمر من اللّه أو نهي فالطاعة سهلة، وفيما لا تعلم مصلحة ولا مفسدة، فهي صعبة، وأما فيما تكرس الآيات آفاقية وأنفسية أن فيه مفسدة ولكن اللّه يأمرك به دون ريبة، فالطاعة صعبة ملتوية، وهنا لك البلية العظيمة التي، الساقطون فيها كثير، والناجحون قليل قليل. و هنا الجمع بين اسمي اللّه: «اللَّهُ رَبُّنا» للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء، ولو شاء الإشراك أم أيا كان من ملة من الملل، أو نحلة من النحل. فألوهيته تقتضي توحيده، كما هو قضية ربوبيته، فهو الواحد إلها وهو الواحد ربا، فلو شاء أن نشرك به وهو الواحد في ربوبيته، أو أن ندخل في ملة الإشراك زمنيا تقية أماهيه من مبرر، لكنا داخلين قضية التسليم الطليق للّه ربنا. فنحن المجاهيل و «وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً» فلو يعلم أن في العود في ملتكم خيرا فأمرنا به لعدنا، ولكنه لا يعلم فيه خيرا إذ ليس فيه إلّا شر: «قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» (49:) 16) (وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ» (13: 33)-/ (قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 18). وعدم علمه بشي‏ء يوازي عدم ذلك الشي‏ء. و لأن اللّه لا يشاء أن نعود في ملتكم ولن، فنحن إذا صامدون في توحيده وفي الابتعاد عن ملتكم روحيا وزمنيا، فلن ندخل-/ إذا-/ في ملتكم أبدا. و حين تهددوننا بإخراجنا من قريتكم-/ كأنها هي قريتكم دوننا-/ فليست العقيدة الصالحة تنثلم وتتلعثم أو تتزعزع أمام أي‏تهديد ووعيد ف «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا» لا سواه، وإليه انقطعنا لا سواه «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 321

ذلك، ونفس العود في ملة الإشراك هو افتراء على اللّه، كأن لا خير في ملة التوحيد قضية طبيعة الحال في التحيز بين الملتين، فاختيار ملة الإشراك على ملة التوحيد. فهاتان-/ إذا-/ فريتان على اللّه، إحداهما قضية الإيمان، وكأنه يأمرنا بتلك العودة، وأخراهما قضية التحيز المجرد عن الإيمان والإشراك مهما كان حالة الإيمان. أجل، وإن تكاليف الخروج عن ملة الطاغوت-/ مهما عظمت وشقت-/ هي أقل وأهون من تكاليف الدخول في ملته. فالدخول في حكم الطاغوت خروج عن نواميس الإنسانية كلها حيث يذبح أتباعه على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلاءهم أعلام المجد لذاته ومناه، ثم يكلفهم عقولهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم-/ بإعراضهم عن اللّه-/ لحد لا يملك والد ما ولده، ولا فتاته عن الدعارات وسائر العارات، وكل ما يملك بخطواته عن حركاته الصالحة كلها. ذلك، وإلى إجابة نكدة من هؤلاء الأنكاد، لا تحمل إلا تهديدا خاويا: وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90). و هذه دعاية مستكبرة لعينة ضد الرسالة الشعيبية تهدد أتباعه بالخسران دون بيان أنه ما هي ماهية هذا الخسران، ليذهب بال المؤمن أي‏مذهب من ألوان الخسران: دينا ونفسا ومالا وعقلا وعرضا وأرضا أما هو من خسران يبتعد عنه أي‏إنسان، ولكن الإيمان الصامد كان قد أخذ موضعه من شغاف قلوبهم فلا يقلّبهم عنه أي‏كان، ثم كان عاقبة هؤلاء الأنكاد: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91). دون حراك حيث خمدت نيرانهم وجمدت ثيرانهم وغيرانهم، ف: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 322

لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92). لقد أرادوا إخراج شعيب والذين آمنوا معه بكل إحراج، فأخرجهم اللّه من حياتهم وقريتهم «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا»: فلم يعمروا هذه الدار ولم يطل مقامهم فيها «1»، وكأن لم يكن لهم فيها آثار، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم وآثارهم مع أنفسهم البئيسة التعيسة، فلقد انطوت صحيفتهم عن صفحة الكون مشيعة بالتبكيت والإخمال، والمفارقة والانفصال. و لعل في كتاب حبقوق النبي عليه السلام الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد صلى الله عليه و آله ونصها بالأصل الكلداني كالتالي: «چادرى دكوشن بركد پردد ارعا دمدين»: لقد تزعزت الچوادر والخيم في مدين. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ (93). «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ» وهم في قبضة الرجفة، ولمّا يموتوا، كما «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ» بعد أن ماتوا وقال «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» أصلية وفرعية بكل بلاغ بالغ وبيان فائق، ثم «وَ نَصَحْتُ لَكُمْ» بعد البلاغ، جمعا للنصح إلى بلاغ الحجة البالغة، تليينا لما تصلّب منكم، من أدمغة وخراطيم مستكبرة فيكم وهي بعد عليكم، ولم آل جهدا في إنجاءكم «فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ» ولا يعني الأسى عليهم-/ إذا-/ إلّا ما عساه نكران لعدل اللّه وحكمته، أم نقصان في بلاغ رسالته!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. غنى في مكان: إذا طال مكوثه فيه مستغنيا به عن غيره مكتفيا به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 323

ذلك، وهذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار، عذاب لهم فوق العذاب، سواء أكان عند نزول العذاب ولمّا يموتوا، أم وبعد موتهم، إعلانا ببلاغ الحجة دون قصور فيها أم تقصير، وإعلاما بأن لا مجال للأسى عليهم فإنهم عامدون عاندون في النكران، فمستحقون لعذاب الاستئصال. أ فبعد إبلاغ الرسالة والنصيحة يؤسى على قوم كافرين، ولا يؤسى على المستحق بالعدل و الحكمة الربانية، حيث الأسى-/ إذا-/ عساها استرحام على من جرى بحقه حكم اللّه!. هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص وأضرابه، كشفا عن خطوات ربانية من قدر اللّه بالمكذبين بالدين كيف يأخذهم في تقلّبهم وتغلّبهم بزعمهم وهم غافلون يلعبون أو نائمون. وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ. «بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ» هما الأفعل من البائسة والضارة، وصفان لمحذوف أفضله الحالة، أو الحياة، ثم البأساء بأس في النفوس قلقا واضطرابا، والضراء ضر في الأبدان والأموال والأولاد، فقد شملتا مضرة الروح والجسم فيما تحلقان على كل كيان الإنسان. و هذه الأخذة الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيّين، أخذا بالبأساء البائسة والضراء الضارة الضارعة في أحوال وأموال وبنين «لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» إلى اللّه تائبين، فلما عتوا وبغوا وبقوا على تكذيبهم حيث لم تذكرهم البأساء والضراء: السيئة، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو والغفلة الغفوة: ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (95). فهنا «مَكانَ السَّيِّئَةِ» بأساء وضراء المذكّرة «الحسنة» الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 324

«حتى عفوا» ونموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة، فظنوا أنهم في رحمة من اللّه مهما عتوا، ويكأن العتو مرضي للّه حتى «قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ»: ضر وسرور، فهما يمسنا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة، فلا علينا أن نستمر في الكفر والكفران، ولأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً» أخذة مزمجرة مدمرة «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» موقفهم، و «لا يشعرون» خطأهم و «لا يشعرون» استحقاقهم و «لا يشعرون» نزول العذاب عليهم إلّا حين نزل إذ كان مباغتا، وعلى الجملة «لا يشعرون» إلّا فوضى، فلا يعني بلاء السيئة ولا جزاء في حسنته وسيئته، بأساء وضراء، والحسنة سراء عبثا أن يأخذ اللّه عبادا له بشدة في أنفسهم وأرزاقهم وأموالهم، ولا لإرواء غلة ولا شفاء اجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرخية تعطفا عليهم بل هما بلاءان مختلفي الصورة، وإنما لإيقاظ فطرة نائمة وترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..» (89: 16). كما ولا تعني الحسنة مكان السيئة واليسر مكان العسر والنعمة مكان الشظف، وعلى الجملة العفو الزيادة مكان النقيصة، إنها لا تعني إلّا جزاء وفاقا إن لم يضّرّعوا بالبأساء والضراء، فبلية الحسنة أصعب من بلية السيئة، ولذلك ترى أكثر الساقطين في البليات هم من المنعمين حيث يكثرون وينتشرون، مسهلين العيش، متيسرين الحياة، معذّرين تخلفاتهم أمام اللّه، فقد تعني «حتى عفوا» إلى جانب غورهم في زخرفات الحياة، اعتبارهم أنفسهم معفوين عن المسؤوليات، إباحيين في اللذات والشهوات، عائشين-/ إذا-/ اللّامبالاة الطليقة، فكل ما يصدر منهم عفو بلا أي‏تحرج أو مبالات، فقد عفوا في أنفسهم وأموالهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 325

وأولادهم نماء، وعفوا عفوا ولأن العفو تأتي بمعاني: الزيادة والانتقاص لازمة، وبمعنى التجاوز متعدية ب «عن» «1» فطليقة «عفوا» كما هنا قد تعنيها كلّها وفقا لأدب اللفظ وعناية المعنى، فقد «عفوا» بتلك الحسنات بعد السيئات زيادة ونموا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومحاصيلهم، فعفوا انتقاصا على نقصهم في نقضهم عهد اللّه، ثم ازدادوا عفوا حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحية طليقة وكأنها مشروعة مرضية للّه «وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ» قصدا إلى أنهما ليستا جزاء وفاقا لسيئات أو حسنات، إذ لم تكن لآبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزائين هذين المتقابلين، وكذلك الأمر فينا نحن، فذلك جريان طبيعي في إقبال الدنيا وإدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات، أم إن ذلك فوضى جزاف من اللّه دون أن تكون الضراء والسراء خلفية ربانية للسيئات والحسنات. أم قد بلغ أمرهم في بلية الحسنة بعد السيئة أنهم تحسّنوا ك‏آبائهم مستحقين للحسنة بتركهم شرعة اللّه التي يدعيها الأنبياء! إذ «لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا» فنحن-/ إذا-/ ماشون وفق مشيئة اللّه، ماضون بأمر اللّه، اعتبارا للإشراك باللّه وترك شرعة اللّه، إيماناً باللّه، فتوحيد وتصديق شرعته-/ إذا-/ كفر به!. و احتمال آخر أن «قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ» تخصهما بهم دون هؤلاء الأولاد، حيث بدلت السيئة لهم بالحسنة، فقد عفوا-/ إذا-/ عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة، رعونة لهم كأنهم يستحقون-/ فقط-/ الحسنة، «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً» هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقد جاء العفو لكلا النمو و الانتقاص فهم انتقصوا في نموهم و نموا في انتقاصهم، يقال: عفى النبت و الشجر قصد تناول الزيادة و عفت آثارها زالت و عفى عنه أزال ذنبه. إذا ف «عفوا» دون أي‏متعلق تعم عفو الزيادة و النقيضة و معهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوة بما عفوا في نعمهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 326

شر أخذة، إذ قد يؤخذ الظالمون بإخبار مسبق كما في قوم لوط «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ». فلأن هؤلاء الأنكاد عمدوا إلى سدّ كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق ولا يروه ولا يفهموه، مهما مستهم البأساء والضراء إيقاظا لفطرهم، وهو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم، فلم يزدهم إلّا عتوا ونفورا، فلذلك يستحقون مباغتة العذاب «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» جيئته الفجيعة إلّا عند ما أخذهم، كما «لا يشعرون» رغم ما أشعرتهم الضراء والسراء. و هكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجة لا يضنّ بها، فمن خطوة الحجة البالغة إلى العظة، وإلى الإنذار بالعاقبة، وإلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنّت أصحابها، ومن ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كل الطرق لانتباههم، إذ لا خير فيهم إلا ضر وشر للإنسانية. فعندئذ، في ساعة الغفلة السادرة، والغفوة الغادرة، والعفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ». و هذه سنة جارية ربانية في إصلاح المتخلفين خطوة خطوة، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة في الأخطاء العامدة، ولم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى وتبصرة، استأصلهم اللّه وأخمد نيرانهم تطهيرا للجو عن هؤلاء الأرجاس الأنحاس. وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96). «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 327

مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» (5: 66). صحيح أن بركات السماء والأرض وتوفّر النعم لا تستلزم أهلية المتنعمين بها، فقد ترجع النعمة عليهم نقمة ونعمة، ولكن الإيمان والتقى لزامهما انفتاح بركات من السماء والأرض، واللّاإيمان والطغى لزامهما انغلاق بركات، وما يرى من بركات لأهل الدركات فهي في الحق لهم دركات، حيث تعني لهم إملاء وإملالا: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3:) 178). ذلك، وان الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة اللّه هي انغلاق بركات من السماء و الأرض ظاهرية وباطنية هما متعاملان في فلاح الإنسان وصلاحه، ولكن هنا خطوة ثانية ابتلائية هي «بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا» وهذه الحسنة هي أسوء من السيئة بكثير!. و ترى «لو» هنا تحيل إيمان أهل القرى وتقواهم، وقضيتها هي إحالة فتح هذه البركات؟ و هذه الإحالة تنافي والمشيئة التشريعية أن يؤمن أهل القرى ويتقوا!. إنها إحالة نسبية بسوء الإختيار، دون ذاتية أم واقعية مستغرقة، فهي إخبار عن الواقع المتخلّف لأهل القرى بسوء اختيارهم، باستثناء واقعين اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالي: 1 أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف. 2 أهل كل قرية قدر المستطاع، تعبيدا لطريق المهدي عليه السلام وتصليحا لهم أنفسهم، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جو الإيمان الخالص أو الأكثري في كل القرى لأنه أمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 328

صاحب الأمر بما وعد اللّه، فعليهم-/ إذا-/ أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزلية وفوقها كما يستطيعون، ولكي تنزل عليهم-/ كجمع-/ بركات من السماء والأرض. ذلك، ولا تنافي المشيئة التشريعية امتناع واقع مشروع باختيار، وإن كان امتناعا مطبقا، فضلا عن المطلق الذي قد يتحقق باختيار. و هذا الحكم جمعي وليس شخصيا أن كل من آمن واتقى تنزل عليه بركات من السماء والأرض-/ اللهم إلا بركات معنوية-/ مهما حكم أحيانا للأشخاص أيضا كما يستحقون. فالإيمان والتقى أول ما يصلحان هو الحياة الدنيا أن تصبح حياة عليا حيث المؤمن دنياه آخرة. ذلك، ولأن زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه يحلّق الإيمان والتقى على أهل القرى إلّا من شذ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء والأرض، كما تخرج له الأرض أفاليذ كبدها، ويروى فيما يروى بهذا الشأن-/ عن الإمام الحسين عليه السلام في حديثه عن الرجعة: «و لتنزلن البركة من السماء والأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة وليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء» وذلك قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ ...» «1». أجل وهذه ضابطة ثابتة «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (12: 11) وقد تشمل إلى «ما بقوم» ما بشخص، اللّهم إلا أن تمنع طوارئ وملابسات حقوق الأشخاص هنا، ولكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير، أم إلى شر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 52 في الخرائج و الجرائح عن الحسين عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 329

فشر. و هنا «آمنوا» ناحية منحي إيجابيات الإيمان علمية وعقيدية وعملية ثم «و اتقوا» منحاها السلبيات علمية وعقيدية وعملية، فهما يحلّقان على كافة الواجبات والمحرمات الأصلية والفرعية، الفردية والجماعية، وكلها اختصارة واحتصارة في كلمة الإخلاص «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ». و هنا «لفتحنا» دون «خلقنا» وما أشبه، دليل أن هناك بركات في السماء والأرض هي مغلقة على أهل القرى بما «كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ». فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية وطالحها، وبين بركات من السماء والأرض ودركات في الأولى كما في الأخرى دون أية فوضى جزاف «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا». و بما أن صالح الإيمان دليل على حيويّة الفطرة الصالحة غير المنحرفة المنخرفة، وصدق في الإدراك، وتصادق مع حق الواقع والواقع الحق، فهو قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلها متجهة إلى جهة واحدة، مستمدة من قوة اللّه الذي لا إله إلا هو، فإنها تحرّرة صالحة بالغة، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات والأرض. ثم وتقوى اللّه يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات وفعل المحبورات، صائنة عن الاندفاع والتهوّر والتشتت والتشطّط والغرور، و «أوثق العرى كلمة التقوى» «1» عروة يتعلق بها فتنهض من المعاثر، وتنجي من المزالّ والمزالق، فهي الحبل المتين، والمستند النضد الأمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. المجازات النبوية ص 84

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 330

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأيّ كان، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التي وعدها اللّه لأهل اللّه. و ترى لماذا هنا «بركات» وهناك «حسنة»؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتهيات خيّرة أم شرّيرة، فهي بين بركات ودركات، بين نعمة هي رحمة وأخرى هي زحمة ونعمة، و لكن «بركات» هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات، نتيجة الإيمان والتقوى، فكل حسنة وسيئة ابتلاء، و «بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» هي قضية النجاح في الابتلاء بهما. ذلك، فمن الخيرات ما هي بليات لمؤمن أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطا ونجاحا، ومنها ما هي من خلفيات الإيمان والتقوى، فما هي إذا ابتلاءات، ثم ومن الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيّرين والشرّيرين، ومنها ما هي عقوبات لأيّ منهما مهما اختلفا في حدودها. فالبركات النازلة على أهل الإيمان والتقوى هي بركات في النفوس والنفائس، بركات في المشاعر وكل طيبات الحياة بأسرها، إخراجا لها عن كل أسر لها يطارد الحصر في اللّه، بركات تنمي الحياة وترفعها إلى قممها المعنية منها، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوة وترد وانحلال. أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (98). هنا «أَهْلَ الْقُرى‏» هي الظالمة غير المؤمنة ولا التقية، فهي الكافرة الطغية، فلا أمن لهم إذ لا إيمان «أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً» بالليل «وَ هُمْ نائِمُونَ» أو «أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى» وضح النهار «وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» كالطفولة التي لا تعني صالح الحياة الإنسانية الواقعية، فإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 331

و ذلك هو العذاب المباغت لمن يستحقونه، بعد ما كلّت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزدهم إلا فرارا. أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99). لقد مكروا اللّه ومكروا المؤمنين باللّه بما مكروا فطرهم وعقولهم فما جزاءهم إلّا مكر اللّه كما مكروا جزاء وفاقا، «فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ» الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفطر والعقول وسائر الفكر، وكأن اللّه لا يسطع على مكرهم كما مكروا، أم هم لا يستحقون مكرا رغم ما مكروا، أم وليس هناك من إله هو يرصدهم. أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100). ألم يهد لهم آيات اللّه آفاقية وأنفسية «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» الهالكين، أو لم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم في صحائف التاريخ الجغرافي. «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» إصابة شاملة، ولكن الدار هي دار العمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، وإنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التي لا يتحملها المكلفون، فقد «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (30: 41). أو لم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض، بأية وراثة جزئية أم شاملة، سياسية أم اقتصادية أم روحية أمّاهيه «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين. و ترى «مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» تعني بعد انقراضهم عن بكرتهم؟ ولا سابقة لذلك ولا لاحقة!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 332

فالأرض لا تعني كل المعمورة، بل هي أرض الحكم سياسيا وما أشبه، و «مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» قد يقصد إلى أهلها الميتين، أهلها الآهلين المغتصبين، وهذا هو الأكثرية المطلقة من وراثة الأرض. مثلا على ذلك اغتصاب حق الإمام علي عليه السلام المنصوص على خلافته في م‏آت من الأحاديث، ولئن يشك في غصب خلافته هذه، فغصب فدك دليل باهر لا مرد له على غضب الخلافة فأين فدك المال من خلافة الأمة!. و هل كانت المطالبة بفدك، غير المطالبة بالخلافة للإمام علي، وهل إن اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة، وإثبات الأولوية في غصب الخلافة من غصب فدك؟!. و لقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، ولم تكن لتطلب أرضا فيها نخيل، إنها كانت تطلب بإرث آخر فيه عزة النفس-/ فيه أصالة الحق-/ فيه عنفوان الرسالة-/ فيه امتداد أبيها الرسول .. هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد من خلال مطالبة فدك. و سيان أكانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل، أم-/ حتى-/ بخطاب لمحة التنقيح أو الإقحام، كما يطيب القول للادعاء. فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد-/ أن تقف أمام الخليفة بجبة وخمار، أن ترمي إليه نظرة شزراء-/ أن تحرك يدا بمعصم نخيل-/ أن تؤمي-/ أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل ... لقد شرحت في الخطاب رسالة أبيها-/ لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 333

الحاضرين-/ بل لتعيّن مركزها ومركز علي من الرسالة، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها، فهل يصعب إذا أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة؟. أجل «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها ...» وهم غافلون بزهوة ميراث الأرض وزهرة الأرض عما يعنى منهم!. و لكن الحاضر الذي لا حول عنه من العذاب: «وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» سمع القلب، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى، مهما سمع بأذنه الكثير، فإنه إذا ليس سمع القبول، فسمع الإنسان سمعان، سمع الأذن وسمع القلب، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظات الآذان، فهم من الذين «لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها» سمع الإنسان، فإنما هو سمع الحيوان. فهنا «نطبع» رفعا دون جزم يفصلها عن جزاء الشرط، فهو خلاف جزاءه في قضية «لو» و من الغريب عطفه على جزاء الشرط تلحيقا لحكمه به مع اختلاف الصيغة والصبغة!. إذا ف «نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» محتوم و «أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» مختوم إلّا ما شاء اللّه، ثم الطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصد والمنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع. 231 ثم «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» تختص بالوارثين المذنبين، و «الأرض» هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعني أي‏أرض انقرض أهلوها وورثها آخرون مذنبون. تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 334

«تلك القرى» الرسالية المكلفة برسالات اللّه، على مدار الزمن الرسالي «نقص عليك» قصا تاريخيا بعضا «من أنباءها» أمام الدعوات الرسالية «وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» رسولية ورسالية، ولكن «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ...». فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكل البسالات والحصالات، وتقابلها سلسلة من التكذيبات. و هناك ثالوث من غائلاتهم إذ «ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ» وذلك: 1 تكذيب من قبل، 2 فطبع على قلوبهم ثم 3 (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» من بعد، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعا بالاختيار. فترى أن «من قبل» هنا تعني قبل ولادهم في الذر؟ ولا يعني الذر في آيته عالما قبل الولاد، فيه واقع التساءل بين اللّه وبينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كمّل المؤمنين، فكيف يحتج عليهم ب «بلى» فيه، على «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ ..»! ولا دور للإحتجاج بما هو منسي طليق لن يذكر. ثم لم يكن في الذر منهم ومن كل الناس-/ أيا كان وكانوا-/ إلّا «بلى» وهنا «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ»!. فحتى ولو كان منهم «لا» فلا يستحقون بمجرده أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصروا في التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة اللّه إذا لما تصله حجتها، أم وصلته ولمّا يفكر فيها، أم فكر وكذب بها عجالة دون إصرار، ولمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث، اللّهم إلّا إذا عاش تكذيبا بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع و كما هو باهر في آياته.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 335

و هنا «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد، فطبع اللّه على قلوبهم بما كذبوا. ف «ليؤمنوا» حذفا للناصبة: «أن» تعني «للإيمان» إذا فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيته بما كذبوا لحد طبع اللّه على قلوبهم. أم هو «من قبل» ابتعاث الرسل؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم عليه السلام! ثم لا تكذيب قبل الرسل-/ لو صح التكليف قبلهم-/ إذ كانوا ضلالا لا على هدى و لا على ضلال التكذيب بالرسالات ولمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ردح من خلق المكلفين. ثم وليس كل تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين!، إنما هو التكذيب العاند العامد المستمر الذي لا مجال فيه للاهتداء. أم تعني «من قبل» أنهم عاشوا زمنا للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علما وعنادا فطبع اللّه على قلوبهم، ثم استمروا في تكذيبهم بعد هذه العيشة المكذبة النكدة، «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» لوقت ما بعد «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» وكل ذلك كان في حضن الرسل، أو الرسالات، سواء أكانوا في فترة من الرسل والرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس، وبين إدريس ونوح، أم وبين المسيح ومحمد عليهما السلام-/ كأطول فترة-/: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (36: 6) (لِتُنْذِر قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» (28: 46) فهم «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (2: 6) فالفترة بين الرسل، وفيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف، إن لها دورا دائرا مائرا في حصالة العناد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 336

اللدود. أم وفي غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما في آيات يونس: «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ وَ هارُونَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ» (10: 74-/ 75). «وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الُمجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» (10: 13) وآية الأنعام: «وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (6: 110). فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل ورسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قبل هؤلاء الالدّاء بتكذيبات وتعذيبات. كما وان لتكذيب الرسل في زمنهم دور قاس في ملاحقة التكذيب، علّه أقسى من دور الفترة، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم، هو أنحس نكرانا لهم ولها مبدئيا، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه نكرانا بطبيعة الحال، وهما مشتركان في قساوة التكذيب، مهما كان البعض أقسى من الآخر لملابسات أخرى، أم لنفس الدور رسوليا وفترة بين الرسل. وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102). ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد، ومن ثم عهد العقلية الإنسانية والشرعة الربانية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 337

حيث يتلوانه، و «أكثرهم» هنا لا تعني أكثر المكذبين حيث التكذيب ولا سيما ذلك الصلب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود، فقد تعني «أكثرهم» أكثر المكلفين، و «إن» هنا مخففة عن «إنّ» فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين، خروجا عن عهد الفطرة وعهد الشرعة، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال. ثم و «أكثرهم» قد تعني كافة الناس في مثلث الزمان في وجدان علمي رباني، وعدم وجدانه تعالى لشي‏ء هو عدم وجود ذلك الشي‏ء، ولا تعني سلبية العهد أصله، فإنهم يعيشون مثلث العهد، وإنما هو استمرارية ذلك العهد تطبيقا له. ثم «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» دون «كافرين» لكي يشمل كل تخلفة عن العهد إلحادا أو إشراكا أو كفرا كتابيا، أم فسقا في كل دركاته. و قد تعني «من عهد» استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته، مهما كان عهدا معرفيا، أو عقيديا، فضلا عن العملي. فقد تعني-/ إذا-/ أكثرهم، أكثر المكذبين بآيات اللّه، فالعهد بين حالات ثلاث، 1 مستغرقة إيجابيا كما للرعيل الأعلى من المعصومين عليهم السلام، 2 ومستغرقة سلبيا كما لأسفل سافلين من المكذبين، 3 وعوانا بينهما تطبيقا لعهد وتركا لآخر، فقد يوجد مكذبون لمّا تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤمنون أم-/ ولأقل تقدير-/ يتركون التكذيب، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ». ففي مثلث العهود بدرجاتها، يسبّع الناس بدرجاتهم، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل، أم واجد عهد العقل ناس عهد الفطرة، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة والعقل، أم واجد لها كلها، أم واجد لاثنين منها، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 338

والواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين، ثم الواجد لاثنين منها هو عوان بينهما، كمن وجد عهد الفطرة والعقل، أو العقل والشرعة، أو الفطرة والشرعة، ثم التارك لها كلها هو المصداق الصادق ل «ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ». ذلك، ولا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلوا من العقل، كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة. فالصراط الوحيد إلى اللّه هو مثلث العهد فطريا وعقليا وشرعيا، فإن وسيط العقل بين الفطرة والشرعة هو صالح العقل والفطرة والشرعة. كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره ف «لم نجد له عهدا» حيث لا منفذ-/ إذا-/ له إلى الهدى. و من ثم نجد راحلة-/ مهما كانت مائلة ماحلة-/ في العوان بينهما، فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو وينجح بما هو واجده، فالفطرة تدعوا إلى العقلية الصالحة وصالح الشرعة، كما الشرعة تدعوا إلى الفطرة والعقلية الصالحة، والعقل الصالح يدعو إلى الفطرة و الشرعة. ذلك، والفسق عن الفطرة يخلّف الفسق عن العقلية، كما الفسق عن العقلية يفسق عن الشرعة، وهكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن الآخرين، وكوجه عام وضابطة، يخلف الفسق عن كلّ من هذه الثلاث فسقا عن الآخرين. كما وأن صفاوة كلّ وحفاوته تؤثر في الآخرين، فهي تتجاوب-/ دوما-/ سلبيا وإيجابيا في تعامل دائب. لذلك نرى آية الفطرة تتبناها كأصل للدين، وآيات العقل تجعله كوسيط بين الأنفس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 339

والآفاق، والشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل والعقل وسيطا بين الأصلين. ذلك، ف «من عهد» المستأصلة كل عهد، لا تناسب إلّا المكذبين بآيات اللّه طول التاريخ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد، ولأقلهم عهد هو لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية، فقد يرجى اهتداءهم يوما ما إلى الحق. فلا تعني «أكثرهم» كل المكلفين، ولا المكذبين المطبوع على قلوبهم، حيث الأكثرية من المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب على علم وعهد، أم ومهما كان عن علم وعمد فليس يطبع على قلوب أكثرهم، بل هم القلة العنيدة العتيدة في التكذيب. و لا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلهم ليس لهم أي‏عهد، إنما هم مجموعة المكذبين، فإن أكثرهم ليس لهم «من عهد». فسلبية العهد المستغرقة كل عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من أصله، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كل أحكام الفطرة والعقل والشرعة. ثم «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ» المختوم على قلوبهم «لفاسقين» متخلفين عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها، ف «إن وجدنا ..» هي كتفسير ل «ما وجدنا» تثبيتا لأصل العهود الثلاثة لهم، ولكنهم عنها فاسقون متخلفون، ولم يقل «كافرون» لأن كل المكذبين بآيات اللّه كافرون وإنما «لفاسقون» عناية إلى خروجهم عن هذه العهود. ذلك، وكما أن الشيطنات سبع دركات، كذلك الرحمات سبع درجات، وكما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالوث: الشيطان-/ البقر-/ النمر، كذلك الإنسان الأكبر هو الذي يجمع بين هذه العهود الثلاثة، تاركا لثالوث الشيطنات. ذلك، ومن الآيات المحلقة على كل العهود: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 340

الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (36: 60) (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (2: 40) (وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» (48: 10). و من الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر والفطرة، ومن عهد الشرعة الأصيلة: «وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (2: 125) (وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 115). و من عهدنا فرعيا ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضا: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ» (16: 91) (وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا» (2: 177).

رسالة شعيب (ع)

يذكر شعيب إحدى عشرة مرة في أربع سور، وينقص «مدين» عن شعيب مرة واحدة، وفي هذه العشر أربعة منها خالية عن قصة شعيب أم ذكراه، حيث يذكر فيها موسى باتجاهه إليها. و مهما كانت صيغة الدعوة الأصلية لشعيب صيغتها لمن تقدمه من المرسلين، ولكن الصيغة الفرعية تختلف عنها قضية ملابسات مدين إذ كانوا متورطين في نقص المكيال وبخس الناس أشياءهم وعثيهم في الأرض مفسدين. وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84). و ترى كيف «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» وهم مشركون عقيديا وناقصون في المكيال والميزان وعاثون في الأرض مفسدين عمليا؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 341

«إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» من العقلية الإنسانية فكيف-/ إذا-/ تعبدون من دون اللّه وتذرون ربكم وراءكم ظهريا، تجاهلا عن العقلية والفطرة الإنسانية اللتين تحكمان بتوحيد العبودية كما تحكمان بتوحيد الربوبية. ثم و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» شرط إصلاح العقيدة والعملية، كما و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» قابلية لذلك الإصلاح وفاعلية، فالأول بيان حقيقة واقعية، والثاني حقيقة مشروطة، والثالث تشويق وترغيب ألّا تنظروا إلى ما أنتم عليه من ضلال، فإني أراكم بخير في تقبل الحق المرام. كما و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» في الحالة الاقتصادية ورخص الأثمان فلا حاجة لكم ولا رجاحة في بخس المكيال والميزان، فالبخس في المكيال والميزان وأنتم بخير وغنىّ هو أنحس البخس وأنجسه!. إذا ف «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» سناد إلى حجة تقضي على هذا التخلف العقيدي والعملي لهم. ثم «وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ» في تمردكم عن الخير المرام، وكفركم بما عندكم من خير المال «عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» هنا استئصالا وفي الأخرى وهي أخوف وأنكى. و من عذاب يوم محيط هو الثورة القاضية من الناس المبخسين في أشياءهم، سواء بصورة الشيوعية في ثورتها القاسية، أم بصورة الإستنصار الإيماني من هؤلاء المبخسين، وكما قال اللّه: «وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الُمحْسِنِينَ» (2: 195) فحين يخلّف ترك الإنفاق في سبيل اللّه وعدم الإحسان إلى عباد اللّه، تهلكة مهلكة، فبأحرى أن تبخسوا الناس أشياءهم أن يلقيكم إلى تهلكة هي أهلك منها وأحلك. و هذا المثلث المعني من «يَوْمٍ مُحِيطٍ» دركات مختلفة في مراحل العذاب، متفقة في حيطة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 342

العذاب حيث لا مخلص عنه ولا مناص بأي مخلص أو خلاص، لمكان الكفر المعمّد المعمق العريق حيث يخلف عريق الحريق. و إنما وصف اليوم بالمحيط وعذابه هو المحيط، لأنه يوم القيامة بنفسه وعذابه يحيط مستحقيه فإنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب. وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85). ثالوث من عمل منحوس كانوا فيه متورطين، ورأس زاويته نقص المكيال والميزان الذي يخلّف إفسادا في الأرض، فإن لإنحراف الإقتصاد عن قسطه دورا عظيما في سائر الإفساد في الأرض، ولقسطه قسط عظيم من الإصلاح في الأرض. و ترى ما هو موقع الأمر بايفاء المكيال والميزان بعد النهي عن نقصهما؟ لأن الإيفاء هو الإتياء على سبيل الكمال والتمام، فقد يعني إعطاء قدر زائد عن الحق حائطة في هذه الزائدة، وبركة في المعاملة ودركة عن المخاملة، ولكنها ليست مفروضة حيث المفروض هنا من ذي قبل هو نقص المكيال والميزان، فالعوان بين النقص والإيفاء في المكيال والميزان هو العوان بين المحظور والمحبور، ولذلك أصبح مسكوتا عنه حيث هو المعروف في ذلك المضمار ككثير من أضرابه. و وجه آخر أن هذا الأمر تأكيد لترك المنهي عنه كما في سائر الأمر والنهي المؤكدين بذلك التكرار في مختلف الصيغ، كما أمر اللّه بالسعي إلى صلاة الجمعة ثم نهى عن البيع وقتها، تأكيدا أكيدا للسعي إليها. و الجمع بينهما هو أجمع وأجمل، تأكيدا لأصل المحظور، وبيانا للمحبور، والعوان بينهما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 343

عوان ولكلّ حكمه. ذلك، والإيفاء في الكيل والميزان بزيادتهما عن الحق المرام، وهو معاكسة صالحة للبخس في المكيال والميزان، يجبر كسره، فهو من أسباب الغفران فيصبح لفترة مقدرة قدر البخس-/ من معدات الغفران. فواجب الإيفاء الزيادة هو جبر للنقص والبخس السابق، وراجحه هو المحبور على أية حال. «وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ» وأشياءهم دون أموالهم مما يشي بعناية كل أشياءهم القابلة للبخس، وهي كل نواميسهم الحيوية الخمس: نفسا وعقلا ودينا وعرضا ومالا، فالبخس في هذه الخمس بخس في الحياة نحس، وإفساد في أرض الحياة يحلّق على كافة الجنبات. و العيث والعثيّ متقاربان إلّا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد المحسوس، والعثيّ في غير المحسوس، وكل يستعمل في الآخر قليلا، وقد يعني «لا تَعْثَوْا» كلا العيث والعثي، لجواز عنايتهما منه، وأن أشياء الناس لا تختص بالمحسوس، كما وأن الإفساد غير مخصوص بالمحسوس، بل وهو أنكى وأشجى من المحسوس، فأين بخس العقلية والعقيدة من بخس المال. و هنا «لا تعثوا مفسدين» فهي مؤكد عن تقصّد الإفساد وهو السعي فيه، وعبارته الأخرى «لا تفسدوا في الأرض مفسدين» فالإفساد غير المتقصد، أو الأحياني منه دون أن يصبح عليه متعوّدة، إنه خارج عن هذا الخطر مهما كان في أصله محظورا، حيث القصد هنا هو أفسد الإفساد المعبر عنه في آية الإفساد ب «وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 344

و هنا تقارن التناسب بين «لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» حيث تشملان النواميس الخمس في البخس والإفساد، فليس فقط السعي في الإفساد في الأرض محظورا، بل والإفساد بأي بخس في أي‏من الأشياء على أية حال محظور. و لأن الأصل في الفساد والإفساد العقيدي هو الإشراك باللّه، ثم من الأصل فيهما جماعيا هو البخس في المكيال والميزان كما في قوم صالح حيث تعودوا عليه، لذلك هما يتقدمان على كل فساد وإفساد في الأرض كرأسي الزواية فيهما. أجل، وللانحراف والظلم الاقتصادي موقعه العظيم العميم في سائر الإفساد في الأرض حيث يهلك الحرث والنسل، ولأن صالح الإقتصاد هو الحاجة الحاضرة للجميع، فقد يؤثر صالحه وطالحه ويعكسان على المجتمع برا وفاجرا. فالقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة، أم هي قضية الشريعة وكل الصلات بين المكلفين بها، التي تنبثق من أصل العقيدة التوحيدية، فنقص الناس في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم بسرقة أو اغتصاب أم أية حيلة معاملية وسواها، إنها تنافي قضية صالح العقيدة، حيث المفروض أن تنعكس العقيدة على الأعمال فلا تظل صورة خيالية لا خبر عنها في الواقع المرام. فالأصل الذي تتبناه الحياة السعيدة بكل حقولها الصالحة هو صالح العقيدة، وليس ما يهرفه أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق والعقيدة للعلاقات الاقتصادية، أو الجنسية أماهيه من علاقات غير عقيدية. هذه تصرفات شرّيرة مهما خيل إلى أصحابها أنها خيّرة حيث الأكل بالباطل لا يكلف سعيا وراء الحاجات والحاجيات، وحتى إذا كانت خيرة ف:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 345

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86). أنتم تتفكرون أن بقية نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم-/ حيث تبقى لكم بما تبغون-/ هي بقية خير، وهي فانية ماضية قاضية على حياتكم، ولكن «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» باللّه، مهما كان إيماناً شركيا، فإنه فيما تعتقدون هو إله الآلهة التي تتخيرون، والبخس نحس أيا كان ومن أيّ كان، نحس فطريا وعقليا وإيمانيا، وإن في أدنى دركاته. فهناك بقية الشيطان في نقصكم وبخسكم، بغيّة شقية لا تأتي بأي خير إلا تخيلا عابرا. و هنا «بَقِيَّتُ اللَّهِ» وهي الباقية من بيوعكم بحكم اللّه إن كنتم مؤمنين باللّه، ومراعين أمانة اللّه في شرعته «خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» عن الأخطاء والأخطار، فإن أنا إلّا رسول ليس عليّ هداكم، ولكن اللّه يهدي من يشاء، ولا أنا حفيظ عليكم حين يأتيكم عذاب اللّه، فلا حفيظ عليكم إلّا اللّه ببقيته، حيث الإيمان به والعمل الصالح له هما ضمانان لبقيته هنا وفي الأخرى «وَ الآْخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏»: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» (6: 104) ذلك والبقية هي صفة لمحذوف هو الحالة أو الحياة المستمرة أو المنفعة، خيّرة وشرّيرة، ومن الأولى أولوا بقية:

«فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ. وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ» (11: 117) (وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى‏ وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ ..» (2: 248). ف «أُولُوا بَقِيَّةٍ» هم الذين يتولون بقية الحياة الخيّرة السليمة بما ينهون عن الفساد في الأرض.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 346

إذا فمن «بَقِيَّتُ اللَّهِ» هنا هو شعيب الذي يستبقى بدعواته الخيرة خير الحياة هنا وفي الأخرى، استبقاء بأمر اللّه لكن «وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» فإن أصل البقية هو اللّه، ومنها المنفعة البقية من التجارة، فالبقية الشيطانية شقية غير نقية لا تخلف إلّا فسادا أو كسادا لسلب الطمأنينة عن المشترين وبقية اللّه هي نقية تخلف ربحا لمكان الطمأنينة في المشترين، ومن ثم هي خير في الأخرى، وتلك الشيطانية هي شر فيها مهما تظاهرت بالوفيرة. فل-/ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» مصاديقها حسب ظروفها وملابساتها ومنها «بَقِيَّتُ اللَّهِ» في الدعوة المعصومة الرسالية وهي الحجة الأخيرة التي ليست بعدها حجة: القائم المهدي المنتظر من آل محمد عليهم السلام‏ «1» كما أن الرسول صلى الله عليه و آله-/ وبأحرى-/ هو بقية اللّه في حقل الرسل عليهم السلام. صحيح أن شعيبا بدعوته البقية هو بقية اللّه، وهكذا النبيون أجمع مع خلفاءهم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 392 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بسند متصل عن أحمد بن إسحاق بن سعدالأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي عليهما السلام علينا و على عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين فقال عليه السلام: يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على اللّه عزّ و جلّ و على حججه ما عرضت عليك ابني هذا، انه سمي رسول اللّه صلى الله عليه و آله-/ إلى أن قال-/: فنطق الغلام عليه السلام بلسان عربي فصيح فقال: انا بقية اللّه في أرضه و المنتقم من أعداءه و لا تطلب أثرا بعد عني ... وفيه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه القائم عليه السلام يقول فيه: فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة و اجتمع إليه ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا فأول ما ينطق به هذه الآية: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ثم يقول: أنا بقية اللّه و حجته و خليفته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية اللّه في أرضه، و فيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام و قد ذكر الحجج، هم بقية اللّه يعني المهدي عليه السلام الذي يأتي عند انقضاء هذه الفطرة فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا، وفيه عن أصول الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام سأله رجل عن القائم عليه السلام كيف يسلم عليه؟ قال: يقولون: السلام عليك يا بقية اللّه ثم قرأ «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 347

وبأحرى محمد صلى الله عليه و آله بخلفائه عليهم السلام‏ «1»، ولكن صاحب الأمر هو بقية أخيرة عالمية، ففيه زوايا ثلاث من «بَقِيَّتُ اللَّهِ»: زاوية مشتركة مع سائر «بَقِيَّتُ اللَّهِ» هي رمز الإبقاء لحياة سليمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 391 في عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب ذكر مولد الرضا-/-/ عليه السلام عن علي بن ميثم عن أبيه قال: سمعت أمي تقول: سمعت نجمة أم الرضا عليها السلام تقول: لما حملت بابني علي لم أشعر بثقل الحمل و كنت أسمع في منامي تسبيحا و تهليلا و تمجيدا من بطني فيفزعني ذلك و يهولني فإذا انتبهت لم أسمع شيئا فلما وضعته وقع إلى الأرض واضعا يده على الأرض رافعا رأسه إلى السماء يحرك شفتيه كأنه يتكلم، فدخل إليه أبوه موسى بن جعفر عليهما السلام فقال لي: هنيئا يا نجمة كرامة ربك، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذن في أذنه الأيمن و أقام في الأيسر و دعا بماء الفرات فحنكه به ثم رده إلي و قال: خذيه فانه بقية اللّه عزّ و جلّ في أرضه. وفيه عن أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك و صار ببابه قال لأصحابه و من كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد و بخت محمد بن علي ثم رأيتموني قد سكتّ فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبخه ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر عليه السلام قال بيده: السلام عليكم، فعمهم جميعا بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقا بتركه السلام عليه بالخلافة و جلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه و يقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين و دعا إلى نفسه و زعم أنه الإمام سفها و قلة علم، و وبخه بما أراد أن يوبخه، فلما سكت أقبل عليه القوم رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم، فلما سكت القوم نهض عليه السلام قائما ثم قال: يا أيها الناس أين تذهبون و أين يراد بكم؟ بنا هدى اللّه أولكم و بنا يختم اللّه آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكا مؤجلا و ليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة، يقول اللّه عزّ و جلّ: و العاقبة للمتقين، فأمر به إلى الحبس فلما صار إلى الحبس تكلم فلم يبق في الحبس رجل إلا ترشفه و حن إليه فجاء صاحب الحبس إلى هشام فقال له: يا أمير المؤمنين اني خائف عليك من أهل الشام أن يحولوا بينك و بين مجلسك هذا ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو و أصحابه ليردوا إلى المدينة و أمر ألا يخرج لهم الأسواق و حال بينهم و بين الطعام و الشراب فساروا ثلاثا لا يجدون طعاما و لا شرابا حتى انتهوا إلى مدين فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع و العطش، قال: فصعد جبلا يشرف عليهم فقال بأعلى صوته: يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية اللّه يقول اللّه: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» قال: و كان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم هذه و اللّه دعوة شعيب النبي و اللّه لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم و من تحت أرجلكم فصدقوني في هذه المرة و أطيعوني و كذبوني فيما تستأنفون فإني ناصح لكم، فبادروا فأخرجوا إلى محمد بن علي عليهما السلام و أصحابه بالأسواق فبلغ هشام بن عبد الملك خبر الشيخ فبعث إليه فحمله فلم يدر ما صنع به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 348

صالحة إيمانية. و أخريان تختصان به، أولاهما أنه البقية الأخيرة لحقل «بَقِيَّتُ اللَّهِ» وأخراهما أنه الذي به يملأ اللّه الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا، وهكذا بقية ربانية تحلق على المكلفين كلهم هي منقطع النظير بين كل بشير ونذير. و في التالي خطب للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول بقية اللّه المهدي القائم عجل اللّه تعالى فرجه: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي». «.. ألا وفي غد-/ وسيأتي غد بما لا تعرفون-/ يأتي الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها، وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتلقي إليه سلما مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة وتحيي ميّت الكتاب والسنة» (الخطبة 136). «فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد، ولا تستبطئوا ما يجي‏ء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد، يا قوم هذا إبّان ورود كل موعود، و دنوّ من طلعة ما لا تعرفون، ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين، ليحلّ فيها ربقا، ويعتق رقا، ويصدع شعبا، ويشعب صدعا، في سترة عن الناس، لا يبصر القائف أثره، ولو تابع نظره، ثم ليشحذنّ فيها قوم شحذ القين الفصل، تجلى بالتنزيل أبصارهم، ويرمى بالتفسير في مسامعهم، ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح .. قد لبس الحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها و التفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 349

أنبياءه» (180). أجل، إنه البقية المتميزة بين «أُولُوا بَقِيَّةٍ» لا في مقامه السامي، فإن محمدا صلى الله عليه و آله أسمى منه، و إنما في تحقيق البقية المحمدية وسائر البقيات النقيات الرسالية على مدار الزمن الرسالي. هنا في حقل البقية «اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (20: 73) ثم بقية منه هم الدعاة إلى اللّه، ثم الدعوة إلى اللّه، ف «بَقِيَّتُ اللَّهِ»-/ هي في الأصل-/ البقية الربانية من اللّه، إبقاء على من يتبع شرعة اللّه، ثم الذين يحملون شرعة اللّه برسالته ودعوته، ومن ثم البقية الباقية من الدعاة المعصومين عليهم السلام إلى اللّه، وهو بقيت اللّه في الأرضين صاحب العصر وحجة الدهر القائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه و آله. ففي حين يصدق على شعيب أنه من «بَقِيَّتُ اللَّهِ» ولكن «ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» يحوّل الأصل في هذه البقية إلى اللّه، أنه البقية الحفيظة، وما الذين يحملون رسالاته إلا بقيات منه وبإذنه، وليسوا حفاظا لا في تحقق الهدى ولا في تطبيق شرعة، اللّهم إلّا هدى دلالية معصومة باللّه، وبمثل ذلك الأسلوب المرن الحذير، البشير النذير، يشعر المخاطبون بخطورة الموقف وثقل التبعة واقفين وجها لوجه أمام العاقبة التي ترقبهم بلا وسيط ولا حفيظ. ذلك و «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» تخرج الناقصين في المكيال والميزان عن الإيمان حين يزعمون أن هذه البقية الباغية خير من البقية النقية الساغية!. فكما أن المتعودين على الربا يقال لهم: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (2: 279) كذلك الناقصين في المكيال والميزان يقال لهم: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». و إنما قالوا «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ» لأنها أظهر مظاهر الإيمان، وأن شعيبا كان دائب الصلاة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 350

لأنها خير موضوع وقربان كل تقي، وهم كانوا دائبي الهزء به إذا مروا به وهو يصلي، فلما وعظهم ردوا عليه بما كان يفعله، قاصدين أنت شأنك وصلاتك فما يخصك بما نعتقد أو نعمل «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ...». قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87). ردّ مردود في كافة الحقول الإنسانية السليمة، واضح التهكم، بيّن الهزء. سخرية الجاهل المطموس المركوس حين لا يجد أي‏رد عاقل «قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ..» فما هي الصلة بين صلاتك، وأن نترك نحن حريتنا في العقيدة والعمل وأن نترك ما يعبد آباءنا أو «أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا» فأنت على شغلك وهو صلاتك ونحن على أشغالنا بسنتنا العريقة التي لسنا لنتحلل عنها «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» يقولونها هازئين، أم ومتسائلين مستنكرين أن لست حليما ولا رشيدا، أم أن هذه الدعوة لا تناسب الحلم والرشد. فكما أننا لا نتدخّل في صلاتك فلا تتدخل أنت كذلك في صلاتنا العقيدية والعملية أيها الحليم الرشيد! فليس من الرشد أن تأمرنا بما لا صلة له بصلاتك وسائر عبادتك وأية صلاتك، فقد «كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا» بالحلم والرشد، فكيف تأمرنا بخلاف الرشد؟!. و رغم أن هؤلاء الأغباش المجاهيل لم يجدوا بمحضرهم من الهزء في المفاصلة التامة إلّا صلاته وعبادتهم وتجارتهم الباخسة، نرى أن الصلاة الناشئة عن عقيدة التوحيد هي مع سائر الشؤون الحيوية لحمة واحدة، فالشعائر كلها ومعها المعاملات كلها هي ذات صلة عريقة قريبة بصالح العقيدة، ف «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ، وَ الْمُنْكَرِ» فهي الآمرة بكل عرف والناهية عن كل نكر.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 351

ذلك، وقد نرى الجاهلية المتحضرة هي أنكى من الغابرة في أمثال هذه المواجهات الجاهلة مع دعاة الحق، ولا فحسب في الجاهلية الملحدة أو المشركة. بل والجاهلية التي تسربت إلى أدمغة مجاهيل من المسلمين فترسبت فيها لحد خيّل إليهم أن لكل من العقيدة و عمليات الحياة دورها الخاص، قد تجتمعان وقد تفترقان، فقد يتساءلون: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي الذي يخصنا في صالح الحياة، وما أشبه من تساءلات تشابه «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» تعريضا بضدهما حيث الحليم الرشيد لا يدعوا لما لا يخصه دون صلة بين اختصاصه واختصاص الآخرين! فليس من الرشد أن ينظر الإنسان إلى مجتمعه من منظره الشخصي، فإذا هو مسلوب الحرية بصلاته أم أية صلاته، يحاول أن يسلب-/ كذلك-/ حريات الآخرين!. فلا حجة في صلاتك أن نترك نحن الجماهير حرياتنا العقيدية والعملية، فلأن أنفسنا هي أنفسنا وأموالنا هي أموالنا، فكلا التحديد والتهديد لما نعتقد أو نعمل خارجان عن الطريقة السليمة المألوفة بين بني نوع الإنسان. ذلك لأنهم أجمع على مختلف دركاتهم لم يعرفوا صلة العقيدة الصالحة بصالح الحياة الإنسانية حاضرة في كل حقولها، فأول ما تصلحه العقيدة الصالحة هو الحياة الحاضرة ومن وراء الأخرى التي هي من خلفياتها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏». و هنا يتلطف شعيب كأن لم يسمع إلى هذه السخرية، حاسبا أنهم يتطلبون بينة يسندون إليها كسائر الدعاة إلى اللّه الذين يحاولون في حمل الناس إلى الحق دون صغي لباطلهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 352

العاطل، ولا إجابة عن سخرياتهم الهازئة: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (88). «عَلى‏ بَيِّنَةٍ» كسائر بينات الرسل في المغزى والمعنى، والرسول بنفسه بينة تبين حق رسالته، ثم «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» فلا أخالفكم في قضية الفطرة والعقلية السليمة أو الشرعة الربانية، ولا أخالفكم بصلاتي إلى ما أنهاكم عنه، فالفطرة والعقلية السليمة ورسالات اللّه كلها، وصلاتي أنا، كلها عساكر من البراهين لصالح ما أنهاكم وآمركم، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» دون تأمر عليكم لا يعنى «وَ ما تَوْفِيقِي» في دعوة الحق وتحقيقه «إِلَّا بِاللَّهِ» فما أنا إلا رسول اللّه «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» لا على سواه «وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» لا إلى سواه. و هنا في «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» لمحة صارحة أن إرادة مخالفة الناهي لما ينهى عنه هي من المنكرات، فضلا عن أصل المخالفة ولا سيما إذا كانت جاهرة، وهكذا الأمر في الأمر: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (2:

44) (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 347-/ أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت: انتهى عن المواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نساءك، فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 353

فهذه نصوص ثلاثة تحظر عن مخالفة الآمر والناهي ما يأمر به أو ينهى عنه، وأنه خلاف العقل ومقت كبير. و لما ذا «أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» دون «فيما أنهاكم عنه»؟ علّها المخالفة الناحية منحى النهي، أنني ما أريد مخالفة في نفسي ناشبة إلى ما أنهاكم عنه حتى تحتجوا علي بما أخالفكم، فإن الاقتراف الجاهر للحرام له تأثير عظيم سلبي في مادة النهي، حيث يحرض المنهي على الإصرار فيه‏ «1». و هنا «ما أُرِيدُ» تجعل نفس هذه الإرادة محظورة فضلا عن فعلها خفية أو جهارا، فقد يحظر على ذلك الثالوث، فيحظر عن النهي المخالف للإرادة والفعل. و وجه آخر أنني ما أريد أن أخالفكم فيما تحكم به فطركم وعقولكم قصدا فيها إلى ما أنهاكم عنه، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» وليس إصلاح الفاسد تصرفا معاديا مهما سلب حرية ليست بحريّة للإنسان العاقل، إذ ليست كلّ حرية محبورة، حيث الحريات الجاهلة والشهوانية التي تصطدم كرامة الإنسان في شخصه وفي الآخرين، هذه الحرية محظورة يجب على الصالحين تحديدها. و العقلية الصالحة الحنونة في الإنسان، المدني الاجتماعي بالطبع، تقتضي المحاولة في إصلاح الآخرين العائشين معه كما يصلح نفسه، فضلا عما إذا كان رسول ربه في الإصلاح. و لأن الحريات الطليقة لأفراد المجتمع متصادمة، فلا بد من تحديدها عن أي‏تصادم إلى تلائم يقوم به صالح المجتمع نفسه، وإنما يقود ذلك التحديد المصلحون الصالحون ولا سيما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي عليه السلام قال قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أوصني ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 354

الرساليون، ومن أمارات ذلك الإصلاح أن يأمر المصلح بما هو مؤتمر به، وأن ينهى عما هو منته عنه. فالحرّيّة الحريّة بالإنسان في حياته الإنسانية هي المحددة بالفطرة والعقلية السليمة المكمّلتين بالحدود والقرارات الشرعية، حتى يصبح المجتمع الإنساني آمنا عن كافة الاضطرابات والاصطكاكات والتحرّجات: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» (28: 68) (وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً» (33: 36). فكما الحرية الإنسانية فطرية، يتوخاها الإنسان كأصل في حياته، كذلك تحديدها بالحدود الصالحة التي تصلحها، ومثالا لذلك المركبات المقصود منها السير وسرعته، ولكنها-/ أيضا-/ بحاجة إلى سواق عقلاء يضبطون مسيراتها ومصيراتها عن الاصطدامات. أجل، فالمصلح عليه أولا أن يصلح نفسه ثم يصلح الآخرين بصلاحه وبكل سلاحه الصالح في الدعوة، دون مخالفة أو إرادتها إلى ما يأمر به أو ينهى عنه. 375 و لأن إرادة المخالفة لما ينهى عنه إفساد للمنهي والنهي، لذلك قابلها ب «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ». و هنا لما يقول الإمام علي عليه السلام يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أوصني، قال: قل ربي اللّه ثم استقم-/ يقول-/ قلت: ربي اللّه وما توفيقي إلّا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب» قال صلى الله عليه و آله: ليهنك العلم أبا الحسن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 355

لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا» «1». و توفيق اللّه هو جعل قال العبد وحاله وفعاله وفقا لمرضاته في محبور أو محظور، فعلا لمحبور وتركا لمحظور «2». فحين خيل إلى قوم شعيب أنه ينهاهم عما لا صلة له بما هو شغله يرد عليهم صارخا «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» بل أنا أوافقكم في الانتهاء عما أنهاكم عنه، فكما أن صلاتي تنهاني عن الفحشاء والمنكر عقيديا وعمليا، فأنا أنهاكم عن الفحشاء عقيديا وعمليا. وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89). أنتم تشاقّونني في صالح الدعوة، حيث تجعلونني في شق «صلاتي» وتجعلون أنفسكم في شق عبادتكم وفعلكم في أموالكم وكل شقاوتكم كما تشاءون، قاطعي الصلة بين الشقين بكل مفاصلة، كما تجعلون شقا بين رسالتي ككل وما أنتم عليه، ولكن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقال خالفني فلان إلى كذا قصده و أنت مول عنه، و خالفني عنه إذا ولى عنه و أنت قاصده و يلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه ذهب إليه واردا و أنا ذاهب عنه صادرا، و هذا الأخير هو المعنى من الآية كما بيناه‏

(2). نور الثقلين 2: 393 في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد اللّه بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل و فيه: فقلت قوله عزّ و جلّ: و ما توفيقي إلا باللّه، و قوله عزّ و جلّ: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ»؟ فقال: إذا فعل العبد ما أمره اللّه عزّ و جلّ به من الطاعة كان فعله وفقا لأمر اللّه عزّ و جلّ و سمي العبد به موفقا و إذا أراد العبد أن يدخل في شي‏ء من معاصي اللّه فحال اللّه تبارك و تعالى بينه و بين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق اللّه تعالى ذكره و متى خلى بينه و بينها حتى يرتكبها فقد خذله و لم ينصره و لم يوفقه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 356

«يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ» قطعا قاطعا لا مردّ له لثمرة الحياة الإنسانية «أَنْ يُصِيبَكُمْ» من جرّاءه «مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» مثل ما أصابهم بما أجرموا شقاقا قاطعا. و قد يعني نفي بعدهم عنهم زمانيا ومكانيا، فقد كان الفصل الزمني ثلاثة قرون، ثم المكان هو القرب بين مدين وسدوم. وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90). أ طلبوا غفره عما مضى رفعا، وعما يستقبل دفعا، طلبا بقال من حال في أعمال «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» بعد كامل الاستغفار ف-/ «إِنَّ رَبِّي» الذي رباني بهذه الرحمة والليونة والوداد، «رحيم» بكم «ودود» لا يرد قاصديه، إذا قصدوه، ولا مستغفريه إذا استغفروه، فهنا «ربي» اعتبارا بخبرته الرسالية أنه رحيم ودود، وهناك «ربكم» اعتبارا بالمعرفة العامة بربوبيته، ثم الجمع بينهما جمع بينهم وبينه في ربوبيته تعالى، ولمحة إلى خاصة ربوبيته له رسولا إليهم. قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91). هنا ك «لا نفقه» وجوه عدة، منها أن «على أذاننا وقر» فلا نصغي إليك حتى نفقه ما تقول، و أخرى أنّ على قلوبنا أكنة أن نفقه ما تقول كما «وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» (6: 25) وثالثة أننا لا تقنعنا حججك، فإنها داحضة لا تثبت حقا تدعيه، فلا نفهم مدعاك بدعواك، هذه وما أشبه من عاذرة غادرة من هؤلاء الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا. ذلك والفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وليست حجتك وصلة حاضرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 357

لبغية غائبة ف «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ..». أجل «قالُوا يا شُعَيْبُ» لأنك في شق صلاتك ونحن في شق آخر فلا تجاوب بيننا ولا تفاهم، ولأنك لا تقول صالحا تقبله العقول. إذا «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ» وهكذا تقول الجاهلية المتحضرة نسخة حاضرة عن الغابرة و على طول الخط، تقول أمام كافة الحجج الرسالية البالغة «لا نفهم» حطّا لموقعها عن أن تفهم، وأنها لغز وأساطير لا يفهمها الفاهمون، وإعذارا لأنفسهم ألّا حجة فيما لا يفهمه المكلفون. أجل «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ» فلا قوة لك في الحجة تفهم أو تفحم «وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» لا تقوى علينا، ولا تعني «ضعيفا» أنه أعمى كما قيل، فقد يكون الأعمى أقوى من البصير، وأن العمى ليست نسبية، وهنا «فينا» تختص ضعفه بذلك الظرف، فلا قوة لك في هذه اللجة تفحم، فتحملنا على قبوله بتأمل أو تعمّل، اللّهم إلّا رهطك، «وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» وهو أنحس عذاب وأتعسه ثم «وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» لا عزة الحجة ولا عزة القوة، فأنت بيننا ضعيف ضعيف لا دور لك إلّا كور، وإنما العزيز المانع من رجمك هو رهطك بعزة المنعة أم عزة الكرامة أماهيه. فحين تفرغ النفوس من العقلية الصالحة وتغرق في الجاهلية الطالحة الكالحة، فإنها تقبع على الأرض بشهواتها ومصالحها الحيوانية، إذا فلا ترى حرمة لدعوة كريمة، ولا تتحرّج عن أي بطش بالداعية الصالحة، إلّا أن تكون عصبة تعصبه وتؤويه، أم قوة مادية أخرى تحميه، وأما حرمة الحق وكرامته فلا وزن لها ولا ظل في هذه النفوس النحيسة الذليلة الفارغة الخاوية!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 358

«فو الله الذي لا إله إلا هو ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة» «1». و هنا ينبري شعيب بالغيرة الرسولية على جلال ربه بدعوته الربانية السامية، متحللا عن الاعتزاز برهطه ومن أشبه أو ما أشبه من قوة أرضية، إجابة أخيرة عن شطحاتهم فيها كل قوة وشهامة، إذراء وإزراء بما لهم من قوة ذرو الرياح: قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93). كلمة أخيرة حاسمة قاصمة تفصل بينه وبين هؤلاء الأنكاد، بعد ما فشلت كافة المحاولات الرسولية حكمة وموعظة حسنة في هؤلاء البعاد، وهي كلمة القوة والغلبة بما قدر اللّه وقرر لرسله ورسالاته: «أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» وأنتم تعرفون رهطي وتعرفون اللّه «وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا» أمام آلهتكم التي ألهتكم، وهو إله الآلهة كما تقولون «إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» حيطة العلم والقدرة. و هذا إزراء بازراء، حيث انتقصوه «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ! ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» هزء به ألا حلم لك ولا رشد، أنكم لا عقلية لكم مهما كانت قليلة حيث تحسبون رهطي أعز عليكم من اللّه»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 348-/ أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: «وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» قال: كان مكفوفا فنسبوه إلى الضعف «وَ لَوْ لا رَهْطُكَ»، قال علي: فو اللّه الذي ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 359

إذا ف «اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ» والمكانة هي الحالة التي يتمكن صاحبها فيها مما يريد، فأنتم المتمكنون اعملوا في رجمي أمّا تريدون من القضاء عليّ، بكل طاقاتكم وإمكانياتكم، اعملوا ضدي رجما وسواه من رجوم «إِنِّي عامِلٌ» كما تعملون، وأين عمل من عمل وأمل من أمل، عمل شيطاني وعمل رباني و «سَوْفَ تَعْلَمُونَ»-/ عين اليقين-/ «مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ» بيننا أنا أو أنتم «وَ ارْتَقِبُوا» خلفيّة ما تعملون «إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ما أعمل، والذي سوف يصلكم من عذاب اللّه ويصلني من رحمته، وإن «انتظار الفرج من الفرج» «1» كما انتظار الحرج من الحرج. و يا لها من حجة أخيرة حاسمة تغمرهم في لجّة، فلو لم يكن رسولا من اللّه لاستراح في تهديدهم إلى رهطه الذين هم يحذرونهم، دون أن يرفضهم ويفرض ما يدعوا إليه من توحيد اللّه وهم يرفضون. فالعاقل يغتنم كل فرصة حاضرة في خضمّ الأخطار، والغريق يتشبث بكل حشيش، فضلا عما ينجيه دون تشبث، فحين يترك شعيب رهطه الذين هم المنعة الوحيدة عن أخطار قومه، وتشبث بعناية ربه ورحمته من ناحية، ومن عذابه عليهم من أخرى، فذلك الصمود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 393 في تفسير العياشي عن محمد بن الفضل عن الرضا عليه السلام-/ قال: سألته عن انتظار الفرج من الفرج؟ قال: إن اللّه تبارك و تعالى يقول «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ». وفيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال قال الرضا عليه السلام: ما أحسن الصبر و انتظار الفرج أما سمعت قول اللّه عزّ و جلّ يقول: «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ». و قوله: «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» فعليكم بالصبر فإنما يجي‏ء الفرج على اليأس فقد كان الذي من قبلكم أصبر منكم، وفيه عن المجمع روى عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: كان شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 360

برهان قاطع أخير لا مرد له أن صاحبه رسول من اللّه دون هوادة. أجل، والمؤمن لا يتعصب بأية عصبة وقوة في الظروف المحرجة إلّا بربه، مما يزيده إيماناً على إيمانه، ويزيد أعداءه حجة على حجته، فعصبية المؤمن ليست لأي‏حول أو قوة أو منعة إلّا حول ربه وقوته ومنعته، وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الإيماني والجاهلي في كل أزماته وبيئاته. ذلك، وبعد هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ» (7: 93) ومن ثم العذاب الموعود: ج سورة هود (11): الآيات 95 الى 321 ج‏كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (100) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الآْخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 361

رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّايَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113) وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ (114) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ (115) فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (117) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 362

شعيب‏

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95). «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا» الذي أمرنا وعدا، وهو «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» (26: 189) جاء تحقيقا، «نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» مما يدل على أنه حصل على مؤمنين في حجاجه الطويل الطويل «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» رحيمية خاصة بالرساليين من عبادنا الصالحين «وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» المدمرة المزمجرة التي خلّفت صاعقة العذاب الهون بما كانوا يعملون «فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ» على الأرض كما يجثم الطائر إذا قعد ولطئ بالأرض ساقطا بصيده، فقد صادت هؤلاء الطير الوحش صيحة من عذاب اللّه وجثمتهم «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها» وسكنوا وقتا ما، إذ ما بقيت لهم من باقية، «ألا بعدا لعاد كما بعدت ثمود» بعدا لهم بعيدا حيث طويت صفحتهم عن الوجود، وصحيفتهم عن التاريخ، اللّهم إلّا بكل لؤم وشؤم كما تكررت في هذه الإذاعة القرآنية. هذا شعيب عليه السلام في دعوته الصالحة، وقد قال عنه أخوه الأكبر محمد صلى الله عليه و آله: «بكى شعيب عليه السلام من حب اللّه حتى عمي فرد اللّه عليه بصره وأوحى اللّه إليه يا شعيب ما هذا البكاء، أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال: لا! ولكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي، فأوحى اللّه إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقا فهنيئا لك لقائي، يا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 363

شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي» «1». و موسى عليه السلام هو آخر نبي في هذا العرض المسلسل لأنبياء عدّة، ولكنه خاصر يكتفى فيه بإرساله إلى فرعون وملاءه بآيات رسولية ورسالية «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» ثم «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» وقد يغني المضي في «أوردهم» دون «يودهم» أنه أوردهم النار في الحياة الدنيا من ذي قبل، فهم يردون النار التي أوردهموها من قبل «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ». فقد جعل فرعون في هذه الاستعارة اللطيفة، في تقدمه قومه إلى النار، بمنزلة الفارط المتقدم للوارد إلى الورد، كما كان في الدنيا متقدمهم إلى الضلالة وقائدهم إلى الغواية، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» فإنه ورد لا يجيز الغصة ولا ينقع الغلة. و بينما نسمع هنا حكاية عن ماض ووعدا عن مستقبل إذا المشهد ينقلب وكأن المستقبل ماض قد مضى، إذ قد مضى أصله، وهو متحقق الوقوع في المستقبل. و هنا «سُلْطانٍ مُبِينٍ» بعد «بآياتنا» توصيف رصيف لآليات، بأن فيها سلطة مبينة، ثم تعميم بعد تخصيص حيث الآيات هي الآيات المعجزات، وسلطان مبين هو كل البينات التي تبيّن الحق سواء أكانت هي الآيات المعجزات، أم سواها من حجج بالغة ربانية، فمن السلطان مبين ومنه غير مبين، فالسلطان الفاضي عن الحجة هو قاهر قاصر عن المحجة، و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 348-/ أخرج الواحدي و ابن عساكر عن شداد بن أوس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ... و في البحار 12: 380 مثله عن الزهري بزيادة مرتين أخريتين لبكائه و عماه فرد اللّه عليه بصره فلما كانت الرابعة أوحى اللّه إليه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 364

السلطان الفائض بالحجة هو سلطان على الفطر والعقول، وقد يجتمعان كما في سلطان ثعبان العصى فإنه برهان حسي مخيف، وأفضل منه سلطان القرآن حيث هو مجمع كل سلطان في كل الحقول، فطريا وعقليا وعلميا وحسيا وما أشبه. ثم الورد هو الماء الذي يرده الحيوان العطاش، وهو المورود لهم، والإنسان بطبيعة الحال له ورد مورود بما يقدمه من أعمال، فإن كانت صالحة فنعم الورد المورود هنا وفي الأخرى، وإن كانت طالحة فبئس الورد المورود فيهما، حيث «يسقون» الأولون «مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» (83: 26) ثم الآخرون لهم سقي الزقوم «يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (40: 72): و «لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ» (6: 70) حيث «قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ. وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ» (22: 21). و لأن الورد المورود هو في المصطلح ورد قطيع الغنم العطاش بما يودها رعاتها، فهنا اللمحة اللّامعة أن قوم فرعون كانوا كقطيع الغنم يقدمها راعيها الخائن الفرعوني فأوردها ورد النار بديلا عن الماء، فهو ورد الممات بديلا عن ورد الحياة. ذلك، فأين ورد مورود من ورد مورود؟ وأين رحيق مختوم من ماء حميم محموم؟. «وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ» الدنيا «لعنة» حيث تلعنهم سنتهم الباقية الباغية بمن تبعهم إلى يوم القيامة، فإن من سنّ سنة سيئة كان عليه وزره إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شي‏ء. ثم «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» بلعنة العذاب الحاضر، بعد لعنة اللّاعنين بما التعنوا به من الطالحين أم لعنوه من الصالحين، و «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» وهو العطية الربانية جزاء لهم وفاقا، بديلة عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 365

العطية الموعودة للصالحين، فكلا الورد المورود والرفد المرفود هما من مخلّفات المساعي الصالحة والطالحة «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا». ذلك، ومن واجهة أخرى كما أن «بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» هو ورد فرعون بما أضلهم، كذلك «الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» هو رفده وعطيته بما وعدهم كما وعد السحرة جزيل العطاء، فهو ذا رفده لمن اتبعه، وذاك ورده لمن أورده. ذلك، ولأن حقيقة الرفد هي العطية وقد جعلت اللعنة بديلة من الرفد لهم عند انتقالهم من دار إلى دار على عادة المنتجع المسترفد، أو الرجل المتزود، جاز أن يسمى رفدا بوجه المجاز وكما قال تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» والبشارة هي بطبيعة الحال لا تكون إلّا في الخير، ولكن لما جعل إخبارهم باستحقاق العذاب في موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب، جاز أن يسمى في ذلك بشارة، أم لو كانت لهم بشارة فهي اللعنة المتبعة يوم القيامة، فضلا عن النذارة. ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (100). النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، وهكذا تكون كل الأنباء القرآنية والقصص المسرودة فيه، فإنه ليس كتابا قصصيا يعني عرض الأحداث فقط، فإنما يعني الفوائد العظيمة الرسالية التي تضمها، فلذلك يعبر عنها تارة بالأنباء، وأخرى بالقصص، والقصد إلى قصّ تاريخي عن طوماره، ما فيه فائدة عظيمة جسيمة. ف «ذلك» الإنباء الرسولي والرسالي هو «مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏» المتخلفة عن رسالات اللّه «نَقُصُّهُ عَلَيْكَ» من غابر التاريخ دون سرد لكل محاصيله، ف «منها» هذه القرى المقصوصة عليك «قائم» بنفاد أهلها أم بقاء بعض منهم «و» منها «حصيد» حصدت مع أهليها، فقد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 366

تعم «قائِمٌ وَ حَصِيدٌ» القرى بأهليها، بل والقرى في الأصل هي الأهلون، وتطلق على أمكنتهم بمجاز الملابسة. فالوصفان بالنسبة لأمكنتهم يعنيان: منها قائم البناء، خال من الأهل، ومنها منقوض الأبنية ملحق بالأرض تشبيها بالزرع المحصود. و هما بالنسبة لهم أنفسهم تشبيه للأحياء الباقين بالزرع النامي، وللأموات الهالكين بالزرع الذاوي، وذلك أحسن تمثيل وأوقع تشبيه. أجل «و إن لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة، أين الفراعنة وأبناء الفراعنة، أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن» (من الخطبة 181). فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65). و كيف «فَعَقَرُوها» وإنما عقرها واحد منهم؟ لمكان «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (54: 29)؟ ذلك لأنهم نادوه لعقرها راضين عنه مشجّعين إياه، فقد عاونوه على عقرها فهم إذا كلهم عاقرون، وهذه معاونة على الإثم والعدوان، تعدّ المعاونين كلهم آثمين عادين مهما اختلفت دركاته بين الأصيل والفصيل. فيا «أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بعذاب لما عمّوه بالرضى فقال سبحانه: «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 367

في الأرض الخوارة» «1». فهذه ضابطة عامة مستفادة من «فَعَقَرُوها» أن سبب الجريمة ومباشرها مجرمان اثنان مهما اختلفت دركاتها حسب مختلف حركاتها، فلكلّ عقوبته جزاء وفاقا، طالما يستثنى عن القود غير القاتل لنفس محترمة ما لم يكن مباشرا، فلا يقتص من غير المباشر اللّهم إلّا نصيبا من الدية المفروضة في مجالاتها، أم إذا كان هو أقوى من المباشر لحد يعتبر هو المباشر. و هؤلاء العاقرون الناقة عقروها بما عقرها صاحبهم المنادي لهم لعقرها وهو «أحمر ثمود» «2» كما قال اللّه: «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» (7: 77) حيث أمرهم أن «ذروها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ» ولكنهم تعاونوا على إثم العقر وعدوانه نداء لصاحبهم بديلا عن منعه عن عقرها: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها» (91: 14). «فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» هي «عَذابٌ قَرِيبٌ» و «ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ». فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66). و «أمرنا» هذا هو «صاعقة» (41: 13) (طاغية»: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» (69: 5) وصيحة كما هنا، صاعقة طاغية، سائغة لهؤلاء الطائفة الصاعقة الطاغية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام‏

(2). البحار 11: 376 عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا و علي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة العشيرة نائمين في‏صور من النخل و دقعاء من التراب فو الله ما أهبنا إلا رسول الله-/-/ صلى الله عليه و آله يحركنا برجله و قد تترّبنا من تلك الدقعاء فقال صلى الله عليه و آله ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: أحمر ثمود الذي عقر الناقة و الذي يضربك يا علي على هذه-/ و وضع يده على قرنه-/ حتى يبل منها هذه-/ و أخذ بلحيته-/

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 368

فقد «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها .. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها»! وهنا «نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» هي رحمة الإيمان، ورحمة من اللّه لأهل الإيمان ثم «وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» إذ كان عذابا مخزيا، ثم خزي يوم القيامة فإنه أخزى، «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فبقوته وعزته يعذب أهله ويرحم أهلها. و هو «قوي لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه، ولا احتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصا كان غير قديم وكان عاجزا». وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لَثمُودَ (68). هذه صيحة مدمرة وصاعقة طاغية مدمدمة مزمجرة، أخذت «الَّذِينَ ظَلَمُوا» أخذة قاسية قاضية «فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ» وهي قريتهم بدورها وشرورها «جاثمين» حسوما جاسمين، واقعين على وجوههم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. وي «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها»: إقامة، «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» فترى دورهم غير دورهم، ودورهم غير دورهم، إذ أصبحوا بدورهم بورا في دورهم، لا أثر عنهم إلّا حسرات تنادي بها أثرات. «أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ» عن فطرهم وعقولهم، حيث كفروا وستروا عن أنفسهم آيات اللّه آفاقية وأنفسية، فكفروا به وكذبوه وكذبوا رسله «أَلا بُعْداً لَثمُودَ»-/ «ألا بعدا لعاد كما بعدت ثمود» بعدا عن ذكرى التاريخ إلّا بسوء، وعن آثارهم إلّا دائرة بائرة، وعن مستقبلهم إلّا عذاب اللّه كما في ماضيهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 369

شعيب (ع)

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الُمجْرِمِينَ (25) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى‏ وَ صَرَّفْنَا الآْياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (28) ... تسليات عاليات لخاطر الرسول الأقدس محمد صلى الله عليه و آله: بما جرى على هود عليه السلام وعلى قومه بما خانوه وأهانوه وكانوا هم أقوى منهم واظلم وأطغى، فلم (الفرقان-/ م 4) تغن عنهم قوتهم ولا طغواهم وثروتهم شيئا، وبأحرى هؤلاء الذين ابتلي بهم الرسول محمد صلى الله عليه و آله. وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ «1» وَ اذْكُرْ زادا في سبيل الدعوة، وحيادا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 309-/ 310

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 370

عن الفشل في الحصول على البغية اذْكُرْ أَخا عادٍ: هودا عليه السلام أخا عاد الأولى، ولا خبر لنا عن الثانية وإنما الأولى: «أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏» (53: 50) مما يوحي بأنهم كانوا أقوى منهم وأظلم وأطغى، فلقد كانوا أقوى الأقوياء وأشد الأشداء في التاريخ. «اذْكُرْ أَخا عادٍ»: اخوة في الإنسانية والقومية والإقليمية والقرابة أم ماذا إلا صالح العقيدة، فهي بحذافيرها لا تنفع ما لم تكن اخوة الإيمان كما لم تنفع أخا عاد وكذلك أنت مع قومك. «أذكر ..» ماذا لقي من اخوته من كفر صارم، وتكذيب عارم، ثم ماذا لقوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (69: 8) وهم كانوا أقوى من قومك مكنة ورذالة، وأنت أقوى منه مكانة ورسالة. أَذْكُرَهُ ما طاب لك وطيّب خاطرك ولقد ذكر كما أمر بقوله صلى الله عليه و آله (يرحمنا الله وأخا عاد) «1» اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وترى أين الأحقاف، وهي الكتب المرتفعة من الرمال المعوجة حيث كانت منازل عاد؟ هل هي إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (89: 7) وقد كانت مبنية على الأحقاف: أراضي الرمول والصخور، المبنية عليها ارم ذات العماد، وهي بالشامات، وعلّها قلعة بعلبك، أو انها نموذج من تلكم العماد الحجرية المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 43-/ اخرج ابن ماجه و ابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 371

ام هي واد بين عمان ومهرة؟ «1» أو رمال بين عمان وحضر موت؟ «2» أو رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن‏ «3» أو منزل في طريق مكة من القادسية «4» أم ماذا؟ القدر المسلم قرآنيا ان الأحقاف هي أودية «5» الأراضى التي بنيت عليها ارم ذات العماد، و إذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك، العماد المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان، وقد يوحي ببقائها: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ»: السورة-/ أن دمرت الصرصر العاتية أشياعهم بأشيائهم إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين، إلا أن «لا يُرى‏ إِلَّا» هنا، لا تضمن بقاء الرؤية إلى زمن نزول القرآن، فضلا عن الآن، فقد تختص بوقت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يروى عن ابن عباس كما عنه و الضحاك انه جبل بالشام‏

(2). نقله في مجمع البيان: و قيل رمال فيما بين عمان الى حضر موت‏

(3). عن قتادة قال: ذكر لنا ان عادا كانوا احياء باليمن اهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر

(4). نور الثقلين 5: 18 نقلا عن الخرايج و الجرايح ان المهدي الخليفة أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي: (منزل في طريق مكة من القادسية الى العذيب) لعطش الحاج هناك، فحفروا اكثر من مائة قامة فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقا و إذا تحته هواء لا يدرى قعره و هو مظلم و للريح فيه دوي، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء و رأينا بيوتا قائمة و رجالا و نساء و إبلا و بقرا و غنما و كلما مسسنا شيئا رأيناه هباء فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو! فقدم ابو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام على المهدي فسأله عن ذلك فقال: هؤلاء اصحاب الأحقاف، و هم بقية من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم و ذكر على مثل قول الرجلين. وعن تفسير علي بن ابراهيم القمي قال حدثني أبي قال: امر المعتصم ان يحفر بالبطانية بئرا فحفروا ثلاثمائة قامة فلم يظهر الماء فتركه و لم يحفره، فلما ولي المتوكل امر ان يحفر ذلك البئر ابدا حتى يبلغ الماء فحفروا حتى وضعوا في كل مائة قامة بكرة حتى انتهوا الى صخرة، فضربوها بالمعول فانكسرت فخرج منها ريح باردة فمات من كان يقربها فأخبر المتوكل بذلك فلم يدر ما ذاك فقالوا: سل ابن الرضا عليه السلام و هو ابو الحسن بن محمد العسكري عليه السلام فكتب اليه يسأله عن ذلك فقال ابو الحسن عليه السلام: تلك بلاد الأحقاف و هم قوم عاد الذين أهلكهم اللّه عز و جل بالريح الصرصر. أقول: و لم يثبت احد من هذه الوجوه لأنها قيلات او اخبار آحاد اللهم الا ما يوحيه القرآن كما بينا.

(5). لقوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» فلتكن الأحقاف هي الاودية التي بنيت عليها ارم ذات‏العماد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 372

العذاب، ولفترة بعد تدميرهم، كما قد توحي له: فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (69: 8)؟ كلا! لا أشخاصا ولا آثارا، الا دمارا ومخازي وآصارا!: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (51: 42) ثم المساكن هي محال السكن: أعم من البيوت، فقد تعني محال البيوت، الأودية الأحقاف المبنية عليها ارم ذات العماد، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما في ثمود: أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا .. (27: 52). ولكن البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعني هي أيضا البيوت: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ .. (29: 38) فها هي مساكنهم مبينة زمن نزول القرآن ومرئية، ولا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية، لا أرضا مستوية أو عوجاء! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا! مبيّنة لحد الآن ومرئية ولا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون ارم ذات العماد. و بما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف ارم ذات العماد، وإلا لصرح به، فلنسكت عما سكت اللّه عنه، إلا ما نعرف من أنهم ألأم حماقى الطغيان، فأحقافهم من أشر الوديان‏ «1» ثم لا نتأكد من بقاء أثر من عاد. وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ وترى ماذا يعني بين يديه ومن خلفه؟ هل هم الرسل الذين خلوا قبله مِنْ خَلْفِهِ وخلوا في إنذارهم زمنه مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ: إذ عاصروه؟: فَإِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور-/ اخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي اللّه عنه قال: خير واديين في الناس وادي مكة و واديةارم بأرض الهند، و شر واديين في الناس وادي الأحقاف و واد بحضر موت يدعى برهوت يلقى فيه أرواح الكفار و خير بئر في الناس زمزم و شر بئر في الناس برهوت و هي ذاك الوادي الذي بحضر موت. أقول: «ارم» هنا لا يعني ارم ذات العماد، و إلا كان مطروحا مكذوبا على الامام علي إذ لا يقول ما ينافي القرآن: فان ارم فيه هي بالأحقاف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 373

أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ. إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (41: 14) والرسل هنا هم النذر هناك. فكما لا يعني مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ: هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم، إذ لم يأتوهم وإنما أتوا من بعدهم، وإنما هم الذين كانوا في زمنهم، ولا مِنْ خَلْفِهِمْ يعنيهم، وإنما الذين أتوا قبلهم، فإنذارهم من قبلهم من آباءهم إنذار لهم. فكذلك الرسل من بين يدي هود ومن خلفه، دون الذين أتوا من بعده، إذ لا صلة لمن بعده به ولا بهم ولا حجة له ولا لهم، وإنما الذين أنذروهم حاضرين ثم الذين أنذروا آباءهم، فلينذروا برسلهم حاضرين، أو غابرين حاذرين، فهم أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون، كقومك اللّدّ: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (36: 6). و دعوة الرسالات الماضية والحاضرة-/ وكذا المستقبلة هي في صيغة واحدة: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ دعوة واحدة إلى إله واحد دونما أي‏خلاف واختلاف، دعوة مركزة واحدة ثم إنذار واحد: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. و يَوْمٍ عَظِيمٍ في هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى، وبالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر، فيوم عذابهم عظيم في الدنيا كما هو عظيم في الآخرة. ف إِنِّي أَخافُ .. كما هي مقالة سائر المنذرين بين أيديهم ومن خلفهم، كذلك هي مقالة هود لعاد إذ يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة وكما قالوا: قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. توحي أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه، وكما يعمهم وسواهم كعذاب عام يوم الآخرة، فقد يعني اليومين العظيمين معا، أو يختص في وعد هود يوم الدنيا، بعد ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 374

وعدهم مرارا وتكرارا عذاب الآخرة. فيا لهذا الحمق الصارم والكفر العارم أن عادا يعكفون على آلهتهم كأنها الحقة القاطعة، دونما خوف من عذاب يوم عظيم، لحد يتهددون نبيهم: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». فلو ان عندهم احتمالا لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم، ولكنما القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا، فهم في نظرة العذاب، ويزعمون أن هودا هو الآتي بالعذاب، وكأنه إله مع اللّه!. «قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا» تصرفنا كذبا وافتراء «عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا» من عذاب يوم عظيم «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في نبوتك وانباءك: قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ «قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ»: لا يعدوه إلى سواه وان كان نبي اللّه، ف «إِنَّمَا الْعِلْمُ»: علم العذاب الموعود: ما هو؟

كيف هو؟ متى هو؟ كل ذلك عِنْدَ اللَّهِ! وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من وعد العذاب والوعد فقط، فلست أعلم ما هي حقيقة العذاب الموعود؟ ولا شكله وكيفيته؟ ولا متى يحين حينه، إنما وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ: بلاغا وإنذارا وعذابا أم ماذا!: وكما في نوح وأضرابه: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (11: 23). و هذه هي السنة العامة في معجزات المرسلين، انها من أفعال اللّه الخاصة وليست من أفعالهم، وانما تجري بإذن اللّه على أيديهم أم بوعدهم تثبيتا للحجة، وإيضاحا للمهجة، اللهم إلا ما يظهر اللّه تعالى على غيبه من يشاء منهم، وكما أرى ابراهيم كيف يحيي الموتى أم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 375

ماذا. «1» ف إِنَّمَا الْعِلْمُ علم المعجزات، كل العلم وبكل المعجزات عِنْدَ اللَّهِ وليس عندي. (و) انما أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ: من وعد العذاب ووعده فقط: وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ: فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث، قارعة حجتهم الداحضة: أولا بانحصار علم العذاب الآية باللّه، ثم انه ليس الا مبلغا عن اللّه، وأخيرا وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ!: تجهلون لا عن جهل قاصر: الجاهل جهله، وانما عن تجاهل مقصر، وهكذا الأكثرية الساحقة من الكافرين، أنهم متجاهلون تقصيرا، لا جاهلون قصورا: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى‏ وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (6: 111) إذا فأقلهم جاهلون وهم القاصرون!. إنه ليس في حجتي ما ترتابون، ولا عندكم ما به تحتجون وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ في كل ما تقولون وتقترحون من أقوالكم وأفعالكم، متخبطين فيها: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا (27: 14) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (11: 60).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد نشبع البحث عن المعجزات حقه في محالها الأنسب إنشاء الله تعالى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 376

أراكم تجهلون وحتى مصالحكم في الحياة الدنيا، إذ تطالبون أخاكم المرسل إليكم بكل رفق وحنان، تحقيق وعد العذاب عاجلا غير آجل، متهددين إياه: لو لم يأت به فهو كاذب في وعده!. ترى كيف تجهلون مدى وعدي؟ فلم يكن إلا وعدا غير موقت، وأن اللّه يأتي به إذا شاء لا أنا، ولكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان، فتستعجلون إلى ما تهوون غضا عما توعدون، ثم تكذبونني سلفا إن لم آت بما تقترحون، وإن في ذلك جهالات وحماقات: 1-/ وعدتكم ان اللّه يأتي بعذاب، وأنتم تطلبونه مني: فَأْتِ بِها! 2-/ ولم يكن الوعد مؤقتا وأنتم تستعجلون: فَأْتِ بِها وإذا لم استعجل فتكذبون: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»:

ثالوث الحماقة الجهالة!. داحضة بمثلث الحجة البالغة «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» وليس عندي علم لا بإتيان العذاب ولا بوقته «وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» من رسالات اللّه ومن وعد العذاب من اللّه غير موقوت: «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلنفرض انني ما جئت بالعذاب، فكيف أكون كاذبا وليس التعذيب من شأني؟ أو أجّل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقا وليس التعجيل من شأني؟. ثم وفي تعجيل العذاب كما عجل به عجالة دماركم فما ذا تربحون، أفآلهتكم هي التي تنجيكم من بأس اللّه، «أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ»! كما ولستم في تأجيله تخسرون وتكذّبون، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون، فأنتم أنتم الخاسرون في عاجل العذاب وآجله، فكيف تحمقون في مجابهة رسولكم الناصح الأمين، متهددين إياه بالتكذيب لو لم يأت بما تهوون، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك، والتشديد الفاتك .. «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون! ولكنها مستمرة وحتى إذا جاءكم تحسبونه عارضا يمطركم: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 377

فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ. «فَلَمَّا رَأَوْهُ»: العذاب الموعود، والمستعجل به رأوه «عارضا» سحابا يعرض في الأفق ثم يطبق في السماء «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ»: تستقبل مخازن مياههم وكأنها موجهة لها لتمطرها وتملأها ماء، وذلك بعد ما أصابهم حر وعطش شديد «قالوا»: استبشارا بعارض ممطر بعد جدب، واستهزاء بهود: «هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» تنديدا برسولهم وتكذيبا، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم الممطر «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» من عذاب موعود: «ريح» وليس سحابا عارضا، وإنما من ثخنها وتكاثفها خيّل إليهم انها سحاب «رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ»: تحمل أليم العذاب .... وإنها «ريح صرصر عاتية. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8). «وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (51: 42) وهي ريح: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الُمجْرِمِينَ»: تستقبلهم عاصفة مدمرة مزمجرة، وقد بلغوا في حمقهم لعمقهم أن حسبوها عارضة ممطرة، وهم أولاء ضحايا الزمجرة، فانحسموا حسوما صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، و رمم بالية «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ اللهم لا إلا باغية!. إن الصرصر العاتية دمرتهم-/ كما تدمر كل شي‏ء-/ بحيث لا يرى إلا مساكنهم: الأحقاف المبنية عليها ارمهم وبيوتهم، فالتدمير الاستئصال هو من طبيعة الريح‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 378

الصرصر العقيم العاتية «ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» فهل إنها ما أتت بيوتهم حين أتتهم؟! او أنها لم تكن شيئا حتى تدمره، او أنها في غير رميمها تحولت معهم رميما فلا يرى إلا الرميم، مساكن وأجسادا، او بقيت من مساكنهم ما تدل على تدمرهم وتذمرهم، وعله أولى لما قدمناه‏ «1». و من عجيب الأمر آنها «خرجت في مثل خرق الإبرة ..» او «مثل الخاتم» «2» فدمرت أشياءهم وإياهم و «كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الُمجْرِمِينَ» في دنياهم، فأولى لهم في أخراهم!. و ترى هل كان هؤلاء الأغبياء ضعفاء ولذلك حسموا؟ كلا! وإنهم كانوا أقوى الأقوياء وأقوى منكم: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» «3». آية التمكين هذه توحي أن عادا كانوا أمكن من هؤلاء واسمع وابصر وافأد، ولأنهم كانوا يجحدون بآيات اللّه ويستهزءون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع والأبصار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تناصرا من آيتي المساكن المرئية لحد الآن و الثانية: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ» اللهم الا ان يعني تبين البيان القرآني، لا الأبصار العياني‏

(2). روى الاول ابن بابويه القمي في من لا يحضره الفقيه عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و الثاني في الدر المنثور 6: 44-/ اخرج الطبراني و ابو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله. أقول: راجع ج 30 آيات عاد في سورة الفجر و ج 29 من سورة الحاقة

(3). لقد ذكرت عاد في 24 موضعا من القرآن، و هذا دليل ان لهم موضعا عظيما من الكفر و العناد، و من العذاب الشديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 379

والأفئدة وسواها، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فأولى لهم أولاء: قوم الرسول محمد صلى الله عليه و آله ألا تغني عنهم مكنتهم وهي أضعف واقل قدرا، فما هي مكنتهم الأقوى؟ وما هي قوتهم في الثلاثة الاخرى؟ انهم-/ مع الآخرين المهلكين-/ كانوا احسن أثاثا ورءيا: «وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» «1» (19: 73) وأشد قوة وآثارا: «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ» (40: 21). و لأن عادا ألعن حماقى الطغيان فليكونوا هم من أشدهم قوة وآثارا في الأرض، وأحسنهم أثاثا ورءيا، فأشدهم عذابا في الآخرة والأولى. هنا نتبين ان «إن» تنفي عن الحاضرين زمن وحي القرآن المكنة التي كانت عند عاد، فقولة من قال: انها زائدة، فارغة زائدة، إذ تنافي بلاغه القرآن وفصاحته، ولا تلائم الآيات الاخرى التي تؤكد أن عادا كانوا أشد وأقوى، على أن المساواة في المكنة بين الغابرين والحاضرين لا تفيدهم عبرة. ثم المكنة الأشد في عاد تعني القوى العقلية والعلمية والجسمية: «أَشَدَّ قُوَّةً» وقوى الجمال والمال والأثاث: «أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» ومن ثم الآثار أية آثار: «أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ»: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ». و لعل آثار بعلبك من تلكم الآثار، التي تحدّث عن آصارهم في حمل هذه الآثار: فكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الرءي هو الجمال و المنظر الحسن كما عن الامام الباقر عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 380

من ضحايا رضخوا بدمائهم حمل هذه الصخور الضخمة، وكم من أشلاء فرشت لكي تقوم تحتها هذه العماد في إرم عاد؟!. و لقد جمعوا الكمال عقلا وجسما، والجمال رأيا ورءيا، أكمل من هؤلاء وأجمل، فلم تك تغن عنهم لا مالهم ولا مالهم من رأي أو رءي، ولا قوتهم في العقل والمال والجسم .. ولأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها .. ثم الثلاثة الاخرى: السمع والأبصار والأفئدة، لا بد وأنها-/ كذلك-/ أقوى ولكي تزيدهم قوات إلى قوات، وإلا لم يكن لذكرها مجال، وبعد التمكين في الأرض قوة وآثارا، لأنهم والحاضرين ومعهم الناس، هم مشتركون في أصول هذه الثلاث، وإنما الاختلاف في الدرجات: «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165): درجات في مختلف الطاقات: سمعا وأبصارا وأفئدة أم ماذا، وقد تحول إلى دركات كقوم عاد، الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا «إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ» ولم يستفيدوا من هذه الدرجات إيماناً بالآيات «وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» وكان حقا عليهم ما حاق بهم!. إنهم كانوا أسمع من هؤلاء بآذان مداركهم، وأبصر بأبصارها، وأفئد بقلوبهم المتفئدة:

المتوقدة بأنوار العلوم المادية «فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ»:

ما أغنت عنهم في دفعهم إلى الإيمان إذ لم يستعملوها في التسمع لآليات والتبصر بها والتفوءد لها، وإنما أخلدوا بها إلى الحياة الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الاخرى، فما أغنت عنهم في دفع العذاب، كما لم يندفعوا بها إلى الصواب والثواب. كذلك والحاضرون المتحضرون، الذين بلغوا من المكنة، وفي السمع والأبصار والأفئدة-/ بلغوا قمتها، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض ومغاربها من الإذاعات،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 381

ويبصرون صورها من التلفزيونات، ويعقلون ويعلمون مختلف العلوم والاختراعات بالأفئدة: المتوقدة بأنوار العلم، وعلى أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما لم يمكّن فيه انسان التاريخ فيما نعلم. كذلك هؤلاء لا تغني عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شي‏ء، ما هم مكذبون بآيات اللّه وجاحدون، وسوف يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ. وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ» (84: 23). فالعبرة التي يستفيدها كل ذي مكنة، وكل ذي سمع وبصر وفؤاد، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه، فإنها قوى من قوى الكون، لو لم تجر في مجاريها، والسنن التي سنها اللّه، لرجعت عذابا وتبابا تدمر كل شي‏ء، كما فعلت بعاد وثمود! فتلك عاد تذمروا وتدمروا، تسمعون أخبارهم وترون آثارهم، ولكي تعتبروا بهم وباضرابهم: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى‏ وَ صَرَّفْنَا الآْياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ترى ما هي الصلة بين «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» و «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ف «هم» أولاء قوم عاد و «كم» هم الحاضرون في الخطاب؟ ثم وكيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى اللّه يوم الدين؟. إن «ما حولكم» تشمل قرى عاد وسواهم من المهلكين، ولقد صرف اللّه لهم من آياته قبل أن يهلكهم «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فلما بقوا على ما طغوا ولم يرجعوا أهلكهم اللّه. و من ثم في «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ»: المخاطبين بوحي القرآن، تذكير لهم بما جرى على القرون من قبلهم قبلهم لعلهم يرجعون، وإلا فثم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تؤمنون؟ و تصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات وسائر الآيات في صيغ مختلفة حسب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 382

البيئات أو الطلبات، آيات تتوارد وتترى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن غيهم ولكنهم ...

صرفناها لهم لينصرفوا، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف، إلا إلى جهنم وبئس المصير. «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» كعاد بالأحقاف-/ ارم ذات العماد، وثمود بالحجر، وسبأ باليمن وفي مدين أم ماذا، وهي من القرى التي كانت حول أم القرى، قريبة منها أو بعيدة عنها، فإنها أم القرى كلها، كما الرسول صلى الله عليه و آله أرسل «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها»: كل القرى فإنها أيا كانت فهي حول المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية العالمية. و لكنما القرى الهالكة حولكم، القريبة تكفي عما هي بعيدة عنكم ومنها الأحقاف ومنها ..

«فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ .. وهل نصرتهم آلهتهم أم ضلت عنهم وألهت؟: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ. و كيف ينصرونهم في بأسهم وهم أولاء كانوا لهم جندا محضرين، يكفّون عنها بأس الحاضرين لكسرها، فهؤلاء الآلهة القربان «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» كيف لم تقرب عابديها إلى اللّه أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما كانوا لها جندا محضرين؟. «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ»: حين البأس: ضلالا عن كونها إذ دمرت بتدميرهم، وعن كيانها-/ باحرى-/ إذ ضلت الوهيتها المؤتفكة: واقعيا إذ ما أثرت، وفي ظنهم: إذ عرفوا أنهم خاطئون، فحين البأس الموت تكشف الحقائق، ثم البرزخ معرض الكشف التام، ثم في القيامة الأتم:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» متحللا عن الكلل التي كانت من علل منك أو من حجاب الحياة الدنيا.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 383

هود (ع) في رسالته‏

يذكر هود في القرآن كله سبع مرات في حين يذكر عاد وقومه أربع وعشرون مرة، وهم «عاد الأولى» (53: 50) وقد بشر به نوح عليه السلام من قبل‏ «1» وصيغة الدعوة الرسالية وصبغها هنا هي صيغتها وصبغتها في كافة الرسالات، فإنها رسالة موحدة يحملها رسل اللّه على مدار الزمن الرسالي مهما اختلفت فيها طقوس، حيث الأصل واحد هو الدعوة إلى توحيد اللّه وشرعته، وبراهين الرسالات هي الآيات الرسالية ومنها الرسل أنفسهم. هنا هود يدعو عادا إلى توحيد العبادة ورفض الأنداد ب «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» إذ أنتم معترفون بالإله الأصل ولا برهان لكم فيما تدعون ف «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ». ثم يزود دعوته التوحيدية التي هي مبرهنة بكافة البراهين الفطرية والعقلية والآفاقية، بأنها لا تدعو لسؤال أجر عليها «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي» وإياكم بالفطرة التوحيدية «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» التوحيد الحق وحق التوحيد بقضية الفطرة وسائر الآيات الآفاقية والأنفسية المعسكرة لإثباته دونما أية ريبة؟!. و تزويد ثان بإرسال السماء عليهم مدرارا وقد كانوا في جدب تلمح له: «فَلَمَّا رَأَوْهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 11: 363 عن الصادق عليه السلام قال: لما حضرت نوحا الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلمواستكون بعدي غيبة تظهر فيها الطواغيت و أن اللّه عزّ و جلّ يفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه هو دله سمت و سكينة و وقار يشبهني في خلقي و خلقي و سيهلك اللّه أعداءكم عند ظهوره بالريح فلم يزالوا يترقبون هودا عليه السلام و ينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد فقست قلوب كثير منهم فأظهر اللّه تعالى ذكره نبيه هودا عند اليأس منهم و تناهي البلاء بهم و أهلك الأعداء بالريح العقيم التي وصفها اللّه تعالى ذكره-/ فقال: «ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» ثم وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 384

عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ» (46: 24)، ثم وازدياد قوة إلى قوتهم مادية ومعنوية، مما يدل على أن «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» (7: 96) إذا ف «لا تَتَوَلَّوْا» عن الحق الناصع الناصح «مجرمين» ثمرات الحياة الإنسانية قبل إيناعها، والتوحيد الحق إيناع في أعلى القمم من الحيوية الإنسانية السامية. ذلك، ولكن لا حياة لمن تنادي، حيث تغافلوا وتجاهلوا عن بينة التوحيد الرسولية والرسالية فانكروها غائلين قائلين: «يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ». هنا «ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ» تعني آية بينة على الرسالة التوحيدية، والرسل بأنفسهم في قالاتهم و حالاتهم وفعالاتهم بينات ربانية وإن لم يأتوا بسائر البينات، وكما قال رسل المسيح عليه السلام جوابا عن شطحات المنكرين «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16) توجيها وجيها لهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، الظاهرة في دعواتهم. ثم «وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ» إذ لا حجة فيه، وهم منكرون حجج الرسالات كلها، رامين إياها بالسحر والكهانة على طول الخط، مجتثين جذورها باستبعاد أو استحالة رسالة بشر إلى بشر، وما إلى ذلك من حجج داحضة في لجج من لجاجات. ثم يلخصون قيلتهم هذه ب «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» غضبا ناقما عليك إذ ترفضهم ولا تفرضهم، وكأنه يؤمن بهم فيخالفهم في ألوهتهم، ف «قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»: «أُشْهِدُ اللَّهَ» بما رباني بالدعوة التوحيدية الباهرة، فاللّه شهيد لرسالاته برسله: «قُلِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 385

اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» (6: 19) ثم «وَ اشْهَدُوا» كما تشهدون من دعوتي ودعايتي المتواصلة التوحيدية: «أَنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ» ثم يتحداهم باعترائهم وألهتهم إياه بأي سوء «فَكِيدُونِي جَمِيعاً» آلهة ومألوهين «ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ» وهذه المجاهرة بتلك البراءة استنهاض لهم بآلهتهم التي ألهتهم أن يعتروه ما أمكنهم، فلما رأوا أيديهم وإياهم فاضية. عن هذه الإرادة السيئة، فليعرفوا بطلان «اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ»! وليكن ذلك التحدي من عديد آيات رسالته البينات إذ فنّد مدّعاهم أن آلهتهم على شي‏ء مما يحددونه. و ذلك «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». هنا «رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» في أخذ كل ناصية للتدليل على شمول هذه الربوبية، ثم و «إِنَّ رَبِّي» الثانية دون «وَ رَبِّكُمْ» لمكان نكرانهم أنه على صراط مستقيم في ربوبيته، حيث اتخذوا له شركاء، إذا ف «رَبِّي» أنا الرسول المربي برحمته وخاصة عنايته، إنّه «عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». ما مِنْ دَابَّةٍ» تدب في حياتها بريا وبحريا وجويا «إِلَّا هُوَ» اللّه «آخِذٌ بِناصِيَتِها» وهي حياتها بكل ملابساتها، أخذا بحيطة العلم والقدرة الربانية، دون تفلّت لواحدة منها عن هذه الأخذة الربانية على أية حال، ولا تلفّت لربي عنها أبدا، وذلك «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» في ربوبيته الطليقة الحليقة على كل شي‏ء. فالصراط المستقيم ثلاثة، 1 صراط الرب بربوبيته، 2 وصراط الرسل برسالاتهم 3 وصراط المرسل إليهم بسلوكهم صراط الحق بدلالاتهم أولاء وتوفيق اللّه، وهنا دور «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو دور التدليل على أنه آخذ بناصية كل دابة، ولكنها سلطة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 386

عادلة مستقيمة وليست مثل سائر السلطات قاصرة ومقصرة، فهو عادل حكيم لا ينحرف ولا ينجرف حيث الصراط المستقيم قضية ذاتية لربنا مهما كانت مختارة له دون إجبار. ذلك، ولأن الحاجة هي السبب لأي‏ظلم وانحراف، سواء أكانت حاجة علمية أم كمالية أخرى فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ولأنّ ربي آخذ بناصية كل دابة بحيطة العلم والقدرة الطليقة. إذا ف «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». و كما أن قوة العدالة أو العصمة تمنعان أصحابها عن التخلف عن صراط الحق المستقيم، كذلك-/ وبأحرى-/ ربنا الذي هو الحق نفسه وهو العدالة والعصمة غير المحدودة نفسها، وهو الصراط المستقيم نفسه، ولأنه على صراط مستقيم في ربوبيته، لذلك يدلنا على صراط مستقيم في عبوديته، فلا صراط مستقيما في أي‏حقل من الحقول، معرفية أو عملية إلّا وهو يدل عليه ويوفق له: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» (89: 14) فليس اللّه خالقا فقط يذر خلقه على قصوراتهم وتقصيراتهم هدرا لا يعبأ بهم، بل هو الحفيظ عليهم ما هم حافظون، حفيظا برحمة رحمانية لكل الكائنات، وبرحمة معها رحيمية خاصة للخصوص من عباده الذين يسلكون سبيله: «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61) (وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ.

كِراماً كاتِبِينَ» (82: 10). أجل «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» فليست تستقل أية دابة عن أخذ اللّه، وهؤلاء الغلاظ الشداد من قومه، إن هم إلّا دوابا من هذه الدواب التي هو آخذ بناصيتها ويقهرها بقوته، فما خوفي من هذه الدواب، وما احتفالي بها وهي لا تتسلط عليّ-/ إن كانت لها سلطة-/ إلّا بإذن ربي.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 387

و هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة الربانية في نفسه النفيسة لا تدع في قلبه أية مجالة للشك والارتياب في عاقبة أمره الناجحة مهما كانت إمرا، إذ لا تخرج على أية حال عن أمر اللّه، إذا: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» (57). «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أنتم أولاء الأنكاد البعاد «ف» قل «قد أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» فمالي غيره ولا لكم سواء، من حجة بالغة تبلغ العقول غير المدخولة وقد أديت واجبي، ثم لا أتحسر من تكذيبكم وتعذيبكم «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي» مكانكم بعد ما أخذكم بعذابه الموعود «قَوْماً غَيْرَكُمْ» «وَ لا تَضُرُّونَهُ» في كفركم إن بقيتم، ولا في منعتكم من عذابه إن حاولتم ولا نقضا لملكه على أية حال «شَيْئاً» فإن له الأمر كله وما أنتم بمعجزين ربي ولا إياي «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» بعلمه وقدرته وحكمته البالغة. «حفيظ» يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الضياع، و «حفيظ» عليكم فلا تفلتون عن أخذته ولا تعجزونه هربا. و هنا «يستخلف ربي قوما غيركم» تحديد لخلافتهم أنفسهم عمن قبلهم بتهديد، ف «اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (7: 69) نبهة لهم في هذه الرسالة، ثم «يستخلف» تهديد بخلافة أخرى بعدهم حين يستأصلون عن بكرتهم. ذلك لأن الحياة الأرضية هي حياة الخلائق، حيث يخلف بعضهم بعضا: «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» (6: 165) و «خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ» (35: 39) وليس يعني أنهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 388

خلفاء اللّه نفسه في الأرض، إذ 334 لا خليفة يخلفه في سماء أو أرض، وإنما هم خلائق خلائف يخلف بعضهم بعضا في الحياة الأرضية، كل خلف لآخر خلفا وغير خلف. «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا» باستئصالهم عن بكرتهم ب «الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (51: 42) (بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8). و هنا «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» كما وفي الأخرى «نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ». و هنا مواصفة «عذاب» ب «غليظ» استعارة بالغة الحسن، حيث العذاب لا يوصف بالغليظ لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه، وإنما وصفه تعالى هنا بالغلظ إذ يوصف الأمر الهيّن بالضئولة والدقة كما يوصف الأمر الشاق بالغلظ والشدة، حملا لذلك على عرف المراعاة للشي‏ء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشي‏ء الدقيق الضئيل، وكما يقال:

عرض فلان دقيق وقدره ضئيل. و وجه آخر أن يعنى بعذاب غليظ هنا عذاب الآخرة حيث يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستفظعة، كمقامع الحديد والحجارة المحمّاة، ومما يؤيد أنه عذاب الآخرة ذكر «وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ» بعد «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا». «و تلك» البعيدون البعيدون «عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ» آفاقية وأنفسية وعموا عنها وصموا «وَ عَصَوْا رُسُلَهُ» مهما عاشوا رسولا واحدا، فإن عصيان رسول واحد بيّن الرسالة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 389

هو عصيان للرسالات كلها فقد: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (26: 124) (وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» (46: 21) فهم كذبوا بهؤلاء النذر إذ كذبوا بنذير بهم والسند واحد و «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»، «وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» تاركين إتباع رسولهم وسائر رسل اللّه. «وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً» بعذابهم البغيض الغليظ، والتعانهم على ألسن المؤمنين واحتساب سنتهم السوء عليهم ما بقيت إلى يوم الدين، فاللعنات اللفظية من اللّاعنين، والعملية من الملعونين بما خلّفوه من السنن السيئة هي كلها تلحقهم إلى يوم الدين. «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» وترى أين هنا البرزخ؟ هذه الدنيا تشمله حيث تشملهم لعنات اللّاعنين و مثل أعمال الملعونين بهم وهم في البرزخ، إذ «نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» (36: 12). ثم لعنة «يَوْمَ الْقِيامَةِ» مستمرة مع الأبد حتى يذوقوا وبال أمرهم «أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» حيث ستروه عن فطرهم وعقولهم فكفروا به «أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» بعدا في كل الأبعاد منذ المبدإ حتى المعاد. فليس «كَفَرُوا رَبَّهُمْ» هو «كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» إلّا كنتيجة، فالذي يكفر ربه عن نفسه احتجابا عنه، هو الذي يكفر به نتيجة كفره إياه، كفرا هو من خلفيات كفر، كما الإيمان بالرب هو من نتائج عدم كفر الإنسان ربه، حيث تظل منافذ فطرته وعقليته مكشوفة غير مقفلة ولا مغلقة. ذلك، وهؤلاء الذين اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة كانوا ذوي قوة وبسطة في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 390

الخلق وبطش شديد، لهم تقدم ورقيّ في الحضارة، ولهم بلاد خصبة عامرة، وقصور عالية غامرة، وناهيك «إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ». فهم على قوتهم وحضارتهم اتبعوا لعنة في الدارين بما كذبوا رسل اللّه، وأشركوا باللّه، وهم أطغى الطغات على اللّه وعلى عباد اللّه.

رسالة هود (ع)

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (126) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (127) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (131) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (133) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) تأتي قصة عاد اربع وعشرين مرة في سور عدة، في نجمها توصف بالأولى (50) مما يدل على انه اثنان، ولا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على أنهم كانوا اظلم واطغى، لحد أنسوها الأخرى. و هنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة ومغزى، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، و

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 391

هنا بعد عرض الرسالة-/ كما أسلفنا تفسيرها-/ يندّد هود بقومه في نبرات‏ «1»: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ 128 والريع هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات، ام مرتفعات صناعية «آية» قصرا يشي بعظمهم وصغار الآخرين «تعبثون» بآية الريع مختلف العبث: إسرافا في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخا فيها يسكنون، وكما يروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ان كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه». «2» و تظاهرا وتفاخرا في ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات، تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا ومقدرة ومهارة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام في حديث و قال نوح ان اللَّه تبارك و تعالى باعث نبيا يقال له هود و انه يدعو قومه إلى اللَّه عز و جل فيكذبونه و إن اللَّه عز و جل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به و ليتبعه فان اللَّه تبارك و تعالى ينجيه من عذاب الريح، و امر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة و يكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود و زمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث اللَّه تبارك و تعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم و الايمان و ميراث العلم و الاسم الأكبر و آثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا و قد بشرهم أبوهم نوح به ف‏آمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الريح و هو قول اللَّه عز و جل: «وَ إِلى‏ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً» و قوله: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ»

(2). في المجمع-/ الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار،، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و الأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و اللَّه إني لأنكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما ادري ما حدث في و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فرأى قبتك فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كل ما يبنى و بال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 392

ف‏آية العبث بنيانا إمّا ذا هي آية الرعونة والترف واللّامبالات في الحياة، وكأنهم خلقوا عبثا ليعيشوا عابثين. فالعبث في أية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها، والتغافل عن مسئولياتها تجاه اللَّه وخلقه. و كيف يسمح الثري لنفسه ان يعبث بالبنيان والملابس والآمكل والمناكح، على عيون العزّل من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟! وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ 129. المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا عن أية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمّاهيه، كالمنحوتة في الجبال وكأنها تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم. ذلك، وإما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أمّاذا من مصالح حيوية عاقلة فليس بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح. وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ 130. فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة، وأما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه في أي‏ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين، ولكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرّج في بطشتهم، هجوما بدائيا أو دفاعيا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ 131. تقوى عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها، وطاعة لرسول الهدى فيما يفعله أو يقوله عن اللَّه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 393

وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ 132 أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ 133 وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ 134 إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 135. إمدادات ربانية في تسهيل الحياة، تقتضي شكورا، فكيف تطغون فيما أمدّكم، وتسطون بها على عباد اللَّه، فان لم تحذروا حاضر العذاب ف «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ» إذا متم بحالتكم البئيسة «عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» برزخا ويوم الدين. أ تراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟: قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ 136. «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» وهنا «مِنَ الْواعِظِينَ» قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عدّة، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله وبعده في مثلث الزمان. أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلّا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ ..» فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين. إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ 137. «إن هذا» الذي تعظ به «إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض. أو «ان هذا» الذي نحن عليه «إلّا خلق» آباءنا «الأولين» فنحن على آثارهم مهتدون، وما نحن بتاركي خلقنا وهي تراث الأولين. و قد يعنيهما «هذا» فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، وبناء عليه: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ 138.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 394

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 139 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 140. عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك، يطوى فيه أطغى طغاة التاريخ وتطوى آيات كلّ ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم! ج سورة الشعراء (26): الآيات 141 الى 951 ج‏كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (144) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (145) أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (147) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (150) وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) «ثمود» هم اخوان عاد في الطغيان ورعونة الحياة، يتشابهان في دورهم اللعين وكورهم المهين، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد: أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ 146. «ما هاهنا» مشروح فيما هاهنا «فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ...» وقد اختص «و نخل» من بين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 395

شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة وإنتاجا، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أي‏لطيف البطن وأصله النقصان من الشي‏ء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره ومنه «فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً». و هو اليانع البالغ، والذي إذا مسّ تهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه. فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكأن بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه وشدة تشابكه. وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ 149. الفره هو الأشر، فالفاره هو الأشر البطر، والبيوت الجبلية هي الفرهة المرحة، يعبث بها لحياة الفرح والمرح. «أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا» من متعة الحياة وشره اللّامبالاة، في جنات وشهوات «آمنين» من بأس اللَّه الذي هو لا محالة آت؟ أ تظنون انكم «فِي ما هاهُنا» تتركون لحيونة الحياة، في كل دعة ورخاء وكل متع الحيونات؟ «أتتركون» لا يردعكم فوت، ولا يزعجكم موت. لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى، ابتعادا عن الطغوى، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة، الجافة الجاسية، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ 150 وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ 151 الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ 152. فطاعة التقوى هي طاعة اللَّه وطاعتي كرسول من اللَّه، وطاعة الطغوى هي طاعة من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 396

سوى اللَّه ولا سيما المسرفين في التخلّف عن اللَّه وعن شرعته «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كل جنباتها الإنسانية بل والحيوانية، «وَ لا يُصْلِحُونَ» أبدا. فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاة إلى اللَّه معصومين وسواهم، إلا خطأ من سواهم، ومصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، وهم نحسون حسب دركات إفسادهم، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم، و «أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» ليس-/ فقط-/ ما يقابل النهي، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر، بل والنهي المسرف أحرى ان تترك طاعته، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟. و اختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهي في طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه، أو المأثوم، هذه منهية على أية حال، «وَ لا تُطِيعُوا» هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى اللَّه، ومن ثم الخطى الأخرى التي تتبنّى الخطوة الأولى! تركا لطاعة من سوى اللَّه ككلّ، إلّا رسول اللَّه، وكل من يحمل عنه ما حمّله حليما تقيا، لحد يعتبر أمره أمر اللَّه وكما عرّف به اللَّه. فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، وانما يؤمرون في البداية وينهون، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال، «وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط. قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ 153 ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 154.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 397

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر: «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول ل «إنما» الضلالة وجاه «إنما» الهدى إلا «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»!. إذ «ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» تريد أن تتفضل علينا، وترى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية لحد يجنّن رسول البشر، أفليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة في كيان يحلّق على المفضولين، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان وربه، علميا وتربويا لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر، لحد يرمى إلى السحر والجنون، ما هذا إلّا تذليلا لساحة الإنسانية وحطا من سماحته لحدّ لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!. و إنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، انها لا تستأهل ان يؤتى خبر السماء وهي عائشة الأرض، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملإ الأعلى وهي مقيمة الأرض. تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر، ولكنهم عكسوا الأمر، تقديما لتهمة السحر على «فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»: قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ 155 وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ 156. «هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (7: 73) (وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها ..» (17: 59)

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ» (54: 27) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 398

دون ولادة متعوّدة، وكيف خلقت هي آية؟ أحرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفي بما قاله اللَّه «ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً». ثم وتقاسم الشرب وهو نصيب الشرب سويا، آية أخرى، كيف تشرب ناقة بمفردها كشرب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى‏ «1» وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلّا وهم عمي لا يبصرون: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ 157. و العقر هو إصابة الأصل والقعر، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحرا لآية الرسالة، وأخذا لشربها، وأكلا للحمها، «فأصبحوا» بعد ذلك وحين رأو العذاب «نادمين» ولات حين مناص، وتراهم عقروها كلّهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (29)!. مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها» (14) (فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» (11: 65)-/ وذلك بعد عقرهم الناقة وتحديهم صالحا بإتيان العذاب «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» (7: 78)، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفا فعقرها كما في آية القمر، فهم كلهم مشاركون في درك عن درك، وقد عد عاقرها-/ فقط-/ أشقى الأولين. «ايها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان و روي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: انه أوّل عين نبعت في الأرض هي التي فجرها اللَّه‏عز و جل لصالح فقال: لها شرب و لكم شرب يوم معلوم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 399

بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة». و قد نستلهم من «عقروها» أن كلّ مشارك في ظلم أو معاون ظالما يجمع معه في إثمه، كل حسب دوره الفعال في الجريمة، وحتى في النيّة. فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 158 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 159. تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين، وليعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.

صالح (ع)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ 45. تلخيصة لهذه الدعوة الرسالية ككلّ-/ مثل سائر الدعاة إلى اللَّه-/ فى توحيد العبادة للَّه، و «أخاهم» مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته، معروفا لديهم غير منكر، دون أن تسبق منه سابقة سوء وضلال، فلم يكن غريبا عنهم مجهولا لديهم حتى يشتبه أمره، «فإذا هم» إثر الدعوة «فريقان» بعد وحدتهم فى الضلال «يختصمون» مع بعض تصديقا لصالح وتكذيبا، والجمع هنا اعتبارا بالجمعين فى فريقين، فرقة مستكبرة كافرة، وأخرى مستضعفة مؤمنة، ومن اختصامهم: «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ 220 مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 400

كافِرُونَ» (7: 76). و «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» هنا دليل ان آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين، فالمختصمون ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة، والاختصام هنا ذو بعدين، اختصا ما لهم مع الفرقة المؤمنة، وآخر مع صاحب الرسالة، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا ان «ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (29: 29)-/: قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ 46. فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنة دون السيئة، والمتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنة قبل السيئة، خلطا بينهما، والنازل إلى أسفل الدركات يستعجل السيئة قبل الحسنة، فبدلا من الايمان ولو تجربة، يكفر ويجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنة الإيمان، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب، والمؤمن اللبيب يعيش حياة الاستعجال للحنسة ابتعادا عن أية سيئة، مستغفرا ربه عما أساء لعلّه يرحم. فحتى لو كان الايمان باللَّه ضلالا فهو خير من عذاب اللَّه القاضي على أصل الحياة، فيا لهم ضلالا ما أبعده ان يستعجلوا السيئة: العذاب قبل الحسنة: الايمان الصواب فالثواب، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (8: 32) ويا للهول من هؤلاء الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم فى أنفسهم نفسها ولمّا يدخلوها!. قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ 47. التطيّر هو التشاءم، وهو من عادات المجاهيل المتّبعين الخرافات الجارفة والأوهام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 401

الخارقة، حين يهم أحدهم بأمر يجهل صالحه من طالحه يلجأ إلى طائر يزجره فان مرّ سانحا عن يمينه استبشر ماضيا فى أمره، وإن مر بارحا عن يساره تشاءم تاركا امرا حيث يتوقع ضره، وما يدري الطير غيب الخير أو الشر وهو حيوان، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان وأضل سبيلًا. هذا أصل التطيّر، ثم غلب استعماله فى التشاءم، ولأن الخير والشر راجعان إلى الإنسان بعمله، وأنّ عمله معه لا يفارقه: أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء، يسميه القرآن طائرا كما:

«وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 13). فطائر الإنسان-/ أيا كان-/ من خير أو شر، هو معه كما هنا، وهو عند اللَّه كما في آيتنا:

«قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» حيث الأعمال راجعة طائرة إلى اللَّه، محفوظة لدى اللَّه حيث يستنسخها اللَّه: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45:

29) إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فكيف «اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ» حين لا تصدر اعمالكم خيرة أو شريرة إلّا منكم ف «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ولا يصدر الجزاء الوفاق خيرا أو شرا إلّا من عند اللَّه ف «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فما منا في هذا الميدان سلب ولا إيجاب، اللهم إلّا دلالة إلى الحق المبين بإذن اللَّه! وليس طائركم معنا على أية حال «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» بجنّة الأوهام وظنّه الأحلام، فإن تعليق الخير والشر بغير العامل نفسه، إفضاء لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها، وذلك أنزل دركا وانذل من المكائن الأتوماتيكية، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها، 222 و هذا الإنسان الغبيّ يحول خيره وشره بآثارهما إلى غيره وهو مختار «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 402

تُفْتَنُونَ»! وتراهم اطيّروا به وبمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها؟ و من مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم اثر الدعوة! وعل منها إصابة الجوع كما يروى‏ «1». هؤلاء المفتنون الهاربون عن الايمان بالغيب الحق، الناسبين اليه الخرافة الحمقاء، نراهم يؤمنون بالغيب الباطل الموهوم، من تطيّر وسواه من الخرافات الجارفة، فنراهم يعلقون همامة ضخمة على العدد (13) بنحوسته أيا كان، فالبيت المرقم به يكتب عليه 1 12، بديلا عن 13، ويعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى كثير من الغيب الموهوم الذي لا سند له، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول، مبتهجين متبجّهين بما عندهم من الحضارات المادية، والخرافات الروحية «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»!. «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» امتحانا بفتنة اللَّه ونعمته، وامتهانا بفتنة الشيطان ونعمته، فاليقظة الدائبة ومتابعة السنن وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وبلاء هو الكفيل بتحقيق الخير فى النهاية، لا التطير بخلق اللَّه. فلا صدفة عمياء فيما يحدث من خير أو شر، وإنما اصابة قاصدة هي من خلفيات الأعمال الفاسدة، ف «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» و «طائركم معكم» ولا ثالث يحمل طائرا لكم أو عليكم. وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ 48.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 93 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية .. «فإنهم أصابهم جوع شديد قالوا: هذا من شؤمك و شؤم من معك أصابنا هذا القحط، قال طائركم عند الله» يقول: خيركم و شركم من عند اللَّه «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» يقول: تبتلون بالاختبار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 403

«تِسْعَةُ رَهْطٍ» من المستكبرين، والمستضعفين الضالين تحت نيرهم، احزاب عدة متراصّة واحدة في أصول الإفساد، تسعة في مختلف محاولاته وشكلياته، والرهط هو العصابة دون العشرة أم دون الأربعين، فهم العصابات المتعصبة ضد الحق، الصارمة في الإفساد الخالص حيث «يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» وإن في مجالة أو حالة واحدة، مكرّسين كل طاقاتهم وإمكانياتهم في مختلف حقول الإفساد، عقيديا وخلقيا أمّا هو من الإفساد في النواميس الخمسة، التي هي محطات الإصلاحات الرسالية، ومن إفساد هؤلاء التسعة أن: قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ 49. «قالوا» في تشاور بينهم على عديد رهطهم، حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله و عقوله «تَقاسَمُوا بِاللَّهِ»: تشاركوا في القسم باللَّه، امرا هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم، و تكفي «قالوا» أن تكون «تقاسموا» أمرا، وكيف التقاسم التشارك باللَّه وهم مشركون باللَّه؟ لأنهم يؤمنون باللَّه كرب الأرباب مهما أشركوا به سواه، فما التقاسم باللَّه عندهم بأدنى من التقاسم بأرباب سواه، بل وهو أحرى وأقوى! وعجبا من هؤلاء الحماقى الأنكاد يتقاسمون باللَّه ليبيتوا داعي اللَّه، ويكأن الدعوة إلى عبادة اللَّه وحده هتك لساحة اللَّه حتى يقسم باللَّه في قتل الداعية بأهله! وهكذا كان يخيّل إلى جماعة من المشركين أن عبادة اللَّه هتك له فليعبد سواه ليقربهم إلى اللَّه زلفى! «لنبيتّنه» وهو قصد العدو ليلا لقتله «و أهله» هم زوجته وولده وكل من هو تحت عيلولته، «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» بعد تبييته «لوليه» و هو بطبيعة الحال من غير اهله، أو غير الآهلين معه في بيته، وهو ولي دمه «ما شَهِدْنا مَهْلِكَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 404

أَهْلِهِ» دون مهلكه وأهله، ألأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألّا يشهد مهلكه نفسه؟

ولا أولوية في هذا البين، وقد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه، فبأولى مهلك أهله، فإنهم معه بطبيعة الحال ليلا! والنص «مَهْلِكَ أَهْلِهِ»!. ضمير المفرد الغائب في «أهله» الثاني راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعا وأصح معنى، فصالح وأهله هم أهل لوليه، ف «ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي‏القتلى الذين هم أهله، وله المطالبة بدمائهم «وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» في «ما شَهِدْنا». ثم «مهلك» قد تعني هنا مثلث المعاني، مصدرا وزمانا ومكانا للهلاك، اجتثاثا لكل بنود الاتهام، فلا خبر لنا إطلاقا عن زمان الهلاك ولا مكانه ولا أصله. احتيال ساذج غير ناضح يطمئنهم فيما اعتزموه، تخلصا عن صالح ووليه و «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ»: وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ 50. «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» لا مكرهم ولا مكرنا، شعورا بضالة مكرهم، وشعورا بعاقبته في مكرنا، وأين مكر من مكر؟ مكر جاهل قاحل، ومكر عالم كافل، مكر عن عجز تبييت، ومكر عن قدرة في تبييت. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ 51. وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ 38. و ليس فقط يزين سوء الأعمال فيرونها حسنا، بل وحسنها حيث يزينها لهم أكثر مما هي، فيغترون بها ولا يبالون بما يعتريهم من سوء:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 405

«و لا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة وتسعين بابا من الخير ليظفر بك عند تمام المأة، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله والمصادة باستهوائه» «1». فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة وشريرة، هي ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزيينه وتسويله كيلا تقعوا في فخه وأنتم تحسبون انكم تحسنون صنعا وأنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، وتعمى عليكم المسالك بما زيّن لكم الشيطان أعمالكم، فأنتم-/ إذا-/ من الأخسرين اعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً». و قد تعني «وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» أن عادا وثمود كانوا قبل أن «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ» كانوا على بصارة وهدى فطرية وعقلية، أم وشرعية، إلّا أنها ما كانت ناضجة قويمة، وعلى أية حال فمسرح التزيين من الشيطان خطير خطير، لا ينجو منه إلّا من عصمه اللّه وهداه، وهو التارك هواه إلى هداه إلى اللّه «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ». وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ 39. ذلك الثالوث المنحوس، القارونية الفرعونية الهامانية «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ» كلّ على حدّه ومدّه، استكبار الثراء والسلطة الملكية والوزارة الفرعونية، ولكنهم مهما زمّروا وأبرقوا وأرعدوا وعربدوا «ما كانُوا سابِقِينَ» على مشيئة اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام بعد ان ذكر الشيطان: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 406

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ 40. «فكلا» من هؤلاء واضرابهم في الاستكبار «أخذنا» ه «بذنبه» هنا، وأخذهم في الأخرى أخزى «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً» وهم قوم لوط: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ» (54: 34) فالحاصب-/ إذا-/ حجارة من طين «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» ومنهم ثمود «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الُمحْتَظِرِ» (54: 31) ومنهم عاد: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ» (11: 94) ومنهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ 57 كذبوا المرسلين: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» (36: 29) (وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ» كقارون «فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ» (28: 81) (وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا» كقوم نوح وفرعون. «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» بما أخذهم بذنوبهم «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» لم يظلمهم اللّه ولا هم ظلموا اللّه وإنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا. و هذه العذابات الأربع: بالصيحة وهي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعا لآلذان وإلى الأعماق، وبالحاصب: حجارة من طين تتبدل نارا بسرعة الإرسال، وبالخسف: غمرا في التراب، وبالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان وهي الأربعة الشهيرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 407

مهما كانت كل واحدة تشتمل على جزئيات وذرات، فقد أخذوا عذابا بما خلقوا من رحمة، وما عذابهم إلّا صورة واقعية من اعمالهم ف «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»؟ فهؤلاء هم الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء، أصناما وأوثانا وطواغيت، وإليكم مثلا واحدا في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أوهن البيوت كذلك بيوت الإشراك أيا كانت هي كبيت العنكبوت: كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (126) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (127) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (131) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (133) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) تأتي قصة عاد اربع وعشرين مرة في سور عدة، في نجمها توصف بالأولى (50) مما يدل على انه اثنان، ولا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على أنهم كانوا اظلم واطغى، لحد أنسوها الأخرى. و هنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلا على وحدة الرسالات دعوة ومغزى، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، و

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 408

هنا بعد عرض الرسالة-/ كما أسلفنا تفسيرها-/ يندّد هود بقومه في نبرات‏ «1»: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ 128 والريع هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات، ام مرتفعات صناعية «آية» قصرا يشي بعظمهم وصغار الآخرين «تعبثون» بآية الريع مختلف العبث: إسرافا في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخا فيها يسكنون، وكما يروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ان كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه». «2» و تظاهرا وتفاخرا في ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بعد كأنها علامات، تعلم بها مكانة أصحابها تطاولا ومقدرة ومهارة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتاب كمال الدين و روضة الكافي مسندا عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد ابن علي الباقر عليه السلام في حديث و قال نوح ان اللَّه تبارك و تعالى باعث نبيا يقال له هود و انه يدعو قومه إلى اللَّه عز و جل فيكذبونه و إن اللَّه عز و جل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به و ليتبعه فان اللَّه تبارك و تعالى ينجيه من عذاب الريح، و امر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة و يكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود و زمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث اللَّه تبارك و تعالى هودا نظروا فيما عندهم من العلم و الايمان و ميراث العلم و الاسم الأكبر و آثار علم النبوة فوجدوا هودا نبيا و قد بشرهم أبوهم نوح به ف‏آمنوا به و صدقوه و اتبعوه فنجوا من عذاب الريح و هو قول اللَّه عز و جل: «وَ إِلى‏ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً» و قوله: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ»

(2). في المجمع-/ الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار،، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه و صنع ذلك مرارا حتى عرف الرجل الغضب به و الأعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه و قال: و اللَّه إني لأنكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما ادري ما حدث في و ما صنعت؟ قالوا: خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فرأى قبتك فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كل ما يبنى و بال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 409

ف‏آية العبث بنيانا إمّا ذا هي آية الرعونة والترف واللّامبالات في الحياة، وكأنهم خلقوا عبثا ليعيشوا عابثين. فالعبث في أية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها، والتغافل عن مسئولياتها تجاه اللَّه وخلقه. و كيف يسمح الثري لنفسه ان يعبث بالبنيان والملابس والآمكل والمناكح، على عيون العزّل من ضروريات الحياة من البائسين المعدمين؟! وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ 129. المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظا عن أية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمّاهيه، كالمنحوتة في الجبال وكأنها تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم. ذلك، وإما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أمّاذا من مصالح حيوية عاقلة فليس بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح. وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ 130. فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة، وأما المدافعة اعتداء بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه في أي‏ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين، ولكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرّج في بطشتهم، هجوما بدائيا أو دفاعيا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ 131. تقوى عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها، وطاعة لرسول الهدى فيما يفعله أو يقوله عن اللَّه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 410

وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ 132 أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ 133 وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ 134 إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 135. إمدادات ربانية في تسهيل الحياة، تقتضي شكورا، فكيف تطغون فيما أمدّكم، وتسطون بها على عباد اللَّه، فان لم تحذروا حاضر العذاب ف «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ» إذا متم بحالتكم البئيسة «عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» برزخا ويوم الدين. أ تراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟: قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ 136. «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» وهنا «مِنَ الْواعِظِينَ» قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عدّة، عرضيا يرأسهم هود؟ أم طوليا قبله وبعده في مثلث الزمان. أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلّا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: «كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ ..» فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين. إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ 137. «إن هذا» الذي تعظ به «إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض. أو «ان هذا» الذي نحن عليه «إلّا خلق» آباءنا «الأولين» فنحن على آثارهم مهتدون، وما نحن بتاركي خلقنا وهي تراث الأولين. و قد يعنيهما «هذا» فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، وبناء عليه: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ 138.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 411

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 139 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 140. عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك، يطوى فيه أطغى طغاة التاريخ وتطوى آيات كلّ ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم! ج سورة الشعراء (26): الآيات 141 الى 951 ج‏كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (144) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ (145) أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (147) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (150) وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) «ثمود» هم اخوان عاد في الطغيان ورعونة الحياة، يتشابهان في دورهم اللعين وكورهم المهين، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد: أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ 146. «ما هاهنا» مشروح فيما هاهنا «فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ...» وقد اختص «و نخل» من بين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 412

شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة وإنتاجا، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أي‏لطيف البطن وأصله النقصان من الشي‏ء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره ومنه «فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً». و هو اليانع البالغ، والذي إذا مسّ تهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه. فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكأن بعضه هضم بعضا لفرط تكاثفه وشدة تشابكه. وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ 149. الفره هو الأشر، فالفاره هو الأشر البطر، والبيوت الجبلية هي الفرهة المرحة، يعبث بها لحياة الفرح والمرح. «أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا» من متعة الحياة وشره اللّامبالاة، في جنات وشهوات «آمنين» من بأس اللَّه الذي هو لا محالة آت؟ أ تظنون انكم «فِي ما هاهُنا» تتركون لحيونة الحياة، في كل دعة ورخاء وكل متع الحيونات؟ «أتتركون» لا يردعكم فوت، ولا يزعجكم موت. لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى، ابتعادا عن الطغوى، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة، الجافة الجاسية، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ 150 وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ 151 الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ 152. فطاعة التقوى هي طاعة اللَّه وطاعتي كرسول من اللَّه، وطاعة الطغوى هي طاعة من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 413

سوى اللَّه ولا سيما المسرفين في التخلّف عن اللَّه وعن شرعته «الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كل جنباتها الإنسانية بل والحيوانية، «وَ لا يُصْلِحُونَ» أبدا. فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاة إلى اللَّه معصومين وسواهم، إلا خطأ من سواهم، ومصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، وهم نحسون حسب دركات إفسادهم، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم، و «أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» ليس-/ فقط-/ ما يقابل النهي، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر، بل والنهي المسرف أحرى ان تترك طاعته، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟. و اختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهي في طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبه، أو المأثوم، هذه منهية على أية حال، «وَ لا تُطِيعُوا» هنا قضاء حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى اللَّه، ومن ثم الخطى الأخرى التي تتبنّى الخطوة الأولى! تركا لطاعة من سوى اللَّه ككلّ، إلّا رسول اللَّه، وكل من يحمل عنه ما حمّله حليما تقيا، لحد يعتبر أمره أمر اللَّه وكما عرّف به اللَّه. فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، وانما يؤمرون في البداية وينهون، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال، «وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط. قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ 153 ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 154.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 414

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر: «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول ل «إنما» الضلالة وجاه «إنما» الهدى إلا «إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»!. إذ «ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» تريد أن تتفضل علينا، وترى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية لحد يجنّن رسول البشر، أفليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة في كيان يحلّق على المفضولين، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان وربه، علميا وتربويا لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر، لحد يرمى إلى السحر والجنون، ما هذا إلّا تذليلا لساحة الإنسانية وحطا من سماحته لحدّ لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالا بلا رسول!. و إنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، انها لا تستأهل ان يؤتى خبر السماء وهي عائشة الأرض، تغافلا عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملإ الأعلى وهي مقيمة الأرض. تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر، ولكنهم عكسوا الأمر، تقديما لتهمة السحر على «فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»: قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ 155 وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ 156. «هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (7: 73) (وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها ..» (17: 59)

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ» (54: 27) هذه الناقة نفسها آية إذ خلقت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 415

دون ولادة متعوّدة، وكيف خلقت هي آية؟ أحرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفي بما قاله اللَّه «ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً». ثم وتقاسم الشرب وهو نصيب الشرب سويا، آية أخرى، كيف تشرب ناقة بمفردها كشرب جمهرة الناس المرسل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى‏ «1» وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم؟ كلّا وهم عمي لا يبصرون: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ 157. و العقر هو إصابة الأصل والقعر، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحرا لآية الرسالة، وأخذا لشربها، وأكلا للحمها، «فأصبحوا» بعد ذلك وحين رأو العذاب «نادمين» ولات حين مناص، وتراهم عقروها كلّهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (29)!. مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها» (14) (فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» (11: 65)-/ وذلك بعد عقرهم الناقة وتحديهم صالحا بإتيان العذاب «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ» (7: 78)، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفا فعقرها كما في آية القمر، فهم كلهم مشاركون في درك عن درك، وقد عد عاقرها-/ فقط-/ أشقى الأولين. «ايها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان و روي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال: انه أوّل عين نبعت في الأرض هي التي فجرها اللَّه‏عز و جل لصالح فقال: لها شرب و لكم شرب يوم معلوم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 416

بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة». و قد نستلهم من «عقروها» أن كلّ مشارك في ظلم أو معاون ظالما يجمع معه في إثمه، كل حسب دوره الفعال في الجريمة، وحتى في النيّة. فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ 158 وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 159. تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين، وليعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ. إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ. قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى‏ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى‏ آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى‏ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. تنزل هذه السورة كلها في مكة المكرمة، في فترة محرجة موحشة من هذه الرسالة القدسية، يعانيها الرسول صلى الله عليه و آله من الجاهلية الجهلاء القرشية، تهريجا لجو مكة ضده، وتحريجا لصاحب الدعوة، ضربا وشتما وحصرا في شعب أبي طالب وفي النهاية تهجيرا الى المدينة، فقد أحرجوه طيلة العهد المكي حتى أخرجوه، فتقص له فيها أحسن القصص توطينا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 417

وتوطيدا لخاطره الشريف، حين يسمع قصة أخ له من قبل يعاني صنوف المحن من إخوة له في النسب، وهذا النبي يعاني المحن من قومه، وعلى الجملة فإن هذه السورة ترسم له من قصصها صورة عسيرة من دعوة سابقة بين حاسدين يتربصون بها كل دوائر السوء، وهي في ختامها يسيرة حيث يرجع صاحب القصة أميرا كبيرا بيده أزمة امور الملك بعد ما عاش ردحا بعيدا من زمنه عبدا صغيرا يشرى بثمن بخس دراهم معدودة، ثم يزجّ في السجن في تهمة وقحة! وكذلك أنت يا صاحب الرسالة القدسية-/ وبأحرى-/ فإن مع العسر يسرا، سوف ترأس في مهاجرك دولة الإسلام، ويصبح ختامك خير ختام بحول اللّه الملك العلام. الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. «الْكِتابِ الْمُبِينِ» هو القرآن المفصل، وهو المجمل المنزل ليلة القدر، وهو أم الكتاب لدى اللّه علي حكيم‏ «1». فان كان هو القرآن المفصل، ف «تلك» المفصلات كهذه السورة وسواها آياته، وإن كان هو المجمل فكذلك الأمر، ولكنها تفصيل آياته، أم إن «تلك» إشارة إلى «الر» أنها آيات الكتاب المبين النازل على الرسول في ليلة القدر، قرآنا على شخص الرسول كبرقية رمزية، لا عربيا في لغته حيث الحروف المقطعة لا تخص لغة دون أخرى، ولا عربيا في تعقّله حيث لا يعقلها غير الرسول صلى الله عليه و آله-/ ولكنها منها وليست كلّها، إلّا ان ضمنيتها في هذه الثلاث تحل مشكلة التبعيض، وقد تكون هذه الأحرف حاملة غير الذي أنزل عليه ليلة القدر، ام تعمهما، ومهما يكن من شي‏ء فإنها مفاتيح كنوز القرآن الخاصة بصاحب الوحي، و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الكتاب المبين الى سورة الزخرف تجد تفصيله الثلاث‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 418

الكنوز التي لا تفتح بآياته المفصلات، مهما كانت مفاتيح لكنوز أخرى للمرسل إليهم. ف «إِنَّا جَعَلْناهُ»: الكتاب المبين للرسول، المجمل عن غير الرسول «قُرْآناً عَرَبِيًّا» لغة عربية ولسانا عربيا: واضحا لا خفاء فيه في أي‏حقل من الحقول ولكل العقول. ف «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» لا تعني-/ فقط-/ العرب، فإنه «هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى‏ وَ الْفُرْقانِ» بل تعني كافة العقلاء. فالقرآن المبين، المنزل على قلب الرسول صلى الله عليه و آله في هذه الحروف الرمزية أم سواها من رموز، ليس عربيا يعقله غير الرسول، وقد جعله اللّه بتنزيله للعالمين «قُرْآناً عَرَبِيًّا» واضحا مكشوفا لا تعقيد فيه «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». فهو عربي اللفظ والمعنى، عربي الدلالة والمدلول، عربي في التفهم والتطبيق، لا تعقيد فيه دعوة وداعية، وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله بشأن العربي قوله صلى الله عليه و آله: أحب العرب لثلاث، لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي‏ «1» وليس هذا من حب الذات، وانما حب النبوة السامية، وحب القرآن وحب الجنة، فالقرآن ونبيّه عربيان واضحان دون خفاء، والجنة عربية واضحة لأهلها! «لعلكم» ايها العقلاء «تعقلون» فالعاقل قد يعقل إذا تعقّل وشاء الهدى، وقد لا يعقل إذا لم يتعقل أو شاء الردى، ف «لعل» الترجي هنا وفي سائر القرآن، لا تعني شكا في ترجّ لساحة الربوبية، وإنما هما فيمن خوطب بالقرآن، فالهدى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 3-/ اخرج الطبراني و ابو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن‏ابن عباس، قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله ... واخرج الحاكم عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه و آله تلا قرآنا عربيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله: ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاما وفي تفسير الالوسي 12: 172 عن الشيرازي في كتاب الألقاب بسند عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل و هو ابن اربع عشرة سنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 419

محتومة في دعوة القرآن لأنه غير ذي عوج، وهي غير محتومة في المدعوين بالقرآن بما فيهم من عوج. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3). القصّ هو تتبع الأثر: «فَارْتَدَّا عَلى‏ آثارِهِما قَصَصاً» (18: 64) (وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ» (28: 11) وهو الأخبار المتتبعة: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (7: 176) وليس جمعا، بل هو جنس الخبر المتتبع والأثر: «إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» (3: 62) وإنما لم يأت باسم الخبر او الأثر حيث القصص هو الخبر والأثر المقصوص المخصوص، فليس القرآن كتاب حكاية، ولا كل خبر وأثر، بل فيه المقصوص من أثر أو خبر «عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» (111) (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (7: 176). و قصة يوسف بين القصص هي أحسن القصص «بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ» وهو أحسن حديث في قصص وغير قصص: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ ..»

(39: 23) ف (إن احسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذكر كتاب اللّه عز ذكره) «1». و مهما كان القرآن أحسن حديث، وقصصه أحسن القصص، ولكن قصة يوسف قد احتلت القمة المرموقة بين القصص، حيث فيها «عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» محلّقة على كل الأبواب معرفية وخلقية، فردية وجماعية، اقتصادية وسياسية وثقافية ومن سلطة شرعية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). روضة الكافي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام و في الدر المنثور 4: 3 و اخرج ابن جرير عن عون بن عبد اللّه قال: مل اصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله حدثنا فأنزل اللّه «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. ثم ملوا مرة أخرى فقالوا يا رسول اللّه حدثنا فوق الحديث و دون القرآن يعنون القصص فانزل اللّه «الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ هذه السورة فأرادوا الحديث و أرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 420

او زمنية أمّا هيه من حقول الدعوة والداعية، والدوائر المتربصة بالدعاة إلى اللّه. و «بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ» يعمم الأحسن في وحي القرآن كله ومنه القصص، و «هذَا الْقُرْآنَ» يميزه عن سائر قرآن الوحي المقر وعلى سائر رجالات الوحي، فما ذا بعد القرآن-/ إذا-/ وهو أحسن الحديث واحسن القصص وكما يروى عن نبي القرآن تنديدا بمن نسخ كتابا غير القرآن «يا ايها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصارا ولقد آتيتكم به بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون ..» «1». و قد ذكرت قصص يوسف في العهد العتيق ولكنه سيئ في جهات وحسن في أخرى، وهي في القرآن أحسن القصص في بعدية، نسبة إلى التورات، وأخرى إلى سائر قصص القرآن من حيث كونها عبرة لأولى الألباب. «نَحْنُ نَقُصُّ ... وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ» فإنه قبل وحي القرآن ما كان ليعلمه، أ بوحي يعلمه؟ ولم يكن يوحى إليه! أم بغير وحي؟ ولم يكن يعلمه أصحاب الوحي من قبل فضلا عن غير وحي! قصص يوسف هنا في هذا القرآن تمثّل النموذج الأكمل لمنهج القرآن في الأداء الفني للقصص، قدر ما يمثل نفسيا وعقيديا وتربويا وحركيا، ويوسف هو الشخصية المثالية الرئيسية في القصة، في عرض واسع، ذكرا لما فيه عبرة لأولي الألباب وحذفا لما لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 4: 3 و اخرج ابو يعلى و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و نصر المقدسي في الحجة و الضياء في المختارة عن خالد بن عرفطة قال كنت جالسا عند عمر-/ و ذكر انه ضرب رجلا من عبد قيس لأنه نسخ كتاب دانيال و امره بمحوه ثم قال له اجلس فجلس بين يديه فقال: انطلقت انا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما هذا في يدك يا عمر: فقلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله كتاب نسخته لنزداد به علما الى علم فغضب رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار اغضب نبيكم السلاح فجاؤا حتى احدقوا بمنبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال صلى الله عليه و آله. ايها الناس اني قد أوتيت .. قال عمر فقمت فقلت رضيت باللّه ربا و بالإسلام دينا و بك رسولا ثمّ نزل رسول اللّه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 421

يعني إلّا تطويل الأبواب. تذكر خوضه في مختلف الابتلاءات والبليات، وخروجه عنها كلها نقيا متجردا متبلورا خالصا عن كل رين وشين. و مع استيفاء القصة لكل ملامح الواقعية في ذلك العرض العريض، حيث أصبحت السورة كلها صورة رائعة عن هذه الشخصية اللامعة، وعرضا لثورة أخلاقية وعقيدية في معرض الاصطدامات الشديدة، فإنها تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني الصادق الفائق لواقع القصة. تظل القصة في ظلال ذلك الأداء الأمين الرصين نظيفة عن كل خالجة خارجة عن طور الواقع، لتجعل أولى الألباب معتبرين بالأمر الواقع، بعيدة عن التخيلات اللّاصقة، والتطفلات اللّاحقة، والترنمات الماحقة لأصالة القصة. فالسورة بكاملها ثورة أخلاقية عقيدية جماعية سياسية اقتصادية أمّاهيه، بمن يحتّفون بشخصيتها المحورية-/ يوسف الصديق عليه أفضل الصلاة والسلام-/ بين يعقوب الوالد الملهوف، وبين الإخوة في كل حقد ومؤامرة ومناورة، إلى أن شروه بثمن بخس دراهم معدودة، وبين عزيز مصر وامرأته بكل غرائزها واندفاعاتها الأنثوية الرديئة، وبين النسوة من طبقة عليّة في مصر الفراعنة، وبين أصحابه في السجن، وإلى أن أصبح هو عزيزا يرأس بلاد الفراعنة في كل صدق وصفاء وهيمنة الرسالة! إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ. «يوسف» هو ابن يعقوب إسرائيل، وعلى حد تعريف الرسول صلى الله عليه و آله: «الكريم ابن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 422

الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن ابراهيم» «1». و «أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً» أتراها معيّنة لديه معنيّة حين رآها كاتصال الإخوة بالأخوّة، وكما الشمس والقمر المعروفان؟ علّها هيه كما في رواية «2». أم ليست هيه إذ لا تلمح لها الآية، اللّهم إلا نسبة بينها وبينه تلوّح للأخوّة. و هل السجدة هذه كانت ليوسف عليه السلام؟ ولا يسجد إلا للّه! إنما «سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا إليه وكان ذلك السجود لله تعالى» «3» و سجود الكواكب والنيرين هنا علّه سقوطهما على قدميه ليعني غاية الخضوع، وإلا فهي خاضعة للّه منذ تكوينها وفي حركاتها. و لماذا «رأيت» مرتين وهي رؤيا واحدة؟ كأن الاولى هي الرؤيا والثانية هي الرؤية فيها فالأبلغ الأفصح تكرارها. و ترى لماذا بالنسبة للكوكب والشمس والقمر «هم .. ساجدين» وهي لا تعقل؟ علّه حيث نسب إليها فعل من يعقل «ساجدين» ناسبها ضمير العاقل، وكما في أضرابها: «و كل في فلك يسجون» «يا أَيُّهَا الَّنمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ» «وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 4-/ اخرج احمد و البخاري عن ابن عمر ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:.

(2). المصدر 4: 4-/ أخرجها بطرق عدة مصححة عن جابر قال جاء بستاني اليهودي الى النبي صلى الله عليه و آله فقال يا محمد اخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ما اسماءها فسكت النبي صلى الله عليه و آله فلم يجبه بشي‏ء فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فبعث رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله سلم) الى البستاني اليهودي فقال: هل أنت مؤمن ان أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم قال صلى الله عليه و آله: حرثان و الطارق و الذيال و ذو الكفتان و قابس و دثان و هودان و الفيلق و المصبح و الضروح و الفريخ و الضياء و النور رآها في أفق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا امر مشتت يجمعه اللّه من بعد فقال اليهودي اي و اللّه انها لأسمائها

(3). نور الثقلين 2: 410 في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: تأويل هذه الرؤيا انه‏سيملك مصر و يدخل عليه أبواه و اخوته، اما الشمس فأم يوسف راحيل، و القمر يعقوب، و أما الأحد عشر كوكبا فإخوته فلما دخلوا عليه سجدوا شكرا للّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 423

«فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ». فقد حسن استعمال ضمير العاقل فيها لمكان فعل العاقل، وهنا مزيد تحويلا لتأويل الرؤيا و هو أبوا يوسف واخوته، فجرى الوصف على تاويل الرؤيا ومصير العقبى، فزاد حسنا على حسن. ثم الرؤيا هي الرؤية في المنام، وهي تعمها وكل ما يرى في غير حالة اليقظة الكاملة من إغماء، أم حالة بين النوم واليقظة، كما المنام يعم النوم باختيار ودون اختيار، وفي اختياره يعم اختيار مقدمات له، أم اختيار النوم بتجريد النفس وتخليّها عن البدن بحواسه الظاهرة، والرؤيا تحصل في كل هذه الخمس مهما كان أكملها النوم التام باختيار أم دون اختيار، في نوم حيونة الحواس أم إنامتها باختيار. و المناسب منها لساحة يوسف الصديق هو ما دون الإغماء، والأنسب بين الأخرى هو الإنامة باختيار، ولا برهان لها فيما هنا، فان رؤيّ الأنبياء شعبات من الوحي، كما في سائر الرؤيا الصادقة، فإن فيها لمحات الوحي، حيث ترى سيرة الواقع في ظلال الصورة المناسبة لها، الوطيدة الصلة بها. فقد يرى الواقع الغيب بسيرتها وصورتها الحقيقية، وهذه تخص رجالات الوحي ومن يحظو حظوهم، إذ يحذو حذوهم، ام ترى بصورتها المثالية، فهي بحاجة إلى تاويل، وهذه تعمهم وسواهم ممن يرى الرؤيا الصادقة، ورؤيا يوسف هذه من الثانية، كرؤيا صاحبيه في السجن: «قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الآْخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ..» (36) وكرؤيا الملك: «وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى‏ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 424

عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ ..» (43). و قد تكون منها رؤيا ما أوحي إلى أم موسى: «إِذْ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّكَ ما يُوحى‏ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ» (20: 39) فإنه وحي الإلهام وعلّه في الرؤيا كما يروى، أم في اليقظة كما تحصل للصالحين. و من رؤيا النبوة العليا للرعيل الأعلى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ» (48: 27) و «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ» (8: 23) (و ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس» (17: 60) وفي ابراهيم «إني أرى في المنام أني أذبحك ..» (37: 102). و الرسول صلى الله عليه و آله يرى في هذه وتلك صورة الواقع نسخة طبق الأصل، دون المثال الذي يحتاج الى تاويل. فالنفس تتجرد حالة المنام عن حيونة التعلق ببدنها، فقد تشفّ أكثر مما كانت قبل المنام، فترجع إلى عالمها المسانخ لها، فترى بعض ما فيه من الحقائق قدر استعدادها وفاعليتها وقابليتها، وقد لا تكشف لبقية التعلّق والاتصال بما تحويها من حواجز خارجية او داخلية ليست لتتخلى عنها، فلا تتحلى إذا بالكشف عن الحقائق. فالنفس الكاملة تدرك الحقائق مجردة عن الصور الطارئة، وغيرها قد تدركها بطارئة الصور التي تأنسها، وهذه الصور قد تكون قريبة الصلة والحكاية عن حقائقها، وهي للأصفياء، أمّن يصفو لفترة مصلحية وإن لم يكن من الأصفياء. و قد تكون متوسطة الصلة أو بعيدتها عن حقائقها، فيصعب تأويلها، حين تختلط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 425

وتتخربط الصور المماثلة والمضادة للحقائق، فتضل عنها ولا مؤوّل لها مهما كان لها تأويل، اللّهم إلّا من علّم تأويل الأحاديث «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ». فمن الرؤيا ما هي صادقة حيث ترى فيها الحقائق بصورها الواقعية، او القريبة، ومنها الكاذبة حيث لا ترى فيها الحقائق إلا بصور غريبة بعيدة يصعب تأويلها إليها وهي أضغاث أحلام، ذلك لاختلاف حالات النفس في منامها، ومنها ما هي كاذبة لا تأويل لها إطلاقا، إلّا حكاية عن طوارئ النفس خارجية وداخلية. فالرؤيّ المتجردة عن اسباب خارجية طبيعية في اليقظة والمنام، وعن اسباب مزاجية او خلقية، هي الصادقة، سواء في الصور المجردة، أم التي لها صلة بالواقع قريبة أم غريبة، والأخيرتان بحاجة إلى تأويل. و لكنما الرؤيا المرتبطة بأسباب سوى الواقع، هي المرتبكة البعيدة عن الواقع، وليس لها تاويل أبدا. و على أية حال فلا مجال لانكار أن هناك الرؤيا الصادقة «1» حيث تخبر عن الغيب ماضيا او حاضرا او مستقبلا، حين تصفو النفس أصالة كالأصفياء، ام ابتلاء وتذكيرا لفترة او فترات كما في البعض من رؤي غير الأصفياء. فما منا صالحا وطالحا إلّا وقد رأى في منامه ما يكشف له بعض المغيبات، ما لا سبيل إليها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و كما يقوله الباحثون الغربيون من علماء الطبيعة حيث لا يرون للرؤيا حقيقة و لا للبحث عنها و ارتباطها بالحوادث الخارجية و زنا علميا، و لكنما المنامات الصحيحة المتواترة الكاشفة عن المغيبات ليست لتحمل على الصدف و الاتفاقيات، و الا كانت الصدفة أنجح من المحاولة القاصدة في الكشوف العلمية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 426

بالسبل الطبيعية والكسبية المتعودة، واما رؤي الصالحين الصادقة فكثيرة كثيرة، ودرجات الكشف في الرؤيا حسب درجات أصحاب الرؤيا، كما وتأويلاتها في صورها المتوسطة والبعيدة بحاجة الى درجات من الكشف لمن يؤولها إلى حقائقها، ومن أرقاها ما يلهمه اللّه أو يوحيه وكما ليوسف الصديق «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ ..». فالرؤي الصادقة هي ما تتخطى حواجز الزمان وحواجز المكان وحواجز الأحلام الكاذبة التي يعيشها الإنسان. و كما تتخفى حواجز الأبدان وعالم الأبدان، فتشفّ الروح اكثر مما كان، فترى الحقائق بسيرتها او صورتها متحللة عن مثلث الزمان، وأبعاد المكان، ثم الكاذبة لا تحكي إلّا عن هذه الحواجز الباقية على قدرها، فلا رؤيا إلّا ولها تأويل، بين صادقة تكشف عن الواقع الحق، ام كاذبة تكشف عن الواقع المختلق‏ «1». و قد تعاضدت الروايات ان الرؤيا الصادقة شعبة من الوحي، او جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة، وقد تتأيد الأخير بما يروى ان الوحي على الرسول صلى الله عليه و آله كان منذ البداية الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و صح عن جابر أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا و ليستعذ باللّه تعالى من الشيطان الرجيم و من شرها و لا يذكرها لأحد فانها لن تضره. وفي تفسير روح المعاني لآللوسي 12: 181 و في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من اللّه فليحمد اللّه تعالى و ليحدث بها و إذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ باللّه تعالى من الشيطان الرجيم و من شرها و لا يذكرها لأحد فانها لن تضره، و فيه و صح عن جابر ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا و ليستعذ باللّه تعالى تعالى من الشيطان الرجيم و ليتحول عن جنبه الذي كان عليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 427

ستة أشهر في الرؤيا «1» ولو صحت لانطبقت في الحساب قياسا لستة أشهر الى ثلاث وعشرين سنة زمن الوحي كله، الا ان الثابت قرآنيا وفي السنة ان الاكثرية الساحقة من وحيه في تلك المدة كانت يقظة، واقله في الرؤيا. و قال جماعة من المتفلسفة «2» وآخرون من الصوفية «3» مقالات حول الرؤيا، نصدق المصادق منها مع الكتاب والسنة. يرى يوسف الصديق رؤياه الصادقة هذه فيقصها على أبيه، ثم يعقوب التورات ينتهره «ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل يأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟ فحسده أخوته واما أبوه فحفظ الأمر» «4» تكذيبا لرؤياه في تنديد وانتهار، حيث يصبح يوسف في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الآلوسي 12: 182 عن عائشة:

(2). قالوا انها انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، و الصادقة منها إنما تكون‏باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن ادنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الى صلة هناك، ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها الى الحس المشترك فتصير شاهدة ثم ان كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية و الجزئية استغنت عن التعبير و إلا احتاجت اليه:

(3). قالوا ان الرؤيا من احكام حضرة المثال المقيد المسمى بالخيال و هو قد يتأثر من العقول السماوية و النفوس الناطقة المدركة للمعاني الكلية و الجزئية فيظهر فيه صور مناسبة لتلك المعاني و قد يتأثر من القوى الوهمية المدركة للمعاني الجزئية فقط فيظهر فيه صورة تناسبها و هذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ و قد يكون بسبب توجه النفس بالقوة الوهمية الى إيجاد صورة من الصور كمن يتخيل صورة محبوبه الغائب عنه تخيلا قويا فتظهر صورته في خياله فيشاهده و هي اوّل مبادئ الوحي الالهي في اهل العناية لان الوحي لا يكون الا بنزول الملك و اوّل نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسية و كما يروى عن عائشة انها قالت: اوّل ما بدئ به رسول اللّه صلى الله عليه و آله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح‏

(4). في الاصحاح 37 من سفر التكوين» .. 1-/ و سكن يعقوب في ارض غربة أبته في ارض كنعان 2-/ هذه‏مواليده يعقوب: «يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع اخوته الغنم و هو غلام عند بني بلهة و بني زلفة امرأتي أبيه و أتى يوسف بنميمتهم الرديئة الى أبيهم و اما إسرائيل فأحب يوسف اكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصا ملونا فلما رأى اخوته ان أباهم أحبه اكثر من جميع إخوته أبغضوه و لم يستطيعوا ان يكلموا بسلام-/ و حلم يوسف حلما فأخبر اخوته فازدادوا ايضا بغضا له فقال لهم: اسمعوا لهذا الحلم الذي حلمت: فها نحن حازمون حزما في الحقل و إذا حزمتي قامت و انتصبت فاحتاطت حزمكم و سجدت لحزمتي، فقال له اخوته «العلك ...». ثم حلم ايضا حلما آخر و قصه على اخوته فقال: اني قد حلمت حلما ايضا و إذا الشمس و القمر واحد عشر كوكبا ساجدة لي و قصه على أبيه و على اخوته فانتهره أبوه و قال له: ما هذا الحلم .. فحفظ الأمر»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 428

حيرة وانبهار، ثم حفظا لها كأنه يرى لها واقعا! ويا له من تناقض في هذه المواجهة، وانتحار! واما يعقوب القرآن فيصدقه بكل تكريم وإكبار، ويؤوّلها أحسن تأويل فيحذره عن قصها لإخوته خوفا عن مكيدة وحسد واستكبار: قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى‏ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. ذلك وحتى تحققت رؤياه بتأويلها «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا ..» (100). أ ترى انه قصها على اخوته، خلافا لصالحه وعصيانا لأمر والده الحنون فحسده إخوته؟

كلّا! فإنما ملامح الحب اللّامحة منه ليوسف وأخيه، الراجحة على إخوته، هي التي حرضتهم على ما حسدوه وافتعلوه «إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا ..» دون تصريحة أو اشارة، أنه يرأسنا كلنا بما رأى من رؤيا أوّلها أبونا، أم رؤيا غيرها. و لكنما التورات تخطأ هنا خطأ ثانيا إذ تصرح أنه قصّه على اخوته‏ «1» ثم تعكس امر المواجهة، فلأبيه الانتهار، وليس هنا للإخوة أمر، وعلّهم وافقوا أباهم في تكذيبه، فلم يأخذوا رؤياه بعين الإعتبار! اللّهم إلّا رؤيا أخرى هي الأولى، تذكرها ما هيه ثم قول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفس المصدر السابق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 429

الإخوة «ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا؟ وازدادوا ايضا بغضا من أجل أحلامه ومن اجل كلامه»؟! «قالَ يا بُنَيَّ» هذا التصغير دليل انه صغير ولمّا يبلغ الحلم خلاف ما تقصه التورات انه ابن سبعة عشر، ووفاقا لآيات تالية في نفس السورة «.. هذا غُلامٌ ..»-/ «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً ... وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها ..» ثم إنه لمحة لا تجاه الأب الحنون وجاه هذا الولد الصغير، الكبير الكبير في محتده، المحسود بين إخوته من قصته، ومثل هذه الرؤيا ليست رؤيا الطفولات للأطفال، وإنما رؤيا البطولات للرجال الأبطال، مما يخطط رسم حياته المنيرة منذ الطفولة حتى الرجولة، محسودة بين الإخوة، محاطة بحيطة رحيمة. «قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى‏ إِخْوَتِكَ ..» كمبدء وضابطة في قصّ الرؤيا وعدم قصّها، ولماذا تقص الرؤيا على حاسدين يتحرضون لكل مكيدة: «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً» وقد ينسى الحنان الأخوي حين يرون فائقا متوفقا من بينهم عليهم حيث «الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ» «إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ»! إنما تقص الرؤيا على من يؤوّلها، أو يتبهج لها كوالد حنون، دون من يتحرّج بها فيحرّج صاحب الرؤيا كأخوة حاسدين. فلقد عرف يعقوب من هذه الرؤيا ان يوسف هو المختار بين ابنائه من نسل ابراهيم لتحل عليه كل بركة، وتتمثل فيه كل حركة في هذه السلسلة المباركة وكما قال «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ...». لذلك-/ وحفظا عليه-/ يوصيه إلّا يقص رؤياه على إخوته، وبطبيعة الحال لم يكن-/ بعد-/ ليقصها حيث يرى في ذلك هدما لصرح رؤياه، وخلافا على أبيه، وكما لا تلمح القصة على طولها أنه قصها عليهم.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 430

و لو أنه قصها عليهم، وقد علم انهم يكيدون له كيدا، فلما ذا يرسله معهم حين يطالبونه؟

أ إرسالا الى غير محضن ليحققوا كيدهم الذي يعلم لو انهم عرفوا رؤياه؟! وفي ذلك القص وهذا الإرسال تخطئة لساحة يوسف ويعقوب، ومس من كرامتهما، فلا تصدق الرواية القائلة «فلم يكتم يوسف رؤياه وقصها على اخوته» «1» فانها من الإسرائيليات. و لماذا هنا «فَيَكِيدُوا لَكَ» وهو متعد بنفسه كما «فيكيدوني»؟ اللام هنا لا تعدي، وإنما تؤكد تخصيصا ان يختصوك بكيدهم بمحاولات قاصدة هادفة، دون استطراد في جمع، وذلك من عداوة الشيطان للإنسان ان ينزغ بينهم لحدّ الكيد القتل لأخ حبيب صغير وكما فعل، والأخوّة من الظروف الجذرية للتحاسد يتعامل معها الشيطان ما وجد إليها سبيلًا. وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى‏ آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى‏ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. «و كذلك» البعيد المدى، العظيم في الرؤيا، نسخة طبق الأصل، وواقعا وفق الصورة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 2: 242 عن ابن بابويه بسنده عن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث مفصل فيه قصة رد يعقوب سائلا مؤمنا صائما فعاقبه اللّه في يوسف و فيه فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا فقال في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب و آل يعقوب شباعا و بات فيها دميال طاويا جائعا فلما رأى يوسف الرؤيا و أصبح يقصها على أبيه يعقوب فاغتم يعقوب لما سمع من يوسف و بقي مغتما فأوحى اللّه عز و جل اليه ان استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف لا تقصص رؤياك على إخوتك فاني أخاف ان يكيدوا لك كيدا فلم يكتم يوسف رؤياه و قصها على اخوته ... أقول و في هذا الحديث موارد من النظر، فكيف يحرم يعقوب النبي سائلا وقت الإفطار و عنده كبش مطبوخ و يبقى عنده فضل منه والرسول صلى الله عليه و آله يقول «ما آمن بي من بات شبعان و جاره جائع» ثم كيف يؤخذ الابن بذنب الأب لو كان ذنبا و طبيعة الحال تقضي ان الاخوة لما يرون يوسف أحب الى أبيهم منهم يحسدونه و يكيدون و لان الملك عقيم و هم يخافون ان يصبح خليفة أبيه بعده؟!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 431

«يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... وَ يُعَلِّمُكَ ... وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ..» أترى الاجتباء هنا هو الرسالة، أم إنها إتمام النعمة؟ فالاجتباء لها كتقدمه وبينهما تعليم الأحاديث؟ حيث الرسالة هي إتمام النعمة إذ ليست فوقها نعمة! لكنما الرسالة المحمدية وهي القمة العليا من النعمة تتم بفتح مكة: «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ ... وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ..» فكيف لا تتم هذه النعمة فيما دونها من رسالات كما في يوسف وآل يعقوب وفي ابراهيم وإسحاق؟! ف «يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» هو الرسالة قبل إتمام النعمة، فإنها نعمة من اللّه خاصة، ولها درجات تتكامل فيها في جنبات، كما وأصل الرسالة والنبوة درجات. و إذا يسجد له يعقوب الرسول صلى الله عليه و آله مع الساجدين، وذلك سند اجتبائه في رؤياه، أفلا يكون-/ إذا-/ رسولا كأبيه أو هو أفضل لمكان السجدة، وذلك هو أصل اجتبائه، ثم يتبّناه تعليم الأحاديث وإتمام النعمة. و قد جاء الاجتباء في جباية الرسالة كما في آدم: «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) وابراهيم: «شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (16: 121) بل وحتى اجتباء بعد الرسالة كما في يونس: «إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (68: 50) وذلك الاجتباء بعد أن «أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» (37: 147) ثم «ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ..» .. ثم سجن في بطن الحوت ثم نجي «فَاجْتَباهُ رَبُّهُ ..»! «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ .. «1» (3: 179).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هم إسحاق-/ و يعقوب-/ داود-/ سليمان-/ أيوب-/ يوسف-/ موسى-/ هارون-/ زكريا-/ يحيى-/ عيسى-/ إسماعيل-/ اليسع-/ يونس-/ لوط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 432

فهو يجتبي رسله ويجتبي من رسله، ثم لا اجتباء فيمن دون الرسل رسالة او في درجاتها، إلّا اجتباء لأمة على أمة ليست إلّا دون الرسالة كما في المجاهدين المسلمين حق جهاده: «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ..» (22: 78) وكما في إتمام النعمة هنا «وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى‏ آلِ يَعْقُوبَ» حيث النعمة درجات فإتمامها أيضا درجات، وقد فضل آل يعقوب على سائر الآل لاجتباء الأنبياء منهم لا أنهم كلهم أنبياء. و حتى فيما يذكر الاجتباء في جماعة الأنبياء، ليس ليدخل فيهم غيرهم، وكما تذكر جماعة من الأنبياء الابراهيميين بأسمائهم وجماعة أخرى جملة: «وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (6:

87). هذا هو الاجتباء قرآنيا، وهو يجاوبه لغويا فإنه جمع على طريق الاصطفاء، ولا اصطفاء إلّا في الأنبياء، يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته، والحوض الجامع له جابية، وجمعها جواب «وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ». و كأن الاجتباء في الأنبياء يعني جمع الشمل، تحفظا عن تفرق الأفكار في متفرق السبل المفرقة عن سبيله، وتجميعا لها وتوحيدا وتوطيدا على صراط مستقيم، بعد ما جمعت لهم خاصة النعم الربانية في نعيم مقيم. ثم «وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» موهبة له ثانية بعد اجتباءه بالنبوة، والتأويل هو الإرجاع، فليس إلّا فيما له مرجع في مبدء أو منتهى أم بينهما، يرجع إليه الحديث المتشابه، حيث لا ينبئ ظاهره عن باطنه، بداية ونهاية وبينهما، وهذا هو غاية التشابه ألا يظهر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 433

الحديث مرجعه في مثلثه. ثم الحديث هو كل حادث بمظاهره وآياته كما اللّه حديث «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» ام بذاته وتطوراته كما في كل حادث، ويوسف موعود ان يعلم «مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» لا كل الأحاديث، وقطعا ليس منها حديث ذات اللّه إذ ليس لها تاويل، ولا كل مخصوص علمه باللّه أمّا ذا من المستحيل كالعلم بكنه الأشياء لحد يساوق القدرة على إبداعها كما فتأويل الأشياء إلى حقائقها هكذا في مثلث الزمان وفوق الزمان والمكان مما يختص باللّه علما وقدرة، وتأويلها إلى شي‏ء من باطن أمرها ماضيا أم حالا و استقبالا، هو من العلم الذي يعلّمه اللّه من يشاء «وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ‏ءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ» (2: 255). فمما علّم من تأويله هو تاويل الرؤيا كما أوّل لصاحبي السجن وللملك، ومنه تأويل الطعام منشأ ونتاجا وبأحرى في حاله: «قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما». و الرؤيا حديث في حديث، حيث تحدث النفس فيها عن حدث بصورته قريبة أم بعيدة، و سائر الحديث واحد، وكلّ لتأويله محيص، ويوسف إنما علّم من تأويل الأحاديث، وعلّه بعض التأويل من بعض الأحاديث تبعيضا من «من» وفي بعدية، وقد ذكر منها تأويل الرؤيا وتأويل الطعام، وطبعا منه تأويل الأعمال والأحكام، حيث الرسول يعرف م‏آخذ الأحكام وم‏آلاتها، فله تفسير التأويل توسيعا وتطبيقا لنصوص الأحكام. ثم الصور التي يراها الإنسان في يقظته كما في منام هي من ضمن هذه الأحاديث، قد علّم من تأويلها كصور الرؤيا، أترى أن الصور التي هي كاذبة لا تحدّث عن واقع، لها ايضا تأويل كما للصادقة حتى يعلمها يوسف كلها؟ اجل ولكن الصورة غير الصورة، فالكاذبة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 434

تأويلها الحالة الخاصة التي عليها الإنسان، المتخلفة عن الواقع، ام والجو الكاذب المحيط بالإنسان أما ذا من غير الواقع، تأويل حسب واقعه حقّا أو باطلا. و من ثم «وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» علّة سلطته الزمنية إضافة. الروحية حتى يتمكن من تمكين الدين وفي جو الفراعنة المتخلف عن الدين، أماهيه من إتمام النعمة وكما أتمها اللّه على محمد صلى الله عليه و آله بفتح مكة. و يا له ترتيبا رتيبا في واقعه: اجتباء للرسالة، ثم تعليما من تأويل الأحاديث كمنفد منقذ عن السجن، ثم «يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» بسلطة زمنية «كَما أَتَمَّها عَلى‏ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ» أتمها من قبل-/ على أبويك من قبل، فلست بدعا ممن أتم اللّه نعمته عليه «إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». و النعمة هي الحالة الحسنة بخلاف النعمة، فانها السيئة: «ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» (73: 11) والمادة في الحالتين واحدة من علم او سلطة او مال وبنين امّا هيه من وسائل الحياة، فإذا استخدمت في طريق السعادة، فهي نعمة، ام في طريق الشقاوة فهي نقمة ونعمة و «نعمة» هنا هي الخاصة بالمرسلين من عصمة أمّاهيه، فإتمامها هو بروزها تطبيقا لشرعة اللّه في واقع الحياة في دولة الحق على دويلات الباطل، التي هي ويلات على الحق!. و كأن تعليم الأحاديث هو من خلفيات الاجتباء فانه إخلاص واصطفاء، وكلما كان الإنسان أخلص للّه وأصفى كان علمه بتأويل الأحاديث اكثر وأوفى، فليكن ابراهيم وإسحاق ويعقوب ممن علّمه من تاويل الأحاديث: «وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» (38: 46) وقد أوّل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 435

يعقوب أوّل ما رأى يوسف من الرؤيا فكان كما أوّل دون أية ليت او لعل، ثم وإتمام النعمة له صورة شتى تعم السلطة الزمنية كما في يوسف وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه و آله والقائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه و آله وهذه من الصور الظاهرة، ثم صور أخرى تناسب كافة الأصفياء الأوفياء. و من إتمام النعمة في الرسالة دوامها فيمن يحملونها دونما انقطاع، تخليدا لدولة الحق في السلطة الرسالية، وكما تمت يوم الغدير بانتصاب الأمير، وقد قال عنه العلي القدير: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» (5: 3) فإنه يوم تقرير المصير في استمرارية هذه الرسالة السامية لو حملتها حملتها الرساليون الرسوليون كالإمام علي عليه السلام والأحد عشر من ولده المعصومين عليهم السلام ثم فقهاء الأمة الأمثل منهم فالأمثل، وبالأحرى الشورى القدسية بين الرعيل الأعلى أحكاميا وسياسيا لإدارة أمور الامة على ضوء الكتاب والسنة. وهب هم الأصفياء، أتم نعمته عليهم، فمن هم «آل يعقوب» بجنب هؤلاء الأربعة الطاهرة: ابراهيم وإسحاق ويوسف ويعقوب؟ علّهم يعقوب ومن معه من نسله، نبيا وسواه، او سويا على صراط الحق وسواه، فلا يعني إتمام نعمة الرسالة على آل يعقوب وهم إسرائيل وبنوه، أنهم كلهم رسل تمت النعمة فيهم: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ» (45:

16) فالنعمة الأصيلة وهي الرسالة، وإتمام هذه النعمة، هما في أشخاص الرسل الإسرائيليين، و من ثم على المرسل إليهم الأول وهم آل إسرائيل مهما صدقوها أم كذبوها:

«يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (2: 40) ولكن اصل النعمة هي للذين أنعم اللّه عليهم: «مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 436

وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ» (4: 69) مهما كان الأصل فيهم الأولون: «أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ..» (19: 58) إذا فآل يعقوب في إتمام النعمة هم الأنبياء الإسرائيليون من يوسف، وموسى و عيسى ومن بينهما من داود وسليمان أمّن ذا؟ ثم وآله في شمول هذه النعمة هم المؤمنون منهم، ومن ثمّ الكافرون حيث اتجهت إليهم وان لم يتجهوا. هذا إجمال عن أحسن القصص، وهنا يسدل عليه الستار إلى مشهد التفصيل: ج سورة يوسف (12): الآيات 7 الى 12 ج‏لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10) قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى‏ يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (15) وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17) وَ جاؤُ عَلى‏ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ (18) وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى‏ دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى‏ هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 437

مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَ قالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21) لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7): «لقد» تاكيدان اثنان لما «كان» في سالف الزمان «فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ» منذ قصصهم إلى ما طلعت الشمس وغربت، آيات دائبة مرّ التاريخ في مثلث الزمان لكل سائل عن قصصهم بآياته: «آيات» وأمارات كثيرة في حظيرة الصدّيق مع إخوته الحاسدين عليه الحاقدين .. نرى هنالك آيات قدرته الرحيمية على من أخلص له، فكلما كيد كيد من إخوته ومن السيارة ومن العزيز وامرأته أمّن هو، كاد اللّه له عليهم بعكس ما لديهم «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ». و بجنبها آيات نقمته وإذلاله على من يريدون بمن أخلص اللّه سوء: «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ». و بينهما آيات عزته في عبده إذ لم تحوّله مضادات التحولات، فهو في السجن كما هو على عرش الملك، وهو في قصر العزيز كما هو في الجب، له سيرة واحدة، واتجاه واحد صامد رغم مختلف الصور والظروف المتهافتة المتفاوتة: «وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» ثم وآيات تلو آيات تأتي في طيّات الآيات، .. آيات للسائلين: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 438

قولتهم هذه لا سواها تلمح لمسرح من مزيد الحب من أبيهم ليوسف 32 وأخيه، ولو كان الحسد الباعث لما انبعثوا هو من تلك الرؤيا، لكانت أحق بالذكر بلاغة في ذلك المسرح، ودون ذكر لاخي يوسف إذ لا تشمله رؤياه، ولكنهم يتحدثون عن «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا ..» ولو كانوا يعلمون رؤياه لكانت أحرى بذكرهم إياه فقط، وأدعى أن تلهج ألسنتهم بحقدهم. فإنما ملامح الحب-/ فقط-/ ومسارحه او مصارحه هي الباعثة لقولتهم هذه وفعلتهم، ولا سيما أن الحب أصبح يزيد-/ بطبيعة الحال-/ لمكان رؤياه، فقد حان-/ إذا-/ حين كيدهم له كيدا «إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ». ثم «و أخوه» هنا دون «أخونا» تلمح أنه وإياه كانا من أم أخرى، ولأنه الأكبر، والحب الأبوي له أكثر، لذلك يتوحد كيدهم عليه دون أخيه، إذ لا مكان له دونه كما كان «وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ». «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ ..»: جماعة يتعصب بعضنا لبعض فان أمنا واحدة، ولأننا كثرة وهما قلة، فنحن-/ إذا-/ مجموعة قوية تدفع وتنفع وأقوى منهما في بعدين اثنين، ولو كان أبونا يعرف صالحنا وصالحه لكان يحبنا أكثر، أم-/ لأقل تقدير-/ لم يفرق بيننا، ففي ترجيحه المرجوح على الراجح والمفضول على الفاضل ضلال وزلة: «إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» ضلال مؤكّد بحر في التأكيد، يبين نفسه بما أبان من حبه لهما أكثر منا. نحن العصبة القوية ندير شؤون حياة العائلة إيكالا وكلّا وهما صغيران ليس لهما دور فيها إلّا أكلا وكلّا، فلما ذا-/ إذا-/ هما أحب إلى أبينا منا، وهذا ضلال مبين عن صراط الحياة البيتية والاجتماعية، مهما كان أبونا نبيا مهديا في الحياة الروحية.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 439

أ ترى ان ذلك الحب الأبوي الزائد كان-/ فقط-/ لأنهما صغيران؟ وهو سنة دائبة في كل الآباء والأمهات بالنسبة لصغار الأولاد، فلا يحسدهم الكبار على ذلك فانه تودد الترحم والتعطف لمكان ضعف الطفولة! وانهم استندوا في ضلال أبيهم المبين إلى كونهم عصبة، فهو ضلال مبين-/ إذا-/ في نسبة أبيهم إلى ضلال مبين، حيث الأخ القوي الكبير لا يحسد الضعيف الصغير، ولا يتوقع لنفسه حب الطفولة كما للصغير، إلّا إذا غرب عقله وطفلت نفسه وهذه مهانة بارزة .. وكلّ يذكر طفولته ورجاحة المودة الأبوية فيها، فليسا هما بدعا من الإخوة الأطفال ينحو نحوهما الوالد الرحيم ويحنو لهما أكثر من العصبة، فهو-/ إذا-/ صراط مستقيم في جو العائلة وليس من الضلال المبين! إنما ذلك كان حبا زائدا فوق رحمة الطفولة، حب يكشف عن لباقة زائدة فيهما ومستقبل زاهر ليس فيهم، حب دائب يزيد على مرّ المزيد من عمرهما، ولا سيما يوسف لمكان رؤياه تلك التي أوّلها باجتباء وعلم وتمام النعمة، وقد نستلهمه من لام البداية التأكيد «لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ» مما يلمح بدوام ذلك الحب دون زوال. فقد كان حبا يتخطى رحمة الآباء على الأطفال، ويحلّق على كل حب في كل مجال، فإنه-/ فقط-/ حب رسالي في اللّه، وبأمر اللّه، دون الحب السائر الدائر قضية الأنساب والأسباب، إلّا سببا إلهيا يحلّق على كافة الأسباب! فهو حب رسالي لا أبوي! ذلك الحب الجذري اللائح لهما، الدائب فيهما، هو الذي يجعلهم يحسدونهما، لحدّ المكيدة في قتل الأحب منهما. أ تراه كان بإمكانه إخفاء ذلك الحب اللائح في مقاله وحاله وأفعاله، ولكي يحافظ على محبوبه، كما هو الأصلح في الحفاظ على المحبوب؟. كلّا حيث الحب يلمح ويرشح مهما كانت الحائطة على إخفاءه، ولا سيما في حضن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 440

العائلة، فالحب المترسب يتسرب، كما الكوز يرشح بما فيه. أ ترى-/ بعد-/ الضلال المبين هو ضلال في الدين؟ والبينّ من طيات محاوراتهم طول قصصهم أنهم كانوا من المؤمنين، معترفين أن أباهم من النبيين، فكيف-/ إذا-/ بالإمكان ان ينسبوا أباهم الى ضلال مبين في الدين؟ انما هو الضلال عن صراط الحياة الظاهرية، والمصلحية العائلية، ان يكونا وهما صغيران، لا يقويان على امر لصالح العائلة، يكونا أحب الى أبينا منا بلا اي سبب، حيث الرجاحة المعنوية لهما كانت عنهم خفية، ام لائحة لا يرضون بها لأنهم وهم عصبة أحرى في زعمهم بتلك الرجالة، وهذه وتلك «ضَلالٍ مُبِينٍ»! قد يزول بزوال الموضوع «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ» ولو كان-/ في زعمهم-/ ضلالا في الدين ما زال بزوال يوسف وبنيامين! ام تراهم-/ بعد-/ انهم كانوا من النبيين، والحجج متصارعة في هل أنهم من المؤمنين أم من الكافرين، لو لا تصريحات بطيات الآيات أو تلويحات أنهم كانوا من المؤمنين، وليسوا هم من الأسباط حتى يشملهم وحيهم: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى‏ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً. وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى‏ تَكْلِيماً» (4: 164). فالأسباط هم من الرسل دون الأبناء إلّا يوسف، حيث السبط فتحا انبساط في سهولة، ويستعمل كسرا في ولد الولد لأنه انبساط من النسل، ويستعمل في كافة الأحفاد بوسيط أم وسائط: «وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً» (7: 16) ولم يكن ولد يعقوب لا أسباطا ولا أمما! وهب إن قيلة النبوة المفرطة فيهم باطلة كقيلة الكفر المفرّطة والصواب هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 441

العوان بينهما: الايمان: أو ليس المؤمن برسول إذا هتكه خرج عن الإيمان، وارتد عن كتلة المؤمنين؟ ونسبة الضلال المبين الى النبيين مهما لم يكن ضلالا في الدين، هي أسوء هتك و أنحس مسّ من كرامتهم! بل هو بالآمل ضلالا في الدين، حيث الدين يحلّق على كافة العقائد والأعمال، فلم يكن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم منهم إلّا قضية الدين، والضلال لهم على أية حال خلاف العصمة، وقد كان يعقوب من المخلصين: «وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ. إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» (38: 46) و الضلالة غواية على أية حال، والشيطان «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (38: 83)!. و لكن كل ذلك لا يثبت عليهم الكفر الصراح، إلّا جهالة في الدين، ونقصانا في اليقين، ولئن ارتدوا بذلك، فقد استغفروا اللّه بعد كما استغفر لهم يوسف ويعقوب، والمرتد عن فطرة لا تقبل توبته، فكيف استغفر لهم كما استغفروا هم أنفسهم، فلم يكن بذلك الارتداد الكافر، وإنما عصيان عظيم عظيم على جهالة بشأن النبوة السامية! بزهوة القوة العصبة ودافع الحسادة. هؤلاء الإخوة العشرة العصبة لم يتحملوا ذلك الحب المتميز ليوسف وأخيه، وحسبوه ضلالا مبينا في حقل الحب، دون أي‏سبب أم سبب بزعمهم مزعوم ليعقوب، وكما «قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ» (95). لقد نزغ الشيطان بين يوسف وإخوته حيث بزغ في حلومهم استغلالا لذلك الحقد الركين، حيث على وغلى في مرجله وانتقل من سهله البادي الى معضله حتى ت‏آمروا عليه فيما بينهم لمّا لم يجدوا سبيلًا إلى قلب أبيهم تقبّلا منهم فتقلبا إليهم:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 442

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9). و هذه مؤامرة ثانية في المؤتمر الذي عقدوه على ما حقدوه، والرأي المشترك هو نفي يوسف عن محضن العائلة: «وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ» (102). مهما اختلفوا في شاكلة أمرهم الإمر قتلا او طرحا له أرضا بعيدة لن يصلوا إليه ولن يصل إليهم: «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً» فان فعلتموه «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» كأنه حين يغيب عن بصره يغيب عن قلبه وبصيرته، فيصبح قلبه خاليا عن حبه فارغا إليكم، ثم «وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ» لتمام الحب من أبيكم، متفرغين إلى صالحكم العائلي ومحضن الحنان الأبوي دون معارض فيه ولا مشاغب. أ ترى بعد «صالحين» يعني فيما عناه «صالحين» بالتوبة عما أذنبوا؟ كأنه لا، حيث «تَكُونُوا ..» جزاء ثان للأمر: «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ» المؤول إلى شرط: إن قتلتموه او طرحتموه «أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ» وليس صلاح التوبة من نتائج الجريمة، ولا نراهم استغفروا «من بعده» وانما استغفروا توسلا إلى أبيهم:

«يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ. قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ..» (8) و كما وعدهم يوسف من قبل: «قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» (92) وليس ذلك «من بعده» إلا من بعد بعيد، وبعد أن عرفوا أنهم ليسوا بعده، بل هو قبلهم ومعهم وبعدهم عزيز آثره اللّه عليهم «لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا ..» (91). لا فقط لم يكونوا ليستغفروا «من بعده» بل وأصروا واستكبروا استكبارا قبل تبيّن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 443

أمره، حيث قالوا لأبيهم حين قال «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ، قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ» (95)! فأين «تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ»؟ ثم «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» (4: 17) وهؤلاء عملوا السوء دون جهالة، حين يعني من «صالحين» صلاح التوبة، ثم ولم يتوبوا من قريب، ولكن اللّه تاب عليهم لما استغفر لهم يوسف وأبوه. و لئن عنى «صالحين» فيما عنى صلوح التوبة، كان معنى ضمنيا لا يصلح استقلاله ولا مساواته لمعناه، وليست التوبة نتيجة الجريمة، ولا أنها تقبل في هذه الجريمة العامدة الهاتكة بكل مكيدة حتى على اللّه، أننا نعصيك ثم نستغفرك! قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10). هذا القائل هو أعقلهم وأرحمهم بالأخ الصغير، وأحوطهم عليه، حيث يرتإي بما ليس فيه فوت ولا موت، وإنما نفي عن محضن العائلة ل «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ..» وإذ ليس القتل و الطرح الذي م‏آله القتل هو العلاج الحاصر، فإلى الرأي العوان بين القتل والطرح. إنه يبدي رأيه بكل حائطة، لأنه-/ فقط-/ واحد من العشرة، لذلك يبديه مشككا غير قاطع، تحويلا عما اعتزموا لعلهم يرجعون، كما تلمح له «إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ» وكما نراهم لم يجمعوا على رأيه إلّا بعد ما ذهبوا به: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ ..»

وقد يعنى التشكيك أصل التصميم في نفيه كأنه لا يرضاه، فان كان ولا بد لا تقتلوه وألقوه .. فبالفعل-/ وقبل ان يجمعوا في امره-/ هم مجمعون على أن يذهبوا به، وها هم أولاء يحتالون على أبيهم كيف يستلبونه منه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 444

و تعريف «الجب» دون «جب» دليل أنها كانت معروفة لديهم، جب لها غيابت، هي ممر السيارة، مهما كانت جب القدس أمّاهيه. و الجبّ، هي البئر التي لم تطو، وهي الجيدة الموضع من الكلإ، وهي الكثيرة الماء البعيدة القعر، وهي التي وجدت دون ان يحفرها الناس. و غيابة كل شي‏ء قعره ومنهبطه، أترى جب يوسف هي الكثيرة الماء البعيدة القعر فألقي في قعرها؟ وهذا أقرب إلى قتله من طرحه أرضا حيث يغرق في قعرها دون ريب! بل هي القريبة الماء الجيدة الموضع من الكلاء، حيث يقصدها السيارة لنزح الماء، وليست مطوية سوية بالأحجار فلا يمكن المكوث في خلالها، إذا فغيابتها ليست قعرها إذ يرى فيه ويظهر دونما غيب، فانما غيابتها مكان يمكن المكوث في خلالها، فلا يرى الماكث فيه، وانما يرى من يدلي إليها فيدنوا هو من الدلو ويتدلى، دون أي‏خطر ولا ضرر إلّا نفيا عن المحضن. هكذا نتلمح من «لا تقتلوا .. يلتقطه» حيث القطع بسلامته هو الملتقط القاطع للمارة، فليس إلّا في هكذا جب وغيابة. فهنالك «اقتلوا» وهناك «اطْرَحُوهُ أَرْضاً» وهنا «أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ» ولكنما الإلقاء فيها إلغاء عنه. وعن التقاطه إلّا ميتا بغرقه، أم مصدوما مكسورا، ولكنه لا يسطع بوحدته أمام الباقين ان يحوّل قتله إلى إبقاءه مرتاحا، فقد جمع بين الإلقاء وغيابت الجب والتقاط السيارة، حتى يجمعوا حلومهم فيحيدوا عن إلقاءه إلى جعله كما يحيدون عن قتله وطرحه وكما فعلوا: «وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ» فانها نظرة التقاط السيارة تناسب الجعل دون الإلقاء، وهذه حصيلة طائل الشورى وفيها عاقل، بعد ثالوث القتل والطرح والإلقاء، أن يجعلوه في غيابت الجب، والشر في طائل الشورى-/ ان كان فيها عاقل-/ يبوء الى أقله،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 445

والخير في طائلها إلى أكثره، فأصل الشورى تخيّرة لصائب الرأي، وطائلها انتقالة الى أصوبه في الصواب، وأقله محظورا في غير الصواب. قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى‏ يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (12): «لا تأمنا» تصريحة أنه ما كان يأمنهم عليه، ولا يرسله معهم إلى المراعي، والجهات الخلوية المرتادة، حبا له وخشية عليه، و «مالك» استجاشة لنفي هذا الخاطر الملحوظ من حيطته الدائبة عليه، ورقابته المتواصلة له. فهم-/ إذا-/ يلتمسون منه في حوار قاطعة طائلة-/ وبكل حائطة-/ أن يرسله معهم، وما أبعد ذلك الحنان المحتاط عما تقوله التورات من تبذّل يعقوب يوسفه إرسالا مع إخوته الحاسدين دون أن يطلبوا، على علمهم-/ كما تصرح-/ بما رأى من رؤياه، ويكأنه على حبه إياه يبغضه فيهدره‏ «1» ثم البئر المطروح فيها حسب التورات كانت فارغة من الماء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الاصحاح 37 من تكوين التورات «و مضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل‏ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم فقال له: ها انا ذا-/ فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك و سلامة الغنم ورد لي خبرا فأرسله من وطاء حبرون فأتى الى شكيم فوجده رجل و إذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا: ماذا تطلب؟ فقال: انا طالب إخوتي اخبرني اين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لاني سمعتهم يقولون: لنذهب الى دوثان فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان، فلما ابصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض هوذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله و نطرحه في إحدى هذه الآبار و نقول وحش ردى اكله فنرى ماذا يكون أحلامه؟ فسمع رأوبين و أنقذه من أيديهم و قال: لا نقتله و قال لهم رأوبين: لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التي في البرية و لا تمدوا اليه يدا لكي. ينقذه من أيديهم ليرده الى أبيه فكان لما جاء يوسف الى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون عليه و أخذوه و طرحوه في البئر اما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء؟!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 446

والسيارة لا شأن لها بفارغة الماء! وقد نرى إهمالات وتشويشات، في تحريفات وتهريفات في التورات، نأتي في الهوامش بتصريحاتها مقارنة بالقرآن طوال القصة ومثل ما في سائر القرآن كما تقتضيه مجالاته. هنا الاخوة يحتالون بكل ما لديهم من إمكانيات ليذهبوا به، راسمين مربعهم الكائد ليستلبوه منه: 1-/ (مالك لا تأمنا ..»؟ ليس فينا خلاف أمنه، فما هو عندك 2-/ (وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ» بمثلث التأكيد وفي مثلث الزمان، فكل خالج في خلدك تخيّل وظنّة دون علة، إذا ف 3-/ (أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ» وكما تقتضيه حالة الطفولة، وإذا كان معنا «وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ» فلا خوف عليه من أي‏مخيف 4-/ (وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» ففي «يا أَبانا» استعطاف برحمة أبويه تجمعهم في جامع واحد، وفي «مالك لا تأمنا» استئصال لجذور المحتملات غير الآمنة، ثم في كلّ من نصحه الدائم وحفظه معهم تأيدات ثلاث، تصد كل منفذ في تأبّي أبيهم عن إرساله، اللّهم إلّا «إنه ليحزنني وأخاف ..»: وهو رد بطريق غير مباشر: قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (13) انه على علمه بميدهم في يوسف وكيدهم، لا يصارح إخوته بعدم أمنهم خوفا عن صراح العداء فاستلابه بقوة والقضاء عليه، وهذه سياسة حفاظية متينة مكينة ألا يصارح العدو بعدائه كيلا يصارح او يزيد في عدائه هياجا فيما اعتزم، فهي سياج عما اعتزم، وحائطة على ما اعترم. «قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» دون ان يبيّن سبب الحزن، ولكيلا يذهب مذهب التهريج. أنه يخافهم عليه، لمح إلى سبب له: «وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» رمية إلى هدفين،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 447

بيان سبب، وارشاد الى عاذرة لهم حين يرجعون، فإنهم-/ ولا بد-/ سوف يبحثون عن عذر، فليكن: أكله الذئب، فقد «قرب يعقوب لهم العلة اعتلوا بها في يوسف» «1». وهب «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي ..» صدق صراح دونما ليّ ولا تورية، حيث إنّ كيدهم فيه، وبعده عن أبيه، كل يسبب حزنه، ولكن «أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» تلقين للكذب حيث الذئب لا يأكل الإنسان وإنما يفترسه، وحتى إذا يأكله وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بني يعقوب لم يعلموا ان الذئب يأكل الإنسان فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب» «2». ان «يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» صدق في ناحية حيث الافتراس أكل، وتعليم لعاذرة، حائطة لكي لا يقتلوه ويكتفوا في امره بان اكله الذئب من أخرى، فقد لقنهم هذا الجواب، وتلقين الكذب حفاظا على النفس فرض لا محالة، قضية الدوران بين واجب كبير ومحرم صغير، بل ليس محرما على أية حال حيث الذئب يفترس ويأكل، ام إن «أخاف» ينحو منحى خوفه عما يفعلون، ثم يفتعلون «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ». و لكي لا يصارح في «أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» قولهم «إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» يلحّقه ب «وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ» انصرافا إلى أشغالكم، لا تقصيرا في الحفاظ عليه. و لكنهم لم يرضوا ب «وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ» على أية حال، حيث يمس من كرامة العصبة في الإخوة، ورحمة الأخوّة، فرموا رميتهم الأخيرة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 415 ح 20 عن علل الشرايع باسناده الى عمر بن يزيد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ان بني يعقوب لما سألوا أباهم يعقوب ان يأذن ليوسف في الخروج معهم قال لهم: «أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ» فقال عليه السلام: قرب ..

(2). نفس المصدر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 448

قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14). فالغفلة عن الأخ الصغير «وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ» «وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» هذه خسارة في الأخوّة بين الإخوة العصبة، فنحن-/ إذا-/ خاسرون كل شي‏ء، فلا نصلح لكبيرة ولا صغيرة، فلا نصلح لحياة كريمة، فإذا نغفل عن أخ لنا كريم وهو أنفس من أنفسنا، فقد خسرنا-/ وبأحرى-/ أنفسنا ونفائسنا، فكيف ندير-/ إذا-/ شؤوننا وشؤون العائلة. و ذلك في الحق تهديد أكيد لتهدّم العائلة إن كان أبونا يخاف أن يأكله الذئب ونحن غافلون! فسواء ألّا يأمننا عليه خيانة منّا ونكاية، أم عجزا في حفظه، ونحن عصبة، وذلك أشد علينا وأنكى! «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ»: أسد الفلوات والغابات، شجعان في كل المجالات، فكيف «أَكَلَهُ الذِّئْبُ» ونحن حضور وكلّنا عليه عيون! أم كيف نغفل عنه وهو أخونا وأمانة أبينا! وامنية عائلتنا! وهكذا يستسلم الوالد الرحيم الحكيم بعد ذلك الإحراج لإخراجه عن محضنه «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ». فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (15). و بالآمل ذهبوا به «و أجمعوا» بعد شتات آرائهم «أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ» كما ارت‏آه قائل منهم وهو كبيرهم، وكما تؤيده تنديده بهم في قصة الصواع «وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ» وإنما ارتأى ان يجعلوه في غيابت الجب حيطة عليه، ولأنهم كانوا مصممين على أمرهم الإمر وما كان له بينهم أمر إلا ما أمر! «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ» وهو في الغيابة «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا» الإمر بشأنك «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» بأمرهم، وهم لا يشعرون ماذا يفعلون، وتنبئهم وهم لا يشعرون أنك لأنت يوسف: «قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 449

أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» (89)؟ وهم لا يشعرون بذلك الوحي: ثالوث اللّاشعور للإخوة الحاقدين على يوسف الصديق‏ «1». و الإجماع هو العزم الحاصل عن شور، فالآن وقد ذهبوا به لتنفيذ المؤامرة النكراء، وقد جعلوه في غيابت الجب، وهيمن عليه كل بائسة يائسة، الآن يأتيه-/ لأوّل مرّة-/ الوحي الحبيب: أنه ناج، ثم ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وحي يطمئنه عن كل نائبة ومحنة، إلى كل راحة ونعمة، وعلى حدّ المروي عن الرسول صلى الله عليه و آله: «لما ألقي يوسف في الجب أتاه جبرئيل عليه السلام فقال يا غلام من ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني، قال: أتريد الخروج من هاهنا؟ قال: ذاك الى إله يعقوب، قال: قل اللهم اني اسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لي ذنبي وترحمني وأن تجعل لي من أمري فرجا ومخرجا، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لاأحتسب، فقالها فجعل اللّه له من أمره فرجا ومخرجا ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب، فقال النبي صلى الله عليه و آله ألفظوا بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). على الاول «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» حال لامرهم فلا يشعرون أمرهم، و على الثاني حال الإنباء فلا يشعرونك، و على الثالث حال لأوحينا، و الكل مقصود صالح لأن يعني ادبيا و معنويا، و قد أخرج الثالث في الدر المنثور عن مجاهد و قتادة و ابن عباس و الثاني عن ابن جريح ورواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: لا يشعرون انك أنت يوسف أتاه جبرئيل فأخبره بذلك‏

(2). الدر المنثور 4: 9-/ اخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله .. أقول و في اصول الكافي بسند عن أبي عبد اللّه ما في معناه بزيادة» ان تصلي على محمد و آل محمد، قبل ان تجعل له من امري ... وفي امالي الصدوق باسناده الى أبي بصير قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام ما كان دعاء يوسف في الجب؟ فانا قد اختلفنا فيه؟ فقال: ان يوسف عليه السلام لما صار في الجب و أيس من الحياة قال: اللهم ان كانت الخطايا و الذنوب قد أخلقت وجهي عندك فلن ترفع لي صوتا إليك و لن تستجيب لي دعوة فاني أسألك بحق الشيخ يعقوب فارحم ضعفه و اجمع بيني و بينه فقد علمت رقته علي و شوقي اليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 450

فقد نبئ يوسف وهو في الجب على صغره ولما يبلغ الحلم، ولكنها نبوءة دون حكم وعلم البلاغ: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» (22) وذلك قبل ان تراوده امرأة العزيز، وبعد قوله لها «أَكْرِمِي مَثْواهُ» فقد طالت سنون منذ اشترائه وهو طفل قبل الرهاق‏ «1» إلى بلوغ أشده ولكي يصلح لمراودة جنسية. هنا نودع يوسف في غيابت الجب في تصارع بين ظلماتها وأهوالها وبين نور الوحي الأمين، لنرى بماذا يرجع إخوته إلى أبيه وما هي ردة فعله: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (16) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (17) وَ جاؤُ عَلى‏ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ (18). هؤلاء الإخوة احتالوا من قبل كل الحيل لأن يذهبوا به، والآن هم في احتيالات لتغشية أمرهم الإمر على أبيهم، وأنّى ينجو الكاذب ويفلح، ويكاد المريب أن يقول خذوني، فقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذب، متسرعين في اصطناعه كما تسرعوا في استلاب يوسف من أبيه، فالتقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليل على التسرّع، فقد كان أبوهم بالأمس يحذّرهم منها وهم ينفون، ويكادون عليه يسطون ويتهكمون، إذا فكيف يتركون يوسف وهم يستبقون؟. «وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ» فرجوعهم عشاء حيلة أولى، ولئلا يتطلب منهم أن يتحسسوا عنه فورهم، حيث العشاء ظلام لا يبين، وخطر أخطر من ذئب النهار، ومن ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير العياشي عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كان ابن سبع سنين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 451

«يبكون» حيلة أخرى يتسترون وراءها، تبرئة لهم عما يتهمون، حيث القاتل لا يبكي على مقتوله وهم «يبكون»! «قالُوا يا أَبانا» نداء تجمعهم ويوسف في أخوّتهم من أب واحد، وتستجيش رحمة الأبوة عليهم «إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ» في عدو، ولم يكن أخونا الطفل ليسطع سباقا، ولا معنا رفاقا، ثم من ينظر متاعنا «وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ»! ولكن ما لهم والاستباق وخطر الذئب حادق في البرية زعمهم، وهم أكدّوا لأبيهم من قبل أكيد الحفاظ عليه، لكيلا يأكله الذئب، ثم ويوسف الطفل الذي لا يسطع مصاحبتهم في سباقهم كيف يسطع مقاتلة السارق وقد أوّل له رؤياه من قبل «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ..» فيكف يصدقهم أنّه أكله الذئب؟ وهذه كلها آيات بينات لكذبهم المختلق الجاهل، دونما تفكير سدا لثغراته، وصدا عن تهماته. و لكنهم لكي يبعّدوا كذبهم ويقرّبوا صدقهم، يتظاهرون بمظهر المظلومين المهضومين في قولة ماكرة: «وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا» تؤمن لنا قولنا «وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ» على فرض المحال، و «لو» هنا، المحيلة صدقهم في تنازلهم، لها موقعها في تشكيك يعقوب لأقل تقدير، فبطبيعة الحال أنت تكذبنا حيث الشغف البالغ في حب يوسف يمنعك عن تصديقنا «وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ» وثبت لديك صدقنا، كيف وأنت متشكك فينا، أم وتتهمنا أننا كاذبون. و لكي يثبتوا صدقهم «وَ جاؤُ عَلى‏ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..» لائح كذبه، لاختلافه عن دم الإنسان، وليس في نفس الدم أثر الافتراس، بل هو نزح، والقميص السليم غير الممزق شاهد ثالث أنه دم كذب فهم تورّطوا بفعلة واحدة في ثالوث الكذب. صحيح أن الدم لا يوصف بالكذب، ولكنه كان مكذوبا فيه لحد كأنه تجسيد للكذب، حيث الدعوى التي علّقت به كانت في غاية الكذب، وعلى حدّ المروي عن يعقوب «اللهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 452

لقد كان ذئبا رفيقا حين لم يشق القميص» «1» و «يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم، أكل لحمك ولم يشق قميصك» «2» فما أرحمه بقميصه، وأشقاه به! ولماذا «وَ جاؤُ عَلى‏ قَمِيصِهِ» دون «بقميصه»؟ لأن «بِدَمٍ كَذِبٍ» متعلق ب «جاؤا» فالترتيب المعنوي «و جاؤا بدم كذب على قميصه» و «على» هنا تلمح ان الدم كان بظاهر القميص دون باطنه، مما يؤكد كذبهم، حيث الافتراس يدمي باطن القميص قبل ظاهره، ولا يبقي على قميصه إلّا ممزقا مخترقا. فقد أدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن شغاف القلب، حيث القلب يهوى إلى القلب، أن دعواهم كذب: «قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» فأنفسكم الحاسدة سولت لكم وزينت أمركم الإمر وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعا، وليس مني في هذه الداهية إلّا «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»: «لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر» «3» «وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ» صبر جميل في اللّه واستعانة فيما يصبر عليه باللّه، دونما شكوى إلى غير اللّه، ولا استعانة بغير اللّه. ليس الصبر في ميزان الحق خنوعا على الظلم وخشوعا لدى الظالم يفعل ما يشاء، فانه ظلم ذو بعدين، فانما هو استقامة في القلب، وحفاظ على النظام النفسي من التبعثر، وانضباط للجمعية الداخلية من التفرق والتمزق والتعثّر، وعدم الخروج عن الاعتدال بحق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 417 في تفسير العياشي عن أبي جميلة عن رجل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما اوتي‏بقميص يوسف الى يعقوب فقال: اللهم.

(2). المصدر في المجمع و روى انه القى ثوبه على وجهه و قال: يا يوسف ..

(3). الدر المنثور 4: 10 بإسناد عن حيان بن أبي جميلة قال سئل رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن قوله «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» قال: لا شكوى ... وفي هامش نور الثقلين 2: 417 نقلا عن كتاب سعد السعود لابن طاووس نقله من تفسير أبي العباس بن عقدة عن عثمان بن عيسى عن المفضل عن جابر قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام ما الصبر الجميل؟ قال: ذاك صبر ليس فيه شكوى الى الناس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 453

اللّه وحق الناس، حينما تكلّ الأسباب عن دفع النازلة. فعدم التصبّر عند هذه النوازل، يخلّف كل تبعثر وتعثّر، فهو نائبة فوق نائبة، ونازلة تلو نازلة، قد تربوا على أصل النازلة، كمن لا يملك نفسه عند هياج النوازل فيقول في ربه ما لا يحمد، ويفعل بعباد اللّه ما لا يجوز. ثم وذلك الصبر منه جميل ومنه غير جميل، كمن يشكوا بلواه إلى غير اللّه متفجعا، والجميل: نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (86) «.. فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (83). فيا للّه، ما أصبره على فقد يوسف، إذ لا يجابه إخوته إلا بجميل الجواب ومجمله: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ» فلا أمر لي معكم، وإنما هو اللّه، أستعينه عليكم فيما تصفون .. هذا يعقوب القرآن في صبر جميل، ولكنه في التورات يمزق ثيابه ويضع مسحا على حقويه قائلا: إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية مصدقا أنه افترسه وحش ردي‏ء .. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الاصحاح 38 من تكوين التورات تلوما مضى من قصته: «ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم و نظروا و إذا قافلة اسماعيليين مقبلة جلعاد و جمالهم حاملة كثيراء و بلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة ان نقتل أخانا و نخفي دمه تعالوا فنبيعه للإسماعيليين و لا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا و لحمنا فسمع له اخوته-/ و اجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف و اصعدوه من البئر و باعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فاتوا بيوسف الى مصر و رجع رأوبين الى البئر و إذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع الى اخوته و قال: الولد ليس موجودا و انا الى اين اذهب-/ فأخذوا قميص يوسف و ذبحوا تيسا من المعزى و غمسوا القميص في الدم و أرسلوا الملون و احضروه الى أبيهم و قالوا: وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو ام لا، فتحققه و قال: قميص ابني وحش ردي اكله افترس يوسف افتراسا فمزق يعقوب ثيابه و وضع مسحا على حقويه و ناح على ابنه أياما كثيرة فقام جميع بنيه و جميع بناته ليعزوه فأبى ان يتعزى و قال: إني انزل الى ابني نائحا الى الهاوية و بكى أبوه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 454

و أين الصبر لجميل في هذه الداهية على علمه بحياته تحقيقا لتأويل رؤياه، والنوح عليه إلى الهاوية كأنه مفترس تجاهلا عن تأويل رؤياه؟. لحد الآن حققوا ما حسدوه، ثم وما ليوسف المحسود بعد ذلك الحقد الحقود؟ وبعد ان رأى رؤياه فأكرمه أبوه أكثر من الإخوة. إنه في مرحلة ثالثة يصبح سلعة وبضاعة بثمن بخس دراهم معدودة، من اخوته أمّن ذا ممن شروه، ثم إلى مثواه المكرم، ثم المتهوّس لحريم البلاط، ومن ثم السجن لردح بعيد من الزمن، ثم العزة العزيزة، وفي ثامنة المراحل «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» تحقيقا حقيقا له من رؤياه، بعد ما اجتاز هذه السبع وكلها رزايا في مختلف القضايا!. و من هنا يسدل الستار على يعقوب والإخوة، عيادة ليوسف، وعودا سريعا إليه في الجب، لنرى وعد اللّه له في وحيه: وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى‏ دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى‏ هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (19) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20): «سيارة» وهي كثيرة السير، توحي بان الجب كانت على طريق القوافل، المعبدة، حيث يبحث عن الماء والكلاء، وهو تأييد ثان أن الجب هي بئر الماء بين الكلاء، و «واردهم» هو قاصد الماء بينهم، الموظف لسقيهم «فَأَدْلى‏ دَلْوَهُ»: أرسل دلوه في الجب، فإنّ أدلى ودلى متعاكسان إدخالا وإخراجا، والمناسب هنا الإدخال، ام والإخراج بمناسبة البشرى: «قالَ يا بُشْرى‏ هذا غُلامٌ» يبشر به السيّارة أن حصل على غلام حين نزح الماء، ام يعنيهما معا حيث ادخل دلوه وأخرج، مهما كانت البشرى للإخراج. «وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 455

يَعْمَلُونَ وَ شَرَوْهُ ..». أ ترى من هم الذين أسروه وشروه، أهم إخوته؟ وقد أسدل الستار عليهم إلى السيارة! ولماذا يسرونه بضاعة وهو لهم! وهم لم يذهبوا إلى مصر حتى يشروه بثمن بخس! ام هم أسروه بضاعة والسيارة شروه؟ فكذلك الأمر! ثم كيف هم يسترونه والسيارة يشرونه بدل ان يشتروه، ثم يشروه في مصر! ام هما السيارة أسروه بضاعة مخافة ان يأتي صاحبه فيأخذه، ثم شروه بثمن بخس حيث الملتقط لا يشرى غاليا وكما يسوى في السوق الحر، و لأنه قد ياتي صاحبه فيأخذه ممن اشتراه فليبخس فيه لذلك من اشتراه، ولأنّه كانت عليه ملامح الحرية دون أية لمحة من الرقية، فلذلك كله تشرى هذه البضاعة بثمن بخس دراهم معدودة «وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ»! فيا للّه «قد كان يوسف بين أبويه مكرما ثم صار عبدا حتى بيع أخس وأوكس الثمن ثم لم يمنع الله ان بلغ به حتى صار ملكا» «1». و البخس هو نقص الشي‏ء على سبيل الظلم، وذلك ظلم بالغ من السيارة بحقه بعد ظلم اخوته، فإن ملامح الرقية فيه منفية، ومظاهر الحرية ثابتة، ولم يكن يوسف ليسكت-/ لأقل تقدير-/ عن أنه حرّ، فكيف يشرى وهو حرّ، ولماذا بثمن بخس إذا هو رق؟ مظالم بعضها فوق بعض. و الدراهم هي النقود الفضّية، والمعدودة هي الخفيفة حيث الثقيلة توزن ولا تعد، وهذه قلة في قلة، قلة في أوزانها، وقلة في أعدادها، يشرى بها من لا يسامى بأغلى ثمن «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ» بحقه من بخس وإهانة ومسّ من كرامة، وهذه نهاية المحنة الأولى في حياة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 418 ج 37 العياشي عن عبد اللّه بن سليمان عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قد كان ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 456

ذلك النبي الكريم. يتنقل من محضن العائلة، الى الجب بأيدي أثيمة من إخوته، ثم بضاعة إلى أيدي السيارة رقا يشرى وأدنى من سائر الرق، ومن ثم إلى الذي اشتراه من مصر، يد طامعة فيه: وَ قالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (21). هذه حلقة ثانية من حلقات القصة، يصل فيها يوسف إلى مصر ويشرى بثمن بخس دراهم معدودة، ولكن الذي اشتراه يتوسم فيه كل خير على صباه، حيث الخير لائح في الوجوه الصباح، وبخاصة حين ترافقها الأخلاق الملاح. فرغم أنه اشتراه بثمن بخس، يراه ثمينا لائحا فيه كل بصمات الخير، متحللا عن كل وصمات الشر، ولذلك يوصي العزيز عزيزته فيه بكل خير: «أَكْرِمِي مَثْواهُ» دون أكرميه، والرق أيا كان لا يكرم، ولا سيما في بيت العزيز ذي السلطة والجبروت، فضلا عن أن تتصدى إكرامه سيدة البلاط، البعيدة عن جزئيات الأمور وسفاسفها، وهي هنا تتصدى إكراما لمثواه، مكانه ومكانته، إكرام الشخصية ذي أبعاد وظلال، دون إكرام الشخص-/ فقط-/ في مأكل ومشرب وملبس ومنام، فليكرم في ذلك البيت بقمة الإكرام، لحد كأن السيدة خادمته والسيد خادمه، فهو-/ إذا-/ أعز من العزيز والعزيزة ولماذا؟ «عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» ينفعنا ما نبغيه من مختلف المنافع، كأن نشريه بأغلى الأثمان، او نستخدمه لأعلى المناصب، أم-/ وبأحرى-/ نتخذه ولدا يرثنا، إذ لم يكن لهما ولد، وهذا الغلام أحرى من يتخذ لهما كولد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 457

و حق للعزيز أن يتفرس فيه تلك الفراسة العالية، إذ كان ذا جمال قمة يبهر الأبصار، ويوله ذوي الأبصار، لطيف الحركات، مليح اللمحات، عالي الصفات، لحد تقول عنه نسوة في المدينة «ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»! فضلا عن العزيز والعزيزة. «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ...» فالممكّن في بلاط العزيز: رئيس الشرط ام رئيس الوزراء أمن ذا، هذا الذي له العزة الوحيدة، غير الوهيدة، في مصر، و علّه الملك، أم ولي عهده، والممكّن هنا، المكرم مثواه في ذلك البلاط، هو-/ دون هوادة-/ ممكنّ في كل البلد. هذه ظاهرة الأمر، ولكنها محنة من ناحية أخرى جارفة لا يقف لها إلّا من رحم اللّه، ليس السجن إلّا أدناها: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فان جوّ البلاط بما يغشاه من استهتار وفجور، وفي إصرار امراة العزيز، ثم نسوة في المدينة، هو جو المحنة والبلاء، إلّا لمن رحم اللّه وعصم. ذلك، ولكن التمكين المكين في الأرض، وإيتاء الحكم والعلم، يتطلّب سلوك طريق شاقة ملتوية، مليئة، بالأشلاء والدماء، «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»! «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا ... وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» حيث التأويل كان السبب الأخير لنجاته، واحتلال عرش العزة والملك «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»: إخوته أرادوا عليه امرا، والسيارة امرا، والعزيز ثالثا كلها في ثالوثها إمر، واللّه أراد أمرا «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ» لا غالب على أمره ولا يسامى، مهما كان أمره يتخلل أمورا كلها إمر «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» حيث ينظرون و «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 458

فيحسبون كلّ أمر نافذا إلا أمر اللّه، كأنه مغلوب على امره! رغم «إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً» (65: 3) وقد يعني «أمره» هنا أمر يوسف في ظلال أمره تعالى، فلا غالب على أمر يوسف الا اللّه. و هذه بداية تمكينه في الأرض، كوسيلة لتمكنّه بعد ردح، ولمّا انتصب على خزائن الأرض تم ذلك التمكين: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ» (56) فليس تمكنه في بيت العزيز هو فقط تمكينه فكما «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» كان يستقبله، كذلك تمكينه المكين يستقبله. و الواو في «و لنعلمه» عطف على محذوف معروف وغير معروف كما حقق اللّه تعالى فيه من أمره، كإيتاء الحكم والعلم أمّاذا من مكانات روحية ومكرمات بجانب المكانة الزمنية. ج سورة يوسف (12): الآيات 22 الى 43 ج‏وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (22) وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ (24) وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأى‏ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 459

اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29) وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ظل يوسف الصديق يترعرع، وفي خدمته العزيز والعزيزة، فقد دخل عبدا خادما، وظل سيدا مخدوما. وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ (22). و الأشد جمع الشّدّ، وأقله ثلاث، شد العقل والجسم وشد الرشد الاجتماعي وهو الحكمة «1» شدات ثلاث تصلح ظرفا صالحا-/ على شروطها-/ لإيتاء الحكم والعلم، ولأن الأنبياء أكمل الخلق خلقا وخلقا، فالمعني من أشدهم دون قرينة، هو بلوغ خمسة عشر سنة، ثم من الأشد المستوى الوسط كما في موسى «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» (28: 14) ومن الأشد بعد الوسط بلوغ الأربعين: «حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» (46: 15) ولو لا قرينة «أربعين» هنا «و استوى» هناك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 26 ص 35 من الفرقان حول الآية «حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ ..» تجد بحثا فصلا حول الأشد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 460

كان الأشد فيهما كما في يوسف، ثم ولا يعقل تصبّر امرأة العزيز في غريزتها المتعطشة الطائشة بعد بلوغ الحلم إلى ثلاثين أو أربعين وقد مضى شطر عظيم من ثورة الجنس فيهما! وللحكم المؤتى والعلم درجات حسب درجات الإحسان «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» أترى أن حكمه هنا هو نبوءته؟ وقد نبّئ قبله وهو في الجب: «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ»! وقد يقرن بالنبوة والكتاب: «ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» (3: 79) (أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» (6: 89)!. و قد يؤتى الحكم دون نبوة ولا كتاب كما في طالوت حيث أوتي ملكا يحكم به على شعب إسرائيل، ولكن لا نبوة إلّا ومعه حكم شرعي وقضاء مهما لم يكن معه حكم زمني، فالحكم إذا هو تحكيم الفضائل بسلطة شرعية عامة، او زمنية، ام قضاء خاص، وهو في يوسف يجمع الثلاث إضافة إلى «علما» فليكن حكمه حكم اللّه في ايّ من الثلاث، وعلمه فيما يرتبط بالدعوة إلى اللّه من علم اللّه، فلا خطأ-/ إذا-/ لا في حكمه ولا في علمه، ف-/ «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (40) وقد يؤتاه من ارتضاه اللّه كما هنا في يوسف، وفي سائر الحكم لسائر النبيين أمن هم من الحاكمين كطالوت وأئمة الدين المعصومين عليهم السلام. و قد تلمح جمعية الصفات في «آتيناه» أن حكما وعلما يجمعان الثلاث مع بعض في يوسف الصديق عليه السلام. «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» منحة الحكم والعلم جزاء إحسانهم وعلى حدّ إحسانهم دونما فوضى جزاف!. ثم كل قبيل من الإحسان يتطلّب حكمه وعلمه وفقهه، من إحسان العقيدة والأخلاق، والسيرة والسلوك، والعلم والفهم أما ذا من درجات الإحسان، فالمؤتى حكم النبوة وعلمه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 461

هو المحسن بما يصلح لها، ولكن ليس كل من أحسن بالغا ما بلغ يؤتى ذلك الحكم، فإنه كسبي كظرف صالح، وانتصابي كما يراه اللّه في كل زمن حسب حاجة المرسل إليهم. و من حكمه الموهوب تمكينه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» كما من علمه الموهوب علم تاويل الرؤيا الموعود له من قبل: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» إضافة إلى سائر الحكم والعلم المعلومان من طيّات القصة، كحكم النفس إحكاما لها وتوطيدا أمام الشهوات، وهو من الحكمة العملية والعلم بتأويل الأحاديث وهو من الحكمة النظرية، حكم عليم، وعلم حكيم يجتمعان في هذا النبي العظيم «وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ»! وعلى أية حال فكل حكم بالغ وعلم سابغ هي من مخلفات النبوة، فالحكم هنا حكم اللّه والعلم علم اللّه لا جهل يداخله ولا باطل يزاوله. «لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ» آتاه اللّه حكما وعلما، يسرا في المعرفة الواصبة الخالصة، وهل يحصل يسر بلا عسر؟ كلا! «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» لذلك نراه يبتلى بامرأة العزيز ونسوة في المدينة منذ أشدّه، كما ابتلي بإخوته منذ رؤياه الى جبّه، ورطات من قبل ومن بعد وليتحقق وعد اللّه في هذا البين «آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» ومن ثم «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ ..». هنا تبدأ حلقة ثالثة هي أخطر الحلقات وأبلاها، وأخطر من هدر النفس والنفيس، فانه جوّ تهدّر العصمة والخلوص للّه، «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ»!: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23). «الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها» هي امراة العزيز، وهذه صيغة سائغة عنها وعن موقفه عليه السلام دون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 462

«امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» فالبيت بيتها، وهو في بيتها وتحت إمرتها وملكتها، مما تزايدها سلطة عليه وتأمرا، وتزيده عجزا عن المقاومة وتذمرا. و بطبيعة الحال في يوسف، وهو في بداية الحلم وقوة بالغة في فورة الجنس وثورته شابا في غليان الشهوة وفوران الشبق، في بلاط ملكي له كل وسائل العيش وأسباب الرياحة والترح، كان له ان يراودها، وهي بطبيعة الحال شابة جميلة تائقة في غرامها، متزينة-/ على جمالها-/ بأرقى زينها، متدللة متغنجة تتوق إليه نفسها، مشغوفة بحبه، والهة تائهة في وصاله! فائقة الجمال، عزيزة العزيز، عشيقة والهة تتوق إليها النفوس، فتانة رنانة حنّانة، لا يرد رأيها ولا يثنّى أمرها، وقد ربّته كما أمرت في إكرام بالغ لمثواه، ولكنه-/ رغم كل هذه وتلك-/ لم ينظر إليها نظرة شهوة، ولا خلد بخلده لها لهوة ولا لحظة، فهي هي التي تراودها عن نفسه، مما يزيده إليها هوى، والمراودة من الرّود: التردد في طلب شي‏ء برفق ولينة، بكل سعي وإصرار وحيلة، والرائد الذي يرسل في التماس النجعة وطلب الكلاء، والمراودة عنه استلاب المراد ممن هو عنده «قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ» استلابا عنه بتردد والتماس، ف «راوَدْتُهُ .. عَنْ نَفْسِهِ» استلاب نفسه عنه حتى لا يملكها وهي تملكها فتفعل ما تشاء. فقد احتالت له مرارا وتكرارا في قولة وفعلة، مراودة إياه عن نفسه رغم تمنّعه وتمعّنه فيما تهوى، فلم تنجح لما تهوى فان نفسه كانت مربوطة متعلقة بعصمة إلهية مطمئنة باللّه، راضية عن اللّه مرضية عند اللّه. فكيف تراود عنه؟ اللهم إلّا ألّا يرى برهان ربه وقد رأى! ولكي تسد أمامه كل ثغرات الفرار، وكافة الأعذار «وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ» وعلّها أبواب الفرار إلى باب الدار حيث «أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ» دون الأبواب، أم وإذا كانت لمخرج البيت أبواب، فلا يكمل الهدف-/ فقط-/ بإغلاقها ما دامت أبواب الأعذار باقية للفرار، إذا ف «غَلَّقَتِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 463

الْأَبْوابَ» تعم كافة الأبواب، التي يدخل منها ويخرج عنها، فلم يبق باب لعذره إلّا مغلقة، والشهوة في الشاب والشابة حاضرة، والموانع في ميزانها زائلة، ولكنها-/ بعد-/ لم تنجح في بغيتها فرأت فيه تأبيّا وصمودا، فعندئذ صرخت عليه «وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ» والأرجح أنها من أسماء الصوت العجاب وقد تعني هاه هاه! ويلك ويلاك! من ذلك الصمود كالحجر الصّلد، والجبل الشامخ الصلب، لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، لا يتحسس لها ولا يميل إليها ولا يكلّمها في كل هذه الطائلات الغائلات، إلّا كلمة تكلمها، وتفتح كافة الأبواب التي غلقّتها: قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23). إنه في هذه المرحلة التائهة الحساسة لا يسايرها في معاذ ليقول: معاذ العزيز حيث أحسن مثواي، فما العزيز بعزيز أمام ربه العزيز، فإنما «مَعاذَ اللَّهِ» فقط لا سواه، مهما اعترفت به العزيزة أم أنكرت، والبيت بيت الشرك والشهوة، جوّ لا منفذ فيه لتوحيد اللّه، ولكن يوسف هو الآن كما كان وسوف يكون، نبيا وإلها في اللّه، متيّما في حب اللّه، لا يجلو له جمال دون جماله، ولا جلال أمام جلاله. فهب إنها غلقت الأبواب التي كانت بيدها مفاتيحها، فهل لها أن تغلق باب قلبه إلى اللّه، الملي‏ء من حب اللّه، الخالي عما سوى اللّه، فلا يستمسك في هذه الهزاهز بأسباب غير اللّه، إلّا بعروة التوحيد: «مَعاذَ اللَّهِ». فما أبعد قلبا عن قلب، قلبا لامرأة العزيز مقلوبا غزيرا من الشهوات واللّهوات، حيث أسعرت في سرها كل لهيب إلى علانيتها، وأججت كل نار حتى استغرقت في حب فتاها، و تولهت في غرامه، واشتغلت به عن كل شي‏ء، فهو بداية منطقها ونهايته، وهو في ضميرها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 464

حين تسكت «قَدْ شَغَفَها حُبًّا» حيث دخل شغاف قلبها «1». و قلبا ليوسف الصديق لا يحن إلّا إلى اللّه، وليس فيه إلّا حب اللّه، متناسيا عن حب من سواه إلّا فيه، فكيف يعشق امراة ذات بعل مهما كان لجمالها ومالها من جواذب. لذلك يقول في جوابها «مَعاذَ اللَّهِ» لأنه اللّه و «إِنَّهُ رَبِّي» لا سواه «أَحْسَنَ مَثْوايَ» لا سواه، فقضية ألوهيته أن يتقى، وقضية ربوبيته أن يتقى، ولأنّه أحسن مثواي، وإن كان ربك العزيز أمرك أن «أَكْرِمِي مَثْواهُ» فان ذلك ايضا في ظلال ربوبية اللّه «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ» يكرم مثوى عبده عند من يعبد سواه، وكما أكرم موسى في بلاط فرعون. هذا وذاك وذياك ومن ثم «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» ولا سيما في ثالوث الظلم، أن أظلم نفسي، وأظلم العزيز في غيبه «ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» وأظلم حق ربي وإن كان هو لا يظلم «وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» (65: 1). فهل أخترق عصمة العبودية، وأظلم ثالوثه، لان العزيزة يعشقني؟ كلا! إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»-/ «وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ». و ما أسخفه تفسير «ربي» بالعزيز، و «مَعاذَ اللَّهِ» يقدمه، فكيف يرجع إلى غيره «إنه»؟ ومهما كان العزيز أحسن مثواه، ولكنه من إحسان اللّه، وليس العزيز محور الاحترام، فان ربوبيته له بالنسبة للرب اخترام، ثم لم تكن للعزيز بالنسبة إليه أيّة ربوبية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في معاني الاخبار باسناده عن أبي حمزة الثماني عن السجاد عليه السلام في حديث يوسف الطائل قال عليه السلام و كان يوسف من أجمل اهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال: معاذ اللّه إنا اهل بيت لا يزنون فغلقت الأبواب عليها و عليه و قالت لا تخف و القت نفسها عليه فأفلت منها هاربا الى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فأخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه فالفيا سيدها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 465

تحترم، فانه أوصى العزيزة بإكرام مثواه انتفاعا منه كتاجر! ثم قد أهان مثواه روحيا بجنب اللّه، مهما أكرم مثواه ماديا وكما تهواه! ثم المربي أيا كان لا يسمى في منطق الموحدين ربا! ولم يكن رقا حتى يعتبره بذلك ربا! وإنما هو رب في منطق الشرك وكما قال لأحد صاحبيه في السجن: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» (42) وقال لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ» (51) وأما عن ربه «فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» (51)! وفي الآية التالية» لو لا أن رأى برهان ربه». وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ» (24). ان العزيزة لم تقنع بذلك الحجاج، واصرت على ما تهوى بكل إصرار ولجاج «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» بكل ما للهمّ من معنى وكما يؤكّده حرفا التأكيد عدّة وعدة، همت به لحد علقت به «وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ..» والهمّ ارادة صارمة بهمة عارمة، لو لا دافع عنه او مانع لتحقق المهتم به، وهمّ الزنا سوء وهي نفسها فحشاء، وهذه العزيزة سيدة البلاط. و أما يوسف «وَ هَمَّ بِها» كما همت به «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها، فالأسباب الطبيعية، وتجاذب الجنس مع تغلّق الأبواب، كانت كالعلة التامة لذلك الهمّ من يوسف، ولكنه «رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» فلم يهم بها سوء فضلا عن الفحشاء! وهنا مع كل الأسى نرى زمرة من المفسرين القدامى والحدثاء، وآخرين من المحدثين ساروا في همّه عليه السلام وراء الإسرائيليات التي حتى التورات المحرفة منها براء «1» مصورين يوسف في هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي الاصحاح 39 من تكوين التورات تصريحة ببرائته على تحرفه في جهات اخرى قائلا بعد ما مضى‏في قصته: «و اما يوسف فانزل الى مصر و اشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط .. فوكله الى بيته و دفع الى يده كل ما كان له .. و لم يكن يعرف معه الا الخير .. و حدث بعد هذه الأمور ان امراة سيده رفعت عينيها الى يوسف و قالت: اضطجع معي فأبى و قال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت .. و لم يمسك عني شيئا غيرك لأنك امرأته فكيف اصنع هذا الشر العظيم و أخطى الى اللّه و كان إذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله و لم يكن انسان من اهل البيت هناك في البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه في يده و هرب و خرج الى خارج و كان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها و هرب الى خارج انها نادت اهل بيتها و كلمتهم قائلة: انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، و كان لما سمع اني رفعت صوتي و صرخت انه ترك ثوبه بجانبي و هرب و خرج الى خارج، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل الي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني و كان لما رفعت صوتي و صرخت انه ترك ثوبه بجانبي و هرب الى خارج. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمى فأخذ يوسف بيده و وضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه و كان هناك في بيت السجن، أقول: على اختلاف مواضيع منها مع ما قصه القرآن نراها لا تتهم الصديق ان هم بها، فالويل لمن اتهمه و كذب عليه ما التورات المحرفة منه براء!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 466

الحلقة الخطيرة هائج العزيزة، مائج الشهوة، فاللّه يدفعه ببرهان منه فلا يندفع، حتى أخرج شهوته من أنامله، ويرى هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضا على إصبعه بفمه يندّد به، ولوحات كتبت عليها آي من الذكر الحكيم تؤنّبه وتردعه فلا يرتدع، حتى خرجت شهوته من أنامله، وإلى أمثال هذه وتلك من الأسطورات النكراء المكراء بحق يوسف الصديق! وهنا شهود سبع على براءته بين صديق وعدو وعوان بينهما: فاللّه تعالى اوّل شاهد لبراءته: «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ» بعد ما صرف عنه سوء الهمّ بها «وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» ولا ريب أن هكذا همّ من أسوء السوء وهو من غواية الشيطان وسلطانه: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (16: 99) ومن أفضلهم المخلصون ويوسف منهم: «إِنَّهُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 467

مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ»! وشاهد ثان «هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي»-/ «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ. فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ..» (34) (ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» (52) «-/ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ» (91) وهو يعني نفسه وأخاه حين قال: «أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي ..». و صاحبة القصة ثالثة: لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» (32) (الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (51). و العزيز الراغب في تهمته هو الرابع: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29). و الشاهد من أهلها هو الخامس «وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ. وَ إِنْ كانَ ... فَلَمَّا رَأى‏ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ..» (28). و نسوة في المدينة هن السادس: «وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (30) و «قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (51). و إبليس هو السابع حيث «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (15: 40) (كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ». شهود سبعة بين صديق وعدو وعوان بينهما كلهم يشهدون ببرائة ساحة الصديق من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 468

السوء والفحشاء، فلئن كان هؤلاء المختلقون يتبعون كاذبا عدوا للصديق حتى الشيطان، لكان عليهم ان يبرؤوا ساحته كما قال الشيطان: «إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ»! فلتغسل كتب إسلامية عن تلكم الأسطورات التي تسوّد وجه النبوات وتعارض كافة المقاييس واللّه منها براء! يوسف منذ نبئ كان يرى برهان ربه والبرهان هو آكد الأدلة وأوضحها وأثبتها، من بره يبره إذا ابيض دون مخالطة، فهو هنا العصمة الإلهية، والحضور التام عند ربه، دونما غفلة ولا لحظة، ولا سيما في مواضع الزلة، و «لو لا ..» تحيل له عدم الرؤية، وبالنتيجة تحيل همّه بها ولبرهان الرب مراحل ثلاث ولكلّ درجات، علم اليقين-/ عين اليقين وحق اليقين، فحقه لا يخالطه أيّ شك وباطل، ولقد رأى يوسف درجة من حق اليقين، وكما تطلّب إلى ربه درجة أعلى منها لما ابتلي بكيد نسوة في المدينة: «وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ..». في مرحلة حق اليقين تتحلى حقايق الأشياء دون ستار، منخلعة عن صورها المستعارة، و كما يروى في اجابة الصديق عن همها «1». و انما يحسن «وَ هَمَّ بِها» ولن يهم، تلويحا بأن الأسباب العادية تمت في همّه بها، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير روح البيان 12: 236 روى عن ابن عباس كان يوسف ... فقالت له يا يوسف انما صنعت هذا البيت المزين من أجلك فقال يوسف يا زليخا انما دعوتني للحرام و حسبي ما فعل بي أولاد يعقوب ألبسوني قميص الذل و الحزن يا زليخا اني أخشى ان يكون هذا البيت الذي سميته بيت السرور بيت الأحزان و الثبور و بقعة من بقاع جهنم فقالت يا يوسف ما احسن عينيك! قال: هما أول شي‏ء يسيلان الى الأرض من جسدي، قالت: ما احسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، قالت ما احسن شعرك قال: هو اوّل ما ينتشر من جسدي، قالت ان فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي قال: إذا يذهب نصيبي من الجنة، قالت: ان طرفي سكران من محبتك فارفع طرفك الى حسني و جمالي، قال: صاحبك أحق بحسنك و جمالك مني، قالت هيت لك!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 469

القمة القاضية من تجاذب الجنس حاضرة، ولكنه حيث «رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» لم يهم بها «كذلك» التأثير الخارق للعادة من رؤيته برهان ربه «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ» لا «لنصرفه عن السوء والفحشاء» إذ لم يكن ليهم بهما وإنما السوء الهاجم عليه، والفحشاء الحادقة به المحلّقة عليه، لا بد لهما من صرف الهي-/ حينما تعجز المحاولة البشرية-/ وقد صرف «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ» وهكذا يكون دور المخلصين في صرف إلهي بعصمة إلهية على طول الخط، فساحتهم من وصمات السوء والفحشاء براء، وفناءهم من بصمات الخير والسعادة بيضاء، وفي الحق «ان رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام، ألم ينسبوا يوسف إلى أنه هم بالزنا»؟ «1» و هكذا تقول الروايات الصادقة وفق القرآن كما يروى عن الامام الرضا عليه السلام قوله في تفسير آية الهمّ: «لقد همت به ولو لا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت به لكنه كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 419 عن امالي الصدوق باسناده الى أبي عبد اللّه عليه السلام أقول و من المؤسف انه روى هذه الفرية الفريقان و كما في نور الثقلين 2: 420 في تفسير العياشي عن محمد بن قيس عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سمعته يقول: ان يوسف لما حل سراويله رأى مثال يعقوب عاضا على إصبعه و هو يقول له: يوسف! قال: فهرب ثم قال ابو عبد اللّه عليه السلام و لكني ما رأيت عورة أبي قط و لا رأى أبي عورة جدي قط و لا رأى جدي عورة أبيه قط، قال و هو عاض على إصبعه فوثب فخرج الماء من إبهام رجله، أقول و من أعور العورات نسبة هذه الرواية الى صادق آل محمد عليه السلام و لا موقع هنا للتقية حيث الكتاب مصرح ببرائته عليه السلام و كما فيه عن العياشي (47) عن بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام قال: اي شي‏ء يقول الناس في قول اللّه عز و جل «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» قلت يقولون: رأى يعقوب عاضا على إصبعه. وفي الدر المنثور 4: 13 و 14 روايات عدة غير مسنودة الى النبي صلى الله عليه و آله اللهم الى علي عليه السلام أن هم بحل التكة، او جلس منها مجلس الخائن اما ذا من سفاسف الافتراءات على الصديق العظيم، و اللّه منها براء و الرسول و الائمة النجباء عليهم السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 470

معصوما والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه ..» «1». فبرهان ربه هو العصمة الإلهية التي يجعلها في مقام الحضور الدائب لدى الرب كما يقول الامام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئا إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» و ليست المعصية إلّا عن جهالة وغفلة، وساحة النبوة منها براء. هذه ثالوث المحاولات الإبليسية من العزيزة «2» ليوسف، مراودة عن نفسه. ولمّا تفشل، تتربع لرابعها توسلا الى القوة، وأين لها وكيف تقوى على طغوى من حياته كلها تقوى: وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (25). إنّ هياجها الحيواني المسعّر دفعها إلى إعمال القوة في إطفاء الشهوة فلحقته بعد ما مسّكته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 419 ح 42 عن عيون الاخبار في باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء باسناده الى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون يا بن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى قال فما معنى قول اللّه عز و جل-/ الى ان قال-/ فاخبرني عن قول اللّه تعالى: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» فقال الرضا عليه السلام ... ثم أضاف: و لقد حدثني أبي عن الصادق عليه السلام انه قال: همت بان تفعل و هم بان لا يفعل فقال المأمون للّه درك يا أبا الحسن. أقول الجملة الأخيرة في ظاهرها لا تلائم الآية بل تعاكسها، ف «هم الا يفعل» بتتمة الآية «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» يجعله فعل حيث رأى برهان ربه، و رؤية البرهان تدفع الهم دون ان تدفع الى الهم، الا ان تؤول بانه تفسير النتيجة الحاصة عن «هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» فانتفى-/ إذا-/ همه بها الى همه الا يفعل و هو تأويل حسن. و اما المجلس الآخر عند المأمون عند الرضا عليه السلام في نفس الآية: فانها همت بالمعصية و هم يوسف بقتلها ان أجبرته لعظم ما تداخله فصرف اللّه عنه قتلها و الفاحشة و هو قوله: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ، يعني القتل و الزنا» فلا يلائم الآية حتى تأويلا بانه لم يهم بها كما همت بل هم بقتلها، حيث القتل في نظائر هذه الموارد لا يجوز في الشرعة الإلهية، غاية الأمر الا يستجيبها و يفر عنها كما فر

(2). هي راودته-/ غلقت الأبواب-/ و قالت هيت لك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 471

و فرّ «وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» مما يدل على إقبالها إليه فإدباره عنها. فالقدّ هو الشق طولا والقطّ هو عرضا، والإلفاء مباغتة اللّقاء خلاف الوجدان فانه لقاء مقصود محاول، وسيدها-/ هنا-/ بطبيعة الحال هو العزيز، فلم يقل: سيده او سيدهما، إبعادا عن مزعمة أنه ربّه، وتأييدا للمعنى من أن «انه ربي» هو اللّه لا سواه. «و استبقاء» يوسف وامرأة العزيز «الباب» الممكن فتحها بعد غلقها، أم يكسرها ويخرج نجيا، وفي ذلك الاستباق يوسف يسرع إلى الباب فرارا عن كيدها وإصرارها، وامرأة العزيز تسرع إليه لتأخذه، والى الباب لتمنع عن فتحها، ولما سبقها الى الباب أخذت قميصه ايقافا له عن الخروج قضاء لحيونة الشهوة، ولكنه استمر في السباق «وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» شقا في طوله «و ألفيا» في مباغتة «سَيِّدَها لَدَى الْبابِ» وهنا انقلبت حركة المراودة والاستباق، إلى موقف التحقيق في حيرة وبهرة من هؤلاء الثلاث. لم يكن يوسف في هذه المفاجئة الفاجعة ليسبق العزيز والعزيزة في شي‏ء من بيان الواقعة، لأنه خلاف الشرعة ان تبدى خطيئة مخفية، وقضية الحال لو لا الإيمان أن يبدي-/ ولأقل تقدير-/ حياطة عليه وسياجا على مكيدة قد تكاد، ولكنما الايمان قيد الفتك. و نرى البادئ هنا صاحبة الجريمة، تجد حاضر الجواب بكل مكيدة على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب، ولكنها بصورة عامة قد تحافظ فيها على عشيقها الذي شغفها حبا، علّها تصل الى بغيتها فيه بعد ردح من الزمن ف: «قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ» فلو أنها لم يكن لها فيه هوى لقطعت في حكمها بقتله، أفتى مملوكا مؤتمنا على البلاط مكرما مثواه، يمس من كرامة صاحبة البلاط؟ و لكنها حكمت أولا «أن يسجن» الظاهر في فترة دون «ان يكون من المسجونين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 472

اللائح في ردح بعيد من الزمن، ومن ثم تبين منها أن حكم السجن مكيدة لها عليه في حائطة:

«وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» (32) وهنا «أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ» علّه سياج على المكيدة، وأن في إبهام العقوبة نوعا من الفرج، وإن كان في «بأهلك» هياجا حارضا على مؤاخذته، ولكنه من وجه آخر كان حيلة في صرفه عن مؤاخذتها، ثم لها سبيل في صرفه عن مؤاخذة يوسف تلك الصعبة الملتوية القاضية عليه. ا ترى يوسف البري‏ء هنا يتفجر فيفجر في الجواب، ويخرج عن نجد الصواب؟ كلّا! فلا يجهر إلّا بقدر من الواقع فيه براءة ساحته، دون أن يدنسها أكثر مما كانت، ولا كما كانت، حيث اختار من ثالوث مكيدتها أولاها: «وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها» وأما تغليق الأبواب، وقولة «هيت لك» ومن ثم الاستباق، فلا! ف: قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ... (26). دفاعا عن نفسه بأقل الواجب، وليس فيه تأكيد من قسم وسواه، ولا تملق او تعلق بأمر سواه، تدليلا على طمأنينة أمينة في نفسه، وهكذا يكون البري‏ء الأمين، لا يقول إلا صراح الحق، دون تشبثات بخلاف الحق .... وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (26) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27). أ ترى العزيز كان مكفوف البصر ليحتاج بيان الموقف إلى شاهد يشهد بما هو مشهود لكل ذي بصر؟ كلّا، ولكن المنظر المفاجأ ما كان ليفسح مجالا لفحص ونظر، حيث يرى صاحب البلاط صاحبته في ذلك المنظر الرهيب مما يريب ويهيب، فكان-/ ولا بد-/ لبراءة يوسف الصديق من خارقة تجلب النظر، فعلّه لم يسمع كلام يوسف، أم لم يحلّ محله في سمعه، فمدعية-/ هي عزيزته وكريمته: أنها هتكت في غيبه من فتاه، ومنكر لم يأت بشي‏ء إلّا دعوى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 473

خالية وجاه دعواها، وطبيعة الحال قاضية أنها القاضية الماضية في دعواها، أم-/ و لأقل تقدير-/ يبقى الموقف مريبا مترددا. هنا قد نصدّق الرواية القائلة أن الشاهد كان طفلا في مهده وهو من أهلها «1» وقد كانت شهادة مثلثة: رضيع يشهد، وهو من أهلها، وشهادته مشهودة في قميصه، فطفولته وجّهت وجه العزيز إليه حائرا ذعرا ليسمع مقالته، وكونه من أهلها لا من أهله أوجب للحجة وأوثق للبراءة وأنفى للشبهة، وقدّ القميص من الدبر جعله يقطع دون ريب بكيدها وبرائته، لا سيما وبدأه باحتمال كذب يوسف «إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ» كسياسة حيادية في الشهادة تجعل السامع لها تائقا إليها، ناظرا فيها، مرتاحا بها، ثم عطفا إلى احتمال ثان هو المبان في المشهود له: «وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ». و بالنتيجة نظر العزيز إلى القميص قبلا ودبرا ليحظو حظوة من الشهادة فَلَمَّا رَأى‏ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) أفكان يجرأ شاهد بالغ من أهلها ان يشهد لغير صالحها وفيها هتفه ام سقوطه عن أهليته؟!. و لم تكن هذه الشهادة لتحتمل خلاف الواقع، أن تحمّل على الموقف تعبدا ام تقبلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الدر المنثور 4: 15-/ اخرج احمد و ابن جرير و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و آله قال: تكلم اربعة و هم صغار ابن ماشطة فرعون و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيسى بن مريم و مثله دون اسناد اليه صلى الله عليه و آله عن سعيد بن جبير وفي نور الثقلين 3: 422 ح 53 عن القمي حدثني أبي عن بعض رجاله رفعه قال قال ابو عبد اللّه عليه السلام لما همت به-/ الى ان قال في تفسير الآية-/ فألهم اللّه عز و جل يوسف ان قال للملك سل هذا الصبي في المهد فانه سيشهد انها راودتني عن نفسي .. فانطق اللّه الصبي في المهد ليوسف.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 474

عرفيا، و إنما هي شهادة بمشهود حاضر غاب عن الناظر قضية الموقف الخطير الرهيب، الذاهب بلب العزيز وبصيرته فضلا عن بصره ورؤيته، فهي شهادة مصحوبة بواقع المشهود وبسند الشهادة، والشاهد طفل ليس ليتكلم كلام الطفولة وهو يشهد شهادة الرجولة البالغة، ثم هو من أهلها، مقدما لها ما يحتمل به نجاحها، فلم يكن بد للعزيز إلّا حكمه القاطع في عزيزته: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ» إدخالا لها في جمعهن تخفيفا عنها أنها ليست بدعا في مكرها «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ»! فأخيرا تبين في مشهد العزيز والعزيزة بشاهد من أهلها أنها هي الخائنة، وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية المترفة في الجاهلية قبل آلاف من السنين-/ كما هي اليوم أرقى-/ تبدو رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية مع تميّل إلى كتمان التميّع عن المجتمع، وأنّى منها الكتمان وقد تسرب الخبر وشارع في سراع الى نساء في المدينة!. و ترى كيف «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» ومع «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» (4: 76)؟ إنه عظيم وجاه كيد الرجال، ولكنهما معا ضعيفان بجانب كيد الشيطان، ثم العظيم عند الناس أضعف من الضعيف عند اللّه، ثم وعظم الكيد منهن من قالة العزيز، ولا يرد عليه القرآن لعظمه نسبة الى الرجال، لا على أية حال! يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (29). هل الحاكم هنا بعد الشهادة هو الشاهد؟ «وَ شَهِدَ شاهِدٌ» دون حاكم لا يناسبه، ثم الحكم في مثل هذا الموقف ليس إلّا عزيزه الكبير، النافذ قوله في فتاه والعزيزة! فهو إذا ليس إلّا العزيز. يبدأ بيوسف المنتصر المحكوم له في المشهد كملتمس منه، ألّا يذيع ويشيع الكارثة:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 475

«يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا» الذي حصل، ولكنه لا يكفي كاتما ما دامت العزيزة أسيرة سعار الشهوة، وقد تتكرر منها المراودة فتفشوا، أم تتسابق على لسانها في فلتاتها، ام تظهر على وجهها في لفتاتها فتشيع، فلذلك يثني الوصية بعده إليها «وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ» و هل كانت مؤمنة باللّه لتستغفره عن ذنب، ام كان هو مؤمنا ليأمرها به؟ وطبيعة البلاط وجّوه التميع واللّامبالاة حتى في المسلمين فضلا عن بلاط الفراعنة المشركين!. أم أمرها أن تستغفر العزيز نفسه لذنبها؟ وماذا يفيده وكيدها عظيم! ولو كان في الحق ذنبا عندهما لكانت هي البادئة في استغفاره قبل أمره!. علّه بمناسبة الموقف هو طلب الغفر الستر على ذنبها، وهو ما يستوخم عقباه، أن تحاول في ستره والحفاظ عليه كما تستطيع حتى لا يذيع، أم بمناسبة «إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ» يطلب إليها أن تصلح حالها فلا تراوده؟ وعلّهما معا معنيّان، وفي مناسبة الموقف هما سيان. و لماذا «الخاطئين» بدل «الخاطئات» علّة لتعميم أكثر وتعمية لخطائها ضمن خطايا الآخرين رجالا ونساء، أم إنهم الطبقة الارستقراطية من رجال البلاط ونساءه حيث تعمهما هذه الأخطاء، ثم وفي «الخاطئين» تلويحة أخرى أنها كانت مستمرة في مراودتها في سترة ملّحة، حيث كان يتحسسها منها ولا يصارحها بشي‏ء إلّا هذه المرة المريرة المفاجأة، كما وقالة النسوة: «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ» بالصيغة المضارعة دون: «راودتها» تدل على ذلك الاستمرار المكّار الجبار، فهو ضمن ما يحكم عليها بالخطاء يحكم لها أنها ليست بدعا في الأخطاء التي هي طبيعة الجو في البلاط، ولذلك نراها تصرح بمراودتها أمام نسوة في المدنية «الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ..» دونما تخوف من ذياع الخبر وضياعها في جوّ البلاط، فانما كانت تتستر وتتصبر تفتشا عن مجال لائق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 476

مقبول لمراودتها حتى لا يقال «تُراوِدُ فَتاها»: الرق-/ مما يدل على خساستها، متنزلة عن خصاصتها وعلياها!. و هنا يسدل الستار على مشهد المراودة، ولكنه لم يؤنّبها أو يعاقبها، أم-/ ولأقل تقدير-/ يفصل بينهما، فتمضي الأمور في طريقها، مما يدل على نقصان الغيرة او زوالها من جو البلاط، وهكذا تمضي الأمور في القصور، في كل تقصير وقصور، ذلك وإلى أن تسرّبت القصة إلى نسوة في المدينة: وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30). هنا لأول مرة نعرف رسميا صراحا ان المرأة هي امرأة العزيز، والذي اشترى يوسف من مصر هو العزيز، فالقرآن يكتفي في ذكر الأشخاص من سماتهم كما يقتضيه الموقف، دون تهدّر في ذكرها تطويلا بلا طائل، فهنالك «الذي اشترى وامرأته» وهناك «أَلْفَيا سَيِّدَها» و هنا، «امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» ومن ثم «قالَ الْمَلِكُ ..» وقد نتبينّ بعد أنه عله هو العزيز أم سواه. و لماذا «قالَ نِسْوَةٌ» دون «قالت»؟ ألأنها اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي؟

وتأنيثه على أية حال حقيقي! أو لأن تقديم الفعل يسمح لإسقاط علامة التأنيث كسقوط علامة التثنية والجمع؟ وهذا قياس خلاف القياس الأدبي، أن المؤنث الحقيقي فعله او صفته مؤنث على أية حال! إلّا أن يقال أن أدب القرآن هو المقياس لكل قياس، فتذكير فعل المؤنث الحقيقي قبله هنا يؤخذ قياسا مطردا في أضرابه، دون إصغاء الى سائر الأدب!. ام أضف إلى ذلك المحتمل أن قالة نسوة هنا تجشّما على عزيزة البلاط هي قولة الرجولة، فناسبهن ضمير الرجال، وكما ياتي ضمير العاقل لغير العاقل بمناسبة فعل العاقل: «وَ كُلٌّ فِي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 477

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»: الأرض والقمر والشمس، حيث السباحة العاقلة دون غرق ولا اصطدام هي فعلة العاقل. و على أية حال «وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ..» وطبعا هن نسوة معروفات بامكانهن تلك الرجولة في قالة على العزيزة، وطبيعة الحال فيهن التحسّد عليها، فلا تحسد نساء الطبقة السافلة الجائعة عزيزة البلاط، ولا يخلد بخلدهن تلك المحاسده، فهن-/ إذا-/ سيدات في المدينة عزيزات راعنات مثلها متهوّسات متغنجات متولهات والهات للشهوات واللهوات، يسمحن لأنفسهن تعيير صاحبة البلاط. و كيف تسربت القصة إليهن؟ أنها «تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ» دون «راودت»؟ فلأنهن عشيرات العزيزة ورفيقاتها، فالمخالطة المراودة بينهن تجعلهن يتفرسن تلك المراودة المستمرة ولا سيما تلك المرة الجاهرة التي تسربت-/ بطبيعة الحال-/ إليهن، من فلتات لسانها وصفحات وجهها إمّا ذا من لفتات وفلتات. هن يعبن العزيزة كيف «تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ» ولما يرينّ يوسف إلّا رواية، واين رواية من دراية؟ والبيان من العيان؟ واين هي والفتى المملوك؟ وبطبيعة الحال إذا كان صاحب جمال ليس بالذي يفوق جمال الفتيان في جوّ البلاط، فكيف تعشق العزيزة فتاها ولحد «قَدْ شَغَفَها حُبًّا»؟ اختلت أحوالها القلبية كما القالبية! فقد شق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها، متفئدا بنيران العشق، حارقا كلا القلب والقالب! .. و الحب الشغف هو أبلغ الحب، فهنا العشق الحب المفرط، وهناك السكر والهيمان، وهنالك الشغف وهو غشاء القلب، فقد يعني أن حبه تغلغل إليها حتى أصاب شغافها وهو غشاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 478

قلبها، فأصبحت مسلوبة الشغاف، أم إن شغافها أحاط حبه وأحاطه حبه فلم يبق في قلبها إلّا حبه، فلا تهوى إلّا إياه، ولا ترى إلّا رؤياه، ولا تنظر إلّا مرآه، وكأنها أصبحت كلها إياه، حيث حجب عنها كل شي‏ء، كأنها لا تملك لنفسها إرادة إلّا مراودته، ولا تحب إلا رؤيته، إذ «قد حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب القلب» «1» حب قاتل لا يعرف صاحبه إلّا محبوبه، فإنه اللازق بالقلب، اللازم معه! «إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» حيث تبين هي كلّ ذلك وهو لا يبين بل لا يبين!. فهبها تحب فتاها شذوذا في الحب، فلما ذا تبين هي، وأما هو فلا يكاد يبين، ترغب إليها وهو لا يرغب، لحدّ التسابق وقد قدت قميصه من دبر وشهد شاهد من أهلها «إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» حيث ظلت تراوده فضلت كذلك المبين! وضابطة المراودة الجنسية ان الرجل يراود المرأة التي هي بمبلغه، وتلك المراودة فيها تخلفات عدة، 1-/ أنها تراود، 2-/ و باستمرار، 3-/ فتاها المملوك لسيدها، 4-/ وقد شغفها حبا، فهي-/ إذا-/ مراودة تربو في مربعها على سائر المراودة، مما تزيدها قحة على قحة، فتصبح فعلتها في قمة الوقاحة. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31). و بالآمل «سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ» كما سمعن مكرها، وكيف يصبح بيان الواقع مكرا وهي معترفة بأصل المراودة، وليس الاغتياب مكرا إلّا التهمة؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 423 ح 57 في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «قدشغفها حبا يقول: قد حجبها ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 479

علّه «مكرهن» من جهة تضخيم القحة بغيا منهن لها، حسدا وابتغاء فضحها في المدينة، والتذرّع به إلى مواجة يوسف لكي يحظون به حظوها، وهي ترى مراودته طبيعة الحال في ذلك الجمال، وكما أثبتت لهن حتى اعترفن «ما هذا بَشَراً ..»! «سَمِعَتْ ... أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ...» كلهن دون إبقاء، مما يدل على أنهن نسوة خصوص كانت تعرفهن وتتعارف معهن، «أرسلت .. و اعتدت لهن متكأ ..» وترى ما هو «متكأ» وما هي الصلة بينه وبين «سكينا»؟ المتكأ هو ما يتكأ عليه من كرسي أو نمرق، متعوّد عليه في بيوت المترفين تلك الزمن، والإعتاد دليل أنه متكأ خاص، دون الحاضر في محاله على أية حال، إذ كن من نساء الطبقة الراقية المسامتة للعزيز، فهنّ اللواتي يدعين إلى م‏آدب لكل الآمرب المترفة في القصور، ويؤخذن بتلك الوسائل المتميزة، يأكلن ويتفكهن وهن متكئات على الوسائد والحشايا والنمارق كعادة الشرق في تلك الزمن. و مهما صح عناية الأترج من المتكأ، إضافة إلى ما يتكأ، فهنا لا تصح، فان «متكأ» ظاهرها الوحدة، وكيف تكفي لهن أترجة واحدة! ومن قبل «أعتدت» لمحة أن «متكأ» ما كان حاضرا، وحضور الأترج وسائر الفاكهة في بيوت المترفين أمر متعوّد لا يحتاج إلى إعداد، ف «متكأ» بوحدته يلمح لمجلس واحد كله متكأ، وطبعا للأكل والشرب والمحادثة، فيكفي بوحدته دلالة على حضور أنواع الآمكل والفواكه. «وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ..» واستعمال السكاكين في الأكل في تلك الزمن البعيدة، يصور المدى البعيد، عن الترف والحضارة المادية، .. فبيناهن منشغلات بتقطيع اللحوم والحلويات والفواكه، تمكر مكرها إذ تفاجئهن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 480

بيوسف مباغتة دون سابقة إعلام: «وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ». و لماذا «أخرج» بديل «أدخل» علّه لأنه كان منزويا في زاوية أو غرفة تخوفا عن استمرار المراودة، أم وكيد النسوة المدعوات، أم إنها أخفته في مخدع داخل المأدبة المتكأ ف «قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» فخرج بطبيعة الحال، إذ ما كان يملك تأبّيا وهو في ملكتها وتحت سلطتها وسيطرتها، أم لو لم يخرج لأخرجناه معها وأنّى له التأبّي عن خروجه في هذه المعركة الصاخبة، وهلّا خافت عليه منهن أن يفتنهن كما هي، فبشاركنه فيما تشتهي؟ لأنها مولاه وقد تملكه، فلا يدعه يهوي الى هوّاتهن، وهي تعلم أنه لا يصبو إليهن وقد عصم نفسه منها وهي أجملهن، ثم لا تسطع أن تقضي على كيدهن إلّا أن يرينه كما رأت فيغيرن من كيدهن اعترافا بحقها فيه وقد فعلت. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31). و لماذا لا يكبرنه وقد أعطي حسنا منقطع النظير وكما يروى عن البشير النذير «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن» «1»! «أكبرنه» عما كن يزعمن أنه-/ فقط-/ فتاها المملوك، أم وأي فتى جميل، ولكنه منقطع النظير في قبيل البشر، لذلك «أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» لدهشة مفاجئة غير منتظرة، ولقد كان ذلك الإكبار لحدّ أصبحن في أنفسهن صاغرات مائرات لحدّ فقدن بالمرة شعورهن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 17-/ أخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم عن انس عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ... وفي المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله و هو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية، رأيت رجلا صورته صورة القمر ليلة البدر قلت يا جبرئيل من هذا! قال: هذا أخوك يوسف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 481

وإحساسهن، فجذبن أعينهن إليه عما يقطعن من أكل وفاكهة، فقطعن أيديهن، فإن كانت العزيزة شغفها حبا لحد تلك المراودة في مدة طائلة فهن قد أصبحن أشغف منها في اوّل وهلة، فقالت لهن العزيزة «أنتن من ساعة واحدة هكذا صنعتن فكيف أصنع أنا» «1»! ومن خلفيّات الإكبار الأنثوي أمام جمال رائع منقطع النظير-/ الحيض، وكما تعنيه لغة الإكبار أحيانا: أكبرت المرأة إذا حاضت، فسواء أحاضت لكبر في عمرها كبداية اغتلامها، ام لإكبار فيما ترغب إليه من شهوة فائقة وقد تمني، حينذاك، فقد تعني «أكبرنه» فيما تعنيه:

حضن وأمنين، مناسبة لأدب اللفظ والمعنى. و من خلفيات ذلك الإكبار أن «قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» في تصاغر قوالبهن كما في قلوبهن، حيث أثر إكبارهن قلبا وقالبا، لحد أخطأن الفاكهة وسائر المأكول إلى أيديهن، حيث قطعنها فاقدات الشعور والأحاسيس، اللهم إلّا إحساسهن ليوسف لا سواه، دون أن يدركن إلّا إياه. و هذه سنة سارية في الإنسان، أن الروح إذا انشغل عن البدن تماما فلا يحسّ ما يصاب في البدن، سواء أكان انشغالا في اللّه فأحرى وأتم، أم انشغالا في غير اللّه وكما حصل في نسوة في المدينة. فلقد كان ذلك الإكبار لحد فقدان الشعور المدبر للبدن، المدرك لمصابه، وليس «قطعن»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 16 و اخرج ابن أبي حاتم من طريق دريد بن مجاشع عن بعض أشياخه قال قالت للقيم‏ادخله عليهن و البسه ثيابا بيضا فان الجميل احسن ما يكون في البياض فادخله عليهن و هن يحرزن ما في أيديهن فلما رأينه حرزن أيديهن و هن لا يشعرن من النظر اليه فنظرن اليه مقبلا ثم اومأت اليه ان ارجع فنظرن اليه مدبرا و هن يحرزن أيديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من نظرهن اليه فلما خرج نظرن الى أيديهن و جاء الوجع فجعلن يولولن و قالت لهن: أنتن ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 482

تعني جرحن، والاختلاف بينهما فادح، وهل كن يجرحن الطعام والفاكهة حتى يستبدلن أيديهن عنهما؟ فإنما تقطيع بديل تقطيع، وصيغة التفعيل هي للتكثير، كثرة في عدد عدد أيديهن، وأخرى في قدد حيث قددن وشققن أجزاء من أيديهن كما تقطع الفاكهة، وهن لم يشعرن حين قطعن حتى هنيئة رجعن إلى ما كنّ فرأين أيديهن مقطعة. «قَطَّعْنَ ... وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً ..»! وهي كلمة تنزيه للّه، اندهاشا من خلق اللّه، فهن مهما كن مشركات في عبادة اللّه، ولكنهن في نفس الوقت موحدات في خالقية اللّه: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ»؟. ففي حسن البشر حد تعرفه نساء الطبقة العليا، المترفة بجمال الرجال، فإذ لم يجدن مثله فيما رأينه، إذ ف «ما هذا بَشَراً» أيا كان «إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ» ليس كسائر الملك على حسنهم وجمالهم وكمالهم بل هو بينهم «كريم» واسع في الملكية جمالًا وكمالا، خلقا وخلقا، صورة وسيرة، فلو كان بشرا لرأينا مثله، أم انجذب إلى نسوة جميلات متزينات بأعلى الزّين، متزيّات بأرقى الأزياء، فلا خلقه يشبه بشرا ولا خلقه، إذا ف «ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». أ ترى أنهن رأين ملكا كريما حتى ظننّه ملكا او مثّلنه بملك؟ كلّا! ولكن السيرة منذ القديم جرت على أن صورة الملك أفضل الصور كما وسيرته أحسن السير، فضلا وحسنا فوق التصور، فيمثل به كل حسن لا يقدر بقدر، وهو منقطع النظير في قبيل البشر! وهكذا قدرن في يوسف ما هذا بشر إذ لا يرين فيه انجذابا الى أنثى البشر وهن وهي في حسنهن القمة، وفي دلالهن وغنجهن ما لا تغمض عنه عين بشر! لذلك «إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 483

و لكن الحق في «مَلَكٌ كَرِيمٌ» ألا يطمع فيه طمع الجنس، وليكرم إكراما فوق الإنس، دون تهمة وقحة وفي رغبة الجنس، فكيف تكون الحالة الملكية عاذرة لامراة العزيز؟ الحق انه مبالغة منهن في جمال الصورة وكمال السيرة والسريرة، مما يزيد النساء رغبة فيه وشغفا إليه، لذلك نراها تعتذر به وهن يقبلن العاذرة، وإلّا لانقلب سناد العذر ضده، وقلّب الأمر عليها أشدّه. و ترى أن تقريرهن في «إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» ولزامه أن الملك أفضل من البشر، هلّا يعارض «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فلا أحسن منه في تقويم مهما كان له مثيل في تقويم «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» حيث القليل منهم له مثيل؟ و لكن هذا تصريح دون معارض وذلك-/ على أكثر تقدير-/ تقرير، فليقدر بقدره غير المعارض للتصريح، وعلّه ان الحالة الفعلية الدائبة لملك كريم أفضل منها لبشر، مهما كان الإنسان في استعداده وفاعليته تحصل له فعلية هي من الملك أكثر بكثير، وكما في الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله حيث فاق بجسمه على جبرئيل ليلة معراجه، فضلا عن روحه! فلا تثبت الآية أن الملائكة أفضل من الإنسان، اللهم إلّا في عرف عام قياسا إلى العوام. فامرأة العزيز تخلق ذلك الجو العجيب الرهيب كيدا بكيدهن، وجوابا مجسدا عن قولهن «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ ..». فلقد كان هذا منهن في كيدها جوابا عن كيدهن حاضرا، فانتصرت في المعركة إذ «قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» ذلكن الملك الكريم الذي تقطّع بمجرد رؤيته الأيدي، هوذا «الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» فلا تلمن إلّا أنفسكن حيث بهرت وانقهرت هكذا في لقاء واحد ولاوّل مرة، أفلا أراوده أنا المسكينة وقد عاشرته طول سنين حتى إذا بلغ أشده:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 484

قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32). في ذلك الموقف القاهر والمشهد الظاهر الشاهر تجد مجالا للاعتراف بالمراودة مفتخرة بها، متجهة فيها بعد تجسد الجواب عن مكرهن: «وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» حيث بهرني كما بهركن «فاستعصم» معانيا فيه تحرزا عما يعاينه، وهو في الحق استعصام بالعصمة الإلهية وهي برهان ربه، بعد الاستعصام بكل الطاقات البشرية. و ليست هي الآن لتكتفي بهذه وتلك، إلّا ان تنهيها بثالث الثالوث بتهديد له بالغ، حيث تظهر سيطرتها عليه أمامهن بتبجّح المرأة في ذلك الوسط دون اختجال، فلا ترى بأسا من التجاهر بنزواتها الأنثوية مكشوفة، وبكل افتخار في معرض النساء: «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» فهي في بداية الفضيحة أمام العزيز تردّد الأمر في غير تأكيد بين «أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ» طالبة منه أحد الأمرين، وهنا تؤكد بنفسها عليه الأمرين في تأكيدين «لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» كأنها هي الآمرة والعزيز يطبّق أمرها كما تريد. أ فتاي هذا الذي ربّيته وأكرمته يستعصي أمري وهو من المكابرين، فليسجن إذا وليكونن من الصاغرين، لكيلا يكابرني بعد فيما آمره. و إلى ذلك الحد الحديد الشديد تصل القحة في البلاط وقصور المترفين، ولا سيما في الوقت الذي تجد صاحبة البلاط صاحباتها في سعار أكثر منها فما يصنع-/ إذا-/ يوسف الصديق: قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 485

مِنَ الْجاهِلِينَ (33) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34). تحاشى يوسف هنا أن يجاوبها والنسوة، وانصرف إلى ربه ملتمسا داعيا أن يصرف عنه كيدهن، ففي دوران أمره بين أن يصبوا إليهن أو أن يسجن ويكون من الصاغرين، هو يستحب السجن دون صبو ولا صغار: «رب» الذي ربيتني وخلصتني حتى الآن من كل سوء وفحشاء «السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فذلك سجن للبدن حفاظا على حرية الروح في عبوديته، وهذا سجن للروح ورقية للهوى وفيه حظوة الجنس وحرية الشهوات بضروبها، ولكني رجل الروح قبل الجسم، فما الجسم إلّا ليحمل الروح في صالحه. أ تراه دعى على نفسه بالسجن وهو عار أن سبّبه التهمة، ولا سبيل إليه إلّا هيه؟ كلا! وإنما هو بيان حال أن لو انحصر أمري بين واقع العار وتهمته فالسجن التهمة أحب إلي فرارا عن واقع العار!. إذا فلما ذا لم يطلب إلى ربه صرف كيدهن عنه بلا أن يسجن، صرفا للمحظورين و «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»؟ ذلك، وعلّه استسلام للرب وابتعاد عن المحظور حتى إن قدّر أن يسجن، ومحور الدعوة «إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ...» ولو بالسجن، ولم يستجب ربه إلّا في ذلك الصرف:

«فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ..» لا أن قدّر سجنه وصرف الكيد عنه!. و كيف يحتاج يوسف-/ بعد ما رأى برهان ربه فلم يهم بالعزيزة-/ أن يصرف ربه عنه كيدهن، وفي برهان الرب وهو العصمة كفاية هنا كما هناك؟ ذلك لأن العصمة والقوة القدسية المفاضة على يوسف، ليست بالتي هو يملكها، دونما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 486

حاجة بعد إلى عناية إلهية متواصلة: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74)! ثم البلية هنا قد زادت بمكايدات نسوة في المدينة، وتهديدات صاحبة البلاط، فقد دعونه إلى ما دعته إليه «مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» مما زاد في الطنبور نغمة أخرى، وتفاقم الأمر مرة أخرى اكثر بكثير من الأولى. فإن كانت رؤيته برهان ربه هناك تصده أن يهم بها، وهي فعله مهما كان البرهان من ربه، ولكنه هنا-/ وقد علت النبرة وازدحمت النسوة في المكيدة-/ هو بحاجة إلى برهان أقوى، و صرف من اللّه «وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ» مكيدة لا يقوى عليها إلّا اللّه حيث تكلّ كلّ القوى، وتختل الموازين كلها، اللهم إلا صرفا من اللّه. «إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي ..» لا «تصرفني عنهن» إذ لم يكن ليهواهن، وإنما هن اللاتي يكدنه لحد يكاد يصبو إليهن. و الصبو هو تميّل صبياني عن جهل وتفلّت عقل، وصبا يصبو صبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، فإن المكائد الأنثوية تصل لحد يطيّر بها العقل وينوبه الجهل «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ» وهو القائل: «وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» فهو يستدعي من ربه في ذلك الموقف الهرج المرج أن يخصه برحمة خاصة تصرف عنه كيدهن «فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ» دعاءه «فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» ثم لم يمنع ويردع عن سجنه «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» للدعاء «العليم» ما يصلح الداعي، وقد كان يكفيه هنا أن يصرف عنه كيدهن وإن ببلية السجن، وهي في نفس الوقت من ألطافه الخفية، حيث كان ذريعة لاستئصال التهم عنه على طول الخط، واستقطابه لأن يجعل على خزائن الأرض، والسجن-/ فقط-/ طريق لهما قاطعة! «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ولكن صرفه شي‏ء، وسجنه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 487

المفصول عنه ب «ثم» شي‏ء آخر، ويستمر صرفه في طياته. و كيف ينقم بسجنه الذي ارتضاه ابتعادا عن صبوه إليهن ولأمير المؤمنين علي عليه السلام به أسوة إذ قال: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ..» «1». و كيف لا يرتضى السجن إن كان ولا بد-/ لصرف كيدهن عنه، وقد تعلقن به جميعا ترأسهن العزيزة كما تصرح «مما يدعونني إليه-/ وكيدهن» دون «ما تدعوني اليه وكيدها» فهن جميعا مشتركات في الدعوة والمكيدة سواء بالقيلات واللفتات، او الحركات والتغنّجات أو الاستباقات أماذا من دعوات مكيدات‏ «2». ففي هذه الغائرة الحائرة المائرة لا مناص له ولا خلاص إلّا ان يستنجد ربه بمزيد من رحمة العصمة ان يصرف عنه كيدهن كيلا يقع في حبائلهن خيفة ان يضعف أمام الإغراء، و يتضاعف عما كان من امرأة العزيز في «هَمَّ بِها لَوْ لا ..». و ها هي دعوة الإنسان العارف بحدّه، القاصر في مدّه وشده، الذي لا يغتر بعصمته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 423 ج 58 في كتاب علل الشرايع باسناده الى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا عليه السلام فامر ان ينادى الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد اللّه و اثنى عليه قال: معاشر الناس! انه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق امير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك، قال: ان لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال اللّه تعالى في محكم كتابه: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» قالوا: و من هم يا امير المؤمنين؟ قال: أولهم ابراهيم عليه السلام-/ الى ان قال-/ ولي بيوسف أسوة إذ قال: رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه، فان قلتم ان يوسف دعى ربه و سأله السجن بسخط ربه فقد كفرتم، و ان قلتم انه أراد بذلك لئلا يسخط ربه عليه و اختار السجن فالوصي اعذر

(2). في تفسير القمي في حديث جمعها النسوة و تقطيعهن أيديهن قال: فما امسى يوسف عليه السلام في ذلك اليوم حتى بعث كل امراة رأته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 488

فيريد مزيدا من عناية ربه وحياطته بحيازته «فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ..» لا أن يسجن بالفعل، حيث التراخي بين ذلك المشهد العارم وبين سجنه قائم كما تلمحه «ثُمَّ بَدا لَهُمْ ...». و هكذا يجتاز الصديق محنته العارمة في هذه الحلقة الثالثة، بعد غيابت الجب وبعد العزيزة، ثم تبدء الحلقة الرابعة وهي سجنه حتى حين: ج سورة يوسف (12): الآيات 35 الى 24 ج‏ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآْياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الآْخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ (36) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالآْخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الآْخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41) وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) هنا يوسف السجين يجد مجالا لائقا وجوا فائقا للدعوة الى التوحيد حين يرى صاحبي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 489

السجن بحاجة إلى تأويله، وهما يريانه من المحسنين، فهل سجن إلّا قضية الإيمان، فليدع إلى الايمان أيا كان، وليس السجن لأهل اللّه سجنا لحرية الدعوة، فإنما هو استلاب لحرية الجسم حلّا وترحالا، وأما الروح فقد يصبح بالسجن أروح، وتبرز شفافيته و لباقته أريح وأنجح!. ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآْياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35). ف «ثم» هنا تلمح إلى فصل غير قريب بين ذلك المشهد وسجنه، والبداء ظهور رأي خلاف ما كان، والآيات هي الدالات على براءة يوسف، من براءته الذاتية المشهودة في عشرته، وأن العزيزة راودته وقدّت قميصه من دبر، وكما شهد شاهد من أهلها واعترف العزيز بكيدها، وصرحت العزيزة بميدها في مشهد النسوة، أمّا هيه‏ «1». و هذه كلها آيات قاطعة لبراءته وقحتها، مما يجعله يكرم أكثر مما كان، فضلا عن السجن حيث فيه يهان. و لكنما الحق الواقع شي‏ء، والمصلحية في الأوساط الراقية والمترفة شي‏ء آخر، يفدون بكل حق ناصع حفاظا على مصلحية. فلقد شاعت قصة المراودة في أوساط المدينة ولاكتها الألسن وتلقتها في الأوساط الشعبية، واستطارت-/ بطبيعة الحال-/ أكثر مما كانت، كما هي السنة في كل حادثة تدخل قالتها بين الجماهير، فأصبحت حديث اليوم، وتزداد شياعا فضياعا للبلد يوما بعد يوم، مما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 424 ج 60 القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: و الآيات شهادة الصبي و القميص الممزق من دبر و استباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها إياه على الباب فلما عصاها لم تزل مولعة بزوجها حتى حبسه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 490

تجعل قحة العزيزة وفضيحتها سنة تقتدى في كل الأوساط، فإن ذلك الحسن الذي أوله سيدة البلاط وأقرانها من السيدات، من طبعه ألّا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى وفوضى. لذلك «بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآْياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» بدا للعزيز حفاظا على سمعة البلاط وحرمته وحريمه، وبدا للعزيزة وقد كانت تهدده من قبل «لَيُسْجَنَنَّ ..» فبعد ان تصبّرت ردحا من الزمن واستمرت فيما حاولت فشلّت وفشلت فأصرت على العزيز أن يسجنه بعد ما احتالت في تلبيس الأمر عليه كما يلوح من «ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» وما رده الملك عليهن: «ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ» وقولهن «حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» وأخيرا تصريحه ثانية من العزيزة:

«الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ». فلو لا تلبيسها أمره على العزيز لمن يكن لقولها الآن: «الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ...» مجال، وقد حصحص من قبل في مشهد النسوة إذ قطعن أيديهن، مما يدل على أنها كادت واحتالت في تعمية الأمر على العزيز لحد صمم على سجنه، أم إن المصلحية والتعمية هما الباعثان على ان «لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» وتراهم من هم غير العزيز والعزيزة؟ علّهم هما ونسوة في المدينة وسائر أصحاب البلاط، مهما يرأسهم العزيز وترأسه العزيزة، بدا لهم كلهم من بعد ما رأو الآيات. و علّ «حين» هو حين التناسي عن جريمتها، وحين النسيان عنه، وحين استتباب أمر البلاط رجوعا إلى ما كان قبل المراودة، أم وحين ظهور الأمر بعد إخفاءه. و كأن فاعل «بَدا لَهُمْ» محذوف حيث «ليسجننه» فعل لا يصلح فاعلا ولا مفعولا،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 491

فالفاعل «أمر ورأى غير ما كان» بموجبه «لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» سجن مؤكد في بعدين، محدد لا يعلم إلّا أنه غير مؤبد، فحتى تحفظ سمعة البيوتات المستهترة، وتسمع كلمة عزيزة البلاط، حين يعجز رجالاتها عن صيانتها، يبدو لهم أن يسجن فتى بري‏ء، كلّ جريمته برائته ونزاهته، وأنه لم يستجب نزوة الشهوة للعزيزة، أن لو كان يستجيب لكان أعز من العزيز! وهذه شيمة شنيعة في الأوساط الارستقراطية والجاهلية، تعاميا عن فضائل الكرامات وفواضل الصفات، استئصالا لها وتأصيلا للشهوات والمصلحيات، فإلى حلقة رابعة من حلقات البليات لصاحب الشيم الكريمة والقيم العالية: وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الآْخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ (36) «1». «فتيان» هما عبيدان من خدم البلاط كما تلمح له «فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً» فأحدهما ساقيه، و الآخر خبازه، ويا لها من معية بارعة تخلق ظرفا صالحا لتخلّص يوسف من السجن، وقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تكوين التورات الاصحاح 39 يقول: «فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أنّ غضبه حمى فأخذ يوسف سيده و وضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه و كان هناك في بيت السجن، و لكن الرب كان مع يوسف و بسط اليه لطفا و جعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس السجن الى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن و كل ما كانوا يعلمون هناك كان هو العامل و لم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لأن الرب كان معه و مهما صنع كان الرب ينجحه، ثم في الاصحاح 41، تسوق قصة صاحبي السجن و رؤياهما و رؤيا فرعون مصر و ملخصه: انهما كانا رئيس سقاة فرعون و رئيس الخبازين اذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرطة عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه انه يعصر خمرا و الآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبر رؤيا الأول برجوعه الى سقي فرعون شغله السابق و الثاني بصلبه و أكل الطير من لحمه و سأل الساقي ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 492

يخصر السياق أمره معهما دون أن يحصره ولأن أمرهما هو الأساس في تبرزه في تأويل رؤياهما، وهما اللذان رأياه من المحسنين تفرسا فارسا مارسا من عشرته قلّت أم كثرت، فأهل الفراسة يتفرسون الإحسان وسواه في صفحات الوجه وفلتات اللسان ووجنات الأركان. و علّ «قال» دون عطف تلمح إلى وصل القول بالدخول دون فصل، أم فصلا بليل او قدر من النوم يصلح لرؤياهما، ولأن فصله كان قريبا وفي نفس الوقت غريبا ل «إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ» إحسانا جعله موضع ثقة المساجين، متوسمين فيه من طيبة، وصلاحا وإصلاحا. و لماذا «أراني» هنا دون «رأيت» كما في رؤيا يوسف؟ كأن فاعله المنام، فهو الذي أراني دون اليقظة، أراني ما كنت فاعله للملك وشاغله وأنا الآن في سجنه «أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً» إراءة لهذه الحالة. و «أَعْصِرُ خَمْراً» والخمر لا تعصر وإنما يعصر لها العنب، هذا تعبير رائج هائج عن عصر عصير كثير وكما: خبزت خبزا وطبخت آجرا، اعتبارا بالآمل، عطفا له على الحال، وكأن الآمل حال قضية تأكد الاشتغال. الفتيان يذكران رؤياهما، راغبين تأويلهما حقا «إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ» والمحسن يرى بشفافية روحه ما لا يراه المسي‏ء، ويحسن إلى سجين مثله ما لا يرجى من المسيئين. و هل يبتدر يوسف بالتأويل، عجالة في إحسانه دنيويا قبل إحسانه إليهما روحيا وأخرويا؟ كلّا، فعلى رجالات الحق انتهاز الفرص للدعوة إلى الحق، وكونه سجينا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة، وإصلاح الأوضاع الكاسدة، التي تقوم على حق الربوبية لآلهة الأرض، وإبطالها لإله السماوات والأرض! فهل يبدأ يوسف بدعوته تعاميا عما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 493

يتطلبان؟ وفيه إبعاد عن الحق لأنه خلاف غايتهما القصوى! والسياسة الصالحة هنا في الدعوة تتطلب تقديم رجاء واطمئنان لهما أنه سوف يقضي طلبتهما، وهنا جو صالح بين الأمرين لكي يبين سبب كونه من المحسنين ليجذبهم إحسانه كما هو. و لكي يطمئنهما أكثر مما يريان، يبين موقفه من تأويل، أنه ليس فقط للرؤيّ، بل وله علم تأويل الطعام: قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالآْخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37). و هكذا يدخل يوسف في نفوس صاحبي السجن بكل سياسة وكياسة في تنقّل الحديث، حيث يؤكد لنفسه عليهما من العلم اللدني أكثر مما يريان حيث «قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ» أيا كان وأيان ومن ايّ كان، من السجن أو خارجه «إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما» وذلك من إنباءات النبوات كما في المسيح عليه السلام «وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 49). فحتى لا يظنا أنه خبير بتأويل الرؤيا-/ فقط-/ في ظنون كسواه من المعبرين، أم أنه-/ فقط-/ معبر الرؤيا كذي فنّ مثل سائر الفنون مهما كان بعيدا عن الظنون، ولأنه يزعج المصاحب الثاني تأويلا لرؤياه بصلبه، لهذه كلها وحكم أمثالها أخذ يبين موقفه من العلم الرسالي، ومن هوامشه تأويل الرؤيا، لكي يقع تأويله موقعه من القبول، وعلّ الذي يصلب يؤمن بذلك قبل صلبه فلا يموت مشركا، وحين يؤمن فلا يهمه الصلب أم يبقى حيا، وكذا الذي ينجو يحظوا بالإيمان فلا يعد ساقي ربه، ويذكره عنده علّه ينجو من تهمته. و على الجملة فداعية الحق عليه في كل مجال أن يتذرع لدعوته ذريعة، وهي الآن تأويل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 494

رؤيا صاحبي السجن، فلما يؤولها لهما وهما فيه بحاجة إليه مدقعة، ولتكن الفترة بين قالتهم وتأويله مجالة مناسبة لدعوته بأدائه ببيان كيانه في العلم، ومن هوامشه تأويل الطعام فضلا عن الرؤيا، هنا يأخذ كلامه مجامع الأسماع والقلوب، وهنا يفعل ما يشاء من الهدى مقلب القلوب. فليس السجن لأصحاب الدعوات الرسالية ومن يحملونها من سواهم، إنه ليس سجنا لدعواتهم، بل تعلو فيه نبراتها، وتشعّ أكثر وأكثر من خارج السجن أثراتها، حيث السجن للأبرياء، وحتى سواهم، هو جو الانقطاع إلى اللّه عن كل ما سوى اللّه. فعبثا يفكر الطغاة ويحاولون ان سجن الأبدان للدعات هو سجن للدعوات! وهنالك ليوسف مربع من الإنباءات الغيبية، 1 تأويل كل طعام قبل أن يأتيهما في مثلث الزمان 2:

اين مصدره وأنى، 3 وكيف هو لمّا يأتي وماذا اثره؟، 4 وما يؤول اليه بالآمل، حيث التأويل هو المرجع بداية او نهاية ام في الحال، فأنا أنبئكم ما سيأتيكم من طعام قبل إتيانه، و ماذا أثره، هل يضر او ينفع، هل هو سم‏ «1» قاتل يقطع ام غذاء ينفع، فأنا-/ إذا-/ بتأويل الرؤيا أقدر، وقد تعني «بتأويله»-/ ضمن ما تعني-/ تأويل رؤياهما، وإنما أفرد الضمير في تذكير اعتبارا بمرجعه الأصيل «طعام» وأما أن تعني الرؤيا فقط فخلاف أدب اللفظ والمعنى‏ «2». و ذلكما العلم الواسع ليس يحصل-/ بطبيعة الحال-/ من دراسات رسمية، بل «ذلكما»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 19-/ اخرج ابو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: «لايَأْتِيكُما طَعامٌ ..» قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما ان عنده علما و كان الملك إذا أراد قتل انسان صنع له طعاما معلوما فأرسل به اليه ..

(2). اما ادب اللفظ فلان الرؤيا مؤنث و الضمير مذكر، و هي هنا اثنتان و الضمير مفرد، و اما المعنى فلان تأويل الرؤيا لا صلة له بإتيان طعام يرزقانه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 495

البعيد المدى، الشاسع المحتد «مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» بجنب علوم أخرى تتبناها الرسالة الإلهية، فهذه ك‏آيات تدل على اختصاص صاحبها باللّه، وتلك الرسالية الأخرى هي مادة الرسالة ومبناها ومدعاها وحجرها الأساس، نبراسا ينير الدرب على السالكين. و لماذا هكذا علمني ربي دونكم وسائر الناس ل «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالآْخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ» نفيا يمثل «لا إله» ومن ثم إثبات يمثل «إلا اللّه» واتبعت ملة آبائي ...». فرغم أنني ربّيت منذ الطفولة حتى بلوغ أشدّي في جو الشرك والإلحاد، ونوازع الشهوات و الحيونات، «إِنِّي تَرَكْتُ ..» وبكل إصرار وإجهار، وكفاني موقفي من امراة العزيز ونسوة في المدينة. «.. تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» وبطبيعة الحال «وَ هُمْ بِالآْخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ» لا سواهم، حيث الإيمان باللّه يدفع للايمان بالآخرة، «إِنِّي تَرَكْتُ ..»: فلا إله: ثم «إلّا اللّه»: وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38). فتلكما ملة التوحيد، وهؤلاء من دعاته الأصول، فأنا اتبعت ملة هؤلاء الآباء الأكارم نسخة طبق الأصل و «ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ..» ف «ما كان» تضرب إلى أعماق الماضي، تثبيتا لكيان التوحيد العريق العميق في ذواتنا، دون «أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» غير اللّه، لا إشراكا في الربوبية ولا في العبودية أمّا هيه من مختلف دركات الإشراك، من رياء وسمعة إلى عبادة الأوثان وبينهما عوان. و «ذلك» العظيم العظيم «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا» أن جعلنا من دعاة التوحيد ونفاة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 496

الشرك «وَ عَلَى النَّاسِ» حيث أرسل إليهم أمثالنا من المخلصين الصامدين في التوحيد «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ» تلك النعمة العالية الغالية ف «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها»! ملة ابراهيم وهي سنة التوحيد الخاص، بعيدة عن إفراط أو تفريط، نائية عن تسرب الشرك بدركاته، هذه الملة هي المتّبعة للأنبياء الإبراهيمين ولكافة المسلمين على طول الخط الرسالي، وحتى خاتم النبيين، وهو في أعلى قمم التوحيد: «قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (6: 161) (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» (3: 95) (وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» (4: 125)! وهنا يوسف في السجن بين السجناء المشركين يقرر خطه المستقيم وصراطه القويم: «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ» (38). ثم بعد التعريف بملته يأخذ في دعوة التوحيد، 96 حيث الداعي الى الحق عليه أولا ان يحققه في نفسه ويبينه: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (39). أيا صاحبي سجن البدن، لماذا أنتم في سجن الروح وهو أسجن وألعن، ألا فتحرروا من ذلك السجن اللعين، «.. أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» سؤال يهجم على أعماق الفطر والفكر والعقول، فيهزّها هزة موقظة، فالفطرة لا تعرف إلّا إلها واحدا هو «اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» والعقل الناضج الذي يتبنى الفطرة وسائر الآيات آفاقية وأنفسية، كذلك لا تعرف إلّا «اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» والكون بوحدة تدبيره ونظامه دون تفاوت يشهد أنه «اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 497

ثم وفي مواصفة «ارباب» ب «متفرقون» ومواصفة «اللّه» وجاهها ب «الْواحِدُ الْقَهَّارُ» دليل إجمالي فيه تفاصيل الأدلة على بطلان الشرك وضرورة التوحيد. فالأرباب المتفرقون الذين لا يملك كل نفسه فضلا عن عبّاده، ولا يقهر شركائه فيتوحد، و هي متقسمة الأقدار، مختلفة المقادير، متشاكسة فيها، هذه المتفرقة المفرقة لا تجدي نفعا إلّا تبعثرا في الحياة، وتعثرا في متطلبات الحياة، فلا خير فيها-/ إذا-/ إلّا شر. و ترى كيف تتأتى هنا صيغة الخير وهي أفعل تفضيل يقابلها ما فيه قليل الخير، والأرباب المتفرقون لا خير فيهم لا كثيرا ولا قليلا؟ الخير فيما لا يعدّى بمن لا يعني الأفعل، بل مقابل الشر، فإما الأرباب المتفرقون خير واللّه الواحد القهار شرّ! ام اللّه خير وهم أشرار وقد يؤتى بالخير الأفعل مقابل الشر مسايرة في الحجاج، دفعا عن اللجاج، وأخذا بأقل تقدير بين الأمرين أنّ أحدهما المدّعى أفضل فليترك أمامة المفضول مهما كان فيه فضل. «أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ» في ربوبياتهم، كرب العلم ورب القدرة ورب الحياة، ورب السماء ورب الأرض، ورب الشمس والقمر، ورب البحار، ورب الحسن ورب الحب ورب الأمن و الخصب، وهم-/ على زعمهم-/ ملائكة اللّه حيث هم حملة تعيّنات ذات اللّه وصفاته-/ ثم الأرباب الجن وهم-/ على زعمهم-/ مبادئ الشر، ومن ثم أولياء اللّه، وهذه الثلاث كأصول الأرباب، وكل متفرقون في عديدهم وربوبياتهم ومربوبيهم، تفرقات فوق تفرقات، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل اللّه له نورا فماله من نور؟. أ هؤلاء خير «أَمِ اللَّهُ-/ الْواحِدُ-/ الْقَهَّارُ» ف «اللّه» واحد في ألوهيته الأصيلة لدى الكل وفي خالقيته «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 498

فمن ثم هو واحد في ربوبيته ومعبوديته، كوحدته الحقيقية في سائر الجهات والحيثيات الذاتية والصفاتية والأفعالية. واحد في مثلث الزمان وقبله وبعده، لم يكن عديدا ثم توحد، كما ليس هو الآن في عدد، و ليس يتعدد، وواحد في ذاته حيث البساطة المطلقة، دون بعد ولا أبعاد، ولا حد ولا حدود، وواحد في صفات ذاته أنها عين بعض، وكلها عين الذات دون تعدد إلّا في تحبير اللغات. و على الجملة هو واحد في عمق الأزل والأبد والسرمد، واحد لا بعدد ولا عن عدد ولا بتأويل عدد، ويستحيل عليه العدد ذاتا وصفاتا وكيانا فلن يتعدد، وذلك قضية كونه «الْواحِدُ الْقَهَّارُ». 98 «قهار» يقهر التعدد أيا كان وأيان، ويقهر شركاءه المخلوقون، ويقهر كل نقص وركس، قهارا في كافة الحقول دون ان يقهر بإشراك او تنقيص أو أفول، فهو واحد في قهاريته، قهار في واحديته «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ». «أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ» لا يقهرون شركاءهم ولا عبّادهم «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» (6: 18)! (وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61). و ليسوا ليخلقوا شيئا حتى يقهروه «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (13:

16)! ثم يوم القيامة قهار كما هو اليوم قهار «وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14: 48) (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40: 16). فسبحانه «سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (31: 40) ليس في سائر الآلهة الأرباب إلّا دمار و بوار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»! ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 499

آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40). الأرباب المتفرقون التي تعبدون، ما يملكون من الربوبية أمرا «إلّا أسماء» ليست لها مسميات، تسميات جوفاء خواء «سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ» ما لم يأذن به اللّه، ولم يسمها اللّه إذ «ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ» لا سلطان الدليل والبرهان، فلا برهان من اللّه على ربوبيتها، ولا سلطان العلم والقدرة، فكيف تشركون باللّه ما لم ينزل به سلطانا، ثم عساكر البراهين آفاقية وأنفسية هي كلها سلطانه على أنه «هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ». ف «إن الحكم» لربوبية سواه لو أمكنت، وسائر الحكم «إلّا للّه» ومن حكمه المستمر طول الرسالات خلاف ما تزعمون وتشركون «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» أمر الحكم إمرة دون ما يقابل النهي، فقد حكم ذلك الحاكم الوحيد في الكون «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» في كلمة مطردة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ». و «ذلك» الأمر الحكم هو «الدِّينُ الْقَيِّمُ» دين الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ودين ناموس الكون بوحدة النظام والتنسيق الدالة على وحدة المنظم «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» جهلا في تقصير طال أم قصر حيث الإشراك باللّه لا يقبل القصور، إلّا تقصيرا في تجاهل أو جهالة بمختلف الدركات! فدين التوحيد هو الدين القيم، القوي القائم لإدارة شئون الأفراد والمجتمعات، دون تزعزع ولا فشل ولا عوج. فإذ ليس وراء الأسماء التي سميتوها أنتم وآباءكم المشركون، إلّا ادعاء هباء وخواء، فما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 500

تعبدون من دونه إلّا أسماء وعبادة الاسم خواء وهباء، وحتى إذا كان اسم اللّه فضلا عن الشركاء، فهي إذا عبادة خاوية في بعدين هباء على هباء. و عبادة المعبود إن كانت لألوهيته في ذاته؟ فإنه هو اللّه لا سواه! وان كانت لربوبية معطاة من قبل اللّه؟ فما أنزل اللّه بها من سلطان، وحتى لو كان فكيف يسوى في العبادة بينها وبين اللّه، بل تترك-/ بالمرة-/ عبادة اللّه، ويوحّد الأرباب المتفرقون في عبادتهم، دون اللّه!:

توحيد الشرك! أن يعبد الشركاء دون اللّه. ثم العبادة إن كانت طاعة في مصلحيات الحياة، فالأصلح فيها عبادة اللّه الذي خلق الشركاء! بل هي الصالحة دون سواها، فإنهم أرباب متفرقون، قاصرون في توجيهاتهم-/ لو كانت-/ وقاصرون في ربوبياتهم المتخيلة، إذ تفرقت، والحياة الوحيدة المطمئنة ليست إلّا على ضوء عبادة «اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» وبيده ملكوت كل شي‏ء وناصيته! ف «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» في الحياة وبمختلف الحقول، ولدي كل الفطر والعقول «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» فانما «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7). ف «الدِّينُ الْقَيِّمُ» هو الدينونة الحقيقية للّه وحده، الخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء في شعيرة تعبدية أو سياسية، أخلاقية أو ثقافية أو اقتصادية امّا هيه من قضايا الدينونة المطلقة، التي تحلّق على كافة الحقول الحيوية منذ الولادة حتى الممات. و لقد رسم يوسف الصديق في هذه المجالة القليلة، بهذه الكلمات القلة الناصحة الناصعة الجميلة، رسم بها فيها كل معالم الدين القيم، وكل مقوماته «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ». فقد نرى يوسف السجين بأيدي المشركين يخطط في السجن ويرسم هندسة القضاء على‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 501

حكم الفراعنة والطواغيت، متذرعا إليه بتعبير الرويّ، وإلى استلام عرش الحكم «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»: فأخيرا يجهّل الطغمة الحاكمة والمحكوم عليهم، تجهيلا للمرسوم الملكي الجبار الفرعوني، أنه اغتصاب لحكم «اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» الذي هو المدار وعليه الطمأنينة والقرار. و هنا بعد ما تتم الدعوة في كل إجمال وجمال يبدأ الصديق بتأويل رؤيا صاحبي السجن بكل رياحة حال واطمئنان بال حيث قال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الآْخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (41). التأويلان ظاهران في تناسبهما مع رؤياهما، ولكن ترى ما هو موقف «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ»؟ هل إنه يلمح بتكذيب منهما لرؤياهما؟ فكيف اصغيا لدعوته الرسالية قبل تأويلهما! وما هو الدافع لاختلاق رؤيا عند من يريانه من المحسنين! ولم يكن يدعي من ذي قبل أنني عالم بتأويل الرؤيا حتى يجرباه امتحانا او امتهانا! وقوله للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك، ثم سكوته عما يكذبه في تأويله لكذبه في رؤياه، دليل لا مرد له على صدقه في رؤياه! وكيف يلهم نبي اللّه تأويل الرؤيا ولا يلهم كذبها وفيه فضح الرسول ونقض الرسالة! أو أنه-/ لأقل تقدير-/ لمحة بتكذيب الآخر رؤياه إذ هوّله ما اوّله من صلبه؟ فكذلك الأمر! ثم ولم يكن التهويل إلّا لآلخر فلما ذا يجمع معه الأوّل في «تستفتيان»؟! ومن ثم كيف يتحقق تأويل رؤيا كاذبة، فما رواية كذبه أو كذبهما إلّا كاذبة، لا تلائم الآية و ساحة النبوة ولا عدل الربوبية، أن الكذب في رؤيا جزاءه الصلب! قد يعني «قُضِيَ الْأَمْرُ ..» القضاء على الحيرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 502

الحاصلة للاوّل بتبشيره ولآلخر بإنذاره، وعلّ الآخر أخذته الريبة في تأويله تخوفا، والآخر أخذته تبجحا وتنشفا، لذلك يؤكد صدق فتواه في تأويله بقضاء الأمر ومضيّه، والأمر المستفتى فيه هو الرؤيا، وقضاءه تحقق تأويله، وهذا أولى بأدب اللفظ وحق المعنى، دون تحميل على الآية ولا تأويل دون دليل! وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42). 102 «و قال» يوسف بعد قضاءه أمر صاحبي السجن وإفتاءه ما أفتى «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا» أتراه هو الذي ظن فيما أفتاه وقضاه؟ والقضاء علم! ولا سيما أنه من تعليم اللّه: «و لنعلمنه من تأويل الأحاديث»! فهل إن اللّه يظن كما الخلق؟ أم إن النبي يظن فيما يقضي به بالوحي؟. أم الذي أفتى بنجاته هو الذي ظن؟ وقد يؤيده «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ» حيث يلمح أنهما لم يصدقاه تماما، وهو طبيعة الحال فيمن لم يؤمن بالوحي والرسالة، فإنما آمن بما قضي له ظنا إذ كان لصالحه، وهو قضاء رجل محسن صالح «إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ». و قد يعني فيما عناه ظن يوسف أيضا، حيث العلم الظاهر هو في الحق ظن، إذ «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» اللّهم إلّا في أحكام الشرعة فلا محو فيها إلّا نسخا، فرغم أن يوسف كان يعلم بما علمه اللّه أنه ناج، ولكنه مما يتحمل المحو والإثبات فعلّه يمحى او علّه يثبت، فلذلك يصح التعبير أنه ظن، ولكن أين ظن من ظن؟ ظن الناجي قصورا لعدم الإيمان، وظن يوسف عالما لقمّة الإيمان، أن للّه أن يمحو ما علّمه وقضاه. «قالَ ... اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» لما نجوت، أذكر أنني في سجنه حيث أنسوني بتهمة المراودة «حَتَّى حِينٍ» واذكر حالي «إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ» وعلمي بتأويل الرويا، علّه يحتاجني‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 503

فلا يجتاحني ويبقيني على تهمتي في السجن «حَتَّى حِينٍ» وحين يعلم ربك أنني من المحسنين والعالمين بتأويل الرويّ، وأنني كما بينت من النبيين، علّه يغير رأيه: أنني من الخائنين والجاهلين ومن الناس العاديين. «فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ..» وترى من هذا الذي أنساه الشيطان ذكر ربه؟ هل هو يوسف الصديق؟ وهنا شهادات سبع-/ كما هناك-/ في «هم بها» على برائته، وأن الشيطان إنما أنسى الناجي منهما أن يذكره عند الملك. «فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ ..» شاهد أوّل على برائته حيث الإنساء هنا مفرّع على «قالَ لِلَّذِي ..» ولو كان الإنساء ليوسف لكان «فأنساه» مفرعا عليه، وقلبت العبارة لتدل واضحة عليه: «فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ...» فقال حتى يكون قوله نتيجة إنساء الشيطان، و هو الآن يعاكسه، فإنما الشيطان أنسى الناجي ذكر ربه، وبالنتيجة «فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» ما لو ذكره لم يلبث بضعها. 2 وشاهد ثان «وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..» (45) بعد آيتين هنا، وبعد مضي بضع سنين، والمدّكر هو الناجي، وليس الادكار إلّا بعد النسيان، فليكن إنساء الشيطان له حتى «ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» دون يوسف المظلوم الصدّيق الذي ظلمه العدو والصّديق. 3 وشاهد ثالث «وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ ..» فلو كان «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» توسلا منه إلى غير اللّه، ونسيانا لذكر اللّه، لكان يستجيب الملك فور وصول الرسول، وهذا مما يدل أن «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» كان منه ذريعة إلى برائته عن سجن التهمة، وذلك قضية الإيمان وذكر الرب، دون نسيان لذكر الرب. 4 وشاهد رابع «ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» (52)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 504

فما قولي للناجي «اذكرني» إلّا لهذه الغاية، ليعلم العزيز أني لم أخنه، وهم زجوني في السجن بتهمة الخيانة، وهذا من خلفيات ذكر الرب دون نسيانه، حيث المحاولة في البرائة عن الخيانة ولا سيما عن ساحة النبوه، هذه قضية قوة الإيمان دون ضعفه أو نسيان لذكر اللّه. 5 وشاهد خامس أن إنساء الشيطان لذكر الرحمن من أنحس السلطان على قلوب العباد، و ليس للشيطان اي سلطان على عباد اللّه المخلصين كما في آيات، وفي يوسف «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ» (34) و إنساء الشيطان من أسوء السوء وأفحش الفحشاء، لأنه مفتاح كل سوء وفحشاء، أ فيزعم مختلقو التهم على يوسف أن ربه كذب فما صرف عنه إنساء الشيطان، أو نسي أنه من عباده المخلصين؟! 6 وشاهد سادس أنه لم يهم بها إذ «رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» ولا صبا إليهن إذ «صرف عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» وهذان الموقفان من أخطر مواقف الامتحان وأزلّها للأقدام، ويوسف الصديق لا ينسى فيهما ربه، فبأحرى ألّا ينساه في السجن، وهو أحب إليه مما يدعونه إليه! فكيف يتوسل في الخروج عنه دخولا في سجن النسيان. 7 وشاهد سابع أن التوسل إلى غير اللّه فيما لا يجوز، كخلفية لإنساء الشيطان هو من الشرك، وهو القائل لصاحبي السجن «ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» وهذا هو «من شي‏ء» ومن أشنع شي‏ء! وهو القائل «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ ..» وابراهيم لم يبرز حاجته لجبريل وهو على المنجنيق إلى النار حيث يقول له: أما إليك فلا، فكيف يتوسل متّبعه في ملته بفرعون لخلاصه بوسيط فرعوني مشرك؟! ثم إن ذكر اللّه والإخلاص للّه لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب للتوصل الى ما يرضاه اللّه، يوسف يدخل إلى سجنه حيث أحبه فرارا عما يدعونه إليه، ولكنه سجن بتهمة المراودة، وهي أقل المحظورين بالنسبة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 505

له، فهلّا تجب عليه محاولات متعددة مشروعة لإبعاد التهمة الملصقة به، فلو كان سجنا بلا تهمة لم يكن ليتوسل بمن توسل، اللهم إلّا لراجحة او واجبة اخرى. ففي الحق ليست قالة الصديق للذي ظن أنه ناج: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» إلّا تحقيقا لأمر الحق بحقه حفاظا على ساحة الرسالة القدسية من تهمة الخيانة وخيانة التهمة، وكما أمر اللّه «وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» وإذا كان خروجه من السجن بهذه الذكرى الصالحة فهي وسيلة إلى اللّه خلاصا له من السجن وكما قال اللّه «.. وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ..»

(100). أ فيحق بعد ذلك كله أن يتهم بإنساء الشيطان له ذكر ربه! ام يندّد به لماذا توسل بما توسل لبراءته؟ إن هذا إلّا افك قديم وشيطنة مدروسة وهرطقة مدسوسة ضد ساحة الرسالة القدسية وان تظافرت به الروايات‏ «1» فانها مضروبة عرض الحائط لمخالفتها كتاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 30 اخرج بعدة طرق عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انه قال: رحم اللّه يوسف لو لم يقل اذكرني عندربك ما لبث في السجن طول ما لبث او: لو لا ان يوسف استشفع على ربه ما لبث في السجن طول ما لبث و لكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه، او لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير اللّه تعالى. وفي نور الثقلين 2: 427 عن المجمع و قد روي عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: عجبت من اخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق، وعن تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال اللّه ليوسف: الست حببتك الى أبيك و فضلتك على الناس بالحسن، او لست بعثت إليك السيارة و أنقذتك و أخرجتك من الجب؟ او لست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على ان ترفع رغبتك او تدعو مخلوقا دوني فالبث لما قلت في السجن بضع سنين. أقول: ليس في شي‏ء من هذه و تلك أن الشيطان أنساه ذكر ربه، و إنما نكاية عليه لما توسل الى مخلوق مّا، و هذا تهديم لكافة الأسباب التي يجوز التمسك بها او يجب لأمر جائز او واجب، إذا فهي كلها من الموضوعات وضعتها الأيدي الاثيمة الاسرائيلية، فتسربت الى أحاديثنا و أخذت موضعها من القبول لدى من لا يؤصّلون القرآن في حجته، و هذا غريب من الاكثرية الساحقة في كافة الحقول العلمية الاسلامية كيف يعتمدون على روايات مخالفة لكتاب اللّه و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا؟!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 506

اللّه! «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» لا يعني إلّا مجرد ذكره عند الملك ليخرج عن التناسي المعمّد بحقه على ذكر تهمة الخيانة المتداولة على الألسن، دون أية وساطة بينه وبين الملك، او التماس عفو أمّا ذا مما لا تناسب ساحة العبودية فضلا عن سماحة الرسالة، فإنما «اذكرني» والذكر فقط، ولو كان أمرا وراءه قال: عند الملك، ام: عند الرب أم: عند ربنا، ليستجيش رحمته عليه، ولكنه «عِنْدَ رَبِّكَ» إعلانا بان ربوبيته وسلطته ليست على ذلك السجين، وإنما على ربعه والذين استخفهم فأطاعوه. و حتى إذا أرسل إليه الملك «ائْتُونِي بِهِ» يقول لرسوله «ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ» دون استجابة لدعوة الخروج، ولا امتنان منه، فإنما «ارْجِعْ ... فَسْئَلْهُ ..» ليأخذ البرائة وهو في السجن، فيكون خروجه عن سجن التهمة قبل هذا السجن الذي قال عنه: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ». «فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» انشغالا بما كان من سقاية الخمر للملك، وتناسيا تلك الفترة الرحيمة في سجنه مع يوسف الصديق، حيث الشيطان يحاول دوما في إبقاء الصدّيقين في السجن بتهمة الخيانة أمّا هيه من تهمة، ومن مخلفات ذلك النسيان: «فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة، ثم لا نرى يوسف أن يعود في التوسل، حيث طبّق واجبه الإيماني والرسالي وعلّ في تكراره مع السجناء الآخرين مزرئة بساحة الرسالة، فيصبر حتى يحكم اللّه وهو خير الحاكمين، ولم يكن طائل السجن له في باطن أمره إلّا لصالحه، فعلّه لو خرج قبل بضعه لكان فيه تهدد لبضعه من كيد امرأة العزيز ونسوة في المدينة! 107 أو علّه تنبيهة له أن ربه هو الذي يذكّر ناجي السجن لوقته الصالح، دون ان يذكر هو بما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 507

ذكّر، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد خارج عن ربقة عبوديته، ولا سبب يرتبط بعبد، وذلك من اصطفائه وإكرامه! ج سورة يوسف (12): الآيات 43 الى 75 ج‏وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى‏ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (43) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (49) وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قالَ اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ (56) وَ لَأَجْرُ الآْخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (57)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 508

مضت السنون البضع، سبعا أو زاد ولم يدّكر الذي ظن أنه ناج أن يذكر الصديق عند ربه، وهذه طبيعة الحال للناس النسناس على أية حال، إلّا ان يحظو حظوة مادية من هذه الذكريات. لقد كان يوسف بأيدي اخوته ضحيّة الحقد الماكن في قلوبهم فجعلوه في غيابت الجب، وبأيدي السيارة متاعا يشرى وبثمن بخس، وعند العزيز «عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» و للعزيزة شغفا في متعة الجنس، وللسجينين معبرا للرءيا، ثم الذي نجا لا يدّكر أمره إلّا بعد بضع من السنين يحتاجه لمرة أخرى معبرا لرؤيا الملك علّه يزداد عنده شأنا ومزيدا! وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى‏ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (43). أ ترى «الملك» هنا-/ وللتالي تتمة القصص-/ هو العزيز؟ كأنه لا، فإن مختلف التعبير بمختلف الأفعال تعبير عن مختلف الفواعل، فلو كان هو العزيز لقال «و قال العزيز» أم قال في قصة المراودة «امراة الملك»! ثم «امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» في قصة الملك دون امراة الملك، و لمّا يستخلص يوسف لنفسه يصبح هو العزيز «يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ» هذان يؤيدانه، وأن العزيز هو الشخصية الثانية في المملكة وقد عزل أو مات أو قتل فأصبح الصديق هو العزيز. و قد تلوح «إني أرى» بتكرر الرؤيا، حيث المضارعة في بيان الرؤيا الماضية تلمح إلى المداومة، والسمان جمع السمينة كما العجاف للعجفاء الهزيلة، أرى سبعين مختلفين في السمن والهزال، ومن العجاب أن العجاف يأكلن السمان، وأرى سبع سنبلات خضر وسبعا أخر منها يابسات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 509

«يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ» من الفتوى والفتيا وهو الجواب عن حكم المعنى، والجواب عن نفس المعنى. فليس من الفتيا، و «تعبرون» هو العبور عن المعنى الظاهر إلى حكم الباطن، كما العبارة عبور عن اللفظ الى معناه، فتأويل الرؤيا هو العبور إلى حقيقتها المعنية منها. و لحد الآن في ذلك القصص تمر بنا رؤيّ ثلاث، من يوسف وصاحبي السجن والملك، والاهتمام بها وتأويلها يعطينا صورة من جو العصر آنذاك في مصر وخارجها، فالهبة اللدنية المؤتاة ليوسف من علم تأويل الرؤيا كانت تناسب جو العصر وروحه، حيث يحتاجه المؤمن وسواه سواء. يطلب الملك-/ في اضطراب بال وسوء حال مما يراه-/ إلى الملأ من الكهنة والحاشية الملكية، وهم يحيدون عن تأويلها جهلا او تجاهلا على طريقة 111 رجال الحاشية في إخفاء ما يسوءه وإظهار ما يسره واختلاق الجو المساعد لهواه. و «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ» يعبّر عن تهديده لهم ليفكروا جيدا حتى يعبروا، ولكنهم رغم اضطراب الملك وتهديده: قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وهذه أحسن عبارة وأبلغ استعارة عما يعنون في حيدهم وميدهم، فالأضغاث هي الخلائط من الحشيش المضموم بعضها إلى بعض، كالحزمة وما يجري مجراها، يشبّه هنا اختلاط الأحلام، وما يمر به الإنسان من مكروه ومحبوب والمساءة والسرور، باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدة وأصناف متعددة. فأضغاث من أحلام، يخلط بعضها ببعض، دون رباط ظاهر، ليس لها تأويل، وكما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 510

الأحلام ليس لها تأويل، «وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ» لأنها أحلام تستجرّ من اليقظة إلى المنام، فليست-/ إذا-/ لتكشف عن حقيقة وراءها سوى نفسها، أم وحتى إذا كانت لها حقائق ف «ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ» فضلا عن أضغاثها وهي ظلمات بعضها فوق بعض! وتراهم كيف يتجرءون على التعبير عن رؤيا الملك ب «أَضْغاثُ أَحْلامٍ» وفيه حطّ من ساحته ومسّ من كرامته؟ علّه للحفاظ على اطمئنان خاطره ألّا يشوّش بما يرى، وإعذارهم أنفسهم ألّا يتساءلهم كيف لا تعبرون ما أرى «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ» وقضية الحفاظ على الأمرين هي إبعاد الرؤيا عن كونها ذات حقيقة، فسواء أكانوا يعلمون تأويلها أم يجهلون فصيانة الموقف تقتضي ما قضوه. و اللوحة الظاهرة من هذه المنامة في نظرة سطحية هي استيلاء الضعيف على القوي، وذلك يهدد السلطة الفرعونية بالزوال، ولو كانوا يعلمون ما أوّله 112 يوسف لكانوا يتسابقون في تأويله حظوة عند الملك كما حظى الصديق، ولكنهم علموا ظاهرا منه سطحيا فهابوا الملك أن يؤلوه بما علموا و «قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ..»!. وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45). «الَّذِي نَجا مِنْهُما» هنا هو «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا» هناك، حيث قال له يوسف «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» وهو الآن «ادّكر» ما ذكّر قبل «بعد أمة» منه، ولأن له حظوة ومنزلة في تأويله .. «قال» بكل جرأة وطمأنينة «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» تجهيلا للملأ، وتثبيتا أن ما راه الملك ليس من «أَضْغاثُ أَحْلامٍ» وحتى لو كان منها فان له تأويلا يعرفه أهله «فأرسلون» أيها الملأ، دون «فأرسلني» إذ لم يكن هو من الملأ المخاطبين المطلوبين، فهو ساقي الملك وأنّى له أن يكون من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 511

الكهنة ورجال الحاشية. و إنما يجرئه على ذلك رغم الملأ، حيث جرب يوسف من قبل فوجده عليما بتأويل الرويّ صادقا في الحق وحقا في الصدق، وعلّه استفاد من يوسف-/ لأقل تقدير-/ ان لكل رؤيا تأويلا مهما كان من أضغاث أحلام، وإلّا فكيف يورط نفسه فيما ورّط واهل التأويل يقولون ان ليس لها تأويل؟! «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ» والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، وهو عليّ فيما ترسلون، وبطبيعة الحال أرسلوه وبأمر الملك وتأكيده. و قد تلمح «وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» انه ذكر الصديق بفضله وعلمه بتأويل الرؤيا عند ربه، وانه الذي اوّل رؤياهما فكان كما كان، إذا فمن ذا الذي يجرأ عند الملك ان يعارك الساقي: ما أنت والإنباء بما جهلنا، او ما ليس له تأويل؟ «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ ... فَأَرْسِلُونِ» فأرسلوه الى الصديق فأخذ يتلطف معه في هذه المواجهة وبعد امة من السنين: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46). هنا «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» تصريحة منه ان الملأ كانوا يجهلون حق التأويل، مهما كانوا يعلمون ظاهرا منه يعرفه كل احد، أن هناك حادثة أليمة في أركان الملك تعم الرعية، وفي ذلك فضحهم أن رؤياه أضغاث أحلام، بل أنتم الأضغاث وأنتم الأحلام، وليس الملك ليرى أضغاث أحلام! .. ثم ومما «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» هو فضله وبراءته إذ سجنوه على جهالة مدروسة من الحاشية الملكية، وبعكس ذلك خيانة امرأة العزيز والحاشية التي زجته في السجن. ف «أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» في البداية، ثم «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» في النهاية تأكيد وتشجيع كيلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 512

يتمنّع يوسف من تأويل نكاية عليه، لماذا لم تذكرني عند ربك طول هذه الأمة فلبثت في السجن بضع سنين؟ ولكنه لم يلفظ بشطر كلمة حول القضية، مما يدل على نبوة مقامه وبراءته عما افتري عليه من نسيانه هو ذكر ربه، والتنديد عليه لماذا توسلت إلى عبد؟!، ولا شرط أن يخرجوه حتى يفتي في رؤيا الملك خلاف ما يروى بشأن الرسول‏ «1» صلى الله عليه و آله وهو أحرى من يوسف، وتراه إذا كان على علم من علم يوسف تأويل هذه الرؤيا كسائر الرّئى فلما ذا «لَعَلِّي أَرْجِعُ ... لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ»؟ علّه لأنه ليس على علم برجوعه، فقد يموت في الطريق او تقتله الحاشية قبل وصوله، وحتى إذا وصل فعلّهم لا يقبلون تأويله، او برائته، ولا سيّما خيانة امراة العزيز ونفس الحاشية. و لأن المرجو هنا عظيم عظيم فقد يقاوم ما علّه ينقم منه: لماذا حرّج موقف الحاشية، لا سيما وأن الملك بجنبه ولو لم يأت بشي‏ء إذ تكفيه محاولة لتأويل رؤياه! وهنا نراه بعد ما يسمع الرؤيا يفتي للساقي ودون تمهل ولا شكاة ولا تطلّب نجاة بتوسل ثان: قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48). أ تراه أفتى-/ فقط-/ تأويلا لرؤيا الملك؟ كلّا! حيث حكم على ضوء تأويله بما حكم، صادرا عن مصدر القيادة العليا وهو في السجن بتهمة الخيانة، وهذه هي الفتوى الكاملة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في نور الثقلين 3: 431 عن المجمع و روى عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: لقد عجبت من يوسف و كرمه وصبره و اللّه يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان، و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط ان يخرجوني، و رواه مثله العياشي في تفسيره عن ابان عن محمد بن مسلم عنهما قالا إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: ... أقول و ليضرب عرض الحائط لمخالفته نص القرآن في يوسف فالرسول صلى الله عليه و آله أحرى!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 513

وقد كان المستفتي ليكتفي بالبند الاوّل فإنه-/ فقط-/ تأويل رؤيا، ولكنه يزيده حكما صالحا لفتواه، ليأخذ بذلك أزمة قلوب الملك والحاشية «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ». و لأنها رؤيا الملك يأخذ «سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر» مثالا عن الحالة الاقتصادية الخصبة في جميع أنحاء المملكة، حيث البقرة تمثل وافر النعمة، وهي في رؤيا من يملك أمر الرعية، النعمة العامة الشاملة، ثم «سبع عجاف وسبعا أخر سنبلات يابسات» مثالا عن الحالة الشديدة الضيقة بعد الأولى. و «دأبا» هو استمرار في الحركة الزراعية وتعب إذ يعنيهما لغويا فهما معنيّان هنا معا، وإلا لجي‏ء بلفظه الخاص-/ استمرارا او تعبا-/ وقد يؤيد جمعهما فتح عين الفعل اللامح للجريان والدوران: تزرعون سبع سنين متتالية سنة وسنوات، مما تنتج أخصب الزرع وأكثره عدّة وعدّة. و هذه الفتوى الأولى بحكمه، فان «تزرعون» خبر يعني الأمر ومن ثم فتوى الحكم «..

فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» (47) فالكثير الذي لا يؤكل، بل يسرف او يبذر أم يباع، ذلك الكثير «فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ» حفظا عن السوس والمؤثرات الجوية أمّا هيه، ذخرا للسبع الشداد، و «تأكلون» هنا، ك «تزرعون» أمر بصيغة الإخبار، مما يحتّمه أكثر من صيغته، فعليكم في السبع الأولى الزراعة دأبا في مواصلة وتعب، وعليكم ألا تأكلوا مما حصدتم إلّا قليلا فيه بلغة الحياة .. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48). و إنها سبع لا زرع فيها والأكل نفس الأكل، وهن «يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا» زائدا عن الضرورة وهو «مِمَّا تُحْصِنُونَ» عن الإسراف والتبذّر، عن الالتهام والتبعثر.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 514

إلى هنا يتم تأويل الرؤيا سبعا بسبع، ثم يزيد الصديق مما علمه ربه وأنبأه ما ليس في الرؤيا: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (49). و لكيلا تبقى لهم أية باقية من زمجرة السبع الشداد يخبرهم الصديق بذلك العام المغيث، بغيث السماء وغيث الأرض ومنه كلاءها، ولو كان-/ فقط-/ المطر لجي‏ء بلفظه، والغيث المطر ليس غيثا إلّا لأنه يغيث وينجي البائسين، أم ان «يغاث» من كلا: الغيث والغوث، فليس الغيث المطر والكلاء-/ فقط-/ بالذي يكشف الكرب ويمنع الجدب، إذ قد يوازيه برد قارص، ام برد كارث قبل نضوج الحرث ام عنده، او ريح صرصر كارث، او زلزال مارس، أماذا مما قد يساعده الغيث على الكارثة المزمجرة، والحادثة المدمرة. فالقول ان فيضان النيل كان يكفيهم عن المطر، تقاوله السبع الشداد والنيل هي النيل، ثم هل للنيل ان تنال بفيضاناتها كل الخيرات وتنيل، وهناك كربات وصعوبات سماوية وأرضية لا تدفع إلّا أن يغاث الناس بغوث إلهي ضمن فيضان وغيث، لا سيما وان الفيضان نفسه ليس إلّا بالغيث الذي يمده من مجاريه عن بلاده. «فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ» غيثا وغوثا «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» الفواكه، مما يلمح إلى كثرتها لحد الإعصار بعد الإعسار، فلا يعني-/ فقط-/ يعصرون الخمر، بل ولا يعنيه فيما يعنيه، إذ تجل ساحة النبوة ان ينبئ فيما ينبئ عما فيه شهوات النسناس بخمر تخمر الناس، وتبغض إله الناس! فان لم يدل تأويله الرؤيا على نبوته وتسديده بالوحي، فليدل إنباءه ب «عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» فليس تمام السبع الشداد مما يدل عليه، إلّا عاما غير شديد، كما قبل السبع الأولى، عام يكفي نفسه كتقدير معتاد، وأما ان «فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 515

يَعْصِرُونَ» فزيادة لا تعلم إلّا بالوحي. و هنا يحذف السياق ما يعلم من المساق او هو غير ضروري في القصة، وينتقل إلى مشهد الملك وتأثره عن تعثّره في سجن الصديق، فلنسمع الملك كيف ينهاز إلى خلاصه بكل إخلاصه والتماسه: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50). يا عظماه لذلك الصديق العظيم، يطلب إليه الملك ليخرج عن السجن ويدخل عليه فلا يستجيب، وطبعا ما كان الإتيان به إشخاصا لاستجواب يعود بعده إلى السجن، فإنه أمر قاطع لا مرد له ولا قبل أمامه، وإنما هو إحضار عن عفو وإغماض، فله أن يقبل وله ألا يقبل. هنا نرى يوسف السجين وقد طال سجنه بضع سنين لا يستعجل إجابة الملك في الخروج، حتى يخرج قبله عن تهمة الخيانة، ويعلن متهموه برائته من الوشايات والمكائد التي أدخلوه السجن بظنتها. فلو خرج من فوره لكان خارجا عن طوره، متهما في توسله بالساقي، وقد تبقى عليه وصمة الخيانة أن يظن بخروجه عفو الملك وإغماضه عما كان، بما ظهر منه الآن. ولكنه مسبوك بذلك الأدب الرائع، والسكينة والثقة والطمأنينة في قلبه البارع، فلا يعود عجولا ولا معجلا، تقديما لخروجه عن سجن الروح في تهمة الخيانة، على سجن البدن، وإن بقي فيه بضعا أخرى، ذلك يوسف ولم يكن ممن دارت عليهم الرحى، فبأحرى إمام المرسلين و خاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه و آله لو كان مكانه لكان أمتن منه وأمكن خلاف ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 516

اختلق على ساحته من روايات‏ «1» كما على أخيه الصديق! و أيا كان رسول الملك، أهو الساقي الناجي وعله أنسب لكونه أرفق وبصاحبه أليق؟ أم هو رسول تنفيذي يكلّف بمثل هذا الشأن، لمكان قوله «ائْتُونِي بِهِ» دون «آتني به» فبطبيعة الحال ليس هذا الرسول إلا عظيما من الحاشية يليق بهذه الرسالة، لا نعرفه من هو؟ ولا فائدة في أن نعرفه. «فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ» وعرفه رسالته «قالَ ارْجِعْ إِلى‏ رَبِّكَ» لا «الملك» ولا «الرب» او «ربنا» كما يقوله السجناء بغية الخلاص، وإنما «إِلى‏ رَبِّكَ» ثم «فاسئله» كأنه من قبلك نفسك، لا عني، ولأنه لا يجرأ الساقي وأضرابه على سئوال الملك من نفسه، اللهم الّا رسول خاص، له اختصاص بالسّدة العليا، يتأيد أنه غير الساقي. «فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ». فانظر إلى ذلك السجين كيف يستجوب الملك والنسوة في مسألة واحدة، بكل حائطة واحتشام، حيث لا يذكر مراودة امراة العزيز، فإنما النسوة والنسوة فحسب، إذ كان أمرهن واضحا في المملكة وضح النهار، وأمرها يظهر ضمن أمرهن كما ظهر، فبالهن وخطبهن ذريعة إلى خطبها وبالها، وهو لم يذكرها بسوء ولا إياهن إلّا قدر الضرورة التي هي مفتاح براءته:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الدر المنثور 4: 23 عن أبي هريرة قال تلا رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذه الآية: «فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ ...» فقال: لو كنت انا لأسرعت الاجابة و ما ابتغيت العذر! و في اخرى عنه انه صلى الله عليه و آله قال: يرحم اللّه يوسف ان كان لذا أتاه لو كنت انا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعا، و عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: عجبت بصبر أخي يوسف و كرمه و اللّه يغفر له حيث أرسل اليه ليستفتى في الرؤيا و ان كنت انا لم افعل حتى اخرج، و عجبت من صبره و كرمه و اللّه يغفر له أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره و لو كنت انا لبادرت الباب و لكنه أحب ان يكون له العذر! و عن الحسن عن النبي صلى الله عليه و آله قال: رحم اللّه اخي يوسف لو انا اتاني الرسول بعد طول الحبس لا سرعت الاجابة حين قال: ارجع الى ربك، فاسأله ما بال النسوة!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 517

«إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» ولسوف تعلمون في ذلك الاستجواب وعلّ من كيدهن أنهن لما يئسن عن مراودتها القين حبل التهمة الوقحة على عاتقه، في وشاية دائبة وجناية صارحة سارحة، لحد شككن الملك والعزيز في أمره!. و البال هو الأمر العظيم والشأن الخطير، وهو للنسوة هنا أخطر من أيديهن وأعظم حيث نسينها لبالهن، وليس إلّا الشغف الهالك الحالك في حبه، لحد أنساهن أنفسهن فقطعن أيديهن، مكان الأكل والفاكهة التي بأيديهن. فلما يعرف ذلك البال يعرف واقع الحال منهن ومن امراة العزيز وكفاه ذلك السؤال ظهورا لبراءته في الحال وبكل استعجال. قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51). و الخطب هو جلل الأمر ومصابه، فالصديق يتغاضى عن مراودتهن احتشاما حتى يصرح بها وبخطبهن الملك، ويصرخن ببراءته، مما يدل على أنه كان يعلمها من ذي قبل، او استقصى قبل إحضارهن فعلمها، وهذه قضية الحال في كل استجواب ولا سيما بالنسبة للعظماء، ليكون المستجوب للحال على بينة من الأمر، والظروف المحيطة به قبل الخوض و الانغمار فيه، فهنا لك يواجه النسوة على بينة من واقع المراودة وخطبهن فيها: «ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ»؟ أهو الذي أوقعكن في خطبكن ومراودته أم أنتن من أنفسكن؟ «قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» لا سوء المراودة، ولا سوء النظرة «ما عَلِمْنا عَلَيْهِ» امر يعلوه او يظهر فيه «من سوء» إلّا حسنا وجمالًا «ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»! حقيقة ليست لتنكر او تستر ولو من مثل هؤلاء النسوة المترفات المتجبرات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 518

الارستقراطيات اللاتي لا يحنّ إلى معروف ولا يقررن بمنكر فعلن. و هنا لا تملك المراودة الأولى، الخائنة الأولى، لا تملك نفسها في جو المصارحة بين النسوة ان تختصه بالتهمة فتتقدم النسوة في مصارحة المراودة «قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ» ظهورا لا يحتمل أي‏خفاء ولا يتحمل، مهما تحمله من ذي قبل بما حمّلناه «أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (51) شهادة ناصعة دون أية ريبة ولا شائبة، يقال حصحص البعير في بروكه إذا تمكن واستقر في الأرض، وكأن اشتقاقه من الحصة حيث بانت حصة الحق عن حصة الباطل بكل تمكن واستقرار، ولا تبالي الشاهدة هنا أن تشهد له على نفسها، مستهينة ما وراءها مما يلم بها نفسها، ومن ناحية أخرى هي طبيعة الحال في الأوساط النسائية في المترفين، لحد قد يتفاخرن بتلك المراودات إذا كان المراود معترفا بلياقته وصلوحه للمراودة، حيث التحلل والتميّع وحيونة السعار الجنسي المرتدي ثياب الارستقراطية، لها مقاييس في الحياة غير ما للشعوب المحطّمة المظلومة. و لقد تمت هنا الشهادة من الملك والنسوة وامراة العزيز على براءة الصديق ويراعته، وقد شهد العزيز في أول وهلة: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» فهل كان هنا غائبا عن المشهد أم ميتا ولذلك لم يشهد، أما ذا؟ القدر المعلوم انقطاع خبره منذ الوهلة حتى آخر القصة وقد كانت في شهادته الأولى كفاية، إضافة إلى شاهد من أهلها وشهادة القميص أمن ذا ممن قد مضى؟ والتوراة على تحرّفها شاهدة لصدقة مهما اختلف التعبير أو تهافت في بعض المواضيع‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالى تتمة الاصحاح 41 من سفر التكوين الذي أوردناه من ذي قبل ... و سأل الساقي ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك «أقول: «لكن» هنا يؤيد ما أيدناه بالادلة السبعة «ثم بعد سنتين رأى فرعون في منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر و سبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطئ فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ثم نام فراى سبع سنابل خضر حسنة سمينة و سبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فأكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك و جمع سحرة مصر و حكماءها و قص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره و عند ذلك ادّكر رئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون و ذكره ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فامر فرعون بإحضاره فلما ادخل عليه كلمه و استفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد اخرى فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد اخبر اللّه فرعون بما هو صانع: البقرات السبع الحسنة في سبع سنين و سنابل سبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد، و البقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وارءها هي سبع سنين و السنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعا. هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد اظهر اللّه لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شبعا عظيما في كل ارض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا فينسى كل السبع في ارض مصر و يتلف الجوع الأرض و لا يعرف السبع في الأرض من اجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديدا جدا، و اما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلان الأمر مقرر من عند اللّه و اللّه مسرع لصنعه. فالآن لينظر فرعون رجلا بصيرا و حكيما و يجعله على ارض مصر يفعل فرعون فيوكل نظارا على الأرض، و يأخذ خمس غله ارض مصر في سبع سنين الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة و يخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما في المدن و يحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في ارض مصر فلا تنقرض، الأرض بالجوع ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 519

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53). أ ترى من هو القائل «لِيَعْلَمَ ... وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي»؟ هل هي امراة العزيز؟ فمن هو الذي لم تخنه؟ أهو العزيز وقد خانته في مراودات واهتمامات بالغيب وكما صرحت بصدق الصديق في خيانتها وبراءته! أم هو يوسف؟ وقد خانته في الحضور والغيب، حيث احتالت عليه حتى أدخلته السجن بتهمة الخيانة! ثم ولم تكن موحدة حتى تقول: «وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» او تقول «إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» ثم وما برّئت نفسها إلّا «وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 520

وقد فضحت بشهادة الشاهد من أهلها، وإنما برّئت نفس يوسف في مشهد النسوة مرتين، فلم تكن في موقف التبرئة لنفسها حتى تنفيها عن نفسها! ثم وماذا تعني-/ إذا-/ من ذلك؟ أ تعني أن ذلك الاعتراف ببراءة الصديق وخيانتها ليعلم او يعلم العزيز أنها لم تخنه بالغيب؟

وهو اعتراف منها بخيانتهما بالغيب! اللّهم إلّا في ذلك الغيب الأخير بمشهد الملك وغياب يوسف! ولم تكن امراة العزيز بالتي لا تخون يوسف وقد خانت العزيز! ولا أن علم الصديق بعدم خيانتها إياه بالغيب يهمها لحدّ تفضح له نفسها أمام النسوة والملك أم والعزيز!. إنها-/ دون ريب-/ من كلام يوسف إجابة عن سؤال مقدر، لماذا لم تحضر عند الملك فور إحضاره، وطائل السجن كان يؤكد التهمة عليك فضلا عن مزيده؟ فيجيب، «ذلِكَ لِيَعْلَمَ» العزيز «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» فلو خرجت دون استجواب النسوة لظلت تهمة الخيانة عليّ لزاما، وهو استبقاء في سجن التهمة، فسواء أخرجت أم بقيت إلّا أن تحصل هذه الحصحصة في حقي أمام الجماهير، فيعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب. أ تراه لم يعلم أنه لم يخنه بالغيب وهو القائل لدى الباب بعد شاهد من أهلها «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ»؟ أجل إنه أخذ يعلم ولكنها بدلته من بعد علم جهلا، كما هددت الصديق مرارا وتكرارا «وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» وهكذا يأخذ مكائد النساء بأزمة قلوب الرجال، فقد فعلت 123 و افتعلت حتى دفعته أن يسجنه بتهمة الخيانة، وظل بضعه في سجنه في ظل هذه التهمة الوقحة، فكيف يخرج دون ان يقضي عليها؟. أجل لقد كان لزاما على يوسف قوله «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 521

تذرعا إلى رفع التهمة، ولزاما عليه إلّا يخرج بطلب الملك إلّا بعد زوال التهمة، و «ذلك» القول وعدم الخروج إلّا ببرائته «ليعلم» العزيز ومعه من معه من الملك وسواه «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ» في قصة المراودة «بالغيب» إذ كان غائبا. «و ليعلم» على علمه «أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» كامرأته ونسوة في المدينة، ومعهن العزيز والملك في خيانتهم المكرّسة وشيطنتهم المدروسة، فلو أنني كنت من الخائنين، والجهاز الفرعوني مصرّ على أنني خائن فكيف اهتديت إلى برائتي بشهادتهم هؤلاء أنفسهم؟ ثم «وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ» ضابطة تضرب إلى مثلث الزمان ومختلف الكائن والمكان، وقد أقام اللّه تعالى فيها كيد الخائنين مقام الخابط في طريق ليصل الى مضرة المكيدة وهو عنه غافل، فأعلمنا سبحانه انه لا يهديه حيث لا يوفقه لإصابة الغرض، ولا يسده لبلوغ المقصد، بل يدعه يتخبط في ضلاله ويتسكع في متاهه، حيث يسري في معصية اللّه فلا يستحق ان يهدى لرشد او يتسدد لقصد. و لأنهم كانوا خونة بحقي بكل المكائد الفرعونية، نسائية ورجالية، لم يكن اللّه ليهدي كيدهم إلى بغيتهم: دراسة متينة ونصيحة مكينة من الصديق السجين لرجال البلاط ونساءه ولمّا يخلص من السجن! ولأن «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» تلمح كأنه بحوله-/ فقط-/ وقوته ترك تلك الخيانة فلم يصب إليهن، يثنّيها بما يزيل غشاوة الإيهام والإبهام بقوله: «وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي» عن الخيانة وهمها ل «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» نفسي‏و سواها «إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» وقد رحمني بما أراني برهانه: «وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» وصرف عني كيدهن: «وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ» «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» يغفر برحمته ويستر زلات المخلصين والمخلصين، فلو لا غفره بما أراه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 522

برهانه وصرف عنه كيدهن لهمّ بها وصبا إليهن وكان من الجاهلين، وذلك غفر قبل حلول العصيان، وهكذا كلّ غفر للمعصومين، كما هنالك غفر بعد حلوله كما لغير المعصومين. فإذا كان يوسف الصديق لا يبرئ نفسه وهو من المخلصين، فيربط برائته برحمة ربه، فبأحرى لمن دونه من الصالحين، فلو لا رحمة الرب لكنا من المهلكين «وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الُمحْضَرِينَ» (37: 57)! ف «النفس» هنا هي الشهوانية وهي بطبعها «لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» إلّا برادع من نفس مؤمنة مطمئنة باللّه، تكرّس كافة طاقاتها سياجا صارما على أمر السوء وفعله، مستعينة باللّه وحتى النفس المعصومة، حيث العصمة الإلهية وتثبيته يحولان بين النفس وشهواتها «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا». و صحيح أن النفس لا يصح ان تأمر بسوء، فإنما تشتهي السوء، ولكن الإنسان لما كان بطبعه يتبع دواعيها إلى الشهوات، وينقاد بأزمتها إلى المقبحات كانت بمنزلة الآمر المطاع، و الإنسان بمنزلة السامع المطيع، والمبالغة في «لأمارة» مؤكدة باللام تحاكي صفتها بكثرة الدفع إلى المهاوي والقود إلى المغاوي. ثم وهذه الأمارة بالسوء-/ بطبيعة الحال-/ تتدرج على ضوء المحاولة البشرية والرحمة الإلهية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، إلى لوّامة بدرجاتها، ومن ثم مطمئنة بدرجاتها، مخلصة لا تخلو من أخطاء اللمم، ثم مخلصة معصومة بعصمة إلهية، وهذه رحمة خاصة تخص المخلصين، وقبلها عامة تعم المخلصين، ويوسف من الأوّلين «إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الُمخْلَصِينَ» والرسول محمد صلى الله عليه و آله هو إمام المخلصين «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» لحد يقول عن نفسه «شيطاني أسلم بيدي-/ جزناها وهي خامدة». ف «إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» استثناء متصل يعني إلّا النفس التي رحمها ربي فليست أمارة ولا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 523

آمرة بالسوء بل لوامة أو مطمئنة: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي». و ليست لنا إلّا إحدى هذه الثلاث، وهي مختلفة حالات الروح، واجتماعها في هذه الحالات، ام تعددها كل بحالتها، ذلك اجتماع الأضداد المتنافرة، أو المحالات المتهاترة. «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها، وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» وأمثالها هي من براهين وحدتها دون تعدد في ذواتها، ولا اجتماع في حالاتها!. ثم ومع الأسى نرى هنا كما هنالك ترسم أيدي الخيانة ما يمس من كرامة الصديق وليضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب اللّه المصرح في آيات عدة ببرائة يوسف ويراعته‏ «1». و هكذا ينتهي دور السجن لمن كرّمه اللّه واصطفاه، بريئا عن تهمة الخيانة، جريئا على الخونة، مما يدفع الملك أن يطلبه إليه مرة ثانية: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54). و هكذا يتجلى الإنسان في أكمله وأنقصه في قصص القرآن التي لا تقص لمجرد قصّ التاريخ وأداء الفن القصصي، بل «لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ» فانما تساق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 23 عن أبي صالح في الآية قال: هذا قول يوسف عليه السلام لم يخن العزيز في امرأته، فقال له جبرائيل: و لا حين حللت السراويل؟ فقال يوسف عليه السلام: «وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي ..» أقول أليس حل السراويل للعزيزة بغيب العزيز خيانة، ثم و في القيلة المنسوبة الى جبرائيل تكذيب لقول يوسف اضافة الى تهمة الخيانة! و الصحيح ما أخرجه ابن أبي حاتم و ابو الشيخ عن الحسن في الآية قال: خشي نبي اللّه ان يكون زكى نفسه قال: و ما أبرئ نفسي الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 524

لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرة وعظة، في واقعة تتناسق فيها جميع المؤثرات والمؤشرات والواقعيات في نفوس بني الإنسان. هنا يصدر الأمر الملكي مرة ثانية «ائْتُونِي بِهِ» ولكنه في هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه في علمه ودرايته وأمانته: «أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» فلو استجابه في الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانة، واستخلاص الملك هو الصدارة الثانية بعده كرئاسة الوزراء امّا ذا من القمة الثانية. إنه في هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى مأول الرؤيا، أو ليسمعه كلمة الرضا لصاحب السموّ الملكي، وليعفو عنه ويطلق سراحه، وإنما ليستخلصه لنفسه معتذرا إليه عما كان عليه، ومفوضا إليه ما سيكون ... هنا الملك يطلب إلى من لا يتهافت على خروجه من السجن، ولا يتفاوت عنده السجن و خارج السجن، إلّا أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلّا فالسجن أحب اليه من عفوه دون براءة، كما كان أحب إليه مما يدعونه إليه. يطلب الانسراح عن السجن ممن أخذ يفتي برؤياه لصالح المملكة، ويحكم كقائد اوّل لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثّرها، وهكذا يكون رجالات الحق والصدق والدعاة الى اللّه، لا يخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أيا كان، فلا يذلون عن عزهم، ولا يترذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم، ولا يحيدون عن موقفهم الرسالي، ولا يفرق لديهم السجن وخارجه، ولكي يبرزوا الحق كما يليق به ويحق، دون مسّ من كرامته وكراماتهم، ودون نكص على عقبيهم انتقاصا لحق الدعوة والداعية. فيا ليت رجالا-/ ولا رجال-/ يمرغون كل كرامة على أقدام الطغاة-/ بمطلق سراحهم-/

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 525

متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء، ليتهم يعتبرون بأحسن القصص، وليعلموا أن العزة والإباء يدرّ عليهم أضعافا من إدرار التمرغ والتزلّف والانحناء أمام ذوي السلطة والكبرياء «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ... وَ لَأَجْرُ الآْخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ» (57). «.. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ» خلاف ما قبل اليوم لمّا طلب إليه للمرة الأولى «ائْتُونِي بِهِ»! لست أنت اليوم الفتى العبراني المشرى بثمن بخس دراهم معدودة، لعبة العزيز وامرأته، وإنما أنت «الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ» ذو مكانة عالية مرموقة، ولا أنت المهدّد بالسجن أو عذاب اليم، وإنما أنت «لدينا اليوم أمين»، وتراه في ملتقاه مع الملك أخذ يتملق له بقولة او فعلة كما يفعله رجال الحاشية؟ كلا ولا في شطر كلمة، فالنص «فَلَمَّا كَلَّمَهُ» فالملك هو البادئ بالكلام دونه، اللهم إلا بسلام والسلام، وفي ذلك الكلام الملكي الهام:

«إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ» نرى كل مراتب العزة والإكرام، دون ألفاظ مرسومة خاوية في المواجهات العادية، وإنما كلام مكين أمين، حيث الملك ليس ليهاب أحدا او يماريه حتى يجاريه في كلمة خاوية المرام. هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة، المستفاد من حرف التأكيد وتقدم الظرفين، يؤكد له المكانة والأمانة الخاصة المتميزة، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة، ولا سيما في تلك الظروف الحرجة الهرجة، وفي الحق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده، قالَ اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55). «إِنِّي حَفِيظٌ» لشتات الأمور ومتفرقاتها لأجمع شملها، ولمجموعاتها عن تمزقها وشتاتها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 526

حفيظ للمعادلة الاقتصادية في السبعين الرخوة والشداد، حفيظ في كلما تحتاجه خزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس في تلك الظروف المحرجة، هو بأحرى حفيظ على المصالح الاقتصادية! «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» فمن حفيظ غير عليم، يحاول في الحفظ ولكنه لا يعلم، فقد يكون ما يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصدقة، ومن عليم غير حفيظ، يعلم ويخالف علمه إلى جهالة، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية، إذ لا يلاحظ إلّا شخصه وشخصيته وصالحه، ولكني «حَفِيظٌ عَلِيمٌ» كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض. و تراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه؟ علّه ما كان ليعلم أية مصلحة في الملك هي أصلح ليجعله عليها؟ فهو-/ بعد ما يتأكد أنه لديه مكين أمين، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمر ما لمصلحة البلد-/ فهو يدله على ما هو الأصلح في تلك الظروف الصعبة الملتوية، كمواصلة صالحة لما يريده منه الملك، حيث الأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها، هي بأمسّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع و دراية، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضروري لحفظ البلد عن التفكك، الذي لا بديل عنه، كما هو عليه السلام لذلك المنصب، فلا يطلب إلى الملك وزارة البلاط الملكي، ولا أية وزارة إلّا وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعية، التي كانت تحلّق حينذاك على كافة الوزارات، وفي الحق هي رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة! فبالرغم من أنّ تصدي أمر الإقتصاد في ذلك الظرف الحرج تورّط في مختلف الصعوبات، يختاره الصديق لنفسه، وهناك أمور أريح، ولصالحه الشخصي أصلح، لأنه حسب واجبه الرسالي كان حصينا في اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة، فيكون مسئولا عن إطعام شعب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 527

بكامله والشعوب المجاورة، ليؤدي واجبه الرسالي عدلا ناصعا ناصحا للجماهير، وعلّه على ضوئه يجلب أنظار المحاويج إلى شرعة اللّه. فليس من السهل تكلّف ذلك العب‏ء الثقيل، ولأقل تقدير في أربعة عشر سنة التي قد تكلّف في مصطرع المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه، المنصب الذي يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية، حيث ترجّح الأريحية وحياة الترف والرعونة. أ فبعد ذلك كله يخلج ببال، أن كيف يزكي الصدّيق نفسه واللّه تعالى يقول: «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» يزكي قائلا: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونة الظالمين حتى في عدلهم هي من المحرمات القطعية؟!. إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقا وأوسع آفاقا من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس العاديين، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى اللّه، ولا بد للرسول ان يزكي نفسه بما زكّاه اللّه تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب، وإنما التزكية المحرمة هي للنفوس غير المزكّاة، أو التي تأخذها بتزكيتها رعونات وطنطنات، دون النفوس المطمئنة باللّه التي زكاها اللّه بما رحمها «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي» أو ليست النفس المرحومة باللّه مزكاة!. و لان زكاة النفس من نعمة الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» لا سيما في مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه، دون التظاهر بالحق وأنت مبطل أو معجب: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (4: 49) (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏» (52: 32). وقد زكى اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 528

نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكّنه في الأرض: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ..» «1». و من ثم ليس طلبه إلى الملك أن يجعله على خزائن الأرض إلّا ليعدل حسب الشرعة الإلهية فيمن لا يقرون بحق اللّه وشرعته، وإزالة الظلم ثم تقليله من المفروض على عواتق الدعاة إلى اللّه! وليجد ظرفا صالحا للدعوة الرسالية وذلك من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة. ثم الضرورات تبيح المحظورات، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها في الملكية الفرعونية محظورة للصديق، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضها. و قد قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأحرى، فلما يسأل: يا بن رسول اللّه صلى الله عليه و آله إن الناس يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا؟

يقول عليه السلام: قد علم اللّه كراهتي لذلك فلما خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول، ويحهم أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبيا ورسولا فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن الأرض قال: اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أني ما دخلت في هذا الأمر إلّا دخول خارج منه فإلى اللّه المشتكى وهو المستعان» «2» و اين ضرورة من ضرورة، والحكمة فيهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين في تفسير العياشي و قال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد اللّه عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه اما سمعت قول يوسف «اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» و قول العبد الصالح: «وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ»

(2). نور الثقلين 3: 432 ج 99 في عيون الاخبار باسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال: دخلت على علي‏بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له يا بن رسول اللّه ان الناس يقولون ... وفيه حجاج اخرى له مما شاة و مجارات عن عيون الاخبار باسناده عن الحسن بن موسى قال: روى أصحابنا عن الرضا عليه السلام انه قال له رجل: أصلحك اللّه كيف صرت الى ما صرت اليه من المأمون-/ و كأنه أنكر ذلك عليه-/ فقال له ابو الحسن الرضا عليه السلام يا هذا أيهما أفضل النبي او الوصي؟ فقال: لا بل النبي، قال: فأيهما أفضل مسلم او مشرك؟ قال لا بل مسلم، قال: فان العزيز عزيز مصر كان مشركا و كان يوسف عليه السلام نبيا و ان المأمون مسلم، و انا وصي، و يوسف سأل العزيز ان يوليه حين قال: اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» و أنا أجبرت على ذلك، و قال عليه السلام في قوله: «اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» قال: حافظ لما في يدي عليم بكل لسان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 529

والحكم واحدة على اختلاف الدرجة. والامام ابو عبد اللّه الصادق عليه السلام يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس ان يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف: أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام ثم يوسف النبي عليه السلام حيث قال لملك مصر «اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحدا عاب ذلك عليه! «1». و في الحق إنما الحكم للّه ومن يمثّل حكم اللّه من رسله وأوليائه، والحاكمون على الشعوب دونهم كلهم طغاة، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات في كافة الحلقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدر المستطاع، أم-/ ولأقل تقدير-/ التقليل من ظلمهم في سلطاتهم، فإزالة السلطة الظالمة المغتصبة وتقليلها هما مفروضان دوما على عواتق المؤمنين باللّه وبرسالاته. فمن يندّد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا عليهما السلام كفقيه ينقد أئمة الفقه ورسله، إنه في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر الكافي القمي باسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه لا قوام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 530

الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصع هو فقه الحركات و البركات، محلقا على كل فقه وفقيه، ومطبّقا شرعة اللّه في سياسته الجماهيرية والسلطة الشرعية والزمنية، دون فكاك له عن السياسة، وهؤلاء الذين يفصلون الدين عن السياسة في الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية لرجالات السياسة غير الديّنين، ورجال الدين هم في الوقت نفسه وعاظ السلاطين، والفقهاء الذين يحصرون الشرعة الإلهية في مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفي المساجد وحفلات الوعظ والتعزية، التي هي تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية. إن الفقه الاسلامي لم ينشأ لينشئ أمة في فراغ، ويعيش ويعيّش في فراغ، لا تتمثل فيه عناصر المواقف الخاصة بأجوائها، والبى‏آت والملابسات التي ينشأ فيها، منعزلا عن السياسات والملابسات والأحكام الزمنية، مدروسا في فراغ مثالي لا يمثل في المجتمع حتى نفسه. لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافي في الطول التاريخي، أ فبإلامكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على الشعوب؟! وكذلك كل شرعة إلهية في كافة الرسالات، فلم يكن ليوسف الصديق-/ بعد تمشيه في هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة-/ لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية عملية إصلاحية، والجو الملكي يستقبله ويستدعيه: «وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ» وحين يصل أمره إلى ذلك المكانة والتمكين، عليه كواجب رسالي أن يرشد الملك إلى الأصلح للشعب من المناصب المطروحة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 531

لديه ويقول: «اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»! «1». و لئن سئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهي في التراكيب العضوية الجاهلية واللّادينية، فلا تحرك الشرعة الإلهية في ذلك التركيب العضوي العارم إلّا ضدها، كما ولا تتحرك في فراغ، فلنصبر لإصلاح التركيب العضوي حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلك إلا في زمن المهدي القائم من آل محمد صلى الله عليه و آله! فالجواب أن الناس على دين ملوكهم، فالسلطة هي التي تصنع أعضاءها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة، فما لا يدرك كله لا يترك كله! وإذا كان الإصلاح الرسالي قائما على أساس التركيب العضوي الصالح، وذلك الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية، فهو الدور المصرح المستحيل، بل والرسالات التي تحمل أعباء الاصلاحات لا تحلّ إلّا في مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوي الذي هو من أسس الحكم، ثم يحكمون بحكم أوسع، كما صنعه الرسول صلى الله عليه و آله بادى بدء في العهد المكي، ثم في العهد المدني أنشأ دولة الإسلام بذلك التركيب الذي أنشأه من ذي قبل ووسّعه في المدينة. و الصديق يرى الجو يومذاك صالحا لإصلاح مّا حيث الحاجة إليه في الإصلاح الاقتصادي ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين في تفسير العياشي و قال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد اللّه عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر اليه ا ما سمعت قول يوسف «اجْعَلْنِي عَلى‏ خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» و قول العبد الصالح: «وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 532

فيحكم بشرعة اللّه في الأرض. وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ (56) وَ لَأَجْرُ الآْخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (57). «و كذلك» الذي فعله يوسف في رحلته الشاقة الطويلة، منذ البئر حتى البلاط الملكي مستخلصا للملك، «و كذلك» الذي فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية، وإرائته برهاننا وصرف السوء عنه والفحشاء. و كذلك» الذي فعله اخوته والعزيز وامرأته ونسوة في المدينة، والذي ظن أنه ناج والملك. وحتى «كذلك» المكانة التي حصّلنا له في الجو الفرعوني، بهذه المعدات المثلثة المقدرة المقررة من قبلنا. «كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ..» مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزا لحد يتوارى في ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلّا له، دون الذي اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: «يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ..»

(78)-/ (يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ ..» (88). أ ترى العزيز الأول مات او قتل او عزل فاحتل الصديق مكانته؟ لا فحسب بل وتوارى الملك ايضا إلّا مرة،: «.. ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ..». أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته في الأرض جعلته هو العزيز في كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلا عن العزيز! أترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من اللّه؟ فلما ذا تطلّبه الصديق من الملك! أم كانت من الملك؟ فكيف ينسبها اللّه إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض. «كَذلِكَ مَكَّنَّا» تدل أن الملك استجابه إلى مطلوبه، وأنه كان من تمكين ربه، فالعبد يدبر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 533

و قد دبر الصديق بما قدم وما سئل، واللّه يقدّر كما قدر تمكينه في الأرض بما دبّر، مما يبرهن بوضوح أن سؤاله ذلك من الملك كان بمرضات اللّه تدبيرا، فكان من مرادات اللّه تقديرا، وتوافق الأمر ان في تمكينه في الأرض! حيث حوّل قلب الملك ووجهه إلى تلك الواجهة. فكان ما سأله وأراده اللّه. نرى في طول الخط تتحول أسباب ذله إلى عزه برحمة خفية إلهية تجلت آخر أمره،! فقد حسده إخوته فجعلوه في غيابت الجب ليغيب عن ذلك الإكرام والحب، فأخذته السيارة ليشروه للعزيز، فأكرم اللّه مثواه في بيت العزيز، وكادت به النسوة وامراة العزيز لإدخاله في صغار الفجور أو «لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» فأصبح عزيزا في السجن، يؤوّل الرويّ، وقد جعله اللّه ذريعة لتخلّصه عن التهمة وخلاصه عن السجن، لحدّ يثني الملك تطلبّه إليه ويستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، فيتوارى في ظل عزته العزيز الذي أذله، وكل عزيز. لقد مكن اللّه ليوسف أوّل مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لامرأته «أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (31) (وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الُمحْسِنِينَ» (22). وكأنه آنذاك-/ فقط-/ تمكين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط، والتمكين العلمي والرسالي ولمّا يحن حين تمكين لسلطته الزمنية تطبيقا عزيزا لرسالته. و لكنما الآن يمكّنه بعد ذلك التمكين في الأرض، أرض المملكة وحواليها، لحد يتبوأ منها حيث يشاء، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء، إذ أصبح مطلق الإختيار في كل أرض‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 534

المملكة، كأن له السلطة العليا، ولم يكن الملك لو كان له كون-/ إذ ذاك-/ أو كيان، إلّا صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته!. لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملة بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلّا عزا، ولم يكن إلا ما أراده اللّه «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ». 137 و هنالك حصحص حق الآية: «إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (10: 107). أ تراه لماذا «مَكَّنَّا لِيُوسُفَ» دون «مكناه» كما في آخرين في آيات أخرى؟: إن التمكين «له» أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكّن-/ بوجه عام-/ كل من في الأرض فيها: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ ..» (7: 10) وهذا من تمكين إمكانية استعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنّع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيما يتوجب عليه دون إحراج او إخراج: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» (22: 41) وهذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصي، وآخر جماعي لا يحوجه إلى أكثر من تطبيق مّا قل او كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ...»! ثم التمكين «له» نراه في يوسف كما هنا، وفي ذي القرنين: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» (18: 84) حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة الى سلطة واسعة زمنية يقول:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 535

«ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» (18: 95) دون «ما مكني له». و في السلطة العالمية للذين آمنوا «وَ لُيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ ..» (24: 55)

دون «نمكنهم في دينهم»، كما وفي وعد الإمامة ووراثة الأرض للمستضعفين المؤمنين: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» (28: 6). و ذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيليين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» وهو يسبق هؤلاء كلهم في ذلك التمكين المكين الأمين. «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ ..» وليس فقط تبوّء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوّء الدار حاصل لمن يشتريها أيّا كان، فذلك-/ إذا-/ تبوّء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة و مكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد «1». «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ» لو أنه يشاء ويعمل له فيصلح لإصابة الرحمة، وهو من المحسنين «وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ» لا في الدنيا ولا في الآخرة «وَ لَأَجْرُ الآْخِرَةِ خَيْرٌ» لأنها هي دار الأجر والجزاء، وهنا دار التكليف والبلاء «لِلَّذِينَ آمَنُوا» لا فحسب الإيمان كعقيدة مخبوءة في الجنان بل «وَ كانُوا يَتَّقُونَ» على طول الخط في معارك الحياة، يتقون المحاظير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الإصحاح 41 من تكوين التورات تباعا لما سلف ما يلخص كالتالي: «ان فرعون استحسن كلام يوسف و تعبيره و أكرمه و أعطاه امارة المملكة في جميع شؤنها و خلع عليه بخاتمه و البسه ثياب بوص و وضع طوق ذهب في عنقه و اركبه في مركبه الخاصة و نودي امامه ان اركعوا و أخذ يوسف يدير الأمور في سني الخصب ثم في سني الجدب احسن ادارة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 536

فردية وجماعية، وليرفرفوا أعلام التقى، ويخفضوا منارات الطغى، ومن «رحمتنا» هنا هي جماع من المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف و أضرابه، وليس كل المحسنين ليصابوها، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعا لأجرهم، فلهم أجرهم في الآخرة عيانا وبيانا، وأجرهم في الدنيا وبدون سلطة زمنية هو النصرة الإلهية في غلب البرهان، والتصبّر على كل حرمان في سبيل الإيمان: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ»! ف «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم» «1». و قد تلمح «نصيب» بأن الجمع بينهما في الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة «من نشاء» حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير في زمن القائم المهدي من آل محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين! من هنا تدور عجلة زمن سلطته الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء، دون أن تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه، اللهم إلا ما أفاده من قبل: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» ثم ولا يذكر العزيز ولا الملك إلّا مرة مشيرة: «فِي دِينِ الْمَلِكِ» فضلا عن رجال الملك والحاشية، مما يلمح أن الأمر بكامله وكله صار إلى يوسف، بارزا مبارزا على مسرح الحوادث ومصرع الكوارث، كأنه هو الآمر الناهي لا سواه، حيث يضطلع بالأعباء كلها في الأزمات الخانقة الخافقة، فقد تصدق-/ على ضوء هذه التلميحة-/ الرواية القائلة بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 25-/ اخرج الحكيم الترمذي و ابن أبي الدنيا في الفرج و البيهقي في الأسماء و الصفات عن انس عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 537

مقابلة طائلة ان «قال له الملك إن ذلك لشرفي وفخري ألا أسير إلا بسيرتك، ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له وقد جعلت سلطاني عزيزا ما يرام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين» «1». يا عظماه كيف يصبح العبد السجين مالكا لمولاه فيعبّده للّه؟ اجل و «ان الحر حر على جميع أحواله، ان نابته نائبة صبر لها وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر واستبدل بالعسر يسرا كما كان يوسف الصديق الأمين عليه السلام لم يضر حريته ان استعبد وقهر و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد مضى ما يشبهه من التورات و الرواية في نور الثقلين 3: 425 عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالإسناد عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن الياس قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: و اقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون و أقبلت السنون المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الاولى بالدراهم و الدنانير حتى لم يبق بمصر و ما حولها دينار و لا درهم الا صار في ملك يوسف. و باعهم في السنة الثانية بالحلي و الجواهر حتى لم يبق بمصر و ما حولها حلي و لا جواهر الا صار في ملكه، و باعهم في السنة الثالثة بالدواب و المواشي حتى لم يبق بمصر و ما حولها دابة و لا ماشية الا صار في ملكه، و باعهم في السنة الرابعة بالعبيد و الإماء حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبد و لا امة إلا صار في ملكه و باعهم في السنة الخامسة بالدور و الفناء حتى لم يبق في مصر و ما حولها دار و لا فناء إلا صار في ملكه، و باعهم في السنة السادسة بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصر و ما حولها نهر و لا مزرعة إلّا صار في ملكه و باعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبد و لا حر إلا صار عبدا ليوسف.-/ فملك احرارهم و عبيدهم و أموالهم و قال الناس ما رأينا و لا سمعنا بملك أعطاه اللّه من الملك ما اعطى هذا الملك حكما و علما و تدبيرا، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر و أهلها؟ اشر علينا برأيك فإني لم أصلحهم لافسدهم و لم انجهم من البلاء ليكون وبالا عليهم و لكن اللّه نجاهم على يدي، قال الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: اني اشهد اللّه و أشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم و رددت عليهم أموالهم و عبيدهم، و رددت عليك الملك و خاتمك و سريرك و تاجك على ان لا تسير الا بسيرتي و لا تحكم الا بحكمي، قال له الملك: ان ذلك ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 538

أسر، ولم يضرره ظلمة الجب وحشته وما ناله-/ أن من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبدا بعد أن كان له مالكا فأرسله ورحم به أمة، وكذلك الصبر يعقب خيرا، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر توجروا» «1». ج سورة يوسف (12): الآيات 58 الى 28 ج‏وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ (60) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (61) وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى‏ أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى‏ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 434 ح 108 في اصول الكافي باسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 539

يَعْلَمُونَ (68) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ آوى‏ إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ (73) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ (78) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلى‏ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81) وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (82) وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58). بين مجيئهم هذا ومجيئهم يومذاك ليجعلوه في غيابت الجب أمة بعيدة من الزمن، علها لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 540

تقل عن عشرين عاما «1» وبعد ما يجتاح الجدب والمجاعة مصر وما حولها بكنعانها، فيحتاج أهلوها إلى فائض غلة مصر المتسامع أنه من السبع السمان الرخاء، «2» (جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فبينه و بين ان بلغ أشده في بيت العزيز سنة او سبع سنين إذ كان حين اشتراه العزيز قرابة التسع ثم بضع‏السجن سبع، ثم السبع الاولى و هي سني الرخاء

(2). و هنا تستمر التورات في الاصحاح 42-/ 43 من التكوين القصص ما نلخصه كالتالي: انه لما عمت السنةارض كنعان امر يعقوب بنيه ان يهبطوا الى مصر فيأخذوا طعاما فساروا و دخلوا على يوسف فعرفهم و تنكر لهم و كلمهم بجفاء و سألهم من اين جئتم؟ قالوا: من ارض كنعان لنشتري طعاما قال يوسف: بل جواسيس أنتم جئتم الى أرضنا لتفسدوها قالوا: نحن جميعا أبناء رجل واحد في كنعان كنا اثنى عشر أخا فقدمنا واحد و بقي أصغرنا ها هو اليوم عند أبينا و الباقون بحضرتك و نحن جميعا أمناء لا نعرف الفساد و الشر-/ قال يوسف: لا و حياة فرعون نحن نراكم جواسيس و لا نخلي سبيلكم حتى تحضرون أخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فامر بهم فحبسوا ثلاثة ايام ثم أحضرهم و أخذ من بينهم شمعون و قيده امام عيونهم و اذن لهم ان يرجعوا الى كنعان و يجيئوا بأخيهم الصغير-/ ثم امر ان يملأ أوعيتهم قمحا و ترد فضة كل واحد منهم الى عدله ففعل فرجعوا الى أبيهم و قصوا عليه القصص فأبى يعقوب ان يرسل بنيامين معهم و قال: اعدمتموني الأولاد يوسف مفقود و شمعون مفقود و بنيامين تريدون ان تأخذوه لا يكون ذلك ابدا و قال: قد اسأتم في قولكم للرجل: ان لكم أخا تركتموه عندي قالوا: انه سأل عنا و عن عشيرتنا قائلا: هل أبوكم حي بعد؟ و هل لكم أخ آخر! فأخبرناه كما سألنا و ما كنا نعلم انه سيقول: جيئوا إلي بأخيكم، فلم يزل يعقوب يمتنع حتى أعطاه يهوذا الموثق ان يرد اليه بنيامين فاذن في ذهابهم به و معهم و أمرهم ان يأخذوا من احسن متاع الأرض هدية الى الرجل و ان يأخذوا معهم اصرة الفضة التي ردت إليهم في أوعيتهم ففعلوا. و لما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على أموره و اخبروه بحاجتهم و ان بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم و عرضوا له هديتهم فرحب بهم و أكرمهم و أخبرهم ان فضتهم لهم و اخرج إليهم شمعون الرهين ثم أدخلهم على يوسف فسجدوا له و قدموا اليه هديتهم فرحب بهم و استفسرهم عن حالهم و عن سلامة أبيهم و عرضوا عليه أخاهم الصغير فأكرمه و دعا له ثم امر بتقديم الطعام فقدم له وحده و لهم وحدهم و لمن عنده من المصريين وحدهم-/ ثم امر وكيله ان يملأ أوعيتهم طعاما و ان يدس فيها هديتهم و ان يضع طاسه في عدل أخيهم الصغير ففعل فلما أضاء الصبح من غد شدوا الرجال على الحمير و انصرفوا. فلما خرجوا من المدينة و لما يبتعدوا قال لوكيله أدرك القوم و قل لهم: بئس ما صنعتم جازيتم الإحسان بالاساءة سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه و يتفأل به: فبهتوا من استماع هذا القول و قالوا: حاشانا من ذلك هوذا الفضة التي وجدناها في أفواه عدلنا جئنا بها إليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدي فضة او ذهبا من وجد الطاس في رحله يقتل و نحن جميعا عبيد سيدك فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا الى عدو لهم و انزل كل واحد منهم عدله و فتحه فأخذ يفتشها و ابتدأ من الكبير حتى انتهى الى الصغير و اخرج الطاس من عدله. فلما رأى ذلك اخوته مزقوا ثيابهم و رجعوا الى المدينة و دخلوا على يوسف و اعدوا عليه قولهم معتذرين معترفين بالذنب و عليهم سيماء الصغار و الهوان و الخجل فقال: حاشا ان نأخذ الا من من وجدنا متاعنا عنده و اما أنتم فارجعوا بسلام الى أبيكم فتقدم اليه يهوذا و تضرع اليه و استرحمه و ذكر له قصتهم مع أبيهم حين أمرهم يوسف بإحضار بنيامين فسألوا أباهم ذلك فأبى أشد الاباء حتى أتاه يهوذا الميثاق على ان يرد بنيامين اليه و ذكر انهم يستطيعون أن يلاقوا أباهم و ليس معهم بنيامين و ان أباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ثم سأله ان يأخذه مكان بنيامين عبدا لنفسه و يطلق بنيامين لتقر بذلك عين أبيهم المستأنس به بعد فقد أخيه من امه يوسف ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 541

وطبعا في أوّليات سنّي السبع الشداد! وها نحن ممن نشهدهم أولاء «فَدَخَلُوا عَلَيْهِ» ويا لروعة المشهد حينذاك بعد هذا الفصل الطويل؟ أتظن أنه لا يعرفهم كما لا يعرفونه؟ كلا! «فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ». تراه كيف عرفهم والفصل طائل، وسعار الملك حائل؟ إنه «عرفهم» كما هي طبيعة الحال في كل مظلوم يعرف ظالمه مهما طال الزمن وتطاولت المحن، فضلا عن يوسف النبي حيث يعرف الأغارب بسيماهم فضلا عن الأقارب، ومن ثم فهذه معرفة قاصدة إلى تعرّف أبويه بمكيدة إلهية، ان يوسف قد اجتباه اللّه كما في تأويل رؤياه، ينبه بذلك أباه، ثم ولم يكن من هؤلاء الملوك الذين يزدهون بزهوة الملك، فيحول بينه وبين إخوته سعاره وكباره! «وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» كما أنكروه حين جعلوه في غيابت الجب، وهم الآن لا يخلد بخلدهم أنه حيّ، وحتى في حياته فأين غلام عبراني يشرى بثمن بخس دراهم معدودة وذلك الملك العظيم في هيله وهيلمانه وحيطة واسعة له من غلمانه، ومهابة مهيبة لسلطانه، وحتى لو عرفوه ف «هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» أن يعرفهم وهم ظالموه وهو في سطوته وجبروته! وقد أخبره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 542

اللّه تعالى بذلك من ذي قبل وهو في غيابت الجب كأوّل ما أوحى إليه «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» وذلك إنباءهم بما فعلوا بيوسف وهم لا يشعرون «هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» (89)؟ فأنّى لهم معرفته من قبل إذ واجهوه لاوّل مرة ولمّا يعرفوه بزمن بعدها؟! في ذلك المشهد الرائع ليس يوسف ليكشف عن نفسه ولا يلمح لهم بحاله إذ لا بد لهم منذ لقاءه من دروس يدرسونها، وبليات يبتلون بها بما قدمت لهم أنفسهم «وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ». وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59). «جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ» الذي كانوا يطلبون وفق بضاعتهم، وطبعا طلب إليهم تعريفهم بأنفسهم وأهليهم حتى يفصح بقوله: «ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» فإن في إفصاحه دونما استفساره تلميحا لهم فاستلهام منهم أنه من هو؟ وعليه في ذلك المسرح التخفي عن كل ملمح ليكيد كيده، فقد أنزلهم لمّا جاءوه خير إنزال، وتركهم يأنسون إليه بكامل الأنس، واستدرجهم حتى عرّفوه بأنفسهم لحد عرف أن لهم أخا من أبيهم لم يأتوا به، فلما جهزهم بحاجيات الرحلة بإيفاء كيل وخير إنزال «قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» ولمّا تلمّح منهم أن أباهم ضنين‏ «1» عليهم بأخيهم، ظنين، وبخاصة بعد افتقاد يوسف أخيه، فليس أمره‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 438 في تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث قال: لما فقديعقوب يوسف عليه السلام اشتد حزنه عليه و بكائه حتى ابيضت عيناه من الحزن و احتاج حاجة شديدة و تغيرت حاله و كان يمتاز القمح من مصر في السنة مرتين في الشتاء و الصيف و انه بعث عدة من ولده ببضاعة يسيرة الى مصر مع رفقة خرجت فلما دخلوا على يوسف و ذلك بعد ما ولاه العزيز مصر فعرفهم يوسف و لم يعرفه اخوته لهيبة الملك و عزته فقال لهم هلموا بضاعتكم قبل الرفاق و قال لفتيانه عجلوا لهؤلاء الكيل و أوفوهم فإذا فرغتم فاجعلوا بضاعتهم هذه في رحالهم و لا تعلموهم بذلك ففعلوا ثم قال لهم يوسف قد بلغني ان لكم اخوان لأبيكم فما فعلا؟ قالوا: اما الكبير منهما فان الذئب اكله و اما الصغير فخلفناه عند أبيه و هو به ضنين و عليه شفيق قال: فاني أحب ان تأتوني به معكم إذا جئتم لتمتارون «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 543

ميسورا لهم، يثني دعوته بتأكيد في ترغيب: «أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ» فلكم إيفاءكم وله إيفاءه ففيه المزيد وكما قالوا بعد: «وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ». «وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» منقطع النظير في إنزال المراجعين وتكريمهم، فلا خوف إذا من بخس مكيال ولا ركس في مقال أو حال. و هنا «خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» يعصف بتهمته إياهم بالتجسس عبر الرياح خلافا لما يروى، وكما في التورات، ولأن إيفاء الكيل لا يلائم رواية الزيادة لأخيهم وأبيه وهذه سنة سنية لاجتلاب القلوب واجتذاب العواطف العادية أو المتفلتة، لترجع إلى طلبة موفي الكيل وخير المنزلين، مهما كانت العقبات والصعوبات والالتواءات ثم يؤكد تأكيده بتهديد: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ (60) لا كيل فضلا عن إيفاءه، ولا إنزال فضلا عن خيره، كلمة قاطعة ملكية لا مرد لها أبدا، جامعة بين الترغيب والترهيب! ولذلك تراهم يتقبلون عب‏ء الإتيان بأخيهم من أبيهم ضرورة المعيشة فإن الضرورات تبيح المحظورات!: قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (61). هناك تراوده امرأة العزيز عن نفسه، وهنا إخوته يراودون عن أخيه أباه، وأنى مراودة من مراودة؟ ومراودتهم هذه في مختلف احتيالاتهم لاستلاب بن يامين كوعد قاطع منهم ليوسف لا مرد له «وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ» المراودة المثمرة والإتيان به في المرة الآتية. و «أباه» هنا دون «أبانا» تلمح أنهم عرفوه بأبيهم وأخ لهم من أبيهم هو أحب إلى أبيه منهم، ولذلك لم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 544

يصاحبهم في رحلتهم هذه، مما يؤيد أنه سألهم عن حالهم وبالهم، حاضرهم وغائبهم، و هو طبيعة الحال في مثل ذلك اللقاء المقصود. و ليؤكد الصديق واقع مطلوبه منهم، ويشجع أباه على إزالة العقبات دون السماح لمجيئه يرجع بضاعتهم بصورة خفية إليهم: وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62). من هنا يبدأ كيد اللّه ليأخذ الصديق أخاه وليبلغ مناه «كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ..» (76)! فلا تثريب على يوسف أو تعييب لماذا كادهم ذلك الطائل الغائل، حيث كان بمرضات اللّه وإرادته شرعة وتكوينا. «و قال» يوسف «لفتيانه» عبيده وغلمانه «اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ» التي سلموها لجهازهم «فِي رِحالِهِمْ» وطبعا بصورة خفية وغير مرئية «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى‏ أَهْلِهِمْ» فإنها التي أدوها، فبطبيعة الحال يعرفونها، على احتمال بعيد ألّا يعرفوها أنها هيه، ولذلك نترجى قريبا «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها ..» فإذا عرفوها تشوّقا لرجوعهم مع أخيهم من أبيهم بداعية ثالثة إضافة إلى ذلك الترغيب والترهيب سلفا «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». و «لعل» الثانية في ترجيّها، علّها ترمي هدفين، أولهما تعلقها ب «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها» حيث الترجي لا يخلّف إلّا ترجيا مثله، وثانيهما تعلقها بواقع المعرفة، فقد يعرفونها، ومع الوصف لا يرجعون، أم لا يستطيعون، فما أحسنه تعبيرا أدبيا في حساب المستقبل إذ لا يحتّم شيئا من الأمرين إلا رجاء على رجاء. فها هم الآن يرجعون إلى أهليهم ومعهم بضاعتهم في رحالهم وجهازهم بإيفاء كيل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 545

وخير إنزال مما يرغبهم، ولكنهم على وعد أن يأتوه بأخيهم مما يرهبهم، عائشين في هذا البين بين الخوف والرجاء، متشاورين في طريقهم كيف يراودون أباهم عن أخيهم، وسابق مراودتهم إياه عن يوسف قد يحول بينه وبين هواهم! هنا ندع يوسف في مصره، ولنشهد مشهد الجمع بينهم وبين أبيهم ماذا يقولون وكيف يفعلون؟ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى‏ أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63). في هذه المرة لا تعني المراودة احتيالا لاغتيال، وإنما اكتيالا لأنفسهم وآخر لأخيهم، ولماذا هنا يتقدم «مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» وهو الأخير في ترهيب بعد ترغيب؟ علّه لأنه الحاسم لموقفهم والمحرض لسؤالهم: لماذا منع الكيل؟ ثم الجواب يضم الأوّلين: «أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» وقد يعني «منع» فيما عناه كيل أخيهم أم أبيهم، فمهما كان أبوهم شيخا كبيرا لا يأتيه، فأخوهم لا يعذر إذا لم يأته فلا كيل له، وقد يشير له «وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ». و لو لا عرضهم لما حصل عن تفصيل لم تكن صلة مقبولة بين منع الكيل وإرسال الأخ للاكتيال، وهنا «أخانا» دون «ابنك» مزيد تأكيد لإرساله بتعطف أخوي، وتأكيد ثان «وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ». و هم بذلك الطلب العارم الجازم يستثيرون كوامن يعقوب حيث وعده من قبل في يوسف نفس الوعد بنفس الصيغة، وقد خالفوه! فكيف يأمن لهم بسابق كيدهم وميدهم؟

ولذلك نجده: 152 قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى‏ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 546

خلوني خلوني من وعودكم الفارغة وكلماتكم البارقة، والعاقل لا يلدغ من حجر مرتين، و قد لدغت لأوّل مرة والجرح لمّا يندمل، فقد أمنتكم على أخيه من قبل حين صدقتكم، فكيف آمنكم عليه الآن، ثم وليس وعد الحفظ منكم بالذي يؤمنني ولو كنتم صادقين، إذ قد تنجرفون بعد صدق أو يحاط بكم على صدق «فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً» من سواه «وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» سواه، فقد لا ترحمونه وهو الراحم، أم ترحمون ويحاط بكم «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ». إنه «خَيْرٌ حافِظاً» له ولأخيه «وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» به وبأخيه، فكيف تقولون في بتّ وقاطعية «وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ»؟ و قد يشير بحفظ اللّه ورحمته بعد التنديد بهم في وعدهم لبعديه‏ «1» أنه لو أرسله معهم فليس إلّا امتحانا وايمانا بحفظ اللّه، دون وعدكم البارق الفارغ. وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65). هنا يبتغون بضاعتهم المردودة إليهم لحجة على ما يدعون ويعدون: «قالُوا يا أَبانا» نحن وأخينا «ما نبغي» بعد من العزيز وقد أوفى لنا كيلنا دون بضاعة حيث ردها خفية، وأنزلنا عنده خير إنزال، ووعدنا مزيدا، ف «هذه» التي تراها وتعرف هي «بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا» ثم من بعد ذلك إذا أرسلت معنا أخانا «نَمِيرُ أَهْلَنا» ميرة الزاد فلا يظلون جياعا «وَ نَحْفَظُ أَخانا» هنا من الجوع وهناك من أية حادثة، كيف لا وهو عزيز على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الأول هل آمنكم و الثاني لستم أنتم بحافظين إذ قد يحاط بكم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 547

العزيز، فحتى ولو أردنا به سوء فهو المدافع عنه، ثم «وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» لأخينا و «ذلك» الميرة والزيادة «كيل» هو «عَلَيْنا يَسِيرٌ» غير عسير. و هذه محاولة تضم في جنباتها ترغيبات وترهيبات، ان كان يعقوب يحب البقية على العائلة ومنهم بنيامين فلا بد له أن يرسله معهم. و قد يعني «يسير» فيما يعنيه-/ يسير من العزيز الذي رد علينا بضاعتنا، ام و «يسير» قليل، وهنا «ذلك» يعني غير ما عناه «ذلك» هناك، فإنه هنا «ذلك» الذي أعطانا من قبل «كيل علينا» على كثرتنا «يسير» قليل، وهو إذا أرسلت معنا كثير حيث «نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ». يبدو هناك من قولهم «أرسله معنا نكتل» وهنا «نَمِيرُ أَهْلَنا ... وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» أنهم اعتبروا أخا يوسف متاعا لهم في حاجة مدقعة يسهلون به ميرة الزاد لأنفسهم ثم «وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» وكما يوسف من قبل «وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» فكل غال ورخيص عندهم فيما يهوونه رخيص بخيس. كما ويبدو من «وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل من حضر كيل بعير، دون ان يبيع المشتري كل ما يريد، وإنما لكل رأس شرط الحضور، او التأكد من محظور لعدم الحضور، وتلك حكمة حكيمة في سنّي الجدب والمحاصرة الاقتصادية، تنظم بها نظام العيشة العادلة للشعب، دون أن تتحكم في مزيد الميرة زيادة مال، او قوة وجلال. أ ترى نبي اللّه يعقوب هل يستسلم بغيه ما يرمون من هدف الميرة وزيادة كيل بعير؟

وهل إن طلب المعاش يبرره هدر نفس محترمة له سابقة من قبل كما في يوسف؟ كلا! قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 548

عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66) ف «لن» تحيل إرساله معهم على أية حال، فليس نبي اللّه يعقوب بالذي يجعل ابنه متاعا لميرة حتى عند الضرورة، فضلا عن هدره نفسا، علما أو ظنا، ولكنه يرسله على شرط يصرح به «حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ» دون أية إشارة إلى ميرة الأهل وازدياد كيل بعير ببضاعة أو دونها. أ تراه كيف يرسله معهم بموثقهم ولا ميثاق لهم كما تبين له من قبل؟ علّه لما كان يعلمه بتأويل رؤياه: «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» أن يوسف موجود الآن بعزة، أو أنه هو العزيز، فبارقة الرؤيا ببارقة النبوة خارقة تخرق حجب الغيب عن يوسف وبعد زهاء العشرين. ثم «الله خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»-/ «وَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ» سياجان على ما قد يحاط به أو بهم، وهذه الثلاث يصاحبها في هذه السفرة طلب الميرة الضرورية، مما يرجح له أن يرسله معهم. و ترى ما هو «مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ» حيث يعتبره أصلا يحوّل مستحيله: «لن» إلى ممكنه الراجح حيث أرسله؟ ثم «وَ اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ» دليل أن موثقهم قول يوثق به، ولا يوثق بقول ما لم يرتبط باللّه من حلف باللّه أو عهد مع اللّه، ولذلك فالوكيل أيضا هو اللّه، وثقة يعقوب بموثقهم وقد نقضوه من قبل علهّا لأنهم تحولوا عن حالتهم الأولى إلى الحسنى، ثم ولم يكن منهم فيها موثق إلّا «إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» كمعاهدة معه لا مع اللّه. و على أية حال أصبح واثقا بموثقهم بسائر الوثائق التي تحوطه لحدّ يرسله معهم غير مجازف ولا هارف أو خارف، وإنما إرسال نبي على بصيرة مما يجوز عما لا يجوز. و لماذا «اللَّهُ عَلى‏ ما نَقُولُ وَكِيلٌ» دون «شهيد»؟ علّه لأنه يعني رباط موثقهم باللّه في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 549

تحقيقه، كما نيط باللّه في عقده «فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». فإرساله-/ إذا-/ كان على ضوء شرعة اللّه، والتكلان فيه على اللّه، فمهما لا يأمنهم يعقوب على ابنه فهو مؤمن باللّه متكل على اللّه فيما يقدم عليه، وقد سمح له في شرعة اللّه، فليس الاتكال على اللّه مما تتعامى معه الأسباب وتبطل ولا التوسل بالأسباب مما يغني عن اللّه، فإنه على كل شي‏ء وكيل، وهو القائل «وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» بجنب القول «وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». لذلك نرى نبي اللّه يعقوب يأخذ في إرساله ابنه بكلّ حائطة، دون اتكالية فيها إبطال الأسباب والتغاضي عنها، ودون تحتيم عليهم أن يأتوه به باستقلال الأسباب، فمحاولة منهم كما يقدرون «إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ» فلا تستطيعون حيطة بكم فلا ترجعون، أم لا يرجع أخوكم، فإنما المحظور التقصير في واجب الإتيان به لا القصور. وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67). و ترى ما هو باب واحد وأبواب متفرقة؟ هل هي أبواب القصر؟ فما هو الفارق بين دخولهم من أبواب متفرقة أم باب واحد كما دخلوا من ذي قبل، أمّا هيه من أبواب؟ قد تعني أبواب القصر المتفرقة خوفة من عين او حسد، ان يحاط بهم جميعا أو الثلاثة كلها فإنها كلها مخيفة، إلا أن «ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» لا تلائم الأولين، إذ لم يحسدوا ولا اخذتهم عين، بل أحيط بهم في أخيهم. «وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ» دليل على خيفة ما عليهم لا مردّ لها، و «ان الحكم-/ المتوكلون» تبصرة لهم منه أن هذه الحائطة ليست لتغني عنكم من اللّه من شي‏ء، ولكن التوسل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 550

بالأسباب لزام كل سلب وإيجاب، على علم أنه «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» لا للأسباب، لذلك «و عليه» لا سواه «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» فالمسموح لنا إنما هو التوسل بالأسباب، لا والتوكل عليها، بل هو على اللّه ف «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ». فالإتكال-/ الاستقلال-/ على الأسباب إشراك باللّه، والاتكال على اللّه فيما له أسباب دون توسل بها انعطال لها يخالف أمر اللّه: «وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» ويخالف تكوين الأسباب في دار الأسباب، فإنما هو توسل صالح بالأسباب المناسبة المعنية لما تروم متوكلا على اللّه، عارفا بأنه «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ». ف «العين حق» «1» وتأثير الحسد حق: «وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ» شرا بفعله عن حسد، ام تأثيرا من نفس الحاسد وكما تؤثر العين، فليست أسباب الشر لتنحصر في أعمال الجوارح، وتنحسر عن أعمال الجوانح، بل هي أقوى منها أحيانا، وكلما كانت الأرواح أقوى في خير أو شر فتأثيراتها كذلك أقوى من خير أو شر، في تقوى أم طغوى. و لئن سئلنا كيف تؤثر العين وأضرابها و «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ»؟ فالجواب أن «لا جبر ولا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 18: 173 قوله صلى الله عليه و آله و العين حق و لو كان شي‏ء يسبق القدر لسبقت العين القدر» وفيه ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يعوذ الحسن و الحسين فيقول: أعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل شيطان و هامة و من كل عين لامة، و فيه روى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله في أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال: ان جبرئيل عليه السلام أتاني فرقاني فقال: بسم اللّه أرقيك من كل شي‏ء يؤذيك و من كل عين و حاسد اللّه يشفيك قال صلى الله عليه و آله فأفقت وفيه روى ان بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت اسماء يا رسول اللّه ان العين إليهم سريعة فأسترقي لهم من العين فقال صلى الله عليه و آله لها: نعم وفيه دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله بيت ام سلمة و عندها صبي يشتكي فقالوا: يا رسول اللّه أصابته العين فقال: أفلا تسترقون من العين. وفي المجمع عن النبي صلى الله عليه و آله ان العين حق و العين تستنزل الحالق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 551

تفويض بل أمر بين أمرين» فكما أن سائر الشرور من سائر الأشرار ليس ليمنعها اللّه تكوينا إلّا لحكمة كما في نار إبراهيم، كذلك شر العين والحسد أماذا. و مع كل هذه التفاصيل في تأثير العين والحسد، فلا عين ولا أثر من عين ولا حسد إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها: وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68). دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة «ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» حيث أحيط بهم في أخيهم من أبيهم، بل وهكذا دخول فسح المجال ل «حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها» وهو لقيا يوسف ولا معدّله ظاهريا إلّا «آوى‏ إِلَيْهِ أَخاهُ» وليس أمرا عاديا إلّا أن يدخل هو من غير الأبواب التي دخلوها، فله أن يستقبل أخاه ويؤويه إليه دونهم من حيث لا يعلمون، ثم «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ» قد لا تمت بصلة لحاجة في نفس يعقوب إلّا أن يكون لقيا يوسف مما علمه كخلفيّة من خلفيات إرسال ابنه ودخولهم من أبواب متفرقة، وهنا يتأكد انه لم يرسله لمجرد موثقهم ليأتنّه به. أما أن دخولهم من أبواب متفرقة مخافة عين أو حسد أو حيطة، هو-/ فقط-/ «حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها» فلا يناسب «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ» وهو كسبب ل «حاجة» وتعليل لها، ولا أن حاجته قضيت بذلك إذ «ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» وليست هذه الحائطة التي تخلفت عن النتيجة حاجة مقضية. إذا فاللامح من جنبات الآية هو أن دخولهم من أبواب متفرقة قضى حاجة في نفس يعقوب، حيث سهل أمر المكيدة الصالحة ليوسف في إبقاء أخيه عنده وإلى لقيا والديه معه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 552

158 «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» أن هذه الأسباب والحياطات في ترتيبها لا يغني عن أصحابها من اللّه من شي‏ء ف «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» وأن دخولهم هكذا قضى حاجة في نفس يعقوب، وأن يعقوب «لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ» من طريقة لقضاء حاجته. و احتمال آخر هو الآخر، أن دخولهم كما أمر ما كان يغني إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها دون أن يعلم، فقد قدم حيطة لرجوع ابنه ما لم يقضه، بل قضى حاجته الأصيلة دون أن يعلم، «وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ..» إذا يعني ان أمره أيّا كان كان عن تعليم إلهي مهما لم يعلم أن النتيجة هي حصول أصل الحاجة. و هذه من الرحمات الخفية الإلهية أنه قد يبتلي عباده الصالحين بما ظاهره العذاب ولكن باطنه من قبله الرحمة، يطلب أمرا ويدعو له ويقدم للحصول عليه كل إمكانياته، ويقضي اللّه له أمرا آخر دونه وهو حاجة أصلية، وما تطلّبه بالنسبة لها كمقدمة من حيث هو لا يعلمها. و هنا ندرس ألّا مغني عن الإنسان أيا كان من اللّه من شي‏ء في الأسباب التي يتوسل بها، حيث الإذن تكوينا في كل خير أو شر انما هو من اللّه ف «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» دون أية علة او اسباب، فهو تمام العلل ومتممها، كما هو خالقها ومعلّلها، دون ان يكون هناك جبر كما لا تفويض، وانما امر بين أمرين. كما وندرس ان على الإنسان تقديم كافة المحاولات والإمكانيات والحائطات للوصول الى مرامه ومرامه دون استقلالية فيها ولا اتكالية عليها ولا على اللّه بترك الأسباب، اللهم إلّا فيما لا حول له ولا قوة فالدعاء من اللّه والاستدعاء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 553

و أخيرا ندرس من «لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ» أن الحائطة في قضاء الحاجة، لا سيما الملتوية الخطرة، أن تؤتى من أبواب متفرقة، فان سدّت باب او أبواب، فهنالك أبواب أخرى او باب. و هذه الحائطة الحكيمة تحلّق على كافة المتطلبات الهامة سلبا وإيجابا، فالذي عنده نقود يخاف عليها، عليه أن يحافظ عليها في مكانات متفرقة، حتى إذا سرقت ام ضاعت من مكان، تظل البقية الباقية محفوظة. إذا فهذه الحائطة ضابطة سارية المفعول في كل الحقول، تبعّد عامليها عن الخسار، ويقربه إلى اليسار، كسبب ظاهري، واللّه من وراءه حفيظ. وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ آوى‏ إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69). «وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ» من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وطبعا من إحدى عشر بابا «آوى‏ إِلَيْهِ أَخاهُ» من أبويه، أتراه يعجل بإيوائه قبل استقبالهم جميعا وقبل كل شي‏ء، و فور دخولهم عليه؟ لا شك انّ ذلك أوّل خاطر يساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ولا يكاد يصبر لشي‏ء إلا أن يؤويه إليه، ففي دخولهم عليه من أبواب متفرقة-/ وهو عليهم رقيب-/ مجال له غير مريب أن يؤوي إليه أخاه قبل أن يستقبلهم، وقد آواه وكلمه غير طائل: «قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» تعريفا له بنفسه في تأكيدات ثلاث، وفرع عليه: «فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» فاترك كل أسى وبؤسى بما كانوا منذ ذلك الزمن الطويل يفعلون بي وبك وبأبينا، فقد حظوت الحظوة التي رأيتها في رؤياي وأولها أبونا «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ..».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 554

هنا يطوي السياق كلما حصل مما ليس له أصل في القصص وعبرة لأولي الألباب، ليواصل ماله أصل، وهو الدرس الذي يلقيه على أخوته ليعتبروا به إن كانوا من أولي الألباب. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70). السقاية هي المشربة وطبعا كان لها قيمتها الغالية، لولاها لم يؤذن مؤذن بما أذّن حيث الرخيص لا أذان فيه عند الملك الذي يرد عليهم بضاعتهم من ذي قبل، فلتكن ذهبيته مرّصعة أماهيه؟ و الرحل هو ما يوضع على البعير للركوب والحمل، والعير هم القوم الذين معهم أحمال الميرة أماهيه، اسما للرحال والجمال الحاملة للأحمال ميرة وغير ميرة، فليس العير حميرا لذلك ولمكان «لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ» خلاف ما يروى، وكما في التورات. و هنا جاعل السقاية هو يوسف حيث الضمائر المفردة كلها راجعة إليه، ولكن المؤذن هو غيره لمكان «مؤذن» دون «أذن» كما «جعل» وليس مؤذن-/ بطبيعة الحال-/ يؤذن في هذه المهمة الفادحة إلّا بأمره الصراح‏ «1» إذا فذلك من أذانه حيث كان بإذنه «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» وحتى إذا لم يكن باذنه فسكوته عن ذلك إذن منه صراح وهو الممكّن في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ج 134 في كتاب علل الشرايع باسناده الى صالح بن سعيد من رجل من أصحابنا عن أبي عبداللّه عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه عز و جل في يوسف «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» قال انهم سرقوا يوسف من أبيه الا ترى .. أقول: فقول اللّه في يوسف أيتها العير، دليل انه من مقاله لا المؤذن من عند نفسه، و كذاقول أبي جعفر عليه السلام فيما مضى و لقد قال يوسف «أَيَّتُهَا الْعِيرُ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 555

الأرض، فكيف يترك النهي عن المنكر، وتقريرات الأنبياء كمقالاتهم وأفعالهم حجة، فسواء أكان الأذان الإعلام بإذنه الصّراح وهو طبيعة الحال في موقفه العظيم، أم لم يكن، بخلاف الحال، فهو على أية حال مرضي عنده مباح. لقد كانت حيلة من الصديق حيث يدس صواع الملك في رحل أخيه، تنفيذا لتدبير إلهي يخصه في ذلك المشهد المثير المغير، ولكن ما هو مصير «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ»؟ ولم يكونوا سارقين ولا واحد منهم في رحله صواع الملك! والمكيدة الإلهية بعيدة عن الضعف والكذب والظلم، قاصدة جزاء العدل الوفاق للظلم، كيد عادل قاصد هو جزاء كيد ظالم فاسد كاسد، فما ذا يعني-/ إذن-/ ذلك الأذان المعلن أمام الجماهير، متهما ولد نبي اللّه يعقوب «إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ»؟ فيرتاع إخوته لذلك النداء وهم أولاد النبي وأحفاد شيخ المرسلين! أ كان وجود الصواع في رحل أخيه-/ دون سرقة منه-/ يسمح لاتهامهم كلهم «إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ»؟ وحتى لو كان سارقا في الحق فنسبتها إلى العير-/ وهم أحد عشر-/ تهمة جمعية ومسّ من كرامة البرءاء العشرة، وحق القول في مثله «واحد منكم سارق» حيث لا يسرق صواعا واحدا إلّا واحد، ف «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» إذا فرية قاطعة حتى لو كانت هناك سرقة، ولكنه كذب وفرية إذ لم تكن سرقة بتة، وكما لم تكن البتة! إنهم في هذا المسرح ما سرقوا شيئا، وما كذب الصديق، حيث الحيلة كانت بأمر اللّه، وهو نبي اللّه فكيف يكذب، وإنما ورّى تورية صادقة حيث عنى من «إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» أن سرقوا يوسف من قبل! وكما يروى تصديق الصديق عن الصادق: «ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 556

سرقتم يوسف من أبيه» «1» «ألا ترى انه قال لهم حين قالوا «ما ذا تَفْقِدُونَ» «قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ» ولم يقولوا «سرقتم صواع الملك» إنما عنى انكم سرقتم يوسف من أبيه» وهم لا يشعرون! هنا ندرس من أذان الصديق درسين اثنين: أحدهما أن التورية مسموحة إرادة الإصلاح‏ «2» وإلّا فهي كذب إذ ينتج نتاجه مهما أضمر قائله صدقا، فالضرورات تقدّر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 442-/ القمي في حديث سئل الصادق عليه السلام عن قوله عز و جل «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» قال: ما سرقوا و ما كذب يوسف فانما عنى سرقتم يوسف من أبيه وفيه 444 ح 129 في اصول الكافي باسناده عن عطا عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا كذب على مصلح ثم تلا «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ». ثم قال: و اللّه ما سرقوا و ما كذب ثم تلا «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» ثم قال: و اللّه ما فعلوه و ما كذب. أقول: ما كذب دليل التورية، حيث الكذب كذب مهما كان مسموحا في الإصلاح و الضرورة، وفيه عن علل الشرايع باسناده الى أبي بصير؟؟؟؟ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا خير فيمن لا تقية له و لقد قال يوسف «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» قال: ما سرقوا و ما كذب، أقول: التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم و هي لا تسمح للكذب ما أمكنت التورية كما هنا وفيه 131 عن روضة الكافي باسناده عن أبي بصير قال قيل لابي جعفر عليه السلام و انا عنده ان سالم بن أبي حفصة و أصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجها لك منها المخرج فقال: ما يريد سالم مني أيريد ان اجي‏ء بالملائكة و اللّه ما جاءت بهذا النبيون و لقد قال يوسف عليه السلام أيتها العير انكم لسارقون «و الله ما كانوا سارقين و ما كذب»

(2). نور الثقلين 2: 442 القمي باسناده عن الحسن الصيقل قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام انا قدر روينا عن أبي‏جعفر عليه السلام في قول يوسف: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» فقال: و اللّه ما سرقوا و ما كذب و قال ابراهيم «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ» فقال: و اللّه ما فعلوا و ما كذب قال فقال ابو عبد اللّه عليه السلام ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا الا التسليم قال فقال: ان اللّه أحب اثنين و ابغض اثنين أحب الحضر فيما بين الصفين و أحب الكذب في الإصلاح و ابغض الحظر في الطرقات و ابغض الكذب في غير الإصلاح ان ابراهيم عليه السلام انما قال: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا» ارادة الإصلاح، و دلالة على انهم لا يفعلون. و قال يوسف عليه السلام ارادة الإصلاح. أقول: هنا سميت التورية الصدق كذبا مسموحا للإصلاح، و في روايات اخرى انه ما كذب و ما سرقوا و الجمع ان التورية صدق من جهة تخفى و كذب حسب الظاهر، و لا يجوز الكذب المطلق ما دامت التورية في موارد الإصلاح‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 557

بقدرها، فلا يسمح للكذب المطلق ما دامت التورية ممكنة، ولا ضرورة للّه ولنبي اللّه في كذب والتورية مورّية صادقة! مهما كان «لا كذب على مصلح» «1» و ليست الغاية التي يبتغيها الصديق درسا لإخوته بالتي تبرر هذه الوسيلة الهائلة، فإنها على أية حال مكيدة إلهية وليس اللّه ليضطر في كيده الى ما حرّمه من كذب وتهمة! وثانيهما أن استلاب نفس محترمة هو من السرقة، وكيف لا تكون سرقة واستلاب شطر من دينار سرقة مهما اختلف الحكم بين سرقة وسرقة، وهم قد استلبوا يوسف من أبيه إخراجا عن ملكته وملكة أبيه، بمكيدة خائنة، وهم مجمعون ان يجعلوه في غيابت الجب، أوليست هذه سرقة، وهي أسرق سرقة تضم معها كذبة حين استلبوه، وحين رجعوا إلى أبيهم وقد تركوه فيما تركوه، وألقوه في غيابت الجب إساءة إليه وعلّ فيها هتف نفسه، وهذه ثالوث منحوس تحيط بأصل السرقة، أ ليسوا يستحقون بعد هذه الأربع أن ينسبوا إلى واحدة منها «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» ومهما كان بن يامين بريئا وقد شملته العير، فالعشرة الآخرون كانوا سراقا وخونة، وقد أسرّ يوسف إلى أخيه هذه المكيدة، ليستثني عن العير السارقين، فكان يرضى ذلك التعميم أو يؤكده وصولا إلى «حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها» فهل إن ذلك التعميم مس من كرامته، ام خارج عن أدب التعبير في أحد عشر رجلا واحد منهم بري‏ء والباقون خونة سارقون؟ ..

وقد نحتمل أن يوسف عرّف رجال الحاشية بموقف المكيدة، فلم يكن في ذلك الشمول مهانة لأخيه في نفسه حيث عرفه! ولا في أنفس رجال الحاشية أن عرفهم، وأما في أنفس إخوته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مضت روايته عن الرسول صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 558

فليس ليهمه ذلك أمام البغية المهمة، كيف وقد علموا-/ في ظنهم-/ أنه سرق، وشهدوا بذلك عند أبيهم «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» ولم يكن له في هذه وتلك تغير حالة فان الضرورات تبيح المحظورات، حتى ولو كان ذلك له مخطورا. ذلك ولكن «ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» دليل أنه ما عرفهم ولا حتى المؤذن مكيدته، إذ لو عرفهم كان يعرفه الملك، وكيف يأخذ أخاه بمكيدة يعرفها الملك؟. و لئن سئلنا أن الشرعة الإلهية لا تسمح الجهر بالسوء وقد جاهرهم به، اللّهم إلّا شهادة بشروطها عند الحاكم، ولم تكن هناك من يوسف شهادة ولا حكم؟ فالجواب «لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ» وقد ظلم يوسف بأقبح الظلم فكيف لا يجهر بسوء ما ظلم، وهو كاتم ظلمه طيلة سنين حتى أتى دوره الصالح لمكيدة بأمر اللّه، فقد صدق فيما جاهر وترك كثيرا حين قال مؤذنه: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ». قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72). «وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ» تلمح أن المؤذن أذن وهم يرجعون، ثم أقبلوا عليهم، و «ما ذا تَفْقِدُونَ» إشارة منهم أننا لسنا بسارقين، فلعله فقد عنكم صواع الملك، والمحتملات فيه ثلاث ثالثها أنه عند أحدنا، وقبل ذلك قد يكون تحت طعام أمّاذا، أو عند أحدكم أمن ذا، فلا تحتّموا أننا سرقناه. و رجال الحاشية بمن فيهم المؤذن، هنا لا يكررون القولة الأولى بصيغة أخرى «سرق منا صواع الملك» وإنما «نفقد» مما يؤيد أن الأولى تورية لا تعني سرقة الصواع، ثم رغّبوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 559

«لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ» كجعالة على وجدان الضالة «و أنا» الذي هو طبعا المؤذن «به زعيم» كفيل ضمين، أم قائم بأمره رئيس، وعلى أية حال فقد تكفل هذا الجعل لمن جاء به، ولو كانت سرقة فجزاءه غير جزائه» «جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ». فقد تحول مسرح السرقة وجزاءها إلى مسرح وجدان الضالة وجعله وأين سرقة من جعالة؟. أ ترى «نفقد» ليس كذبا وهم ما فقدوه حيث هو «جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ»؟

نفقد-/ في نفسها-/ تعني ليس هو عندنا، علمنا مكانه أم جهلنا، وغاية أمره أن يكون تورية كالأولى فقدانا على علم بمكانه، ثم والقائلون «نفقد» جماعة فليس هو الصديق ام ولا المؤذن، فقد يجوز أنه ما أخبرهم، ولا المؤذن بما فعل، كما يدل عليه «ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ»، كما وقد يقربه أن الصديق هو الذي «جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» دونهم، ولا حتى المؤذن، فقد أمر أن يؤذن: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» ثم أمروا أن يغيروا القول في مسرح الصراحة «نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ» ثم «وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ» انصراف عن اتهامهم في سرقة الصواع ومجاراتهم في «ما ذا تَفْقِدُونَ» إذا ففتّشوا عنه ولمن جاء به جعله، وطبعا ليس المجي‏ء به عن سرقه أو من الإخوة تفتيشا لأنفسهم بعض البعض، وإنما من غيرهم أم في نفس القصر، مما يؤكد أن تهمة السرقة الجاهرة لا تتجه إلى صواع الملك. و على أية حال فهم مستيقنون ببرائتهم، فيستندون إلى ثقتهم فيهم في ماضيهم وحالهم واستقبالهم: قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ» (73).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 560

قسما باللّه «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» من حالنا وحلنا وترحالنا «ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ» في رحلاتنا إلى هاهنا حالا، و «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» أننا «ما كُنَّا سارِقِينَ» ماضيا، وتراهم كيف تاكدوا من علمهم فيهم لحد الحلف باللّه، برائة لهم في حالهم وما مضى، وهذه حجة صارمة-/ لو علموا-/ على برائتهم في إنكارهم واستنكارهم سرقتهم؟. قد نتخذ ذلك دليلا أنهم عرّفوا الصديق بأنفسهم بما قالوا وما فعلوا وعاملوه من مظاهر الصدق في نياتهم وسجياتهم، ولحدّ يضيّفهم أحسن ضيافة ويضيف لهم إلى متاعهم بضاعتهم، وعلّهم-/ كما يروى-/ ردوها إليه، مما يبرهن أنهم ليسوا من المفسدين في الأرض ولا سارقين! ولأنهم في الحق فاقدون سواع الملك، ولم يبقوا احتمالا أنه مخبوء هنا وهناك أم هو عند أحد من رجال الحاشية، فرغم علمهم بسابق حالهم فالمحتوم-/ إذا-/ أنه عندهم على أية حال، كما المحتوم عند الإخوة خلافه، معلومان يتعارضان، فلا سبيل-/ إذا-/ لتكشّف الحال الغامضة الا تفتيش رحالهم لبيان حالهم فإذا: قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74). فما جزاء من وجد في رحله؟ وترى «إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ» هي في نكران سرقة الصواع؟

وهم فيه صادقون! فلما ذا يهددون!-/ أم في نكران اي إفساد في الأرض وسرقة طول حياتهم؟ اللهم نعم فإنهم فيه كاذبون، ومن أقل الجزاء لهم ألا يرجعوا بأخيهم، فيختجلوا عند أبيهم ويرتكبوا بما ارتكبوا. و لكن حيث كانوا كاذبين فلما ذا الجزاء على من ليس منهم؟ إن ذلك-/ في الحق-/ جزاءهم، وأما جزاءه فهو ظاهرة مورّاة مجاراة لحقل الجزاء، و «جزاءه» مفردا عن «كُنْتُمْ كاذِبِينَ» جمعا، هو أجمل تلميحة لاختلاف المجزي عن الكاذبين، فإن للكاذب-/ لو كان هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 561

بن يامين-/ جزاءه وللصادقين سواه ليس هنالك جزاء ما هم غير عارفين أنه سرق. فحصالة المعني منها: فما جزاء من وجد في رحله إن كنتم أنتم كاذبين، لا من وجد في رحله فإنه صادق هنا وعلى طول الخط، وإلّا فليكن «إن كان كاذبا» ولأنه لم يكن كاذبا لم يكن وجدانه في رحله يسمح لأن يؤخذ إلّا بكذب صراح في حقه أنه كاذب دون مجال في ذلك لأيّة تورية. قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75). و قد حكموا حسب شرعتهم أن جزاء السارق هو نفسه أن يسجن أو أن يسترق، و «الظالمين» تعمم هذا الحكم إلى سائر الظالمين بحق الناس. و لماذا التكرار في «جزاءه» مبتدء مرة وخبرا اخرى؟ علّه للتأكيد انه هو جزاءه لا سواه، أم هو وسواه، إنما هو جزاءه ليس إلّا إياه. و بطبيعة الحال كل هذه الحوار كان بإذن يوسف ومنظره ومسمعه فإنه من كيده المسموح بإذن اللّه: «كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ» ولكن من هذا الذي يمدّ يده إلى أوعيتهم تفتيشا؟ ليس ذلك إلّا يوسف نفسه إكراما لبيت النبوة واحتشاما للإخوة، ولأنه هو الذي «جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» فليكن هو الذي يستخرجه بخاصة كيده من وعاء أخيه: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَع دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76). بدأة بديعة تذود عنه كل تهمة وريبة، فبدءه بوعاء أخيه مريبة قريبة، واستخراجه منه بين أوعيتهم مريبة بعيدة، ولكن استخراجه منه بعد أوعيتهم كلهم تطوي كل ريبة وتزيل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 562

كل شبهة وتهمة، أن هناك مؤامرة وحيلة مدروسة. «كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ» فكل ما حصل فيما هنالك من مكيدة وتورية كان من كيد اللّه ليوسف، ما لولاه ل «ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» اللّهم إلّا بدينه أو دينهم، وقد حكموا «هو جزاءه» فليأخذه الصديق إذ كانوا هم كاذبين، وهو في الحق جزاء كذبهم، وحسب الظاهر جزاء من وجد في رحله. «ما كانَ لِيَأْخُذَ ... إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» وقد شاء اللّه وفق شرعته وارادته في مكيدته، كيد دون اي ضعف او كذب او ظلم، بل هو شطر من جزاءهم عن مربع ظلمهم في يوسف، فقد «مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» و «دِينِ الْمَلِكِ» كما سلف دليل لا مردّ له أن ذلك الكيد كان خفيا عمن سوى الصديق. و انه لكيد يرفع من كيان يوسف ويضع من كيان إخوته «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ» مهما تظافرت عساكر خفضته وضعته، «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ». و ترى وما هي الصلة بين «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» وما قبلها؟ علّها لأن الإخوة كانوا في هذه الرحلة كلهم عيونا مفتّحة حفاظا على أخيهم ليأتنّ به أباهم، حاسبين لكل صغيرة و كبيرة حسابها، ولكن الصديق بوحدته فوقهم في علم، ما لم يكونوا له حاسبين، ثم وهذه ضابطة سارية في حقل العلم إذ ليس له حد ولا حدود، ففوق كل ذي علم عليم حتى يصل إلى علم بلا حدود، فلا فوق له ولا قرين حيث اللّانهاية لا تتكرر. لذلك لا يحق للعالم-/ أيا كان-/ زعمة الزعامة العامة في حقل العلم وإن في تخصص خاص، فعلّ فوقه عليم، حتى وإن كان نبيا يوحى إليه، إلّا من أوحي إليه أن ليس فوقه في كل الخلق عليم كالرسول محمد صلى الله عليه و آله اللهم إلّا ربه تعالى جدّه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 563

ف «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ» تحكم برفعة الصديق عليهم في درجات ومنها درجة العلم ف «فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» وكما فوق كل ذي فضل فاضل، حتى يصل إلى خالق الدرجات والفضائل فلا فوق له في أي‏شي‏ء ولا قرين حتى يقارنه فضلا عن أن يفوقه. و قد «سأل رجل عليا عليه السلام عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي عليه السلام أحسنت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم» «1» و لا يعني ذلك الجمع إلّا خطأه في مسألته، وإن كان صواب فهو قول اللّه «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فانا فوقك علما كما أن فوقي عليم حتى ينتهي العلم إلى اللّه، فمنه نبدأ وإليه نعود. قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77). هنا-/ ولكي يخلصوا عن الورطة نجيا-/ يظهر كامن حقدهم الدفين على يوسف وبنيامين، يجعلونهما في خط دون خطهم تبرئة لساحتهم أنفسهم: «إن يسرق» هو فله سابقة من أخيه من أمه وأبيه «فقد سرق أخ له من قبل» فليسرق هو من بعد نسخة طبق الأصل، حيث الأم لها دورها في التربية مهما اشتركنا في أبينا. و تراهم هنا يصدقون وهم في ورطتهم، وقد كذبوا من قبل لاستلاب الصديق عن أبيه وهم في حريتهم؟ إنهم يعنون بهذه الفرية أن يلطّخوا ساحة أخويهم من أبيهم فيضيفون تهمة سرقة لأخ له من قبل إلى هذا الذي ظنوه سارقا من بعد، وكأنهم لا يشعرون أنهم يكذبون بذلك قولتهم من قبل: «وَ ما كُنَّا سارِقِينَ» ضاربة إلى أعماق الماضي إلى الحال، فكيف الحال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 28-/ اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال سأل رجل ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 564

في سرقة في الحال وأخرى يدعونها في الماضي؟ أجل هناك شي‏ء نتلمح من «أسرّها» فإنها لا مرجع لها إلّا سرقة مستفادة من فعلها، فقد «أسرها» هنا «يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها» بعينها «لهم» لكيلا يتكشف أمره هنا حتى حين، وإنما لمّح بصيغة عامة لشر مكانهم في قولهم وما فعلوه من قبل، وعلى ضوءه لخير مكانه في قوله فيهم وما يفعله الآن: «قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً» ثم أرجع العلم بما يصفون من سرقة سابقة إلى اللّه «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ». ففي ذلك الموقف نتلمح من كلام الصديق «أَنْتُمْ شَرٌّ ..» وقول اللّه فيه «فَأَسَرَّها ... وَ لَمْ يُبْدِها» أنه كانت له سرقة ولكنها صالحة وليست شريرة طالحة، فلو أنهم كانوا في قولتهم عنه صادقين، لم تكن-/ في الحق-/ تثبت عليه إلّا فضيلة لا رذيلة، ولكنهم عرضوها هنا رذيلة لو أنهم يعنون تلك السرقة الفضيلة. و علّها ما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله «سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبي امه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك إخوته» «1» فهذه أمّاهيه من سرقة لا تحمل منها إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 28-/ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و آله في قوله تعالى: ان يسرق فقد سرق‏أخ له من قبل قال: ..، و اما ما يروى انه كانت لإسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء و الأكابر و كانت عند عمة يوسف و كان يوسف عندها و كانت تحبه فبث إليها أبوه ان ابعثيه إلى و أردّه إليك فبعثت اليه ان دعه عندي الليلة أشمه ثم أرسله إليك غدوة فلما أصبحت أخذت المنطقة فربطته في حقوه و ألبسته قميصا و بعثت به اليه و قالت سرقت المنطقة فوجدت عليه و كان إذا سرق احد في ذلك الزمان دفع الى صاحب السرقة فأخذته فكان عندها .. و قد نقله في نور الثقلين 2: 444 عن الخرائج و الجرايج باسناده عن داود بن قاسم الجعفري قال: سئل ابو محمد عن قوله تعالى: و ان يسرق، و عن تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام قال قال الرضا عليه السلام كما هو المتن الذي نقلناه، و أخرجه مثله في الدر المنثور 4: 28 بعدة طرق عن جماعة دون إسناد إلى النبي صلى الله عليه و آله. أقول: و لكنه لا يلائم أصولنا المستفادة من الكتاب و السنة، (1) فقد كان يوسف عليه السلام دون التكليف و لا حكم لسرقة الصغير (2)، و مع الغض عن الصغير فكيف يقبل نبي اللّه يعقوب شهادة امراة واحدة على ابنه الذي يعرفه بصدق و صفاء؟ (3) و ان يوسف حسب الآيات كان عند يعقوب حتى اخذه منه اخوته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 565

لفظتها، كما المكيدة من اللّه أماهيه من أفعال صالحة يعبر عنها بعبارات متشابهة فتفسرها الآيات المحكمة. فالسرقة قد تكون واجبة حيث يضر المسروق بصاحبه ولا يتخلى عنه، فليسرق منه نجاة له عن ورطته، اي يؤخذ منه ما يضره من مال او حال على غفلة منه صدا عن ايّ تمنّع. ثم «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ» ذود عن كرامته ما يمسها من سرقة محرّمة، رجعا لشرها إليهم وأنهم يجهلون ما يصفون او يتجاهلون، وهنا أخذوا يلتجئون إليه ويسترحمون: قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ (78) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» (79). و نرى الصديق هنا لا يلفظ بشطر كلمة تمس من كرامة أخيه حتى في تورية إذ يقول «مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ» دون «من سرق متاعنا» ثم «متاعنا» دون «صُواعَ الْمَلِكِ» تحمل تلميحة مليحة-/ فيما تحمل-/ أن أخاه هو متاعه، متعة معنوية بلقاء أخوي ممتّع! فقد وجدنا متاعنا هذا عنده، وهو نفسه الغالية، كما وجدنا صواع الملك عنده، واين متاع من متاع؟ و في التعبير عن يوسف ب «العزيز» دليل على انه أصبح مكان العزيز بعزله، او موته، وأنه غير الملك لاختلاف التعبير مهما ملّك ما كان يملكه الملك حيث طوي عن ذكره كأصل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 566

واندرج درج الرياح. و «إِنَّ لَهُ أَباً» استعطاف له خاص أن له مكانة عند الأب ليست لنا، فكأنه هو-/ فقط-/ ابنه، «فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ» كيلا يأسى بفقده أبوه الشيخ الكبير، فأجاب عن اقتراحهم «مَعاذَ اللَّهِ ... إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» أن نأخذ بديله غيره، وهو متاعنا وبغيتنا، وهو الذي وجدنا متاعنا عنده. أ ترى أن ذلك-/ في الحق-/ كان ظلما ولا سرقة في البين حتى يثبت حق أصلا او فرعا؟ إنه مجاراة لهم فيما قالوه وقرروه: «جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ» تورية في مسرحه. و «إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» قد تعني تورية، لو أنا تركنا «مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ» ظلمنا أنفسنا فانه هو بغيتنا ومتاعنا في ذلك الكيد الأمين المكين، كما وظلمنا حسب دين الملك «ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» وكما في دينكم، مثلث من الظلم مجاراة، مهما انفلت البعض منها مواراة، فقد صدق الصدّيق في «إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» على أية حال! و تراهم كيف يستفدونه بأحدهم وهم من نعرفهم من شقوة ليوسف من قبل ولأبيهم؟

علّه لأن استلاب يوسف من أبيه كان عن حقد لا يعرف شفقة إلّا شقوة، وأخذهم لأخيه لم يكن إلّا شفقة للعائلة ككلّ، وقد آتوا أباهم موثقهم من اللّه ليأتنّه به، ففدوا بأحدهم مكانه تخلصا عن ورطة مستقبلة أمام أبيهم، وهم عارفون بعض الشي‏ء أن العزيز ليس ليأخذ أحدهم مكانه. ثم وما هي الرباط بين «فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ» و «إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً»؟ «له أبا» تختصه بأبيهم اكثر منهم، كأنه فقط ابنه، فهذه زاوية أولى لاستعطافه، ثم «شَيْخاً كَبِيراً» هي الثانية، حيث الشيخ المتقدم في العمر أحوج إلى ولد يؤنسه من سواه، ويزيده انعطافا كونه شيخا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 567

كبيرا بساير معانيه، محتدا وعلما وايمانا وعائلة وعشيرة، فهو يستحق العطف من جهات شتى، ومن ثم الزاوية الثالثة «إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ» وهنا أظرف ظروف الإحسان، ويعني الإحسان فيما يعني إحسانا يناسب تحرير رق، ولأقل تقدير «فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ»! وقد كان-/ كما يروى-/ انه حرّر نفرا عظيما ممن شراهم الطعام بأنفسهم حين نفدت بضائعهم. و ما أجمل جواب الصديق وأحوطه إذ لم يقل «معاذ الله ان نأخذ بريئا بجريرة سارق»، وإنما «أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ» ثم يعتذر عن كل هذه الزوايا المتعطفة ب «إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» وهل يظلم المحسن؟ أم إن غاية الإحسان تبرر وسيلة الظلم؟!. فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (80). الاستياس هو من اليأس والإياس، ولأنه استفعال فقد يزيد على «ايئسوا» وعلّه تطلّب الإياس، وما أدقه تعبيرا وألطفه على حالتهم الراجية، المتعمقة في قلوبهم، المستكنة في افئدتهم، لحدّ ما كان يخلد بخلدهم يأس عن إحسان الصديق، ولكنه قطع كل آمالهم بكلمة تهديد: «إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ» حيث تهدّدهم فتحدد موقفه منهم مما آيسهم، وكأنهم حينذاك تطلّبوا الإياس من أنفسهم رغم ما كانوا يظنون، كما وخوفهم، ولذلك «خَلَصُوا نَجِيًّا». و «نجيا» تستعمل جمعا كما هنا، ومفردا: «وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا» (19: 52) وهي واوية تعني النجوى، ويائية تعني النجاة، وقد تعنيهما هنا «نجيا» لمكان «خلصوا» فالثانية النجاة، وحيث «قالَ كَبِيرُهُمْ ..» فالأولى النجوى، ولو عنت نجيّ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 568

النجوى فالصيغة الفصحى-/ إذا-/ النجوى نفسها كما: «وَ إِذْ هُمْ نَجْوى‏» (17: 47). «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» من يوسف أن يسمعهم ومن أخيه أن يرده إليهم «خلصوا» من حضرته على تخوف أن يلحقهم مزيد مما لحقهم «نجيا» نجاة من ملاحقته، ونجوى بينهم في أمرهم كيلا يسمعهم هؤلاء فيما يتناجون، ومن نجواهم «قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ»؟ أ ترى لماذا «أباكم-/ عليكم-/ فرطتم» تغاضيا عن نفسه وقد كان معهم فيما كان منهم وهو كبيرهم؟ علّه إشارة إلى أن كبيرهم هذا ما كان ليرضى عما فعلوا، ويشهد له أنه حملهم على أن يجعلوه في غيابت الجب، فلا يقتلوه، ولا يطرحوه أرضا ولا يلقوه في غيابت الجب، بل يجعلوه «يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ». فهو مهما كان يشاركهم بعض الشي‏ء في نفي الصدّيق، كان أخفهم اجتراما بحقه وأثقلهم احتراما له، يحاول في ت‏آمرهم عليه، الحفاظ على نفسه وسلامته، اقتصارا على الأقل فيما يرمون، وعلّه ان لم يسايرهم بعض الشي‏ء وأخبر يعقوب بت‏آمرهم عليه، قضوا عليه. علّه لذلك كله تحق له هذه المصارحة في مثلثها: «أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ ... وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ» فقد كان التفريط في يوسف منهم دونه، وبطبيعة الحال «مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ» مأخوذ عليهم دونه، أو أن تفريطه لم يكن فارطا فالتا مثلهم، وأن موثقه لم يكن كموثقهم، ولذلك نراه هنا لا يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم اللّه، مما يدل على أن «مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ» يشمله مهما كان في أخفه. ثم «أبي» دون «أبونا» هي رابعة الأضلاع في تلك المفاصلة بينه وبينهم في التفريط والميثاق، فهو «أبي» فوق ما هو «أبوكم» حيث أراعي الحرمة الأبوية له وأنتم لا تراعون،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 569

فأنا-/ إذا-/ ناظر أحد أمرين «حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي» لكي أبرح الأرض للقائه دون اختجال لمكان برائتي «أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي»: بخلاص أخي فأبرح معه الأرض إلى أبي، أو يوحي إلى أبي برائتي أنا فيرضى عني، أم-/ ولآخر تقدير-/ بموتي حتى لا أرى أبي كئيبا ينظر إليّ نظرته إلى من خانه وشانه «وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» لا يحكم إلّا خيرا. ثم بعد هذا التنديد الشديد بهم يأمرهم بالرجوع، ويرشدهم كيف يواجهون أباهم في مقال: ارْجِعُوا إِلى‏ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (81) وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (82). «ارجعوا» دوني أنا إذ لا أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي «إِلى‏ أَبِيكُمْ» دون أبينا، حيث المقام مقام استنهاض الرحمة الأبوية لهم دونه، فانه ليس معهم لا في رجعهم ولا في كل ذنبهم «فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» كأوّل قالة لهم بعد السلام والإكرام جبرا للمفاجأة من فقده، حجة لهم حاضرة علّها تقنع أباهم بفقده، ولأنه ليس ليقبل هذه التهمة الوقحة لابنه الحبيب يحاولون تثبيت دعواهم بما حاولوا. أب مفجوع بابنه يوسف من قبل، يفضى إليه بنبإ فظيع لابنه الثاني، وأفظع من فقده، فرية السرقة، فليواجهوه في ذلك المشهد الرعيب الرهيب بحجة قيّمة تعذرهم، وتسد كل منافذ ظنة الخيانة عنهم وقد فعلوا: «وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا» كأنه جواب عن أسؤلة مطوية كالتالية: لماذا شهدتم بحكم السارق في شرعتنا ليجعلوه مسكة في إمساكه، ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا؟ أو شهدتم بسرقته لديهم فأمسكوا ولدي أنا إمساكا عنكم؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 570

والجواب: «وَ ما شَهِدْنا» بحكم شرعتنا «إِلَّا بِما عَلِمْنا» منه فلا محظور، وإلا بما علمنا أنه لم يسرق ولذلك شهدنا، و «إِلَّا بِما عَلِمْنا» انه سرق لوجود الصواع في رحله، «وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ» ما كنا نحفظ غيب أنه سارق حتى لا نأخذه معنا، او لا نشهد بحكم السارق عندنا حفاظا عليه، ولا للغيب المتخلف عن علمنا بانه سرق لو أنه لم يسرق إذ لا نؤمر إلّا بما علمنا دون الغيب الذي جهلنا، فقد كانت هذه الشهادات الثلاث «بِما عَلِمْنا» شهادة بالحكم، وشهادة بالسرقة عندهم وأخرى عندك، والعلم عاذر في الشهادات مهما تخلف عن الواقع إذ «ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ». «وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها» عن مسألتنا «وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها» وهم كلهم يشهدون لنا: «وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» حتما فيما نقول ونشهد. و لكن ذلك شهادة بحكم الشرعة بما علموا، فكيف يشهدون بالسرقة بما علموا كما يدعون وهي بحاجة إلى شهود السرقة، فلكلّ مشهود به شهادة تخصه، كما ويندد يعقوب بشهادتهم هذه: «قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ..» سولت أمر السرقة في أخيه حين قلتم فيما شهدتم: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..» شهادة ذات بعدين بعيدين عن أي‏علم أم أية حجة شرعية، فكيف شهدتم أن يوسف سرق من قبل، ثم كيف شهدتم أن أخاه سرق بمجرد ما وجدتم الصواع في رحله، وعلّهم جعلوه في رحله ليأخذوه، فلم تكن هذه الشهادة لا عن شهادة ولا عن علم «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ..». هنا علم، وهناك شهادة، وهنالك غيب، فنحن وإن كنا لا نؤمر بالغيب، فان أمره بيد من يعلم الغيب، ولكن الشهادة هي عوان بين العلم والغيب، وأكثرها توافق الغيب، فالعلم غير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 571

المسنود إلى شهادة وحضور في المعلوم المشهود به، قد يحصل من تسويل نفس، ممن له نكاية على المشهود، فيحصل له علم بقرائن غير قطعية، وحتى إذا كانت بقرائن قطعية فليست كالشهود لدى الجريمة، فلا حجة فيه على المتهم بجريمته. و كما أن الشاهد لدى الحاكم ليست له شهادة بعلم إلّا سنادا إلى شهوده وحضوره على شروطه، كذلك الحاكم نفسه ليس له حكم بعلمه، إلّا بشهادة صالحة، وكما هو ثابت بنصوص الكتاب والسنة. ج سورة يوسف (12): الآيات 83 الى 29 ج‏قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى‏ عَلى‏ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 572

(92) «1» قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83). «قال» ليس كما تزعمون «ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا» فلا علم هناك «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» وزيّنته فأصبح علما عن تسويل فهو ظنّة رديئة «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» وهي كلمته الأولى يوم فقد يوسف، ولكنه هنا يضيف إليها وطيد الأمل: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً» والجميع هم الأخوان وكبيرهم الذي ما برح الأرض «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» مما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا تستمر التورات في القصة تاركة قصة رجوعهم الى أبيهم بابقاء بنيامين عند يوسف قائلة بعد ذكرالتماسهم ان يرسل معهم أخاهم: «فلم يستطع يوسف ان يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ اخرجوا كل انسان عني فلم يقف احد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون و سمع بيت فرعون و قال يوسف لإخوته: انا يوسف ا حيّ أبي بعد؟ فلما يستطع اخوته ان يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه-/ و قال يوسف لإخوته تقدموا الي فتقدموا فقال: انا يوسف أخوكم الذي بعتموه الى مصر و الآن لا تتأسفوا و لا تغتاظوا لأنكم بعتموني الى هنا لاستبقاء حياة أرسلني اللّه قدامكم لأن للجوع في الآن سنين و خمس سنين ايضا لا يكون فيها فلاحة و لا حصاد فقد أرسلني اللّه قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض و ليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم ارسلتموني الى هنا بل اللّه و هو قد جعلني أبا لفرعون و سيدا لكل بيته و متسلطا على كل ارض مصر. اسرعوا و اصعدوا الى أبي و قولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: انزل الي لا تقف فتسكن في ارض جالسان و تكون قريبا مني أنت و بنوك و بنو بنيك و غنمك و بقرك و كل مالك، و أعولك هناك لأنه يكون ايضا خمس سنين جوعا لئلا تفتقر أنت و بيتك و كل مالك و هوذا عيونكم ترى و عينا اخي بنيامين ان فمي هو الذي يكلمكم و تجزون اني بكل مجدي في مصر و بكل ما رأيتم و تستعجلون و تنزلون بابي الى هنا ثم وقع على عين بنيامين أخيه و بكى و بكى بنيامين على عنقه و قبل جميع اخوته و بكى عليهم-/ ثم تقول-/: انه جهزهم احسن التجهيز و سيرهم الى كنعان فجاؤا أباهم و بشروه بحياة يوسف و قصوا عليه القصص فسر بذلك و سار باهله جميعا الى مصر و هم جميعا سبعون نسمة و وردوا ارض جالسان من مصر و ركب يوسف الى هناك يستقبل أباه و لقيه قادما فتعانقا و بكى طويلا ثم أنزله و بنيه و أقرهم هناك و أكرمهم فرعون إكراما بالغا و آمنهم و أعطاهم ضيعة في أفضل بقاع مصر و عالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة و عاش يعقوب في ارض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة. أقول و هذا كله ملخص ما فصله التورات يقارن بما في القرآن ليرى البون البعيد بين الكتابين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 573

يدل على أنه بعد راج في حياة يوسف و «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» ياتي على لسانه أوّل ما اوّل رؤياه:

«وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» وفيما هنا ثاني مرة، ثم يوسف هو الذي يثلّثهما عند اللقاء: «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (100) وذلك مما يوحي بتأكد الرجاء وأن المرجو قضية علمه تعالى وحكمته. أ تراه يرجوه بما أوحي إليه؟ علّه نعم، وعلّه لا، حيث الرجاء باللّه والأمل الوطيد في اللّه شعور يتجلّى دوما في قلوب الصفوة المختارة، لا سيما وهو الذي أوّل رؤياه: «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» ولكنه أمل راجح دون يقين، فعلّه يجتبيه دون علمه بمكانه، وعلّه ميت الآن بعد تحقق رؤياه، ولكن العلّات على علّاتها ليست لتزلزل من صرح رجاءه، وقد يأتي نبأعلمه بحياته بعد حين في آيته: «يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ ..». وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى‏ عَلى‏ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84). هنا يختص يوسف بذكراه إذ لا يتأكد بعد من حياته أو أن يأتيه، ولكن أخاه وكبيرهم بعد موجودون بمكان معلوم، ثم ويوسف هو القمة العالية الغالية في حبّه، وما فاصل الزمان البعيد بالذي ينسيه، لا سيما والحادث الجلل الجديد يذكر جلل القديم. «وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ» اعتراضا عليهم وإعراضا عنهم، منقطعا إلى اللّه «وَ قالَ يا أَسَفى‏ عَلى‏ يُوسُفَ» إذ ما هوّنت من مصابه طائل السنون، والنكبة الجديدة في أخيه ثم كبيرهم تجدده أكثر مما كان طيلة السنين، وذلك غاية الأسف والأسى على أعز الأبناء وأغرهم الذي تتلوه غائلة فوق غائلة، فهنا «وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ» حيث أذهب الحزن بسواده فانظّم في سائر بياضه، ولكنه على حزنه الذي بلغ به إلى العمى لم يكن ليشكوا حزنه إلى أحد إلّا للّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 574

«فَهُوَ كَظِيمٌ» غيظه وحزنه عمن سوى اللّه، هضيم عب‏ء مصابه للّه: نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ» ممن أحزنني وخانني لا من اللّه. أ ترى أن الحزن، وعلى أثره البالغ منه: ابيضاض العين، ذلك لا يلائم الصبر الجميل؟ إنه لو كان شكوى من اللّه لخرج عن الإيمان باللّه، فضلا عن الصبر الجميل، ولكنه إذا كان شكوى إلى اللّه من بأس الظالمين، فهو قضية الإيمان، وصبر جميل، حيث لم تخرجه عن الرجاء باللّه والأمل في رحمة اللّه. و في نائبة يوسف واجهتان، من إخوته خيانة وظلما حسدا من عند أنفسهم، ففيها «وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى‏ عَلى‏ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ ..». و أخرى تجاه اللّه وفيها «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... فَهُوَ كَظِيمٌ ... نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ... اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ..» وكلتاهما قضية الإيمان، رحمة ابويّة على أفضل أولاده، ونقمة على حاسديه، وثقة وإيماناً باللّه ورجاء به «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً». وقد صدق رسول اللّه صلى الله عليه و آله في قوله: «كان له من الأجر أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار» «1»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 4: 31-/ اخرج ابن جرير عن الحسن عن النبي صلى الله عليه و آله انه سئل ما بلغ وجد يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين ثكلى، قيل: فما كان له من الأجر؟ قال: اجر مائة شهيد ... وفي نور الثقلين 2: 452 عن القمي عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال له بعض أصحابنا: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين ثكلى، وفيه في الخصال عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلي في اليوم و الليلة الف ركعة-/ الى ان قال-/ و لقد بكى على أبيه الحسين عليه السلام عشرين سنة ما وضع بين يديه طعام إلّا بكى حتى قال له مولى له: يا بن رسول اللّه صلى الله عليه و آله اما آن لحزنك ان ينقضي؟ فقال له ويحك ان يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابنا فغيب اللّه عنه واحدا منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه و احدودب ظهره من الغم و كان ابنه حيا في الدنيا و انا نظرت الى أبي و اخي و عمي و سبعة عشر من اهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 575

و ما هو موقف الفاء في «فَهُوَ كَظِيمٌ»؟ علّه كعلة ل «ابْيَضَّتْ عَيْناهُ» فالحزن الظاهر المتظاهر يخفف عب‏ء الباطن المتكاثر، وأما إذا كان مكظوما لا يظهر، فهو صادر عن القلب ووارد في القلب، فيحرق القلب ويؤثر على القالب، ولماذا «عيناه»؟ طبعا لمزيد البكاء، وطبعا ابيضّ سائر شعره مع عينيه، واحدودب ظهره، وكل ذلك لعظم الحزن وأنه كظيم لا يظهر حزنه. قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (85). «تفتؤ» هنا منفي بأداته المحذوف (لا)، المدلول عليها، بترك اللّام ونون التأكيد في جوابه، فإنهما لزامان الجواب القسم في الإثبات. «قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا»: لا تنقطع «تَذْكُرُ يُوسُفَ» آسفا حزينا كئيبا، كلمة حانقة خانقة مستنكرة، ظاهرها فيه الرحمة تعطفا على أبيهم، وباطنها من قبله العذاب تنديدا شديدا بأبيهم، كيف يأسى على يوسف الفقيد منذ سنين؟ تدأب في ذكر يوسف «حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً»: مشرفا على الهلاك كما هلكت عيناك «أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ» والحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه، وهذه هلكة الإنسان في كيانه قبل هلاكه بموته، فلا هو حي كالأحياء، ولا ميت كالأموات! وهكذا يتظاهرون لأبيهم في مظهر الناصح المشفق ألّا يتذوّب بذكر يوسف الفقيد حيث ذهب دون عودة، ولكنه يرد عليهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 576

ردا حازما حاسما جازما: أنه لا يشكو إليهم ما كان منهم ولا يجزع لديهم: لَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (86). البث المقارن للحزن هو الحزن المبثوث حين يغلى مرجله فينبث باختيار ودون اختيار، حيث يظهر في ملامح الوجه وفلتات اللسان ومعارض الأركان، والحزن همّ دونه حيث يملك ستاره، وشكوى البث والحزن هي الاختياري منهما وقد اختاره يعقوب «إلى اللّه» لا سواه، لمكان «إنما» فلا يشكوهما إلى أحد حتى أهله وولده، وهذه هي قمة الشعور بمقام الربوبية في قلب منقلب إلى اللّه، موصول النياط باللّه، في لألاء باهر وجلال غامر. فليس بعد الزمان، واستنكار الولدان لذلك التطلّع الدائب بعد هذا الأمد البعيد، ليسا هما وأمثالهما من مؤيسات بالتي تؤثر في أمل الرجل الصالح الواثق بربه، فإنه يعلم من اللّه ما لا يعلمون هؤلاء المحجوبون. و لذلك يدأب في شكواه بثا وحزنا إليه، ويمضي حياته عليه، ولحد ابيضاض عينيه من كمد البكاء دون لفظة قول ولا لحظة عين ولا أية إشارة في شكواه إلى غير اللّه، وهنا نضرب بالرواية القائلة خلاف الآية عرض الحائط حين تقول: كتب يعقوب بكتاب له إلى العزيز يشكو فيه كل شكواه، فحتى لو كان يعلم أنه يوسف ما كان له أن يشكو إليه، ولكنه لم يعلم‏ «1» أنه هو فكيف يشكو إلى العزيز الذي هو بطبيعة الحال مشرك ويستجدّه ويسترحمه في نفسه؟ ويطلب منه أن يتصدق عليه وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة أنزلت به فإنما يشكو الله ومن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 461 ج 182 في امالي شيخ الطائفة باسناده الى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: فلما كان من أمر، اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب الى يوسف و هو لا يعلم أنه يوسف ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 577

تضعضع لغني لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله ..» «1» «و من بث لم يصبر» «2» و قد قال يعقوب «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» فقد صبر جميلا ولم يبث إلا إلى اللّه لا سواه، وهكذا يكون من عند اللّه، مطمئنا باللّه، مجاهدا في اللّه، جاحدا لغير اللّه إلّا في أمر بأمر اللّه، وكما أمرهم: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87). فليست الثقة باللّه والتكلان على اللّه بالذي يبطّل التوسل بالأسباب، ويعطل ابتغاء الوسيلة إلى رحمة اللّه وكما قال اللّه: «وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»! وهنا يتجلى-/ وضح الشمس في رايعة النهار-/ أنه كان على علم بحياة يوسف‏ «3» وطبعا بوحي من اللّه، وكما اوّل رؤياه في الأوّل: «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ..» وقد كرر قوله «إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» لما ارتد بصيرا: «فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى‏ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» فكان مما يعلم من اللّه حياة يوسف! و كأنّ التحسّس والتجسّس سواء في معنى التفتيش لكنما الاوّل في غير شر والثاني في الشر، فالتفتيش عن عورات الناس وأسرارهم المخبوئة التي لا يرضون كشف الستر عنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 31-/ اخرج البيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و في آخره: و من‏أعطي القرآن فدخل النار فأبعده اللّه‏

(2). المصدر-/ اخرج ابن عدي و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: .. ثم قرأ الآية

(3). نور الثقلين 3: 455 ج 166 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة و قال الصادق عليه السلام ان يعقوب قال لملك‏الموت: اخبرني عن الأرواح تقبضها مجتمعة او متفرقة؟ قال: بل متفرقة، قال: فهل قبضت روح يوسف في جملة ما قبضت من الأرواح؟ فقال: لا، فعند ذلك قال لبنيه «يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ...» و رواه مثله في العلل باسناده الى حنان بن سدير عن أبيه قال قلت لابي جعفر عليه السلام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 578

هو التجسس، وقد منع عنه باتا «وَ لا تَجَسَّسُوا» واما التفتيش عما سواها، ولا سيما الأشياء او الأمور التي تخصك من حقك، فهو التحسس، أن تبالغ في استعمال حواسك ظاهرة وباطنة لتجد ضالتك المنشودة، وهكذا يأمر يعقوب بنيه. «.. اذهبوا» إلى مذاهب التحسس ومظانّه «فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ» فكبيرهم لا يتحسس فإنه في نفس الأرض التي تركتموها، وأخي يوسف الموقوف عند العزيز لا يدرى مسيره ومصيره فليسأل عنه العزيز، ويوسف نفسه يسأل عنه العزيز وغير العزيز، فالمذهب الأول في ذهابكم هو العزيز وكما ذهبوا إليه. «اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ... وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» كما يئستم لحد تنصحونني ألّا أذكر يوسف، فروح اللّه غير مأيوس منه إلّا لمن يكفر باللّه، أو يستر عن معرفة اللّه بروحه ورحمته: «وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (15: 56). الروح والروح هما من أصل واحد هو الحياة، واختص الأولى بالنفس كلها، والثانية بنفسها وراحتها، وللرّوح كما الرّوح نسبة إلى الإنسان وأضرابه كما في الواقعة: «فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» (56: 89) وأخرى إلى اللّه كما هنا «رَوْحِ اللَّهِ» تنفيسا منه عن كرب، كمن يتنفس عن خنق، فيستريح بعد عذاب، فروح اللّه-/ إذا-/ هي رحمته بعد نقمته، بتنفيسه بعد خنفه وحنقه لخلقه، حيث الرّوح هو تنسيم الريح التي يلذ شميمها ويطيب نسيمها، فشبّه الفرج الذي يأتي بعد الكربة ويطرق بعد اللزبة، بنسيم الريح الذي ترتاح القلوب له وتثلج الصدور به، وكما يروى ان «الريح من نفس الله» أي‏من تنفيسه عن خلقه، وهذا روح في الظاهر، ومن ثم روح في الباطن ينسم على الرّوح نسمة الراحة بعد الكربة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 579

فالكافرون باللّه بدركاته آيسون من روح اللّه بعد كربه، ولكنما المؤمنون باللّه بدرجاتهم لا ييأسون من روح اللّه ورحمته، ولو أحاط بهم كل كربة ومصيبة، مستظلين في ظل روحه من الكرب الخانق حيث ينسم على أرواحهم من نسمة روح اللّه الندي، حيث يشعرون في طمأنينة بنفحاته المحيية الرخيّة المنفّسة عن كل كرب. و روح اللّه المستكن في أبدان المؤمنين، هو الكافل لروح اللّه، روح في روح وروح يضمن الروح، فهما لصق بعض في المؤمنين، كما هما منفيان عن الكافرين! أجل و «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم مكر الله» «1» فإن القنوط من رحمة اللّه في حد الكفر باللّه، فهو من أكبر الكبائر بعد الشرك باللّه. «2» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88). إنه لم يكن في أمر يعقوب أن يذهبوا إلى العزيز إلّا ضمن ما يتحسس عن بنيامين عنده، فضلا عن أن يكتب إليه بكتاب يمس من كرامة النبوة والإيمان كما يهرفه المحرّفون الخارفون، وفضلا عن أن يطلبوا إليه تصدقا عليهم شكوى إليه من الضر الذي مسهم وأهليهم، وهم في هذا اللقاء لم يطلبوا إليه تسريحا لبن يامين لا ظاهرا ولا تصريحا، وإنما المطلوب أولا وأخيرا إيفاء الكيل ببضاعة مزجاة وتصدقا زائدا على الإيفاء، اللّهم إلّا أن تشمله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 456 عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي عليه السلام‏

(2). المصدر في الفقيه في باب معرفة الكبائر التي أوعد اللّه عز و جل عليها النار عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام، بعد ان ذكر الشرك باللّه و بعده اليأس من روح اللّه لان اللّه عز و جل يقول: إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 580

«تصدق» وليس بذلك البعيد، ولكنه-/ إذا-/ مطلوب ضمني في آخر المطاف، وليكن أولا لأنه أولى من إيفاء الكيل. و علّهم لأنهم في هذه الجيئة الفجيعة لا يرجون من العزيز تعزيزهم لسابق السرقة من أحدهم فيما يزعمون، لا ينطلق ألسنتهم لإطلاق سراح أخيهم صراحا، فعلّهم يجربونه بتقديم بيان حالهم وأهليهم، فإذا عرفوا انعطافا طلبوا إليه طلبهم الأصيل، وقد تطلبوه في «وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا». دخلوا عليه للمرة الثالثة، ولكنها مرّة فالسة كالسة، وقد أضرت بهم المجاعة، ومستهم وأهليهم الضر والضراوة، ونفدت منهم كل بضاعة إلّا مزجاة مقلعة، يدخلون منكسرين منحسرين ما لم يعهد لهم من ذي قبل وعند ذلك تمت كلمة الربوبية: «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» في واجهته أمام الإخوة حيث ذلوا وانكسروا أمامه. و «بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ» كأنها الكاسدة غير الطائلة من متاع قليل رثّ، لأنها البقية الباقية مما يملكون، حيث المزجاة من الإزجاء الإقلاع قلة إلى قلة كما أن «اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ» فالسحاب مزجاة مقلعة من مختلف الأبخرة الجوية، قليلة قليلة، فإذا ألفت كثرت، مهما بان البون بين مزجاة ومزجاة! فبضاعة مزجاة من هؤلاء الذين مسهم وأهلهم الضرّ ليست إلّا 189 ما يجمع منهم كأخريات البضاعات المتبقّية لديهم حيث قلّت في مس الضر، ورثّت ببأسه، فلم تحصل في هذه المزجاة إلّا قلة في كمّ وقلة في كيف، فهم حين لم يكونوا واثقين ان يعطوا كيلا ببضاعة مغلاة لسابقهم السوء، يتطلبّون إليه أن يوفي لهم الكيل ببضاعة مزجاة، ثم ويتصدق عليهم، حيث لمسوا فيه سابغ العطف من إيفاء كيل وإنزال خير، حين كانت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 581

بضاعتهم وافية، فكيف إذا كانت تافهة مزجاة، فعلّه-/ إذا-/ يرحمهم ثم ويتصدق عليهم. هنا-/ وقد بلغ بهم أمرهم الإمر إلى ذلك الحد الحادّ من استرحام في تضيّق وانكسار وانحسار-/ لم يملك يوسف نفسه أن يمضي في تمثيل دور العزيز، فقد انتهت الدروس واندرست عليهم معالم بيت النبوة في ذلك الشخوص كلّ دروس، وحان حين المفاجأة العظمى التي لا تخطر لهم ببال .. فهنا يتلمع في لمحة لائحة كأنه هو يوسف: قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89). يرنّ في آذانهم رنّة تجرسهم في أعماقهم، تذكرة لها نبراتها على علاتها في يوسف وأخيه إذ هم جاهلون، فهل إنه هو يوسف حيث يخبرنا بما فعلنا بيوسف وأخيه؟ وهو في سمت العزيز وأبهته! وتراهم فعلوا بيوسف وأخيه ما فعلوه وهم جاهلون يوسف وأخاه، ام جاهلون نكر ما فعلوه؟ فهم إذا معذورون؟ كلّا، حيث الجهل هنا التجاهل على عمد، ف «كل ذنب عمله العبد وإن كان عالما فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه» «1» و «هَلْ عَلِمْتُمْ» تنديد بهم فيما جهلوا ثم الآن علموا بما فعلوا، علما بمدى العصيان في ذلك الطغيان حيث وقعوا في فخه الآن فكيف بما يأتيهم بعد الآن؟! وفي «إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» تبرير لموقفهم الآن أنهم ليسوا بجاهلين، فان جهالة الصبا والغرور مضت والآن وقت النّبهة والعلم فالتوبة عما كان. ثم وفي ذلك تصديق لما أوحي إليه من قبل: «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان و روى عن أبي عبد اللّه عليه السلام انه قال: كل ذنب ... فقد حكى اللّه سبحانه قول يوسف لإخوته «هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ» فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 582

يَشْعُرُونَ» وقد نبههم الآن بما كان وهم لا يشعرون أنك لانت يوسف حتى شعروا بذلك الإنباء ثم علموا بعد ما سألوا: قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الُمحْسِنِينَ (90). سؤال استفهام بكل استعجاب حيث يرونهم أمام يوسف-/ الصغير الطريد الشريد-/ صغارا و صغارا، وهو الآن ذلك الرجل الكبير الكبير، فأين «تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ»؟! وهنالك لمعة التصديق أننا لمّا نفاجأ بلقاء القائم المهدي روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء نقول لقد رأيناه مرارا وتكرارا والآن كما كان، ف «في القائم عليه السلام شبه من يوسف في غيبته ومعرفته، وكما في متظافر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه و آله وأهل بيته الكرام عليه السلام‏ «1». و أكرم بيوسف وأعظم بعطفه على إخوته حين يعرّف بنفسه وأخيه إخوته، دون أن يعلنهم بما فعلوه إلّا في إجمال مضى، وليكون ذريعة منبهة لتعريفه، وإنما يذكرهم بما منّ اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 459 ج 177 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سدير قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: في القائم شيبة من يوسف عليه السلام قلت: كأنك تذكر خبره او غيبته؟ فقال لي: ما تنكر من هذه الامة أشباه الخنازير؟ ان اخوة يوسف كانوا أسباطا و أولاد أنبياء تاجروا يوسف و بايعوه و هم اخوته و هو أخوهم فلم يعرفوه حتى قال لهم: انا يوسف، فما تنكر هذه الامة ان يكون اللّه عز و جل في وقت من الأوقات يريد ان يبين حجته، لقد كان بينه و بين والده مسيرة ثمانية عشر يوما فلو أراد اللّه عز و جل ان يعرفه مكانه لقدر على ذلك و اللّه لقد سار يعقوب و ولده عند البشارة مسيرة تسعة ايام من بدوهم الى مصر فما تنكر هذه الامة ان يكون اللّه عز وجل يفعل بحجته ما فعل بيوسف ان يسير في أسواقهم و يطأ بسطهم و هم لا يعرفونه حتى يأذن اللّه عز و جل ان يعرفهم نفسه كما اذن ليوسف حتى قال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا ءانك لانت يوسف قال انا يوسف و هذا اخي ...» و رواه مثله عن سدير عنه عليه السلام في الكافي باختلاف يسير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 583

عليه وعلى أخيه بما أحسنا في صبرهم وتقواهم، وفيه لمحة بتنديدهم حيث أساءوا بما طغوا إذ لم يصبروا ولم يتقوا. و ترى ما هو موقف «وَ هذا أَخِي» تعريفا بمن يعرفونه حيث الفصل قصير وهم عارفون أنه عنده؟. علّه إلحاق قاصد بنفسه لكي يشملهما معا كل ما ياتي به من تبجيل وتجليل، وأن دورهما واحد في البراءة، وما حسدوا وما من اللّه عليهما، ولكي يزيدوا به معرفة كما عرفوا يوسف بمحتده. و التاكيدات الثلاث في سؤالهم: «أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» تكشف عن مدى حيرتهم في أبعاد بعيدة، ثم الجواب دون تأكيد «قالَ أَنَا يُوسُفُ» لعدم الحاجة فيه، حيث العزيز أعز من أن يكذب، ثم لا يحتار في أمر نفسه حتى يؤكّد. قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92). و ذلك منهم اعتراف بفضيلته ورذيلتهم حيث آثره اللّه عليهم وأذلّهم أمامه خلاف ما كانوا يظنون. و ترى هل يأخذه فرح الإيثار وترحه باستكبار، كلّا ما ذلك الظن بذلك العبد الصالح، فإنه يقابلهم بكل تكريم وإكبار، ناجحا في ابتلاءه بالنعمة كما نجح في ابتلاءه بالنقمة، وهذه هي شيمة الرجال الكرماء وكما فعله الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله في فتح مكة حيث «صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل مكة ماذا تظنون؟ ماذا تقولون؟ قالوا نظن خيرا و نقول خيرا ابن عم كريم قد قدرت، قال فاني أقول كما قال أخي يوسف: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 584

الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» «1» (.. فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام» «2». ذلك مهما كان البون بين يوسف ومحمد كما البون بين إخوته واهل مكة، ولكن الكرم نفس الكرم وإن كان درجات. «قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ» والثرب شحمة رقيقة هي غاشية الكرش، والتثريب هو إزالة هذه الغاشية فيبين الكرش، فهو هنا التقريع والتعييب بالذنب، وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثربها» فان في تثريبها مع جلدها اعتداء عليها بأكثر من ذنبها، وفي تأنيبها دون جلدها تبديل حكم اللّه إلى غيره! بذلك الصفح ينهي موقفهم المخجل الشائن وكأنه هو الذي يعتذر منهم، فقد انتهى أمري على إمره ولم تعد له جذور، و إذا كان من حقي اعتداء بالمثل فأنا أرجّح العفو «فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ». ذلك خطأكم عندي و «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ» وأما عند اللّه فقد «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» لأني قد غفرت لكم واستغفرت وإذا أنا-/ العبد المربوب-/ أرحمكم وأغفر لكم، فبأن يرحمكم اللّه و يغفر أحرى وأحق «وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» لا سيما وأن غضبه لم يكن إلا لاغتضابي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 34-/ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما فتح مكة صعد المنبر ..

(2). المصدر اخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما فتح مكة طاف بالبيت ركعتين و صلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ماذا تقولون و ماذا تظنون قالوا نقول ابن أخ و ابن عم حليم رحيم فقال صلى الله عليه و آله أقول كما قال يوسف: لا تثريب .. فخرجوا .. وفي نور الثقلين 2: 460 ح 180 في الكافي باسناده عن حريز عن أبي عبد اللّه عليه السلام لما قدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فامر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال: لا اله إلّا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ماذا تقولون ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 585

باغتصابي عن أبي! ثم «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» قد تجمع بين الإخبار والإنشاء وما أحلاه جمعا وما أجمعه حلوا. و هكذا يكون حق الناس، أن اللّه لا يغفر لمن ضيّعه إلّا ان يغفره صاحب الحق، وما أحسنه إذا كان الغافر له هو المستغفر له بجنب استغفار الخاطئ لنفسه بعد اعترافه بالخطيئة. «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ» مني كصاحب الحق الأصيل، ولا ممن سواي وبأحرى حيث الدخيل زائل بزوال الأصيل «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» مهما كان عليكم قبل اليوم تثريب وتخجيل كما كان من يعقوب من ذي قبل بحق القول: «قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى‏ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ..» (64) «قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» (83) وكما كان مني أنا لمّا اتهمتموني وأخي بالسرقة: «قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ» (77). فمهما كان قبل اليوم عليكم تثريب مني ومن أبينا، ولكنا اليوم «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ» فيه إذ قد مضى دور الامتحان والامتهان، وحان حين اللطف والحنان، منا ومن الرب الملك المنان. ف «اليوم» إنما هو ظرف ل «لا تَثْرِيبَ ..» دون «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» فان قضيته أدبيا تأخيره: «يغفر الله لكم اليوم» ليكون نصا لمظروفه دون تردد، ولان غفر اللّه لهم ما تمت شروطه بعد ولمّا يغفرهم يعقوب ويستغفر لهم! وكما طلبوا إليه «يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ. قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (98)، ومن ثم فذلك من سوء الأدب والجرأة على الرب أن يقال عنه «يغفر الله لكم اليوم» ولا يملك أحد غفره ولا وقته حين يغفر، وإنما على العبد أن يستغفر دون تحديد لأصل الغفر أو وقته!. و إذا كان «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» فما لهم يطلبون إلى يعقوب ان يستغفر لهم وهو يعدهم،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 586

وهذا تكذيب منهم ومن يعقوب ل «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ»!. و إنها لضابطة أخلاقية ضابطة على الإنسان زهوة القدرة والرئاسة، وزهرة النصرة في المعركة، وقد ازدهى يوسف وازدهر حيث أصبح عزيزا في بلد الفراعنة، فجاءت إخوته متصاغرين أمامه، معتذرين، ولكنه ينهي أمرهم ويعذرهم لا في حقه فحسب: «لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ» بل وتطلبا من اللّه أن يغفر هم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» ثم البقية الباقية هي غفرة واستغفارة من أبيهم وقد فعل: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي». و من ثم لا نسمع من يوسف صغيرة بعد ولا كبيرة بحق الإخوة، إلا محاولة مسرعة في تفريج الكربة عن أبيه ببشارة عملية وقولية: ج سورة يوسف (12): الآيات 93 الى 201 ج‏اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى‏ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى‏ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ آوى‏ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 587

السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (102) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى‏ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94). أ ترى ما هو «بِقَمِيصِي هذا»؟ أهو الذي جاؤا عليه بدم كذب؟ وقد جاؤا عليه وما رجعوه لأنهم ما عرفوه حتى عرّفهم نفسه! إذا فهو قميص آخر علّه كان شعاره، وهم جاؤا على قميصه الدثار بدم كذب! ومن ثم ترى كيف يجد ريح يوسف من قميصه لمّا فصلت العير، و بينهما زهاء ثمانين فرسخا؟ وكيف يرتد بصيرا بعد ما كان ضريرا لمّا يلقى على وجهه؟ إنهما من عجاب أمر النبيين الكريمين ولا عجب، فإنهما اتقيا اللّه وصبرا للّه وأن اللّه لا يضيع اجر المحسنين. «بِقَمِيصِي هذا» في هذه الإضافة المشرّفة دليل على أن القميص اكتسب منه ما اكتسب، مهما كان له سابق فضل وسابغة أن نزل به جبرئيل من الجنة لإبراهيم فكان لابسه حين ألقي في النار، ثم انتقل إلى إسحاق فيعقوب فيوسف، ولكن الجنة ليست بأشرف من هؤلاء النبيين بل هم أشرف وأعلى، وأعرف منها وأنبى! فكل بنفسه جنة لبس قميص الجنة، فكان جنة عن نار إبراهيم، وعن جب يوسف، وتوارثه النبيون حتى وصل إلى خاتم النبيين صلى الله عليه و آله ومنه إلى أوصيائه المعصومين، وهو الآن عند القائم المهدي من آل محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 463 ج 187 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى مفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: أتدري ما كان قميص يوسف؟ قال: قلت لا-/ قال: ان ابراهيم لما أوقدت له النار نزل اليه جبرئيل عليه السلام بالقميص و البسه إياه فلم يضر معه حر و لا برد فلما حضرته الوفاة جعله في تميمة و علقه على إسحاق و علقه إسحاق على يعقوب فلما ولد له يوسف علقه عليه و كان في عضده حتى كان من امره ما كان فلما أخرجه يوسف بمصر من التميمة وجد يعقوب ريحه و هو قوله عز و جل حكاية عنه «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ» فهو ذلك القميص الذي انزل من الجنة، قلت جعلت فداك فالى من صار هذا القميص؟ قال: الى اهله ثم يكون مع قائمنا إذا خرج، ثم قال: كل نبي ورث علما او غيره فقد انتهى الى محمد و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 588

و لقد وجد الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله ريح أو يس القرني على حد قوله صلى الله عليه و آله: «تفوح رائحة الجنة من قبل قرن وا شوقاه إليك يا أويس القرني ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام ..» «1»

هذا ولمّا رآه الرسول صلى الله عليه و آله ولمّا رأى هو الرسول صلى الله عليه و آله. فانما الأصل رؤية المعرفة الروحية. هذان نبيّان يشمان ريح محبوب من مسافة بعيدة، وقد يشمها بعض المؤمنين وليس بذلك الغريب من فضل اللّه لمن يتقي اللّه‏ «2». «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا» إلى أبي «فَأَلْقُوهُ عَلى‏ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» كما كان قبل أن يصير ضريرا «وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» بأبوينا وسائر أهليكم أزواجا وبنين وبنات وأحفادا لمكان «أجمعين».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. سفينة البحار 1: 53 روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انه كان يقول: تفوح ... فقيل يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و من‏أويس القرني؟ قال: ان غاب عنكم لم تفتقدوه و ان ظهر لكم لم تكترثوا به يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة و مضر، يؤمن بي و لا يراني و يقاتل بين يدي خليفتي امير المؤمنين علي بن أبي طالب، في صفين وفيه عن امير المؤمنين عليه السلام انه أخبره النبي صلى الله عليه و آله انه يدرك رجلا من أمته يقال له اويس القرني يكون من حزب اللّه يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة و مضر. أقول: انه احد الزهاد الثمانية من أخص جواري امير المؤمنين عليه السلام‏

(2). قال لي صديق تقي من اهل المعرفة ان فلانا من اهل اللّه اتاني الى منزلي في المشهد المقدس الرضوي في بعض سفراتي فاستغربت ذلك و قلت له من دلّك على بيتي و لم ادل عليه أحدا؟ قال: دلتني ريحك اشتممت فشممت ريحك فأتيتك!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 589

«وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ» وطبعا من حضرة الصديق فإنه الفصل الاوّل للعير، دون مفارق الطرق في أرض كنعان فإن عبارته: «وصلت» دون: «فصلت» ولماذا نفصل نص الخارقة الإلهية عن نفسها، وصلا بظاهرة عادية، وما ذلك إلّا تحويرا لا يبقي دلالة قائمة لنص أو ظاهر. «وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ» وبينهما وبين يعقوب ليال عشر «قالَ أَبُوهُمْ» لمن تبقّى عنده من أبناءه، مما يدل على أنهم ما ذهبوا ليتحسسوا عن يوسف إلّا نفر منهم «قال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ» كما فندتموني من قبل: «إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى‏ أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (8). و التفنيد هو نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي، وقد نسبوه إليه من ذي قبل وفيما هاهنا مزيد: قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (95). حيث زادوا على القديم «تاللّه» لأنه زاد في آيات الشغف من حبّه، «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» مما يدل على خارقة فيه إلهية، رغم أن يوسف-/ بزعمهم-/ أدرج إدراج الرياح، فأين يوسف حتى يوجد ريحه من بعيد أو قريب، لا سيما وأن أبناءه الحضور ليس لهم علم ولا احتمال بحياة يوسف، لذلك جن جنونهم بحقه ونسبوه إلى ضلال مبين في وجهه، بدل أن يداروه ويماروه علّه يأنس-/ في زعمهم-/ بظنه، وتراهم كفروا مرة بعد أخرى بنسبة الضلال المبين إلى أبيهم النبي الكريم؟ إنها إن كانت نسبة الضلالة في الدين كانت خروجا ارتدادا عن الدين، ولكنها-/ بمناسبة الحال-/ ليست إلّا ضلالا في حب يوسف وأخيه، إذ كانوا يرونهم أنفسهم-/ وهم عصبة-/ أحق من يوسف وأخيه في ذلك الحب، فظنوا-/ بجهلهم-/ أن أباهم ضال عن الحكمة الأبوية بين ولده تقديما لمفضولهم على أفاضلهم أم ترجيحا دون مرجّح، دون علم بأن ذلك أيضا كفر بالوحي، إذ لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 590

يقول النبي ولا يفعل إلّا بوحي! إلّا أن ذلك ايضا خروج عن الإيمان بهذه الرسالة السامية كما يحق، فأصبحوا-/ على حدّ تعبير الامام الصادق عليه السلام-/ «و لا بررة أتقياء» «1» بل هم فسقة أطغياء، وكما يدل على ذلك استغفار يوسف وأبيه لهم، والمرتد عن فطرة لا غفران له إلّا قتلا. مضت أيام السفرة الراجعة، ووقعت مفاجأة بعيدة فوق المفاجأة، وليعلموا أن وعد اللّه حق وأن اللّه لا يهدي كيد الخائنين، ولقد كان ذلك الريح الذي وجده من روح اللّه الذي أمرهم برجائه: فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى‏ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (96). و علّ البشير هو الكبير بينهم وله سابقة سابغة من بينهم حيث دلهم على «أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ» دون أن يلقوه فيه أو يلغوه يذهب هباء، وأخيرا قال لهم «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي» فبطبيعة الحال ينتخبه الصديق لهذه البشارة السارة وكما في رواية. و هنا نرى يعقوب يقول لهم بديلا عن أي‏تنديد أو تثريب: «أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» من حياة يوسف، ووجدان ريحه؟ تنبيها لهم بموقفه من اللّه فلا ضلال فيه أيا كان وأيان. قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. في تفسير العياشي عن نشيط بن صالح البجلي قال قلت لابي عبد اللّه عليه السلام أكان إخوة يوسف عليه السلام أنبياء؟ قال: لا و لا بررة أتقياء، كيف و هم يقولون لأبيهم يعقوب «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ». وفيه عن سليمان بن عبد اللّه الطلحي قال لابي عبد اللّه عليه السلام ما حال بني يعقوب هل خرجوا من الايمان؟ فقال: نعم قلت: فما تقول في آدم؟ قال: دع آدم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 591

«يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا» عيّ في الاستغفار لعظم الذنوب، وأنها أضرت بحقه ومست من كرامته، فليكن هو الذي يستغفر لهم بعد ما استغفروا لأنفسهم، ولأنه نبي مستجاب الدعوة و كما في نبينا: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64). و من آداب الاستغفار الاعتراف بالخطإ وقد اعترفوا، وترى كيف يسوّف أبوهم الاستغفار لهم؟ وخير البرّ ما كان عاجله، وهو وعدهم آجله!. و لكن ليس عاجل الخير دوما خيرا من آجله، حيث الخير الآجل يفوق عاجله، فالاستغفار في نفسه خير وعاجله خير على خير، إلّا أنه خير منه في الآجل المستجاب، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «أخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب» «1» أو «حتى تاتي ليلة الجمعة» او حتى نجتمع بيوسف لأنه صاحب الحق اخرج الترمذي وحسنه و الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال جاء علي بن أبي طالب الى النبي صلى الله عليه و آله فقال: بابي وامي تفلت هذا القرآن من صدري فما اجدني اقدر عليه فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك اللّه يهن وينفع اللّه يهن من علمه ويثبت ما تعلمته في صدرك؟ قال: اجل يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فعلمني-/ قال صلى الله عليه و آله: إذا كانت ليلة الجمعة فان استطعت ان تقوم ثلث الليل الأخير فانه ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال اخي يعقوب لبنيه «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فان لم تستطع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 36-/ اخرج ابو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و آله لم أخر يعقوب بنيه في‏الاستغفار؟ قال: أخرهم .. و رواه مثله في الكافي عن المفضل بن أبي قرة عن أبي عبد اللّه و الفقيه عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام و العياشي مرسلا عنه عليه السلام و زاد: قال يا رب انما ذنبهم فيما بيني و بينهم فأوحى اللّه اني قد غفرت لهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 592

فقم في وسطها فان لم تستطع فقم في أولها فصل اربع ركعات تقرء في الركعة الاولى بفاتحة الكتاب وسورة يس وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة وفي الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل فإذا فرغت من التشهد فاحمد اللّه واحسن الثناء مع اللّه وصل علي وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالايمان ثم قل في آخر ذلك اللهم ارحمني الأصيل، لا «لان قلب الشاب ارق من قلب الشيخ» «1»!. ام ليختبرهم هل استغفروا خالصا وتابوا توبة نصوحا حتى يستغفر لهم، وكل صالح لتأجيل الاستغفار والجمع أجمل. و ما أجمل تعبير يوسف حيث استغفر لهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» دون «غفر الله» فإنه في وجه الإخبار يضرب إلى المستقبل حين لقيا أبيه، لأنه أيضا صاحب حق، وهو في وجه الإنشاء مشروط بشروطه ومنها أن يغفر الأب ويستغفر، والصيغة العاجلة للاستغفار هي «غفر الله لكم» والشاملة لها ولآلجلة هي: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ». ف «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» تسوّف استغفاره لهم لتحقق الغفر تماما، وأما هو فقد غفرهم حالا دون نظرة الاستقبال، وهنالك يتم الاستغفار بشروطه وقتا وحقا وحقيقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 465 ج 196 في العلل باسناده الى إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال قلت لجعفر بن محمد عليه السلام اخبرني عن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه: يا أبانا استغفر لنا ...» فاخر الاستغفار لهم و يوسف عليه السلام لما قالوا له: «تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» قال: لان قلب الشاب ارق من قلب الشيخ، و كان جناية ولد يعقوب على يوسف و جنايتهم على يعقوب انما كانت بجنايتهم على يوسف فبادر يوسف الى العفو عن حقه و آخر يعقوب العفو لان عفوه انما كان عن حق غيره فاخرهم الى السحر ليلة الجمعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 593

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ آوى‏ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100). و تراهم «دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ» في قصره؟ فما ذا يعني-/ إذا-/ بقوله «ادْخُلُوا مِصْرَ ..»

وهم داخلون، فان قصره في أدخل دواخل البلد وأفضله؟ «أدخلوا» لمحة لامعة أنه استقبلهم إلى خارج مصر و «دخلوا» توحي بانه أعد لهم خارجه بيتا أم فسفاطا يليق بنزولهم. و يا له من مشهد لطيف عطيف في اللّقيا الأولى بعد كرور الأعوام بامتحانات وامتهانات، و بعد الأشواق المضنية والأحزان الكامدة الهامدة، واللهوف الظامئة، حافل بخنقات وانفعالات، وفرحات ودموعات. ذلك المشهد الختامي السامي، الموصول بالمطلع الدامي، مما يحير العقول ويذكر أولي الألباب. هناك من يوسف خطوات أربع رائعات بين فعلة وقالة، كلها تكريمات لهم ولا سيما أبويه، و بينهما فعلة منهم لديه. 1 (آوى‏ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» ضمهما إليه يطمئنهما بمأواهم لديه وعلى يمينه، حيث الإيواء ضم إلى مأوى وملجأ ومن الدليل عليه: 2-/ (وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» دخولا إن شاء اللّه، و آمنين إن شاء اللّه، فان في سماح الدخول الى بلد الفراعنة-/ فضلا عن الأمن فيه-/ ما فيه، ولذلك يصدر أمره كملك للمملكة إزاحة لكل الحواجز وإراحة لخواطر الوافدين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 594

ليأمنوا كل الأمن منذ وفودهم، وانه ليست زيارة مؤقتة بحاجة إلى تاشيرة خاصة، فإنما هو الوفود الخلود مدى الحياة ما دام لملكه وجود. 3-/ (وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» فعلة ثالثة هي أرفع من الأوليين حيث رفعهما إلى عرشه ما لم تسبق له سابقة في زمرة الملوك، وما أدري هل ارتفع هو على عرشه لما رفعهما عليه أم بقي تحت العرش؟ لا دلالة هنا ولا تلميحة نفيا وإثباتا، ثم العرش بطبيعة الحال هو عرش الملك الكائن مكان القصر دون خارج البلد حيث استقبلهم. 4-/ (وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً». «خروا» جمعا تعنيهما مع إخوته وكما رأى في المنام «أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» وهنا يقول بعد خرور السجدة «يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ..». أ تراهم-/ بمن فيهم من أبيه وأمه-/ سجدوا له سجودهم للّه؟ وذلك من المحرمات القطعية الأولية في كافة الشرايع الإلهية! أم سجدوا له كعادة عائدة إلى سنة الفراعنة حيث كانوا يسجدون لهم؟ وليس يوسف فرعونا يسجد له كما لفرعون! وليس نبي اللّه يعقوب ممن يساير المشركين في الطقوس الشركية! أم سجدوا له احتراما لديه دون عبودية وعبادة؟

وسجدة الاحترام لغير اللّه اخترام لساحة اللّه وتسوية باللّه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ»! ثم الوالد النبي كيف يحترم ولده لحد السجود، و لو جاز أن يسجد أحد لأحد لكان يوسف هو الذي يسجد لأبويه لعظم حرمة الوالدين! أم كان يوسف قبلة لهم في ذلك السجودة دون عبودية ولا احترام؟ و سجود القبلة سجود إليها، لا سجود لهاء وهنا «خَرُّوا لَهُ سُجَّداً»! ثم القبلة توقيفية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 595

وليست فوضى جزاف، ولكل شرعة قبلة يشرعها اللّه! أم-/ وعلى حد المروي عن الإمام الرضا عليه السلام-/ «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعة للّه وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم وإنما كان منهم ذلك طاعة للّه وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكرا للّه لاجتماع شملهم الم تر أنه يقول في شكر ذلك الوقت: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ..»؟ «1». فكما ان آدم كان مسجودا له شكرا للّه، لا مسجودا له عبادة له واحتراما كما للّه، كذلك يوسف كان مسجودا له شكرا دون عبادة او احترام، لا سيما إذا كان ساجدا معهم! أترى-/ بعد-/ ان يوسف انتقص من حرمة أبويه أن «دخله عز الملك فلم ينزل إليه» حتى يجزي بانقطاع النبوة عن نسله؟ «2» وقد استقبلهما إلى خارج مصر وقال ما قال وفعل ما فعل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 468 ج 209-/ القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي عن مسائل فعرضها على أبي الحسن عليه السلام و كان أحدها: اخبرني عن قول اللّه عز و جل «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» سجد يعقوب و ولده ليوسف و هم أنبياء؟ فأجاب ابو لحسن: اما سجود ... أقول «و هم أنبياء» يؤول الى يوسف و يعقوب دونهم ام يطرح كما يطرح ذيل الحديث: «فنزل عليه جبرئيل فقال له يا يوسف اخرج يدك فأخرجها فخرج بين أصابعه نور فقال يوسف ما هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذه النبوة أخرجها الله من صلبك لأنك لم تقم الى أبيك فحط الله نوره و محى النبوة من صلبه و جعلها في ولد لاوى اخي يوسف و ذلك لأنهم لما أرادوا قتل يوسف قال: لا تقتلوا يوسف و القوه في غيابت الجب» فشكره اللّه على ذلك لأنهم لما أرادوا ان يرجعوا الى أبيهم من مصر و قد حبس يوسف أخاه قال: فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ..» فشكر اللّه له ذلك و كانوا أنبياء بني إسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم و كان موسى من ولده و هو موسى بن عمران بن يهصر بن واهث بن لاوي. ثم أقول وفقا لصدر الحديث يروى القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما دخلوا عليه سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا اليه و كان ذلك السجود لله و في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان سجودهم ذلك عبادة لله‏

(2). نور الثقلين: 2: 466 ح 201 في اصول الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد عن مروك بن عبيدعمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ان يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عز الملك فلم ينزل اليه فهبط جبرئيل عليه السلام فقال يا يوسف ابسط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء فقال يوسف يا جبريل! ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نزعت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل الى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 596

بحرمتهم وكرامتهم! أو تراه لم يترجل لأبيه حين لقياه وقد ترجل‏ «1» له أبوه؟ أن «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (3: 206) و «آوى‏ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ» تركل وترجل ذلك الترجل المدسوس الذي يمس من كرامة النبوة! ففي ذلك الإيواء كل مراحل التكريم و التعظيم، ومن ثم «رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» تكملة له وتتميم! فكيف «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ»؟! ولم تزدده عزة الملك إلا تواضعا وتواطئا. و لئن دخله عز الملك-/ لا سمح اللّه-/ فلم ينزل إليه ولم يترجل فهل يستحق بذلك انقطاع النبوة عن نسله؟ «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» لو كان هناك وزر! وهل كان وزره المفترى أوزر من وزر لاوي أخيه الأكبر وقد شاركهم في استلابه عن أبيه، وأفجعه طيلة سنين حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم واحدودب ظهره فهو هضيم؟ حيث يجعل اللّه النبوة في نسله شكرا لما نهاهم عن قتله، ولأنه لم يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه! ولئن كان مشكور-/ وهو مشكور-/ كان ذلك على هامش الحفاظ على حياة يوسف، واحترام أبيه بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ح 203 في كتاب علل الشرايع باسناده الى يعقوب بن يزيد عن غير واحد رفعوه الى أبي عبد الله عليه السلام قال: لما تلقى يوسف يعقوب ترجل له يعقوب و لم يترجل له يوسف فلم ينفصلا من العناق حتى أتاه جبرئيل فقال له: يا يوسف ترجل لك الصديق و لم تترجل له ابسط يدك ... وباسناده الى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما اقبل يعقوب الى مصر خرج يوسف ليتقبله فلما رآه يوسف هم بان يترجل ليعقوب ثم نظر الى ما هو فيه من الملك فلم يفعل فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له يا يوسف ان الله تبارك و تعالى يقول لك، ما منعك ان تنزل الى عبدي الصالح ما أنت فيه؟ ابسط يدك ... فقال ما هذا يا جبرئيل فقال: انه لا يخرج من صلبك نبي ابدا عقوبة لك بما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل اليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 597

اخترامه، فكيف-/ إذا-/ يشكر هو دون يوسف، فتقطع النبوة من نسله وتوضع في نسل اللاوي وكيف يفترى على الصديق انه ترك الإحسان إلى أبويه أو أهانهما، تركا لأعم الواجبات وأهمها أمام الوالدين! ثم انتسال النبوة من صلب دون صلب لا يفضّل الأول تنديدا بالآخر، فهل كان في انتسال الإمامة من صلب الحسين عليه السلام تفضيلا له على أخيه الحسن، وتنديدا بالحسن «و الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا». و بعد ذلك كله كيف تنتزع النبوة المقدرة في نسل عنه وهو تخطئة في التكوين والتشريع معا، فهلا علم اللّه ذلك من يوسف فقدّر النبوة في نسله، ثم لما حصل ما حصل فصلها عن نسله؟ ثم النسل ليس إلا في الصلب فكيف سلبه جبرئيل من راحته؟! إن هذه إلا خرافات إسرائيلية اختلقت في أحاديثنا بأيدي الجعل والتجديف، فليعرض عرض الحائط لمخالفتها لكتاب اللّه وضرورات من دين اللّه. «... وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا ..» و «هذا» تعني كل ما حصل ما من اجتباء واصطفاء ومنه «خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» ثم يذكر قسما من فواضله: «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» وهذا دليل براءته عن فرية إنساء الشيطان إياه ذكر ربه، فان خروجه من السجن كان من نتائج «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ..» وليس إحسانه تعالى به مجرد إخراجه من السجن وإلا كان إدخاله فيه إساءة وهو الذي طلبه فاستجيب له: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ... فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ ..» وإنما هو إحسان إذ أخرجه إخراجا حسنا تصحبه براءته مما أدخله السجن، فلم يقل «أحسن بي أن أخرجني» بل «إِذْ أَخْرَجَنِي» إحسانا في كيفية الإخراج دون أصله، وكما أحسن إليه إذ دخل السجن حيث صرف به عنه كيدهن. «وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» حيث كانوا يسكنون البدو فأسكنهم يوسف في مصر «مِنْ بَعْدِ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 598

أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» وذلك الذيل «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» يعطف بالقصص إلى أوله إذ قاله يعقوب حين أوّل رؤياه «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ختام المسك كبداية. و ما ألطفه تعبيرا عما حسده إخوته وأجرموا بحقه «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» فالشيطان هو الشرير الأصيل في ذلك المسرح، والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده، فقد دخل الشيطان فيما حسدوا فدخل حتى عمّقه إذ حمّقهم «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» (41: 36). قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (102). و هذه شيمة الصالحين الذين لا تأخذهم العزة بالإثم، فلا ينسون في ملكهم وعزتهم ربّهم، ولا تأخذهم زهوة الملك وزهرته، فكيف يفترى على الصديق أن دخله عز الملك فلم ينزل إلى أبيه؟! وصاحب الملك المسلم، المعترف برحمة ربه، يطلب الزيادة في ملكه، ولكن هذا الملك الصدّيق بعد ما يعترف بالعطية الإلهية كنعمة دنيوية: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ» وبأحرى هي نعم العلم النبوة: «وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» عطفا بهما إلى عطفه ولطفه لأنه «فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» واعترافا بولايته المطلقة عليه: «أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ» فأنت المدبر أمري فيهما، ليس لي إلا ما دبرت وقدرت، دون أن أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فأنت أنت الولي لا ولي سواك، وأنا العبد الموّلى لك لا أعبد سواك.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 599

بعد ذلك كله لا يطلب منه إلا إسلاما في الدنيا وصلاحا في الآخرة: «تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» والتوفي هو الأخذ وافيا على أية حال، في الدنيا وحين الموت وفي الآخرة حالكوني «مسلما» كما طلبه أبي إبراهيم: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» وأنا من ذريته، وذلك الإسلام هو مرتبة بعد كمال الايمان، دونما كان قبل الإيمان او معه، فإنما الإسلام الخالص الناصع بقمته العليا، فخذني وافيا بإسلام «و ألحقني» هنا وفي الآخرة «بالصالحين» وهذا من غاية التواضع عند اللّه أن صالحا كالصديق يطلب منه إلحاقه بالصالحين وهم-/ بطبيعة الحال-/ من هو أصلح منه في مثلث الزمان، فلم يكن الصديق يطلب هنا موته كما يقال، فان حياة الرسول نعمة له وللمرسل إليهم، ولم يكن سؤاله في توفيه مسلما إلا تثبيتا له في إسلامه طول خط الحياة حتى الممات، لا أني مسلم فتوفني موتا، ولا اجعلني مسلما حين أموت، ولا أن أحدا من الأنبياء لم يسأل الموت إلا يوسف! حيث يسأله كل الصالحين: «رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَ‏آمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ» (3: 193) (.. رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» (3: 126) .. فحتى إذا كان ذلك سؤالا للوفاة فليس إلّا لأجله المسمى، أن يكون حال الإسلام، استمرارية لحد الوفاة. و لقد وردت روايات أن يوسف عليه السلام عاش بعد لقياه ردحا كثيرا من الزمن‏ «1» وقد تشير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 473 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة، باسناده الى محمد بن جعفر عن أبيه عن جده‏عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: عاش يعقوب بن إسحاق مائة و أربعين سنة و عاش يوسف بن يعقوب عليه السلام مائة و عشرين سنة، أقول اكثر ما كان في بيت العزيز و في السجن و في ملكه قبل لقياه بابويه عشرون و كان قبله مراهقا دون تكليف زهاء تسعة الى ثلاثة عشر فذلك دون الأربعين فيبقى ثمانون و كما في المجمع في كتاب النبوة بالإسناد الى محمد بن مسلم-/ الى قوله-/ و بالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل يوسف السجن و هو ابن اثني عشرة سنة و مكث فيه ثماني عشرة سنة و بقي بعد خروجه ثمانين سنة فذلك مائة سنة و عشرين سنين. أقول: ليس دخوله السجن إلا بعد بلوغه الحكم و بالإمكان كونه الثاني عشر من عمره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 600

له الآية: «وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» (40: 34) فليعش يوسف في بني إسرائيل فترة حتى يصدق «لَقَدْ جاءَ» وليس ذلك إلا منذ ذلك اللقيا لفترة طائلة تناسل فيها آل إسرائيل، ام بعد وفاة يعقوب‏ «1»!. أ تراه-/ بعد-/ يزهو بزهوة الدنيا وزهرتها لحد ينسى أبويه فلا يترجل لهما أن دخله عز الملك. و مما يحير العقول نقل هذه الأحاديث الزور من المختلقات الإسرائيلية في جوامعنا الروائية والتفسيرية دون نقد، ويكأنها هي الأصل وكتاب اللّه هو الفرع، فإذا ورد حديث في شي‏ء لا يسأل عن آيته وإن كان ضعيفا فضلا عن صحته في سنده، وإذا وردت آية يسأل عن حديثها الذي يفسرها، فان لم يرد حديث يبطل معنى الآية! وإن ورد ولا سيما بسند صحيح-/ فهو الذي يفسر الآية وإن كان خلاف ظاهرها أو نصها، وهذا هو التعامي عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان في كتاب النبوة باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين قلت: فمن كان الحجة للّه في الأرض يعقوب ام يوسف؟ قال: كان يعقوب و كان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت الى ارض الشام فدفن في بيت المقدس فكان يوسف بعد يعقوب الحجة قلت: فكان يوسف رسولا نبيا؟ قال: نعم اما تسمع قوله عز و جل: «لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ ..»؟.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 601

أصالة الكتاب إلى أصالة الحديث، وذلك ترك للأصلين وهجر للقرآن وفيه «وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» والآن كما كان وعلى طول الخط في التاريخ الإسلامي مما سبب اختلاف المذاهب واختلاق البدع الجارفة. «ذلك» الذي قصصنا عليك هو «مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ» فالتوراة ينقله محرفا منكوسا، والأحاديث-/ إلّا ما وافق القرآن-/ تأتي به مندرسا مركوسا. و اما أنت يا رسول الهدى «وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ» الأمر في الصديق «وَ هُمْ يَمْكُرُونَ» ماذا يفعلون، وليكونوا من بعده قوما صالحين. هكذا يقص اللّه من أحسن القصص في يوسف وإخوته آيات للسائلين، فما صار بعد العزيز وامرأته والملك بعد ما أصبح يوسف هو العزيز بل والملك؟ لا ندري إلا ما تدرينا أحاديث حول امرأة العزيز ومنها ما يروى عن باقر العلوم عليه السلام قال: لما أصابت امرأة العزيز الحاجة قيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب عليه السلام فشاورت في ذلك فقيل لها: إنا نخافه عليك قالت: كلا إني لا أخاف من يخاف اللّه فلما دخلت عليه فرأته في ملكه قالت: الحمد للّه الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته، وجعل الملوك عبيدا بمعصيته فتزوجها فوجدها بكرا فقال:

أليس هذا أحسن؟ أليس هذا أجمل؟ فقالت: إني كنت بليت منك بأربع خصال: كنت أجمل أهل زماني، وكنت أجمل اهل زمانك وكنت بكرا وكان زوجي غنّياً» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 473 ج 219 في آمالي شيخ الطائفة باسناده الى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: ... أقول وفيه 471: 217 في كتاب علل الشرايع باسناده الى عبد اللّه بن المغيرة عمن ذكره عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: استأذنت زليخا على يوسف فقيل لها: انا أنكره ان نقدم بك عليه لما كان منك اليه قالت: اني لا أخاف من يخاف اللّه فلما دخلت قال لها: يا زليخا ما لي أراك قد تغير لونك؟ قالت: الحمد اللّه الذي جعل الملوك بمعصية عبيدا و جعل العبيد بطاعتهم ملوكا فقال لها: ما الذي دعاك الى ما كان منك قالت: حسن وجهك يا يوسف فقال: كيف لو رأيت نبيا يقال له محمد صلى الله عليه و آله يكون في آخر الزمان أحسن مني وجها و أحسن مني خلقا و أسمح مني كفا؟ قالت: صدقت قال: و كيف علمت اني صدقت؟ قال: لأنك حين ذكرته وقع حبه في قلبي فأوحى اللّه عز و جل إلى يوسف إنها قد صدقت و اني قد أجبتها لجمها محمدا فأمره اللّه تبارك و تعالى أن يتزوجها. وفيه ج 218 في تفسير القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على أبي الحسن و كان أحدها اخبرني عن قول اللّه عز و جل «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً»-/ و قد سبق صدر الحديث-/ قال عليه السلام و لما مات العزيز في السنين الجدبة افتقرت امرأة العزيز و احتاجت حتى سألت فقالوا لها: لو قعدت للعزيز-/ و كان يوسف سمي العزيز و كل ملك كان لهم سمي بهذا الاسم-/ فقالت استحي منه، فلم يزالوا بها حتى قعدت له فاقبل يوسف في موكبه فقامت اليه فقالت: سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيدا و جعل العبيد بالطاعة ملوكا فقال لها يوسف: أنت تيك؟ فقالت: نعم-/ و كان اسمها زليخا-/ فقال لها: هل لك فيّ؟ قالت: دعني بعد ما كبرت أتهزأ بي؟ قال: لا-/ قالت: نعم فامر بها فحولت الى منزله و كانت هرمة فقال لها: الست فعلت بي كذا و كذا فقالت يا نبي اللّه لا تلمني فاني بليت ببلية لم يبل بها احد قال: و ما هي؟ قالت: بليت بحبك و لم يخلق اللّه لك في الدنيا نظيرا و بليت بانه لم يكن بمصر امرأة أجمل مني و لا اكثر مني مالا فزعا مني و بليت بزوج عنين فقال لها يوسف: فما تريدين؟ فقالت: تسأل اللّه ان يرد علي شبابي فسأل اللّه فرد عليها شبابها فتزوجها و هي بكر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 602

و ليس بذلك البعيد ان يتزوجها يوسف تركيزا لركيزة الإيمان في قلبها ولأنها-/ على خيانتها-/ صدقته أمام نسوة في المدينة وأمام الملك: «الآْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» ولا بد لها من يد بيدها ولا سيما حين اليأس والإياس ولات حين مناص، فتجد عند من خانته الخلاص فتؤمن باللّه بكل إخلاص!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 603

واذكر عبدنا ايّوب‏

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (42). أ ترى أن اللّه يسلط الشيطان على عبده و رسوله أيوب أن يمسه بنصب و عذاب، و «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» و هو «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»؟. هنالك سلطة ممنوعة للشيطان على المخلصين هي على عقولهم و أرواحهم و أعمالهم، لكيلا تبطل حجج اللّه على عباده، و هنا سلطة ممنوحة على أبدانهم و أموالهم هي من الابتلاءات الربانية الشاملة لعباد اللّه الأمثل منهم فالأمثل. و السلطة الشيطانية على أيوب في ردح من زمن المحنة لم تكن إلّا على الناحية المادية، و قد بلورت فيها السماحة الروحية «إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». فيا لهذا العذاب الجسداني من عذوبة روحية حين يصبر العبد عليه دونما شكوى ولا نكوى، وكما نراه في سائر الصالحين طول الزمن الرسالي من مختلف النصب التي تنصب لهم، والعذاب الذي يقصدهم في سبيل الدعوة، أم في طريق التكملة الرسالية لتكمل الدعوة، وهذه الثانية تمثلت لأيوب «بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ». «وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ» (21: 83-/ 84). نصان في سائر القرآن يتحدثان عن بلوى أيوب وصبره عليها، باختصار في الأنبياء، وفصلا هنا. ذلك النبي العظيم الذي طمع الشيطان في تضليله بنصبه وعذابه، أن يصدّه عن عبادة ربه أم ينقصه، ولم يصده ربه امتحانا لعبده، فعمل في ذلك واعتمل ولم يرجع عنه على طول المدة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 604

وطائل النصب والعذاب إلّا خاسئا وهو حسير! أجل، وليكن أيوب قبسا وهّاجا في الإيمان، ومثلا عاليا وحيدا في الصبر واليقين، حيث ينكص الشيطان على أعقابه ويجمع شياطينه المردة، ويوحي لهم أن اللّه ليس ليصدهم عن أية أذى يريدونها بأيوب، فقالوا: نجرّده عن أهله وماله وصحة حاله ليعود مجردا عن إيمانه حيث تشغله بليته باله هنا يريد اللّه بذلك السماح إمتحان عبده، ويريد الشيطان امتهانه «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ولقد سلّط الشيطان على قصوره فجعلها قبورا، وعلّ على ولده أيضا فبدّلهم ميتا، وعلى مواشيه وأمواله، وعلى بدنه، فقلبه في حظوظه المادية ظهر بطن لا يبقي له شيئا ولا يذر إلّا أطاح به ودمّر. يريد الشيطان ليضطر عبد اللّه أيوب إلى اختراق ثوب الاصطبار إذا تهدمت عليه أركان حياته، في ماله وأولاده ودوره وحاله، ويريد اللّه ليجعل من أيوب عبدا صبورا أوّابا شكورا، تصبح قصته ذكرى للعابدين وعبرة للمصابين، وعزاء للمكروبين، وسلوى للمرضى والزمنى والمجروحين. مرت الأيام، وتحدرت الأعوام وأيوب لا يزال على شكاته حتى هزل جسمه وذهب لحمه، وأصبح منقوف الوجه شاحب اللون، لا يقر على فراشه من الآلام. فرّ عنه الصديق، وجانبه الرفيق، ورغبت عنه شيعته ومن حوله إلّا زوجه الرؤوف العطوف الحنون حيث تحننت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعنيت به ما استطاعت إليه سبيلًا، ورفّت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شكت إلّا هموما تساورها من آلامه، و مخاوف تتحذرها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة. لهذا أعيى أمر أيوب عبد اللّه إبليس عدو اللّه، ولم يجد إليه سبيلًا إلّا من قبل زوجه، فانطلق إليها وهي في بعض شأنها مع أيوب، فتمثل لها رجلا وقال: أين زوجك؟ قالت: هوذا عميدا وقيذا، يتضور من الحمى، ويتقلب مما ألح عليه من الداء، فلا هو حي ولا هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 605

ميت. هنا طمع اللعين في إغوائها فأخذ يذكرها بما كان لزوجها في صدر شبابه وغضاضة إهابه من صحة وعافية ونعمة صافية، فأعادت لها الذكرى الأشجان، وأثارت لديها كوامن الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر وينساب إلى قلبها اليأس فذهبت إلى أيوب قائلة: حتى متى تعذّب، أين المال؟ أين الجمال، اين الحال والعيال، اين شبابك الذاهب، اين عزك القديم؟! فأجابها قائلا: أراك قد سوّل لك الشيطان أمرا، أتراك تبكين على عز فائت، و ولد مائت؟ فقالت: هلا دعوت اللّه أن يكشف عنك حزنك ويزيح بلواك؟ قال: كم مكثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: وكم في البلاء؟ قالت سبعا. قال: أستحي من ربي أن اطلب إليه كشف بلائي، ولمّا قضيت فيه مدة رخائي، ولكن يخيل لي أنه قد بدأ يضعف إيمانك، ويضيق بقضاء اللّه قلبك، ولئن برئت وأتتني القوة لأضربنك مائة سوط، وحرام عليّ أن آكل من يديك بعد اليوم طعاما أو أشرب شرابا، أو أكلفك أمرا، فاغربي عني حتى يقضي اللّه أمرا كان مفعولا! أصبح أيوب-/ الآن-/ وحيدا فريدا وقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه، ففزع إلى ربه داعيا متحننا، لا شاكيا متبرما ف «نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (21: 83) وذلك في آخر الامتحان، وكما تدل الآية التالية «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ...»

استجابة دون فصل! يشكو ربه الرحيم من الشيطان الرجيم دون أن يصارحه في كشف ضره، وإنما عرضا لحاله «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ ...» وقرنا لرحمته تعالى إلى حاله «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فإن رأيت فارحم عبدك، وإلّا فأنا من الصابرين، فاستجاب له ربه فور عرضه «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ...».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 606

أجل! ولحد الآن يصمد أيوب لوسوسة الشيطان، فيرتقي إلى ذروة الإيمان «إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ»-/ وليس الركض حسب العادة إلّا برجل-/ فذلك لمحة إلى مدى مرضه لحد لم يك يمشي برجل، ولكنه الآن «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» عدوا قفزة أولى إلى الصحة، ثم وثانية إلى العافية: «هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ» فلم يكن يسطع قبل لاغتسال ولا شرب شراب. فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحه ظهر بطن، وبرئت جروحه، وكأن بارد الماء كان مرحما ملحما، رغم أنه يضر بالجروح في عادية الأحوال!. و لقد كانت زوجته رق قلبها وحدبت عليه ولم تطاوعها نفسها الكريمة الحنونة أن تتركه و شأنه، وقد لزمته منذ اوّل بلائه على طول المدة وطائل المحنة، فرجعت إليه كعادتها تعاود إصلاح شأنه فترى عجبا حين ترى شابا مكتمل الشباب، غض الإهاب، مكتنز اللحم، وافر المنة والقوة، فحمدت اللّه على ما ردت إليه من عافية. فهل إن أيوب يتركها ويستبدل بها غيرها، بعد أن يضربها مائة سوط كما عهد من ذي قبل؟ ما هكذا الظن به ولا المعروف من فضله، أن يتناسى حنانها الدائب، وحضورها الواصب. و حين لا يتركها فما ذا يفعل بعهده عليها وهو بلاء على بلاء وعناء على عناء، إذا يأتي الوحي الحبيب من الحبيب: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44). خذ حزمة من القش والريحان تشتمل على مائة باقة واضرب بمجموعها زوجك مرة واحدة، حفيفا رقيقا رفيقا، رخصة لك في يمينك، ورحمة بهذه المخلصة الصالحة التي احتملتك في مرضك، وشاركتك في آلامك!. و لئن سئلنا كيف يبتلى أيوب بمثل هذه البلية التي تنفّر عنه الطباع، أبذنب؟ والأنبياء لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 607

يذنبون، أم بغير ذنب فأسوء وأنكى، ومن لزامات الرسالات بقاء الرسل في حالة جذابة غير منفرة، والروايات تقول أصبح بدنه كله منتنا مدوّدا. فلنضرب بروايات متخلفات ومختلقات-/ تمس من ساحة نبي اللّه أيوب وتنتقص من سماحته-/ نضربها عرض الحائط، كما هو مصير آيات مختلقات متناقضات في العهد القديم‏ «1»، فقد طغت إسرائيليات في رواياتنا هنا وهناك فشوهت الحقيقة الناصعة التي أتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي حين يصفه حزقيال 14: 14 و 20 بكمال العبودية و الايمان و انه تحمل ألوان الرزايا صابرامحتسبا-/ و: ليس كمثله احد في كمال الاستقامة و التقوى (أيوب 1: 8 و 2: 3 و 38: 1 و 40: 1 و 6: 42: 7). نجده يصفه بما يناقضه: (قد كرهت نفسي حياتي، اسيب شكواي، أتكلم في مرارة نفسي قائلا لله: لا تستذلي، فهمني لماذا تخاصمني؟ أحسن عندك أن تظلم، ان ترذل عمل يديك و تشرف على مشورة الأشرار، ألك عينا بشر ام كنظر الإنسان تنظر ... حتى تبحث عن إثمي و تفتش على خطيئتي، في علمك إني لست مذنبا و لا منقذ من يدك ... ان ارتفع تصطادني كأسد ثم تعود و تتجبر على، تجدد شهودك تجاهي و تزيد غضبك علي، نوب و جيش ضدي فلما ذا اخرجتني من الرحم ... (أيوب 10: 1-/ 8). أشكو بمرارة نفسي ... قد ذبت لا الى الأبد أحيا ... ما هو الإنسان حتى تعتبره و تضع عليه قلبك و تتعهده كل صباح و كل لحظة تمتحنه، حتى متى لا تلتفت عني و لا ترخيني ريثما ابلع ريقي ... لماذا جعلتني عاثورا لنفسك حتى أكون على نفسي حملا ... (أيوب 7: 11-/ 21). فاعلموا ان اللّه قد عوجني ولف عليّ احبولته، ها اني اصرخ ظلما فلا استجاب، ادعوا و ليس حكم، و قد حوط طريقي فلا اعبر، و على سبيلي جعل ظلاما، أزال عني كرامتي و نزع تاج رأسي، هدّمني من كل جهة فذهبت، و قلع مثل شجرة رجائي، و اضرم على غضبه و حبسني كاعداء معا جاءت عزاته و اعدوا على طريقهم و حلوا حول خيمتي، قد ابعد عني اخوتي، و معارفي زاغوا عني، اقاربي قد خذلوني، و الذين عرفوني نسوني، نزلاء بيتي و امنائي يحسبونني أجنبيا، صرت في أعينهم غريبا ... نكهتي مكروهة عند امرأتي، و قممت عند أبناء احشائي، الأولاد ايضا رذلوني، إذا قمت يتكلمون عليّ كرهني كل رجالي و الذين أحبهم انقلبوا عليّ عظمي قد لصق بجسمي و لحمي و نجوت بجلد اسناني، ترأفوا ترأفوا أنتم عليّ يا اصحابي، لأن يد اللّه قد مستني، لماذا تطاردوني كما اللّه، و لا تشبعون من لحمي، ليت كلماتي الآن تكتب، يا ليتها رسمت في سفر و نقرت الى الأبد في الصخر بقلم حديد و برصاص ...» (19: 6-/ 24). «... من يعطيني أجده فآتي الى كرسيه، احسن الدعوى امامه، و أملأ فمي حججا فأعرف الأقوال التي يجيبني و افهم ما يقوله لي ... ها أنا ذا اذهب شرقا فليس هو هناك و غربا فلا أشعر به، شمالا حيث عمله فلا انظره، يتعطف الجنوب فلا أراه» (24: 3-/ 8) (حي هو الله الذي نزع حقي و القدير الذي امر نفسي» (27: 2). هذا! و لكن ربه يناقضه في هذه التهم «فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل و مستقيم يتقي الله و يحيد عن الشر» (1: 8) (الى الآن هو متمسك بكماله و قد هيجتني عليه لأبتلعه بلا سبب (2: 3) فانظر الى هذه الشطحات المتناقضات في التوراة و الروايات المتأثرة بها ثم انظر الى القرآن الحكيم فاقض ما أنت قاض‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 608

بها القرآن العظيم، ولا نؤمن إلا بما جاء نصه في الذكر الحكيم. و القول الفصل في الجواب في أصوب الصواب تجده عند باقر العلوم عليه السلام: ان أيوب عليه السلام ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون، لأنهم معصومون مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا، وان أيوب عليه السلام مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقذره أحدا رآه، ولا استوحش منه احد شاهده، ولا تدوّد شي‏ء من جسده، وهكذا يصنع اللّه عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربه تعالى من التأييد والفرج، وقد قال النبي صلى الله عليه و آله: أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. ابتلاه اللّه بالبلاء العظيم الذي تهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا معه الربوبية إذا شاهدوا ما أراد اللّه أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلوا بذلك على ان الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفا لضعفه، ولا فقيرا لفقره، ولا مريضا لمرضه، وليعلموا انه يسقم من يشاء، ويشفي من يشاء متى شاء بأي سبب، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء، وشقاوة لمن شاء، وسعادة لمن يشاء، وهو عز وجل في جميع ذلك عدل في قضائه، وحكيم في أفعاله، لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 53-/ ابن بابويه القمي بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 609

ثم في «إِذْ نادى‏ رَبَّهُ» تلميحة أنه ناداه استرحاما تربويا كما يراه الرب صالحا دونما اقتراح عليه أمرا، إلّا «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» هنا و «أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» في الأنبياء. و «نصب» هي مختلف التعب «و عذاب» فوق التعب وقد عبر عنهما في الأنبياء ب «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ». و قد يعم ضرّه الدعاية على رسالته تذرعا إليها بمرضه وذهاب ماله وولده، وذلك صورة عامة عن السيرة الرسالية لسائر المرسلين: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ» (22:

52). و قد يعني النصب سائر أتعابه الظاهرية، و «عذاب» هو العذاب الروحي حيث كان الشيطان ينفر خلصائه القلائل وحتى زوجه الحنون، فيؤذيه ضلالهم أشد مما يؤذيه ضره! إن اللّه تعالى عافاه بمغتسل بارد وشراب فور دعائه، لا فحسب، بل: وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44). «أهله» تشمله زوجه، وبأحرى من سائر أهله، وقد كانت معه طيلة مصابه، فكيف «وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ» ثم ماذا تعني «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»؟ هذه الوهبة الربانية تشير إلى انفصالة بينه وبين أهله ضمن مصابه الواصل إلى قمته، فرجعها اللّه إليه قبل دعاءه-/ كما رجع سائر أهله، ثم أتم وهبتها إليه بعد استجابته، حيث لم يرفضها، وعالج موقفه من يمينه أن يضربها ولا يحنث. ثم الميّتون من أهله خلال المحنة أحياهم اللّه وهم تتمة من أهله، وعلّ مثلهم معهم عديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 610

كأمثالهم ماتوا من ذي قبل فأحياهم معهم‏ «1» (رَحْمَةً مِنَّا» زائدة على زحمة حصلت «وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ» أن اللّه لا ينسى الصابرين يوم الدنيا كما لا ينساهم يوم الدين. و قد تعني «مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» أنه أولد له مثلهم من ولده، وزوجة مثل زوجته، اللّهم إلّا هيه لو أنها ترفض الثانية فإنها على كونها رحمة له ولكنها-/ حسب العادة-/ لها زحمة ومشقة! ولكن «معهم» تلميحة لمعية الأهلية فليكونوا آهلين لعشرتهم، ساهلين في عشيرتهم. و لأن النص لا يشير إلى إحياء ميت من أهله، ولا أنهم أو بعضهم ماتوا في هذه الفتنة، وأن «وهبنا» بعيدة عن إحياء، فقد تعني الهبة إرجاع أهله إليه كما كانوا قبل الابتلاء، ثم أولد له مثلهم معهم. ثم وفي أخذ الضغث-/ أن يضرب به ولا يحنث-/ دليل أنه كان ما حلف به مسموحا له غير ممنوع، تأديبا لزوجه في محنته، إلّا أنها لما رجعت عما صدر منها خفف اللّه عنها، وليس ذلك حيلة شرعية فان اللّه ليس ليحتال لنفسه وهو طرف الحلف، وإنما احتراما للحلف والحالف والمحلوف له كضابطة ثابتة في كافة الالتزامات، أن يحافظ عليها، مهما يخفف عن وطئتها حينما يخف سببها. و في ذلك لمحة إلى مدى التخفيف عن مجازاة المجرمين، حين يخف الإجرام، أم في العقوبة زيادة على الاستحقاق كما في الزانيين الذين لا يتحملان الحد المقرر لهرم أو ومرض‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. تفسير البرهان 4: 52 محمد بن يعقوب باسناده عن يحيى بن عمران عن هارون بن خارجه عن أبي بصيرعن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية قلت: أحيا له ولده كيف اعطى مثلهم معهم؟ قال: أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بآجالهم مثل الذين هلكوا يومئذ

(2). الدر المنثور 5: 317-/ اخرج احمد و عبد بن حميد و ابن جرير و الطبراني و ابن عساكر عن سعد بن عبادة قال: كان في أبياتنا انسان ضعيف مجدع فلم يرع اهل الدار الا و هو على امة من اهل الدار يعبث بها و كان مسلما فرفع سعد شأنه الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: اضربوه حده فقالوا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله انه أضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه! قال: فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة ففعلوا! أقول: ان صح النقل فلا بد من اثبات شرعي للزنا حتى يحكم الرسول صلى الله عليه و آله بما حكم و هنا روايات اخرى بألفاظ اخرى يجمعها التخفيف عن الضعيف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 611

ج سورة ص (38): الآيات 45 الى 84 ج‏وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48) اذكر ابراهيم في مختلف بلواه وصبره الحكيم، وإسحاق في محنته، ويعقوب في يوسفه «أُولِي الْأَيْدِي»: الطاقات الروحية في مختلف شئون الاصطبار والعبودية، و «أولي الأبصار» وبصائر القلوب، حيث كانوا يبصرون نفاذا إلى الأعماق، وقد تعني «الأيدي» الأعمال الصالحة «و الأبصار» النظر الصائب الثاقب والفكر السديد. «إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ» فهم-/ إذا-/ من المخلصين الذين ليس للشيطان إليهم سبيل، كما درسناه هنا في أيوب، أترى «أخلصناهم» دون مقابل وظرف صالح؟ كلّا، وإنما «بخالصة» حيث هم أخلصوا أنفسهم فليس «أخلصناهم» إلّا «بخالصة» وإنما خالصتهم هي ذكرى الدار، ذكرى خالصة دون شائبة: ذكرى اللّه في الدار الدنيا، وذكراها أنها دار مجاز وممر، وذكرى 265 الدار الأخرى، انها هي الحقيقة والمقر، وقد تكون خالصة صفة للأيدي والأبصار، أعمالا خالصة، وأبصارا خالصة، تجتمعان في «ذِكْرَى الدَّارِ». فهذه الذكرى ذات العلاقتين بالنشأتين، هي التي جعلتهم يخلصون أنفسهم للّه، ولكن بخالصة ليس ليخلصهم لحد العصمة المطلقة، فإنها إخلاص من اللّه يخالطه هي ذكرى الدار، فليدركهم إخلاص من اللّه. فالعصمة الربانية هي في ظرف العصمة البشرية دونما فوضى جزاف، ولا ترجيحا دون مرجح! ثم «ذِكْرَى الدَّارِ» هنا تذكّر لهم ثم تذكير لغيرهم دون اختصاص بهم، وإلّا لم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 612

يصلحوا لإخلاص العصمة الخاصة بالدعوة المعصومة. «وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ» بن ابراهيم صادق الوعد «وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ» وقد نجد لهم نبأ في الأخبار «1». هؤلاء الرسل هم اقطاب الاصطبار في اللّه على مختلف درجاتهم، فلتكن ذكراهم تسلية لخاطر النبي الأقدس وتقوية له في سفره الشاق الطويل الطويل، فهم رفاقه القدامى الذين عبّدوا له سبيل السلام والإسلام عليهم السلام.

وايوب اذ نادى ربّه اني مسني الضر

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى‏ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 83 فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ 84. و قصة أيوب مفصلة في «ص» ومجملة هنا، وقد فصلناها هناك كما فصلت، ونجملها هنا كما أجملت، وهي دعاء واستجابة ومزيد، وما الطفه وانظفه دعاء لا يتطلب فيه المبتلى كشف بلاءه، وانما هو عرض بلاءه: «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ» وعرض الرب بعليائه «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فلا يدعو بتغيير حاله، ولا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا وصبرا على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في البحار عن الاحتجاج و التوحيد و العيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى ان قال: ان اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء و أحيي الموتى و أبرأ الاكمة و الأبرص فلم يتخذه أمته ربا-/ الخبر. وعن قصص الأنبياء الصدوق عن الدقاق عن الاسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت الى أبي جعفر الثاني عليه السلام اسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ و هل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام بعث اللّه عز و جل مائة الف نبي و اربعة و عشرين الف نبي مرسلون منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و ان ذا الكفل منهم و كان بعد سليمان بن داود و كان يقضي بين الناس كما يقضي داود و لم يغضب الا للّه عز و جل و كان اسمه (عويديا) و هو الذي ذكره اللّه جلت عظمته في كتابه حيث قال: «وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 613

بلائه، فهو من أفضل النماذج للعبد الصابر في بليته، دون اي تململ!. ثم نرى الاستجابة «فَاسْتَجَبْنا لَهُ» سؤله المعلوم عن عرضه وسؤاله «فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ» والضر ضما يختص بما يمس غير الروح، وليس للشيطان سبيل الى أرواح النبيين «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» (38: 41) وهي فتحا يعمهما، وضما كما هيه يخص غير الروح، وعلّ العذاب عبارة عنه اخرى. و علّ «اهله» يعم زوجه وولده، أم وكل من كان يعوله من أقربائه وانسباءه، سواء الذين هلكوا في ضره، ام تفرقوا عنه، ف «آتيناه» تعم إحياء من هلك، ورجوع من سلك، ثم «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» قد تعني مماثلة الكم والكيف، والمعية وهي الملائمة الموافقة، قد تلمح ان الزوجة الثانية انضمت الى الاولى بكل وئام واحترام، وكل ذلك «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا» لأيوب الصابر في محنته «وَ ذِكْرى‏ لِلْعابِدِينَ» على مر الزمن ليقتفوا اثره في الصبر على الضر للّه وفي اللّه، دونما شكوى على اللّه! وهنا اللمحة اللامعة ان العبودية كلما ازدادت وتقدمت ازداد العبد بلاء، ولكي يرتقي العابد بذلك المرقى ما لا يرتقي بسواه. وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ 85 وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ 86. و اذكر «إسماعيل» ابن ابراهيم «وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ» في حياتهم الرسالية ف «كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» ولا سيما إسماعيل إذ قال له أبوه «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏ قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». فلذلك الصبر البالغ ذروته «وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ» فالصبر الصالح والصالح الصابر داخل في رحمة اللّه، والصبر مفتاح الفرج‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير قصة إدريس في «مريم» و إسماعيل في «الصافات» و ذي الكفل في «ص»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 614

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ 88. «ذا النون» هذا وهو يونس بن متى النبي، يضرب هنا مثلا مذكّرا لقصور الصبر اللائق في تطبيق الرسالة، بعد التذكير بأنبياء صابرين، وكما يلمح في «القلم»: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (68: 50) والقصة مذكورة فيها وفي يونس والصافات، وفي كلّ تفصيل كما تعنيه آيتها، وهنا كما هيه، دون اعادة شاملة للثلاثة الباقية. و تراه هنا «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً» ممن؟ أمن ربه؟ وهو كفر به، واين يذهب مغاضبا من ربه وليس له مكان، فانه محيط بكل كائن ومكان، وهو مع كل انس وجان! ثم «مغاضبا» تعني غضب المتناوئين، فليس غضبانا حتى يعنيه هو على ربه وسبحانه، وانما «مغاضبا» وطبعا مع من كانوا معه في قريته، فقد غضب عليه قومه لكرور دعوته وصموده في دعايته، فأيس منهم وغضب عليهم ف «ذَهَبَ مُغاضِباً» غضبا على قومه في ذات اللّه إذ غضبوا عليه لدعوته الدائبة الى اللّه، فأيس من ايمانهم باللّه، ولكنهم كان لهم استعداد للايمان ما كان يعلمه يونس ولا رجاه: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98). فلان الموقف كان موقف الإياس من ايمانهم، فلم ير-/ إذا-/ بأسا من الذهاب عنهم مغاضبا، ولان ذهابه كان ذهاب المغاضب دون فرار عن الدعوة ام تمهّل فيها «فظن» حسن ظنه بربه «أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» تضييقا في ذلك الذهاب، فليس «نقدر» من القدرة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 615

بل هو القدر الضيق كما «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ» في آيات عدة «1» «وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ» (65: 7). فقضية الموقف الحاسم، ان لن نضيق عليه بذهابه عنهم مغاضبا، فلم يكن يرى في ذلك الذهاب بأسا، بعد ما استعصى عليه قومه وهو مستقص في دعوتهم، فغادرهم مغاضبا ولم يصبر على معاناتها بمماداتها وعرقلاتها، ظانا ان اللّه لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة و القرى باقوامها كثيرة، وانه لن يضيق عليه توبيخا لذهابه عنهم، إذ رأى نفسه معذورة في ذهابه. هذا الذي ظنه ذا النون، ولكن الرسالة الإلهية لها مسئوليتها الخطيرة، المحلّقة على سائر المسؤوليات، فليس لصاحب الدعوة الرسالية ان يتركها، او يترك جو الدعوة بسند الإياس عن تأثيرها، فانها ليست-/ فقط-/ نذرا، بل «عُذْراً أَوْ نُذْراً» فحتى إن أيقن الداعية بعدم تأثير الدعوة فعليه المواصلة فيها حتى النفس الأخير، ولا يسمح له بالذهاب عنهم إلّا إذا خاف على نفسه عذابهم الناكل ام عذاب اللّه عليهم، ام مسا من كرامة الدعوة، فهنالك المهاجرة حفاظا على الدعوة والداعية، لا إراحة لنفسه عن الدعوة غير المؤثرة. إذا فقد كان من ذا النون بعض التقصير في الدعوة الصامدة، مهما يعذره بعض الإعذار ظنّه ان لن يضيق عليه ربه في ذهابه عنهم مغاضبا، ولكنه كان ظنا بغير حساب ولا صواب، حيث الموقف الصالح لذلك الظن او اليقين بعدم التضييق هو تمام الدعوة، ولا تتم بنفس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي 13: 26 و 17: 30 و 28: 82 و 29: 62 و 30: 37 و 34: 36 و 39 و 39: 52 و 42: 12، ثم لانجد «لا يقدرون» بمعنى القدرة الا في 2: 264 و 14: 18 و 57: 29، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد، فضلا عن موضع اليقين كما في ذا النون. 2: 264 و 14: 18 و 57: 29، مما يجعل الترجيح للمعنى الاول عند التردد، فضلا عن موضع اليقين كما في ذا النون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 616

الإياس الا إذا واجه امرا أهم إمرا من واجب الدعوة العاذرة غير المؤثرة، كالخطر على الدعوة او الداعية، وقد هاجر الرسول صلى الله عليه و آله أرض الدعوة الاصيلة الى اخرى لما هجّروه وأرادوا ليقتلوه، فانقلب واجبه المقام الى المهاجرة الى المدينة، حتى أسس فيها دولة الإسلام ورجع في نهاية امره الى مكة فاتحا محبورا مشكورا. و هاجر موسى ومن معه فرارا من بأس فرعون وملئه، وابراهيم ولوط حيث نجا هما اللّه الى الأرض المباركة، ولوط حيث نجّي باهله عن قومه الهاجم عليهم الخطر الناجم عن تكذيبهم «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ»!. و اما ان يذهب الداعية عن جو الدعوة بمجرد انهم بالفعل لم يتأثروا بها، فلا، علّهم يتأثرون في المستقبل، ام تلزمهم الحجة الدائبة عليهم إذا كانوا ممن «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ولكن الدعوة المتواصلة ليست سواء عليك وانما عليهم. فأصحاب الدعوات رسولية ورسالية لا بدل لهم ان يتحملوا تكاليفها، صبرا على التكذيب بها والإيذاء من أجلها، ومهما كان تكذيب الصادق الأمين مريرا عليه ولكن الصبر عليه هو بعض تكاليف الرسالة. لا يجوز للداعية ان ييأس من إصلاح النفوس المتمردة، فإذا كانت المئات لم تصل الى القلوب فلتكن ألفا وآلافات، فقد تصل مرة الى القلب مهما كان كرور الدعوة المستمرة مرّة، وحتى إذا أيقن-/ وكيف له ذلك وأنّى-/ انه سواء عليهم الإنذار وتركه، فليواصل في دعوته عذرا، كما كانت قبل نذرا. اجل، وان طريق الدعوات ليست هينة ولا استجابة النفوس يسيرة، فهناك ركام من مختلف الشبهات والشيطنات تجثم على القلوب لا بد من إزالتها بكرور الدعوة، باية وسيلة ممكنة، تلمّسا لكافة المراكز الحساسة، محاولة العثور على العصب الحساس، وقد تصادف إحدى اللمسات ذلك العصب فيتحول تحولا، وكما قوم يونس آمنوا لما رأوا بأس اللّه، ايمانا صالحا لدفع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 617

العذاب، رغم ان الايمان عند رؤية البأس لا يفيد: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ» (10: 98). ان الدعوة هي الأصل «عُذْراً أَوْ نُذْراً» لا شخص الداعية ام شخصيته، اللهم الا فيما أصبحت الدعوة في خطر بالقضاء عليها ام على الداعية، فالى المهاجرة حفاظا على أصلها واستمراريتها في مجالات اخرى. لقد سجن ذا النون في بطن الحوت النون تأديبا له أديبا لماذا استعجل عن قومه «فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ» ظلمة بطن الحوت وظلمة الليل وظلمة البحر» «1» «أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ» إقرارا بالتوحيد «سبحانك» تنزيها للّه عن كل ما يمس من كرامته وعن ان يظلم عبده في ظلماته، ثم إقرارا بظلمه: انتقاصا عن واجب الدعوة «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ظلما بنفسي لمكان نقصي كرسول. و تراه كيف ناله عهد من اللّه رسالة «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إذا كان ظلما قبل الرسالة، وهو ظالم حين الرسالة؟ «وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (37: 140)!. ان «عهدي» الذي لا ينال الظالمين هو عهد الإمامة دون مطلق الرسالة، والظلم الذي ينافي الرسالة هو المعمّد الخائن في حمل الرسالة او أدائها، دون الانتقاص عن كمالها، المجبر بتأديب اللّه، ولا سيما إذا كان اللّه يمتحن الرسول بذلك الانتقاص، تنبيها له انه ليس على شي‏ء لولا رحمة من اللّه وعصمة وتسديد، وقد يصدق فيه ما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله في دعاءه «اللهم ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا» فسألته ام سلمة في ذلك فقال صلى الله عليه و آله يا ام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 14: 383 في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في تفسير الظلمات ... و في 387 روى‏مثله عن الإمام الرضا عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 618

سلمة وما يؤمنني وانما وكل اللّه يونس بن متى الى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان» «1» و قد يشبهه ظلمه هذا ظلم موسى «قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ» (28: 16) مهما كان ذلك قبل رسالته، وهما على أية حال أدنى من ظلم آدم حين عصى ربه فغوى. ثم وعلّها لابن متى كما لموسى كانت رسالة تدريبية تجريبية، حتى إذا اكتمل بعثه لرسالة اصلية، وقد تشهد له «وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» بعد قوله بعدة آيات «وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ولكي يثبت على حاق رسالته وحقها دون اي تفلّت عنها او تلفّت!. فلما أناب ذا النون الى ربه بما أناب «فَاسْتَجَبْنا لَهُ» دعاءه «وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ» عما قصّر «وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» حين يدعون كذلك الذي دعى ذا النون. و لقد تكاثرت الروايات وتضاربت حول قصة يونس، بين ما تكذبها الآيات ام لا تصدقها، وما تصدقها الآيات، فلا نصدق منها إلا ما صدقته، ولا نكذب إلا ما كذبته، ثم نتردد في عوانها لا مصدّقة ولا مكذّبة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 14: 384 عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد اللّه ابن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله في بيت ام سلمة في ليلتها فقدته من الفراش فدخلها من ذلك ما يدخل النساء فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت اليه و هو في جانب من البيت قائما رافعا يديه يبكي و هو يقول: اللهم لا تنزع مني صالح ما اعطيتني ابدا، اللهم و لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا، اللهم لا تشمت بي عدوا و لا حاسدا ابدا، اللهم لا تردني في سوء استنقذتني منه ابدا، قال: فانصرفت ام سلمة تبكي حتى انصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله لبكائها فقال لها ما يبكيك يا ام سلمة؟ فقالت: بابي أنت و امي يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و لم لا ابكي و أنت بالمكان الذي أنت به من اللّه قد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، تسأله ان لا يشمت بك عدوا ابدا و ان لا يردك في سوء استنقذك منه ابدا و ان لا ينزع منك صالح ما أعطاك ابدا و ان لا يكلك الى نفسك طرفة عين ابدا فقال يا ام سلمة ... (نقلناه بكامله عن الهامش نقلا عن الأصل). وفيه (387) عن الكافي 2: 581 عن ابن أبي يعفور قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول-/ و هو رافع يده الى السماء-/ رب لا تكلني الى نفسي طرفة عين ابدا» لا اقل من ذلك و لا اكثر، قال: فما كان بأسرع من ان تحدرّ الدموع من جوانب لحيته، ثم اقبل عليّ فقال: يا ابن أبي يعفور ان يونس بن متى و كله اللّه عز و جل الى نفسه اقل من طرفة عين فأحدث ذلك الذنب قلت: فبلغ به كفرا أصلحك اللّه؟ قال: لا و لكن الموت على تلك الحال هلاك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 619

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ 89. ان قصة ولادة يحيى العجيبة مضت في سورة آل عمران ومريم، وهنا «لا تَذَرْنِي فَرْداً» استدعاء لولد «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (19: 6). و لما كانت هذه الوراثة المطلوبة توهم أن لولاها لم تكن هناك وراثة واللّه خير الوارثين، يلحّق دعاءه بتلك الوراثة الإلهية، وانه يطلب وارثا من جنسه حتى يرثه في حمل الرسالة الإلهية، فحتى ان لم ترزقني ولدا ف «أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ» وان رزقتنيه ايضا ف «أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ». فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ 90. «و أصلحنا» زوجه عن عقرها إذا كانت عاقرا، ثم «وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏» من قبل، قد تعني فيما عنت إصلاح حاله عن كبره إذ «قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ... وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا». هذه تبين لنا ان المسارعة في الخيرات والدعاء رغبا ورهبا والخشوع للّه، ان في ذلك مادة الاجابة الخارقة للعادة في الادعية الصالحة، وكما نرى السابقين والمقربين وشطرا من اصحاب اليمن تستجاب لهم دعواتهم العجيبة. و العبادة «رغبا» هي الرغبة في اللّه ثوابا ولقاء ورضوانا، و «رهبا» هي الإشفاق من اللّه خوفة ورهبة وفرقا منه، والدرجة العليا من الرغب والرهب تناسب السابقين والمقربين الذين يعبدون اللّه حبا له، ثم سائر الناس عبيد «رهبا» ام تجار «رغبا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 457 في كتاب الخصال عن يونس بن ظبيان قال قال الصادق عليه السلام ان الناس يعبدون اللّه على ثلاثة أوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء و هي الطمع و آخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد و هي الرهبة و لكني اعبده حبا له فتلك عبادة الكرام. أقول: و لان هؤلاء الرسل هم من الكرام فعبادتهم رغبا و رهبا لا تعني ما عنته هذه الرواية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏12، ص: 620

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ 91. و الروح المنفوخ فيها هو المسيح، وفي الطلاق «وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا ...» (12) بيانا ان الموضع المنفوخ فيه الروح منها هو فرجها لا سواه، و قد فصلناه في محالها الأنسب كالطلاق وسواها. و ترى كيف جعلا هما «آيَةً لِلْعالَمِينَ» لا «آيتين» والمسيح بنفسه آية إلهية بما معه من آيات؟ القصد من «آية» هنا هي الذاتية الكونية، وهذه الولادة المنقطعة النظير آية واحدة، قائمة بكلا الولد والوالدة، لولا أحدهما لم يكن الآخر آية، إذا فهما آية نظرا الى هذه الولادة القائمة بهما كليهما، آية واحدة فذة في تاريخ الإنسان على مر الزمان، ومثل واحد من ذلك النوع يكفي تأملا للإنسانية في اجيالها على طولها وعرضها في سماءها وارضها، لمسا معرفيا وواقعيا ليد القدرة الطلقية المطلقة الإلهية التي تخلق النواميس، دون حصر واحتباس داخل النواميس! و «روحنا» هنا هي روح المسيح اضافة الى جسمه وقد جرت من مجراها في مريم نفخا دون علوق من ذكر، ولا انتقال من طبق إلى طبق، وأضيفت الى اللّه لمزية الاصطفاء بالتكريم والاختصاص بالتعظيم في بعدي خرق العادة لخلقها، والميزة على سائر الأرواح، اللهم الا التي ساماها بل فضّلت عليها كروح محمد والمحمديين من عترته الطاهرين صلوات اللّه عليهم أجمعين.